الأعمال الفكرية

بيتر مانسفيلد

ترجمة: عبد الحميد فهمي الجمال

تاريخ مصر الحديثة والشرق الأوسط



الهيئة المصرية العامة للكتاب

مكتبة الأسرة

١٩٩٦

مهرجان القراءة للجميع

تاريخ مصر الحديثة
والشرق الأوسط



مهرجان القراءة للجميع ٩٦

مكتبة الأسرة

برعاية السيدة سوزان مبارك

(الأعمال الفكرية)

تاريخ مصر الحديثة
والشرق الأوسط
بيتر مانسفيلد
ترجمة
عبد الحميد فهمي الجمال

الغلاف
الانجاز الطباعى والفنى
محمود الهندى

الجهات المشتركة:
جمعية الرعاية المتكاملة المركزية
وزارة الثقافة
وزارة الإعلام
وزارة التعليم
وزارة الحكم المحلى
المجلس الأعلى للشباب والرياضة
التنفيذ: هيئة الكتاب

المشرف العام
د. سمير سرحان

تاريخ مصر الحديثة
والشرق الأوسط

بيتر مانسفيلد

ترجمة

عبد الحميد فهمى الجمال

أ

على سبيل التقديم...

لأن المعرفة أهم من الثروة وأهم من القوة فى عالمنا المعاصر وهى الركيزة الأساسية فى بناء المجتمعات لمواكبة عصر المعلومات.. من هنا كان مهرجان القراءة للجميع دلالة على الرغبة الطموحة فى تنمية عالم القراءة لدى الأسرة المصرية اطفالاً وشباباً ورجالاً ونساءً..

وكان صدور مكتبة الأسرة ضمن مهرجان القراءة للجميع منذ عام ١٩٩٤ إضافة بالغة الأهمية لهذا المهرجان كاضخم مشروع نشر لروائع الأدب العربى من أعمال فكرية وإبداعية وأيضاً تراث الإنسانية الذى شكل مسيرة الحضارة الإنسانية مما يعتبر مواجهة حقيقية للأفكار المدمرة.

هكذا كانت مكتبة الأسرة نافذة مضيئة لشباب هذه الأمة على منافذ الثقافة الحقيقية فى الشرق والغرب وعلى ما انتجته عبقرية هذه الأمة عبر مسيرتها التنويرية والحضارية..

إن مئات العناوين وملايين النسخ من اهم منابع الفكر والثقافة والإبداع التى تطرحها مكتبة الأسرة فى الأسواق باسعار رمزية اثبتت التجربة أن الأيدى تتخاطفها وتنتظرها فى منافذ البيع ولدى باعة الصحف لهو مظهر حضارى رائع يشهد للمواطن المصرى بالجدية اللازمة والرغبة الأكيدة فى الإسهام فى ركب الحضارة الإنسانية على أن يأخذ مكانه اللائق بين الأمم فى عالم اصبحت السيادة فيه لمن يملك المعرفة وليس لمن يملك القوة.

د. سمير سرحان

تقـــديم

يسرني أن أقدم للقارىء العزيز هذا الكتاب القيم عن « مصر الحديثة والشرق الأوسـط » الذى ألفه « بيتر مانسفيلد Peter Mansfield وترجمة الأستاذ عبد الحميد فهمى الجمال .
وعنوانه الأصلى « تاريخ الشرق الأوسط »

A History of the Middle East

وقد صدر فى سلسلة « البنجوين بوك » Penguin Book فى عام ١٩٩٢ ، وبالتالى فهو كتاب حديث يتناول أحداث الشرق الأوسط من عام ١٨٠٠ حتى نهاية القرن العشرين ، بل أضاف اليه مؤلفه فصلا عن توقعاته للقرن الحادى والعشرين !

والكتاب يتكون من ثلاثة عشر فصلا ، تناول الفصل الأول فيه تاريخ الشرق الأوسط من العصـور القديمة حتى العصر الحديث : أما الفصل الثانى فهو بعنوان : « الاسلام فى موقف الدفاع ١٨٠٠ » ويتناول أوضاع العالم الاسلامى بعد نهاية القرن الثامن عشر . أما الفصل الثالث فيتناول ظهـور محمـد على فى مصر كمنافس للدولة العثمانية . كما تناول الفصل الرابع عصر الاصلاحات العثمانية ، وهو بعنوان : « النضال من أجل الاصلاح » . أما الفصل الخامس فهو عن الاحتـلال البريطـانى لمصر ، ويتناول الفترة من ١٨٨٢ الى ١٩١٤ . كما تناول الفصل السادس العلاقات بين الشعوب العربية والدولة العثمانية ، وهو بعنـوان : « الأتراك والعرب » . وتناول الفصل السابع الدور الفارسى فى الشرق الأوسـط . أما الفصل الثامن فتناول « امبراطورية الرجل المريض » حتى سقوط الدولة العثمانية فى عام ١٩١٨ . كما تناول فى الفصل التاسع الحركات

الوطنية للتخلص من الاستعمار الفرنسى الانجليزى فى مصر والبلاد العربية . أما الفصل العاشر فتناول الحرب العالمية الثانية ونتائجها فى المنطقة العربية والشرق الأوسط . وتناول الفصل الحادى عشر عصر عبد الناصر من عام ١٩٥٠ ـ ١٩٧٠ . أما الفصل الثانى عشر فتناول عصر الغليان بعد وفاة عبد الناصر ، وظهور دول البترول العربية ، والمبادرات المصرية للسلام ، والصحوة الاسلامية ، وتحدى العراق للعالم باحتلال الكويت . واختتم المؤلف كتابه بالفصل الثالث عشر عن توقعاته للقرن الحادى والعشرين .

والكتاب بذلك يعد من أهم الكتب التى صدرت عن تاريخ المنطقة العربية والشرق الأوسط فى العصر الحديث ، وأحداثها أيضا ، وقد ألفه مؤلف متخصص فى تاريخ المنطقة العربية سبق أن قدم فيها كتابه « العرب » .

أما المترجم الأستاذ محمد عبد الحميد الجمال فقد سبق أن ترجم لهذه السلسلة كتاب « تاريخ الطرق الصوفية فى مصر فى القرن التاسع عشر » للمؤلف فريد دى يونج .

وأملى أن يجد القارىء العزيز فى هذا الكتاب ما ينشد من متعة وفائدة .

والله الموفق ..

رئيس التحرير

أ . د . عبد العظيم رمضان

الفصل الأول

مقـــدمة :

(من العصور القديمة الى العصر الحديث)

ان اصطلاح « الشرق الأوســط » هو تعبير انجليزى حديث للاشارة الى أقدم منطقة للحضارة الانسانية • وقبل الحرب العالمية وأثناءها كان اصطلاح « الشرق الأدنى » والذى يشتمل على تركيا ودول البلقان ودول المشرق Levant ومصر هو التعبير الأكثر شيوعا واستخداما • أما تعبير « الشرق الأوسط « The Middle East » في حالة استخدامه فانه كان يقصد به شبه الجزيرة العربية ومنطقة الخليج وبلاد الفرس [ايران] وميزوبوتاميا [العراق] وأفغانستان• وعقب الحـرب العالمية الأولى تمكن الحلفـاء من تدمير الامبراطورية التركية العثمانية وفرض سيطرتهم على المناطق العربية التى كانت تابعة لها وبعدئذ أصبح اصطلاح « الشرق الأوسط » يشتمل تدريجيا على كلتا المنطقتين • وتدعم هذا الاتجاه أثناء الحرب العالمية الثانية عندما نظر الى المنطقة كلها على أساس أنها بمثابة وحدة استراتيجية فى الحرب الدائرة ضد دول المحور • وكانت مصر آنئذ هى مركز الشرق الأوسط للامدادات التابع للحلفاء • وبعد انتهاء الحرب

أصبحت القاهرة أيضا هى مقر الجامعة العربية التى كانت تربط مصر بالدول العربية الأسيوية المســـتقلة • أما الجمهورية التركية والتى كانت قد انضمت لحلف شمال الأطلنطى واعتبرت نفسها جزءا من أوربا فانها لم تعد تنتمى الى الشرق الأوسط الا فيما ندر •

ان اصطلاح « الشرق الأوسـط » هو تعبير أوربى مركزى • بمعنى أن الناس فى شبه القـارة الهندية يجدونه اصطلاحا مثيرا للضيق والتوتر لأن هذا الاقليم بالنسبة لهم يعتبر «الغرب الأوسط» وليس الشرق الأوسط • ولذلك فهم يتساءلون : ولماذا لايطلق على هذا الاقليم اسم : « منطقة غرب آسيا » ؟ ولكن من مساوىء هذه التسمية أنها لا تشتمل على مصر • وكذلك نجد أن تعبير « العالم العربى » والذى حظى باستخدامات شائعة فى هذه الأيام لا يشتمل على اسرائيل وايران رغم أنهمايقعان فى قلب اهتمامات المنطقة مع أنه فى نفس الوقت يشتمل على دول المغرب العربى بشمال أفريقيا التى تشارك بشكل متزايد فى شئون المنطقة العربية على الرغم من الفشل فى التوصل الى تحقيق اتحاد يضم النصفين اللذين يتألف منهما العالم العربى • ويبدو أن اصطلاح « الشرق الأوسط » سيظل مستخدما لبعض الوقت • خاصة وأنه قد أصبح عنوانا لجريدة عربية سعودية تعتبر أكثر الجرائد العربية توزيعا فى العالم •

الا أن الاستخدام الشائع لتعبير « الشرق الأوسط » لا ينبغى أن يسمح لنا بعدم رؤية العوائق والعيوب الخاصة بهذا الاصطلاح• وأهم هــذه العيوب هو أن هــذا الاصطلاح يفترض وجــود سيطرة غربية على العالم • فذلك العالم الأكاديمى الشهير المرحوم الجنرال « جون باجوت جلوب » كان يحلو له دائما أن يذكر قراءه بأنه بلغة الحضارة والثقافة كانت منطقة الشرق الأوسط متقدمة على أوربا الغربية على مدى الخمسة آلاف سنة التى شهدها تاريخ البشرية باستثناء الـ ٥٠٠ سنة الأخيرة • ولسوف يستمر علماء الآثـار

القديمة فى مناقشاتهم ومنازعـاتهم فيما اذا كانت حضارة وادى النيل والدلتا قد سبقت زمنيا حضارة ميزوبو تاميا [العراق] من حيث هى مهد الحضارة الانسانية أم العكس • الا أن ما يهمنا هنا هو أن دورهمـا المشترك هو الذى خلـق تنمية وتطـوير الجنس البشرى •

ان حامورابى وهو ملك بابيلون فى خلال القرن الثامن عشر قبل الميـلاد هو الذى صاغ مجموعة القوانين الشـاملة التى ظلت موجودة على قيد الحياة حتى يومنا هذا • كما أن أخناتون فرعون مصر فى خلال القرن الرابع عشر قبل الميلاد كان لديه أول تصور ذهنى عن وجود اله معبود واحد قادر على كل شىء • وبعد اخناتون بحوالى خمسين عاما نجد أن رمسيس الثانى « الأكبر » قد أنشأ امبراطورية شملت معظم أرجاء الشرق الأوسط •

وفى نطاق ذلك القوس من الأراضى التى تمتد من نهر الفرات حول الحافة الشمالية للصحراء السورية وعلى طول الأماكن الواقعة شرق البحر الأبيض المتوسط وحتى وادى النيل نجد أن قدرا كبيرا من تاريـخ البشرية قد صـنع • لقد كان ذلك القوس هو بمثابة الهلال الخصيب لأن رى الأراضى سواء بمياه النهر أو بمياه الأمطار شـتاء قد أدى الى تغذية الأراضى الزراعية المنتجة علاوة على توفير مياه الشرب للسكان المستقرين • والمنطقة المركزية فى هذا القوس هى ذلك البرزخ من الأراضى الذى يربط مصر بالأناضول [أواسط تركيا] • وهى منطقة يحدها من الغرب البحر الأبيض المتوسـط ومن الشرق الصحراء السورية وبذلك فهى يبلغ طولها حوالى ٥٠٠ ميل ويبلغ عرضـــها حوالى ٧٥ ميلا • وهى قد سميت فيما بعد باسم : المشرق Levant وتشمل حاليا : لبنان + اسرائيل + الأجزاء الغربية من ســوريا والأردن • وهى تلك المساحة من الأرض التى حاربت من أجل احتلالها كافة الدول العظمى فى العالم القديم •

وهى أيضا تشتمل على أقدم المدن المأهولة بالسكان بصفة مستمرة على وجه الكرة الأرضية مثل مدينة أريحا Jericho ومدينة بيبلوس Byblos [جوبايل Jubail] وهى أيضا المنطقة التى شهدت مولد الديانة اليهودية والديانة المسيحية • ومازال اسم القدس ـ وهى أشهر مدنها القديمة ـ يثير ردود فعل عاطفية أكثر من أى مدينة أخرى فى تلك المنطقة •

والتاريخ المجيد ـ ان لم يكن العنيف ـ لهذه المنطقة قد تشكل بمعرفة جغرافيته • فالمعالم الطبيعية لهذه المنطقة تتجه شمالا وجنوبا • اذ يوجد أولا السهل الساحلى ثم سلسلة الجبال المرتفعة من الجبال العلوية أو النصيرية لسوريا الى الشمال ومن جبل لبنان والجليل والسمارتيا Samaria ويهودا (١) Judaea الى بيرشيبا (٢) • والى الشرق من هذا يوجد صدع عميق يتشكل من وادى أرنوتيس Orontes وسهل البقاع Bekaa ووادى الأردن المؤدى الى البحر الميت وخليج العقبة والبحر الأحمر وبعدئذ تجيىء سلسلة جبال أخرى ـ جبل مضاد لبنان Anti-Lebanin وجبل هيرمون Hermon وجبل كيراك Kerak وجبال مواب Moab • ونظرا لأن أمطار الشتاء تهب من جهة الغرب فان الأراضى أصبحت شديدة الخصوبة فى السهل الساحلى وعلى المنحدرات الغربية للجبال • ومع الاتجاه شرقا تتحول الأراضى الزراعية الى أراضى مراعى الى أن تندمج مع سهب الحجر الجيرى للصحراء السورية الممتدة الى ميزوبوتاميا [العراق] • ومدينة دمشق تقف مثل ميناء يطل على الحافة الغربية لهذه البرية التى كانت دائما بمثابة حاجز هائل أشد مناعة من البحر الأبيض المتوسط •

---

(١) يهودا وسمراثيا هى الضفة الغربية حاليا •

(٢) بيرتيبيا هى بئر سبع ـ (المترجم) •

وهذا الطريق المعبد الممتد على طول المناطق الشرقية من البحر الأبيض المتوسط ما بين مصر وتركيا الحالية قد شهد مزيجا مذهلا وخصبا من الشعوب والثقافات • اذ كان الناس يجيئون من جميع الاتجاهات • فالسومريون البالغو التحضر غير الساميين القادمون من ميزوبوتاميا [العراق] قد فرضوا سيطرتهم على سوريا على مدى حوالى ألف عام ابتداء من عام ٣٥٠٠ قبل الميلاد • ثم لحقت بهم الهزائم على أيدى العموريين Amorites وهم بدو قادمون من أواسط شبه الجزيرة العربية الا أن السومريين علموا العموريين الغزاة كيف يكتبون وكيف يزرعون الأراضى • والبابليون فى منتصف الألف عام الثالثة قد أعقبهم المصريون الذين قاموا فى بادىء الأمر بغزو السهل الساحلى لسوريا فى نفس الوقت تقريبا • وكثيرا ما كان يتم طرد المصريين على أيدى غزاة جدد مثل الحيثيين Hittites المولعين بالحروب القادمين من آسيا الصغرى الذين تمكنوا من الاستيلاء على سوريا كلها فى عام ١٤٥٠ ق٠م الا أن المصريين كثيرا ما كانوا يعودون ويستعيدون السيطرة على سوريا •

وكان السكان المستقرون فى سوريا وفلسطين يعرفون باسم الكنعانيين ابتداء من حوالى عام ١٦٠٠ قبل الميلاد • ومن المؤكد أنهم لم يتشكلوا من عنصر بشرى واحد وانما تشكلوا من خلال خلط بين الشعوب الذين جاء بعضهم من جهة البحر والبعض الآخر جاء من جهة الصحراء • وهم لم يتمكنوا على الاطلاق من خلق دولة استعمارية قوية خاصة بهم • وانما كانوا يخضعون للموجات المتعاقبة من الغزاة ويدفعون الجزية للغزاة ويمارسون التجارة معهم • وهم كانوا عمال مهرة فى الأعمال المعدنية •

وهناك شعب واحد جاء ليعيش عيشة استقرار فى ساحل المشرق Levant فى حوالى عام ١٤٠٠ قبل الميلاد الا وهم الفينيقيون الملاحون الذين تمكنوا من انشاء مستعمرات تجارية فى معظم مواقع

شاطىء البحر الأبيض المتوسط بل وفى سواحل أوربا وأفريقيا المطلة على المحيط الأطلنطى • وكانت قرطاج وصور وصيدا Sidon هى أهم تلك المستعمرات • وكلمة فينيقى Phoenician مشتقة من كلمة يونانية بمعنى الأرجوانى • وكانت الصبغة الأرجوانية الصورية مشهورة فى جميع أرجاء العالم القديم • والكثير من اللبنانيين فى عصرنا الحديث يحبون أن يشيروا الى الفينيقيين على أنهم آجدادهم الأولون القدماء •

وجاءت موجه أخرى من الغزاة من أواسط الجزيرة العربية : ألا وهم الآراميون Arameans • اذ تمكنوا من فرض سيطرتهم على دمشق بحلول عام ١٢٠٠ قبل الميلاد • وهم قد حصلوا على ثقافتهم من سكان سوريا الذين كانوا أكثر استقرارا • الا أن لغتهم السامية ـ وهى اللغة الآرامية ـ هى التى أصبحت اللغة المشتركة للاقليم بل وكانت اللغة الآرامية هى اللغة التى تحدث بها السيد المسيح عليه السلام بعد مرور حوالى ألف عام •

وبعد الفينيقيين بحوالى قرن من الزمان نجد أن العبرانيين تمكنوا من الهرب من مصر وقاموا بغزو أرض كنعان من جهة الغرب • بل وتمكنوا من الاستيلاء على أريحا Jericho والسيطرة تدريجيا على السكان الذين يعيشون عيشة استقرار فى التلال • ولكن كان عليهم أن يتنافسوا مع موجة جديدة من الغزاة القادمين من جهة البحر الأبيض المتوسط والذين عرفوا باسم الفلسطينيين والذين استقروا فى السهل الساحلى وأعطوا اسمهم للاقليم : فلسطين • وظل الصراع ينحسر ويتعاظم الى أن تمكن سيدنا داود ملك اسرائيل من توحيد القبائل العبرانية والاستيلاء على مدينة القدس وجعلها عاصمة له • وهنا شيد ابنه سليمان المعبد اليهودى الأول • واستمرت مملكة اسرائيل موجودة على قيد الحياة على مدى قرنين من الزمان تقريبا • ثم انقسمت بعد ذلك الى مملكتين ، مملكة اسرائيل ومملكة يهودا Judah •

وفي حوالى عـام ۷۲۰ قبل الميلاد نجد أن القوى الجديدة الهائلة القادمة من شمال العراق : ألا وهم الأشوريون قد اجتاحت الدولتين اليهوديتين الصغيرتين مما أدى الى اختفائهما تماما • ومنـذ ذلك الوقت فصاعدا لم تظهر أى دولة يهودية مستقلة الا فى خلال القرن العشرين الميلادى رغم أن اليهود كانت لهم درجة محدودة من الحكم الذاتى فى المملكة المكابية [١٦٦ - ١٦٣ قبل الميلاد] وفى المملكة التى تلتها والتى تسمى بيت هيرود House of Herod • وعندما قام اليهود بثورة ضد الامبراطورية الرومانية فى عام ٧٠ ميلادية سارع الامبراطور تيتوس Titus الى تدمير القدس • كما أن تمردهم الأخير قد أخمد على أيدى هارديان Hardian فى عام ١٣٥ ميلادية وعندئذ تبعثر اليهود وتشتتوا • ولم يتبق منهم فى منطقة الجليل Galilee سوى بضعة آلاف قليلة •

وكان اليهود يعزلون أنفسهم عن الشعوب الأخرى التى قامت بغزو سوريا وفلسطين والعيش فيهما عيشة استقرار • فهم بوجه عام لم يسمحوا بأن تتم حالات زواج بينهم وبين هذه الشعوب • ولم يسمحوا لأنفسهم بالاندماج مع الشعوب الأخرى الموجودة فى هـذا الاقليم • هذا بالاضافة الى أنهم كانت لهم العبقرية الدينية الخاصة بهم والتى نجمت عنها أولى العقائد التوحيدية الدينية الكبرى للأديان السماوية الثلاثة • فالوصايا العشر ومجموعة القوانين اليهودية التى اشتقت منها تعتبر الى حد كبير أعلى نظام أخلاقى يتم التوصل اليه بمعرفة الجنس البشرى فى فترة ما قبـل مجىء السيد المسيح • ولكن نظرا لأن اليهود كانوا يعتبرون أنفسهم شعبا متميزا أو شعب الله المختار فان اليهودية لم تصبح دينا يدعو النـاس الى اعتناق الفكر اليهودى • اذ لم يكن هناك داع لأن تتحول أعداد ضخمة من جماهير الجنس البشرى الى اعتناق الديانة اليهودية مثلما كان عليه الحال بالنسبة للديانتين اللاحقتين : المسيحية ثم الاسلام •

ومنذ أواخر القرن التاسع قبل الميلاد بدأ طابع الغزوات التى

تتم على سوريا / فلسطين فى التغير • اذ لم يعد الأمر بمثابة قيام اناس وشعوب بالهجرة سعيا وراء الوصول الى مكان أفضل لكى يستقروا فيه ـ « أرض اللبن والعسل » ـ وانما أصبح الأمر بمثابة قيام دول كبرى بالغزو بهدف فرض سيطرتها على السكان والأهالى الموجودين • فالأشوريون الذين كانت لهم عاصمة فى نابنفيه (١) Nineveh بالقرب من الموصل بالعراق الحالية قد ظهروا لأول مرة فى سوريا فى حوالى ١١٠٠ قبل الميلاد • الا أن ملكهم شالامانسير الثالث Shalamaneser [٨٥٩ ـ ٨٢٤ ق•م] هو الذى أسس الامبراطورية الأشورية التى دامت لفترة تزيد على قرنين من الزمان ثم قامت فى نهاية الأمر بغزو مصر • اذ كانت الامبراطورية العظمى للفراعنة قد وصلت الى حالة من الاضمحلال منذ عهد رمسيس الثالث بالأسرة العشرين [القرن الثانى عشر قبل الميلاد] الذى كان آخر من أبدى عبقرية عسكرية فى ميادين المعارك • حيث تعرضت أشغال الرى للاهمال وعدم الاستخدام بالاضافة الى تدهور واضمحلال التجارة • وكانت مصر آنئذ يحكمها أمراء محليون مستبدون موجودون فى المدن الواقعة فى دلتا النيل • وهى المدن التى كانت تتعرض باستمرار لموجات من الهجمات التى يشنها الأشوريون ثم هزمت فى نهاية الأمر على أيدى الأشوريين •

والأشوريون بدورهم قد هزموا وأطيح بهم على أيدى الأسرة الكلدانية الحاكمة فى بابيلون Babylon، ففى عام ٥٩٧ قبل الميلاد استولى ملكهم نبوشادنزار Nebuchadnezz على مدينة القدس• الا أن العمر الزمنى للامبراطورية الكلدانية كان قصيرا • فالى جهة الشرق وفى المكان الذى تشغله ايران الحالية كانت قد تكونت دولة جديدة ديناميكية من خلال اتحاد كل من الميديين Medes والفرس • وفرض ملكهم سيروس الثانى الأكبر Cyrus II سلطانه فى الفترة من عام ٥٥٩ حتى ٥٣٠ قبل الميلاد وأنشأ امبراطورية شملت كل أماكن آسيا الغربية الواقعة فى منطقة الشرق الأوسط الحالية كما

---

(١) وتسمى أيضا مدينة نينوى ـ (المترجم) •

شملت المساحة من نهر الأندوس Indus الى بحر ايجه وحدود مصر .

وفى عام ٥٢٥ قبل الميلاد قام خلفاء سيروس بغزو مصر بسهولة . وكان ذلك بداية لخضوع المصريين لحكم أجنبى على مدى فترة تزيد على ٢٠٠٠ عام .

وكان الفرس آنئذ أسيادا للعالم المتحضر القديم باستثناء الصين . وفى الاقليم الغربى لسوريا وفلسطين كانت اللغة الآرامية هى اللغة الرسمية . وكانت الشئون الادارية على قدر كبير من الكفاءة كما كانت الطرق مشيدة وكان يتم جمع الضرائب بطريقة منتظمة . وقد تمتعت تلك المنطقة بالسلام والرخاء على مدى ٢٠٠ عام .

وكما رأينا فان السكان المحليين كانوا بمثابة بوتقة انصهار للأجناس البشرية : وهى تضم أجناسا غير سامية ممن وفدوا أساسا من الغرب والشمال كما تضم أجناسا سامية ممن جاءوا أساسا من الشرق أى من شبه الجزيرة العربية . وكلمة « سامى » مشتقة من كلمة سام Shem وهو أكبر أبناء سيدنا نوح . ومن المفترض أن كافة الشعوب السامية قد انحدرت عن سام بن نوح . الا أن كلمة سام ليست كلمة عرقية / عنصرية وانما هى كلمة لغوية ابتكرت فى أواخر القرن الثامن عشر بمعرفة المؤرخ الألمانى شلوزار Schlözer لكى يشير بها الى اللغات التى كان يتم التحدث بها فى ميزوبوتاميا وسوريا وشبه الجزيرة العربية والتى انتشرت ابتداء من الألف عام الأولى قبل الميلاد فى شمال أفريقيا . وكافة اللغات السامية بها تشابه مذهل من حيث القواعد والتراكيب والمفردات اللغوية . كما يوجد تشابه بين المؤسسات الاجتماعية والمعتقدات الدينية بل والخصائص السيكولوجية للشعوب التى تتكلم باللغات السامية . ومن المؤكد أنه كانت توجد هناك ذات يوم لغة أصلية سامية واحدة يتحدث بها سكان شبه الجزيرة العربية بلهجات مختلفة .

وكانت الشعوب السامية تهاجر بصفة مستمرة من شبه الجزيرة العربية الى الشمال بحيث تصل الهجرة الى ذروتها كل حوالى ألف سنة : وفى حوالى عام ٨٥٠ قبل الميلاد أشارت النقوش الآشورية لأول مرة الى العرب وقالت عنهم أنهم شعب بدوى يسكنون الصحراء الشمالية لشبه الجزيرة العربية ويدفعون الجزية لأسيادهم الأشوريين على هيئة جمال • وأن الجمال قد استؤنست لأول مرة فى شبه الجزيرة العربية منذ ٥٠٠ عام •

والأصول العرقية للعرب تعتبر غامضة للغاية • والعرب فى هذه الأيام من العصر الحديث قد ورثوا تقليدا يفيد بأنهم قد انحدروا من سلالتين عرقيتين : القحطانيين والعدنانيين • وأن القحطانيين قد نشأوا فى الهضاب التى تتغذى على مياه الأمطار والتى تقع فى الأجزاء الجنوبية الغربية لشبه الجزيرة العربية وأنهم ينحدرون عن الأب الأكبر المؤسس الذى يسمى قحطان • والعدنانيون قد نشأوا فى شمال وأواسط شبه الجزيرة العربية وقد انحدروا عن الأب الأكبر المؤسس الذى يسمى عدنان • وكل قبيلة عربية معاصرة تدعى انتماءها اما لعدنان أو قحطان • وسكان الجنوب أو اليمنيون والذين يشكلون الآن نصف تعداد شبه الجزيرة العربية يسمون « العرب الحقيقيون » أما أبناء عدنان فيسمون « المستعربون » •

وعلى الرغم من أنه لا توجد حاليا فوارق عرقية عنصرية بين أولئك الذين يسمون أنفسهم قحطانيين وأولئك الذين يسمون أنفسهم عدنانيين فانه يوجد نموذجان عنصريان يمكن التعرف عليهما بسهولة بين سكان شبه الجزيرة العربية بوجه عام : فسكان الشمال يتميزون بطول القامة وملامح الوجه الجميلة الشبيهة بملامح الصقر بينما سكان الجنوب أقصر قامة وأكثر تكورا وامتلاء وهم ربما فى الأصل كانوا ينتمون للأثيوبيين • ولذلك فانه من السخرية أن ينظر الى الجنوبيين على أنهم بمثابة « العرب الحقيقيين » لأن الشماليين هم الذين لهم الصورة الشائعة عن الشخص العربى بالاضافة الى أنه

أواسط وشمال الجزيرة العربية هي التي تطورت فيها اللغة العربية الفصحى التي تعتبر هي أداة الحضارة العربية / الاسلامية .

وقد مرت قرون عديدة قبل أن تصبح منطقتنا الشرق الأوسط وشمال أفريقيا مكتسبتين للطابع العربي [باستثناء الفرس وتركيا] . ففي عام ٣٣٦ قبل الميلاد نجد أن فيليب ملك مقدونيا قام بتوحيد الدول / المدن الاغريقية City-States التي تتقابل وتتصارع باستمرار . وكان ابنه الاسكندر الأكبر هو الذي شن سلسلة من الغزوات المذهلة التي أدت الى الاطاحة بالامبراطورية الفارسية المهيبة الآخذة في التدهور . وكان الفكر اليوناني والثقافة اليونانية قد بدأ في التغلغل بالفعل في سوريا / فلسطين ومصر قبل مجيء الاسكندر الأكبر . وهكذا بدأت ألف سنة من الحضارة اليونانية / الرومانية على الشواطىء الشرقية والجنوبية للبحر الأبيض المتوسط .

وكان الخليج الفارسي / العربي واقعا في داخل نطاق امبراطورية الاسكندر . وهو عندما وصل الى الحد الأقصى للأراضي التي فتحها في جهة الشرق في بلاد الهند في عام ٣٢٦ قبل الميلاد فانه شرع في العودة الى بلاد الفرس بطريق البر . الا أنه كان قد وضع في اعتباره انشاء خط ملاحي بحري عظيم يربط بابيلون Babylon عاصمة امبراطوريته الشرقية بالهند . لذلك أصدر أوامره للقائد البحري التابع له والذي يسمى نيرخوس Nearchos بالعودة الى نهر الفرات عن طريق الخليج على رأس أسطوله البحري الضخم .
وقدم نيرخوس تقريرا أشار فيه الى تواجد جزيرتين لهما موقع استراتيجي هام عند رأس الخليج وأوضح أن الجزيرة الأكبر مساحة كان يوجد بها ماعز وظباء برية تعتبر مقدسة لدى الالهة أرتميس (*)

(*) أرتميس : الهة القمر والقنص عند الاغريق - (المترجم) .

فأصدر الاسكندر أوامره بأن تسمى تلك الجزيرة باسم : ايكاروس Ikaros وذلك على اسم الجزيرة المتواجدة فى بحر ايجه والتى كانت تشبهها • وتم تشييد قلعة عسكرية أمامية استمرت متواجدة على مدى ۲۰۰ عاما • وجزيرة ايكاروس تسمى حاليا باسم الفيلكه Failaka وهى جزء من الكويت الحالية •

وحلم الاسكندر بشأن انشاء امبراطورية هيلينية موحدة لم يظل متواجد عقب موته المبكر • اذ ظهر النزاع والصراع بين قادته وجنرالاته بشأن فتوحاته والأراضى التى غزاها وفتحها • الا أن الحضارة الهيلينية ظلت سائدة فى الامبراطوريات الوراثية التى كانت تمتد من الفرس الى مصر كما أن المدن التى شيدها الاسكندر استمرت فى الازدهار والتقدم • كما أن مصر قد ازدهرت تحت الحكم الرشيد للبطالمة الأولين • بل وأصبحت الاسكندرية التى تضم مكتبتها الشهيرة ومتحفها مدينة رائعة فاخرة ومركزا ثقافيا للعالم كله • أما باقى سوريا وآسيا الصغرى [تركيا الحالية] فقد سقطتا فى أيدى سليوكوس Seleucus وهو الحاكم الفارسى للامبراطورية الشرقية السابقة للاسكندر • وهو قد أسس مدينة انتيوخ Antioch، التى سماها باسم والده وأصبحت هذه المدينة هى عاصمة سوريا على مدى التسعة قرون التالية •

وشرعت الهيلينية فى بادىء الأمر فى التراجع فى بلاد الفرس• الا أن التراجع كان يتم بخطوات بطيئة • وعقب مرور ۲۰۰ عاما على وفاة الاسكندر تم الاطاحة بالسليوسيديين Seleucids ببلاد الفرس على أيدى البرثيين Parthians وهم قبيلة بدوية تنتمى لمنطقة بحر قزوين Caspian Sea واستوعب البرثيون الممارسات الحكومية اليونانية واستمروا فى الاستفادة من اللغة اليونانية بالاضافة الى اللغة الخاصة بهم • واستمرت بعض المدن اليونانية التى أنشأها

السليوسيد في الازدهار . ولم يبدأ التأثير الهليني في الانحسار والضعف الا في خلال القرن الأول الميلادى .

وفي سوريا / فلسطين استمرت الهيلينية لفترة أطول . الا أن درجة تأثيرها قد اختلفت الى حد كبير من موقع لآخر . اذ كان تأثيرها أكبر في الشمال والغرب على شاطىء البحر الأبيض المتوسط حيث كانت مدينة لوديسيا Laodicea [اللاذقية حاليا] ومدينة بريتوس Berytus [بيروت الحالية] لهما طابع مماثل تماما للمدن الاغريقية . أما في شرق جبل لبنان وفي اتجاه الصحراء السورية نجد أن التأثير الهيليني قد أصبح مضمحلا ومنحسرا . وحقيقة الأمر أن المنطقة كلها قد شهدت مزيجا من الهيلينية والثقافة السامية الآرامية بنسب متفاوتة . وفي كل من الامبراطورية البطلمية والامبراطورية السليوسيدية نجد أن كبار الموظفين المدنيين وكبار رجال الأعمال والتجارة والأكاديميين والمثقفين كانوا من الاغريقيين . وقامت هاتان الامبراطوريتان بتشجيع الهجرة من بلاد اليونان . الا أن اليونانيين ظلوا يشكلون أقلية سكانية . وفي جيوشهما كان اليونانيون بمثابة الكتيبة التي تحمل الرماح أما الرماة بالسهام ومستخدمي المقلاع فكانوا من العرب والأتراك والفرس .

وعقب مرور قرن على وفاة الاسكندر الأكبر بدأت تظهر قوة الجمهورية الرومانية . فبعد الهزيمة النهائية التي لحقت بقرطاج Carthage في عام ٢١١ قبل الميلاد تمكنت روما من السيطرة على الأجزاء الغربية من البحر الأبيض المتوسط ثم حولت انتباهها الى الشرق وقامت بغزو اليونان . ثم أعقب ذلك ما يزيد على ١٥٠ عاما من الفوضى والحروب في منطقة شرق البحر الأبيض المتوسط . اذ دخلت امبراطورية سليوسيد والامبراطورية البطلمية في تناحر وصراع مع بعضها البعض تحت ظلال روما الآخذة في التصاعد والتهديد فأصيبتا بتدهور شديد . وكالعادة دائما انتهزت القوى المحلية في سوريا الفرصة لكي تؤكد ذاتها وشخصيتها .

وفى فلسطين تمتعت الطائفة اليهودية القليلة العدد ببعض الحرية من حيث تسيير شئونها الخاصة بها فى منطقة التلال اليهودية المحيطة بالقدس • وكان الشعب اليهودي منقسما ما بين طبقة عليا متعلمة متخذة الطابع الهيلينى وهى الطبقة التى تقبلت الحكم السليوسيدى وطبقة أخرى من الفلاحين الذين كانوا يتمسكون بعقيدتهم اليهودية • وعندما قام ملك السليوسيد أنتيوخوس ابيفانيس فى عام ١٦٨ قبل الميلاد بانشاء محراب لزيوس كبير آلهة اليونان [الكراهية للأسى والاكتئاب] فى المعبد المقدس بالقدس نجد أن جوداس مكابايوس وهو ابن حاخام قد قاد اليهود المتقدين حماسا فى ثورة عارمة • وعلى الرغم من أن جوداس قد قتل فإن أسرته قد أسست أسرة حاكمة من الكهنة/الأمراء ــ أو الهسمونيين Hasmoneans الذين مدوا نفوذهم تدريجيا ليشمل معظم فلسطين لدى تفكك امبراطورية السليوسيد • وجاء بعدهم بيت هيرود House of Herod الذى يمت لهم بصلة القرابة

والى مسافة أبعد من جهة الشرق تم تشييد دولة أخرى مستقلة بمعرفة النبطيين Nabataeans واتخذوا من بترا Petra [جنوب الأردن] وكذلك مدائن صالح Madain Salah [العربية السعودية] مقرين رئيسيين لهم • وفى القرن الثانى قبل الميلاد امتدت مملكتهم التجارية القوية فى أعماق شبه الجزيرة العربية وازدهرت من خلال أحكام السيطرة على القوافل التجارية التى كانت تحضر التوابل الصينية والهندية والعطور من جنوب شبه الجزيرة العربية الى سوريا ومصر • وكانت ثقافتهم هيلينية من الناحية الظاهرية وكانوا يتكلمون باللغة العربية الا أنهم كانوا يكتبون باللغة الآرامية • وأهالى الأردن الحاليون ينظرون اليهم على أنهم أجدادهم الأولون •

وقد تأخر فرض النفوذ الرومانى على الأماكن الشرقية من البحر الأبيض المتوسط بسبب الحروب الأهلية وبسبب شيوع الفوضى فى

روما • ولكن فى عام ٧١ قبل الميلاد نجد أن حكومة الجنرالات الثلاثة: بومبى Pompey وقيصر Caesar وكراسوس Crassus قد استولت على السلطة • وبدأ بومبى فى انشاء الحكم الرومانى فى آسيا الصغرى والأماكن الواقعة فى شرق البحر الأبيض المتوسط • كما قام بغزو سوريا وتمكن من الاستيلاء على القدس • الا أن حكم روما لم يكن قد أصبح راسخا • اذ تمكن البارثيون (*) Parthians من الحاق هزيمة منكرة بالجيوش الرومانية بل واحتلوا سوريا لبعض الوقت • وبعدئذ تم اغتيال بومبى وقيصر • وجاء خلفا لهما الامبراطور أغسطس الذى حكم فى الفترة من ٢٩ الى ١٤ قبل الميلاد الذى قام بضم اقليم الشرق الأوسط كله ابتداء من مصر حتى آسيا الصغرى الى الامبراطورية الرومانية • وظلت بلاد الفرس والعراق الحالية تحت الحكم البارثى • وتجاهل أغسطس مطالب بعض جنرالاته والتى تتعلق بالانتقام من الهزيمة التى لحقت بالجيوش الرومانية وفضل العمل على انتشار السلام من أجل أن يتمكن من تنظيم المقاطعات الشرقية الجديدة التى أصبحت تابعة لروما •

واستقرت منطقة شرق البحر الأبيض المتوسط ـ آسيا الصغرى وسوريا ومصر ـ لعدة قرون تحت ظلال السلام الرومانى Pax Romana والذى كان يعنى بوجه عام توفر الكفاءة والنظام والعدالة بما يتوافق مع القانون الرومانى • وتحسنت الطرق وأنظمة الضرائب الى درجة عظيمة • وأصبحت مصر موردا هاما للطعام للعاصمة الامبراطورية بل وصارت قاعدة عسكرية للجيوش الرومانية • وقام الرومان بتطهير البحر الأحمر من القراصنة كما أحيوا التجارة عبر البحر الأحمر الى الهند • وأصبحت مصر مستعمرة رومانية بكل ما يحمله هذا التعبير من معانى حيث كانت تحكمها حكومة عسكرية جديدية • كما كان المصريون يدفعون ضرائب باهظة فادحة • وتعاونت

(*) بارثيا : مملكة قديمة تقع جنوب شرق بحر قزوين ـ (المترجم) •

الطبقة الحاكمة اليونانية مع القوى الاستعمارية واحتفظت لنفسها بالامتيازات والوضع المتميز .

ونظرا لأن أهالى مصر كانوا متركزين فى وادى النيل والدلتا فانهم استسلموا لحكومة مركزية فاشستية . أما الحكم الرومانى فى سوريا فكان أكثر تهاونا واسترخاء . ففى النصف الشرقى من سوريا ـ أو النصف السامى ـ سمح الرومان للحكام المحليين بممارسة نوع من الحكم الذاتى بشرط ألا يزيدوا من طموحاتهم على نحو يهدد السكان المستقرين المتواجدين فى الغرب . وكان ذلك حكما غير مباشر من النوع الذى استخدمه البريطانيون فى امبراطوريتهم فى آسيا وأفريقيا بعد ذلك بـ ١٨ قرنا من الزمان . ومن ثم استمر النبطيون Nabataeans فى السيطرة على شرق الأردن ودمشق الى أن قام الامبراطور تراجان Trajan فى عام ١٠٦ ميلادية ـ بعد أن تضايق من روح الاستقلال لديهم ـ باخضاعهم ووضعهم تحت سيطرة روما . وبعد مرور قرن من الزمان نجد أن بالميرا Palmyra الواقعة فى أواسط الصحراء السورية قد قلدت النبطيين من حيث الاستيلاء على السلطة وتحقيق الازدهار من خلال احكام السيطرة على طرق قوافل التجارة المتجهة الى الشرق الى أن قامت ملكتهم زنوبيا Zenobia بتحدى السلطات الرومانية ولكنها هزمت وتم قمع الحكم الذاتى فى المنطقة .

وكانت المنطقة الغربية من سوريا القريبة من البحر الأبيض المتوسط بما فيها من مدن اغريقية عظيمة مزدهرة مؤسسة تحت حكم السليوسيديين أكثر اندماجا فى الامبراطورية الرومانية بشكل مباشر . اذ كان السكان الحضريون المتعلمون وهم توليفة من أجناس البحر الأبيض المتوسط والأجناس السامية جزءا من علية القوم المثقفين المهنيين بالامبراطورية الرومانية . اذ اختلط هؤلاء الناس بسهولة مع الموظفين الرومان بل وحصل الكثيرون منهم على صفة المواطنة الرومانية Citizenship بل وتمكن العديد

من المحامين والأطباء والمؤرخين والاداريين السوريين ــ ناهيك عن الشعراء والممثلين السوريين ــ من تحقيق الشهرة والتفوق • كذلك لعب المصريون المتخذون الطابع الهيليني دورا مماثلا • وبذلك أصبحت أنطاكية Antioch والاسكندرية أكبر وأفخم مدينتين فى الامبراطورية الرومانية بعد روما • وفى حين كانت اللغة اللاتينية هى اللغة الرسمية للحكومة نجد أن اليونانية كانت هى اللغة المشتركة • بل وكان العديد من الأباطرة الرومان الذين ظهروا فيما بعد اما سوريين تماما أو شبه متوزيين • الا أن اثنين منهم ــ وهما : كاركالله Caracalla (*) والاجابالوس Elagabalus (**) واللذان كانا من مدينة حمص Homs لم يكن لهما شعبية بين جماهير الناس • ومع ذلك نجد أن كاركالله هو الذى أصدر القرار الخاص بمنح صفة المواطنة الرومانية لكافة أرجاء الامبراطورية فى عام ٢١٢ ميلادية • كما أن فليب Philip « العربى (كان حاكما قديرا وفعل الكثير من أجل تحسين سمعة سوريا أثناء فترة حكمه القصيرة •

وعلى الرغم من المزج العنصرى السهل بين المدن الا أنه ظلت هناك فجوة ــ وهى فجوة لغوية بصفة خاصة ــ بين المدن والفلاحين ورجال القبائل بالأماكن الريفية ؛ ففى داخل سوريا كان الناس يتكلمون باللغة الآرامية بينما البدو وشبه البدو المتواجدون على مشارف شبه الجزيرة العربية كانوا يتحدثون باللغة العربية • وفى داخل مصر كان غالبية الأهالى يتحدثون باللغة المصرية القديمة • ولكن فى داخل فلسطين كان تصادم الثقافات عنيفا للغاية الا أنه تصادم مثمر الى حد بعيد •

(★) ماركوس أوريليوس أنطونيوس الذى كان امبراطورا رومانيا فى الفترة من عام ٢١١ الى ٢١٧ ميلادية • وهو قد ولد فى عام ١٨٨ ومات فى عام ٢١٧ ميلادية ــ (المترجم)

(★★) ويسمى أيضا هليوجبالوس ــ (المترجم)

فى عام ٤٠ قبل الميلاد قام الرومان بتعيين هيرود Herod الذى هو من مملكة أدوميا Idumaea القديمة [ايدوم Edom] بجنوب فلسطين ملكا على يهودا Judaea مع جعل القدس عاصمة له • وهو خلال فترة حكمه الطويلة تمكن من فرض نفوذه الفعال على معظم أراضى فلسطين مما جعله يحصل على لقب « هيرود العظيم أو الأكبر » • وكان هيرود عربيا من حيث سلالته العرقية ولكنه كان يهوديا من حيث الممارسة العملية • وكان يرى فى نفسه أنه حامى حمى اليهود • ولقد قام باعادة بناء معبد القدس ولكنه من حيث هو موالى للفكر الاغريقى ومن حيث هو خاضع للحماية الرومانية فانه كان مكروها وبغيضا من وجهة نظر اليهود الأتقياء المتدينين • وانتهت فترة حكمه فى جو تسوده المرارة والنزاعات الحادة التى تتعلق بمن الذى سيخلفه فى حكم البلاد مما جعله يصدر أوامره بتنفيذ تلك المذبحة الشهيرة للأطفال الأبرياء المتواجدين فى بيت لحم Bethlehem •ومن ثم فقد أصبح أيضا بمثابة الغول البشع الخاص بالتراث المسيحى الذى يشير الى أنه فى مملكة هيرود الصغيرة تم مولد المؤسس اليهودى للديانة المسيحية وتم تنفيذ حكم الاعدام فيه بعد أن عاش فترة قصيرة •• وهو مؤسس الديانة التى نجحت فى تحويل كافة أرجاء العالم اليونانى / الرومانى الى المسيحية •

لقد كان السيد المسيح وحواريوه من اليهود• والديانة المسيحية هى أساسا بمثابة حركة نشأت فى داخل نطاق الديانة اليهودية • الا أن الرسالة المسيحية أحرزت تقدما ضئيلا بين أفراد الشعب اليهودية • ولذلك فانه سرعان ما تم توجيه المسيحية نحو العالم الوثنى بدلا من بثها بين اليهود • وكانت مهمة المدافعين الأوائل عن المسيحية أن يشيروا الى الانجيل المسيحى على أساس أنه بمثابة تصحيح وتحقيق للفلسفة اليونانية والرومانية • وقد تمكنوا من تحقيق انجازات فكرية وثقافية كبيرة فى خلال القرون الثلاثة الأولى

التى أعقبت المسيح فالرسالة المبسطة للموعظة التى تمت فوق الجبل قد أثارت اعجاب جماهير الناس الفقراء المحرومين المتواجدين فى العالم اليونانى / الرومانى • وعلى الرغم من الاضطهاد الرسمى الذى انصب على المسيحية فاننا نجد أنها قد نجحت وازدهرت وانتشرت ــ حيث كان استشهاد المسيح بمثابة نموذج يحتذى به فى مجال الجلد والثبات والمعاناة والتحمل • ومن المعتقد أن الديانة المسيحية قد وصلت الى مصر على أيدى القديس مارك St. Mark ذلك قبل نهاية القرن الأول الميلادى ثم انتشرت بسرعة بين جماهير الشعب المصرى رغم أن اليونانيين والطبقة المتخذة الطابع الهلينستى قد ظلوا وثنيين بوجه عام •

واضطهاد المسيحية فى نطاق الامبراطورية قد حدث على هيئة موجات اضطهادية تتخللها فترات من التسامح • الا أن المسيحية تمكنت من كسب أعداد من المهتدين على مدى ثلاثة قرون • وعلى الرغم من أن المسيحيين كانوا لا يزالون يشكلون أقلية ــ حيث كانت الأغلبية تتمسك بالأديان القديمة وخاصة الدين الذى يؤمن به الامبراطور ــ الا أنهم كانوا يشكلون نسبة كبيرة بين كافة الطبقات بما فى ذلك أعضاء الأسرة الامبريالية والأرستقراطية الرومانية وذلك بحلول الوقت الذى شهد آخر موجة اضطهاد قام بها ديوكليتيان Diocletian فى بداية القرن الرابع الميلادى • وكانوا منظمين للغاية وديناميكيين • وفى خلال سنوات قليلة عقب تنازل ديو كليتيان عن العرش نجد أن خليفته الذى يسمى قنسطنطين الأكبر قد أعلن أن الديانة المسيحية هى الديانة الرسمية للامبراطورية الرومانية • وسواء أكان اعتناق قنسطنطين للديانة المسيحية حقيقيا أم لا وسواء أكان اعترافه بالمسيحية ناجما عن نجاح المسيحية فى شق طريقها أم لا فان كل ذلك يعتبر من الأمور الثانوية القليلة الأهمية •

وقد تدعم انتشار المسيحية من خلال تدهور الامبراطورية • ففى خلال القرن الثالث الميلادى نجد أن الامبراطورية تفجرت بها

انقسامات داخلية . بل انها في حقيقة الأمر أصبح يحكمها أباطرة متنافسون . ومما زاد من حالة التدهور أن القوطيين Goths والفرس بدأوا يهجمون من الخارج على حدودها . وفي بعض الأوقات بدت الامبراطورية الرومانية وكأنها على وشك أن تنهار تماما وتتفكك الا أنه كان يتم إنقاذها مرة أخرى على أيدي امبراطور قدير أو قائد حربي عظيم . وفي الشرق نجد أن الامبراطورية البارثية Parthian قد تلاشت وحل محلها في عام ٢٢٤ ميلادية السسانيد Sassanids القادمون من غرب بلاد الفرس والذين ادعوا أنهم ينحدرون من سلالة الأسرة الحاكمة العظيمة الخاصة بسيروس Cyrus وداريوس Darius ولقد ظلت امبراطورية السسانية متواجدة على مدى أربعة قرون وظلت خلالها في حرب شبه دائمة مع القوى العظمى المنافسة لها في الغرب . ولقد لقب شابار الأول Shapar I وهو الحاكم السسانيدي الثاني بلقب « ملك الملوك على ايران وغير ايران » مؤكدا بذلك ادعاءه بالسيطرة على العالم كله .

وفي عام ٣٣٠ ميلادية وعلى الموقع القديم لبيزانتيوم Byzantium المطلة على البوسفور حيث تلتقي أوربا مع آسيا قام قنسطنطين بتشييد المدينة التي حملت اسمه . وأصبحت القسطنطينية هي عاصمة النصف الشرقي من الامبراطورية الرومانية ـ التي كانت لا تزال موحدة ـ ونظرا لتحول مركز النفوذ والثروة نحو الشرق فقد تفوقت القسطنطينية على روما من حيث الأبهة والفخامة . وبعد مرور نصف قرن ولدى وفاة الامبراطور ثيودوسياس Theodosius قسمت الامبراطورية على ابنيه . وبذلك تم مولد الامبراطورية البيزنطية المسيحية الشرقية / الهيلينية . وبينما سقط الجزء الغربي من الامبراطورية تحت وطأة الغزوات البربرية نجد أن مدينة بيزنطة (*)

(*) بيزنطة : مدينة يونانية قديمة على البوسفور شيد الامبراطور قسطنطين في موقعها عام ٣٣٠ ميلادية مدينة القسطنطينية . وقد عرفت في العهد العثماني بالآستانة وتعرف اليوم باسم : استانبول ـ (المترجم) .

استمرت فى ممارسة الحكم والسيطرة على البلقان وآسيا الصغرى وسوريا وفلسطين ومصر .

وتمكنت الامبراطورية الرومانية الشرقية من فرض سيطرتها على منطقة الشرق الأوسط على مدى ثلاثة قرون . ولم تكن التهديدات الكبرى التى تتعرض لها تجيىء اليها من جانب القوطيين والجرمان بأوربا وانما كانت تجيىء اليها من جهة الشرق من جانب الفرس الساسانيين العدوانيين التوسعيين . الا أن البيزنطيين قد تمكنوا على مدى ٢٠٠ سنة على الأقل من تحقيق السلام مع الفرس من خلال الجهود الدبلوماسية . ولم يتزايد الخطر الفارسى الا بعد أن قام جوستانيان Justinian الأكبر [٥٢٧ - ٥٦٥] بتسكريس جهوده من أجل غزو المقاطعات الرومانية الغربية بهدف توحيد الامبراطورية مرة أخرى وهى جهود لم تحقق سوى نجاح جزئى ولفترة محدودة . وفى الفترة من عام ٥٣٤ الى عام ٦٢٨ كان الفرس يقومون بمحاولات متكررة لغزو واحتلال سوريا وفى كل مرة كان يتم طردهم من البلاد . وفى عام ٦١٦ تمكن الفرس من غزو مصر وآسيا الصغرى وفرض الحصار على القسطنطينية . وبحلول الوقت الذى تمكن فيه الامبراطور هيرقل Heraclius من الحاق الهزيمة بالفرس واستعادة حدود الامبراطورية نجد أن كلا من بيزنطة وبلاد الفرس قد أصابهما الضعف والوهن رغم بقائهما كأكبر قوتين فى العالم القديم . وفى تلك الأثناء وفى عام ٥٧٠ ميلادية أو ٥٧١ ميلادية تم مولد رجل غير عادى فى شبه الجزيرة العربية الفقيرة الغامضة وهو الرجل الذى زرع البذور لقوة عظمى تمكنت فيما بعد من الاطاحة بأكبر قوتين فى العالم القديم ذلك الرجل هو النبى محمد صلى الله عليه وسلم الذى ولد فى مكة التى تعتبر من أكبر المراكز التجارية المستقرة الواقعة فى غرب شبه الجزيرة العربية . ومحمد رجل عبقرى وفذ وملهم تمكن من تغيير مسار الجنس البشرى . وهى حقيقة يعترف بها العالم كله وليس فقط سكان العالم الذين يؤمنون بالدين الاسلامى .

وهناك حقيقتان فى الدين الاسلامى لهما أهمية خاصة بالنسبة لتاريخ الشرق الأوسط • الحقيقة الأولى هى أن المسلمين لا يعتقدون بأن محمدا شخصية سماوية ربانية _ فالاسـلام هو أكثر الأديان التزاما بوحدانية الله [لا اله الا الله] ولكنهم مع ذلك يرون أنه آخر الرسل أو خاتم الأنبياء بمن فيهم موسى والسيد المسيح • ولذلك فهم يعتقدون أن الاسلام هو الدين النهائى الذى يستكمل ويضفى الكمال على الدينين السماويين الآخرين : اليهودية والمسيحية • واذا كان الجنس البشرى كله لم يتقبل هذه الحقيقة حتى الآن فان ذلك يرجع الى عيوب أو نقائص أو ضعف بين مجتمع المؤمنين بالاسلام •

والحقيقة الثانية هى أنه بينما المسلمون يؤمنون بالجنة وخلود الروح الا أن العقيدة تبتعد عن الأمور الغيبية والأمور التى تتعلق بعالم آخر غير الواقعى • فالنبى محمد - بعكس السيد المسيح _ كان قائدا سياسيا ومنظما عبقريا ولا يوجد هناك انفصال فى الاسلام بين الدين والسياسة كما لايوجد به مفهوم ذهنى عن اقامة دولة علمانية• فالقرآن الكريم الذى هو نص الكلام المباشر الذى قاله الله سبحانه وتعالى يعتبر بمثابة الالهام المستمر لكافة أفكار وأعمال المسلمين • الا أن القرآن الكريم ليس بمثابة مجموعة قوانين شاملة • ومن ثم ينبغى على المسلمين الاقتداء بالرسول وصحابته • فكلماتهم وأقوالهم وأعمالهم والتى تعرف باسم « السنة » قد تم جمعها فى « الحديث » الذى هو تراث النبى المتناقل عبر الرواة • والقرآن والسنة هما مصدر التشريعة الاسلامية التى يشار اليها من خلال الترجمة على أنها « القانون الاسلامى » • الا أن الشريعة الاسلامية هى شىء أكثر بكثير من القانون الاسلامى • فهى ليست قانونا كنسيا [اذ لا توجد كهنوتية فى الاسلام] وهى ليست قانونا علمانيا لأنه لا يوجد مثل هذا المفهوم الذهنى فى الاسلام ؛ وانما الشريعة الاسلامية هى بمثابة نظام شامل للأخلاق الاجتماعية يصف للرجل المسلم الكيفية التى ينبغى أن يعيش بها اذا كان يريد أن يسلك ويتصرف وفقا لارادة الله ؛ واذا انتهك

الشخص المســـلم الشريعة فان المخالفة تكون ضد الله وليس ضد الدولة ٠

هذا هو المثل الأعلى ٠ ومنذ الأزمنة الأولى نجد أن الحكام العرب والحكام المسلمين قد اتخذوا سلطات علمانية الى درجة ما ٠ الا ان المثل الأعلى يظل له التـأثير القوى على قلوب وأفئدة وعقول كافة المسلمين ٠ وهذا يفسر لنا القوى الفعالة لليوتوبيا بين العرب ويفسر لنا الاعتقاد الراسخ السائد بأنهم اذا عادوا الى الأساليب الأولى التى اتبعها الرسول وأصحابه فان الاسلام سيحقق الانتصار فى هذا العالم على نحو أكيد ٠ وهذا الاعتقاد هو ما يسمونه فى الغرب بالأصولية الاسلامية ٠ ولكننـا اذا تحرينـا الدقة فـانه يمكن القول أن كافة المسلمين يعتبروا من الأصوليين الاسلاميين لأنهم يدركون تماما أن القرآن الكريم هو الرســالة النهائية التى بعث بها الله الى الجنس البشرى بل ويعتقد المسلمون أن الانتصارات التى حققها الغرب فى خلال القرنين أو الثلاثة قرون الأخيرة هى بمثابة انحراف فى مسار التاريـخ ٠

ومازال العرب حتى يومنـا هذا ينظرون فى اعجاب شديد الى قصة الانجـازات العظمى الأولى حققهـا الاسلام ٠ فعندما مر محمد بالتجربة الروحية الدينية وهو فى سن الأربعين وهى التجربة التى جعلت منه نبيا وقائدا كانت شبه الجزيرة بمثابة مجموعة من الولايات الصغيرة ذات الحكم الذاتى والتى تتجمع على هيئة اتحادات كونفدرالية قبلية ٠ وكان معظم الناس البدو يعتقدون أن الروح هى المبدأ الحيوى المنظم للكون من خلال الدين ويعبدون تشـــكيلة متنوعة من الأرواح التى كانت تتمركز فى الغالب فى داخل صخرة أو ضريح ٠ ولم يكن لديهم مجموعة قوانين مكتوبة حيث كان يتم كبح جماح الجرائم من خلال الخوف المستمر من الانتقام والأخذ بالثأر ٠ كما كان يتم فض المنازعات الداخلية بين القبائل من خلال اللجوء الى حكم أو وسيط

ضليع فى العادات والتقاليد القبلية . ولم يكن هذا بمثابة ثقافة عالية يمكن مقارنتها بالثقافة البيزنطية أو الفارسية الا أنها كانت بها مصدر قوة هائلة لا نظير لها متمثلة فى اللغة العربية ذاتها بما فى هذه اللغة من قوة ومرونة علاوة على الانجازات الفنية الهائلة المتمثلة فى الشعر العربى .

وعلى الرغم من اتسام شعب الجزيرة العربية بالافتخار وروح الاستقلال الا أنهم لم يكونوا محصنين ضد التأثيرات التى تجيىء اليهم من خارج شبه الجزيرة العربية . فهم من خلال احتكاكهم مع البيزنطيين المسيحيين والأحباش المسيحين والفرس الزرادشتيين بدأوا يكتسبون بعض الأفكار التوحيدية فى الفترة التى بدأ فيها محمد فى نشر رسالته . وبحلول الوقت الذى مات فيه محمد صلى الله عليه وسلم وهو فى أوائل الستينات من عمره كان الدين الجديد الاسلامى قد لاقى قبولا فى معظم أماكن شبه الجزيرة العربية . وهو فى خلال جيل واحد تمكن من تحقيق النجاح وادماج القبائل المبعثرة الوثنية بشبه الجزيرة العربية فى أمة اسلامية واحدة تعبد الها واحدا قادرا على كل شىء .

واذا كانت الانجازات التى حققها محمد فى خلال فترة حياته لصالح العقيدة الاسلامية قد أثارت انتباه العالم لأنها انجازات عظيمة للغاية فان الخلفاء الراشدين قد حققوا انجازات اسلامية عظيمة أيضا ومذهلة ، اذ راحت القوات الاسلامية الصغيرة تزيد من نشاطها وتتحدى الامبراطوريتين الكبيرتين المتواجدتين فى العالم : امبراطورية بيزنطة وامبراطورية الفرس . ولقد تمكنت الجيوش الاسلامية فى خلال عشرة سنوات من الحاق الهزيمة بالفرس الساسانيد والاستيلاء على عاصمتهم التى تسمى تيسفون Ctesiphon والتى تقع على نهر دجلة [بالقرب من بغداد الحالية ـ المترجم] وطردهم من ميزوبوتاميا

[العراق حاليا]. ثم اتجهت أنظار القوات الاسلامية الى المقاطعات البيزنطية الواقعة فى كل من مصر وسوريا . ثم اجتاح الجيش العربى الاسلامى شمال أفريقيا وتمكن فى خلال خمسين سنة أخرى من عبور المضايق الى أسبانيا وذلك فى عام ٧١١ ميلادية .

وبعد أن فرغ العرب من فتح سوريا ومصر فانهم أمضوا عشرة سنوات أخرى فى تدمير البقايا المتبقية من الامبراطورية السسانية الفارسية . الا أن الامبراطورية البيزنطية استمرت متواجدة على مدى ٨٠٠ سنة أخرى . وعلى الرغم من أن العرب تمكنوا من الاستيلاء على قبرص ورودس وقوص Cos بل وحاصروا القسطنطينية مرتين الا أنهم لم يتمكنوا أبدا من فتح الأناضول Anatolia والاستيلاء عليها . وقد ظلت الأناضول على مدى قرون عديدة أخرى متقاسمة ما بين البيزنطيين ومملكة أرمينيا المسيحية .

وفى خلال ثلاثين عاما عقب وفاة محمد صلى الله عليه وسلم ظهرت أحداث هامة كان لها تأثير على تشكيل مستقبل الاسلام وشبه الجزيرة العربية . ففى عام ٦٥٦ ميلادية أغتيل عثمان بن عفان الذى كان خليفة عقب عمر بن الخطاب . وبدا لجموع المسلمين أن على ابن أبى طالب هو الذى سيصبح خليفة بعد عثمان خاصة وأن على هو ابن عم الرسول وزوج ابنته فاطمة . الا أن على وجد معارضة من جانب الجنرال العربى الطموح الذى يسمى معاوية والذى كان عمر قد عينه حاكما على سوريا والذى كان ــ مثل عثمان ــ ينتمى لقبيلة أمية القوية المتواجدة فى مكة . وهزم على وابنه الحسين على أيدى الأمويين مما أدى الى حدوث الانقسام الأول والوحيد فى الاسلام . ما بين « أهل السنة » وهم بمثابة الغالبية العظمى و « الشيعة » أو الموالين لعلى الذين ما زالوا يعتقدون أن معاوية وخلفاءه الأمويين هم مغتصبون علمانيون .

وفى هذه الأيام نجد أن ١٠٪ من السكان المسلمين من الشيعة، وأن معظم هؤلاء الشيعة متواجدون فى ايران وشبه القارة الهندية . ونادرا ما يوجد أى شيعة فى أفريقيا . وفى المشرق Levant نجد أن الشيعة يشكلون تواجدا هاما فى لبنان حيث تبلغ نسبتهم ٣٠٪ من مجموع السكان بما يعنى أن عددهم ربما يزيد على أعداد السنيين .

وفى شبه الجزيرة العربية نجد أن الغالبية العظمى من السكان قد ظلوا سنيين رغم وجود أقليات شيعية هامة عند الحواف الشرقية. كما أن الزيديين الذين يسكنون فى جبال اليمن ينتمون أيضا لفرع من فروع الشيعة . الا أن المذهب السنى والمذهب الشيعى قد ظلا فى حالة نزاع بشأن الفرس [ايران] الى أن تم فى القرن السادس عشر اتخاذ المذهب السنى كعقيدة رسمية فى البلاد . وفى ميزوبوتاميا [العراق] ظلت الغالبية العظمى من السكان منتمية للمذهب كما أن الأماكن المقدسة فى مدينة نجف ومدينة كربلاء متواجدة فى أراضى عراقية الا أن المذهب السنى مازال هو المذهب السائد من الناحية السياسية . وقد أحدث تأثيرا هاما على التاريخ الحديث لمنطقة الشرق الأوســـط .

ان انتصار الأمويين قد سبب انقساما فى الاسلام : اذ جعل من دمشق عاصمة للامبراطورية العربية / الاسلامية الجديدة . وبعد مرور قرن من الزمان وفى عام ٧٥٠ ميلادية نجد أن هزيمة الأمويين على أيدى العباسيين الذين كانوا يشــكلون حركة ثورية منــافسة متمركزة بالأماكن الشرقية من بلاد الفرس قد أدى الى نقــل مركز النفوذ والســلطة الى بغداد وأدى بالتــالى الى ظهور العصر الذهبى للاسلام وهو أحد قمم الحضارة الانسانية .

وفى داخل الأراضى الشاسعة التى فتحها الاسلام بدأت تظهر عمليتان تعملان فى تحالف ولكنهما ليستا متماثلتين : عملية التعريب أو اضفاء الطابع العربى Arabization وعملية الأسلمة أو اضفاء

الطابع الاسلامى Islamization • ففي العراق وسوريا الكبرى ومصر ودول شمال أفريقيا بدأت اللغة العربية تجتاح تدريجيا اللغات المحلية المتواجدة في هذه البلدان [اللغه الكردية فى شمال العراق واللغة البربرية في الجزائر والمغرب قد تمكنتا من البقاء على قيد الحياة وهما من اللغات غير المكتوبة] وفى سوريا / فلسطين ومصر استمرت اللغة اليونانية مستخدمة فى الشئون الادارية لبعض الوقت الى أن أصبحت اللغة العربية هى اللغة الرسمية • وفى الهلال الخصيب نجد أن اللغة العربية التى يتم التحدث بها بالفعل في شبه الجزيرة العربية قد بدأت تحل تدريجيا محل اللغة الآرامية التى لا تتواجد حاليا الا فى قرية واحدة أو قريتين فى شمال دمشق وفى شمال العراق • وكذلك نجد أن اللغة القبطية التى كان يتحدث بها قدماء المصريين قد تلاشت لدى تحول الاحتلال العربى الى استعمار كامل وتذويب على نطاق واسع رغم أنها ظلت متواجدة حتى حلول القرن السابع عشر على الأقل •

وكانت عملية الأسلحة أقل استكمالا من عملية اضفاء الطابع العربى لأن أعدادا كبيرة من المجتمعات المسيحية واليهودية والتى كانت تلقى الاحترام والتسامح من جانب الاسلام من حيث هم « أهل الكتاب » قد تشبثوا بالديانة الخاصة بهم • الا أن الاسلام قد حقق انتشارا أكثر من اللغة العربية • اذ انتقل الاسلام بسرعة الى سمرقند وحدود الهند وفى خلال القرون التالية تحول عدد كبير من السكان فى شبه القارة الهندية والصين وجنوب شرق آسيا الى الديانة الاسلامية • الا أن اللغة العربية هنا كانت مقصورة على تأدية الطقوس والشعائر الدينية • أما اللغة الفارسية والثقافة الفارسية فقد ظلتا متواجدتين عقب الغزو العربى وعقب تقبل الفرس للديانة الاسلامية رغم أن اللغة الفارسية قد اتخذت حروف الهجاء العربية بالاضافة الى عدد كبير من مفردات اللغة العربية وكلماتها • وحاليا لا يتكلم باللغة العربية سوى حوالى $\frac{1}{5}$ من المسلمين فى العالم •

والأتراك لم يتم غزوهم على أيدى العرب • ولكن معظمهم تحولوا الى اعتناق الديانة الاسلامية فى القرن العاشر • الا أن اللغة التركية قد اجتاحها فيض من الكلمات العربية من مفردات الكلمات المتعلقة بالدين والعلوم والثقافة • وكانت اللغة التركية تكتب أيضا بحروف عربية • وقد شهد القرن الثانى عشر غزوا ثانيا لغويا عندما أصبحت اللغة الفارسية هى اللغة الأدبية فى المناطق الغربية لآسيا • ولقد استخدم الكتاب الأتراك كلمات عربية أو فارسية علاوة على استخدام قواعد اللغة العربية والفارسية من أجل خلق التراكيب العثمانية التركية •

ولذلك نجد أن اللغات الثلاثة : العربية والفارسية والتركية أصبح يتم التكلم بها أو الكتابة بها بمعرفة الغالبية العظمى من سكان منطقة الشرق الأوسط • وطبقا لعلم المصطلحات القومية الحديثة فان الشعوب التى تكلمت بهذه اللغات كانت هى الشعوب العربية والفارسية والتركية •

وهناك اثنتان من الأقليات الهامة قاومتا هذا الامتصاص والذوبان واحتفظتا بالهوية القومية الخاصة بهما ألا وهما : الأرمن Armenians والأكراد • اذ كان للأمن تواجد قومى مستمر ابتداء من القرن السادس قبل الميلاد بالأماكن التى تشغلها حاليا شرق تركيا وجزء من الاقليم الذى يقع جنوب جبال القوقاز ويضم جمهوريات جورجيا وأرمينيا وأذربيجان وهم يعتبرون أقدم أمة مسيحية لها الكنيسة الرسولية البابوية الأرمينية الخاصة بهم • ولقد كانت لهم مملكة مستقلة استمرت متواجدة على مدى قرون عديدة قبل أن يتعرضوا للغزو ثم الذوبان بعض الشىء فى داخل الامبراطورية الاسلامية فى خلال القرن الرابع عشر وعلى الرغم من أنهم قد تشتتوا فيما بعد فى أرجاء الشرق الأوسط الا أنهم مازالوا يدينون بالولاء للغتهم ودينهم وثقافتهم •

والأكراد هم شعب من سكان الجبال • وكثيرا ما كان تاريخهم القديم يتداخل ويتطابق جزئيا مع تاريخ الأرمن • وهم يتحدثون بلهجات هندية / أوربية تنتمى للغة الفارسية • وهم على النقيض من الأرمن لم يكن لهم أبدا دولة مستقلة خاصة بهم ولكنهم كانوا أقل تشتتا • وهم فى الوقت الحالى يسكنون فى قوس من الأراضى يمتد من شمال غرب ايران عبر الشمال الشرقى للعراق ومن سوريا الى الأماكن الشرقية من تركيا •

وهناك عوامل كثيرة ساعدت العرب على نجاحهم فى غزواتهم من بينها تلك الحروب المنهكة التى تمت بين الامبراطورية البيزنطية والامبراطورية الفارسية • هذا بالاضافة الى عدم تمتع الحكام الامبراطوريين بالشعبية بين رعاياهم من جماهير الناس • ولكى يتمكن العرب من خلق امبراطورية عربية خاصة بهم لها صفة الدوام فانه كان عليهم أن يحققوا المزيد من النجاح فى مجال فنون الادارة والحكم وعلى نحو يفوق الحكام السابقين عليهم • ولقد كانت الانجازات العظيمة التى حققها هؤلاء البدو البرابرة الرحل مثيرة للدهشة • ومما لا شك فيه طبيعة الدين الاسلامى الذى يتميز بالتقشف والبساطة وسهولة الفهم والاستيعاب والعدالة هى السبب الرئيسى فى تحقيق تلك الانجازات • ونحن نندهش اذا وجدنا العرب فى هذه الأيام يؤمنون بأنهم اذا عادوا الى المبادىء الاسلامية التى كان يلتزم بها أجدادهم الأولون فانهم سوف يستردون أمجادهم وعظمتهم مرة أخرى •

وفى بداية الأمر كان المحاربون أفراد القبائل من ذوى الدماء العربية الخالصة يشكلون أرستقراطية عسكرية لا يزيد عددها على بضعة مئات الآلاف القليلة • أما غير العرب ممن اعتنقوا الدين الاسلامى : مثل الفرس أو المصريين أو سكان الهلال الخصيب أو برابرة شمال أفريقيا فكانوا يسمون الموالين أو التابعين • الا أن أرستقراطية العرب هذه لم تستمر •

وعلى الرغم من أن علاقة الاسلام مع شبه الجزيرة العربية واللغة العربية هى علاقة قابلة للتخريب أو الائتلاف فان التمييز العنصرى بين المؤمنين هو أمر يتناقض مع روح القرآن الكريم • ونظرا لكثرة حالات الزواج من النساء المواليات فان الذوبان بين الأجناس قد سار بخطوات سريعة • ولذلك نجد أن كلمة « عربى » بدأت تتخذ تغيرا تدريجيا • اذ لم تعد تنطبق فقط على الشخص البدوى المرتحل الذى يعيش فى شبه الجزيرة العربية وانما أصبحت تنصب على أى شخص له ثقافة عربية ولغة عربية •

وفى عهد الخلافة العباسية حدثت حركة عظمى فى مجال الاندماج الثقافى والعرقى فى داخل نطاق الامبراطورية الاسلامية • وفى حين أن اللغة العربية قد تم تقبلها فى بادىء الأمر على أنها اللغة السائدة ثم على أســـاس أنها اللغة المشتركة Lingua Franca فاننا نجد أيضا أن العرب « الأنقياء » قد بدأوا يتخلون تدريجيا عن أرستقراطيتهم • حيث بدأوا يتقبلون فكرة المساواة العرقية أو المساواة بين الأجناس المختلفة • ومن هنا نرى أن لغة ودين العرب قد عملا على تماسك وتقوية ذلك الصرح الهائل • وقوة وازدهار ذلك الصرح تكمن فى الحقيقة التى مفادها أن الحضارتين : الفارسية والهيلينية اللتين تم اجتياحهما لم يتعرضا للدمار • حيث حرص الحكام العرب الجدد ـ لبعض الوقت ـ على عدم المساس بأنظمة الحكومة والادارة القائمة والحفاظ عليها الى درجة كبيرة الى أن تمكنوا من استيعابها وفهمها ثم قاموا بعد ذلك بابتكار التركيبات التوليفية الخاصة بهم •

وكان لنقل عاصمة الامبراطورية الاسلامية من دمشق الى بغداد أثر كبير فى تحريك مركز الجاذبية الى اتجاه الشرق • اذ تضاءل الاهتمام بحوض البحر الأبيض المتوسط وتزايدت التأثيرات الشرقية ومنها الميول الفـارسية نحو خلق نظـام ملكى مطلق • كما نجد أن ازالة حواجز الحدود قد جعل من بغداد مركزا لمنطقة تجارة حرة آخذة

فى الازدهار المتزايد حيث أتيحت الفرصة لمعظم القطاعات السكانية لتحقيق الانغماس فى الأنشطة التجارية المكثفه • اذ كانت السفن العربية تبحر الى الصين وسومطره والهند والى الجنوب على طول الساحل الشرقي لأفريقيا والى مسافات بعيدة حتى مدغشقر • كما نجد أيضا أن التعلم والثقافة قد ازدهرا فى هذا العصر الذهبى الاسلامى • وفى بادىء الأمر كان ذلك الازدهار يتمثل أساسا فى ترجمة أمهات الكتب العلمية والفلسفية الخاصة بالحضارات القديمة السابقة على ظهور الاسلام • ولكن سرعان ما تمكنت الامبراطورية الاسلامية من خلق الانجازات العملاقة الخاصة بها فى مجال العلوم والفنون والآداب •

ومثلما يحدث فى جميع الامبراطوريات الانسانية الأخرى نجد أن بذور الاضمحلال كانت تنبت وتتبرعم بالفعل عندما بدت هذه الامبراطورية فى ذروة مجدها • فعلى الرغم من تواجد شبكات الطرق والاتصالات التى تشع من بغداد الا أنه كان من المتعذر ممارسة سلطة فعالة على الأقاليم النائية لفترة طويلة • ففى مصر وفى الأماكن الشرقية من بلاد الفرس نجد أنه قد تم تفويض السلطة للقادة والزعماء المحليين الذين راحوا يطبقون أسلوب الحكم الذاتى • كما أن العرب الذين كانوا فيما سبق بمثابة طليعة القوات الامبراطورية قد شعروا بأنهم مستبعدين عن حكامهم الجدد المستعربين وبالتالى أحجموا عن الانضمام للجيش مما جعل الخليفة يلجأ الى استيراد الأولاد العبيد الأتراك الذين يعرفون باسم : المماليك من الأماكن التى تعرف حاليا باسم التركستان السوفيتية لكى يتم تدريبهم كجنود من أجل الحفاظ على نواحى الأمن فى نطاق الامبراطورية • وعلى الرغم من أن المماليك كانوا يتكلمون باللغة التركية الا أنهم لم يكونوا جميعا من الأتراك وانما كان من بينهم أكراد ومغول وأناس آخرون من أواسط آسيا • وكا نهؤلاء المرتزقة جنودا ممتازين الا أنهم سرعان ما أدركوا أن بمقدورهم الاستحواذ على السلطة لأنفسهم • ففى عام

٨٦١ نجد أنهم قاموا باغتيال الخليفة القابع فى بغداد وأنشأوا حكومة ديكتاتورية عسكرية • كما أنه فى عام ٨٦٧ قام رجل تركى يسمى ابن طولون بالاستيلاء على السلطة فى مصر وسرعان ما احتل سوريا وأنشأ اتحادا يضم سوريا ومصر مرة أخرى • واستمر هذا الوضع قائما على فترات متقطعة الى أن أصبحت المنطقة بأكملها واقعة تحت سيطرة الامبراطورية العثمانية التركية فى القرن السادس عشر •

وهكذا نرى أن الامبراطورية العربية / الاسلامية التى دامت لفترة تزيد على ٢٠٠ سنة وشملت كافة العالم المعاصر المعروف آنئذ باستثناء شمال أوربا والصين قد بدأت تتعرض للتقوض والتفكك • وكان العرب قد تمكنوا من الاستيلاء على أسبانيا ونصف مساحة فرنسا فى أوائل القرن الثامن • ولكنهم سرعان ما انسحبوا من فرنسا • الا أنهم احتلوا فيما بعد صقلية والكثير من الأراضى الواقعة فى جنوب ايطاليا • وعلى كل حال فان انتقال العاصمة من دمشق الى بغداد قد قلل من سيطرة الامبراطورية على حوض البحر الأبيض المتوسط بل وأدى فى نهاية القرن التاسع الى تحطيم هذه السيطرة تماما • وظل العرب محتفظين بسيطرتهم الثقافية على مدى قرنين آخرين على الأقل من الزمان • بل واستمرت بغداد فى القيام بدورها من حيث هى مركز ثقافى وتعليمى عظيم • الا أن السلطة الفعالة كانت تمارس على أيدى الطائفة العسكرية التركية المنغلقة القليلة الخبرة •

الا أن هذه الهيمنة التركية قد تحطمت لبعض الوقت • ففى عام ٩٦٩ ميلادية نجد أن مصر التى حكمها على مدى قرن من الزمان أسرات عسكرية تركية على نحو مزعزع وغير مستقر قد تعرضت للغزو من جهة الغرب على أيدى قوة عربية جديدة • وهى الأسرة الفاطمية التى اشتقت اسمها من فاطمة الزهراء ابنة النبى محمد صلى الله عليه وسلم وزوجة الخليفة على بن أبى طالب • وقبل أن ينتقل الفاطميون الى

شمال أفريقيا نجد أنهم قد بزغوا فى سوريا كقيادة للحركة الاسماعيلية الشيعية التى كرست نفسها من أجل الاطاحة بالخلافة العباسية • ولذلك كانت بغداد تعتبرهم أعداء منشقين •

وعند شمال العاصمة العربية / الاسلامية القديمة التى تعرف باسم : الفسطاط قام الفاطميون بانشاء مدينة القاهرة لكى تكون عاصمة جديدة لهم • كما أنشأوا خلافة تتنافس مع الخلافه فى بغداد • وحرصوا على أن تكون الخلافة الفاطمية متميزة بالأبهة والفخامة • وامتدت امبراطورية الخلافة الفاطمية لبعض الوقت غربا عبر المغرب وحتى المحيط الأطلنطى وشملت صقلية ، وعلى الرغم من أن النفوذ الفاطمى لم يمتد الى جهة الشرق فان عدم الاستقرار فى بغداد كان يعنى أن قدرا كبيرا من التجارة الشرقية والتى كانت مصدر الثروة العباسية قد تحولت من الخليج الفارسى / العربى الى البحر الأحمر • وهكذا نرى أن القاهرة قد ازدهرت على حساب بغداد •

واستأنفت سوريا / فلسطين دورها التاريخى من حيث هى أرض للصراع الدائر بين الحكام المتنافسين المتواجدين فى كل من وادى دجلة / الفرات ووادى النيل • ولكن ظهر هناك عنصر جديد زاد من تعاسة سوريا : فالبيزنطيون الذين كانوا قد عانوا على مدى ثلاثة قرون من الغزوات العربية / الاسلامية قد أتيحت لهم الفرصة لكى يقوموا بالانتقام • ولذلك نجد أن سوريا فى الفترة من عام ٩٦٢ حتى عام ١٠٠٠ قد تعرضت لغزوات متلاحقة يبلغ عددها ٣٨ غزوة من جانب الأباطرة البيزنطيين •

وفى عام ١٠١٨ تعرض الخليفة الفاطمى الحاكم بأمر الله للجنون وأعلن عن نفسه أنه اله • وعقب وفاته ظهر دين جديد ينادى بأن الحاكم بأمر الله لم يمت وانما اختفى فقط وأنه سيعود مرة أخرى منتصرا لكى يفتتح العصر الذهبى • والدروز الذين سموا

على اسم أحد زعمائهم الذى يسمى اسماعيل الدرازى والذى هرب الى جبل لبنان أصبحت لهم أهمية كبيرة رغم أن أعدادهم لم تكن كبيرة فى أى وقت من الأوقات [اذ يبلغ عددهم حاليـــا حوالى ٢٥٠ ألف نسمة يعيشون فى لبنان وسوريا واسرائيـــل] حيث صاروا احدى الطوائف القليلة من بين الطوائف الشيعية الفرعيـة العديدة التى ظهرت فى ذلك الوقت والتى تمكنت من البقاء على قيد الحياة حتى يومنا هذا والتى لعبت دورا حاســـما فى تاريخ المنطقة • [وهنـــاك طائفة شيعية فرعيـــة أخرى تسمى العلويين أو النصيريين والتى ازدهرت فى بادىء الأمر حول منطقة حلب فى القرن العاشر • وهذه الطائفة قد تمكنت أيضا من البقاء على قيد الحياة • وهى تشكل حاليا حوالى ١٠٪ من تعـــداد السكان فى ســـوريا] •

وعلى الرغم من الغزوات المتكررة التى وقعت على سوريا / فلسطين على أيدى البيزنطيين الا أنهم لم يتمكنوا من الاستيلاء على هذه المنطقة • وحقيقة الأمر أن جميع الامبراطوريات البيزنطيـــة والعباسية والفاطمية كانت فى حـالة اضمحلال فى خلال النصف الأول من القرن الحادى عشر عندما ظهرت قوى جديدة على مسرح الأحداث • انهم الأتراك البدو الأغوز Oghuz القادمون من أواسط آسيا والذين عرفوا باسم الأتراك السلاجقة نسبة الى أحد زعمائهم حيث قاموا بغزو بلاد الفرس وفى عام ١٠٥٠ استولوا على بغداد مما جعل الخليفة العباسى مجرد انسان ذليل وخاضع لهم • وفى عام ١٠٧١ تمكنوا من الاستيلاء على سوريا وفلسطين وطـرد الفاطميين الى مصر • وبحلول نهاية القـرن أصبحت الامبراطورية السلجوقية تشتمل على بلاد الفرس والعراق وسوريا وفلسطين • الا أن المحاربين التركمان من جيش الســـلاجقة كانوا يتطلعون الى الاستيلاء على الأراضى الغنيـــة التابعـة للامبراطورية البيزنطية المتواجدة فى الغرب • وفى عام ١٠٧١ تمكن السلطان السلجوقى

أرب أرسلان Arp Arslan من سحق جيش بيزنطى ضخم مع القاء القبض على الامبراطور البيزنطي • وتمكن الأتراك المسلمون بعدئذ من الاقامة فى آسيا الصغرى •

وعلى مدى أربعة قرون نجد أن بيزنطة قد وفرت الحماية للنصرانية الغربية ضد الغزو الاسلامي والتوسع الاسلامي القادم من جهة الشرق ، وبعد أن أصبحت الامبراطورية البيزنطية مهددة بالانهيار التام قام الامبراطور ألكسيوسى كومينوس [١٠٨١ — ١١١٨] بطلب العون والمساعدة من البابا ايربان الثانى لكى يرسل اليه رجالا مقاتلين من أجل مقاتلة الغزاة الملحدين غير النصرانيين • وفى ٢٧ نوفمبر ١٠٩٥ ناشد البابا المتطوعين والجنود لكى يذهبوا لنجدة اخوانهم المسيحيين المتواجدين فى الشرق واعادة الأمن والأمان للطرق التى يستخدمها الحجاج المسيحيون الغربيون لدى ذهابهم الى الأرض المقدسة •

وتمكن المسيحيون بأوربا الغربية من غزو الشرق الأوسط وحققوا نجاحا في بادىء الأمر • ويعرف ذلك بالحرب الصليبية الأولى • تمكنوا من الاستيلاء على القدس فى عام ١٠٩٩ ، وقاموا بذبح سكانها من المسلمين واليهود • وتم انشاء المملكة اللاتينية للقدس بالاضافة الى تأسيس ثلاث ولايات صليبية أخرى • وكان الخلفاء العباسيون فى بغداد وكذلك السلاطين السلاجقة غير مهتمين بسوريا وفلسطين اللتين تقعا عند الحدود الخارجية لاهتماماتهم • وقام الفاطميون فى مصر بمحاولة واحدة فاشلة لاستعادة القدس من أجل الاسلام ثم توقفوا بعد ذلك عن بذل أية محاولات أخرى • وفى داخل سوريا ذاتها نجد أن أنظمة الحكم التركية المحلية والتى كانت فى حالة من العداء المتبادل باستمرار ازاء بعضها البعض كثيرا ما كانت تتحالف مع الصليبيين ضد بعضها البعض •

وهذه الولايات والدويلات المسيحية الصغيرة التافهة والتى كانت منخفضة المستوى من النواحي الثقافية والحضارية [مثال ذلك أن المسلمين قد دهشوا من المعلومات الطبية البدائية المتواجدة لدى الصليبيين] لم ينظر اليها على أنها تشكل تهديدا خطيرا على العالم الاسـلامى ، الا أن الدويلات والولايات الصليبية لم تكن راضية عن مجرد العيش فى تسامح وسلام • اذ دخلت فى نزاعات مع جيرانها • وتسببت فى نهـاية الأمر فى توحيد الدويـلات الاسلامية التى كانت منقسمة على نفسها حيث توحدت تحت مظلة « الجهاد » أو الحرب المقدسـة ضد الصليبيين • وفى عام ١١٨٧ تمكن القائد الكردى صلاح الدين من اسـتعادة القدس [وعلى النقيض مما قام به الصليبيون منذ ٨٨ عاما حافظ على حياة أولئك الناس الذين استسلموا له] • وشنت حروب صليبية أخرى فى خـلال القرن التـالى مما أدى الى تمكين الدويلات المسيحيـه الضعيفة المتواجدة على شواطىء سوريا وفلسطين من البقاء على قيد الحياة لبعض الوقت الا أنها اختفت تماما عقب مرور أقل من قرنين من الزمان •

ولم يترك الصليبيون شيئا هاما باستثناء عدد قليل من القلاع الرائعة علاوة على بعض دمائهم التى انتقلت من خـلال حـالات الزواج التى تمت مع بعض السكان المحليين • وكان أعظم انجاز لهم هو أنهم عملوا على الحاق الضعف والوهن بالحضارة المتفوقة التى واجهوها واصطدموا بها مع العمـل على تقويض المستويات الأخلاقية لتلك الحضارة ، الا أن الصليبيين أظهروا أنهم قد تفوقوا على أعدائهم المسلمين فى مجال واحد هام : ألا وهو مقدرتهم على خلق مؤسسات سياسية قوية ذات طابع عملى • وهى مؤسسات لهـا الطابع العدائى الضغائنى وغير متسمة بالطابع الديموقراطى ولكنها مع ذلك عمقت فكرة الحقوق والواجبات الخاصة بقطاعات المجتمع المختلفة مثل : الأمراء والفرسان والتجار والفلاحين • ولم يكن نفوذ

وسلطان الحاكم غير محدود وعادة ما كان الحاكم يصل الى مقاليد السلطة من خلال الموافقة عليه وليس من خلال استخدام القوة ، أما في الأراضى الاسلامية فكان الوضـــع على النقيض من ذلك . فعلى الرغم من أن المبادىء القانونية والاجراءات القانونية التى تحكم العلاقات الانسانية كانت أكثر رقيا وتطورا الا أن الممارسات التى تقوم بها الحكومة كانت متسمة بالطابع الاستبدادى فى معظم الأحوال كما كانت مطلقة وغير محدودة . فالديموقراطية التبليـــة للخلفاء الراشدين الأوائل والذين كانت سلطاتهم تخضع لمجلس الشورى قد تراجعت وحلت محلها الطغيان والاستبداد والحكم المطلق .

والجدير بالذكر أن أسوأ الأمـــور التى نجمت عن الغزوات الصليبية التى شنها المسيحيون على الأراضى الاسلامية قد تمثلت فى تراجع الاسلام نحو العزلة .

وعلى الرغم من أن فترة الحروب الصليبية قد أشعلت تطورا اقتصاديا وثقافيا كبيرا فى أوربا الغربية الا أن تلك الحروب المقدسة قد جعلت الشرق يغـــرق فى قرون طويلة من التفسخ والتدهور والاظلام واعاقة التقدم وعرقلة المعرفة . اذ تقوقع العالم الاسلامى على نفسه وعزل نفسه عن كافة الاتجاهات . بل وأصبح متســـما بالافراط فى الحساسية ومتخذا موقفـا دفاعيا ومتعصبا وعقيما ـ وهى اتجاهات تعمقت فى تزايد نحو ما هو أسوأ بينما استمر التطور فى الانتشار فى جميع أرجاء العالم .

وكانت تلك هى الآثار بعيدة المدى التى نجمت عن الحروب الصليبية . فالانتصـــار فى ذلك الوقت على الغزاة المسيحيين قد نظر اليه على أنه دليل ساطع على تفوق الدين الاسلامى الذى أراد له الله ـ وفقا لما يعتقده المسلمون ـ أن يخلف العقائد التوحيدية الأخرى ويضفى عليها الكمال والاتقـــان . وهناك عدد قليـــل من المؤرخين المسلمين المعاصرين كانوا على استعداد للاعتراف بفضائل

أنظمة الحكم فى الدويلات الصليبية الا أنهم اعتقدوا أن مثل هذه المقارنات تعتبر غير ملائمة وغير متصلة بالموضوع نظرا لأن هذه الدويلات ذاتها قد قضى عليها وتلاشت تماما ·

ومع الانتصار النهائى على الصليبيين وطردهم أصبح الاسلام منتصرا ومظفرا فى جميع أرجاء منطقة الشرق الأوسط · وفى مصر نجد أن الأسرة الحاكمة الأيوبية التى أسسها صلاح الدين - وهى أسرة رائعة ولكنها استمرت لفترة قصيرة - قد أطاح بها المماليك الذين تمكنوا فى نهاية القرن الثالث عشر من مد امبراطوريتهم الى سوريا · وتوسع السلاجقة تدريجيا الى داخل الأناضول على حساب بيزنطة التى تعرضت للمزيد من الاضمحلال نظرا لأن الصليبيين الذين قاموا بالحرب الصليبية الرابعة فى بداية القرن الثالث عشر قد تسببوا فى تفجر صراع فى القسطنطينية بين المسيحيين اللاتينيين الغربيين والمسيحيين اليونانيين الشرقيين ، وعرفت الأسرة السلجوقية فى آسيا الصغرى باسم : « سلطنة الروم » وهى وريث مسلم للجناح الشرقى من الامبراطورية الرومانية ·

ومع بداية القرن الثالث عشر اضطر العالم الاسلامى الى أن يواجه تهديدا جديدا مريعا من جانب المغول ، اذ خرج المغول - شأنهم فى ذلك شأن القبائل البدوية التركية - من أواسط آسيا واتجهوا الى الأراضى الغنية المتواجدة فى الهلال الخصيب · وفى عام ١٢٢٠ تمكن جينكيز خان من الاستيلاء على بلاد الفرس · وفى عام ١٢٤٣ تمكن خلفاؤه من سحق الجيش السلجوقى بأكمله واستأنفوا زحفهم من أجل الاستيلاء على سلطنة الروم · وفى عام ١٢٥٨ تمكن هولاجو - وهو حفيد جينكز خان - من الاستيلاء على بغداد وقضى على البقية المتبقية من آثار الخلافة العباسية · بينما قامت جيوشه باستكمال تدمير أشغال وشبكات الرى العظيمة الموجودة فى ميزوبوتاميا [العراق] ·

وبدا الأمر وكأنه لا توجد هناك قوة بامكانها أن تمنع المغول من اجتياح سوريا ومصر • الا أن المماليك المصريين وحدوا صفوفهم وتمكنوا من سحق المغول فى معـركة عين جـالوت بفلسطين فى عام ١٢٦٠ • وهم بذلك تمكنوا من انقاذ الأراضى الاسلامية الرئيسية من التعرض للاجتياح • وكانت هذه المعـركة هى احدى المعـارك الحاسمة فى التاريخ العالمى • اذ كانت تهديدات المغول أشد خطرا من تهديدات الصليبيين المسيحيين • الا أن تهـديداتهم قد دامت لفترة قصـيرة أيضا • وكان المسيحيون الشرقيـون والغربيون تراودهم الآمال فى أن يتحول المغول الى الديانة المسيحية • ولكن بدلا من ذلك نجد أن الزعيـم المغولى قد أعلن فى عام ١٢٩٥ أنه قد اعتنق الدين الاسلامى • واستمر الصراع فى الشرق الأوسط فى الاحتدام فى داخل نطاق العالم الاسلامى •

وقد نجمت عن حكم المماليك الذى استمر ثلاثة قرون فى مصر وسوريا مظاهر عديدة لحضارة متقدمة • فمع اضمحلال بغـداد وانخفاض مسـتوى اسبانيا الاسـلامية أصبحت المراكز العظمى الاسلامية للعلوم والفنون والآداب متمركزة فى القاهرة ودمشـق وحلب • كما أن فن المعمار والفنون الجميلة قد ظلت باقية على قيد الحياة ابتداء من تلك الفترة • اذ كانت هذه المدن غنية ومزدهرة لدى تدفق التجارة من الشرق والى الشرق • الا أن تلك القرون الثلاثة كانت مليئة بالكوارث من حيث ممارسة السلطات ومن حيث تطوير المؤسسات السياسية • فاذا كان المجتمع الاسلامى قد شهد نـوعا من الاسـتقرار النسبى فان حكامه لم يكونوا مستقرين • اذ كانت قوانين المماليك تفرض الحظر على تأسيس أسرة حاكمـة وراثيـة • وفى الشئون التى تتعلق بالحكومة كانوا يلجأون الى التراث العسكرى الضارى الخاص بهم • والسلاطين المماليك فى مصر نادرا ما استمروا فى الحكم لفترة تزيد على سنوات قليلة حيث سرعان ما كان يتم طردهم على أيدى منافس أكثر قوة • كذلك نجد

أن الجنرالات المماليك كانوا يقاتلون بعضهم البعض من أجل الفوز بالحكم على سوريا • ولدى اندحار الامبراطورية المغولية فانه لم يعد يوجد هناك تهديدات خارجية تدفعهم لتكوين اتحاد بينهم مثل ذلك الاتحاد الذى تحقق فى معركة عين جالوت •

ولم يكن المماليك يدركون أن مصيرهم كان يتقرر على نحو حاسم من خلال الأحداث التى كانت تتم فى آسيا الصغرى • ففى نهاية القرن الثالث عشر ظهر فى آسيا الصغرى حوالى ١٢ من الأمراء الحربيين أو الغازيين الذين تمكنوا من اجتياح معظم أقاليم الامبراطورية البيزنطية • وهؤلاء الأمراء من الناحية الاسمية أو الشكلية كانوا بمثابة روافد للزعماء المغول • الا أنهم أصبحوا مستقلين على نحو متزايد • ومن بين هؤلاء الأمراء كان يوجد أمير يسمى عثمان ، وهو مؤسس لأسرة حاكمة وامبراطورية أخذت فى التزايد والنمو التدريجى بحيث شملت معظم العالم الاسلامى واستمرت على مدى أربعة قرون •

وكان أوائل العثمانليين ـ أو العثمانيين وهو الاسم الذى اشتهروا به فى الغرب ـ مشهورين بين زملائهم الغازيين بالحكمة وفن ادارة شئون الدولة • وهم من نواح عديدة كانوا يشبهون الخلفاء الراشدين من حيث أنهم يجمعون بين قوة الايمان وبساطة العقيدة والشهامة والتسامح ازاء السكان المسيحيين المقيمين بالأراضى التى فتحوها • ولقد تحول بعض هؤلاء السكان المسيحيين الى الديانة الاسلامية • ولكن أولئك الذين لم يعتنقوا الديانة الاسلامية قد انبهروا بالعدالة الشديدة التى يتصف بها الحكم العثمانى والتى تتناقض تماما مع سوء الحكم والفوضى التى اتسمت بها الامبراطورية البيزنطية المتفسخة المتدهورة •

وفى النصف الثانى من القرن الرابع عشر نجد أن مراد الأول وهو أول سلطان عثمانى عظيم ـ وهو حفيد عثمان ـ قد

نجح في عبـــور الدردنيـــــل Hellespont لــــكى تمتــد امبراطوريته الشابة الى داخل دول البلقان المسيحية ۰ وقام بتطبيق مبدأ التسامح من أجل أن يسمح لغير المسلمين أن يصبحوا متمتعين بصفة المواطنة الكاملة علاوة على السماح لهم بتقلد أعلى المناصـب في الدولة ۰ وبذلك فانه في هذه المرحلة المبكرة قام بترسيخ طابع الامبراطورية العثمانية متعددة اللغات ومتعددة السلالات العرقية مما جعلها تتشابه كثيرا مع الامبراطورية الرومانية ۰

لقد قام مراد بفتح بلاد البلقان كمـــا قـام ابنـــه بايزيد Bayezid ببذل الجهـــود من أجـــل امتـــلاك آســـيا كلها واخضاع القسطنطينية نهائيا ، ولكنه فشل في اللحظات الأخيرة نظرا لظهور تهديد فجائي جديد من جهة الشرق من جانب التتار الذين ظهروا مثل تناسخ الأرواح الناجم عن أولاد عمومتهم المغول الذين سبق أن بزغوا منذ قرنين من الزمان ۰ اذ كان تيمور لنك Tamerlane القائد التتـــارى المرعب على وشـــــك أن يتمكن من تدمير الامبراطورية العثمانية في مهدها ۰ ولكنه مات أثناء قيـامه بفتوحات جديدة في الصـــين ۰ فتخطى العثمانيون هذه العقبة ۰ وبعـد مرور جيل واحـد ظهر بينهم زعيم بارز آخر ألا وهو محمد الثاني « الفاتح » الذى تمكن أخيرا من الاستيلاء على القسطنطينية في عام ١٤٥٣ واجتيـــاح البقايا المتبقية من آثـــار الامبراطورية البيزنطية ۰

ولقد قيل لتلاميذ المدارس الغربيين أن الغزو الاســـلامي للقسطنطينية قد بعثر تراث اليونان وروما وألقى بالعالم المسيحي الغربي نحو عصر النهضة ۰

وكانت أوربا تدرك جيدا مدى خطـورة التهديد العثماني ، وحاول أهالي فنيسيا [البندقية] والمجريون الوقوف ضد العثمانيين ودرأ أخطارهم وذلك من خلال تكوين تحالفات مؤقتة مع المتنافسين

ضد العثمانيين فى آسيا الصغرى • وعقب سقوط القسطنطينية ظلت تركيا على مدى قرنين من الزمان بمثابة تهديد يمكن أن يتفجر من البلقان ويجتاح أواسط أوربا ، اذ كانت القوات العثمانية على وشك أن تحتل فينا وتجتاح امبراطورية هبسبورج فى عام ١٥٢٩ ثم فى عام ١٦٨٣ • حيث كانت هذه القوات متفوقة من ناحية الأسلحة والاستراتيجية العسكرية كما كانت متفوقة فى الاستخدامات الأولى للأسلحة النارية الصغيرة • بالاضافة الى أن العثمانيين تمكنوا بسرعة من تحويل أنفسهم الى قوة بحرية هائلة تستطيع أن تتصدى لأية قطع بحرية حربية يمكن أن يضعها الأوربيون فى البحر • ولقد أشار ادوارد جيبون فى مؤلفاته الى أن الجيوش العربية / الاسلامية لو قدر لها الاستمرار فى الزحف شمالا الى داخل فرنسا فى القرن الثامن [وبحيث يدرس الطلبة فى اكسفورد وكمبردج القرآن الكريم بدلا من الانجيل] لكانت أوربا قد سقطت بسهولة أمام الغزوات التركية التى تمت فيما بعد عقب مرور ثمانية قرون • وأوضح أن العرب قد تعرضوا للهزيمة بسبب الظروف المناخية القاسية المتواجدة فى شمال أوربا وبسبب جيش تشارلى مارتيل زعيم الفرنجة المسيحيين • أما أتراك آسيا الصغرى فكانوا أكثر تأقلما مع الصقيع والثلوج • وكان ملوك عصر النهضة بأوربا يحاولون دائما توحيد جيوشهم من أجل شن حروب صليبية جديدة ضد العالم الاسلامى • ولكنهم على العكس من السابقين عليهم فى الحروب الصليبية الأولى كانوا يتصرفون ليس نيابة عن الحجاج المسيحيين المتجهين الى الأراضى المقدسة أو نيابة عن الأقليات المسيحية المتواجدة فى الشرق الأوسط وانما من أجل حماية أنفسهم •

ولقد كان الجانب الأكبر من طاقة الامبراطورية العثمانية فى خلال القرنين الأولين من عمرها موجها ضد الامبراطورية المسيحية • ولكن بعد أن تمكن محمد الفاتح من ترسيخ القبضة

العثمانية على آسيا الصغرى نجـد أن حفيده سليم الأول والذى يعرف باسم : الضارى أو الشرس قد وجه أنظاره نحو آسيا • ففى بلاد الفرس كانت أسرة الصفاويد الحاكمة قد تكونت عندما أعلن اسماعيل المعروف باسم : الصوفى الأكبر عن نفسه أنه الشاه وذلك فى عام ١٥٠٢ • وبعد ذلك بوقت قصير أعلن أن المذهب الشيعى الاسلامى والذى كان آنئذ هو العقيدة التى يؤمن بها معظم رعاياه ـ هو الدين الرسمى للامبراطورية • ثم قام فى عام ١٥٠٨ باحتلال العراق • وتمكن سليم الشرس والذى يعرف أيضا باسم : سليم العادل بسبب التزامه الشديد بمبادىء المذهب السنى بالحاق الهزيمة باسماعيل فى معركة عظمى فى وادى شالديران بالقرب من تبريز ثم قام فى عام ١٥١٤ باحتلال الهضبة العاليـة للأناضول الشرقية مما أعطى للامبراطورية العثمانية مكانا دفاعيا استراتيجيا هاما ضد الغزو من جهة الغرب •

ونجم عن ذلك حروب متقطعة بين الامبراطورية السنيـة والامبراطورية الشيعية طوال فترة تزيـد على قرنين من الزمان • وعادة ما كان للعثمانيين اليد العليا من الناحية العسكرية • الا أن التأثيرات الثقافية الفارسية ظلت بمثابة قوة هائلة فى داخل نطاق الامبراطورية التركية • بل وحتى بعد أن تمكن العثمانيون من فرض سيطرتهم الحاسمة على ميزوبوتاميا [العراق] فى القرن السابع عشر نجد أن غالبية أهالى العراق المتحدثين باللغة العربية قد ظلوا يعتنقون المذهب الشيعى • وربما ينظر الى شاه اسـماعيل على أنه مؤسس بلاد الفرس الحديثة [ايران] • وعلى العكس من العثمانيين لم يكن للصفاويد أية طموحات نحو غزو وفتح البلاد المسيحية • وباستثناء أراضى العراق المتنازع عليها ظلت أراضى الامبراطورية الفارسية ثابتة بدون حدوث أية تغييرات جوهرية بهـا حتى حلول الأزمنة الحديثة • ولكن فى داخل نطاق هذه الحدود حدثت نهضة وحركة احياء عظمى لها طابع قومى ودينى • اذ كان شاه عباس الأول الذى

حكم من عام ١٥٨٧ حتى عام ١٦٢٩ قائدا عسكريا بارزا وزعيما اداريا ممتازا وراعيا للفنون • وعلى الرغم من أنه كان غيورا على عقيدته الاسلامية الشيعية الا أنه كان متسامحا مع المسيحيين • بل وسمح للرهبان الكرمليين وغيرهم من الجماعات الكهنوتية الأخرى باطلاق البعثات التبشيرية وبناء الكنائس فى أطفهان وغيرها من الأماكن الأخرى • وتدهورت أسرة الصفاويد الحاكمة على أيدى الحكام الذين جاءوا بعده والذين كانوا أقل كفاءة منه الا أن بلاد الفرس ظلت بمثابة قوة رئيسية سائدة فى المنطقة • وعلى الرغم من وقوع اعتداءات على بلاد الفرس من جانب جيرانها الا أنها لم تعان أبدا من التفكك وتقطيع أوصالها مثلما حدث للامبراطورية العثمانية •

وبعد أن تمكن سليم من الحاق الهزيمة ببلاد الفرس فانه تحول الى المماليك ، وعلى الرغم من أن المماليك كانوا مقاتلين شجعان الا أنهم كانوا غير متكافئين مع الجيش التركى المتفوق فى التدريب والنظام العسكرى • وبعد نشوب المعركة التى تمت بالقرب من حلب فى عام ١٥١٦ والتى مات خلالها السلطان المملوكى العجوز قنصوة الغاورى وتدمر جيشه تماما نجد أن سليم قد تمكن من احتلال سوريا وفلسطين بسهولة كبيرة • ثم قام سليم فى العام التالى يغزو مصر وألحق بالمماليك هزيمة ساحقة نهائية خارج أسوار القاهرة • وأثناء تواجد سليم فى مصر جاءه وفد من حاكم مكة الذى قدم له مفاتيح مدينة مكة المقدسة علاوة على منحه لقب « حامى حمى الأماكن المقدسة » • وهكذا نرى أن راية وعباءة النبى محمد صلى الله عليه وسلم قد نقلت الى استانبول •

وسرعان ما تقبلت ولايات شمال افريقيا أو الولايات البربرية الممتدة حتى مراكش السيادة العثمانية • بل وأصبحت اليمن المتواجدة فى الجزء الجنوبى الغربى من شبه الجزيرة العربية باشاليك أول محافظة عثمانية فى عام ١٥٣٧ وأصبح العالم الناطق باللغة العربية واقعا تحت السيطرة العثمانية باستثناء مراكش فى

أقصى الغرب وعمان بالجزء الجنوبى الشرقى من شـــبه الجزيرة العربية وأواسط شبه الجزيرة العربية التى يسكنها عدد قليل من البدو المتناثرين · وعلى الرغم من أن السلاطين العثمانيين لم يتخذوا رسميا لأنفسهم لقب « خليفـة المسلمين » الا بعد حلول القـــرن الثامن عشر نجد أن زعامتهم للعـــالم السنى الاسـلامى لم تلق اعتراضات الا من جانب ثورات لها أتبـــــاع محليون فى الأقاليم البعيدة ·

وليس من المدهش أن العرب فى هذه الأيام ينظـــرون الى القرون الأربعـة التى عاشوها تحت ظل العثمانيين على أنهـا فترات سوداء فى حياتهم · لأن أجدادهم السابقين قد سمحوا للقيـادة العسكرية فى بادىء الأمر وبعدئذ للقيادة الســـياسية بالعـــالم الاسلامى أن تنزلق الى الأيدى التركية ، اذ كان الأتراك هم الجنس الحاكم بدون شك فى كافة الأماكن بالعالم العربى باستثناء الأماكن الواقعة عند مشارف العالم العربى حيث احتفظ العرب هناك بنوع من الاستقلال السياسى ، وعلى العكس من ذلك نجد أن الفــرس المتواجدين فى داخل أراضيهم الشاسعة كانو أندادا منافســين للأتراك العثمانيين وليسوا رعايا خاضعين لهم ، ومما تسبب فى جرح كبرياء العرب أيضا هو أن اللغة العربية والتى هى مجسد الحضارة العربية قد تنازلت عن القيادة الثقافية الخاصة بها فى الاسلام · وظلت اللغة العربية هى لغة الدين نظرا لأن الفرائض الدنية ينبغى أن تؤدى باللغة العربية الا أن اللغة التركية واللغة الفارسية بعد أن قامتا بامتصاص تأثيرات عربية عميقة أنشــأت لنفسها عوالم ثقافية مستقلة وأكثر حيوية ·

ومع كل ذلك يمكن القول أن الامبراطورية العثمانية كانت بمثابة حضارة اسلامية رائعة · ووصلت الى ذروة مجدها فى عهد ابن سليم الضارى والذى يسمى سليمان الرائـــع أو « سليمان المشرع Lawgiver » والذى مـــارس الحـــكم من عـــام ١٥٢٠

حتي عام ١٥٦٦ وبذلك كان معاصرا لملوك عصر النهضة بأوربا مثل : تشارليس الخامس امبراطور هبسبرج وفرنسيس الأول ملك فرنسا وتيودور هنرى الثامن ملك انجلترا ، وتمكن سليمان من اضافة المجر ورودس وشمال أفريقيا الى امبراطوريته الا أنه فشل فى الاستيلاء على فينا • ولكنه كان قائدا حربيا ممتازا للغاية وكان اداريا رائعا وحازما فى تطبيق العدالة مع الالتزام بالنواحى الانسانية فى نفس الوقت • هذا بالاضافة الى أنه كان يشجع كافة الفنون • ومثل كافة الحضارات العظيمة نجد أن الحضارة العثمانية امتصت العديد من التأثيرات الثقافية الخارجية المختلفة • اذ أخذ السلاطنة الأولون عن البيزنطيين • كما أن سليم وسليمان أحضرا حرفيين وعمال مهرة من تبريز بالاقليم الغربى من بلاد الفرس من أجل القيام بتجميل استانبول ، وفى عهد سليمان وبمساعدة من سنان Sinan وهو نجل رجل مسيحى من الأناضول Anatolia وهو من أعظم المهندسين فى كافة العصور نجد أن العمل الذى ابتدأه محمد الفاتح قد استكمل وأصبحت استانبول مدينة رائعة بمعنى الكلمة عند نقطة التقاء الحضارة الشرقية مع الحضارة الغربية •

وكافة الامبراطوريات العظمى المتعددة الأجناس Multiraical دائما ما تتعرض للاضمحلال والتفكك • وكانت الامبراطورية العثمانية أكبر حجما وأكثر صلابة من الدول القوية التى أنشئت بمعرفة بدو محاربين آخرين بزغوا من أواسط آسيا مثل السلاجقة والمغول والتتار • الا أن التدهور بدأ خلال النصف الثانى من الخمسة قرون التى هى عمر الامبراطورية • ومنذ ذلك الوقت فصاعدا استمر التدهور بدون انقطاع • بل ان المحاولات التى بذلت من أجل ادخال الاصلاحات واحياء الامبراطورية قد أدت الى زيادة تدهورها وتحطمها واضمحلالها •

ومن المتعذر أن نرجع التدهور الى سبب واحد فقط ، ومن

المؤكد أن بذور تفكك الامبراطورية قد بذرت فى الوقت الذى وصلت فيه الامبراطورية الى ذروة مجدها وتألقها فى عهد سليمان الرائع • وعلى مدى أكثر من ١٥٠ سنة ظلت الامبراطورية العثمانية قوة عظمى حيث كانت لاتزال قادرة على أن تغرس فى عقول البابوات ودول غرب أوربا المسيحية الخوف من احتمال اجتياحهم على أيدى الالحاد التركى • ولكن عندما تعرض العثمانيون للهزيمة الثانيـــة عنـد بوابات فينا فى عام ١٦٨٣ على أيدى القوات الحربية التابعـة لملك بولندا نجد أن ذلك أدى الى ازالة التهديدات التركية على نحو حاسم • وتحول ميزان القوى بصفة مستمرة ضد استانبول • ولكن فى عام ١٦٨٣ لم يكن باستطاعة أحد فى أوربا أن يكون متأكدا واثقا تماما من امكانية ضد زحف المسلمين • ولم تتراجع مخاوف الأوربيين الا بعد مرور بعض الوقت •

وبينما يتعذر اجراء تحليل مبسط عن السبب الذى جعـل الامبراطورية العثمانية تتحول الى « الرجل المريض فى أوربا » فان هناك أسباب معينة تكشف عن نفسها • وغالبـــا ما كانت تلك الأسباب هى نفس العوامل الأصليـــة التى كانت ســـببا فى قوة الامبراطورية ونجاحها الا أنها أصبحت بعد ذلك بمثابة عوامـل ضعف بعد أن صارت غير متلائمة مع الظروف المتغيرة ، ففى بادىء الأمر كانت الامبراطورية بمثابة منظمة عسكرية ضخمة تســودها المبادىء والقيم والمثل العليا العسكرية الحربية كما كانت أيضـــا متخذة الطـابع المركزى الى درجـــة كبيرة للغـاية بمعنى أن كافة الأراضى الواقعــة فى نطـــاق الامبراطورية كانت تخص الدولة العثمانية ، وكان النظام الاقطاعى سائدا فى الامبراطورية نظرا لأن الكثير من الأراضى الجيدة كانت تخصص على شكل اقطـاعيات من أجل الارستقراطية الحربية العثمانية الا أن هذه الأراضى لم تكن تورث الا فى حالات نادرة وبالتالى فان الامبراطورية العثمانيــة لم ينشأ بها أبدا طبقة نبلاء اقطاعية على النمط الأوربى تتوازن مع

نفوذ العاهل أو الملك · فاذا كان هذا النمط الأوربى الاقطاعى يعتبر مرحلة جوهرية نحو التطور النهائى للرأسمالية فان ذلك يعتبر السبب الذى جعل الامبراطورية العثمانية تتخلف عن الدول الأوربية من حيث القوة الصناعية والمادية ، ومن ناحية أخرى فان عدم وجود طبقة أرستقراطية مالكة للأراضى كان يعنى أن الامبراطورية فى مراحلها الأولى كانت متساوية اجتماعيا بشكل استثنائى ونادر · وبذلك كان بمقدور ليس فقط المسلمين ولكن أيضا المسيحيين واليهود ـ بل والعبيد السابقين والرجال الذين هم من عائلات متواضعة للغاية ـ أن يصلوا الى أعلى المناصب فى الدولة بشرط أن يعتنقوا الدين الاسلامى ، مثال ذلك أنه فى عهد سليمان الرائع وصل رجل يسمى ابراهيم الى منصب رئيس الوزراء وهو يونانى مسيحى بالمولد ثم تحول الى الديانة الاسلامية ، ومما لاشك فيه أن الامبراطورية العثمانية قد استفادت من هذه المصادر غير العادية للمواهب والقدرات ·

وكان المسيحيون المعتنقون للاسلام هم المصدر الذى تتكون منه واحدة من أغرب وأشهر المؤسسات بالامبراطورية العثمانية : ألا وهى جماعة الانكشارية أو العساكر الجدد· ففى القرن الرابع عشر بدأ مراد الأول فى تجنيد الأولاد المسيحيين ـ وكان يتم اختيارهم على أساس اللياقة البدنية والقدرات الذهنية والذكاء ـ من أجل تكوين مليشيا عسكرية مدربة على أعلى مستوى لكى تكون هى القوة الرئيسية للجيش العثمانى · وكانوا ممنوعين من الزواج ولذلك كانوا يعيشون حياة الرهبنة ويكرسون كل ولائهم للسلطان العثمانى · وعندما توسعت أرجاء الامبراطورية كان يتم استخدامهم من أجل اخماد أية ثورات أو تمردات تظهر بين العدد الهائل من السكان الذين يعيشون فى داخل نطاق الامبراطورية المترامية الأطراف ·

ولم يكن يوجد بالامبراطورية ارستقراطية وراثية وانما كان يوجد بها طبقة حاكمة • وهذه الطبقة الحاكمة تتألف من ضباط الجيش وكبار الموظفين المدنيين وكبار رجال الدين مثل المفتى وكبار المشايخ والعلماء الدينيين • وكانوا يمثلون حكومة السلطان وكانت مهمتهم الحفاظ على سلطة السلطان • ويندرج تحتهم الرعية الذين يتألفون من : جماهير الفلاحين الذين يزرعـــون الأراضى وبعض الحرفيين المتواجدين في المدن • وكلمة « الرعية » كانت تنطبق أساسا على كافة رعايا الحاكم المسلم الا أن هذه الكلمة أصبحت فيما بعد مقصورة على أولئك الناس غير المسلمين الذين ـ بعكس المســلمين ـ يدفعــون ضريبة الرءوس (١) • ونظـرا لأنهم كانوا يشكلون الغالبية العظمى من السكان بالأقاليم الأوربية بالامبراطورية فانهم بذلك كانوا يقدمون معظم الدخل الحكومى من الضرائب • وكان يتم تنظيمهم الى مجتمعات ذات حكم ذاتى تحت رئاسة البطريرك أو الأسقف الخاص بهم والذى كان مسئولا عن حسن سلوكهم ، وكانوا محرومين من ممارسة أى نفوذ سياسى فى داخــل نطاق الامبراطورية ولم يكن يسمح لهم بالانضمام للجيش أو أية أعمال مدنية الا أنهم مع مرور الوقت أصبح لهم نفوذ متزايد فى المجال التجارى والاقتصادى •

ولم يكن العرب المسلمون الذين يشكلون الغالبية العظمى فى الأقاليم التابعة للامبراطورية فى الشرق الأوسط وشمال افريقيــا يعاملون على أنهم مواطنون من الدرجة الثانية على ذلك النحو ولكن فى سوريا / فلسطين والعراق كانت تفرض عليهما طبقة حاكمة عثمانية من الاداريين والمديرين والمحافظين حيث شيدت فى المدن الكبرى الرئيســية حامية عســكرية ضخمة وهيئة من الموظفين المدنيين • والجدير بالذكر أن أعضاء هذه الطبقة الحاكمة قد ظلت

(١) ضريبة الرؤوس : ضريبة مفروضة على كل شخص من البالغين ـ (المترجم) •

تتكلم باللغة التركية بل وفشلت فى تثبيت أقدامهـــا وذلك على العكس من الحكام المماليك السابقين عليهم • ولم يكن هناك استعمار تركي للأراضى • اذ دائما ما كان الموظفون ينقلون الى أقاليم أخرى بالامبراطورية وهى أقاليم ربما لا يتكلم أهلها باللغة العربية وكان من الطبيعى أن يتوقعــوا نقلهـم الى الأراضى الرئيســية التركية • وفى نفس الوقت لم تجـر محـاولات لاضفاء الطــابع التركى على المسلمين غـير الأتراك الذين كانوا رعايا عثمـانيين • ولكن أقلية ضئيلة للغاية اتخذت اللغة التركية كلغة أولى لها ودخلت الى نطاق الطبقة الحاكمة العثمانية ، أما الغالبية العظمى فانها واصلت مسيرة حياتها على النحو الذى كانت عليه من قبل • ولم تدخل الى لغتهم سوى كلمات تركية قليلة للغاية وهى كلمات معظمها يتعلق بالجيش أو المطبخ • أما جبـل لبنـــان الذى يسكنـــه المارون Maronites [طائفـــة مســـيحية صـــغيرة متحدة مع روما] فانه لم يتعرض لأية تأثيرات • اذ نجد هنا أن العثمانيين اعترفوا بالأمراء اللبنانيين المتواجدين فى الاقطاعيات الوراثية الخاصة بهم ومنحوهم نفس حقوق الحكم الذاتى الذى كانوا يتمتعون به تحت حكم المماليك • ومن ثم كانت لبنان هى الجزء الوحيد بالامبراطورية الذى ازدهر به شيء ما مماثل للنظام الاقطاعى الأوربى • ويشير تشـــارلز عســـوى Charles Issawi المؤرخ الاقتصادى الشهير الى أن ذلك هو السبب الذى جعل اللبنانيين وحدهم من بين جميع العرب يحرزون نجاحا ملحوظا فى مجال الرأسمالية •

وكان هناك بعض الاختلاف فى النواحى الادارية فى مصر من حيث هى ولاية عثمانية • اذ كان سليم الشرس على استعداد لأن يترك السلطان المملوكى الأخير حاكما على مصر بشرط أن يكون تابعا وخاضعا له • الا أن السلطان المملوكى تمرد وتم تنفيذ حكم الاعدام فيه ثم قام سليم بتعيين محافظ عثمانى أو باشا • الا أنه تـرك الأمـــراء المماليك ليكونـوا مسئولين عن الاثنى عشر ســـنجق

Sanjak أو محـــافظة التى تتـــألف منهـــا مصر • وكان هـؤلاء الأمراء يتمتعون بدرجة عالية من الحكم الذاتى مما جعلهم يتعاملون مع الأراضى التابعة لهم وكأنها اقطاعيات شخصية خاصة بهم •• حيث كانوا يقومون بجمع الضرائب ومصـادرة المؤن من أجـــل القوات العسكرية التابعة لهم • وكان هناك صراع دائم على السلطة بين الباشاوات وأرستقراطية المماليك التى تضم الأمراء والبكوات وهو صراع غالبا ما كان ينتصر فيـه المماليك قبـل أن تفـــرض استانبول سيطرتها مرة أخرى • وخلال الثلاثة قرون التى شهدت حكما مباشرا عثمانيا على مصر نجد أن أكثر من مائة باشا قد جاءوا تباعا الى مصر ليتولوا منصب نائب السلطان العثمانى فى مصر •

وكانت أوضاع المصريين العاديين أسوأ مما كانت عليها فى خلال السنوات الأخيرة من الحكم المملوكى الفوضوى السـابق على الاحتلال التركى ، اذ لم يكن بمقدورهم أن يتوقعوا سريان الأمن أو العدالة • حيث كان الاداريون العثمانيون والبـــكوات المماليك يتنافسون على اعتصار جماهير الشعب المصرى من أجل الحصـول منهم على الضرائب مستخدمين فى ذلك الضرب بالكرباج • ولم تنفذ أية أشغال عمومية وامتلأت قنوات الرى بالغرين والطمى وانتشرت المجاعة والأمراض فى أرجاء البلاد • وانخفض تعداد السكان الى درجة كبيرة للغاية ، وكان من الطبيعى أن ينظر المصريون الى هذه الفترة على أنها تمثل عهدا مظلما فى حياتهم • الا أن مصر قاست أكثر من باقى الولايات العثمانية الأخـرى • وبسبب اعتماد مصر تماما على نهر النيل وبسبب تمركز السكان فى شريط ضيق فى الوادى والدلتا فاننا نجد أن ازدهار مصر منذ أيام الفراعنـة كان ينبع من تواجد حكومة مركزية قوية حكيمة تتحكم فى مجرى نهر النيل وتوفر الأمن والأمان للأهالى •

أما سوريا فكانت فى وضع أفضل من مصر بسبب أقاليمهـا الصحراوية والجبلية التى تتمتع بالحكم الذاتى على نحو طبيعى •

وكانت العراق بمثابة المياه الخلفية الراكدة النائيـة للامبراطورية ولم تكن فى وضع يجعلها تتذكر مجدها السابق • وكان الباشـا القابع فى بغداد يحكم البلاد مع الاستعانة بحاشيته • ولم تظهر سوى محاولات قليلة تهدف الى توحيـد القبائل التى تنتشر فى معظم الأراضى بحيث تشكل دولة موحدة ، ولكن الانكشـارية قد وفرت الحماية لاقليم العراق وأبعدت عنه المخاطر الخارجية الى أن ظهر التهديد الفارسى مرة أخرى فى القرن الثامن عشر •

ولا ينبغى أن نقلل من انجازات الأتراك العثمانيين ـ وهم من سلالة المحاربين البدو غير المتعلمين القادمين من السهول الأسيوية الشاسعة الخالية من الأشجار ـ فى مجـال تشييد امبراطوريتهم الشاسعة وتسـيير دفة الشئون الادارية بها • وكانت المشكلة تكمن فى أن المؤسسات والتنظيمات التى ابتكروها والتى كانت فى بادىء الأمر أكثر فاعلية وصمودا من تلك التى استخدمت بمعرفة الامبراطوريات التى كانت متواجدة قبلهم فى المنطقة لم يعد بالامكان تطويرها بحيث تواجه الظروف والاحتياجات المتغيرة • وأوضـح مثال على ذلك هم الأنكشارية • ففكرة اختيار شـباب من العبيد المسيحيين وتحويلهم اجباريا الى اعتناق الدين الاسلامى وتدريبهم لكى تتكون منهم القوة الرئيسية الضاربة فى الجيش العثمانى هى فكرة مبتكرة وجديدة وليس لهـا نظير بكل تأكيـد فى أى جيش مسيحى غربى • وبالاضافة الى أن الانكشارية كانت قوة حربيـة ممتازة تستخدم فى شن الحملات الحربية ضد أعداء السلطان فانها كانت تقوم أيضا بالحفاظ على الأمن الداخلى فى أرجاء الامبراطورية ، وبات من المحتم أن تصبح الانكشارية فى يوم ما قوة مستقلة بل وتصبح قوة تعارض احداث أى تغيير فى الأنظمة السائدة • ولدى تدهور التفوق العثمانى فى المهارات الحربية على أعداد الامبراطورية نجد أن الانكشارية عارضوا كافة المحاولات الرامية الى اصـلاح الجيش وفقا للخطوط الجديدة التى نمت وتطورت فى الغرب •

وكلما شعر الانكشارية أن امتيازاتهم تتعرض للتخفيض أو التقلص أو أنه يتم استبدالهم بالمنافسين الرئيسيين لهم ألا وهم رجـــال الخيالة فانهم كانوا يعلنون تمردهم ويقودون أعمال العنف والبربرية الوحشية • وتم كبح جماحهم فى نهاية الأمر ولكن بعـد فوات الأوان نظرا لأن القوى العسكرية العثمانية كانت قد تخلفت كثيرا عن القوى العسكرية فى الغرب •

وكانت السلطنة العثمانية فى حد ذاتها بمثابة مؤسسة أخرى صارمة • اذ كانت تمارس حكما مطلقا استبداديا بدون التفكير على الاطلاق فى أن يشاركها أحد فى السلطة • وكانت حريصة للغاية على الحفاظ على ذاتها حتى ولو تطلب الأمر اللجوء الى الأعمـــال الوحشية • فعندما تولى يزيد الأول السلطة خلفـا لوالده مراد فى عام ١٣٨٩ نجد أن أول عمل قام به بعد أن أصبح سلطانا هو اصدار أوامره بخنق أخيه الأصغر على أساس أنه يمكن أن يصبح منافسا له • وهو بذلك قد أرسى تقليدا امبراطوريا يجيز قتـل الأخ لشقيقه • وهو قد ارتكز على المبدأ الذى يقول بأن أى شىء يعتبر أفضل من التحريض على الفتنة والعصيان • ومن المدهش أن محمد الخامس بعد مرور قرن من الزمان قد أعطى هذا التقليد قوة القانون • اذ نجد أن سليم الشرس قد أصـدر أوامـره بشنق شقيقيه بل وشنق خمسة من أبناء الأخ اليتامى •

ومما لاشك فيه أن القضاء على المنافسين فى داخل الأسرة الامبراطورية قد جنبها الدخول فى حروب مهلكة مثل تلك الحروب التى نشأت بين المماليك • ويمكن القول أن ذلك قد أدى الى الحفاظ على الأسرة الحاكمة العثمانية على مدى ٥٠٠ عام • إلا أن الثمن كان باهظا للغاية • اذ أصبح قصر السلطان مثل مرجل مليىء بفقدان الثقة والخوف وتزايد الخوف لدى تقدم السلطان فى السن حيث كانت أمهات أبنائه تتآمر ــ ولكن عبثا وبدون جدوى فى معظم الحالات ــ من أجل الحفاظ على حياة أبنائهن • وفى بعض الأحيان كان أقل

الأبناء كفاءة هو الذى يتولى الخلافة مثلما حدث عندما تربع على الخلافة سليم السكير خلفا لسليمان الرائع · وكانت ممارسة تنفيذ حكم الاعدام فى الأمراء بسبب احتمالات التحريض على الفتنة وليس بسبب ممارسة الفتنة بالفعل من الأمور التى أثارت رعب العالم المسيحى الغربى مما جعله يشجب النواحي اللا انسانية التركية · وعندما كان يتم تعيين وريث على العرش فانه كان يتم احتجازه فى سراى السلطان فى غرفة صغيرة تسمى : القفص وذلك من أجل حمايته من مؤامرات المنافسين له فتكون النتيجة أنه عندما يتولى الخلافة بالفعل يكون عديم الخبرة فى شئون الحكم · بل وغالبا ما يكون معتل الصحة أو مشوها من الناحية الجسمانية بسبب احتجازه لفترة طويلة فى مكان ضيق ، وكان الحكام الصفاويد ببلاد الفرس لديهم أسلوب مشابه حيث كانوا يسجنون الوريث على العرش فى القصر الامبراطورى مما كان يؤدى الى معاناة الأسرة الحاكمة ·

وكان الخوف من التحريض على الفتنة والعصيان يمتد الى خارج الأسرة الملكية وينتشر فى جميع أرجاء النظام الحاكم الأمبراطورى ، فكبار الوزراء والمحافظين كانوا يتعرضون على نحو منتظم للطرد أو تنفيذ حكم الاعدام فيهم اذا ما اتضح أنهم أصبحوا يتمتعون بقدر كبير من السلطان والنفوذ · وكان ذلك يتم بصفة منتظمة فى عهد سليم الشرس حتى أصبح من المدهش أن يكون هناك أى شخص ما زال على استعداد لأن يتقبل أعلى المناصب · بل وحتى فى عهد سليمان المتصف بالطابع الانسانى نجد أنه أصدر أوامره ـ وكان ذلك تحت تأثير زوجته الطموحة روكسلانا ـ باعدام ابراهيم رئيس الوزراء التابع له · ونظرا لأن نظام الحكم كان يرتكز على عدم الثقة فان السلاطين أصبحوا يعتمدون بشكل متزايد على شبكة شاسعة من الجاسوسية متمركزة فى استانبول من أجل

مراقبة رعاياهم • ولم يكن ذلك وضعا يشجع على تنمية المواهب وروح المبادرة •

وكانت رفاهية الامبراطورية تتوقف أساسا على شخصية السلطان وقدراته • وعندما يكون السلطان غير كفء فان الامبراطورية تعانى معاناة هائلة اللهم الا اذا قام السلطان بمنح السلطة الحكومية لوزير كبير يتمتع بذكاء وقدرات بارزة • وقد حدث هذا فى النصف الثانى من القرن السابع عشر عندما تمكنت مجموعة متلاحقة من الوزراء الكبار من عائلة كوبرولو Koprulu من ايقاف التدهور المتزايد للامبراطورية بصفة مؤقتة • ومن ناحية أخرى فان السلطان الجديد الذى يجىء عقب مرور فترة عانت فيها الحكومة المركزية من الضعف بسبب العجز أو عدم الكفاءة أو الاهمال كان يجد أنه من الضرورى أن يستعيد سلطاته من خلال اللجوء الى الاجراءات العنيفة الخالية من الرحمة • وكانت هذه الاجراءات الشرسة تعتبر أمرا ضروريا من أجل الحفاظ على الامبراطورية •

ومنذ أن نشأت الامبراطورية العثمانية فى بادىء الأمر كانت تتخذ طابع الحرب المقدسة اللازمة من أجل انتشار الدين الاسلامى، وعلى مدى القرنين الأولين على الأقل كانت متفوقة عسكريا على خصومها وكان الولاء العثمانى للمثل العليا العسكرية له ما يبرره • الا أن العسكرية العثمانية ـ وذلك على النقيض من العباسيين فى العهد الذهبى للاسلام ـ كان يواكبها احتقار للصناعة والتجارة • ونتيجة لذلك فان الامبراطورية عندما كانت لاتزال فى ذروة مجدها فانها كانت فى نفس الوقت قد بدأت تتخلف من حيث القوى المادية عن الأنظمة الاقتصادية لدول أوربا المسيحية • وسرعان ما انعكس هذا على ميزان القوى العسكرية •

وهناك سبب هام أدى الى التدهور الاقتصادى للامبراطورية • ففى عام ١٤٩٧ أبحر البرتغاليون حول رأس الرجاء الصالح وفتحوا

بذلك طريقا جديدا يؤدى الى الهند والشرق الأقصى ويتفادى الوصلة التقليدية ما بين أوربا وآسيا من خلال مصر والبحر الأحمر . وسرعان ما بدأ البرتغاليون يتنافسون من أجل السيطرة على الطريق الموازى عبر الخليج ثم سار على نهجهم الفرنسيون والبريطانيون . ولا ينبغي أن نبالغ في تصوير التأثيرات الناجمة عن ذلك . فالآثار المهلكة كانت تنصب على مصر . أما التجار السوريون فكانوا يركزون على الطريق البرى الممتد من ألكساندريتا [اسكندرون الحالية] عبر حلب الى بغداد والبصرة . وظلت بذلك تجارة الترانزيت المزدهرة الى الشرق ومن الشرق متواجدة على قيد الحياة . الا أن قدرا كبيرا من هذه التجارة أصبح واقعا تحت سيطرته أجانب غير مسلمين ممن كانوا يحصلون على امتيازات خاصة قانونية ومالية تضمن لهم الحماية عندما كانت الامبراطورية قوية وقد استغلوا نفس تلك الامتيازات عندما أصبحت الامبراطورية ضعيفة .

والأهم من تحول طريق التجارة هو أن اقتصاد الشرق الأوسط المسلم بوجه عام قد تحول من الاقتصاد التجارى والنقدى الذى كان سائدا في العصور الوسطى والذى كان بمقدوره الاستمرار فى مضاهاة اقتصاد أوربا الى نوع من النظام الاقطاعى العسكرى المرتكز على الزراعة ، الا أن هذا لم يجعل الامبراطورية العثمانية محصنة ضد الكارثة الاقتصادية التى أحدثت تأثيرا على كافة اقليم البحر الأبيض المتوسط فى القرن السادس عشر . فالتدفق الهائل للسبائك الذهبية الواردة من أمريكا الأسبانية تسبب فى تخفيض قيمة العملة الفضية العثمانية مما أدى بالتالى الى التضخم المالى وزيادة الضرائب ، وكانت الحكومة تواجه بالفعل مشكلات تتعلق بتمويل نفقاتها العسكرية الباهظة . كما أن عدم ازدهار القطاع الصناعى والقطاع المالى بالامبراطورية العثمانية ـ وذلك على النقيض

من ازدهار هذين القطاعين فى أوربا الغربية ـ قد ساهم الى حد كبير فى تغيير ميزان القوى عبر السنين ٠

وليس صحيحا أن العثمانيين كانوا يتخذون دائمـــا موقفـــا عدائيا من التعليم والفنون وفقا لما أوحت به سمعتهم فيما بعد ٠ اذ كان سليمان الرائع أحد رجال عصر النهضة ٠ وكان المعرض الذى يصور حياته وانجازاته والذى أقيم فى عام ١٩٨٨ فى وشنجتن ولندن كافيا لتصحيح انطباع عنه من حيث أنه رجـــل تقليـــدى وسطحى الثقـــافة ، ومن المؤكد أن العـــرب ينظـــرون الى القرون العثمانية على أنها سنوات من الركود الثقـــافى ٠ الا أن السبب الرئيسى فى ذلك يرجع الى تخفيض منزلة اللغة العربية علاوة على فقدان الثقة بالنفس من الناحية السياسية ، والشىء الذى لايمكن انكاره هو أنه لدى تدهور الامبراطورية بدأ قادتها ـ سلاطينهـــا وبشواتها وجنرالاتها ورجال الدين بها ـ يتقوقعون على أنفسهم ويعزلون أنفســـهم وينخرطون فى المزيد من المشـــاعر العدائية ويحتقرون كافة الابتكارات الجديدة والتأثيرات الخارجية من كل نوع ٠ وطالب الافتخار الوطنى الاســـلامى بضرورة بذل المحاولات الرامية الى التوافق مع الدول الأوربية من خلال اتخاذ بعض أفكارهم واقتباس بعض وسائلهم ومناهجهم ٠ ولم يكن من المتوقع أن تنجح هذه المحاولات اللهم الا اذا تم اصلاح النظـــام الرجعى المتزمت العثمانى من الداخل ٠ وبذلت جهود صادقة لتحقيق هذه الاصلاحات الا أنها لم تأت بالنتيجة المرجوة فى نهاية الأمر ٠

وكانت المحاولة العثمانية الثانية الفاشلة للاستيلاء على فينا فى عام ١٦٨٣ بمثابة مرحلة حاسمة فى التدهور المستمر للنفوذ العثمانى فى أوربا وتحول مركز الجاذبية بالامبراطورية الى جهـــة الشرق ، وفى نهاية القرن السابع عشر نجد أن عدوا ومنافســـا جديدا بزغ متمثلا فى روسيا الامبريالية التوسعية العدوانيـــة ٠ اذ كان القيصر بطرس الأكبر مصمما على أن يجعل من روسيا دولة

أوربية وأسيوية عظمى وكانت الامبراطورية العثمانية هى العقبة الرئيسية أمام تحقيق طموحاته • وبذلك بدأ قرنان من الحروب الروسية / التركية المتقطعة والتى تفصلها فترات من السلام المشوب بالعداء المتبادل •

وعلى الرغم من أن الامبراطورية العثمانية كانت تتخذ موقفا دفاعيا فى معظم الأحيان الا أن انسحابها من أوربا كان بطيئا وغير منتظم • اذ كانت الجيوش العثمانية مازالت شجاعة وعنيدة بالاضافة الى أنها استفادت من المنافسات المحتدمة الدائرة بين الدول المسيحية الأوربية ، بل انها تمكنت فى النصف الأول من القرن الثامن عشر من استعادة بعض الأراضى التى كانت قد فقدتها مثل الموريا الاغريقية (١) Grecian Morea • وفى نهاية القرن الثامن عشر لم تنجح الامبراطورة كاترين العظيمة فى تحقيق الهدف الذى أعلنته ألا وهو تفكيك أوصال الامبراطورية العثمانية وجعل القسطنطينية عاصمة للبيزنطية الجديدة ، ولكن وفقا لاتفاقية كوشوك كينارجا Küchök Kainarja نجد أن السلطان مصطفى الثالث قد فقد سيطرته على بعض رعاياه المسيحيين بل وفقد سيطرته على التتار المسلمين المتواجدين فى كريميا (٢) Crimea ونظرا لأنه يعتبر خليفة للمسلمين فان ذلك كان يعتبر لطمة أكبر من تنازله لكاترين عن حماية رعاياه المسيحيين الأرثوذوكس •

---

(١) شبه جزيرة فى جنوب اليونان ـ (المترجم) •

(٢) شبه جزيرة فى روسيا السوفيتية ممتدة الى داخل البحر الأسود ـ (المترجم) •

الفصل الثانى

الاسلام فى موقف دفاعى ١٨٠٠ ـ

Islm on The Defensive, 1800

فى نهاية القرن الثامن عشر نجد أن ميزان القوى بين الدول الأوربية المسيحية والعالم الاسلامى المتمثل فى الامبراطورية العثمانية قد تأرجح بشكل حاسم ضد استانبول . فالتقهقر والانسحاب الآخذ فى التزايد من أوربا كان يعنى أن بؤرة الامبراطورية تتجه شرقا . وفى خلال القرون الثلاثة الأولى من عمر الامبراطورية العثمانية ،نجد أن الاهتمامات العثمانية كانت موجهة نحو غزو الأراضى المسيحية والسيطرة عليها ... ومد نفوذ العالم الاسلامى نحو الغرب . ومن هذا استمدت الامبراطورية مجدها وقوتها ، وبالطبع كان امتلاك الأراضى الشاسعة التى يسكنها أساسا العرب المسلمون بما فى ذلك الأراضى الاسلامية المقدسة فى شبه الجزيرة العربية والمدن الاسلامية الكبرى التى لها ماض عريق مثل القاهرة ودمشق وبغداد يعتبر أمرا هاما ولكن قد يقال أن ذلك أمر مسلم به. فالأقاليم المتحدثة باللغة العربية والتى هى راكدة أو متدهورة اقتصاديا كانت تتمتع بقدر كبير من الحكم الذاتى تحت حكم

الأسرات الحاكمة المحلية مثل المماليك فى مصر وامراء الدروز فى جبل لبنـــان ٠

وفى القرن التاسع عشر أصبحت الامبراطورية العثمانيـــة هى الرجل المريض فى أوربا وذلك من وجهة نظر الغربيين ٠ وكرد فعل على ذلك نجد أن السلاطين العثمانيين المتعاقبين بذلوا مزيدا من التركيز على قيادتهم للاسلام : فالرجـــل المريض فى أوربا مازال بمقدوره أن يكون هو الرجل القوى فى آسيا ٠ ولذلك نجد أن لقب « خليفة الاسلام » الذى لاقى الاهمـــال ولم يستخدم على مدى خمسة قرون قد تم احياؤه مرة أخرى وبدأ مندوبو السلطان يطالبون بممارسة سلطات روحية على جميع المسلمين حتى ولو كانوا خاضعين لحكم غير اسلامى ٠

والامبراطورية التوسعية الاستعمارية التى ظهرت فى خلال القرون الأولى بدأت تصبح بمثابة قلعة اســـلامية واقعـــة تحت الحصار ، فالعالم الاسلامى لم يواجه هجوما مباشرا مثل ذلك النوع الذى واجهه فى الحرب الصليبية الأولى التى تفجرت منذ ٧٠٠ عام : اذ كان يتم اختراقه بطريقة تتسم بأنهـــا أكثـــر خبثا وغدرا ٠ فالجماعات التجارية الأجنبية غير المسلمة كانت قد منحت فى بداية الأمر امتيازات وحصـــانات واعفاءات والتى عرفت فيمـــا بعـــد بالامتيـــازات الأجنبيـــة Capitulations بهـــدف تدعيـــم اقتصاد الامبراطورية ٠ وقد منحت أولى هذه الامتيازات لأهالى مدينة جنـــوه الايطالية الذين يســـكنون فى منطقة جالاتا Galata بالقسطنطينية وذلك عقب الاستيلاء على هذه المدينة فى عام ١٤٥٣٠ وربما كانت أهم الامتيازات هى تلك التى منحت لفرنسيس الأول ملك فرنسا بمعرفة سليمان الرائـــع فى عام ١٥٣٥ كمكافأة على التعاون الفرنسى مع السلطان ضد الهبسبورج المسيحيين ٠ ولم تكن الامتيازات ذات طابع اقتصـــادى فقط : اذ منحت الحرية الدينية الكاملة للفرنسيين المتواجدين فى داخل نطاق الامبراطورية العثمانية

والأهم من ذلك أنها منحت الفرنسيين الحق فى حراســة الأماكن المقدســة المسيحية ، بل وتدعمت الحماية الفرنســية على كافة الكاثوليك اللاتينيين المتواجــدين بالمشرق Levant وفى منتصــف القرن الثامن عشر تدعمت هذه الامتيازات وتوسعت وذلك كمكافاة على التأييد الدبلوماسى الفرنسى فى المفاوضات مع النمسا ، وهذه الحقوق الواقعة خارج نطاق التشريع الوطنى والناجمة عن الامتيازات الأجنبية كانت أمرا ملفتا للنظر . فالمحاكم القنصلية الخاصة كانت تمارس النواحى القانونية الكاملة على أبنــاء الدول المعنيــة . فالأشخاص الأجانب غير المسلمين الذين يعيشــون فى تركيــا لم يكونوا خاضعين للقانون العثمانى مهما بلغت فداحة الجريمة التى ارتكبوها .

وكانت فرنسا فى طليعة منافسيها من الأوربيين ولكن ليس بفارق زمنى كبير . وطالبت روسيا بممارسة حقوق حمــاية مماثلة على المسيحيين الأرثوذوكس الذين يعيشــون فى داخل نطــاق الامبراطورية العثمانية . وكانت روابط انجلترا الخاصة تنصب فقط على الأقليات الدينية الصغيرة مثل اليهود والدروز ولكن هذه الأقليات كانت تلقى المساندة من خلال السيطرة المتزايدة لانجلترا فى النواحى التجارية والبحرية فى العالم .

وفى نهاية القرن الثامن عشر أصبحت القوة البحرية البريطانية والطموحات التجارية البريطانيــة بمثابة تهديد جديد للســيادة العثمانية فى العالم الاســلامى الواقع عند المشــارف الشرقية للامبراطورية العثمانية ، ولم يكن البريطانيون هم أوائل الأوربيين الذين يصلون فى قوة عسكرية الى الخليج الفارسى / العــربى : اذ وصــل البرتغاليون الى الخليج قبــل أن يصــل اليه العثمانيون بحوالى ثلاثين عاما ولكى يدعموا أهدافهم الراميــة الى انشــاء امبراطورية عظمى فى الهند والشرق فانهم حاولوا السيطــرة على البحر الأحمر والخليج الفارسى . وشنوا هجمات على الساحل الغربى

الشرقى من مسقط الى البحرين وقاموا بأعمال السلب والنهب • وتركوا حصونا وقلاعا وحاميات عسكرية بهدف السيطرة على أهالى تلك المنطقة من العرب المشتغلين بالتجارة وصيد اللؤلؤ ، وفى خلال القرن السادس عشر نجد أن البرتغاليين قد سيطروا على مياه الخليج ومضايق هرمز • ومن وقت لآخر وبمساعدة من القبائل المحلية كان الأتراك قادرين على تحدى السيطرة البرتغالية بل وطرد البرتغاليين من البحرين ومسقط الا أن التفوق البحرى البرتغالى كانت له أهمية كبيرة •

وكان التواجد البرتغالى يعتبر أيضا بمثابة اهانة عميقة للفرس المتواجدين فى الجانب الشمالى من الخليج • اذ نجد أن شاه اسماعيل وهو مؤسس أسرة الصفاويد الحاكمة والتى حكمت بلاد الفرس كجار معاد عند الحدود الشرقية للامبراطورية نظرا لدخوله فى صراع رهيب ضد الأتراك العثمانيين فانه لم يستطع أن يفعل سوى القليل ، وطوال القرن السادس عشر نجد أن تواجد بلاد الفرس كجار معاد عند الحدود الشرقية للامبراطورية العثمانية هو الذى قلل من مقدرة الأتراك على التوسع أكثر فى داخل أوربا • بل وفى عام ١٥٩٩ حاول الانجليز ـ ولكنهم لم يحرزوا النجاح ـ اقناع الفرس بالتحالف مع الدول المسيحية ضد الأتراك •

وكان التحدى الحقيقى للبرتغاليين يصدر عن دولتين متنافستين : انجلترا وهولندا • فبحلول نهاية القرن السادس عشر نجد أن المغامرين [أو القراصنة] الانجليز والهولنديين كانوا يتنافسون مع البرتغاليين على تجارة التوابل • وكان شاه عباس الأول ملك الفرس [١٥٧١ ـ ١٦٢٩] قائدا حربيا عظيما واداريا ممتازا • وقام بتشجيع شركات الهند الشرقية الانجليزية والهولندية على انشاء فروع خاصة فى بلاد الفرس وأعطى الشركات الصغيرة البازغة امتيازات خاصة • وفى عام ١٦٠٢ تمكن من طرد

البرتغاليين من القاعدة العسكرية الخاصة بهم المتواجدة فى الأراضى الرئيسية لبلاد الفرس شمال جزيرة هرمز • وبعد عشرين عاما تمكن بمساعدة أسطول شركة الهند الشرقية الانجليزية من طرد البرتغاليين من جزيرة هرمز ذاتها ، وعرفانا بالجميل فانه أعطى الشركة امتيازات خاصة فى الميناء الذى يحمل اسمه : ميناء بندر عباس ، وعلى الرغم من أن شاه عباس يعتبر زعيما قويا ومدافعا متحمسا عن المذهب الشيعى الاسلامى الا أنه — مثل السلطان محمد الفاتح العثمانى — قد وضع سابقة منح الامتيازات لغير المسلمين مما أتاح الفرصة أمام الأجانب لفرض سيطرتهم على شريحة كبيرة من الحياة الاقتصادية الاسلامية •

الا أن هذا الاختراق الغربى للعالم المادى لم ينجم عنه سوى تأثيرات ضئيلة على عقول المسلمين ومعتقداتهم فى داخل الامبراطورية ، اذ كان المسلمون واثقين تماما من عظمة الدين الاسلامى وتفوقه على كافة الأديان الأخرى • ولم يظهر المسلمون اهتمامات بأساليب حياة الناس غير المسلمين ، ولذلك فان عدم تردد العصر الذهبى للامبراطورية الاسلامية الأولى فى الاستفادة من الحكمة والمعرفة المتواجدة لدى الحضارات الأخرى كان أمرا رائعا ويتناقض تماما مع أسلوب الامبراطورية العثمانية • ولم يكن هناك سوى أفراد قليلين فى الامبراطورية العثمانية ممن راحوا يفكرون فى الأسباب والعوامل التى أدت الى تقدم وتطور القوى المسيحية • وكما هو متوقع فان أهم الجهود التى بذلت من أجل اقتباس الابتكارات الجديدة الغربية كانت منصبة أساسا على المجالات الحربية والبحرية • مما أدى الى احياء بعض الاهتمامات بالعلوم الرياضية والملاحية وعلم رسم الخرائط • وفى أوائل القرن الثامن عشر نجد أن السلطان أحمد الثالث اللين العريكة المنغمس فى الملذات قد أدخل الى العاصمة بعض فنون المعمار الفرنسية والأساليب الفرنسية الا أن التأثيرات الناجمة عن ذلك

كانت سطحية تماما . فعلى نحو لايصدقه العقل كان هناك حظر شامل على الطباعة باللغة التركية أو اللغة العربية . وكانت الطباعة قد أصبحت معروفة بعد أن قام اليهود والأرمن واليونانيون بادخالها من أوربا الى الامبراطورية العثمانية منذ أواخر القرن الخامس عشر ثم قاموا بانشاء المطابع الخاصة بهم . الا أن السلطات الدينية ظلت تفرض الحظر على المسلمين . وفى عام ١٧٢٧ تم اعطاء تصريح على مضض لأول مطبعة تركية من أجل أن تطبع كتبا تتناول موضوعات بخلاف الموضوعات الدينية . وعندما أغلقت هذه المطبعة فى عام ١٧٤٢ فانها كانت قد أصدرت بالفعل ١٧ كتابا تتناول اللغة والتاريخ والجغرافيا . ولم يسمح لها باستئناف الطبع الا فى عام ١٧٨٤ .

كما أن اللجوء الى الاستعانة بأشخاص غير مسلمين ممن اعتنقوا الدين الاسلامى وتعيينهم فى الوظائف العليا كان قد تغير منذ الأيام الأولى للامبراطورية وأصبح غالبية كبار الموظفين من الأتراك . الا أنهم عادة ما كانوا من الأميين كما كانوا غير قادرين وغير راغبين فى تعلم اللغات الأجنبية كما كانت اهتماماتهم ضئيلة ببقية العالم الخارجى . ومن ثم كانت الامبراطورية تستعين بمترجمين من المسيحيين واليهود . وأصبح الترجمان الرئيسى اليونانى شخصية موثوقا بها ومتمتعة بالنفوذ .

وهكذا نجد أن الحركات العظمى للأفكار والنظريات بأوربا الغربية ابتداء من عصر النهضة وخلال عهد الاصلاح وعهد الاصلاح المضاد قد ترك الامبراطورية العثمانية على ما هى عليه بدون أن تمس . وقد انطبق نفس هذا الوضع على بلاد فارس فى عهد الصفاويد .

وفى الولايات المتكلمة باللغة العربية بالشرق الأوسط وشمال افريقيا والتى يشكل بها المسلمون الغالبية العظمى من السكان نجد أن القيادة العثمانية للأمة الاسلامية كانت تلقى

القبول من جماهير الناس المسلمين ، ورغم أن الأسرات الحاكمة المحلية قد حققت قدرا كبيرا من الحكم الذاتي في مصر وتونس والعراق في القرن الثامن عشر الا أنها كانت لا تصل الى مرحلة تحدى السيادة العثمانية أو محاولة انشاء دولة مستقلة ترتكز على أساس من الأراضي الاقليمية ـ حيث أن تعبير الأراضي الاقليمية في ذلك الوقت لم يكن له أي مدلول أو معنى ، وكذلك نجد أن الأقليات المسيحية التي هي على هيئة ملل تتمتع بالحكم الذاتي قد تقبلت البنيان الشامل للامبراطورية ، وكانت ولاءاتها دينية وليست سياسية ولكنهم روضوا أنفسهم في غير تذمر على تقبل أوضاعهم المتسمة بالتبعية .

ومن داخل شبه الجزيرة العربية برغ أهم رفض اسلامي للقيادة التركية للعالم الاسلامي . ففي منتصف القرن الثامن عشر وفي هضبة نجد التي هي مركز شبه الجزيرة العربية ظهر مصلح ديني مشهور يسمى محمد بن عبد الوهاب . وراح ينشر مبدأ التوحيد الجوهري واستنكار الانغماس في المعاصي والاتجاهات الوثنية والمناداة بالعودة الى النقاء الذي كان متواجدا في الفترات الأولى من ظهور الاسلام . وقام محمد بن عبد الوهاب بعقد تحالف متين مع أسرة حاكمة قبلية محلية قوية تسمى « بيت سعود » [وبذلك فانه زرع البذور التي نمت وتعاظمت وكونت عقب مرور قرنين من الزمان المملكة العربية السعودية] . وفي النصف الثاني من القرن الثامن عشر زحف المحاربون الوهابيون شمالا الى الخليج ومنه الى ميزوبوتاميا [العراق] حيث قاموا هناك بسلب ونهب الأماكن المقدسة في نجف وكربلاء . وبعد ذلك زحفوا في اتجاه الغرب وتمكنوا في عام ١٨٠٦ من الاستيلاء على منطقة الحجاز التي تضم الأماكن المقدسة في مكة والمدينة المنورة . ثم قاموا بتدمير العديد من أضرحة أولياء الله الصالحين بالاضافة الى انتزاع وتمزيق كسوة الكعبة التي تعتبر أكثر الأماكن الاسلامية تقديسا حيث

ويوجد بها المسجد الكبير وأخذوا من ذلك المسجد بعض الزينات والمقتنيات الخاصة به • وأصدر الأمير محمد آل سعود أوامره بأن تقرأ الصلوات العامة باسمه بدلا من اسم الخليفة / السلطان العثماني حيث كان يعتقد أن الأتراك العثمانيين غير جديرين بأن يكونوا حماة وحراسا للأماكن المقدسة •

ولدى اقتراب القرن الثامن عشر من نهايته كانت سلطة الخليفة على الاسلام السنى مازالت سارية المفعول الى درجة كبيرة • وفى عام ١٧٨٩ تفجر حدثان هامان مما ساعد على كسر العزلة العثمانية : ألا وهما نشوب الثورة الفرنسية ووصول السلطان المصلح سليم الثالث الى الحكم • اذ أدخلت الثورة الفرنسية المفاهيم الذهنية الجديدة عن الحرية السياسية والمساواة • كما خلقت أيضا أساس القوميات على النحو الذى عرفت عليه فى خلال القرنين الأخيرين وهو أساس يرتكز على الولاء للدولة القومية (١) • وكان أهم عنصر هو أن الحركة كانت علمانية • اذ كانت حركة غير مسيحية بل وكانت فى بادىء الأمر على الأقل حركة مناهضة للمسيحية • وهى بذلك لم تتسبب فى اثارة العداء الاسلامى الفورى الذى كان يمكن أن يظهر بسبب أى شىء له طبيعة الحروب الصليبية •

وكان سليم الثالث مهتما أكثر من السابقين عليه بالأفكار الجديدة الواردة من الخارج كما كان مهتما بامكان استعادة الامبراطورية لقوتها ومجدها من خلال ادخال الاصلاحات • بل وكان يتراسل فى السر مع الملك لويس السادس عشر قبل نشوب الثورة الفرنسية حيث كان معجبا للغاية بالثقافة الفرنسية • ورغم قيام الثوريين الفرنسيين بقتل ملكهم فان سليم الثالث لم يتراجع عن اعتناق الأفكار الجديدة • وكان للنجاح الهائل الذى أحرزته الأسلحة

---

(١) دولة مؤلفة من قومية واحدة لا من قوميات متعددة ـ (المترجم) •

الفرنسية ضد خصوم الثورة الفرنسية أثر كبير في تشجيع سليم الثالث على جلب المدرسين والمدربين الفرنسيين للعمل في مدارسه العسكرية والحربية الجديدة التي أصبح تدريس اللغة الفرنسية فيها اجباريا • وبدأت تظهر طبقة كاملة جديدة من الضباط الشبان الأتراك الذين يألفون الطرائق الغربية والذين أصبحوا على استعداد للتعلم من التفوق التكنولوجي الغربي • وكجزء من الانفتاح على الغرب سمح سليم الثالث لأول مرة بانشاء سفارات في خمسة من كبرى العواصم الغربية على أساس تبادلي •

بل والأهم من ذلك أن سليم الثالث حاول تطبيق اصلاحاته على الشئون الادارية الداخلية في الامبراطورية • فعندما علم بأن جيشه قد هزم على أيدي كاترين الكبرى ملكة روسيا فأنه قام بتشكيل مجلس لكي يبحث في الأسباب التي أدت الى وقوع الهزيمة والكارثة واقترح ادخال الاصلاحات على أساس أنها هي العلاج الوحيد • كما أصر أيضا على ضرورة أن يقوم الأهالي بانتخاب العمد وأعضاء المجالس البلدية بدون تدخل من المحافظين التابعين له • بل وحاول القضاء على الابتزاز غير القانوني والاستيلاء على جزء من حصيلة الضرائب [حيث كان يسمح للمحافظين المحليين أو محصلي الضرائب بأن يأخذوا لأنفسهم جزءا من حصيلة الضرائب]

الا أن اصلاحات السلطان سليم لم تمتد لكي تشمل الأقاليم العربية الواقعة في نطاق الامبراطورية حيث كانت السلطة متركزة الى درجة كبيرة في أيدي الحكام المحليين • اذ كانت دمشق خلال معظم فترات القرن الثامن عشر يحكمها محافظون من عائلة العزم Azm الذين ظلوا يدينون بالولاء السلطاني العثماني • الا أنهم كانوا يديرون شئون الاقليم في استقلال عن السلطان • وكذلك منطقة صيدا Sidon الواقعة على الشاطيء السوري كان يحكمها بنفس الأسلوب حاكم شرس من البوسنة يسمى

أحمد الجزار ويعـــاونه فى ذلك زمرة من المماليك التابعين له ٠ وكانوا يسيطرون على الانكشارية وأوقفوا البدو النهابين عند حدهم٠ وازدهرت المدن ولكن المناطق الريفية كانت غير آمنة ومهملة ٠ وبسبب الضرائب الهائلة كان الفلاحون يهربون فى جماعات كبيرة الى المدن الكبيرة ٠ ولم تزدهر الزراعة الا فى المناطق الجبلية الواقعة تحت سيطرة الأمراء المحليين من المارون والدروز ٠

وكان الوضع فى ميزوبوتاميا [العراق] مماثلا ٠ وهنا كان يوجد نزاع مستمر بين سلسلة من المناضلين من أجل الحصول على السلطة ٠ الا أن التناقض كان أعلى مما هو عليه فى ســـوريا بين القصور الغنية لبشوات بغداد والبصرة والتخلف والفقر المنتشر فى ربوع الريف المتدهور ٠ وكانت العراق على حافة الموت جوعا رغم أنها كانت فى العصور الوسطى منطقة عظمى لانتاج الطعام ٠

أما فى اقليم مصر الحيوى فان الوضـــع كان مختلفـا بعض الشىء ٠ اذ لم يكن بالمستطاع تدمير انتاجية وادى النيل والدلتا التى تعتبر أخصب الأراضى الزراعية فى العالم كله ٠ فمع وجود حد أدنى من الأمن والحكومة الفعالة تمكنت مصر من تصدير البن والقمح والأرز الى الآمبراطورية العثمانية ٠ كمـــا أن الحرفيين والصناع المهرة بالمدن المصرية كانوا ينتجون الأقمشـــة الممتازة ، وعلى مدى سنوات قليلة [١٧٦٨ ــ ١٧٧٢] نجد أن المملوك الشهير على بك قد أنشأ الحكومة المركزية القوية التى تحتاجها البلاد ٠ ولكن بعد موته تفجر الصراع مرة أخـــرى بين الموظفين العثمانيين والبكوات المماليك ٠ اذ كانوا يتنافسون من أجل انتزاع المزيد من النقود من أيدى الفلاحين التعساء ٠ وهبط العدد الاجمالى للسكان وأصبح أقل من ٢ مليون نســـمة فى حين أن عددهم كان يقـــدر ب ٨ مليون نسمة فى الأزمنة الرومانية ٠ الا أن أراضى مصر كانت لا تزال بمثابة غنيمة باهرة تستحق النضال من أجلها ٠

وعلاوة على الخصوبة الشديدة للأراضى الزراعية فى مصر فان مصر كانت تتمتع بموقع استراتيجى جغرافى نظرا لوقوعها عند المفصل الذى يربط قارة افريقيا بقارة آسيا مما جعلها تتحكم فى الطريق الرئيسى المؤدى الى الهند والشرق • وفى عام ١٧٩٨ نجد أن نابليون بونابرت البالغ من العمر ٢٩ عاما وهو ديكتاتور فرنسا الذى هزم النمسا فى سلسلة من الحملات العسكرية الرائعة المبهرة قد اعتقد أن احتلاله لمصر يعتبر وسيلة لضرب مصدر ثروة بريطانيا التى هى العدو الخبيث المتبقى أمام فرنسا بالاضافة الى أنه وسيلة للسيطرة على الطريق المؤدى الى الهند • وذهبت طموحاته الى آفاق بعيدة • ولقد عبر تاليران عن آرائه أمام حكومة المديرين بفرنسا (١) التى كانت تحكم فرنسا آنئذ : « ان حربنا مع هذه الدولة [انجلترا] تتيح لنا فرصة عظيمة لغزو مصر • لأن انجلترا التى تشعر بأن قواتنا على وشك النزول فى القريب العاجل على شواطئها لن تترك شواطئها من أجل احباط خطة استيلائنا على مصر • وهذا سوف يتيح لنا فرصة لاخراج الانجليز من الهند من خلال ارسال ١٥ ألف جندى الى الهند من القاهرة عبر السويس » • ومثل هذا الانجاز كان من شأنه تحطم الامبراطورية العالمية الوليدة الخاصة ببريطانيا •

وبعد أن نزل بونابرت الى الشاطىء بالقرب من الاسكندرية فى يوليو ١٧٩٨ فانه زحف الى الداخل وتمكن من هزيمة جيش المماليك فى معركة بالقرب من أهرامات الجيزة • وفر البكوان المعينان من قبل السلطان العثمانى الى مصر العليا تاركين بونابرت لكى يشيد حكومة الاحتلال العسكرية الخاصة به ، وهذا الحدث الخطير البالغ الأهمية يعتبر هو أول غزو غير اسلامى للأراضى الداخلية الرئيسية الاسلامية منذ الحروب الصليبية • وبذل

(١) حكومة المديرين بفرنسا من عام ١٧٩٥ حتى عام ١٧٩٩ ـ (المترجم) •

بونابرت جهودا كبيرة لكى يظهر احترامه للدين الاسلامى • بل انه قال لمشايخ الجامعة الأزهرية أنه من أتباع محمد صلى الله عليه وسلم وأن جيشه يتمتع بحماية النبى الخاصة • ولم ينخدع المشايخ بهذا الكلام • وتساءلوا فى تعجب : ولماذا لم يعتنق هو وجنوده الدين الاسلامى ويصبحوا مسلمين ؟ وحاول بونابرت أيضا اقناع المصريين بأنه لا يدخل فى نزاع ضد السلطان العثمانى ولكنه يتصارع مع المماليك وأشار الى أنه قد جاء ليخلص المصريين من طغيان المماليك • وكان يعامل المشايخ والوجهاء المصريين على أنهم قادة سياسيين وعينهم أعضاء فى الدواوين أو المجالس لكى يديروا شئون المدن الكبيرة مع مندوب فرنسى كرئيس ومستشار للديوان ، وكان ذلك بمثابة شكل مستنير من أشكال الحكم الاستعمارى غير المباشر • الا أنه فشل فى كسب قلوب وعقول الشعب المصرى ، اذ نجد أن الجبرتى ــ وهو شيخ الأزهر ومؤرخ ترك لنا وصفا للاحتلال الفرنسى قد وصف ذلك بأنه بداية نقض وابطال النظام الطبيعى ، وشعر الجبرتى مثل اخوانه المسلمين بالذعر لدى ترقية وتعيين الأقباط المسيحيين واليونانيين فى الوظائف الكبيرة ووظائف تحصيل الضرائب علاوة على الحاق المسيحيين بأعداد كبيرة فى الجيش وكان المصريون مازالوا ينظرون الى الفرنسيين على أنهم دخلاء ، ولم يصدقوا الادعاء بأنهم يدعمون نفوذ السلطان العثمانى •

وعلى الرغم من ميل بونابرت للقيصرية (١) فانه كان نتاجا لحركة التنوير بالقرن الثامن عشر حيث أنه قد أحضر معه الى مصر ١٦٥ من العلماء والفنانين والأدباء • وشيدت هذه البعثة من العلماء المطابع التى تطبع الكتب باللغتين الفرنسية والعربية بالقاهرة • كما شيدت « معهد مصر » على غرار المعهد الوطنى فى باريس • وقام

---

(١) القيصرية : الدكتاتورية السياسية والطغيان العسكرى ــ (المترجم) •

أعضـــاء المعهد المصرى بدراســـة الآثار القديمة واللغات المصرية القديمة ووضعوا أسس علم دراســـة الآثار المصرية القديمـــة Egyptology • بل وقامـــوا أيضـــا بدراســـة اقتصـــاد ومجتمع مصر المعاصرة بالاضافة الى اعداد دراســـة مستفيضة عن امكانية حفر قناة السويس • ولقد أثار الكتاب الرائع الذى جـــاء نتيجة لجهودهم والذى صدر تحت عنوان « وصف مصر » اهتمام أوربا بمصر الفرعونية وبالعالم الاسلامى المعاصر الذى كان غامضا وغير معروف • وحصل بذلك الاستشراق (١) فى العالم الغربى على حافز جديد تماما •

وقام المصريون المثقفون من أمثال الشيخ الجبرتى بزيارة المعهد وماكينة الطباعة • كما شـــاهدوا التجارب الكيماوية والعلمية • وشاهد الجبرتى بالونا أطلق فى سماء ميدان الأزبكية بالقاهرة • ولكن رغم انبهار المصريين بالعروض الخاصة بالتكنولوجيا الغربية فان معتقداتهم الأساسية لم تتعرض للاهتزاز •

وكانت الحملة العسكرية التى قادها بونابرت على مصر تعتبر فاشلة من حيث تحقيق أهدافها الاستيراتيجية • اذ نجد أن السلطان سليم قام بتكوين تحالف ضده مع عدوى فرنسا : انجلترا وروسيا• وقد أدى تدمير الأسطول الفرنسى فى معركة أبى قير على أيدى نلسون فى أغسطس عام ١٧٩٨ الى وضع خطوط مواصـــلات بونابرت مع فرنسا تحت رحمة هؤلاء الحلفاء • وعندما زحف بونابرت الى سوريا لكى يحبط الغزو التركى فانه أرغم على الرجوع الى عكا وتعرض لهزيمة ساحقة هناك • وفى أغسطس ١٧٩٩ اضطر الى أن يغادر مصر ومعه عدد قليل من أتباعه حيث تسللوا عائدين الى باريس التى كانت تشهد صراعا حاسما على السلطة • واستمر خلفاؤه متواجدين فى مصر لمدة عامين آخرين حيث واجهوا حالات من العصيان المسلح

---

(١) الاستشراق : معرفة ودراسة اللغـات والآداب الشرقية ـ (المترجم) •

من وقت لآخر · كما واجهوا هجمات من جانب القوات الانجلو / تركية التى كانت تهدف الى ارغامهم على الانسحاب من مصر · وعلى الرغم من نجاحهم فى صد هذه الهجمات أكثر من مرة الا أن موقفهم الضعيف أرغمهم فى نهاية الأمر على الجلاء عن مصر ·

وكان غزو بونابرت بمثابة ابيسود أو حدث قصير فى تاريخ مصر الطويل · الا أنه ترك بصمات لها أهمية دائمة · اذ أثار فى الغرب موجة من الاهتمام بالمناطق العربية / الاسلامية الواقعة فى نطاق الامبراطورية العثمانية · كما كان بمثابة البداية الأولى لتفجر صراع طويل بين الدول الأوربية من أجل فرض السيطرة والنفوذ على هذه الأراضى · واستمر ذلك الصراع لمدة قرن ونصف القرن من الزمان · واشتمل ذلك الصراع فى بادىء الأمر على كل من انجلترا وفرنسا ولكن روسيا كانت أيضـــا مهتمة بمنطقة الشرق الأوسط الواقعة عند حدودها الجنوبية · وكذلك فى خلال الجزء الأخير من القرن التاسع عشر نجد أن الولايات المتحدة الجديدة لكل من ألمانيا وايطاليا بدأت أيضا فى التدخل فى شئون الشرق الأوسط ·

وردت بريطانيا على تهديد بونابرت لمصالحها الحيوية بأن قامت بمساعدة السلطان العثمانى على طرد الفرنسيين من مصر · وامتدت المنافسة الأنجلو / فرنسية أيضـــا الى الخليج والمحيط الهندى · وعقب نشوب الحرب بين فرنسا وانجلترا فى عام ١٧٩٣ قامت فرنسا بايفاد بعثات عديدة الى استانبول وطهران فى محاولة منها فى عقد تحالف ودى يضم تركيا وايران ضد روسيا علاوة على احياء النفوذ الفرنسى فى داخل بلاد الفرس · وظهـــر العملاء الفرنسيون أيضا فى الخليج · وراحوا يدرسون تحركات السفن البحرية ما بين المياه العربية والهند · وحصل التدخل الفرنسى على قوة دافعة جديدة تماما من خلال غزو بونـابرت لمصر · وتدعمت الهجمات على السفن التجارية البريطانية على أيدى القطع البحرية

الحربية الفرنسية وعلى أيدى مراكب القرصنة المفوضة من قبل الحكومة الفرنسية بمهاجمة سفن العدو والاستيلاء عليها ، وكانت مراكب القرصنة هذه تتخذ من موريشيوس قاعدة لهـا ، ودام « عهد نابليونى » فى المنطقة الى أن تم طرد الفرنسيين من موريشيوس فى عام ١٨١٠ ٠

وكان أول رد فعل بريطانى على وصول بونابرت الى مصر هو قيام شركة الهند الشرقية بالتوقيع على معاهدة مع السلطان فى مسقط ، وفى العشرينات من القرن التاسع عشر تم التوقيع على معاهدات مماثلة مع حكام محليين آخرين متواجدين على طول الشاطىء الخليجى ٠ وتطورت هذه المعاهدات الى اتفاقيات هدنة يتم التفاوض بشأنها سنويا ، وقد سعت بريطانيا من خلالها الى انشاء السلام البريطانى (١) Pax Britanica على مياه الخليج ٠ وفى هذه المرحلة كانت الطموحات البريطانية فى منطقة الخليج متخذة الطابع البحرى / التجارى وليس الطابع الاستعمارى ، اذ لم يكن هناك تفكير آنئذ فى تحدى سلطات الامبراطورية العثمانية أو الامبراطورية الفارسية أو تحدى سلطات الحكام العرب المستقلين والذين كانوا لايخضعون للسيطرة العثمانية ، وكانت كل اهتمامات بريطانيا آنئذ تنصب على قيام هؤلاء الحكام العرب المستقلين بالمساعدة فى قمع القرصنة وعدم اعطائهم تنازلات للدول المنافسة لبريطانيا ٠

---

(١) السلام الذى فرضته بريطانيا وفق شروطها على بعض المناطق التى أخضعتها وسيطرت عليها ـ (المترجم) ٠

الفصل الثالث

مصر فى عهد محمد على : منافسة للعثمانيين

Mohammad Ali's Egypt : Ottoman Rival.

لقد كان للابيسود [الحدث] النابليونى تأثير مباشر ضئيل على مصر • ولكنه من خلال الحاق الهزيمة بالبكوات المماليك واضعاف نفوذهم وسيطرتهم على البلاد كان له تأثير هام غير مباشر • وعندما رحل الفرنسيون عن مصر خرج المماليك من الأماكن التى كانوا يختبئون فيها وحاولوا فرض سيطرتهم مرة أخرى • وفى نفس الوقت حاول السلطان سليم الثالث طردهم وفرض سيطرة مباشرة على مصر من استانبول • الا أنه فشل فى ذلك نظرا لأن البريطانيين الذين كانوا لايزالون يحتلون الاسكندرية • وقفوا فى صف البكوات المماليك وساندوهم • وعندما رحل البريطانيون عن الاسكندرية فى عام ١٨٠٣ فانهم تركوا الموقف متميعا حيث لم يكن لدى المحافظ التركى أو البكوات المماليك القوة الكافية التى تعين على التسيد وفرض النفوذ • ونتيجة لذلك تفجرت حرب أهلية وفوضى على مدى عامين • وازدادت الأمور سوءا عندما تمردت القوات العثمانية الألبانية ضد المحافظ وتجزأت السلطة ما بين مندوبى

السلطان وجماعة الجنود الجامحين الذين يتعذر السيطرة عليهم والبكوات المماليك [الذين كانوا منقسمين على أنفسهم الى فئتين] .

وفي خلال هذه الفوضى الناجمة عن عدم وجود حكومة في البلاد نجد أن محمد على قائد الكتائب العسكرية الألبانية التي جاءت الى مصر ضمن الحملة العسكرية الأنجلو / عثمانية في عام ١٨٠١ قد بزغ الى الوجود كحليف لبعض قادة المماليك ضد المحافظ العثماني . وفي ١٣ مايو ١٨٠٥ طلب العلماء الدينيون وكبار التجار وغيرهم من الوجهاء الآخرين والمندوبين من محمد على أن يصبح قائدا وزعيما لهم .

وكان السلطان سليم يشعر بالشك والارتياب في نوايا وأهداف محمد على . فهناك بعض الشكوك في أن محمد على قد عمل على تعميق حدة الفوضى مما دفع المصريين الى اللجوء اليه لكي ينقذهم من تلك الفوضى . لذلك حاول السلطان ابعاد محمد على عن مصر بأن قام بتعيينه واليا على جدة في شبه الجزيرة العربية . فقام وجهاء القاهرة المؤيدون من جانب جماهير الشعب بتوحيد صفوفهم وأعلنوا عن أنهم يرغبون في أن يحل محمد على محل خورشيد باشا وهو المحافظ العثماني المتواجد بالقاهرة . وبعد شهور قليلة من الفوضى والاضطرابات أحنى السلطان سليم رأسه أمام الحقائق الواقعة ووافق على تعيين محمد على واليا على مصر .

وهكذا نرى أن واحدا من أشهر شخصيات القرن التاسع عشر قد بدأ يفرض سيطرته على مصر ، وظلت أسرته الحاكمة تحكم مصر ـ سواء حكما حقيقيا أو من الناحية الاسمية الشكلية ـ على مدى قرن ونصف القرن من الزمان الى أن تم طرد حفيده حفيده الملك فاروق من العرش في عام ١٩٥٢ .

لقد ولد محمد على في منطقة السهل الساحلي التي تطل على بحر ايجه بمقدونيا . وكان يجمع بين عبقرية الزعيم السياسي والقائد العسكري البارع . وعلى الرغم من أنه كان أميا ولا يعرف

القراءة والكتابة الا أنه لم يكن متعصبا أو ضيق الأفق ، فهو بعد أن عمل فى تجارة التبغ أثناء فترة شبابه أصبح معتادا على التعامل مع غير المسلمين والأوروبيين • وكان يتمتع بذكاء حاد وسرعة فى استيعاب الحقائق الجديدة وتحليل مدى أهميـــة تلك الحقائق • وكان قاسيا ومتحجر القلب وشديد الطموح ومستعدا لممارســة القسوة العنيفة • ولكنه مع ذلك كان يتمتع بالجاذبيـة • ومهما كانت المكانة الرفيعة لضيوفه من الأجانب فانهم كانوا يخافون من نظـــراته الخارقة رغم اســـتمرارهم فى الاعجـــاب بشخصيته الباهرة •

ولم يكن محمد على يعتبر نفسه مصريا أو عربيا • وهو لم يكن يتكلم باللغة العربية على الاطلاق • الا أنه كان قد قرر بالفعل فى عام ١٨٠٥ أن يتخذ من مصر قاعدة لنفوذه وسلطانه • ولكى يفعل ذلك فانه كان عليه أن يحول الولاية العثمانيـــة الى دولة قوميـة nation-state (١) على النحـــو الـــذى كانت عليه فى عهـد الفراعنة • وبعـــد أن تحقق له ذلك فانه اقترب من اجتيـــاح الامبراطورية العثمانية ذاتها •

الا أن تعيينه واليا على مصر لم يوفر له احـــكام السيطرة عليها • اذ كان البـــكوات المماليك مازالوا يسيطرون على الأماكن الريفية المتواجدة خارج نطاق القاهرة كما كانت بريطانيا مازالت تتدخل لصالح هؤلاء المماليك • وبدأ محمد على يضـــع الخطط الرامية الى تدمير المماليك مع استخدام المكر والخداع والقسوة • إلا أنه كان عليه أولا أن يتعامل مع التهديدات البريطانية • وقد ساعده فى هذا الصدد الحقيقة التى مفادها أن السلطان سليم تصالح مع بونابرت بينما كانت بريطانيا وروسيا تتنافسان لارغام السلطان

(١) الدولة القومية : دولة تتألف من قومية واحدة لا من قوميات متعددة ـ (المترجم) •

على الدخول فى تحالف ضد فرنسا · وكان السلطان سليم مازال معجبا بورثة الثورة الفرنسية كما كان الضباط الفرنسيون مازالوا مستمرين فى تدريب جنود المدفعية التابعين له · ومما لا شك فيه أنه كان منبهرا بالانتصارات الجديدة التى أحرزها بونابرت فى النمســا · وكان يعترف به كامبراطــور للفرنسيين · فشعرت بريطانيــا وروســـيا بالحنق والغضب وقامتا بتكثيف ضغوطهما المتنمرة · وفى عام ١٨٠٧ أبحر أســطول بريطانى تحت قيــادة الأدمـــيرال داكـــويرث Duckworth الى بحـــر مرمـــارا Marmara ووجـــه انذارا للأســطول العثمــانى لكى يستسلم · وأشار الى أنه فى حالة عدم استسلامه سيبادر الى حرقه وقذف استانبول بوابل من القنابل · فقام الســـلطان ـ بمســـاعدة من سباستيانى Sebstiani وهو ســـفير فرنسى وقـــائد عســـكرى بتدعيم دفاعات العاصمة وتمكن من طرد الأسطول البريطــانى · وبعدئذ أبحر داكويرث الى الاسكندرية وأنزل هناك حملة عسكرية لكى يحبط هجوم فرنسى جديد متوقع حدوثه فى البحـر الأبيض المتوســط ·

ولكن تم صد البريطانيين وردهم على أعقابهم · ويشـــير الجبرتى الى أن موظفى محمد على أبلغوا البريطانيين أنهم لايرحبون بنزولهـم الى الشواطىء من أجل حمـــاية مصر من الفرنسيين لأن الأراضى المصرية هى أراضى تابعة للسلطان · كمـــا أن المماليك رفضوا تقديم المساندة للبريطانيين الذين طلبوا منهم ذلك · لأن المماليك لم يكونوا على استعداد للانضمام للمسيحيين من أجـل محاربة المسلمين · وانتشرت المقاومة الشعبية وألحقت بالبريطانيين هزيمة نكراء عند رشيد · وفى ذكاء ومكر تجنب محمد على الدخول فى مواجهة كاملة ضد البريطانيين بالاسكندرية ووافق طبقا لشروط متساهلة على انسحاب قواتهم البحرية والعسكرية · وكان محمد على يشك دائما فى نوايا البريطانيين ازاء مصر وكان يدرك أن بريطانيا

ستصبح فى نهاية الأمر هى خصمه اللدود الرهيب ـ ولكن ذلك سيتم بعد سنوات عديدة مستقبلا ٠

وكان لايزال أمام محمـــد على أن يواجـه التحدى المملوكى لحكمه ٠ فاستمرت حملته العسكرية الموجهة ضد المماليك على مدى سنوات عديدة ٠ ولم تكن هذه مهمة سهلة ٠ فعلى الرغم من عدم تمتع المماليك بالشعبية بين جماهير المصريين الا أنهم كانوا مترسخين فى داخل المجتمع المصرى ٠ هذا بالاضافة الى أن جنوده العثمانيين كانت لهم مطالب كثيرة علاوة على اتسامهم بالجموح والعنـــاد ٠ ثم تمكن محمد على من اقناع بعض البكوات المماليك بالعيش عند مشارف القاهرة حيث يصبح بمقدوره الاشراف عليهم ومراقبـــة تصرفاتهم ٠ وبقى بعض البكوات المماليك فى صعيد مصر حيث حاولوا أن يجعلوا من صـــعيد مصر معقـــلا لهم ٠ وبعدئذ تمكن محمد على من الحاق الهزيمة بهم فى سلســلة من الاشــتباكات الصغيرة المتتالية ٠ وفى داخل القاهرة كان يوجد عدد متبقى من المماليك البكوات ٠ ولكن محمد على لم يكن متأكدا تماما من ولائهم له ٠ فقـام فى ١١ مارس ١٨١١ بتوجيه الدعوة لهم لكى يحضروا استقبالا يتم فى القلعة ٠ ثم أصدر أوامره بذبحهـــم فى مذبحة جماعية ، وتشير الروايات المتناقلة أن شخصا واحدا فقط من المماليك تمكن من الهرب وذلك بالقفز بحصانه من فوق القلعة ٠

وهكذا أصبح الطريق ممهدا أمام محمد على لكى يحقق أحلامه الرامية الى تحويل مصر الى دولة مركزية قوية تكون مستقلة فى حقيقة الأمر رغم كونها ولاية عثمانية من الناحية الشكلية الاسمية ٠ وكانت هناك عوامل كثيرة ساعدته على تحقيق أهدافه وأحلامه ٠ فعلى الرغم من أن المصريين كانوا قد أصبحوا معتادين على عـــدم الاستقرار بعد أن عاشوا أكثر من قرنين من الزمان مليئين بالصراع الدائر على السلطة بين المماليك ضد بعضهم البعض علاوة على صراع

المماليك ضد سلسلة متعاقبة من المحافظين العثمانيين الا أنهم كانوا يتطلعون الى ظهور الأمن والاستقرار اللازمين لتقدم وازدهار البلاد. كما أنه على الرغم من أن العلماء الأزهريين وغيرهم من الوجهاء الآخرين قد لعبوا دورا هاما فى احضار محمد على الى قمة السلطة فى البلاد فان معظمهم لم يكن لديه الرغبة فى تقليد المناصب الرسمية . هذا بالاضافة الى أن مصر والتى سبق أن وصفها هيرودوت بأنها « هبة النيل » تذعن لأسلوب الحكم المركزى : فأى شخص يتمكن من السيطرة على نهر النيل والدلتا يصبح بمقدوره السيطرة على كافة البلاد . فكل ما يحتاجه أى حاكم مستبد دكتاتورى هو أن يتخلص من المنافسين له .

واستخدم محمد على فى حرية السيف والمشنقة لكى يخمد ويقمع المخالفات القانونية التى انتشرت فى البلاد على مدى عقود عديدة . وبعدئذ ظهرت فجأة الثروة الطبيعية والتجارية والزراعية للبلاد . فأنشأ بيروقراطية ادارية مركزية تماما بهدف زيادة الدخل الاجمالى ومكافحة الفساد وأعمال الاحتيال والنصب من أجل الحصول على الضرائب والتى كانت قد أصبحت منتشرة مثل الأمراض المستوطنة . ثم حاول فى نفس الوقت تحديث الاقتصاد والتوسع فيه . وفى خلال فترة حكمه قام بادخال زراعة القطن طويل التيلة وقصب السكر . وكان يسعى للحصول على المشورة والخبرات الفنية من أى جماعة أو طائفة بما فى ذلك التجار المسيحيين المتواجدين فى مصر والأوربيين .

ونظرا لأنه كان معجبا بفرنسا فانه وجه الدعوة للمهندسين الفرنسيين للمجىء الى مصر . ومن خلال مساعدتهم تمكن من تشييد السدود والقنوات وادخال نظام الرى الدائم فى منطقة الدلتا وذلك بدلا من أسلوب رى الحياض القديم الذى يعتمد على فيضان النيل . بل وتم زراعة مليون فدان جديد . وحتى ذلك الحين كانت الصناعة المصرية مقصورة على تصنيع المنسوجات ولكنه تمكن من انشاء

سلسلة من المصانع ووفر لها الحماية ضد الواردات من خـــلال فرض تعريفات ثقيلة • وصحيح أن هذه المصانع كانت بدائية وغير متطورة الا أنها كانت الأولى من نوعها فى مصر •

ولم يتعلم محمد على القراءة والكتابة الا بعد أن وصل عمره الى ٤٧ عاما • الا أنه كان يدرك تماما أهمية التعليم • فقام بايفاد مئات عديدة من الشباب المصرى الى باريس [وعدد قليل الى لندن] لكى يدرسوا الصناعة والهندسة والطب والزراعة • وفى مصر حيث كان التعليم حتى ذلك الحين مقصورا على تعليم القـــرآن الكريم بالمدارس نجد أن مستشاريه الفرنسيين قد ساعدوا على انشاء تعليم علمانى كان من الناحية النظرية على الأقل مثيرا للاعجاب الى حد بعيد • كما ساعد الأطباء الفرنسيون فى انشاء مستشفيات ونظام بدائى للصحة العامة •

وكانت طموحاته تذهب الى ما هو أبعد من مجرد تحويل مصر الى أعظم ولاية متقدمة فى الامبراطورية العثمانية بالمفاهيم الأوربية • ولكى تقوم مصر بدور خارج حدودها كان الأمر يتطلب انشـــاء جيش مصرى مستقل وبحرية مصرية مستقلة • ولذلك تم توجيه الغالبية العظمى من مهندسيه نحو تحقيق هذا الهدف • ومما ساعد كثيرا على تحقيق ذلك الهدف هو جهوده المكثفة الرامية الى زيادة الدخل الاجمالى للدولة • ومن الاجراءات الأولى التى قام بها هو اصدار أوامره باعداد خرائط مساحية لكافة الأراضى المتواجدة فى مصر حيث كانت الدولة فى مسيس الحاجة لمثل هذه الخرائط • وفى خلال سنوات قليلة خصص ٢ مليون فدان أو ما يوازى ثلث الأراضى الزراعية لكى تمنح لطبقة صغيرة من كبار ملاك الأراضى تضم أفرادا من عائلته [كان له ٣٠ طفلا] وكبار ضـــباط الجيش ومشايخ القرى وزعماء البدو • الا أن الجانب الأكبر من الزيادة فى الدخل الاجمالى كان يؤول الى الحكومة المركزية • ولذلك فقد قيل

عنه أنه قام بتحويل معظم أراضى مصر الى مزرعة ضخمة خاضعة للادارة المباشرة للحكومة ٠

وكانت المصانع الجديدة التى أنشأها موجهة أساسا من أجل تزويد القوات البرية والبحرية بالأسلحة والمعدات والتجهيزات ولكنها كانت تنتج أيضا بعض السلع غير الحربية مثل الماكينات والآلات والمضخات والأقمشة والورق والزجاج ٠

ولم يكن ينظر الى الفلاحين المصريين على أنهم يمكن أن يصبحوا جنودا على مستوى حربى جيد ٠ ولكنهم برهنوا على أنهم اذا تلقوا التدريبات السليمة يمكن أن يحاربوا فى شجاعة ونظام ٠ وأظهر الفلاحون المصريون براعة هائلة في النواحي الدفاعية ٠ الا أنهم كان ينقصهم الحماس الهجومي الذى يتمتع به السودانيون ٠ ومن ناحية أخرى نجد أن صحة المصريين قد صمدت وتحملت الأجواء المناخية الباردة أثناء شن الحملات العسكرية وذلك بعكس السودانيين الذين تدهورت صحتهم لدى تعرضهم للطقس البارد ٠ وكان جميع الضباط وضباط الصف من غير المصريين ٠ ووقف بعض الضباط المماليك فى صف محمد على ولكن عندما فرض السلطان العثمانى حظرا على تصدير المجندين المماليك الى مصر فانه تم تجنيد ضباط آخرين من بين الأتراك المحليين والألبانيين المحليين ٠ وعقب عام ١٨٢٠ قام محمد على باعادة تنظيم القوات المسلحة تماما وذلك بادخال « النظام الجديد » ٠ ولقد برهن ابنه الأكبر ابراهيم [١٧٨٩ — ١٨٤٨] على أنه جنرال عسكرى بارع وزعيم عظيم ٠ وفى فترة الذروة في الثلاثينات من عام ١٨٣٠ وصل تعداد الجيش المصري الى ربع مليون مقاتل وأصبح أقوى جيش فى الشرق الأوسط ٠

ومما ساعد محمد على على تدعيم نفوذه الشخصى وتدعيم استقلال مصر هو تواجد سلطة ضعيفة فى مركز الامبراطورية ٠ ففى عام ١٨٠٧ قام الانكشارية يتمرد ضد الاصلاحات والابتكارات

الأوربية التى أدخلت بمعرفة « النظـام الجديد » الذى فرضـه سليم الثالث وتمكنوا من عزل السلطان واستبداله بابن عمه مصطفى الذى قام على الفور بالغاء الاصلاحات • وبعـد مرور ١٤ شهرا تم اغتيال مصطفى وتولى أخوه ـ وهو آخر الأشـخاص الذكور المتبقين على قيد الحياة فى بيت عثمان ـ الخلافة تحت اسم : محمود الثانى • وكان محمود مصلحا مثل سليم واستمر فى الحكم على مدى ٣١ عاما وهى فترة تزيد كثيرا على الفترة التى شـغلها سليم كخليفة للمسلمين ، الا أنه فى خلال السنوات العشرة الأولى اضطر لشـق طريقه فى حذر نحو تدعيم وتقـوية نفوذه • بل ولم يتمكن من مواجهة مشكلة الانكشارية وتدميرهم فى مذبحـة جماعية الا فى عام ١٨٢٦ •

وخلال هذه الفترة أصبح محمد على قادرا على مقاومة التدخل المفروض عليه من استانبول • بل وأصبح قادرا على أن يجعـل السلطان الجديد يعتمد عليـه فى توحيد الامبراطورية وجعلهـا متماسكة • ففى عام ١٨٠٧ طلب من محمد على ارسال حملة عسكرية الى الحجاز بهدف استعادة الأماكن الاسـلامية المقدسـة من أيدى الغزاة السعوديين / الوهابيين • ونجح محمد على فى تأجيل شن هذه الحملة لمدة أربع سـنوات • وراح خلال تلك الفترة يعزز قبضته على مصر • ولكنه فى عام ١٨١١ أوفد ابنه الثانى طوسون على رأس جيش الى الحجاز • ولم يكن طوسون جنرالا قديرا • فهو لم يتمكن من استعادة مكة والمدينة المنورة الا بعد أن تكبد خسائر هائلة بل وتعرض لأكثـر من هزيمـة نكراء على أيدى المحـاربين الوهابيين ، ومما لاشك فيه أن تصرفات الضـباط الألبانيين غير المتسمة بالانضباط والنظام قد جعلت محمد على يتخذ قرارا باعادة تشكيل وتجديد قواته المسلحة • ثم ذهب محمد على بنفسـه الى الحجاز لكى يشترك فى قيادة الجيش المصرى مع طوسون • وأثناء عودته الى القـاهرة من أجل حل المشاكل الداخلية الملحة أصـدر

قرارا بتعيين ابنه ابراهيم ـ الذى كان أكثر كفـــاءة واقتدارا من طوسون ـ قائدا عاما على القوات المسلحة المصرية ·

وحرص ابراهيم على الاستفادة من سلاح الفرسان وسلاح المدفعية التابعين له استفادة كاملة ، فقام بشن حملة عسكرية ضد السعوديين فى منطقة نجد التى تعتبر المعقل الخاص بهم · وفى مايو ١٨١٨ سقطت العاصمة السعودية التى تسمى الدرعية Daraiyya [والتى تقع على مسافة ١٢ ميلا من الرياض] عقب حصار استمر لمدة ستة شهور وتكبد فيه الجيش التركى / المصرى خسائر جسيمة ، وتم ارسال عبد الله بن سعود الحاكم السعودى الى مصر حيث تم معاملته فى مصر معاملة تتسم بالكرم والتكريم · وبعدئذ أرسل الى استانبول حيث أعدم هناك على الفور عقب محاكمة سريعة · وبذلك تم القضاء على الدولة السعودية الأولى · الا أن الحاميات العسكرية المصرية قد ظلت باقية فى نجد لمدة سنوات قليلة فقط · وفى عام ١٨٢٤ تمكن السعوديون من تشييد الدولة السعودية الثانية التى اتخذت من الرياض عاصمة لها والتى قاومت بنجاح كافة المحاولات الأخرى الرامية الى الحاق الهزيمة بالسعوديين · ولكن محمد على وابراهيم كانا قد حصلا على الحجاز كمكافأة لهما · وهذا مكنهما من اعادة فتح الطرق البحرية من مصر الى المحيط الهندى بل ومكنهما من احتكار كافة أنواع التجارة المتواجدة بالبحر الأحمر · بل وانتزع الوالى على مصر جزية سنوية من امام اليمن · ورفض محمد على اقتراحا بريطانيا بأن يتم تعاون أنجلو / مصرى من أجل تأمين المناطق الجنوبية لشبه الجزيرة العربية بهدف حماية الطرق البحرية المؤدية الى الهند من الهجمات التى يقوم بها رجال القبائل المحليين · وبدلا من ذلك قام محمد على بايفاد السفن التابعة له لكى تحتل كافة الموانى الواقعة على الساحل الغربى لشبه الجزيرة العربية والممتدة على مسافات بعيدة الى عدن · فاضطرت بريطانيا الى تركيز

جهودها على منطقة الخليج حيث تمكنت فى عام ١٨٢٠ من ابـرام « المعاهدة العامة للسلام البحرى » والتى تستمر للأبد مع المشيخات الصغيرة التى تطل على الشاطىء Trucial Coast [الامارات العربية المتحـدة حاليا] • ولم يقم البريطـانيون باحتلال عـدن وأنشأوا مستعمرة هناك حتى عام ١٨٣٩ •

وعبر السلطان محمود عن امتنانه وشكره لابراهيم لأنه تمكن من استعادة الأماكن المقدسة الاسلامية وأصدر قرارا بترقيته الى رتبة باشا بثلاثة ذيول بالاضافة الى تعيينه فى منصب : محافظ • وكان ذلك من الناحية النظرية يعنى أنه أصبح أعلى فى الرتبة من والده محمد على • ومن المحتمل أن السلطان الثمانى ـ الذى أصبح آنئذ يخشى من طموحات محمد على ـ كان يأمل فى ابعاد محمد على عن ابنه وتنفيره من ابنه • الا أن ابراهيم ظل حريصا على الولاء لوالده واستمر فى الاذعان لوالده طوال فترات حياته •

ورفض السلطان محمود بشدة الاقتراح الذى تقـدم به محمد على بمنحه حكما دائما على سوريا • الا أن الوالى على مصر لم يكن آنئذ فى حالة تسمح له بالدخول فى تحدى مباشر ضـد استانبول •

وكانت الأراضى الشاسعة التى تقع جنوب مصر والتى يعرفها الكتاب العرب فى العصور الوسطى باسم : السودان تشكل فرصة من نوع مختلف أمام محمد على • وكان الاسلام واللغة العربية قد شقا طريقهما فى داخل السودان على نحو أبطأ مما هو عليه الحال فى الشرق الأوسط وشـمال افريقيا • ولكن بحلول عام ١٥٠٠ أصبحت الغالبية العظمى من السكان فى شمال ووسط ما يعـرف حاليا بجمهورية السودان من المسلمين المتكلمين باللغة العربيـه ، وعلى مدى القرون الثلاثة الأخيرة كانت هذه الأراضى تسيطر عليها مملكة الفور Fur ـ وهم أناس ينحدرون من سـلالة غامضة ـ بحثـا عن العبيـد والذهب • وكانت مجموعة من المماليك الذين

هربوا من قمع محمد على لهم قد أنشأوا دولة خاصة بهم فى دنقلة Dongola التى تقع على الضفة الغربية لنهر النيل • ثم راحوا يتدخلون فى التجارة التى تستخدم نهر النيل •

ولذلك أصبح أمام محمد على الدوافع السياسية والتجارية التى تدعوه لأن يحاول فتح السودان • وكان هناك دافع آخر الا وهو تقديم وظائف وأعمال ملائمة لأفراد قواته الألبانية العنيدة الجامحة • وفى عام ١٨٢١ قام محمد على بايفاد جيش تحت قيادة ابنه الثالث اسماعيل • وفى السنة التالية أرسل جيشين آخرين تحت قيادة ابنه ابراهيم فاتح الحجاز ومحمد زوج ابنته • فتمكنت هذه الجيوش من الاستيلاء على مساحة ضخمة تبلغ نصف مساحة أوربا باسم السلطان العثمانى من الناحية الاسمية الشكلية ولكنها فى الواقع تعتبر مساحة مضافة الى الممتلكات الخاصة بالوالى على مصر • الا أن هذا الفتح كان فى بعض النواحى مخيبا للآمال • اذ فشلت أحلام محمد على الرامية الى خلق جيش خاص به يتكون من العبيد السود • وذلك لأن عددهم كان ضئيلا للغاية بالاضافة الى أن صحتهم تدهورت عقب احضارهم الى مصر • كما أن مناجم الذهب كانت أكثر فقرا مما يتوقع لها ، ولم يكن هناك اختراق نحو افريقيا الاستوائية ذات الثروات الأسطورية • وعندما وقع اسماعيل فى كمين واغتيل على أيدى شيخ قبيلة محلى يموج بالاستياء أصدر محمد على أوامره بشن مذبحة جماعية مما أدى الى ترك ذكريات أليمة فى أذهان السودانيين •

الا أن غزو محمد على قد أدى الى ارساء الأسس التى قام بها السودان الحديث • فاضافة الولايات الثلاثة الزنجية والاستوائية الواقعة بالجنوب على أيدى خلفاء محمد على قد خلق المارد الافريقى الذى يضم جزءا عربيا مسلما وجزءا مسيحيا ووثنيا وأسودا • بل وبعد مرور ستين عاما عندما انتهى الحكم التركى / المصرى على

السودان نجد أن مصر والسودان ظلتا مرتبطتين بروابط وثيقـه لاتنفصـــم ٠

ولم يكن الاستيلاء على السودان قد استكمل قبـل أن تبزغ فرصة للتوسع شمالا فى المناطق الشرقيـــة من البحـــر الأبيض المتوسط ٠ اذ وجه السلطان محمود الدعوة لمحمد على لكى يساعد فى اخماد التمرد الذى تفجر فى عام ١٨٢١ والذى قام به رعاياه اليونانيون الذين كانوا يطالبون بالاســـتقلال ٠ وكانت القوات العثمانية الضعيفة التى تعانى من انخفاض الروح المعنوية غير قادرة على التعامل مع المتمردين ٠ فنزلت قوات محمد على فى بادىء الأمر فى جزيرة كريت ثم فى قبرص من أجل قمع المتمردين ٠ الا أن الجزء الرئيسى من التمرد كان متواجدا فى موريا Morea الواقعة بالأراضى الرئيسية البرية من البلاد ، وتردد السلطان من حيث السماح لمحمد على بالذهاب الى موريا لأنه كان يخشى من احتمال قيام قوات محمد على المدربة تدريبا جيدا بتهديد سلطاته الشخصية الخاصة به ٠ ولكنه وافق فى نهـاية الأمر بعـــد أن اكتشف أنه لا بديل عن ذلك ٠ وفى عام ١٨٢٥ تحرك ابراهيم مع أسـطوله الى موريا وأنزل قواته هناك وتمكن بعد مرور عامين من الاســـتيلاء على أثينـــا ٠

عندما تفجر العصيان اليونانى نجد أن الدول الأوربية عبرت عن ولائها الكاذب الشكلى للمبدأ القائل بأن المسيحيين اليونانيين ينبغى أن ينفصلوا عن الامبراطورية العثمانية ويكونوا لأنفسهم دولة مستقلة ٠ اذ كانت هذه الدول تشعر بالشكوك العميقة ازاء نواياها بعضها البعض ٠ ولم تحبذ روسيا فكرة انشـــاء دولة جديدة مسيحية فى المشرق Levant اللهم الا اذا أصبحت هذه الدولة الجديدة واقعـــة تحت السيطرة القيصرية ٠ أما الدول الأوربية الأخرى بقيادة بريطانيا فكانت مصممة على منع ظهور مثل هذه السيطرة الروسية وهى على كل حال لم تكن ستدفع الى اتخاذ

اجراءات عملية لو لم يقم المواطنون اليونانيون الذين كانوا ينغمسون في أعمال القرصنة في خلال الأوقات التي لايتقاتلون فيهـــا مع الأتراك بالتدخل في شئون تجارة المشرق وعرقلتها • وكان هناك تطور آخر لايقل خطرا متمثل في انتصار قوات محمـــد علي على اليونانيين • فبعد أن استولى محمـــد علي على موريا Morea أصبح قادرا على السيطرة على المنطقة كلها مما أثار احتمال قيامه بانشاء دولة مسلمة جديدة في منطقة شرق البحر الأبيض المتوسط •

وكانت فرنسا متعاطفة مع محمد على الا أنها اقتنعت في نهاية الأمر بالانضمام الى كل من بريطانيا وروسيا في معاهدة لندن التي تم التوقيع عليها في ٦ يوليو ١٨٢٧ ومن خلال هذه المعاهدة كانت هذه الدول الثلاثة تهدف الى التوسط بين الحكومة العثمانيـــة واليونانيين الثائرين المتأججين بالحماس الوطني من أجل التوصل الى عقد هدنة تفضى الى منح الحكم الذاتي لليونانيين تحت سيادة السلطان العثماني • وكان هناك هدف آخر ألا وهو جعل تواجد ابراهيم في بلاد اليونان أمرا غير ضروري مما يؤدي في نهـــاية المطاف الى انسحابه من اليونان •

وعندما حاول السلطان العثماني المراوغة والتملص انضمت الأساطيل الروسية والفرنسية الى الأسطول البريطاني المتواجد في نـــوارين Navarino • وفي ٢٠ أكتـــوبر تمكنت من تدمـــير الأساطيل التركية والمصرية •

فقام السلطان بقطع العلاقات مع هذه الدول الثلاثة وناشد رعاياه المسلمين للدخول في الجهاد أو الحرب المقدســـة • ولكن لم يكن بمقدوره أن يتخذ اجراءات هامة • فهو في خلال العام السابق كان قد قام بتدمير الانكشارية • وكانت اجراءات اعادة بناء الجيش العثماني قد بدأت منذ فترة قصيرة للغاية • وأهم العوامل التي ساعدت على حماية السلطان العثماني هو أن بريطانيا وفرنسا لم يكن

لديهما الرغبة فى تقطيع أوصال الامبراطورية العثمانية أو الرغبة فى ازدياد نفوذ روسيا وتعاظمها • وبعد مرور خمس سنوات وفى ٧ مايو ١٨٣٢ وطبقا لمعاهدة جديدة أبرمت فى لندن أصبحت اليونان مملكة مستقلة تحت حكم الأمير البافارى أوثو OTHO وكان بمقدور كافة الدول الأوربية أن تزعم أنها شاركت فى هذه التسوية • وهى تسوية لم تؤد الى تفكك الأمبراطورية العثمانية وهو الأمر الذى كان يخاف منه السلطان كثيرا •

وكانت قوات محمد على قد تكبدت خسائر فادحة ، وكان العبء المالى على مصر ثقيلا للغاية • الا أن كارثة معركة نوارين البحرية لم تخمد طموحات محمد على أو طموحات ابنه • وكان محمد على يعتقد أنه قد وعد بمنحه اقليم سوريا Pashalik of Syria كمكافأة له على تقديم المساعدات الحربية ضد اليونانيين • الا أن السلطان محمود أشار الى أنه ينبغى على محمد على أن يكتفى بالحصول على جزيرة كريت • لذلك قرر محمد على الاستيلاء لنفسه على سوريا وأثناء قيامه باعادة بناء أسطوله أوفد ابنه ابراهيم على رأس جيش الى سوريا • فتمكن هذا الجيش من اجتياح القوات العثمانية فى موقعة حربية بالقرب من حمص ثم فى موقعة أخرى بالقرب من حلب • وبعدئذ عبر ابراهيم سلسلة جبال طوروس Taurus • ودخل الأناضول وتمكن من الانتصار على جيش السلطان فى منطقة كونيا Konya • وبعد أن وصل ابراهيم الى منطقة بورصة Bursa بدأ يستعد للاستيلاء على استانبول والاحاطة بالامبراطورية العثمانية •

وشعر السلطان محمود باليأس ووجه نداء لبريطانيا لكى توفد الأسطول الملكى البريطانى الى كل من الدردنيل والاسكندرية• ووافق بالمرستون رئيس الوزراء البريطانى على تلبية مطلب السلطان • الا أن الغالبية العظمى من أعضاء حكومته رفضوا ذلك ،

فاضطر السلطان العثمانى الى اللجوء الى روســـيا [ولقد كتب بالمرستون فيما بعد قائلا أن « الحكومة البريطانية لم ترتكب أبدا خلال أى فترة من تاريخ انجلترا غلطة شـــنيعة كهذه فى الشئون الخارجية »] • فقام الروس على الفور بارســـال السفن وانزال الجنود والقوات • وفى حكمة وافق ابراهيم على التفاوض • وبحلول ذلك الوقت شعرت بريطانيا وفرنسا بالأخطار الهائلة التى تترتب على فرض الهيمنة الروسية على منطقة شرق البحر الأبيض المتوسط فسارعتا الى التدخل • وأصرتا على ضرورة الانسحاب الروسى ، وفى مقابل ذلك يوافق السلطان على تقديم تنازلات لمحمد على ـ وقام السلطان بمنح اقليم سوريا بأكمله لمحمد على • وانسحب الروس بالفعل • الا أن السلطان قد أرغم على الموافقة على اتفاقية تعرف باســـم : معاهدة هونكيار اسكليسى وهى معاهدة ربطته فى تحالف مع روسيا • وكانت هذه المعاهدة تتضمن بندا سريا يقضى بالسماح للسفن الحربية الروسية بالمرور فى حرية عبر مضيق الدردنيل فى حالة دخول روسيا فى حرب ، ولكنه جعل منح موافقة مماثلة لدول أخرى يتوقف على موافقة نهائية من روسيا • ومن السهل أن تدرك الأسباب التى جعلت بالمرستون يشعر بالأسف والندم •

ولم يعد طموح محمد على نحو انشاء امبراطورية يسكنهـــا غالبية من الأهالى المتحدثين باللغة العربية يبدو أمرا خياليا • اذ كان يسيطر على وادى النيل والبحر الأحمر وشرق البحـــر الأبيض المتوسط • بل وكان يفكر فى المطالبة بالحصـــــول على الخلافة الاسلامية •

الا أن حلمه كان وهما يتعذر تحقيقه • لأن فكرة الاتحـــاد الشامل للدول العربية pan-Arab لم تكن متواجدة فى وعى الشعب • ولم يكن بمقدور محمد على الألبانى أن يصبح هو الملهم لهذه الفكرة • وكان بمقدور ابراهيم أن يقـــدم مثـل هذا الالهام • فهو على العكس من والده كان يتحدث باللغة العربية •

بل وكان يعتبر نفسه مصريا • وكان أكثر فخرا بجنوده المصريين من ضباطهم العثمانيين • الا أنه لم يكن يتحدى سلطة والده على الاطلاق • وعلى الرغم من أنه أكثر تهذبا وتحضرا من والده الا أنه لم يكن لديه نفس القدرات السياسية الهائلة التى يتمتع بهـا محمد على •

وأصبح ابراهيم هو المسئول عن الممتلكات السورية الجديدة التابعة لمصر • ولكن على الرغم من امتلاكه لجيش قوى تحت قيادته الا أن مهمته لم تكن سهلة من حيث فرض حكومة مركزية قوية تنتهج الأساليب الحديثة فى الشئون الادارية • فالطوائف المختلفة المتواجدة فى داخل سوريا ـ مثل المسلمين الشيعة والمسلمين السنيين والدروز والمارون ـ كانت معتادة على أن يكون لها درجة عالية من الحكم الذاتى سواء تحت حكم الأسرات الحاكمة المحلية مثل أسرة العزم Azm بدمشق أو أسرة شهاب فى لبنان أو تحت حكم الولاة العثمانيين الذين كانوا يمكثون لفترات قصيرة للغاية مما يتعذر معه تدعيم سلطانهم ونفوذهم • ووجد ابراهيم نفسه يواجه شخصيات راسخة ذات نفوذ وليست لديها الرغبة فى الدخول فى اقتصاد مركزى يرتكز على أسلوب الاحتكارات الحكومية الذى أدخله محمد على فى مصر • وكان للعثمانيين الاحتكارات الخاصة بهم الا أن الهيكل النظامى لم يكن يتسم بالكفاءة ، وبالتالى كان يتعرض للتدمير بكل سهولة • وفى داخل سوريا ولبنان كانت هناك صناعات مزدهرة للأقمشة الحريرية والقطنية • رغم مواجهتها للمنافسات المتزايدة من جانب الواردات الأوربية • كما أن تجار المشرق Levant حققوا ازدهارا كبيرا من وراء تجارة الترانزيت الى الشرق • فاستاءوا من التدخل المصرى فى شئونهم كما استاء أيضا كبار ملاك الأراضى من الدروز الذين كانوا يزرعون القمح والشعير والذرة والأرز على سهول حوران Hauran بجنوب سوريا •

وواجه ابراهيم حركات عديدة من التمرد والثورة · وتمكن من قمعها من خلال استخدام قسوته المعهودة · الا أن انجازاته خلال السنوات العشرة التى شـــهدت حكمه [من عام ١٨٣١ – الى عام ١٨٤٠] كانت انجازات هائلة · اذ قام بتنظيم الشئون الاداريه وأضفى عليها الطابع العصرى الحديث · كما أدخل اصلاحات على نظام الضرائب · وشرع فى عملية التوسع فى التعليم وتحسينه · وكانت أهدافه تتوافق مع أهداف والده فى مصر الذى كان يقوم بأعمال الاشراف والتوجيه من أجل وضع الأساس الذى تقوم عليه دولة قوية لها اقتصاد قوى يعتمد على المقومات الداخلية ولا يحتاج الى العون الخارجى · وكان ابراهيم يأمل فى أن تتنافس الصناعات السورية مع تلك الصناعات المتواجدة فى أوربا ·

وكانت خطط ابراهيم ستصبح طموحة للغاية لو أنه أتيح له المزيد من الوقت لتحقيقها · وكان التجار وكبار ملاك الأراضى السوريون يتميزون بالديناميكية وروح المغامرة · الا أنهم لم يكونوا على استعداد لأن يتم تشكيلهم وفق نظام غريب غير مألوف لهـم · ولقد نجح ابراهيم بالفعل فى توسيع وتحسين التجارة مع أوربا وزيادة رقعة الأرض الزراعية · الا أن ذلك النجاح قد تم من خلال المزيد من الكفاءة الحكومية وليس من خلال تشجيع روح المبـادرة المحلية · وعلى الرغم من المحاولات التى بذلها ابراهيم من أجـل الاندماج مع رعاياه فانه ظل من وجهة نظرهم شخصا أجنبيا يحتل بلادهم · [والكثير من نفس هذه المشكلات اكتنفت المحاولة المصرية الثانية لفرض الحكم على سوريا والتى تمت بعد مرور ١٢٠ عاما] ·

وكجزء من سياسة التحديث التى اتبعها ابراهيم تم السماح لأول مرة للمبشرين المسيحيين بفتح مدارس خاصة بهم · وكان معظم هؤلاء المبشرين من البروتستانت الأمريكان · وقاموا بانشاء العديد من المدارس بما فى ذلك مدرسة واحدة للبنات · كما أنشأوا أيضا أول مطبعة عربية فى سوريا · بل وذهب ابراهيم الى ما هو

أبعد من ذلك حيث حاول ترسيخ مبدأ المساواة التامة بين المسلمين والمسيحيين ، وكان ذلك يعنى فى داخل الامبراطورية العثمانية مجاملة المسيحيين على حساب المسلمين • وفى داخل مصر كان محمد على يستفيد دائما من المواهب والخبرات الانسانية أينما وجدها • بل ولم يتردد فى تعيين الأوربيين فى الوظائف الهامة أو ترقية الأشخاص المحليين غير المسلمين اذا اعتقد أن ذلك أمر ضرورى • وفى سوريا كانت هذه السياسة تعنى مجاملة التجار المسيحيين الذين كانت لهم أفضل العلاقات والاتصالات مع أوربا [والذين كثيرا ما كانوا يحصلون على امتيازات من القنصليات الأوربية] • وقام ابراهيم بفرض ضريبة الرءوس على المسلمين المقيمين بالمدن الكبيرة مما جعلهم متساوين مع غير المسلمين الذين كانوا يدفعون دائما هذه الضريبة •

ولذلك لم يكن المسلمون يحبذون هذه البدعة • وتزايد استياؤهم بشكل كبير عندما أصر محمد على على أن يبدأ ابراهيم فى تجنيد السوريين والحاقهم بالجيش المصرى • واحتج ابراهيم الذى كان أكثر اندماجا من والده مع رعاياه العرب وأشار الى أن ذلك القرار غير متسم بالحكمة • الا أن محمد على أصر على رأيه •

ومع ذلك كان محمد على وابراهيم سيتمكنان من قمع المعارضة والاستمرار فى احكام سيطرتهما على امبراطوريتهما العربية / شرق البحر الأبيض المتوسط لو لم يثيرا المعارضة الشديدة للدول الأوربية تحت قيادة بريطانيا • وكان محمد على قادرا على تحدى رئيسه من الناحية الشكلية : السلطان العثمانى محمود • كما كان بمقدوره الاطاحة بالسلطان العثمانى بكل سهولة ولكن بريطانيا كانت تفضل بقاء الامبراطورية العثمانية الضعيفة على قيد الحياة وعدم تفكيكها وابتلاعها بمعرفة أحد منافسيها • كما كانت بريطانيا مازالت غير متحمسة للفكرة القائلة بأنه ينبغى أن تحل محل الامبراطورية العثمانية دولة مسلمة ديناميكية توسعية • الا أن

هذه الفكرة فى حد ذاتهـــا هى التى أثارت ذعر ومخاوف الدول الأوربيـــة ٠

وكانت هذه هى الفترة التى تطـــورت خلالهـــا النظـــرية الاستعمارية التى ينادى بها بالمرســـتون ٠ ولم تكن نظريتـــه الاستعمارية موجهة نحو امتلاك المستعمرات ـ فذلك قد ظهر فى فترة لاحقة من القرن ـ وانمـــا كانت تتجه الى الحمـــاية الفورية للمصالح البريطانية فى أى مكان تتعرض فيه تلك المصالح للتهديد والأخطار ٠ ورأت بريطانيا من حيث أنها أقوى دولة صناعية وتجارية فى العالم أن مصالحها هى مصالح اقتصـــادية بالدرجة الأولى ٠ اذ كانت السلع المصنعة البريطانية تتدفق شرقا الى الأســـواق الأسيوية عبر طرق الخليج والبحر الأحمـــر ٠ وكان عهد السفن البخارية قد جاء ٠ وكان محمد على قد سهل كثيرا عملية المرور الى الهند من خلال تطوير وتدعيم الطريق البرى ما بين الاسكندرية والسويس ٠ ولكن على الرغم من أن التجارة البريطانية كانت آخذة فى الانتشار والتوسع فى جميع أرجاء شرق البحر الأبيض المتوسط الا أنها كانت تواجه عراقيل شدبدة بسبب تواجد نظام الاحتكارات فى داخل الامبراطورية العثمانية ، فقام بالمرستون بتوجيـه كل نشاطه الدبلوماسى القوى مع الامبراطورية العثمانية نحو العمل على ازالة هذه الاحتكارات ٠ وفى عام ١٨٣٨ تمكن بالمرستون من احراز النجاح لدى التوقيع على المعاهدة الأنجلو / تركية التى نصت على منح بريطانيا وغيرها من الدول الأوربيـــة الأخـــرى الحق فى الاتجار فى داخل أرجاء الامبراطورية العثمانية فى مقابل تعريفه بنسبة ٣٪ فقط ٠

ولقد أدت معاهدة بالمرستون ـ من خلال ضربة واحدة ـ الى فتح الطريق أمام الهيمنـــة التجارية الأجنبيـــة على الامبراطورية العثمانية ٠ كما أنها أزالت أيضا مصدرا رئيسيا من دخل السلطان من الاحتكارات الحكومية ٠ وكان محمد على على حق عندما أشار الى

أن شروط وبنود هذه المعاهدة تشكل كارثة على طموحاته • ولذلك رفض تطبيق تلك الشروط على مصر • وكان محمد على قد بذل كل ما فى جهده من أجل حماية التجارة البريطانية عبر مصر وتقديم كافة التسهيلات لها • ولكنه لم يكن على استعداد للسماح لبريطانيا بتدمير المصادر الخاصة باستقلاله • وكان محمد على ـ قبل التوقيع على هذه المعاهدة بأسابيع قليلة قد أعلن عن اصداره لقرار ينص على اعتبار مصر وسوريا مملكة مستقلة وراثية واقترح أن يدفع للسلطان العثمانى مبلغا هائلا فى حـــدود ٢ مليون جنيه كثمن لموافقة السلطان على ذلك القرار • وعلى الفور أعلن بالمرســـتون معارضته القوية لذلك القرار • وأوضح أنه فى حالة تفجر حرب بين محمد على والامبراطورية العثمانية فان بريطانيا ستقف الى جانب السلطان •

وكانت بريطانيا مصممة على احباط طموحات محمـــد على ، اذ كانت قد أصبحت تشعر بالذعر والأخطار بسبب انتشار نفوذ محمد على على طول الساحل الشرقى للبحر الأحمر ابتداء من باب المندب حتى مكة المكرمة • بل وكان محمد على قد اســـتولى على شـــاطىء تهامه Tihama باليمن عـــلاوة على شراء مدينـــة تعز Taez من محافظها الفاسد [وهو عم امام اليمن] واحكام السيطرة على تجارة البن المربحة فى مدينة تعز • وبدا على الطريق الحيوى المؤدى الى الهند وكأنه يتعرض للتهديد فى الوقت الذى تزايدت فيه أهمية شواطىء شبه الجزيرة العربية بسبب وصول السفن البخـــارية وبسبب ظهور الحاجة الى مرافىء آمنـــة لتزويد البواخر بالفحم الحجرى • ولقد كتب السير روبرت جرانت محافظ بومباى فى عام ١٨٣٧ ما يلى : « أعتقد أنه سيكون من الضرورى للغاية أن يكون لنا ممتلكات خاصة بنا تطل على البحـــر الأحمر أو متواجدة بالقرب منه » •

وسرعان ما لاحت الفرصة للاستيلاء على ممتلكات كهذه • اذ اتهم سلطان لحج Lahej الذى يقع ميناء عدن الصغير ضمن أراضيه الواقعة فى الركن الجنوبى الشرقى لشبه الجزيرة العربية بأنه يسمح بممارسة التحرش بالسفن البريطانية • وفى يناير ١٨٣٩ نزل القائد هاينز Haines رئيس بحرية بومباى على الشاطىء ومعه قوة عسكرية صغيرة واستولى على المدينة الصغيرة مفتتحا بذلك حكما بريطانيا فى عدن استمر لمدة ١٣٠ عاما بالاضافة الى زيادة النفوذ البريطانى فى المناطق القبلية الواقعة الى الداخل بعيدا عن الشاطىء • ووضعت مستعمرة عدن تحت رئاسة بومباى مع التأكيد على أهميتها الكبيرة بالنسبة للهند • وظلت على ذلك النحو الى أن أصبحت فى نهاية الأمر مستعمرة تابعة للتاج البريطانى •

وبزغ الى الأفق آنئذ تحالف واقعى de facto بين بالمرستون والسلطان محمود ضد محمد على ، وفى صيف عام ١٨٣٩ أعلن السلطان محمود الحرب ضد نائبه الطموح وأرسل جيشا عبر نهر الفرات الى الأماكن الشمالية من سوريا • وعلى الرغم من التدريبات الجديدة التى تلقتها القوات العثمانية على أيدى البعثة العسكرية الألمانية بقيادة ملتكه Moltke فانها تعرضت مرة أخرى لهزيمة ساحقة فى معركة نازب Nazib على أيدى ابراهيم • [ولقد نجح ابراهيم فى تقديم الرشاوى المالية للقوات العثمانية من أجل أن تهرب من المعركة] • وفى نفس الوقت فان أدميرال الأسطول العثمانى الذى كان قد صدرت له الأوامر بالدخول فى المعارك قرر فجأة الاتجاه بكافة أسطوله الى الاسكندرية واستسلم هناك لمحمد على •

ومات السلطان محمود فجأة قبل أن تصله أخبار الكارثة التى حدثت فى معركة نازب • وتولى السلطة ابنه عبد المجيد البالغ من

العمر آنئذ ١٦ عاما • وأصبح الولد السلطان وحكومته واقعين تحت رحمة محمد علي •

وأراد ابراهيم تدعيم انتصاراته من خلال التقدم والزحف نحو الأراضي الرئيسية للأناضول • ولم يكن هنـاك ما يمنعه من تحقيق ذلك • الا أن والده أصدر له الأوامر بالاحجام عن ذلك • اذ كان محمد علي يدرك جيدا أن تدمير الامبراطورية العثمانية من شأنه أن يثير سخط الدول الأوربية • وكان لايزال يأمل في أن توافق الدول الأوربية على طموحه المحدود بأن يستمر في الاحتفاظ بممتلكاته في المشرق Levant وشمال أفريقيا وشبه الجزيرة العربية . الا أن ذلك لم يعد أمرا ممكنا • لأن بالمرستون كان قد بدأ ينظر الى محمد علي أنه يشكل تهديدا خطيرا للغاية • ولقد كتب بالمرستون للسفير البريطـاني لدى باريس ما يلي : « انني أكره محمد علي • وفي رأيي أنه ليس سوى انسان بربري جاهل تمكن من خلال المكر والدهاء والشجاعة والذكاء الفطري من احراز النجاح في تمرده وانني أنظر الى تفاخره بحضارة مصر • على أنه أسـوأ خداع وهراء • وأعتقد أنه مستبد وطاغيـة على نحو لا نظير له مما أدى الى جعل الناس ينخرطون في التعاسة » •

وكان بالمرستون له نصيبه الخاص به من الهراء والخداع • اذ كان يدرك أن السلطـان العثمـاني لم يكن أقل طغيانا من محمد علي أو ابراهيم ، بل وكان له سـجل أكثر سـوءا من حيث معاملته للأقليات • وكان الفارق هو أن الديكتاتورية المصرية كانت فعالة ونشطه في حين كان بالمستطاع التلاعب بالسلطان العثماني الضعيف • وراح بالمرستون ينسق مع الدول الأوربيـة الخمسة [بريطانيا + فرنسا + بروسيا + النمسا + روسيا] من أجل وضع خطة تهدف الى طرد محمد علي من المشرق Levant • وكانت فرنسا هي المشكلة الكبرى التي تواجهه في ذلك التحرك • لأن فرنسا كانت لاتزال تنظر الى محمد علي على أساس أنه حليف

له أهمية كبيرة وأن قوته البحرية ـ وخاصة اذا تحالفت مع قوة فرنسا البحرية ـ يمكن أن تكون بمثابة القوة المتوازنة ضـــد بريطانيا فى منطقة شرق البحر الأبيض المتوسط • ولجأ بالمرستون الى أساليب الدبلوماسية وأساليب التنمر من أجل أن يتغلب على مقاومة فرنسا لمخططاته • وعلى الرغم من أن نصف أعضاء حكومته كانوا يخشون من أنه قد يتسبب فى تفجر حرب أوربية نجد أن بالمرستون قد لعب على الحقيقة التى مفادها أن لويس / فيليب ملك فرنسا كان أكثر حذرا بسبب مخاوفه من احتمال حدوث انقلاب •

وفى مؤتمر لندن المنعقد فى يوليو ١٨٤٠ نجـــد أن الدول الأوربية الخمسة بما فى ذلك فرنسا المترددة قد وافقت على « معاهدة الصلح الخاصة بالمشرق Levant » والتى بمقتضاها يتم ارغام محمد على على سحب كافة قواته العسكرية من سوريا علاوة على اعادة الأسطول التركى الى السلطان العثمانى • كما تنص هذه المعاهدة على أن يحكم أفراد أسرة محمد على مصر بالوراثة كمندوبين عن السلطان العثمانى ولكن ولاية محمد على على سوريا لا تورث •

وعندما رفض محمد على فى استياء شديد هذه الشروط ظهر أسطول بريطانى بقيادة الأدميرال نابيير Napier بالقرب من الشاطىء السورى • وأرسل مبعوثين من أجل تحريض الأهالى على الثورة ضد محمد على • وكان الأهالى يشعرون بالاستياء من التجنيد الاجبارى فى الجيش والضرائب الباهظة فتفجرت الثورة فى جميع أرجـــاء البلاد • وبعد أن فشل ابراهيم فى تقديم الرشوة لمحافظ بيروت بهدف أن يغير اتجاهه وينضم اليه قام الأسطول البريطانى بقصف بيروت • ثم نزلت القوات الانجلو/تركية على الشاطىء • وعندما أبحر نابيير الى الاسكندرية أدرك محمد على أنه قد تلقى هزيمة نكراء • لأن حلفاءه الفرنسيين قد تخلوا عنه وبذلك لم يعد بمقدوره أن يقاتل بمفرده كافة الدول الأوربية •

ومن خلال الشروط الواردة فى معاهدة لندن لعام ١٨٤١ نجد

أن الدول الأوربية قد خفضت من طموحات محمد على وأعادته الى وضعه الخانع الذليل فى داخل نطاق الامبراطورية العثمانية . ونزعت منه ممتلكاته باستثناء السودان . وكان ذلك يعنى اعادة كل من كريت وسوريا والحجاز الى الحكم العثمانى على نحو مباشر . بل وفى نفس الوقت أرغم محمد على على تخفيض قواته المسلحة التى كانت تضم ربع مليون مقاتل الى ١٨ ألف جندى فقط . وبذلك تم ازالة الآلة التى يرتكز عليها محمد على فى تحقيق توسعاته وبحيث لم يعد بمقدوره التهديد بالاستيلاء على القسطنطينية .

وكان عزاؤه الوحيد هو التأكيد على وضعه من حيث هو الباشا الحاكم على مصر بالوراثة . وعلى الرغم من أن ذلك كان بمثابة الحدود الأولى لطموحاته الأصلية الا أن طموحاته الشديدة كانت تدفعه الى تجاوز تلك الحدود . ولكن آنئذ لم يعد بمقدوره أن يسيطر على طرق التجارة المؤدية الى آسيا أو أن يتحدى السيطرة المتزايدة للدول الأوربية فى شرق البحر الأبيض المتوسط .

وكانت مصر شبه المستقلة مازالت دولة تتمتع بقدر من الأهمية السياسية والاقتصادية . وعلى الرغم من أن محمد على أصبح مرهقا وطاعنا فى السن [كان يبلغ من العمر ٧٢ عاما فى الوقت الذى تم فيه التوقيع على معاهدة لندن] الا أنه لم يصبح مكتئبا تماما . اذ أن احتفاظه بجيش هائل العدد كان يحتم فرض أعباء ضريبية هائلة على كاهل الشعب المصرى . [ووفقا لما قاله بالمرستون بالحرف الواحد : « ان مصر شأنها شـــأن كافة الدول بها أغنياء وفقراء . والأغنياء يتمثلون فى شخص محمد على وحده . أما الفقراء فهم بمثابة كل شخص آخر »] . وكان محمد على قد بدأ يبحث بالفعل عن الوسائل التى تعينه على تخفيض النفقـات قبل أن يتم ابرام معاهدة لندن . وربما يكون قد شـــعر بالارتياح ازاء التخفيض الاجبارى فى الانفاق على قواته المسلحة . وكانت المشكلة هى أن سياسته الاقتصادية كلها كانت تتركز على تلبية احتياجات قواته

المسلحة ـ حيث كانت القوات المسلحة هى المبرر الأول لبرنامج التصنيع الخاص به • وكان من الطبيعى أن تتعرض المصانع الحربية للانهيار بسبب عدم الاحتياج لمنتجاتها •

ويمكن أن يقال أن محاولات محمد على الرامية الى تصنيع مصر كانت محاولات محكوما عليها بالفشل بالفعل لأن مصر ـ على العكس من الدول الأوربية بقيادة بريطانيا والتى كانت تحقق تطورا صناعيا سريعاً فى خلال النصف الأول من القرن التاسع عشر ـ لم يكن لديها موارد طبيعية من الفحم أو الأخشاب اللازمة لانتاج الطاقة البخارية كما لم يكن لديها صناعة الحديد والصلب • وكان ال ٤٠ ألف من العمال الصناعيين ينتجون تقريبا كل الطاقة الخاصة بهم وذلك بمساعدة من الجمال والحمير • كما كانت الماكينات المستوردة لا تنال الصيانة الكافية ودائما ما كانت تتعطل وتتكسر • هذا بالاضافة الى أنه لم تتكون طبقة من أصحاب المشاريع المستقلة أو المديرين المدربين تحت نظام الحكم الشمولى الاستبدادى الذى فرضه محمد على • وعلى الرغم من أنه أوفد عددا من الشبان المصريين لتلقى التدريب فى أوربا نجد أنه كان يعين أعضاء من طبقة الضباط الشراكسة الأتراك ليكونوا مسئولين عن المصانع ومديرين لها • كما أن الأشغال الهيدولوكية الهامة وغيرها من الأشغال الهندسية الأخرى كانت فى أيدى الفنيين الأجانب • كما كانت التجارة تدار بمعرفة التجار الأجانب على نحو متزايد •

ولقد أشار بعض المؤرخين الاقتصاديين المصريين الى أنه لو لم يحدث تدخل أجنبى لكانت مصر قد تمكنتمن اصلاح الأخطاء وتحقيق ثورة صناعية حقيقية فى أعقـاب أوربـا • الا أننا نقول أن الدلائل والبشائر المستقبلية كانت ضعيفة وأن الأمر كان يستلزم مجيىء حاكم ليحل محل محمد على الطاعن فى السن ويكون له نفس فاعلية ونشاط ومقدرة محمد على ولكن بشرط أن يكون أكثر استنارة من محمد على • وكان من المتوقع أن يقوم ابراهيم بذلك الدور خاصة

بعد أن قام محمد على عقب تدهور حالته الصحية والعقلية بتفويض سلطاته لابنه ابراهيم فى عام ١٨٤٧ • ولكن بعد فترة تزيد قليلا عن سنة مات ابراهيم بسبب اصابته بالحمى ومات بعده والده محمد على فى خلال شهور قليلة فى ٢ أغسطس ١٨٤٩ بدون أن يعرف أن ابنه قد انتقل الى رحمة الله •

وطبقا للشروط الواردة فى معاهدة لندن جاء الى الحكم بعد وفاة محمد على أكبر ذريته من الأشخاص الذكور — ألا وهو حفيده عباس ابن طوسون• وكان عباس انسانا رجعيا يتسم بالتشاؤم والاكتئاب• وكان يستنكر النفوذ الأجنبى الذى أدخله جده وعمه الى البلاد • ومع ذلك فانه لم يكن انسانا مصريا متحمسا لوطنه • بل ولم يكن يحب المصريين • ونظرا لأنه كان يكره الفرنسيين فانه أظهر بعض الارتياح نحو البريطانيين • وسمح لهم ببناء خط السكة الحديد القاهرة / الاسكندرية — وهو أول خط سكة حديد فى أفريقيا وآسيا — وقد ساعد ذلك على تدعيم طريق بريطانيا الاستعمارى المؤدى الى الهند • ولكن عباس كان أساسا شخصا عثمانيا مصابا برهاب الأجانب (١)• وكان يدين بالولاء للسلطان • العثمانى • ولم يكن لديه أية طموحات استعمارية خاصة به • هذا بالاضافة الى أن معاهدة لندن قد ورد بها بند ينص على أن تعيين كبار الضباط فى جيشه المخفض العدد ينبغى التصديق عليه بمعرفة استانبول•وكذلك ذلك يعنى أن القيادة العليا بالجيش أصبحت فى أيدى طبقة الضباط الشراكسة الأتراك وليست فى أيدى الضباط المصريين •

ودامت فترة حكم عباس خمس سنوات فقط • حيث اغتيل على أيدى اثنين من عبيده الألبانيين • وجاء الى الحكم بعده عمه سعيد • وكان أصغر من عباس بـ ٩ سنوات • وكان بدينا وممتلئا وودودا • الا أن شخصيته المتناقضة مع شخصية عباس لم تكن تعنى

(*) رهاب الأجانب : الخوف من كل ما هو غريب وأجنبى — (المترجم) •

أنه كان يعتبر نفسه مصريا أو مهتما بمصالح المصريين • ولقد أدت اتجاهاته الليبرالية نحو التجارة والمشروعات الى احداث نمو سريع في حجم وأهمية السلع والبضائع الأجنبية كما أن صداقته الشخصية مع المهندس الفرنسى فردينانه دليسبس قد أدت الى تشييد مشروع قناة السويس التى تحولت ملكيتها للأجانب والتى أصبحت سببا ومبررا رئيسيا لاخضاع مصر للسيطرة الأوربية •

ويصف لنا الكاتب الفلسطينى جورج أنطونيوس فى كتابه الصادر تحت عنوان (اليقظة العربية Arab Awakening" [صدرت الطبعة الأولى فى عام ١٩٣٨] تطور المفهوم الذهنى عن الأمة العربية فى العصور الحديثة • والفصل الذى تناول فيه محمد على وابراهيم قد أعطى له هذا العنوان : « البداية الزائفة » وهو يشير فى هذا الفصل الى أن أحد المعاصرين لهما قد أوضح أن عبقرية محمد على « كانت عبقرية من النوع الذى يخلق الامبراطوريات بينما كان لابراهيم الحكمة التى تعينه على الاحتفاظ بهذه الامبراطوريات » • وهذا يعنى أنه لو كان ابراهيم قد عاش لفترة عقب وفاة والده ولو كانت الدولة الأوربية بقيادة بريطانيا لم تتحالف ضده لكانت قد ظهرت امبراطورية عربية تسيطر على وادى النيل والبحر الأحمر والمشرق Levant وتحل محل الامبراطورية العثمانية وتصبح أكبر قوة اسلامية قيادية فى العالم •

ومن الصعب أن نتخيل حدوث مثل هذا التطور اذ لم يكن لدى محمد على رؤى تتعلق بتجدد الانبعاث القومى العربى • وهو عندما فكر فى الاستيلاء على الخلافة من السلطان العثمانى فانه لم يكن يهدف الى اعادة تلك الخلافة الى أيدى العرب • فهو قد ظل طوال حياته رجلا تركيا / ألبانيا ولم يحاول على الاطلاق أن يتعلم اللغة العربية لكى يتحدث بها • أما ابراهيم فكان يعتبر نفسه مصريا وكان ذلك يثير سخط والده واستياءه • كما كان ابراهيم يتحدث باللغة العربية

بل وأدمج نفسه مع جنوده العرب . والأهم من ذلك أنه كان يحلم باحياء الامبراطورية العربية وكان فى بعض الأحيان يشعل حماس جنوده من خلال الاشارة الى الأمجاد التاريخية العربية . ولكن لا شيء من ذلك قد اتخذ اتجاهات واهتمامات حقيقية . ولم يكن بالمستطاع محو قرون من الهيمنة العسكرية والسياسية على العالم الاسلامى ولم يكن لدى محمد على أو ابراهيم الوقت الكافى لخلق مؤسسات جديدة تتمكن من البقاء على قيد الحياة . ولقد استمرت الأسرة الحاكمة الخاصـــة بهما . الا أن أحفادهما كانوا رجالا أقل كفاءة وأقل شأنا وأهمية .

الفصل الرابع

الكفاح من أجل الاصلاح

The Struggle for Reform, 1840-1900

عندما تولى الخلافة السلطان عبد المجيد الأول البالغ من العمر ١٦ عـاما [١٨٣٩ – ١٨٦١] كانت امبراطوريته تتعرض لأخطار مميتة · اذ كانت اصـلاحات والده محمود الثانى قد مزقت النظام القديم وأشاعت الفوضى بينما الفوائد الناجمة عن الاصلاحات لم تكن قد تحققت بعد · وكانت الانكشارية وهى القوة الرئيسية فى القوات المسلحة قد قمعت الا أن التدريب والعتـاد الحربى المقدم بمعرفة البعثة العسكرية التابعة للمتكه Moltke كان لا يزال عليه أن يثبت كفـاءته وفاعليته ومثلما برهنت الهزائم المنـكرة على أيدى جيش الفلاحين التابع لابراهيم على كفاءة المصريين · وكانت الاصلاحات فى مجـال التعليم بما فى ذلك المدارس الجـديدة فى الطب والهندسة والشئون الحربية والبحريـة والتى يقوم بالتـدريس بها مدرسون أجانب وكذلك البعثات الطلابية الى الجامعات الأوربية وكذلك وضع الأسس الأولى التى يرتكز عليها التعلم الابتدائى الالزامى – قد بدأت منذ فترة قصيرة فى انتـاج جيل جديد من الشباب العثمانى الذى

يمكن له أن يفهم ويتأقلم مع التقدم العلمي والفني الهائل الذي تفجر في خلال القرن التاسع عشر ٠

ولم يكن السلطان الشاب يتمتع بقوة الشخصية مثل والده وذلك على الرغم من أن والدته الرهيبة ظلت تساعده لبعض الوقت ٠ ولكنه قرر الاستمرار في الاصلاحات والتوسع فيها ٠ وتم استدعاء مصطفى رشيد باشا وزير الخارجية الشهير الكفء الذي كان في مهمة في لندن عندما أعلن عن وفاة محمود الثاني للعودة الى العاصمة ليتولى برنامج الاصلاحات ٠ وفي ٣ نوفمبر ١٨٣٩ تم الاعلان عن المرسوم التاريخي الشهير الصادر عن مجلس الأعيان Rose Chamber — وهو المرسوم الذي يضم أول مجموعة من الأوامر العالية التي عرفت في مجموعها باسم : « التنظيمات » ٠ ولقد قام مصطفى رشيد بتقديم استقالته أكثر من مرة ٠ ولكن كان يتم ارجاعه الى منصبه في كل مرة ٠ وقام آخرون بمواصلة أعماله عقب وفاته في عام ١٨٥٨ ٠ وكانت المعارضة التي يقودها المتشبثون بالسياسات القديمة التقليدية قوية للغاية لأن الاصلاحات كانت متسمة بالروح الثورية في مضمونها وأهدافها ٠ وعلى الرغم من أن انجازات الاصلاح كانت أقل من الأهداف المعلنة الا أنها حققت تغييرات ملحوظة في الطريقة التي كانت تحكم بها الامبرطورية وفي أسلوب شئونها الادارية ٠

وكان هناك تغييران يتسمان بالثورية الحقة وذلك من حيث عدم التزامهما بالمبادئ الاسلامية التي كانت تسيطر دائما على شئون الحكم في الامبراطورية ٠ وكان مجرد الاعلان عن هذين التغييرين اللذين كانا وثيقي الصلة ببعضهما البعض بمثابة صدمة هائلة للرأي التقليدي ٠ اذ كان التغيير الأول ينص على أن جميع المواطنين العثمانيين متساوون تماما أمام القانون بصرف النظر عن الجنس أو العقيدة ٠ أما التغيير الثاني فكان يتمثل في ادخال مجموعة قوانين جديدة مختلفة تماما عن الشريعة الاسلامية التي كان ينفذها القضاة المسلمون ٠

وكانت المساواة الكاملة بين كافة المواطنين أمام القانون هى مبدأ علمانى غير اسلامى مشتق من حركة التنوير الفلسفية الأوربية التى ظهرت فى القرن الثامن عشر European Englightenment ومن مبادىء الثورة الفرنسية · وكان القانون الاسلامى والتقاليد الاسلامية تقضى بالتسامح وتوفير الحماية لرعايا الدولة غير المسلمين· وطبقا لهذه المبادىء كان يسمح لغير المسلمين بالتمتع بدرجة من الحكم الذاتى تحت أسلوب الملة millet · الا أن ذلك لم يكن يعنى أن أفراد هذه الاقليات كانوا متساوين تماما مع الغالبية العظمى من المسلمين ·

وكان من المحتم أن يحدث المفهوم الذهنى الجديد عن المساواة تأثيرا على سيادة الشريعة الاسلامية · اذ كانت هذه هى الخطوات الأولى التى تتخذ نحو تخفيض أهمية الشريعة الاسلامية وذلك من خلال خلق هيئة جديدة لها سلطات التشريع وسن القوانين · ولم يكن التغيير مباشرا · لأن الهيئات الدينية خاضت الحرب ضد التغيير وتمكنت لبعض الوقت من منع اصدار قانون تجارى جديد يقع خارج نطاق الشريعة الاسلامية · ومع ذلك فانه يمكن القول أن عملية اضفاء الطابع العلمانى على أكبر دولة اسلامية فى العالم كانت قد بدأت بالفعل ·

ولأن السلطان ومستشاريه الاصلاحيين كانوا يزعمون دائما بأن التغييرات تتوافق مع الدين الاسلامى فان جماهير الشعب كانت غير مدركة لمدى أهمية هذه التغييرات ومدى تأثيراتها على المجتمع · ومع ذلك فان هذه التغييرات كانت ثورية · فالأتراك والعرب فى هذه الأيام المعاصرة ينظرون الى هذه التغييرات على أنها من وجهة نظرهم بمثابة الأحداث الهامة التى تفضى الى طريق الكارثة أو أنها بمثابة الخطوات التى تفضى الى تحديث العالم الاسلامى واضفاء الطابع الحديث عليه وهى خطوات ضرورية وبالغة الأهمية اذا ما كان على العالم الاسلامى أن يقاوم النفوذ الخطير الطاغى لأوربا المسيحية ·

والاصلاحات الأخرى المتعلقة « بالتنظيمات » كانت موجهة الى هذا الهدف الرئيسي الخاص باحياء وتجديد قوة الامبراطورية · حيث نجد أنه قد تم التوسع بشكل كبير في سياسة السلطان محمود الرامية الى انشاء مدارس حربية جديدة مزودة بمدرسين ومعلمين أجانب · وكان قانون التجنيد الجديد له أهمية كبرى حيث نص على تخفيض مدة الخدمة العسكرية التى كانت تدوم لفترة طويلة غير محددة الى خمس سنوات فقط تعقبها مدة سبع سنوات احتياطية · كما تم أيضا انشاء هيئة مدنية للشرطة تسمى : الدرك ·

وعلى الرغم من أن مهمة تحديث القوات المسلحة قد تطلبت بذل الوقت والجهد الا أنها كانت مهمة بسيطة اذا ما قورنت بمهمة رفع المستويات التعليمية · وكان مصطفى رشيد يدرك جيدا أن مهمة رفع المستوى التعليمى هى شرط أساسى من أجل التمكن من احراز النجاح فى كافة أنواع الاصلاحات الأخرى · وكانت المؤسسات التعليمية الوحيدة المتواجدة هى المدارس القرآنية التى يتولاها العلماء الدينيون ويطبقون فيها مناهج دراسية خاصة · وتم اطلاق برنامج كبير من أجل خلق جامعة حكومية علاوة على خلق شبكة مركزية من المدارس الابتدائية والثانوية · كما تم انشاء وزارة للتعليم · وعلى الرغم من ان الحكومة قد أعلنت أن الدين الاسلامى له الأولوية الأولى فى المناهج الدراسية الجديدة الا أن الحقائق كانت تؤكد أن أسلوب التعليم العلمانى كان يتم تطبيقه بالفعل · وصحيح أن عدد المدارس الجديدة كان أقل من المتوقع ولكن المبدأ هو الشىء الذى كان أكثر أهمية ·

ولأن هذه الاصلاحات كانت باهظة التكاليف فانها قد اعتبرت السبب فى الضعف الذى أصاب الامبراطورية بل واعتبرت السبب الرئيسى فى الفشل فى اللحاق بالقوة الأوربية · وذلك على أساس أن هذه الاصلاحات هى التى أضعفت الاقتصاد والمركز المالى للامبراطورية

العثمانية • وفى خلال القرون الأولى العثمانية العظيمة كانت الموارد الشاسعة للامبراطورية هى التى تغذى جيوشها المظفرة وذلك على الرغم من أن السلاطين المتعاقبين آنئذ كانوا يعتقدون أن النقص فى الاعتمادات المالية هو الذى فرض القيـــود على طموحاتهم الكبيرة • وبحلول منتصف القرن التاسع عشر نجد أن ميزان القوى الاقتصادية قد تحول لصالح أوربا الغربية وخاصة بريطانيا وفرنسا لدى مرورها واجتيازها للمرحلة الثانية للثورة الصناعية بينما لم تكن تركيا قد بدأت فى الدخول فى الثورة الصناعية الا منذ فترة ضئيلة للغاية • وأصبحت الدول الأوربية قـادرة على استخدام نفوذهـا السياسى والاقتصادى من أجـل ارغـام الامبراطورية العثمانية على السماح لاقتصادها بالدخول فى النظام الرأسمالى الحر للقرن التاسع عشر • ونظرا لأن السلطان كان يواجه الهجوم الضارى الذى تشنه جيوش محمد على فانه أصبح فى موقف لا يسمح له بمقاومة مطالب أوربا • وكما رأينا فان المعاهدة الأنجلو / تركية لعام ١٨٣٨ قد أزاحت كافة القيود التى كانت مفروضة على الواردات الأوربية •

ولم تكن التجارة الحرة بأى حال من الأحـوال ضـارة تماما للامبراطورية العثمانية • فبينما كانت السلع الأوربية تتدفق الى داخل الامبراطورية عانت من ذلك الصناعات الحرفية التقليدية وصناعة المنسوجات • ولكن كان هناك فى نفس الوقت طلب كبير على المواد الخام مثل الحرير السورى والقطن المصرى والصوف الأناضولى • كما نجد أيضا أنه قد تم التوسـع فى انتاج القمح والشعير والذرة والأرز من أجل تلبية احتياجات المدن الآخذة فى النمو • وازدهرت طبقة التجـار وازدهرت معهـا المؤسسات الرأسمالية مثـل البنوك وشركات التأمين والشركات التجارية المحدودة التى بدأت تنمو وتزدهر لأول مرة فى داخل الامبراطورية • ومع ذلك كانت هناك نكستان بالنسبة لحكام الامبراطورية • احداهما تتمثل فى أن قدرا كبيرا من الثروات الجديدة قد تدفقت الى جيوب الأجانب الذين استفادوا من

الامتيازات الأجنبية ولم تتدفق الى جيوب الرعايا العثمانيين. والنكسة الثانية هي أن القضاء على الأسلوب التقليدى للاحتكارات الحكومية قد قضى على المصدر الرئيسى للدخل الحكومى .

وكان مصطفى رشيد وزملاؤه يدركون تماما الأخطار التى تحدق بالسياسة التقليدية الخاصة بتخفيض قيمة العملة النقدية من أجل مواجهة العجز المستمر في الميزانية . واتخذوا اجراءات من أجل تجنب هذا وذلك من خلال سحب العملة القديمة وطرح عملة جديدة وفق الأساليب الأوربية وبحيث تتألف من جنيه من الذهب ينقسم الى مائة قرش . وقد أدى هذا الى حدوث استقرار نقدى لفترة معينة . ولكنهم فى نفس الوقت اتخذوا الاجراء الذى لا مفر منه والذى ينطوى على مخاطر مهلكة بأن أصدروا سندات بهدف زيادة الدخل الحكومى . وقبل أن تنقضى فترة طويلة أصبحت هذه السندات تتداول كشكل من أشكال العملة مما أسفر عن تضخم مالى ينطوى على أخطار شديدة . وبذلك ظهرت هناك رغبة ملحة فى اللجوء الى أوربا للحصول على قروض حكومية حتى يمكن سحب السندات . وعندئذ ظهرت المؤسسات البنكية التى يمكن من خلالها تحويل مدخرات الطبقات الأوربية المتوسطة الى الاستثمار الأجنبى . وفى عام ١٨٥١ قام مصطفى رشيد بالتوقيع على اتفاقية مع بنك بريطاني وآخر فرنسي من أجل الحصول على قرض حكومى قيمته ٥٥ مليون فرنك . وكانت هذه هى الخطوة الأولى على الطريق الذى أدى الى افلاس الامبراطورية عقب مرور عشرين عاما .

ولأن المصانع الحربية العثمانية كانت من طراز عتيق وعديمة الكفاءة فان الأمر كان يستلزم استيراد عتاد حربى جديد من أوربا . وحتى فى فترات السلام فان الجهود الرامية الى استعادة التوازن العسكرى مع الغرب كانت تشكل عبئا شديدا على كاهل الموارد المالية للامبراطورية . وفى هذه الفترة دخلت الامبراطورية العثمانية فى

حرب مع عدوها الأوربى التقليدى : ألا وهى روسيا · ولم تكن حرب كريميا Crimean War من الاختيارات التى قامت بها الامبراطورية العثمانية وانما تفجرت هذه الحرب كنتيجة للمنافسة التى احتدمت بين دول أوربا ·

وكانت روسيا تشعر بالقلق بعض الشيء من احتمال احياء تركيا عقب ادخال الاصلاحات بها ومع ذلك فقد كان القيصر نيقولاس الاول الاتوقراطى الطموح يعتقد أن انهيار الامبراطورية سيجيء فى أغلب الأحيان كنتيجة لبرنامج الاصلاح فى حد ذاته · وفى عام ١٨٤٤ قدم للحكومة البريطانية خطة تقضى بتقسيم الامبراطورية العثمانية : وبحيث تحصل بريطانيا على جزيرة كريت ومصر وبحيث تصبح استانبول « مدينة حرة » وبحيث تصبح دول البلقان متمتعة بالحكم الذاتى تحت الحماية الروسية · وأنكر القيصر أنه يحاول تحقيق أحلام كاترين الكبرى فى استعادة الامبراطورية البيزنطية ــ حيث أشار الى أن روسيا تتمتع بوضع ملائم يجعلها لا تطالب بالحصول على المزيد من الأراضى · الا أن بريطانيا ظلت تشعر بالارتياب الشديد فى نواياه ومآربه · وكانت سياسة بريطانيا ــ وكذلك سياسة فرنسا والنمسا ــ مازالت تحرص على الابقاء على رجل أوربا المريض على قيد الحياة الى أطول فترة ممكنة ومنع سقوط أى عضو حيوى من أعضاء الامبراطورية العثمانية فى أيدى الروس · وكان الرد البريطانى على القيصر متسما بالحرص والحذر الشديدين ·

وكانت الامبراطورية العثمانية ستترك فى هدوء وسلام لو لم ينشأ ذلك النزاع بين فرنسا وروسيا بشأن السيطرة على الأراضى المقدسة فى فلسطين · ففى عام ١٧٤٠ كان السلطان محمود الأول ــ من خلال اتفاقية الامتيازات الأجنبية التى أبرمت مع فرنسا ــ قد منح حقوقا وامتيازات للرهبان الرومان الكاثوليك المتواجدين بالأراضى المقدسة ووضع الحجاج الفرنسيين علاوة على الحجاج التابعين

للدول اللاتينية الكاثوليكية الأخرى تحت حماية العلم الفرنسى • ولكن وفقا للتأثيرات العلمانية الناجمة عن الثورة الفرنسية تضاءلت الاهتمامات الفرنسية بالأراضى المقدسة فانتهزت روسيا انفرصة لكى تتوسع فى الحقوق والامتيازات الممنوحة للكنيسة الأرثوذوكسية بالأراضى المقدسة على حساب الكاثوليك الرومان اللاتينيين • وفى عام ١٨٥٠ نجد أن لويس نابليون الذى كان بحاجة لتأييد من الكنيسة الكاثوليكية الفرنسية قرر أن يؤكد من جديد على الحقوق الكاثوليكية فى فلسطين • وتقدم بطلب رسمى فى هذا الشأن الى السلطان • وعندما رفض القيصر التخلى عن أى حق من الحقوق التى اكتسبتها روسيا اقترحت الحكومة العثمانية عقد تسوية سلمية يحتفظ بمقتضاها كلا الجانبين بالحقوق والامتيازات الخاصة بهما مع قيام السلطان بالتعهد بحماية الأماكن المقدسة وحماية الحجاج المسيحيين • ولكن فرنسا وروسيا رفضتا هذا الاقتراح •

وكانت بريطانيا مهتمة أيضا بهذا الموضوع ولكنها على العكس من روسيا وفرنسا لم تكن تتحرق شوقا للدخول فى حرب • ونظرا لأن بريطانيا كانت تكره الطموحات الروسية تجاه الامبراطورية العثمانية على نحو يفوق كرهها للطموحات الفرنسية ازاء الامبراطورية العثمانية فانها كانت تميل الى الوقوف فى صف فرنسا وتركيا • وحاولت الحكومة البريطانية السعى نحو الحفاظ على السلام الا أنه أصبح من الواضح تماما أن روسيا كانت تسعى الى فرض حماية ليس فقط على الرهبان الأرثوذوكس ولكن أيضا على الرعايا المسيحيين الأرثوذوكس البالغ عددهم ١٢ مليون شخص فى داخل الامبراطورية العثمانية • ورفض السلطان العثمانى ذلك فى حزم شديد • وعندما قام الروس باحتلال ولاية مولدافيا Moldavia وولاية ولاشيا Wallechia الواقعتين فى منطقة الدانوب بادرت تركيا الى اعلان حالة الحرب ضد روسيا • ثم عبرت الجيوش العثمانية نهر الدانوب وتمكنت من احراز أربعة انتصارات متتالية أولية • وعلى الرغم من

أن القوات المسلحة الروسية كانت هائلة من حيث العدد الا أنها كانت بحاجة للتحديث شأنها فى ذلك شأن القوات العسكرية التركية ٠ وبدا الأمر وكأن الاصلاحات العثمانية قد بدأت تأتى أخيرا بالنتائج المرجوة منها ٠ ودخلت الأساطيل البريطانية والفرنسية الى مضيق الدردنيل ٠ وكانت بريطانيا تأمل فى أن يكون ذلك الاجراء سببا كافيا يدعو الروس الى الانسحاب ٠ الا أن القيصر نيقولاس لم يرتدع ٠ وقام الأسطول الروسى بقصف موانى البحر الأسود بالقنابل ودمر أسطولا تركيا ٠ وفى ٢٧ مارس ١٨٥٤ أعلنت كل من بريطانيا وفرنسا الحرب على روسيا بعد حصولهما على تأييد شعبى كبير من الرأى العام فى داخل بريطانيا وفرنسا ٠

واستمرت الحرب لفترة تقل عن سنتين ٠ وانتهت عندما هددت النمسا بدخول الحرب ضد روسيا ٠ واذا كانت هذه الحرب قد كشفت عن عيوب خطيرة فى الجيوش البريطانية والفرنسية — إذ كانت فى بعض النواحى مازالت تحارب بأساليب الحروب النابليونية فانها قد أظهرت أيضا أن الروس كانوا فى حالة أسوأ ٠ وعلى الرغم من أن هذه الحرب قد دارت رحاها بسبب شئون داخلية تتعلق بالامبراطورية العثمانية نجد أن الجيوش التركية قد قامت بدور ثانوى عديم الأهمية فى هذه الحرب ٠ فبعد النجاحات الأولى التى أحرزها الأتراك عند الدانوب نجد أنه لم تشترك فى الحرب بعد ذلك سوى فرقة تركية واحدة ٠

وتضمنت معاهدة باريس التى أبرمت فى مارس ١٨٥٦ على شروط انهاء الحرب ٠ وتخلت روسيا عن مطالبتها بفرض الحماية على المسيحيين العثمانيين ٠ وبعد أن كانت روسيا هى التى تستأثر بفرض الحماية على ولايات الدانوب أصبحت هناك حماية مشتركة من دول أوربا على تلك الولايات ٠ أما حرية الملاحة فى نهر الدانوب فقد عهد بها الى اشراف من لجنة دولية ٠ هذا بالاضافة الى الاتفاق على تحييد البحر الأسود ٠

وطبقا لبنود هذه المعاهدة تعهدت الدول المسيحيه باحترام استقلال الامبراطورية العثمانية وسيادتها على أراضيها والحفاظ عليها من خلال التدخل المسلح اذا اقتضت الضرورة ذلك • ويمكن النظر الى هذا على أنه بمثابة ادخال تركيا فى الاتفاق الأوربى Concert of Europe المزعوم ولكن الطريقة التى تم بها ذلك كانت متسمة بقدر كبير من التفضل والاحسان وفرض الحماية • وحقيقة الأمر أن الدول المسيحية كانت تهدف الى التدخل فى الشئون الداخلية للامبراطورية العثمانية اذا شعرت أن مصالحها تتعرض للخطر على أيدى أحد منافسيها • وفى نفس الوقت كانت الدول الأوربية تعبر عن موافقتها على الاصلاحات الرامية الى اضفاء الطابع الغربى الأوربى على تركيا • وتم الاعلان عن ميثاق جديد أو مرسوم [قرار] امبراطورى Imperial Rescript كمقدمة استهلالية لمعاهدة باريس ينص على تأكيد « التنظيمات » مرة أخرى ويدفع بالاصلاحات الى مراحل أبعد • وتم وضع الخطوط العريضة لذلك بالتعاون مع مندوبى الدول وخاصة السفير البريطانى ستراتفورد كانينج المتسم بالحيوية والفاعلية • وبسبب اصرار الدول نجد أن شروط وبنود هذا الميثاق قد تم تضمينها فى معاهدة باريس •

ولقد نص المرسوم الامبراطورى فى صيغة أكثر قوة وأكثر تحديد عن ذى قبل على تكرار القول بضرورة فرض المساواة الكاملة بين الرعايا العثمانيين « بدون تحيز للطبقة أو العقيدة » فى جميع المسائل التى تتعلق بالضرائب وملكية العقارات والتعليم والعدل • وهذا النص فى حالة تطبيقه تطبيقا حرفيا كاملا فانه كان يعنى هدم القانون الاسلامى الذى هو الأساس الذى ترتكز عليه الامبراطورية العثمانية • ولكن التطبيق كان جزئيا فقط • ومع ذلك فان ذلك القرار الامبراطورى كانت له بعض النتائج الهامة : اذ تم ادخال قوانين جديدة تجارية وبحرية علاوة على قوانين جديدة للعقوبات ترتكز الى

حد كبير على القانون الفرنسى • وبذلك لم تعد الشريعة الاسلامية هى السائدة فى كثير من مجالات الحياة •

الا أن الاجراء الذى كان له نتيجة مباشرة وآثار بعيدة المدى على المجتمع العثمانى كان يتمثل فى اصدار قانون الأراضى الجديد الذى يرتكز على الممارسات الغربية والذى كان يراد منه أن تتمكن الامبراطورية العثمانية من اللحاق بأوربا المسيحية• فالنظام التقليدى للأراضى والذى كانت الأراضى بمقتضاه مملوكة للدولة وبحيث يكون للمزارعين حقوق معينة فى هذه الأراضى فى مقابل قيامهم بتسديد ضريبة اعتيادية [ضريبة الميرى] قد حل محله نظام آخر جديد يرتكز على الملكية الفردية الحرة المطلقة للأراضى مع تواجد حقوق كاملة فى التخلص منها بالبيع أو التوريث •

ولم يكن بالمستطاع تطبيق هذا الاصلاح الثورى تطبيقا كاملا • فكثيرا ما كان يتم التغلب عليه بالحيلة والمراوغة • وظلت الكثير من الممارسات التقليدية منتشرة وسائدة • وأصبحت النتائج غير مشجعة ومحبطة الى درجة كبيرة • وكان النظام القديم قاسيا وظالما فى كثير من النواحى ــ اذ كان يساء استخدام أسلوب جمع الضرائب من المزارعين على نحو شـنيع وكان المصلحون العثمانيون يتطلعون منذ فترة طويلة الى الغاء ذلك الأسلوب ــ الا أن النتيجة العملية لتطبيق قانون الأراضى الجديد قد حولت فى نفس الوقت الكثيرين من جامعى الضرائب الى ملاك يمتلكون الأراضى ملكية مطلقة وحولت معظم الزراع الى مشاركين فى المحاصيل أو عمال مسـتأجرين • وبذلك تكونت طبقة جديدة قوية من كبار ملاك الأراضى • وكان عدد قليل للغاية من طبقة كبار ملاك الأراضى من الفلاحين المستنيرين أو التقدميين • وبذلك لم يتم خلق طبقة جديدة من الفلاحين المزدهرين وفق النموذج الغربى وبحيث يقومون باستثمار وتطوير الأراضى التى يمتلكونها • وبذل المصلحون جهودا صادقة بهـدف زيادة المحاصيل الزراعيـة

والناتج الزراعى وذلك من خلال توزيع الحبوب مجانا وخلق شبكة من البنوك الريفية التعاونية من أجل تزويد الفلاحين بقروض ميسرة • الا أن تلك الجهود لم تأت بالنتيجة المرجوة وذلك بسبب عدم تواجد النظام الادارى اللازم وعدم تواجد الخبراء الفنيين • وكان النجاح الوحيد البسيط يتمثل فى توطين بضعة مئات آلاف من اللاجئين القادمين من روسيا فى الأراضى غير المنزرعة آنئذ فى منطقة الأناضول•

وهناك مشكلات مماثلة أحدقت بكافة الجهود التى بذلها المصلحون العثمانيون من أجل زيادة المقدرة الانتاجية لاقتصاد الامبراطورية من حيث أن ذلك وسيلة أساسية لزيادة الدخل الحكومى ورفع العائدات وفقا لما كان يطالب به السفراء الغربيون المتواجدون فى استانبول • وحقيقة الأمر أن مبادىء التجارة الحرة لليبرالية التى كانت تفرضها أوربا هى التى منعت المصلحين من تزويد الصناعات الوليدة العثمانية بالحماية التى كانت تحتاج اليها لكى تتمكن من الصمود والبقاء على قيد الحياة •

وحقيقة الأمر أنه لم يكن يوجد هناك أمل فى حدوث « وثبة هائلة للأمام » فى الاقتصاد العثمانى بحيث يتمكن من المنافسة أمام اقتصاد الدول الصناعية فى أوربا الغربية • ولم يكن يوجد بالاقتصاد العثمانى تلك الملامح الرئيسية التى تتميز بها رأسمالية القرن التاسع عشر المتقدمة ولا الخبراء الذين يديرون دفة الاقتصاد • وكان الأمر يتطلب فترة تزيد على ثلاثين عاما حتى يمكن تطوير وتنمية الاقتصاد العثمانى • هذا بالاضافة الى أن الامتيازات الأجنبية كانت تعنى أن الكثير من أجزاء الاقتصاد التى تدار بأسلوب تقدمى كانت واقعة فى أيدى الأجانب وبالتالى كانت واقعة خارج نطاق السيطرة العثمانية • وفى عام ١٨٦٧ صدر تعديل على قانون ينص لأول مرة على السماح للأجانب بامتلاك الأراضى فى الامبراطورية •

ولقد بذل المصلحون محاولات صادقة تهدف الى تطوير البنية المتخلفة للاقتصاد العثمانى : مثل الطرق البرية والسكك الحديدية

والموانى البحرية • الا أن كافة الجهود فى هذا الاتجاه كانت تزيد من عبء الديون الحكومية • وعلى الرغم من حدوث بعض التحسن فى جباية وجمع الضرائب فان النفقات دائما ما كانت تجتاح العائدات وتزيد عليها • وسرعان ما اضطرت الحكومة العثمانية لأن تتخذ خطوة خطيرة مميتة تتمثل فى استخدام القروض الأجنبية من أجل مواجهة العجز المتزايد فى الميزانية • وأخيرا وفى أكتوبر ١٨٧٥ أصدرت الحكومة بيانا أعلنت فيه أن نصف الكمية فقط المحتاج اليها لاصلاح الديون الأجنبية يمكن أن تسدد نقدا أما الباقى فيغطى من خلال اصدار جديد لسندات حكومية • وكان هذا بمثابة اعلان عن الافلاس • وعلى الرغم من أن تجربة القرن العشرين قد أوضحت لنا كيف أن الدول المديونة يمكن لها أن تستغل وضعها فى مهارة مع الدائنين الا أن ذلك كان وضعا مريعا وشنيعا وجد فيه العثمانيون المعتزون بأنفسهم غارقين فيه •

وكان السلطان عبد المجيد قد انتقل الى رحمة الله فى عام ١٨٦١ • عن عمر يناهز ٣٨ عاما • وهو لو كانت شخصيته متسمة بالمزيد من القوة والنشاط ولو كان قد أعطى المزيد من التأييد لرشيد باشا وخليفيه : على باشا وفؤاد باشا لكانت الاصلاحات قد أتت بالمزيد من النتائج الايجابية • ولكن هذا لم يكن أمرا مؤكدا • اذ لم يكن من المتوقع للقرارات التى تتخذ فى المنطقة المركزية من الامبراطورية والتى ترمى الى احداث تغيير فى المجتمع فى مثل هذه الامبراطورية الشاسعة المترامية الأطراف أن تأتى بنتائج ايجابية ملموسة • ومن خلال المدارس الجديدة والأكاديميات الجديدة تم التوسع فى عملية تطوير الطبقة الحاكمة العثمانية ـ وهى العملية التى بدأت فى أوائل القرن ـ التى أصبحت لأول مرة منذ قرون متفتحة على العالم الخارجى بل وأصبحت تتحدث باللغات الأجنبية وتمتص الأفكار الجديدة • الا أن هذه العملية من خلال طبيعتها كانت تسير فى خطوات تدريجية بطيئة ومع ذلك كان من الصعب على

الرجعيين القيام بأعمال مضادة . وبحلول نهاية القرن أصبحت النتائج واضحة ومتمثلة فى بزوغ طبقة اجتماعية هامة من الشباب الأتراك المتعلمين الذين لديهم تفهم حقيقى لاحتياجات دولتهم . ولم يعد المصلحون بمثابة حفنة صغيرة من الرجال المنعزلين الذين يقفون بمفردهم .

الا أن التغييرات التى تمت فى المنطقة المركزية من الامبراطورية كانت لها مظاهرها السلبية . اذ نجد أن السلطان محمود قد زاد كثيرا من سلطاته الاتوقراطية الاستبدادية المطلقة كوسيلة تعينه على البدء فى تنفيذ الاصلاحات . حيث قام بقمع الانكشارية وخفض من سلطات الأسرات الحاكمة المحلية والحكام المحليين المتواجدين فى الأقاليم والولايات . كما دعم هذا الاتجاه من خلال تخفيض السلطات التى يمارسها علماء الدين على المسائل المتعلقة بالدين والتعليم والقانون . والسلطان عبد العزيز الذى تولى الخلافة بعد أخيه عبد المجيد فى عام ١٨٦١ قد أكد على لقبه من حيث هو خليفة للمسلمين وهو لقب كان قد أصبح متسما بالطابع الرسمى الشكلى الى حد بعيد . وأدعى أنه الزعيم الروحى والرئيس السياسى فى نفس الوقت للامبراطورية . وهكذا نجد أن القوى التوازنية العديدة التى كان يعتمد عليها كبار السلاطين العثمانيين السابقين قد بدأت تتراجع فى زوال الواحدة تلو الأخرى . وأصبح من المقرر فى نهاية الأمر ان تقف المفاهيم الغربية عن الحكومة الدستورية والفصل بين السلطات التشريعية والتنفيذية والقضائية ضد نظام الحكم المطلق الذى يمارسه السلطان العثمانى .

وكان للسلطان عبد العزيز شخصية أقوى من أخيه الا أن قدراته الذهنية كانت أقل من أخيه . وعلى الرغم من أنه أعلن فى بادىء الأمر عن نفسه أنه مصلح الا أنه سرعان ما أظهر تعاطفه مع الرجعيين . ولكنه لم يكن قادرا على الوقوف ضد عملية الاصلاح . اذ كان واقعا باستمرار تحت الضغوط التى تمارسها الدول الأوربية

تحت قيادة فرنسا ونظرا للأوضاع الاقتصادية المتدهورة في الامبراطورية فانه لم يكن في موقف يسمح له بمقاومة تلك الضغوط · وفي غيظ واستياء سمح لعلي باشا وفؤاد باشا بالسير في اجراءات الاصلاح التعليمي والقانوني ·

وبحلول عام ١٨٧١ انتقل الى رحمة الله كل من علي باشا وفؤاد باشا · ولقيت فرنسا الملهمة للأفكار الاصلاحية الليبرالية هزيمة نكراء على أيدي بروسيا · فانخفضت الضغوط الخارجية بالاضافة الى أنه لم يكن يوجد هناك شخصيات لها منزلة ومكانة كبيرة لكي تستأنف السير في اجراءات الاصلاح · ومع ذلك فاننا نجد في ذلك الوقت أن الضغوط الداخلية بدأت تبزغ من مستويات اجتماعية أكثر انخفاضا ·

وحتى حلول القرن التاسع عشر لم يكن الأتراك العثمانيون يدركون مدى التقدم التكنولوجي والمادي الهائل الذي وصلت اليه أوربا المسيحية · فهم لم يتعلموا اللغات الأجنبية ولم يسافروا الى خارج نطاق الامبراطورية · كما أن تعليمهم وأسلوب نشأتهم جعلهم يدركون أن العالم الاسلامي متفوق على نحو حتمي على كافة الشعوب الأخرى · ومع ذلك فان هذا الموقف قد تغير بحلول منتصف القرن التاسع عشر · فالمفاهيم الغربية عن الحرية والمساواة المستقاة من التنوير Enlightenment والثورة الفرنسية كانت قد تغلغلت الى حد ما في أرجاء الامبراطورية من خلال اصلاح النظام التعليمي ومن خلال ماكينات الطباعة الجديدة · هذا بالاضافة الى أن هذه المفاهيم الغربية كانت متضمنة في تقديس في داخل الدساتير الامبراطورية والمواثيق الامبراطورية التي كانت هي الأساس الذي قامت عليه « التنظيمات » · وعلاوة على ذلك فان الشباب العثماني الجديد الذين أصبحوا الآن يعرفون جيدا تلك المفاهيم كانوا يسافرون الى الخارج بأعداد متزايدة فأصبحوا قادرين على أن يشاهدوا بأنفسهم الانجازات

التي حدثت في الدول التي ازدهرت فيها مثل هذه الأفكار • فشعروا بالخزي والغضب لأن المجتمع العثماني قد صار متخلفا للغاية ومسلوب القوى بالمقارنة مع الغرب • وذهب بعضهم في تقديراته الى أن الأمر يستلزم — كخطوة أولى — ادخال المفاهيم الغربية عن الحكم الدستوري رغم أنهم كانوا يشعرون دائما أن تلك المفاهيم تتوافق تماما مع العقيدة الاسلامية • وذهب آخرون الى أن الحل يكمن في احياء المبادىء الاسلامية الحقة الصادقة التي سمح بها بالانزواء والتراجع والاضمحلال • وهذان الاتجاهان المتعارضان ما زالا متواجدين في العالم الاسلامي حتى يومنا هذا • ولكن في الستينات من عام ١٨٦٠ نجد أن مؤيدي هذين الاتجاهين قد اتفقا في الرأي على أن الأمر يستلزم العمل على تخفيض السلطات الاستبدادية المطلقة التي يتمتع بها السلطان العثماني •

وفي عام ١٨٦٥ تشكلت منظمة ثورية سرية وهي المنظمة التي عرفت بعد ذلك باسم : « الشباب العثماني » • وكانت هذه المنظمة في الواقع بمثابة أول حزب سياسي يظهر في الامبراطورية العثمانية • وكان الالهام الفكري لها قد جاء من جانب حركة أدبية جديدة متأثرة بشكل كبير بالأفكار والكتابات الفرنسية ولكنها كانت متسمة أيضا بطابع التحمس الشديد للوطن والمغالاة في الوطنية • وكان نامق كمال Namik Kemal وضياء Ziya باشا شاعرين وكاتبين مسرحيين على مستوى عالي • وعندما صدر قرار بنفيهما بسبب قيامهما باثارة الناس من الناحية السياسية فانهما استمرا في طبع واصدار صحف المعارضة من العواصم الأوربية وتهريب هذه الصحف الى داخل تركيا •

وكانت الامبراطورية قد عانت من سلسلة من الاذلالات الجديدة على أيدي الدول الأوروبية • ففي عام ١٨٦١ وعقب نشوب حرب أهلية في لبنان بين المادون المسيحيين والدروز قام نابليون الثالث

من حيث هو حامى حمى المسيحيين بانزال قوات عسكرية فى بيروت . فاضطر السلطان الى الموافقة على منح الحكم الذاتى للبنان تحت حاكم مسيحى يتم اختياره بمعرفة الدول الأوربية وبحيث يوافق السلطان على ذلك الاختيار . وعندما قام الصرب بتمرد فى الستينات من عام ١٨٦٠ أرغمت الضغوط الأوربية تركيا على سحب قواتها من تلك المنطقة . وبعد ذلك تمرد أهالى جزيرة كريت وأعلنوا اتحادهم مع اليونان . وعلى الرغم من أن القوات العثمانية كانت قادرة على قمع التمرد فان الدول الأوربية قامت بعقد اجتماع فى باريس أسفر عن موافقة تركيا على منح الحكم الذاتى لجزيرة كريت وبحيث يحكمها محافظون مسيحيون .

ونظرا لأن السلطان عبد العزيز كان مبذرا ومتقلب الأهواء فانه ساعد بذلك على غرق الامبراطورية فى المزيد من الديون . مما زاد الأمور سوءا هو حدوث فترة من الكساد الاقتصادى العالمى . وفى عام ١٨٧٦ تم قمع الثورة التى قام بها الفلاحون البلغاريون فى ضراوة ووحشية . وهذه الأعمال الوحشية التى ارتكبها الأتراك ساعدت على تقليب الرأى العام الأوربى ضد العثمانيين .

وقام السلطان بتعيين عدد من رؤساء الوزراء فى سلسلة متعاقبة من التعيينات ثم قام بطردهم من المنصب عقب شهور قليلة . وكان من بينهم مدحت باشا الذى يعتبر أعظم رجل دولة تركى فى أواخر القرن التاسع عشر . وهو رجل يؤمن بالنظام البرلمانى ويتوافق فى الرأى مع الشباب العثمانى . وكان مدحت باشا قد قال للسفير البريطانى أن الوسيلة الوحيدة لتجنب انهيار الامبراطورية الوشيك الوقوع هى جعل وزراء السلطان - وخاصة من حيث النواحى المالية - مسئولين أمام جمعية عمومية وطنية يكون لها الطابع الوطنى الحقيقى من خلال تجنب كافة الفوارق الطبقية والدينية . وكان مدحت باشا يعتقد أيضا أنه ينبغى تطبيق اللامركزية من خلال انشاء اشراف اقليمى محلى على المحافظين .

ومع ازدياد الأزمة السياسية والاقتصادية علاوة على قيام روسيا بالتهديد بشن حرب ضد البلقان قام الطلبة الدينيون بشن مظاهرات أمام مقر الحكومة فى استانبول مما جعل السلطان العثمانى يضطر الى استدعاء مدحت باشا المطرود لكى يتولى منصب رئيس الوزراء • ونجح مدحت باشا فى اقناع زملائه الوزراء بأن الأمر يتطلب ضرورة ادخال دستورى • وقاموا جميعا باقناع المفتى بأن يصدر فتوى يعلن فيها عزل السلطان على أساس « أنه مصاب بالتشويش الذهنى والاختلال العقلى والجهل بالشئون العامة للبلاد » • ولم يلجأ عبد العزيز الى المقاومة عندما شاهد استعراضا للقوة قامت به القوات البرية والسفن البحرية• ولكن النفوذ الطلابى هو الذى شرع فى هذا الانقلاب معطيا بذلك سابقة مشئومة •

ووضعت الآمال الكبيرة فى السلطان الجديد وهو مراد ابن أخ عبد العزيز • وكان مراد مشهورا بتعاطفه مع الاتجاهات الدستورية والليبرالية • ولكن سرعان ما اتضح أن مراد يعانى من الانهيار العصبى • مما أدى الى استبداله على الفور بشقيقه الأصغر عبد الحميد •

واستمر عبد الحميد فى الحكم لمدة ٣٣ عاما [١٨٧٦ ـ ١٩٠٩] • وقد أدى حكمه الى المراحل الأخيرة من عمر الامبراطورية العثمانية • وكان هو السلطان الأخير الذى يتمتع بمنزلة اجتماعية رفيعة ومكانة كبيرة • وفى نواح عديدة كانت شخصيته المعقدة مختلفة عن معظم شخصيات السلاطين السابقين عليه • اذ كان متقشفا ومتدينا فى حياته الشخصية • كما كان مجتهدا ومنكبا على العمل فى ضراوة شديدة • وهو قبل أن يتولى منصب الخلافة ـ وهو أمر لم يكن يتوقعه ـ كان يدير مزرعة • وكان قد تعلم أيضا بعض النواحى المالية من خلال استثمار أمواله فى بورصة سوق الأوراق المالية باستانبول • وهو لم يكن قاسيا بدون مبرر ولم يكن محبا للانتقال

بدون سبب • وكانت طاقاته الهائلة موجهة من أجل احياء الامبراطورية العثمانية • وكانت وسيلته فى ذلك هى اتباع تلك الاصلاحات الحديثة التى من شأنها أن تقوى من دفاعات الامبراطورية وتعيد لها نفوذها وسلطانها وذلك مع الاحتفاظ فى نفس الوقت بأسلوب الحكم المطلق الشخصى القديم •

ولقد جعلته النزعة والاضطرار انسانا مراوغا فى تعاملاته مع شعبه ومع الدول الأجنبية المستبدة • وابتدأ حكمه من خلال مخادعة الجانبين • وكانت دول البلقان تمر بأزمة حادة نظرا لأن روسيا النزاعة للحرب كانت مستمرة فى تدعيم متمردى الصرب ومونتنجرو [الجبل الأسود] ضد السلطان علاوة على الادعاء بأن لها الحق فى حماية الرعايا المسيحيين العثمانيين • وحاولت الحكومة البريطانية برئاسة دزرائيلى تفادى اندلاع الحرب — حيث كانت حريصة مثل باقى الحكومات البريطانية السابقة على عدم تدمير الامبراطورية العثمانية — فوجهت الدعوة الى عقد مؤتمر فى استانبول لمناقشة المشكلات الهامة • وبينما كان المؤتمر يحرز تقدما بطيئا ولكنه تقدم حقيقى خلال ديسمبر ١٨٧٦ أعلن السلطان العثمانى الشاب عن وضع دستور جديد للبلاد • وكان الدستور الجديد من ابتكار مدحت باشا • وكان يرتكز على الدستور البلجيكى لعام ١٨٣١ • وكان ينص على انشاء برلمان منتخب ويتضمن المبدأ القائل بأن الناس المنتمين لجميع العقائد ينبغى أن يعاملوا فى مساواة تامة• وكان ذلك هو أول بادرة من نوعها فى أية دولة اسلامية • وقد أدى الاعلان عن ذلك الدستور الجديد الى التقليل من أهمية مؤتمر استانبول — وفقا لما كان يهدف اليه — حيث بدا الدستور الجديد وكأنه يقدم نوع الاصلاحات التى كانت تنادى بها الدول الأوربية • وعقد البرلمان اجتماعا فى مارس ١٨٧٧ وأصدر على الفور قرارا ينص على أنه لا توجد هناك حاجة لفرض الحماية الروسية على المسيحيين العثمانيين • فشعرت روسيا بالاحباط والغيظ • وبادرت باعلان

الحرب على الامبراطورية العثمانية بعد أن ضمنت وقوف النمسا على الحياد من خلال عقد اتفاقية سرية معها تنص على تقسيم دول البلقان الى مناطق النفوذ التابعة لكل منهما ٠

وفى بادىء الأمر أثبتت القوات العثمانية كفاءتها حيث تمكنت من احراز انتصارات عديدة متلاحقة ضد عدو متفوق فى العدد والعتاد الى درجة كبيرة ٠ الا أن التاكتيكات المتسمة بالمغالاة فى الثقة بالنفس أدت فى نهاية الأمر الى كارثة ٠ حيث اضطر أحد الجيوش التركية الى الاستسلام عقب تطويقه ومحاصرته فى بليرنا Plerna ثم قامت القوات السلافية بالتمرد والعصيان فى جميع أنحاء البلقان٠ وقام فرع من الجيش الروسى باحتلال المساحات الأرمينية بشرق الأناضول ٠ ثم تقدم فرع آخر من الجيش الروسى نحو استانبول وأرغم عبد الحميد على التوقيع على معاهدة سان ستيفانو المذلة والتى نصت على تقطيع أوصال امبراطوريته بأوربا من خلال خلق دولتين سلافيتين مستقلتين كبيرتى المساحة الا وهما : دولة بلغاريا ودولة مونتنجرو [الجبل الأسود] ٠

وشعر دزرائيلى بالذعر والهلع٠ اذ أدرك أن السلطان العثمانى « قد أصبح فى حالة من الخضوع المطلق التام لروسيا » ٠ فأعلن مؤكدا أن كافة الدول لها حقوق ومصالح فى منطقة البلقان وفقا لشروط وبنود المعاهدات السابقة ٠ ولكن كان على دزرائيلى أن يتصرف فى حرص وحذر شديدين ٠ وكان قد حصل على تأييد وعون الملكة فكتوريا التى تشعر دائما بالخوف من الروس [والتى كانت تنظر الى الروس على أنهم « المعوقين لكافة الحريات والحضارات التى تتواجد على وجه الكرة الأرضية »] الا أن نصف أعضاء حكومته كانوا يعارضون الدخول فى أية حرب لصالح تركيا ٠ كما أن الرأى العام البريطانى الذى أثير من خلال الاستنكارات الخطابية للأعمال الوحشية التركية والتى أبداها زعيم المعارضة الليبرالى وليام

جلادستون كان أيضا مناهضا بوجه عام للأتراك • ولكن الرأى العام البريطانى كان متقلبا أيضا • فبينما كان الروس مستمرين فى زحفهم فى اتجاه استانبول على الرغم من اعلان الهدنة ووقف اطلاق النيران تمكن دزرائيلى من حشد حكومته وشعبه ونجح فى اقناعهم بضرورة التدخل لايقاف الخطر الروسى •

وتمكن مؤتمر برلين الذى وحد بين كافة الدول تحت قيادة المستشار الألمانى بسمارك من الغـاء معاهدة سان استيفانو واعادة تقسيم البلقان بما يتمشى مع مصالح دول أوربا وليس مصلحة روسيا فقط• وتم الاعتراف باستقلال كل من : رومانيا والصرب ومونتنجرو [الجبل الأسود] ولكن الدولة البلغارية الشاسعة التى نصت عليها روسيا فى مؤتمر سان ستيفانو قد خفضت مساحتها وجزئت الى اقليمين : أحدهما اقليم تركى متمتع بالحكم الذاتى يسمى روميليا الشرقية Eastern Rumelia • وعقب اقرار هذا الوضـع الجديد قال بسمارك معلقا « ومرة أخرى يظهر تواجد لتركيا فى داخل أوربا « There is once again a Turkey in Europe

لقد كان اصرار ومثابرة دزرائيلى [وقد منحته الملكة فيكتوريا عندئـذ لقب لورد بيكونسـفيلد] هو الذى أدى الى ذلك التقهقر والتراجع الروسى • كما قام دزرائيلى أيضا بتمكين السلطان العثمانى من استعادة أراضى أرمينية شاسعة تقع فى شرق الأناضول وهى الأراضى التى كان قد احتلها الروس • وذلك فى مقـابل تعهدات واضحة تمت فى مؤتمر برلين ونصت على ادخال اصلاحات لصالح الشعب الأرمينى علاوة على تأمينه ضد الهجمات التى يشنها الأكراد والشراكسة المسلمون • وكتعويض عن مساعدة بريطانيا فى حماية أجزاء كبيرة من الامبراطورية العثمانية من روسيا فانه كانت قد عقدت معاهدة أنجلو / تركية سرية منذ شهرين تنص على السماح لبريطانيا باحتلال جزيرة قبرص وتسيير الشئون الادارية بها —

وهى جزيرة تعتبر « المفتاح الذى يؤدى الى آسيا الغربية » وفقا للمفهوم الذهنى الامبريالى لدى دزرائيلى • ولكى يتم التهدئة من مخاوف فرنسا من أن هذا من شأنه أن يعطى لبريطانيا قدرا كبيرا من الهيمنة أكثر من اللازم على منطقة شرق البحر الأبيض المتوسط فقد سمح لفرنسا أن تدرك أن باستطاعتها أن يكون لها حرية التصرف فى تونس بينما كانت بريطانيا آنئذ تتطلع الى طموحات أخرى شديدة للغاية • وبعد مرور ثلاثة سنوات تصرفت فرنسا على أساس أن بريطانيا صادقة فى أقوالها وسارعت باجتياح تونس وغزوها وأعلنت أن تونس أصبحت محمية فرنسية • الا أن ذلك الاجراء من جانب فرنسا جعل من الصعب عليها أن تحتج عندما بادرت بريطانيا الى غزو واحتلال مصر فى السنة التالية •

وفى شىء من المهارة اتبع عبد الحميد سياسة دبلوماسية تتسم باللعب على الشكوك المتبادلة بين الدول الأوربية ازاء بعضها البعض وراح يراوغ ازاء تنفيذ شروط معاهدة برلين بقدر ما يستطيع • ولكن كان هنـــاك حد لما يمكنه أن يفعله • ففى عام ١٨٨٥ تمرد البلغاريون فى روميليا الشرقية وأعلنوا الثورة والعصيان • ثم اتحد الاقليمان البلغـاريان • ثم قـام السلطان العثمانى بتعيين الأمير الكساندر أوف باتينبرج وهو أمير بلغاريـا محافظا على روميليـا الشرقية كوسيلة دبلوماسية تفيد بأنه يوافق على توحيد البلغاريتين • وكان عبد الحميـــد أكثر نجاحا مع اليونان • اذ رفض أن يترك لليونانيين منطقة أبيروس Epirus المأهولة بالسكان المسلمين • كما نجـح فى مواصلة الاحتفاظ بجزيرة كريت • الا أن الامبراطورية العثمانية الممتدة فى داخل أوربا لم يعد لها تواجد حقيقى فى داخل الكيان الأوربى •

وكان الموقف مختلفا بالنسبة للأراضى الرئيسية الأناضولية للامبراطورية • ففى أرمينيا كان الناس يطالبون بالاصلاحات التى

نصت عليها معاهدة برلين • ولكنهم بعد ذلك تمادوا أكثر وأكثر فى مطالبهم حيث طالبوا بالاستقلال الوطنى التام بعد أن شاهدوا بأنفسهم سلسلة الحكومات غير الاسلامية المستقلة التى أنشئت لكى تخلف الامبراطورية العثمانية فى أوربا •

ولم يكن لدى عبد الحميد الرغبة فى السماح للدول المسيحية أن تملى عليه الأسلوب الذى يحكم به البقية الباقية من امبراطوريته• ولذلك فانه لدى انتهاء مؤتمر القسطنطينية لعام ١٨٧٦ بادر على الفور الى طرد مدحت باشا من السلطة - وكان مدحت باشا هو القوة الرئيسية التى ساندت الدستور الليبرالى الذى اضطر السلطان الى الموافقة عليه - وارساله الى المنفى • [وفى عام ١٨٧٨ تم تعيين مدحت باشا محافظا على سوريا • ولكن صدر قرار بنفيه مرة أخرى • وتحت ضغوط بريطانية سمح لمدحت باشا بالعودة الى تركيا • ولكنه حوكم بعد ذلك بتهمة التآمر ضد السلطان • وصدر حكم ضده بالنفى مدى الحياة • وبعد ذلك اغتيل فى هدوء فى سجن فى شبه الجزيرة العربية] •

وكما رأينا فان عبد الحميد قد سمح بعقد جلسة للبرلمان فى مارس ١٨٧٧ • وعلى الرغم من السلطات المحدودة لهذا البرلمان فانه أظهر دلائل الشخصية الاعتبارية المستقلة المثيرة للمتاعب • اذ طالب البرلمان بضرورة مثول بعض وزراء السلطان أمام البرلمان لكى يردوا على الاتهامات الموجهة اليهم • ورد السلطان عبد الحميد على ذلك بأن أصدر قرارا بحل البرلمان عقب جلسة استمرت ثلاثة شهور • وبعد مرور ستة شهور وجه الدعوة لانعقاد البرلمان على أمل أن يصبح البرلمان أكثر مرونة وخاصة فى ظل الأزمة الدولية المستمرة التى خلقها التهديد الروسى • ولكن ما أن تم التوقيع على معاهدة برلين فى يناير ١٨٧٨ حتى بادر البرلمان الى تحديد اتهاماته الموجهة ضد بعض الوزراء والمطالبة بضرورة رد الوزراء على تلك الاتهامات •

فقام السلطان عبد الحميد الذى شعر أنه أصبح قويا للغاية بحل البرلمان بل وقام بتعطيل الدستور الى أجل غير مسمى • والجدير بالذكر أن تعطيل الدستور أو تعليق الدستور قد استمر لفترة ثلاثين عاما • وبذلك فقد تم سحق وتدمير حركة الاصلاح التى تبناها الشباب العثمانى •

وشيد السلطان الشاب النظام الأتوقراطى المشهور الخاص به • وراح يقلل تدريجيا من السلطات التى كان قد منحها لكبير الوزراء ودعم من البيروقراطية الخاصة به شخصيا والتى كانت ترفع التقارير اليه مباشرة • وكانت شخصيته متسمة بالشك والارتياب الشديد مما جعله يعتمد على أسلوب دقيق للجاسوسية يتخذ من استانبول مقرا رئيسيا ويتفرع مثل خيوط العنكبوت فى أرجاء البلاد • ولم يكن له أصدقاء • بل ولم يكن يثق فى أى شخص على الاطلاق • وأصبحت مخاوفه من الاختطاف أو القتل متخذة طابع جنون الارتياب الى درجة أنه كان يقتلع بنفسه أسنانه التى تتطلب الاقتلاع بل وكان يجهز لنفسه الأدوية الخاصة به • وكان مبعوثوه يقدمون تقارير عن الأشخاص أو المجموعات المتواجدين بالأقاليم والذين يبدون دلائل على أنهم بصدد أن يصبحوا أقوياء أو طموحين • بل وكانوا يعملون وفق أوامر السلطان التى تهدف الى تنشيط المنافسات والعداوات المحلية • وكان السلطان يفضل استخدام المشنقة الحريرية على استخدام السيف •

وفى حين أن السلطان عبد الحميد لم يكن لديه أى تعاطف ازاء نظام الحكم الدستورى أو الديموقراطية الا أنه لم يكن انسانا رجعيا • اذ كان يميل الى اتخاذ الأساليب العصرية الحديثة وليس الاصطباغ بسمات الثقافة الغربية • فهو ـ مثل بعض السلاطين السابقين عليه ـ كان يعتقد أنه والمسلمين بحاجة لأن يتعلموا من أوربا لكى يتمكنوا من الصمود أمام قوتها ونفوذها • وهو فى خلال السنوات

الأولى من حكمه كان على استعداد لتنفيذ الاصلاحات المتعلقة « بالتنظيمات » بل واتجه نحو تنفيذ بعض تلك الاصلاحات •

وكان كبير وزرائه الأول محمد سعيد باشا Mehmed Said Pasha ـ ولقد عرف باسم : سعيد الانجليزى بسبب ميوله نحو الانجليز وحبه لهم ـ قد أعلن فى مذكرة مستفيضة تتناول موضوع الاصلاحات «أن تقدم أى دولة لايمكن أن يتم الا من خلال العلم والمعرفة والاستقامة الأخلاقية » • فالشعب ينبغى أن يحصل دائما على تعليم أفضل والدولة ينبغى عليها أن تكون دائما أكثر عدالة وأقل فسادا •

وكان التعليم العام هو المجال الذى أحرز فيه الاصلاح أكبر قدر من النجاح وخاصة فى المستويات العليا من التعليم • اذ تم التوسع فى الكلية الملكية أو كلية التدريب على الادارة المدنية كما تم التوسع فى الكلية الحربية وادخال تحسينات عظيمة عليهما علاوة على انشاء ١٨ مدرسة عليا ومهنية جديدة • كما أن المشروع الذى تأجل لفترة طويلة للغاية والخاص بانشاء « أول جامعة أهلية حديثة فى العالم الاسلامى » قد تم تنفيذه ولو أنه لم يبدأ العمل فيه الا فى عام ١٩٠٠ •

وتم التوسع فى التعليم الأولى الابتدائى والثانوى أيضا • اذ كان الأمر يستلزم فتح مدارس جديدة من أجل تزويد الكلية الملكية أو كلية التدريب على الادارة المدنية بالطلبة • وكانت هذه المدارس مازالت تضم أقلية ضئيلة للغاية من الناس وكان التعليم العمومى الحقيقى مازال بمثابة هدف بعيد المنال • ومع ذلك فان الطبقة العليا الجديدة التركية التى تعلمت اللغات والأنظمة الحديثة قد أصبحت كثيرة العدد مع نهاية القرن التاسع عشر • كما أن انتشار معرفة القراءة والكتابة وتعاظم التعليم العالى والتوسع فى الطباعة قد غير من الحياة الثقافية والفكرية فى المدن الكبيرة • ومع ذلك فانه تحت حكم عبد الحميد فان الرقابة على المطبوعات التى

كانت متواجدة من قبل بالفعل قد تم التشدد فيها الى درجة سخيفة. وعلى الرغم من تضاعف عدد الصحف والجرائد الا أنها كانت تتعرض للتخاذل والضعف الشديد على أيدى الرقيب • ونظرا لأن السلطان كان يخاف من الاغتيال فانه لم يكن بالمستطاع نشر خبر عن أى اغتيال يتعرض له رئيس أى دولة • وعندما اغتيل ملك وملكة الصرب فى عام ١٩٠٣ قيل لقراء الصحف التركية أنهما لقيا حتفهما بسبب سوء الهضم •

ونظرا لفرض الحظر على الأنشطة السياسية والمناقشات السياسية نجد أن الجيل الجديد من المثقفين الأتراك قد اتجهوا نحو الكتابة الأدبية والأكاديمية ولكن لم تكن هنـاك وسيلة لعزلهم عن الأفكار الثورية والعلمانية • ولذلك كانت مشـاعرهم السياسية تتجه الى القنوات السرية •

ومما زاد الشعور بالاستياء بين الناس هو ذلك التآكل الذليل الذى ينخر فى السلطة العثمانية على أيدى أوربا رغم كافة الجهود التى يبذلها السلطان وكبير وزرائه • ونظرا لأن الامتيازات الأجنبية Capitulations كانت من أهم مظاهر الضعف العثمانى فـان الحكومة العثمانية حاولت أحكام السيطرة على تلك الامتيازات • وكانت هذه الامتيازات قد منحت للأهالى غير المسلمين المتواجدين فى داخل نطاق الامبراطورية فى القرن السادس عشر عندما كان النفوذ العثمانى فى ذروة مجده وتألقه • ولكى يتم تنشيط التجارة والصناعة نصت هذه الامتيازات على اعفاء غير المسلمين من دفع الضرائب بل وأعطتهم الحق فى أن يتم محاكمتهم فى المحاكم القنصلية الخاصة بهم • وعندما بدأ النفوذ العثمانى فى الاضمحلال تدعمت وتعاظمت هذه الامتيازات بل وأصبح يساء استخدامها على نحو شنيع • اذ أصبحت الجاليـات والعناصر الأجنبية لا تتمتع فقط بالامتيـازات والحماية وانما صارت بالفعـل فوق القـانون • ـ على الرغم من الاصلاحات التى أدخلت فى عام ١٨٦٩ ـ ليس متلائما على الاطلاق

ولا يصـلح لتطبيقه على مواطنيهم المقيمين فى داخـل الامبراطورية العثمانية ٠

وفى خلال السنوات القليلة الأولى من حكم عبد الحميد بذلت جهود لمواجهة هذه الاعتراضات ٠ حيث أنشئت وزارة جديدة للعدل وأعطيت لها فى بادىء الأمر سلطة الاشراف على المحاكم التجارية ثم بعد ذلك منحت سلطة الاشراف على كافة المحاكم غير الدينية ٠ بل وصدر قانون جديد يهدف الى تنظيم المحاكم المختلطة التى كانت قد أنشئت فى فترة سابقة من القرن التاسع عشر للنظر فى القضايا التى تنشأ بين المسلمين والرعايا العثمانيين غير المسلمين ٠ الا أن كافة هذه الجهود قد باءت بالفشل الذريع ٠اذ رفضت الدول الأوربية فى وحشية الاعتراف بهذه التنظيمات الجديدة ٠ وهكذا استمرت الامتيازات الخارجة عن نطاق التشريع الوطنى فى التعاظم والازدهار ٠ وتلاشى الدافع الذى يكمن وراء كافة الاصلاحات القانونية ٠ وفى عام ١٨٨٨ قام السلطان بحل والغاء لجنة الصياغة الرسمية التى كانت قد شكلت بمعرفة السلطان السابق عليه من أجـل صياغة واعداد القوانين الجديدة ٠

وظلت الامتيازات الخارجة عن نطاق التشريع الوطنى والتى تتمتع بها الدول الأوربية باقية وسارية المفعول ٠وأصبح ذلك أمرا سيئا ورديئا للغاية ٠ وكان الأسوأ من ذلك أن الامبراطورية فى حد ذاتهـا كانت مفلسة من الناحية المالية ٠ وكانت مضطرة للخضوع لتدابير تتعلق بالسيطرة المالية الخارجية ٠

وكانت حالة الافلاس قد أعلنت بالفعل فى عام ١٨٧٥ فى السنة الأخيرة من حكم عبد العزيز عندما قامت حكومته باعلان ذلك وأشارت الى أنه فى ضوء العجز الكبير فى الميزانية فانها ستقوم باصلاح نصف الدين الخارجى فقط نقدا وتسدد الباقى من خلال اصدار سندات مالية جديدة ٠ وكان السبب فى العجز فى الميزانية

يرجع جزئيا الى سلسلة من المحاصيل الأناضولية الرديئة للغاية على نحو يصل الى حد الكارثة • ولكن السبب الرئيسى يرجع الى الانفاق الهائل فى النواحى العسكرية من أجل قمع الثوار البلقان علاوة على الدخول في حرب ضد روسيا • وكانت الدول الأوربية المنافسة تجد صعوبة فى التنسيق بين سياساتها ازاء استانبول الا أنها كانت تتحرك فى عناد وقسوة نحو فرض شروطها المالية على الامبراطورية• كما أن مؤتمر برلين زاد الأمور سوءا من خلال ارغام السلطان على التخلى عن أقاليمه البلقانية التى تعتبر هى أغنى الأقاليم لديه • وحضر فى المؤتمر لجنة تمثل الأوربيين الذين يمتلكون سندات مالية عثمانية لكى تؤكد على مطالبهم وقد ضمنوا التأييد الشديد من جانب حكوماتهم •

ونظرا لأن عبد الحميد كان فى مسيس الحاجة لارضاء وتلبية مطالب دائنيه الأوربيين فانه أصدر قرار محرم فى عام ١٨٨١ ينص على انشاء مجلس للديون العامة بالاتفاق مع حاملى السندات المالية للتأكيد على أن الديون العثمانية ستحظى باستمرار بالاهمية • وكان ذلك المجلس يضم كلا من حاملى السندات ومندوبين عثمانيين • ورغم أنه لم يكن بمثابة لجنة دولية لها مندوبون رسميون عن الحكومات الأجنبية على النحو الذى اقترحته الدول فى مؤتمر برلين وعلى الرغم من أن السلطان لم يكن بمقدوره أن ينكر أنها تنتهك السيادة العثمانية فانه كان من الصعب اخفاء الحقيقة التى مفادها أن الامبراطورية قد خضعت الى حد كبير للسيطرة المالية الأجنبية وأن هذه الحقيقة قد تأكدت على نحو واضح عبر السنوات • والعديد من الدول الأوربية المتخلفة اقتصاديا - ناهيك عن دول أمريكا اللاتينية كانت قد تخلفت عن تسديد ديونها فقامت الدول الأوربية الأخرى بتقديم العون لحاملى السندات من أجل حسم الموقف • الا أن الوضع كان يختلف تماما مع الخليفة / السلطان زعيم الدولة العظمى الوحيدة الاسلامية حيث لم يكن بمقدوره أن يقبل مثل هذا الاذلال•

وكانت السلع والبضائع المصنعة الأوربية قد بدأت تتدفق بالفعل الى تركيا فى خلال النصف الأول من القرن التاسع عشر لدى انهيار الجهود العثمانية الرامية الى حماية البضائع المحلية · ولقد أدت السيطرة المالية الأوربية الى تدفق المزيد من الواردات الى داخل الامبراطورية العثمانية · وكانت هناك ثلاثة بنوك كبيرة واقعة تحت السيطرة الأجنبية : بنك تركيا الوطنى + البنك العثمانى الامبراطورى + البنك الألمانى على استعداد دائما – ومعها أيضا السفارات الأجنبية – لتقديم العون لسياسات مجلس الديون العامة · الا أن الدول الأجنبية لم تكن تعمل على خنق الصناعة التركية المحلية · وانما على العكس من ذلك كانت تشجع جهود المصلحين العثمانيين الرامية الى زيادة الانتاج من حيث أن ذلك هو أفضل وسيلة على رفع وزيادة مقدرة الناس على تسديد الضرائب وبالتالى زيادة مقدرة الحكومة العثمانية على تسديد الديون · وكان عبد العزيز وكذلك عبد الحميد يدركان الأخطار التى تنطوى على زيادة الاعتماد الاقتصادى على أوربا ولذلك نجد أن اصلاحات « التنظيمات » كانت تحاول مواجهة هذه المشكلة · الا أن الاجراءات التنفيذية كانت فاترة وغير مكتملة · كما أن الصناعات الوليدة الجديدة كانت تنقصها الحماية بل وكانت لا تزال تعانى – وهو أمر يدعو للدهشة – من الضرائب الداخلية العثمانية التى كانت تفرض على حركة البضائع وانتقالها من مكان لآخر وهى الضرائب التى ألغيت على مضض تدريجيا · وكانت الصناعات المحلية المتواجدة غير قادرة على منافسة المنتجات والبضائع الواردة من أوربا والتى تتميز بأنها أكثر رقيا وتطورا · مثال ذلك أن مصانع انتاج الأسلحة وجدت نفسها مقصورة على انتاج الأسلحة الصغيرة والذخيرة والملابس العسكرية ·

أما المحاولات الرامية الى زيادة النتاج الزراعى والصادرات الزراعية فكانت أكثر نجاحا · والكثير من ذلك النجاح لم يكن يرجع الى الحكومة · فالازدهار المتصاعد لأوربا الغربية الصناعية كان قد

زاد بالفعل من الطلب على الصادرات من المحاصيل الزراعية التركية. كما أن الاستيرادات البريطانية بصفة خاصة قد تدعمت من خلال الغاء قانون القمح لعام ١٨٤١ . كما أن الحرب الأهلية الأمريكية قد خلقت ازدهارا اقتصاديا كبيرا للقطن التركى وهو ازدهار لم يتوقف تماما عندما انتهت تلك الحرب . وازدهرت المساحات الزراعية الخصبة المتواجدة فى السهول الساحلية وفى وديان نهر الأناضول .

وكانت المشكلة تكمن فى أن الهدفين التوأمين اللذين ينشدهما المصلحون العثمانيون خلال القرن التاسع عشر كانا متناقضين : اذ أن خلق طبقة من الفلاحين المزدهرين كان يتضارب ويتناقض مع الرغبة فى انشاء حكومة مركزية قوية تعيد حقوق الدولة الى المناطق التى أذيلت فيها تلك الحقوق . وكانت خطوات الاصلاح بطيئة للغاية كما أن منح حقوق الملكية للفلاحين كانت تنصب فقط على الناس الأقوياء من ذوى النفوذ أو الذين لهم علاقات وروابط قوية .

وكان هناك عامل جديد فى الموقف يتمثل فى الحق الممنوح للأجانب فى امتلاك الأراضى والعقارات وفقا لقانون الاصلاح لعام ١٨٦٧ . حيث كان العثمانيون يأملون ويتوقعون أن يتخلى الأوربيون الذين امتلكوا عزبا وأطيانا بالامبراطورية عن حقوقهم التى حصلوا عليها وفقا للامتيازات الممنوحة للأجانب Capitulations ولكن آمالهم أحبطت : اذ أصر الأوربيون على الاحتفاظ بالحقوق الممنوحة لهم والتى تعطيهم الحماية من تدخل الشرطة فى شئونهم والتى تعفيهم من دفع الضرائب العثمانية .

وأدرك المصلحون العثمانيون ومستشاروهم من الأوربيين أن أكبر مشكلة تعوق تحسين الاقتصاد العثمانى هى أنظمة الاتصالات المتواضعة الضعيفة . فعندما تربع عبد الحميد على العرش كانت توجد هناك بضعة مئات قليلة من خطوط السكك الحديدية كما كانت الطرق البرية بدائية وكانت الموانى البحرية غير متطورة .

ولذلك كانت تكاليف نقل انتاج المزارع عبر البلاد من أجل تصديرها الى الخارج عالية للغاية مما يؤدى الى عدم تصديرها ٠

وكانت مشاريع بناء الطرق البرية فاشلة الى درجة كبيرة حيث لم تكن توضع خطة لصيانة تلك الطرق وبالتالى فانها سرعان ما كانت تتدهور ٠ أما بناء السكك الحديدية والذى كان يتم أساسا بمعرفة الأجانب الحاصلين على الامتيازات فقد حققت بعض النتائج الايجابية ٠ واعتبارا من الثمانينات من عام ١٨٨٠ حدثت طفرة كبيرة فى انشاء السكك الحديدية التى ربطت أقاليم الأناضول مع أوربا وامتدت من تركيا الى الأقاليم العربية فى نطاق الامبراطورية ٠ ومع ذلك فان أطوال خطوط السكك الحديدية كانت ما تزال متواضعة اذا قيست بالمستويات الأوربية ٠ الا أن السكك الحديدية بالامبراطورية العثمانية كانت لها أهمية رمزية كبيرة ٠ وفى أغسطس ١٨٨٨ غادر أول قطار اكسبريس سريع استانبول متجها الى فيينا ٠

ويمكن القول أن الكثير من التطور الذى شهدته الامبراطورية العثمانية فى القرن التاسع عشر كان يرجع الى الأجانب الحاصلين على الامتيازات ٠ فالأوربيون هم الذين شيدوا السكك الحديدية كما أن البنوك والأعمال المالية كان معظمها فى أيدى الأجانب كما أن المقاولين الأجانب كانوا مسئولين عن الاستثمار وتركيب الماكينات التى حولت القطن الى أهم صناعة تصدير ناجحة فى تركيا ٠ ولكن كان هناك مظهر واحد من مظاهر التقدم التكنولوجى بالقرن التاسع عشر أصر عبد الحميد ووزراؤه على أن يكون فى أيدى تركيا : وذلك هو التلغراف ٠ فعندما تولى عبد الحميد السلطة فى عام ١٨٧٦ كان صاحب امتياز فرنسى قد تمكن بالفعل من ربط جميع أرجاء الامبراطورية مع استانبول بشبكة تلغرافية ٠ وفى بادىء الأمر كان الأجانب هم الذين يشغلون التلغراف مستخدمين اللغة

الفرنسسة ولكن ابتداء من الستينات فصاعدا بذل العثمانيون جهودا خاصة تهدف الى ادخال اللغة التركية على النظام التلغرافى ثم وضعوا التلغراف تحت سيطرة وزارة جديدة تسمى : وزارة الموانى والتلغرافات • وعلى الفور أدرك عبد الحميد مدى أهمية التلغراف من حيث هو وسيلة للابقاء على حكمه المركزى الاستبدادى على كافة أرجاء الامبراطورية • اذ كان التلغراف يمكنه من اصدار تعليمات مباشرة الى موظفيه المنتشرين فى معظم المديريات البعيدة النائية وهم موظفون لا يعملون اذا شعروا أنهم متمتعين بشبه استقلال ذاتى بسبب تواجدهم على مسافات بعيدة • وسرعان ما اكتشف هذا الأمر أيضا السفراء الأجانب المنتمون لحكام استبداديين •

والديون التركية والضعف العسكرى النسبى التركى قد أرغمت عبد الحميد الى اللجوء الى التآمر والدبلوماسية بهدف جعل الدول الأوربية تنقسم فى الرأى من حيث سياساتها ازاء الشرق • وقد حقق بعض النجاح فى هذا الشأن عقب مؤتمر برلين لعام ١٨٧٨ وعلى الرغم من أن الدول الأوربية كانت تصدم بدرجات متفاوتة بسبب تراجع السلطان عن وعوده فيما يتعلق بمعاملته لرعاياه الأرمن الا أنهم لم يجرأوا على اتخاذ عمل مشترك لأن بسمارك رئيس المؤتمر أشار الى أنه سوف يتعاون فى أى موضوع باستثناء فرض الاصلاح الأرمينى على السلطان •

وازداد الوضع الأرمينى سوءا خلال العقدين أو العشرين عاما التالية • وبينما كان عبد الحميد يستغل الأكراد الذين كانوا يتحرقون شوقا للحصول على قدر كبير من نفس الأرض لكى يخمد الثورة الأرمينية كان الأرمن يعززون من أنشطتهم السياسية المنظمة • وطالبوا بالحصول على موطن مستقل تماما فى المناطق الشرقية من تركيا وأضفوا الطابع الدولى على حركتهم من خلال تكوين فرع لحركتهم فى عواصم الدول الأوربية الغربية • وكانت حركة الهنشك

Hunchak [أو الجرس Bell)] والتى أنشئت فى جنيف فى عام ١٨٨١ هى أول حركة متطرفة اشتراكية ثورية بالامبراطورية العثمانية • وفى عام ١٨٩٠ تم انشاء الاتحاد الثورى الأرمينى فى تفليس Tiflis] مدينة تبيليسى Tbilisi الحالية] فى جورجيا الروسية وبدأت العصابات المسلحة فى شن غاراتها على الأراضى العثمانية • ورد السلطان على ذلك من خلال تشجيع الأنشطة المناهضة للأرمن بين رجال القبائل الكردية الذين كان يدربهم وشكل منهم كتائب من الفرسان • ولم تكن توجد هناك محاولة لاخفاء حقيقة الدور الذى يقومون به ألا وهو قمع الأرمينيين •

ورد الأرمن الغاضبون على ذلك بأن دخلوا فى محاولة غير حكيمة تهدف الى دفع الرعايا المسلمين بالأناضول الى الثورة ضد السلطان • فأعطى هذا مبررا للسلطان عبد الحميد لأن يحرض على تنفيذ سلسلة من المذابح الرهيبة ضد الأرمن خلال عام ١٨٩٥ وعام ١٨٩٦ • وقد شارك فى هذه المذابح جنود غير نظاميين من الأكراد وجنود نظاميون أتراك • وفى بعض الأماكن كانت تسرى شائعات بين السكان المسلمين العاديين بأن الأرمن سوف يغتالونهم أثناء تأديتهم الصلاة بالمساجد • وفى بعض الأحيان كان الأرمن يلجأون الى كنائسهم ويطلبون الحماية ولكن بدون جدوى • فصوت البوق كان اشارة تدل على البدء فى المذابح • وقد تأثرت معظم الأماكن الشرقية بتركيا بسبب هذه المذابح وربما لقى مائة ألف أرمينى حتفهم بسبب تعرضهم للقتل فى المذابح أو بسبب الموت من الأمراض والهلاك جوعا •

وكان من الصعب اخفاء حجم هذه المذابح عن العالم الخارجى• اذ تسربت الأنباء • ولكن كثيرا ما كان يتم التغاضى عنها على أساس أنها شائعات مبالغ فيها • ولكن فى أغسطس ١٨٩٦ قامت مجموعة من الثوريين الأرمن المتهورين بنقل كفاحها الى قلب مدينة استانبول

حيث هاجموا واحتلوا البنك العثماني بهدف جذب انتباه السفارات الأوربية الى الورطة التى يعانى منها الشعب الأرمينى • فسمح للغوغاء باستانبول بأن يمارسوا أعمال القتل والنهب والسلب فى الحى الأرمينى السكنى باستانبول • وعندئذ لم يكن باستطاعة الدول الأوربية أن تتجاهل ما يتم من أحداث • وفى سلسلة من المذكرات المشتركة استنكرت المذابح وأوضحت أن ما يحدث ليس مجرد قلاقل طائفية تلقائية عشوائية وانما هى أحداث يتعمد السلطان ونوابه التحريض عليها • ولوحت بالتهديد بالتدخل من خلال التنويه الى أن بقاء السلطان وأسرته الحاكمة على قيد الحياة أصبح محفوفا بالمخاطر •

وكانت ردود السلطان على هذه المذكرات متسمة بالغموض والمراوغة وعدم الاقناع• وانتشرت اشاعة فى أرجاء العاصمة التركية

تفيد بأن الأسطول البريطانى بصدد أن يقتحم الدردنيل وينزل قوات برية • ولكن مرة أخرى يتم انقاذ السلطان من خلال المنافسة الحقودة التى تسرى بين الدول الأجنبية • ففى انجلترا نجد أن وليام جلادستون العجوز يعبر عن غضبه من « التركى الكريه للغاية الذى يجلب العار على الحضارة » ويطالب بأنه ينبغى على بريطانيا أن تتخذ اجراء بمفردها اذا اقتضت الضرورة ولكنه كان من صفوف المعارضة • بينمارئيس الوزراء الرزين اللورد ساليزبرى الذى كان يكره دائما ــ مثل الملكة فيكتوريا ــ الروس ويخشاهم أكثر من الأتراك لم يكن لديه النية أن يفعل شيئا من هذا القبيل • وربما كان الرأى العام يثار ضد الامبراطورية العثمانية فى جميع أرجاء أوربا الا أن حكومات الدول الأوربية كانت لا تزال تؤمن بأنه لا ينبغى تفكيك أوصال الامبراطورية العثمانية • كما أن روسيا لم تكن ترغب فى ظهور دولة أرمينية قوية مستقلة قابعة على حدودها • وفرنسا لم تكن ترغب فى تعريض استثماراتها الضخمة فى الامبراطورية العثمانية للخطر وهى استثمارات كانت قد أصبحت

أضخم من استثمارات بريطانيا فى داخل الامبراطورية العثمانية ٠ وكانت لألمانيا الطموحات الخاصة بها والتى تتعلق بالتوسع السياسى والتجارى نحو الشرق وهو توسع لا يمكن له أن ينجح الا من خلال عقد تحالف مع السلطان العثمانى وحكومته ٠ وتم عقد مؤتمر دولى لمناقشة المشكلة الأرمينية فى عام ١٨٩٧ ٠ وانتهى بالفشل الذريع ٠ وبالتالى تم احباط اسقاط الامبراطورية العثمانية مرة أخرى ٠ وترك الأرمن الذين لم تكن آمالهم وأهدافهم أبدا واقعية لكى يواجهوا مصيرهم وقدرهم ٠

ومنذ أن تولى عبد الحميد السلطة وهو ينظر بعين التبجيل والاحترام لألمانيا التى توحدت مؤخرا تحت قيادة بسمارك ويعتبرها أعظم الدول الأوربية قاطبة ٠ فألمانيا من وجهة نظره لا توجد لها طموحات استعمارية مثل بريطانيا وفرنسا وروسيا فى العالم الاسلامى بل وهى أيضا تعمل على كبح تلك الطموحات ٠ وكانت ألمانيا من خلال قوتها الصناعية المتعاظمة والتى سرعان ما تفوقت على قوة انجلترا الصناعية ومن خلال تحالفها مع النمسا / المجر قد خلقت قوة امبراطورية جديدة فى أواسط أوربا ٠ ولكن كانت هناك قيود صارمة على طموحات بسمارك : فوجهة نظره الشخصية هى أن التوسع شرقا هو حلم تافه ولا طائل تحته ٠ ومن أشهر أقواله أن المسألة الشرقية بأكملها « لا تستحق عظام جندى واحد بوميرانى (*) من رماة القنابل اليدوية » ٠

الا أن سياسة ألمانيا الخارجية تغيرت على نحو حاسم عندما تربع قيصر ويلهيلم الثانى الشاب على العرش فى عام ١٨٨٨ لدى موت والده فى وقت مبكر ٠ وكان ويلهيلم متقلب الأهواء وأوتوقراطيا وطموحا وكان مؤمنا بالقومية الألمانية ومتعصبا لها رغم أنه شبه انجليزى من خلال والدته التى هى ابنة الملكة فكتوريا ٠ ورغم

(*) بوميرانى : أحد أبناء بوميرانيا فى بولندا ــ (المترجم) ٠

نصائح بسمارك نجد أنه قد اقتنع بسهولة بوجهة نظر المارشال فون دير جولتز الذى كان يرأس البعثة العسكرية الألمانية باستانبول : وهى أن تركيا الأسيوية أصبحت مهيأة لأن يترعرع فيها النفوذ الألمانى • وهكذا نجد أن سياسة درانج ناش أوستين Drang nach Osten أو « الاتجاه نحو الشرق » قد ولدت وظهرت الى الوجود • ونظرا لأن عبد الحميد كان ينظر بعين الشك والريبة دائما ازاء التأثيرات الليبرالية المنبثقة عن لندن وباريس ولا يشاهد أمورا مماثلة فى برلين فانه رحب بالاهتمامات الألمانية الجديدة • وفى عام ١٨٨٩ أقام حفل استقبال كبير للامبراطور الألمانى الشاب وزوجته عندما قاما بأول زيارة لهما لاستانبول •

وبدأ المهندسون والعلماء الألمان ينضمون مع الخبراء العسكريين فى المهمة الصعبة الرامية الى اضفاء الطابع الحديث على الامبراطورية العثمانية • وكان الاسهام الرئيسى الألمانى يتمثل فى انشاء خط السكة الحديد عبر الأناضول الى بغداد علاوة على وضع الخطط الرامية الى مد ذلك الخط عبر البصرة ومنها الى الكويت التى تطل على الخليج الفارسى • وفى عام ١٨٩٨ قام القيصر (١) ــ الذى كان آنئذ قد تخلى عن القائد ، واستغنى عن خدمات بسمارك ــ بزيارة ثانية لاستانبول • وهى زيارة كانت لها أهمية أكبر بكثير من زيارته الأولى لاستانبول • فهو فى خلال هذه الزيارة الثانية قد انطلق من تركيا لزيارة البلدان العربية الواقعة فى نطاق الامبراطورية • وفى رمزية مثيرة للشكوك دخل الى مدينة القدس وهو يرتدى ملابس الفارس الصليبى عقب تأديته الصلاة راكعا على ركبتيه خارج أسوار المدينة المقدسة • ثم واصل الانطلاق الى دمشق حيث ألقى هناك خطبة مشهورة عند قبر صلاح الدين وأقسم أن يوفر حماية ألمانية نزيهة لل ٣٠٠ مليون شخص الذين هم رعايا الخليفة / السلطان •

(★) القيصر : وهو الاسم الذى يطلق على امبراطور ألمانيا فى الفترة من عام ١٨٧١ الى عام ١٩١٨ ــ (المترجم) •

وهكذا نرى أن الأسس قد وضعت للتحالف العثماني / الألماني الذي أدى عقب مرور عشرين عاما الى تدمير وتفكيك الامبراطورية العثمانية • ولكن كانت الأمور بوجه عام تشير الى أن عبد الحميد كان ينبغي عليه أن يتشبث بألمانيا كحليفة له بهدف الحفاظ على الامبراطورية من الطموحات البريطانية والفرنسية الاستعمارية المتجه نحو المناطق الأسيوية العربية والتي كانت تشكل في حقيقة الأمر كل ما تبقى له من امبراطوريته • فمراكش لم تكن في أي وقت من الأوقات عثمانية والجزائر كانت قد سقطت في أيدي فرنسا في الثلاثينات من عام ١٨٣٠ وكذلك سقطت تونس في أيدي فرنسا في عام ١٨٨١ • وكان هناك محافظون أتراك مازالوا يحكمون الأقاليم الصحراوية في ليبيا ولكن كان ذلك من خلال الصدفة والأعمال الخرقاء الى حد ما • أما مصر فكانت قد وقعت تحت سيطرة بريطانية دائمة •

الفصل الخامس

الاحتلال البريطانى فى مصر : ١٨٨٢ ـ ١٩١٤

Britain in Egypt, 1882-1914

فى عام ١٨٤١ نجد أن الضغوط الأوربية والعثمانية المشتركة قد أرغمت محمد على الحاكم على مصر على أن يتخلى عن أحلامه الرامية الى انشاء امبراطورية وأن يكتفى بامتلاك السودان · ومع ذلك فهو ترك للخلفاء من بعده دولة متماسكة شبه مستقلة تتميز بموقع استيراتيجى مما جعل لها أهمية كبيرة فى منطقة شرق البحر الأبيض المتوسط · كما ورث خلفاؤه مشكلات عويصة ضخمة للغاية مما جعلهم فى نهاية الأمر غير قادرين على حلها ·

وبعض هذه المشكلات كانت تعكس عن كثب المشكلات الخاصة بالسلطان العثمانى · فالغاء نظام الاحتكارات الذى وضعه محمد على وفتح مصر أمام التجارة الأوربية والمشروعات الأوربية [وهو ما يعادل سياسة الانفتاح التى أرساها الرئيس السادات بعد مرور أكثر من قرن من الزمان] قد أدى الى ازالة الأساس الذى يرتكز عليه الدخل العام للدولة بل وأدى أيضا الى عدم تمكين حكام مصر

من الاحتفاظ بسيطرتهم على التنمية الاقتصادية فى مصر · ولم يكن هناك مجال فى أن تصبح مصر دولة صناعية ·

ولكن كانت هناك أيضا اختلافات هامة فى الأوضاع عما هو عليه الحال فى تركيا · فالتخفيض الاجبارى للقوات المسلحة الى ١٨ ألف جندى وفقـــا لمعاهدة لنـــدن لعام ١٨٤١ قد أزال الاحتياج للانفاق العسكرى المرتفع الذى كان يستنزف موارد البلاد · الا أن ذلك كان يعنى أيضا أن مصر قد أصبحت دولة ليست لها أية أهمية من الناحية العسكرية رغـم أن السلطان العثمانى لم يكن راغبـا ولا قادرا على تقديم الحماية لمصر ضد احتلالها من جانب أية دولة أوربية ·

وأدت سياســة الباب المفتوح أو الانفتاح فى مصر الى تنمية اقتصادية شاملة وعميقة على نحو يفوق ما يحدث فى تركيا · ورغم أن مساحة مصر تعادل مســاحة فرنسا وأسبانيــا الا أن المساحة المأهولة بالسكان بها لا تزيد على ٣٪ فقط · كما أن سكانها فى ذلك الوقت كانوا أقل من ١/٦ من حجم سكانها الحالى · وكان من السهل نسبيا اقامة نظم اتصالات جيدة ومرافق حديثة وبحلول السبعينات من عام ١٨٧٠ نجد أن أراضى وادى النيل والدلتا البالغة الخصوبة ــ وان كانت لا تشتمل على مساحات شاسعة ــ كانت تنتج محاصيل زراعية غالية الثمن · وكان القطن هو أهم تلك المحاصيل ·

ومما يؤسف له أن ذلك لم يسفر كثيرا عن تحسين أحـوال جماهير المصريين · وذلك لسببين · أولهما أن المقاولين والملتزمين الأجانب والذين كانوا مسئولين عن الكثير من التنمية الجديدة قاموا باسهام ضئيل فى العائدات الخاصة بمصر · فهم كانوا يتمتعون بالامتيازات الأجنبية Capitulations وبذلـك كانوا لا يســـددون أية ضرائب · ثانيا : فى حين أن الاتجاه نحو منح حقوق امتلاك الأراضى امتلاكا مطلقا كان أكثر تقدما مما هو عليه الحال فى تركيا

العثمانية فان النتيجة الرئيسية لذلك كانت تتمثل فى أن المزيد والمزيد من الأراضى أصبحت متركزة على هيئة ضياع شاسعة تملكها الطبقة الحاكمة التركية الشركسية وخاصة الأفراد المنتمين لأسرة محمد على • وفى نفس الوقت فقد الكثيرون من صغار الفلاحين سيطرتهم على الأراضى التى كانت عائلاتهم تزرعها على مدى أجيال • وصحيح أنه لم يعد الكرباج يستخدم لارغامهم على الانضمام بالقوة الى جيوش ابراهيم باشا الا أن الكرباج كان يستخدم من أجل الحصول على العمالة الاجبارية من بين الفلاحين المعدمين الذين لا يمتلكون أراضى زراعية على الاطلاق •

وكان عباس وهو الحاكم الذى جاء بعد محمد على مباشرة [١٨٤٤ ــ ١٨٥٤] انسانا رجعيا يموج بالغيظ والمرارة • فقام بطرد المستشارين الفرنسيين التابعين لجده كما قام بغلق المدارس وتعطيل الأشكال العمومية • ولكن على الرغم من أنه كان يعانى من رهاب الأجانب [الخوف من الأجانب] الا أنه كان يميل الى الانجليز مما جعله يسمح لجيمس ستيفنسون بتشييد خط السكة الحديد القاهرة/الاسكندرية فى عام ١٨٥٠/١٨٥١ • وهو يعتبر أول خط سكة حديد فى أفريقيا أو آسيا • وعلى الرغم من بخله الشديد فان نقص الموارد والدخل الحكومى فى مصر قد أرغمه على الاستدانة والحصول على قروض • ولدى اغتياله على أيدى اثنين من الخدم الذين يعملون فى المنزل [وربما كان ذلك انتقاما من جانب عمته الأميرة زهرة التى كان قد أصدر أوامره بنفيها بسبب ممارساتها التى تتعلق بالعشق والغزل] تولى السلطة بعده رجل له أخلاق مختلفة تماما ألا وهو عمه سعيد [١٨٥٤ ــ ١٨٦٣] الكريم اللطيف المحب للفرنسيين • وشرع سعيد فى تنفيذ برنامج للأشغال العامة باهظ التكاليف للغاية : حفر قنوات جديدة واصلاح السدود والتوسع فى مد السكك الحديدية والنقل بالبواخر على نهر النيل • وكان أول من وضع مبدأ يعتبر الأول من نوعه وذلك من خلال

الحصول على قرض من مؤسسة فروهلينج أند جوشين أوف لندن بأرباح ٨٪ • ولدى قيام المقاولين الأوربيين المتمتعين بحماية قناصلهم وحماية الامتيازات الأجنبية بانتزاع تنازلات هائلة من جانب واحد من الحكومة المصرية تعاظمت ديون مصر الى درجة خطيرة •

ونتائج هذا التبذير الشـــديد قد تضاءلت أمام قرار وحيد مشـئوم بالنسـبة لمصر • لقـد كان فردناند دى ليسيبس من أهم أصدقاء سعيد الأوربيين • وكان مهندسا شابا وكان نجل المندوب السياسى الفرنسى • وكان مهتما بفكرة حفر قناة من البحر الأبيض المتوسط الى البحر الأحمر عبر برزخ السويس • ولم تكن هذه فكرة جديدة • اذ كان نابليون قد رغب فى تنفيذ هذه الفكرة بهدف اتاحة الفرصة لفرنسا للسيطرة على البحر الأحمر الا أن المهندسين التابعين له أوضحوا أنه يتعذر تنفيذ ذلك بسبب مستويات الماء المختلفة فى البحر الأبيض المتوسط والبحر الأحمر • وقد أثبت خطأ هذه النظرية مهندس بريطانى فى الثلاثينات من عام ١٨٣٠ ورحب محمد على ومستشاروه الفرنسيون بتنفيذ هذا المشروع • الا أن بالمرستون Palmerstone عارض تنفيذ هذا المشروع بشدة وخاصة اذا كان التشييد سيتم بمعرفة مهندسين فرنسيين • وكانت المصالح البريطانية ستحتم السيطرة على القناة مما سيؤدى بالتالى الى احتلال مصر • ونظرا لأنه أدلى بتعليقه المشهور فى هذا الشأن قائلا :

« نحن لا نريد مصر أو نرغب فيها من أجل أنفسنا فأى رجل عاقل يمتلك ضيعة فى شمال انجلترا ويمتلك مسكنا فى جنوب انجلترا لا يرغب فى امتلاك الفنـادق الواقعة على الطريق • فكل ما يريده هو أن تكون الفنادق فى حالة من الادارة الجيدة والأمن والأمان وامكانية الدخول اليها باستمرار وتزويده لدى وصوله اليها بشرائح من لحوم الضأن وخيول البريد » فان بريطانيا كانت تفضل أن يكون الطريق الترنزيت المصرى المؤدى الى الشرق مفتوحا وذلك

من خلال مد خط السكة الحديد القاهرة/الاسكندرية بحيث يصل الى السويس ·

ومن أوائل الاجراءات التى اتخذها سعيد عقب توليه العرش هى قيامه بالتوقيع على اتفاقية منح امتياز حفر قناة السويس لديليسبس · وكانت شروط الاتفاقية مجحفة للغاية وفى غير صالح مصر الى درجة كبيرة : اذ كان على مصر أن تقدم ٢٠ ألف عامل من السخرة الذين لا يحصلون على أجور وتدفع تكاليف كافة الأعمال والأشغال الاضافية الشاسعة وتتخلى عن حقوقها فى الأراضى الواقعة على ضفتى القناة · وعندما لم يتم بيع نصف الأسهم تقريبا بشركة قناة السويس من خلال الاكتتاب العام نجد أن ديليسبس أقنع سعيد بأنه ينبغى عليه شراءها ·

وكانت بريطانيا ما زالت تعارض هذا المشروع وحاولت استخدام نفوذها مع السلطان العثمانى · الا أن سعيد كان متمتعا بالاستقلال بالقدر الكافى بالاضافة الى أنه وديليسبس كانا يحصلان على التأييد الشديد من جانب نابليون الثالث · وفى ابريل ١٨٥٩ بدأ العمل بالفعل فى حفر القناة · ولدى استكمال نصف الأعمال انتقل سعيد الى رحمة الله وجاء بعده واليا على مصر اسماعيل وهو ابن ابراهيم باشا · وكان اسماعيل رجلا متميزا بالطموح والذكاء وحب المغامرة الا أن عيوبه ونقائصه قد دمرت آمال مصر فى الاستقلال · وتم مواصلة العمل فى حفر القناة فى مثابرة واستكمل العمل بحلول عام ١٨٦٩ · وعندئذ أقام اسماعيل حفل افتتاح رسمى مليىء بالبذخ والتبذير الشديد من أجل الترحيب بالامبراطورة ايوجين وغيرها من الشخصيات الملكية والنبلاء الأوربيين · وكانت تكاليف ذلك الاحتفال ضخمة للغاية بالنسبة لمصر · وكان السلطان ـ من خلال تشجيع بريطانيا ـ قد احتفظ بحقه فى الاعتراض على الامتياز الممنوح بحفر القناة · وعلى الرغم من أن ديليسبس أقنعه

بأن يحيل النزاع الى نابليون الثالث من أجل التحكيم فان مكافأة الامبراطور الفرنسي والتي كان يراد منها في نهاية الأمر تحديد وضع شركة قناة السويس قد وضعت عبئا لا يحتمل على كاهل مصر ٠ اذ كان على اسماعيل أن يسدد للشركة مبلغا باهظا يبلغ ١٣٠ مليون فرنك لكي تتخلى عن حقوقها في الأراضي والملاحة والعمالة المجانية الواردة في الامتياز الأصلي ٠ وأصـدر السلطان العثمانلي فرمانا [قرارا] بالموافقة الا أن مصر أصبحت تقترب بسرعة من حافـة الافلاس المالي ٠

وكانت قناة السويس هي التي ينصب عليها أهم الانفاق المالي في مصر ولكن كانت هناك مجالات أخرى للانفاق ٠ فخلال فترة حكم اسماعيل تم حفر ٨٤٠٠ ميل من القنوات كما تم التوسع في انشاء خطوط السكك الحديدية بحيث زادت أطوالها من ٢٧٥ ميل الى ١١٨٥ ميل٠ واقد أعطت التلغرافات والكباري وأرصفة شحن وتفريغ السفن والمنارات البحرية لمصر المرافق التي تحتاجها دولة عصرية حديثة في القرن التاسع عشر ٠ ولقد أدلى اسماعيل بتعليق ما زال مشهورا في مصر حتى الآن ٠ اذ قال « لم تعد دولتي تنتمي لأفريقيا بعد أن أصبحت جزءا من أوربا » ٠ بل ان مراسل جريدة التايمز اتفق مع اسماعيل في هذا الرأي عندما كتب في عام ١٨٧٦ مشيرا الى « أن مصر نموذج عظيم للتقدم ٠ فهي قد أحرزت تقدما هائلا في خلال سبعين عاما يتعادل مع التقدم الذي أحرزته دول أخرى كثيرة في خـلال ٥٠٠ عام » ٠ ولقد زادت رقعة الأرض المزروعة بنسبة ١٥٪ كما تزايد حجم الصادرات والواردات الى ثلاثة أضعاف في الفترة من عام ١٨٦٢ حتى عام ١٨٦٩ ٠

وكانت تشوب هذا الازدهـــار الظاهري نقطتان من حالات الضعف المهلك على نحو يصل الى حجم الكارثة ٠ النقطة الأولى هي أن ذلك الازدهار كان يعتمد على تصدير نوع واحد فقط من المحاصيل

ألا وهو القطن • وكان يتم استيراد معظم السلع المصنعة • واستفادت مصر ـ شأنها في ذلك شأن تركيا ـ من تأثيرات الحرب الأهلية الأمريكية على انتاج القطن من الولايات الجنوبية • وقد شجع هذا الازدهار الاقتصادى الهائل اسماعيل على التمادى فى التبذير والانفاق ولكن سرعان ما بدأت تخبو جذوة الازدهار • ونقطة الضعف الثانية كانت تتمثل فى جبل الديون الذى ارتكز عليه الازدهار الظاهرى • ففى خلال خمس سنوات كان اسماعيل قد اقترض مبلغ يزيد على ٢٥ مليون جنيه استرلينى بفائدة تتراوح ما بين ٧٪ و ١٢٪ ولكنها فوائد تصل فى حقيقتها الى نسبة تتراوح ما بين ١٢٪ و ٢٦٪ • ومن بين المتاعب التى واجهته هى أنه من حيث هو والى معين بمعرفة السلطان العثمانى وليس ملكا مستقلا لم يكن لديه سلطة قانونية تسمح له برهن مصـادر الدخل الاجمالى للدولة • ومن ثم فان الشروط التى يستدين بها كانت باهظة للغاية • وفى عام ١٨٦٧ تمكن من الحصول من السلطان على لقب « الخديوى » بالاضافة الى الحصول على الحق فى تغيير قانون الوراثة على العرش لصالح ذريته المباشرة وليس لصالح أكبر أفراد أسرة محمد على فى السن على النحو الذى كان متبعا فيما قبل • وفى عام ١٨٧٣ حصل على مرسوم امبراطورى جعل منه ملكا مستقلا له الحق فى الحصول على القروض ومنح الامتيـازات الأجنبية بدون الرجوع الى السـلطان العثمانى • وقد تم تحقيق كل ذلك من خلال تقديم الرشاوى الضخمة ولكن ذلك كان يعنى أن الديون الشخصية الخاصة بالوالى على مصر قد أصبحت ديونا خاصة بالدولة المصرية أو ديونا تخص فى نهاية الأمر الفلاحين المصريين الذين يكابدون ويعانون منذ فترات طويلة للغاية •

وبحلول عام ١٨٧٥ أصبحت ديون اسماعيل عالية للغاية حتى أنه اضطر لبيع أنصبته وأسهمه فى شركة قناة السويس البريطانية فى مقابل الحصول على مبلـغ ضـئيل فى حدود ٤ مليون جنيه

استرليني • ولقد قام دزرائيلي رئيس الوزراء البريطاني والذى سبق أن ساند ذات يوم بالمرستون في معارضته لبناء قناة السويس بعمل الترتيبات لقرض لكى يتم الشراء من خلال بيت لندن أوف روتشيلد ولقد علق جلادستون زعيم المعارضة الليبرالى على هذا الاجراء بقوله « انه عمل محفوف بالمخاطر » من أجل توريط بريطانيا بشدة في الشئون المصرية • وكان الفرنسيون بالطبع غاضبين •

ولم يكن بيع أسهم القناة كافيا لانقاذ اسماعيل أو مصر من الافلاس • وعلاوة على ذلك كان الانهيار المالى للامبراطورية العثمانية على وشك أن يحدث • وعلى الرغم من استقلال مصر الى حد ما فان ذلك قد أحدث تأثيرا يصل الى حد الكارثة على سمعة مصر الدولية • ولقد أعلنت مصر افلاسها الرسمى في ابريل ١٨٧٦ وبعد ذلك بسبعة شهور فقط أعلنت تركيا افلاسها •

وكانت النتائج بالنسبة لمصر شبيهة بتلك النتائج بالنسبة لتركيا الا أنها كانت أكثر عمقا • فبالنسبة لتركيا وغيرها من الدول الأخرى المتخلفة عن سداد الديون نجد أن الحكومة البريطانية قد اكتفت بتقديم التأييد المعنوى لحاملى السندات ورفضت أن تصبح متورطة على نحو مباشر أما بالنسبة لمصر فكان الوضع مختلفا لأنها تقع عبر الطريق المؤدى الى الهند • ومصر قد أصبحت تشكل أهمية حيوية بالنسبة للامبراطورية البريطانية على النحو الذى سبق أن تنبأ به بالمرستون •

وعندما طلب اسماعيل من بريطانيا تقديم يد العون والمساعدة أرسلت الحكومة البريطانية لجنة على مستوى عالى برئاسة أحد الوزراء بالحكومة • وكان مالكوا الأسهم وكذلك الرأى العام البريطانى يأملون فى أن تفرض بريطانيا آنئذ شكلا من أشكال السيطرة المالية على مصر • الا أن الفرنسيين كانوا غير مستعدين للسماح لبريطانيا بأن تحتكر التدخل الخارجى فى شئون مصر

الداخلية ولذلك قاموا بايفاد بعثة مالية خاصة بهم • واقترحت كل من بريطانيا وفرنسا حلولا تتلاءم مع حاملى الأسهم التابعين لكل منهما • وبعد حدوث بعض المجادلات والمشاحنات بينهما تم التوصل الى تسوية يتم بمقتضاها انشاء صندوق للديون العامة يقوم بادماج وتوحيد كافة الديون على أن تسدد الديون بنسبة ٧٪ مما كان يؤدى إلى امتصاص ⅔ من العائدات الحكومية • وكان لكل من الحكومة البريطانية والحكومة الفرنسية مراقب تنفيذى عام للاشراف على النفقات • وهكذا نرى أن السيطرة الثنائية الأنجلو/فرنسية على مصر قد بدأت • وكان العضو الانجليزى فى صندوق الديون العامة هو الكابتن افلين بارينج السكرتير السابق للوالى على الهند وهو الذى أرسى نغمة علاقات بريطانيا الخاصة مع مصر •

وشرع هذان المراقبان التنفيذيان فى العمل على اثبات أهميتهما ومن خلال فرض ضرائب اضـــافية بدأت مصر تسدد ديونها وفقا للمعدل الذى فرض عليها • الا أن المسئولين البريطانى والفرنسى فى مصر سرعان ما أدركا أن الضغوط على الأهالى المصريين أصبحت أمرا لا يطاق • ومما زاد من معاناة الفلاحين المصريين حدوث انخفاض فى فيضان النيل واصابة القطن بالآفاق الزراعية • ولم يعد بالمستطاع اعتصار المزيد من الضرائب منهم من خلال ضربهم بالكرباج • وانتهيا الى القول بأن الأمر يستلزم تشـكيل لجنة دولية لتقصى الحقائق بهدف فحص الادارة المالية للخديوي • فوافق الخديوى على مضض • ووفقا لما كان متوقعا أشــارت اللجنة الى أن السبب الرئيسى فى مشاكل مصر يرجع الى السلطات غير المحدودة للخديوى وبذلك فانه ينبغى عليه أن يمنح بعض سلطاته « لوزراء مسئولين » • فوافق اسماعيل على ذلك فى ضوء اقتناعه بأن مصر قد أصبحت آنئذ جزءا من أوربا • فشكل حكومة برئاسة نوبار باشا الأرمينى الماكر • وكانت هذه الحكومة تضم وزيرا بريطانيا للشئون المالية ووزيرا فرنسيا للأشغال العامة •

الا أن اسماعيل لم يكن لديه نية صادقة فى أن يصبح عاهلا أو ملكا دستوريا • وعندما قامت حـــكومته « الأوربية » باتخاذ اجراءات لا تتسم بالشعبية حيث كانت مضطرة لأن تفعل ذلك فى ضوء الظروف المالية لمصر فانه رفض أن يشارك فى المسئولية • وأظهر نفوذه وسلطانه من خلال قيامه بقمع تمرد الضباط الذين لم يحصلوا على رواتبهم منذ ١٨ شهرا علاوة على طرده لنوبار باشا بحجة أنه غير قادر على الحفاظ على النظام العام • وكانت بريطانيا وفرنسا ما زالتا غير مستعدتين للقيام بتدخل عسكرى مباشر نظرا لأن الرأى العـــام فى دولتيهما لم يكن متعاطفا للغاية مع حاملى السندات والأسهم كما كانتا تأملان فى اقناع اسماعيل بالاحتفاظ بالحكومة الدســتورية • وهناك سبب آخر : وهو أنه بدافع من تحريض اسماعيل تشكل ائتلاف من ضباط الجيش والبشـــوات والعلماء الدينيين شبيه بعض الشيء « بحزب وطنى مصرى » وأصبح هذا الحزب مصمما على البرهنة على أن مصر بمقدورها أن تحكم نفسها بنفسها • بل وأصبح بالامكان تحقيق توازن بين الخديوى وبين شكل ما من أشكال المؤسســات النيابية • وفى دهــاء قام الخديوى باختيار شريف باشــا ـ وهو زعيم دســتورى ـ ليكون رئيس وزرائه الجديد •

أما التدخل فقد جاء من جهة غير متوقعة • اذ شعرت ألمانيــا والنمسا بالسخط بسبب الاجراءات التى اقترحتها حكومة شريف والتى تهدف الى تخفيف عبء الديون القصيرة الأجل المستحقة لحاملى السندات الذين كان معظمهم من الألمان أو النمســاويين • فقامتــا باقناع البريطانيين والفرنسيين المستائين بضرورة أن يترك اسماعيل الحكم • ثم قاموا جميعا بممارسة ضغوط على السلطان عبد الحميد لكى يستخدم ما تبقى لديه من نفوذ لارغام اسماعيل على التنازل عن العرش لصالح ابنه توفيق • وأبحر اسماعيل الى المنفى • وترك وراءه عددا قليلا من المدافعين عنه • اذ نسى الناس انجازاته الحقيقية

وذلك بسبب الكوارث التى نجمت عن فترة حكمه : فهو بعد أن دعم استقلال مصر تسبب فى تحطيمها من خلال تبذيره ٠

ولم يكن للخديوى الشـــاب الجديد نفس شجاعة وتصميم اسماعيل ٠ الا أنه لم يكن لديه الرغبة فى تقبل أى شكل من أشكال الدستور الليبرالى ٠ ولكن لم يعد من السهل السيطرة على الموقف السياسى فى مصر ٠ فعلى الرغم من أن الحركة الوطنية الصاعدة كانت تتألف من عناصر عديدة مشتتة ومتضاربة ومتعارضة الا أنها أصبحت آنئذ قوية بعد أن اتحدت كافة العناصر فى مواجهة مخاطر السيطرة الأجنبية والحكومة الاستبدادية ٠

وكانت التوليفة الأيديولوجية لهذه الحركة تتألف من مصلحين سياسيين/دينيين من تلاميذ جمال الدين الأفغانى وهو ايرانى مرعب من أصل غامض ويعتبر من أهم المثقفين الأشداء الذين أحدثوا تأثيرات هائلة على الاسلام فى القرن التاسع عشر ٠ وكان الأفغانى يشير فى خطبه الى أن الأمر يستلزم الرجوع الى المبـادىء الاسلامية الحقة علاوة على تحقيق وحدة اسلامية ووطنية لكى تكون بمثابة خط دفاع ضـد التدخل الأوربى المسيحى ٠ ولكنـه لم يكن يؤمن بالخلافة العثمانية وكان يعارض نفوذها وسيطرتها ٠ وكان يفضل الحكومة الدستورية ٠ وبعد أن أصـدرت تركيـا قرارا بنفيه ــ وهو أمر لا يدعـو للدهشـة فى عام ١٨٧١ فانه جاء الى مصر حيث عامله اسماعيل فى تسامح ٠ وعقب تولى توفيق الحكم بفترة قصيرة أصدر قرارا بطرده ــ ومن المؤكد أن ذلك قد تم بتشجيع من السـيطرة الثنائية الأنجلو/فرنسية ــ الا أن نفوذه وتأثيره على الناس قد ظل باقيا ٠ وعاش الأفغانى بعد ذلك فى باريس حيث أسس هناك جمعية سرية وأصدر جريدة تهتم أساسا بالاصلاح الدينى ٠

وكانت التوليفة الثانية من الحركة الوطنية تتألف من البشوات والعلماء الدينيين وبعض الوجهاء الذين يفضلون الاصلاح الدستورى٠

وكان كثيرون منهم من الشراكسة الأتراك الذين أقلموا أنفسهم بعض الشيء مع مصر ومع آمال شعبها • الا أنهم كانوا أيضا من ملاك العقارات الأغنياء مما كان يجعلهم يخافون بكل سهولة من شبح الراديكالية أو الثورة الشعبية •

وكان العنصر الثالث في المجموعة الوطنية يتألف من الضباط المصريين الحقيقيين أو الفلاحين [والذى يمكن تمييزهم عن الضباط الأتراك/الشراكسة] بالجيش • وكان اسماعيل يفضل بكل صراحة الشخصيات غير المصرية التى تتولى كافة المناصب العسكرية العليا ولذلك كان الضباط بالجيش فى حالة من الاستياء والغليان • فعثروا على زعيم لهم : ألا وهو الكولونيل أحمد عرابى وهو ابن فلاح صغير من مصر السفلى • وعلى الرغم من أنه قد حصل على قدر ضئيل من التعليم الا أنه نجح فى أن يصبح قائدا للكتيبة الرابعة • وكان شجاعا وجليلا ومهيبا ولكنه لم يكن خارق الذكاء أو حاسما فى قراراته • وكان يتمتع بشعبية بين جماهير المصريين لأنه ظل على علاقة وثيقة بالمصريين كما كان بمقدوره التعبير عن الظلم الواقع عليهم بكلمات يفهمونها •

وحاول وزير الحربية الشركسى الرجعي المكروه : عثمان رفقى Osman Rifky العمل على القاء القبض على أحمد عرابى وزملائه ومحاكمتهم أمام مجلس عسكرى بتهمة التمرد • ولكن عرابى كان يتمتع بتأييد الكتائب الرئيسية المتواجدة بالعاصمة • ولذلك فشلت هذه المناورة • واضطرت الحكومة للرضوخ وأصدرت قرارا بطرد رفقى من منصبه •

وأصبح عرابى وأصدقاؤه زعماء لحركة تتمتع بتأييد شعبى كبير • ولقد ورد بجريدة التايمز فى ١٢ سبتمبر ١٨٨١ ما يلى : « ينبغى ألا ننسى أن الجيش هو المؤسسة الوطنية الوحيدة التى تمتلكها مصر حاليا • وكل شيء آخر قد تم اختراقه وغزوه والسيطرة

عليه وإدخال تغييرات عليه على أيدى المندوبين المعتمدين لكل من فرنسا وانجلترا » .

وكان لا يزال بالامكان التوصل الى حل سلمى . فلا أحمد عرابى ولا أولئك الناس من أمثال المصلح الاسلامى الشيخ محمد عبده الذى هو تلميذ للأفغانى ومنضم لصفوفه كانوا ثوريين مثيرين للفتن والقلاقل . كما كان كبار ملاك الأراضى المنضمين للحركة الوطنية أقل ثورية من أحمد عرابى ورفاقه كما أن الحكومة البريطانية ـ والتى أصبحت آنئذ برئاسة وليام جلادستون المشهور بمعاداته للامبريالية ـ كانت ما زالت غير راغبة فى التدخل . كما أن المندوبين البريطانيين فى مصر ـ على الرغم من أنهم فى الغالب لا يبلغون بحقيقة طبيعة المشاعر الوطنية فى البلاد ـ كانوا يعتقدون أنه بالمستطاع انقاذ الموقف اذا تصرف الخديوى فى حزم وحكمة وفقا لنصائحهم . وللأسف كان توفيق غير ملائم لأداء هذه المهمة . فبينما كان يتظاهر بابداء بعض التعاطف مع مطالب أحمد عرابى : مثل زيادة حجم الجيش المصرى وتخفيض عدد الموظفين الأوربيين فى مصر وتخفيض مرتباتهم العالية للغاية فان هدفه الحقيقى كان يتركز على التخلص من الكولونيل الثائر . بل وأرسل مبعوثا الى السلطان عبد الحميد لكى يخبره بأن عرابى يهدف الى انشاء امبراطورية عربية بموافقة من بريطانيا . الا أن عبد الحميد كان يفوق توفيق من حيث النفاق . اذ أبلغ عرابى أنه واثق من اخلاصه وأصدر أوامره له بالدفاع عن مصر ضد الغزو مهما كلفه ذلك من تضحيات لكى لا تلاقى مصر نفس المصير الذى لاقته تونس التى احتلتها فرنسا مؤخرا .

وحقيقة الأمر أن حكومة جلادستون كانت تريد للسلطان العثمانى أن يضطلع بمسئولية استعادة السلطة من الخديوى . الا أن سياسة جلادستون كانت تحرص أيضا على الابقاء على العلاقات

الودية مع فرنسا من أجل مواجهة الطموحات المتزايدة لبسمارك في أوربا · والفرنسيون كانوا يعارضون تماما أى تدخل تركى حيث كانوا يخشون من احتمال قيام عبد الحميد ـ من خلال مصر ـ بالتخطيط لاقامة حركة مقاومة اسلامية شاملة مما قد يعرض قبضتهم على تونس للأخطار · وكانت بريطانيا ما زالت تأمل في ألا تكون هناك ضرورة للتدخل عندما سقطت الحكومة الفرنسية في ديسمبر ١٨٨١ وحلت محلها حكومة برئاسة جامبيتا Gambetta وهو بطل المقاومة الفرنسية ضد بروسيا فى عام ١٨٧١ · وأصر جامبيتا على اتخاذ اجراء وأرغم وزير الخارجية البريطانية الكسول اللورد جرانفيل على ارسال مذكرة مشتركة أنجلو/فرنسية للقنصل العام البريطانى والقنصل العام الفرنسى فى مصر · وكانت هذه المذكرة الخطيرة تطالب باستعادة الأوضاع التى كانت سائدة قبل الوضع الراهن Status quo ante وابقاء الخديوى على العرش « وفقا للشروط التى وردت فى فرمانات السلطان والتى اعترفت بها رسميا الحكومتان نظرا لأن هذه الشروط وحدها تضمن فى الوقت الحالى ومستقبلا تحقيق حسن النظام وتنمية الازدهار فى مصر وهما أمران يحظيان باهتمام فرنسا وبريطانيا العظمى » ·

وكان من السهل التنبوء بالنتائج التى تترتب على هذا الاستبداد · اذ اشتعلت المشاعر الوطنية فى مصر أكثر من ذى قبل · وعين عرابى فى منصب وكيل وزارة الحربية وطالب البرلمان الظاهرى [مجموعة الوجهاء] ببعض السيطرة على ميزانية مصر التى كانت فى أيدى المراقبين الماليين الأنجلو/فرنسيين · وسقطت حكومة جامبيتا بعد أقل من شهرين وحلت محلها حكومة برئاسة دى فرايسينت De Freycinet الذى يعتبر أكثر اعتدالا من جامبيتا · الا أن الأضرار كانت قد حدثت بالفعل ·

اذ أصبح الجيش المصرى مسيطرا على الأمة وقدمت جماهير

الشعب المصرى له كل التأكيد والحماس • وبدأ الفلاحون يأملون فى أن تحكم مصر بمعرفة المصريين وبحيث لا يتم ارهاقهم بالضرائب الباهظة • وكان بعض الوجهاء يشعرون بنفس مشـــاعر الفلاحين الا أن الكثيرين منهم كانوا يخشون من احتمال ظهور ثورة اجتماعية • ولذلك كانوا متذبذبين فى تأييدهم للجيش • وفى نفس الوقت نجد أن الخديوى كان مستاءا ومتوترا واستمر فى مؤامراته ضد عرابى • الا أنه لم يجرؤ على مواجهة عرابى صراحــة • واستمر السـلطان عبد الحميد فى اتباع سياسته الرامية الى اعطاء كلا الجانبين الانطباع بأنه يؤيدهم ويناصرهم •

ومثلما تعاظمت المشاعر الوطنية المصرية فقد تزايدت أيضـا المشاعر الوطنية للحـكومتين البريطانيـة والفرنسية وممثليهما فى مصر • وأشار مندوبو الحكومة الفرنسية بمصر الى أن البلاد تنحدر بسرعة نحو الفوضى • الا أن هذا التقرير كان أبعـد ما يكون عن الحقائق الواقعية • فمصر كانت تموج بالانفعال والغليان ولم تكن فى حالة من الفوضى على الاطلاق • وكان أعضاء الحكومة البريطانية مشغولى البال بسبب ظهور حالة من شبه التمرد فى أيرلندا فأقنعوا أنفسهم بأن المصريين البسطاء السذج غير قادرين على أن يحكموا أنفسهم بأنفســـهم وأن الأتراك العثمانيين يعتبرون جنسـا حاكما بطبيعته وأن المصالح الحيوية البريطانية أصبحت فى خطر •

وقامت بريطانيا وفرنسا ـ وكان لا يزال لديهما الأمل فى حدوث تدخل عسكرى تركى ولكن تحت اشراف أنجلو/ فرنسى ـ بارسال قوات بحرية مشتركة قوية الى مشارف الاسكندرية • وبعد ذلك بوقت قصير وقع حادث مما أدى الى ما يبدو الى تبرير كافة المخــاوف التى كانت تراود المنذرين : اذ تفجـر تمرد كبير فى الاسكندرية أسفر عن عدة مئات من القتلى والجرحى من بينهم حوالى خمسين من الأوربيين • وكانت العلاقات بين الأوربيين والمصريين

قد تدهورت على نحو أكيد بسبب الخطب التى ألقاها المشايخ المسلمون والتى ألهبت المشاعر الوطنية وأصبح كل شخص أوربى يأمل فى حدوث غزو أوربى لمصر • ولكن تواجد الأسطول الأنجلو/فرنسى عند مشارف الاسكندرية هو الذى فجر الموقف • وبدأ الأوربيون المذعورون يغادرون الاسكندرية بالآلاف •

وأصبح الموقف البريطانى آنئذ أكثر تشددا من موقف الفرنسيين • اذ تأكدت شكوك البريطانيين فى أن دى فرايسينت يخطط لعقد اتفاقية سرية مع عرابى عندما رفض رئيس الوزراء الفرنسى اقتراحا بريطانيا بشأن فرض حماية أنجلو/فرنسية على قناة السويس على أساس أن الخطر الوحيد الذى يمكن أن يحدق بقناة السويس يجيىء من خلال التدخل الخارجى • وعندما أصدر الأدميرال البريطانى فى ١٩ يوليو ١٨٨٢ انذرا الى عرابى ينص على أن الاسكندرية ستتعرض للضرب بالمدافع والقنابل اذا لم يقم بتفكيك التحصينات التى يقوم بتشييدها حول المدينة قام دى فرايسينت بسحب الأسطول الفرنسى • وبذلك لم يعد هناك احتمال وقوع غزو مشترك أنجلو/فرنسى على مصر •

وعقد مجلس الوزراء فى مصر برئاسة الخديوى وبحضور مندوب عن السلطان العثمانى وقرر أنه من العار عدم رفض الانذار • وكان توفيق وعبد الحميد ما زالا غير متأكدين مما اذا كان بمقدور قوات عرابى مقاومة الغزو وكانا يتجنبان اعطاء رأى قاطع فى هذا الشأن • وراح الأسطول البريطانى يقصف الاسكندرية على مدى عشر ساعات مما أدى الى تدمير كافة التحصينات علاوة على تدمير جزء من المدينة • فقام عرابى باجلاء قواته وترك الاسكندرية المشتعلة بالنيران •

وأخيرا وافق السلطان عبد الحميد على مبدأ ارسال قوات تركية بهدف اعادة النظام • الا أنه كان لا يزال يراوغ حيث راح

يتساوم مع السفير البريطاني حول الشروط التي تتعلق بتداخله ٠
وحيث أنه لم يفقد كل الأمل في الظهور أمام المصريين على أنه المدافع عنهم ضد الكفار فانه امتنع عن اصدار بيان يفيد بأن عرابي متمرد ٠
وكان عرابي ما زال يتمتع بالتأييد الشعبي في البلاد وكان يحتفظ بدرجة معقولة من الأمن والنظام ٠

وفي تلك الأثناء كانت الاتجاهات في بريطانيا قد أصبحت متسمة بالشوفينية والتطرف في الوطنية بشكل متزايد ٠ وكان جلادستون وبعض أعضاء الحكومة ما زالوا يعارضون فكرة الغزو خوفا من النتائج التي تترتب على ذلك ٠ أما فرنسا وغيرها من الدول الأوروبية الأخرى فكانت مسرورة من ضرب الاسكندرية بالقنابل والمدافع ولكنها في نفس الوقت كانت تعارض تماما فكرة الغزو البريطاني من جانب واحد لمصر ٠ وفي نهاية الأمر تغلبت وجهة نظر الأعضاء الامبرياليين بالحكومة البريطانية والذين كانوا يحظون بتأييد الرأي العام البريطاني ٠ وعندما طلب جلادستون اعتمادات مالية من أجل الحملة العسكرية فانه حصل على الفور على موافقة مجلس العموم ٠ وبرر اجراءاته العسكرية بأن زعم بأن عرابي واخوانه مناهضين للمسيحيين وغير مهتمين بحريات الناس ٠ أما عدم الأمن في قناة السويس فكان مجرد أعراض خارجية « لأن المرض متواجد في الأمور الداخلية في مصر وفي أوضاعها المتسمة بالفوضى والقلاقل » ٠

ولم يكن عرابي قائدا عسكريا بارعا ٠ كما كان بطيئا في تحصين دفاعات مصر وتزويدها بالرجال ـ وربما كان السبب في ذلك هو أنه كان لا يزال يعتقد أن بريطانيا بصدد أن تتوصل الى تسوية سلمية معه ٠ وهو أيضا كان يثق تماما في أن بريطانيا سوف تحترم حياد قناة السويس ووافق على المناشدات الملحة من جانب دليسبس بأن يلتزم أيضا باحترام حياد قناة السويس ٠

وفشل عرابى فى تغطية جناح الجيش الشرقى • وظهرت البوارج الحربية البريطانية عند بورسعيد والسويس وأغلقت القناة • وكانت القوات النظامية لدى عرابي والتى تبلغ عشرة آلاف جندى علاوة على عدد من الفلاحين الذين تم تجنيدهم على وجه السرعة لا تتكافأ مع آل ٣٠ ألف جندى الذين تضمهم الحملة العسكرية البريطانية • وفى معركة التل الكبير بتاريخ ١٣ سبتمبر ١٨٨٢ تعرض المصريون لهجوم مفاجىء وابادة كاملة • اذ فقد عشرة آلاف مصرى ، وفى مقابل ذلك مات ٥٧ جندى بريطانى واعتبر ٢٢ فى عداد المفقودين • وكتب القائد البريطانى فى تقريره الرسمى الذى أعده عن المعركة ما يلى « لا أعتقد أن سلاح المشاه البريطانى فى أى فترة من فترات تاريخنا العسكرى قد حقق أى انجاز يفوق ما حققه فى هذه المعركة »•

واحتلت القوات البريطانيــة القــاهرة • واستسلم عرابى ورفاقه • وأعيدت سلطة الخديوى رسميا عندما أعلن مجلس الوزراء الطاعة والاذعان • وأصدر الخديوى توفيق قرارا مقتضبا أعلن فيه أنه قد تم تسريح الجيش المصرى • ولكن لم يكن بالمستطاع العودة الى الوضع الراهن السابق لأن عرابى — على الرغم من أخطائه — قد غير مصر من خلال حركته غير الناجحة ••• تغييرا دائما • فلأول مرة نجد شعبا شرقيا خاضعا يحاول الاطاحة بأقلية متمتعة بالحقوق والامتيازات من أجل اقامة حكومة دستورية خاصة به فى تحدى سافر للدول الأوروبية • وكما قال أحد المعجبين به وهو الجنرال جوردون « انه سوف يعيش على مدى قرون • وهم لن يصــبحوا [الخدم المطيعين لكم] مرة أخرى » •

والحقيقة التى مفادهــا أن معظم حلفــاء عرابى السياسيين السابقين أصبحوا منشقين على عرابى ولجأوا الى الخديوى لا يمكن أن تحجب الحقيقة التى مفادها أن الخديوى قد أصبح دمية فى أيدى البريطانيين • لقد تم تدمير الحزب الوطنى ولكن سلطة الخديوى

الحقيقية قد تلاشت أيضا • بل ولم يسمح للخديوى بأن يطلق الرصاص على عرابى بدون محاكمته كرجل ثائر : وأصرت بريطانيا على ضرورة أن يمثل الكولونيل عرابى أمام محكمة عادلة • [وفى نهاية الأمر صدر الحكم على عرابى بالنفى الى سيلان Cylon حيث أمضى هناك ١٨ عاما] •

وبعدئذ بدأت بريطانيا تواجه ورطة • فعلى الرغم من شكوك الفرنسيين والعثمانيين السوداء فى أن بريطانيا كانت دائما تهدف الى السيطرة على قناة السويس ودلتا النيل فان بريطانيا أدركت أن الاستيلاء على مصر وادماجها فى الامبراطورية البريطانية هى مسألة مستحيلة وغير واردة • لأنها اذا فعلت ذلك ستتسبب فى تفجير حرب أوربية بينما الحكومة البريطانية غير مستعدة على الاطلاق لمواجهة مثل تلك الحرب نظرا لجيشها الصغير المتواجد فى مصر ونظرا لانشغالها بالشئون الايرلندية • وعقب مرور شهر على معركة التل الكبير وفى رد على سؤال بمجلس العموم عما اذا كانت بريطانيا تفكر فى احتلال مصر لفترة غير محدودة أجاب جلادستون قائلا : « هذا أمر لن نفعله على الاطلاق » • ومن ناحية أخرى فان الجلاء الفورى عن مصر كان أمرا غير وارد لأن ذلك من شأنه أن يؤدى الى الاطاحة بالخديوى مما يؤدى بالتالى الى تعريض المصالح البريطانية للخطر • وقامت حكومة جلادستون بايفاد اللورد دوفرين وهو سياسى محنك [المحافظ السابق على كندا والوالى على الهند فيما بعد] الى القاهرة لدراسة الأوضاع وايجاد حل • فتوصل الى « أنه لا يمكن أن تدار شئون وادى النيل من لندن لأن ذلك من شأنه أن يثير كراهية المصريين وشكوكهم الدائمة » • ورفض فكرة الحكم المباشر على النحو السائد فى المستعمرات البريطانية كما رفض الحكم غير المباشر من خلال مندوب سامى بريطانى مثلما هو الحال فى ولايات الأمراء بالهند • وكان الحل الذى اقترحه دوفرين غامضا : اذ كان يدور حول اقناع المصريين بأن كل ما تريده بريطانيا هو

مساعدتهم على أن يحكموا أنفسهم بأنفسهم « تحت الرعاية الشديدة للصداقة البريطانية » ٠

وفى نهاية الأمر لم يحصل المصريون على حكم مباشر أو غير مباشر ، وانما حصـــلوا على نوع من الحـــكم العجيب الفريد من نوعه ٠ اذ لم يتم ادماج مصر فى نطاق الامبراطورية البريطانية ٠ ولكنها أصبحت أهم وصلة أو رابطة فى النظام الامبريالى لبريطانيا ـ وهو وضع قد استمر حتى حلول الحرب العالمية الثانية ٠ وكان النفوذ البريطانى فى مصر مكتسحا ولكنه نفوذ كان يمارس دائما فى حـكمة وانضباط وذلك لسبب واحد وهو أن الدول الأوربيـة الأخرى بقيادة فرنسا ٠ كانت تشعر بالمرارة والحقد على بريطانيا لأن بريطانيا تمكنت من السيطرة على النيل وقناة السويس واحتفظت بامتيازات هامة ٠ وألغيت السيطرة الثنائية الأنجلو/فرنسية الا أن صـندوق الديون العـامة والامتيـازات الأجنبيـة Capitulations والوضع الدولى لقناة السويس قد ظلت باقية ٠

وكان الشخص الذى أختير لكى يدير هذا النوع غير المسبوق من العـلاقة بين دولتين هـو افيلنـج بارينـج Evelyn Baring الذى كان قد عاد الى الهند عقب خدمته الأولى فى مصر فى صندوق الديون العامة ٠ ولكنه أحضر الآن من الهند ومنح لقبامتواضعا على نحو مضلل : المندوب البريطانى والقنصل العام فى مصر ٠ وعلى الرغم من وضعه غير الطبيعى نجد أن بارينج ـ أو اللورد كرومر فيما بعد ـ قد أصبح الطراز البدئى أو النموذج الأصـلى للحاكم الادارى الامبريالى البريطانى فى ذروة الامبراطورية ٠ وكان شخصا متسما بالاستقامة الأخلاقية والتفانى فى العمل ولكنه كان متغطرسا فى هدوء [مما جعل الناس يطلقون عليه لقب « بارينج المبالغ فيه Over-Baring »] وكانت تعاطفـاته الصـــادقة مع المصريين ـ وخاصة الفلاحين ـ متسمة بالرعاية والمناصرة باستمرار ٠ وفى

خلال أل ٢٤ عاما التى قضاها فى مصر من حيث هو الحاكم الحقيقى بها لم يتعلم اللغة العربية على الاطلاق [حيث ترك ذلك لسكرتيره الشرقى] ولم يكن يشـــعر بالحب ازاء الوطنيين المصريين الذين يعتقدون أن الشعب المصرى قادر على حكم نفسه بنفسه • وكان يتمتع بنفوذ كبير للغاية فى لندن ـ اذ كان يجيىء وزراء للخارجية ويذهبون ولكن كرومر كان يظل مستمرا فى منصبه فى مصر •

وعندما وصل كرومر فى عام ١٨٨٣ كان يعتقد أن بمقدوره اقامة حـكم مستقر مع مستشارين بريطانيين مما يجعل بالامكان سحب القوات البريطانية من مصر ـ وبشرط أن تتمكن الحكومة البريطانيـة من انهـاء كل أنواع التدخل التى تتم من جانب دول أوربية أخرى • الا أنه سرعان ما أدرك أن هذه الفكرة غير متسمة بالطابع العملى على الاطلاق • هذا بالاضافة الى أن مصر كانت واقعة تحت تهديد عسكرى خطير من جهة الجنوب • فشبه الامبراطورية التى أنشأها محمد على بالسودان ، والتى ظلت تحت الحكم التركى/ المصرى على مدى حوالى ستين عاما قد تدمرت فى عام ١٨٨١ على أيدى ثورة قام بها الزعيم الدينى السياسى الملهم محمد بن عبد الله [المهدى] • وتم اجتياح الحاميات والمواقع الحصينة المصرية • وفى ربيع عام ١٨٨٣ ولدى وصول كرومر الى مصر تمكنت قوات المهدى من ابادة قوات سودانية مصرية بالكامل بقيـــادة ضباط بريطانيين • وأصبحت مصر ذاتها واقعة تحت التهديد العسكرى من جانب السوذان •

وكانت حكومة جلادستون تعرف جيدا الأمور التى اضطلعت بها فى مصر • وكان على بريطانيا ليس فقط ترسيخ الحكم ولكن أيضا العمل على حمايته • ولم يكن هناك مجال لاسترجاع السودان من المهدى من خلال استخدام القوات المتاحة ولذلك فرضت سياسة الجلاء على الخديوى الرافض ووزارته الرافضين • ولكن كرومر كان

موافقا على فكرة الانسحاب من السودان • ومع ذلك لم يكن كرومر موافقا على قرار الحكومة بايفاد الجنرال الغريب الأطوار جوردون لكى يشرف على الجلاء المنظم عن المواقع الحصينة المصرية المتبقية المتناثرة • وكان هذا القرار قد لاقى تأييدا شعبيا كبيرا فى بريطانيا ـ اذ كان جوردون بطلا شعبيا سبق له الخدمة فى أنحاء عديدة من الامبراطورية بالاضافة الى توليه منصب الحاكم العام للسودان فى عهد الخديوى اسماعيل حيث حاول بدون جدوى القضاء على تجارة العبيد • وبعد أن تم تعيين جوردون لانجاز هذه المهمة فانه لم يقم بتنفيذ سياسة الجلاء وفضـــل البقاء فى داخل الخرطوم المحاصرة حيث كان يعتقد أن بامكانه التوصل الى تسوية مع المهدى وانهاء ثورته • وفشلت بعثة انقاذ موفدة من مصر فى الوصول اليه فى الوقت المناسب • وفى يناير ١٨٨٥ اقتحمت قوات المهدى الخرطوم وتم طعن جوردون بالحراب حتى الموت على سلالم بيت الحكومة •

ومات المهدى نفسه أثناء فرض الحصار على الخرطوم • ولكن جاء بعده على الحـــكم خليفته الذى ظل يحـــكم السودان على مدى ١٣ عاما الى أن تم استعادة السودان مرة أخرى بصعوبة بالغة على أيدى جيش أنجلو/مصرى بقيادة الجنرال كتشنر •

والآن وضعت المشكلة السودانية على الرف بصفة مؤقتة • اذ أصبحت قوات المهدى غير قادرة على اختراق مصر العليا وهو الأمر الذى كان يخشى منه فيما سبق • فالقوات البريطانية المتواجدة فى مصر والتى كانت قد بدأت فى اعادة تنظيم الجيش المصرى كانت قادرة على تولى مهمة الدفاع عن مصر ولكن انسحابها الفورى من مصر لم يكن أمرا واردا • وعلى كل حال فان الحكومة البريطانية والتى أصبحت برئاسة لورد حزب المحافظين سالزبرى المتسم بالبرود والحذر الشديد كانت لا تزال على استعداد لمحاولة التوصـــــل الى اتفاق مع السلطان والدول الأوربية يدور حول انسحاب بريطانى من مصر فى خلال سنوات قليلة بشرط الحفاظ على مصالح بريطانيا•

وقام سالزبرى بايفاد مندوبه السير دروموند وولف الى استانبول لكى يتفاوض مع السلطان ثم ذهب وولف ومبعوث السلطان الى مصر للاعداد لتسوية تنسحب بمقتضاهــا القوات البريطانيــة من مصر « فى خلال فترة ملائمة » • الا أن الدول الأخرى برئاسة فرنســا وروسيا كان تعارض بشدة اصرار بريطانيا على ضرورة أن يكون لها الحق فى العودة الى مصر كلما ارتأت ذلك وكما يحلو لها • وراح السلطان عبد الحميد يراوغ كالمعتاد • ولكن سالزبرى تشدد فى موقفه • وعلى الرغم من أن سالزبرى استمر فى اعطاء أولوية للابقاء على توازن القوى الأوربى نجد أنه كان يتوقع حدوث تدافع وتنافس على أفريقيا وأيضا على الأهمية الشديدة لمصر من حيث هى البوابة المؤدية الى الهند ومن حيث هى منفذ الخروج لنهر النيل • وفى حين أنه لم يتخل عن الاعتقاد الذى ورثه عن دزرائيلى بأن الابقاء على الامبراطورية العثمانية على قيد الحياة هو بمثابة أفضل حماية ضد التعديات والانتهاكات الروسية فى منطقة شرق البحر الأبيض المتوســـط نجد أنه بدأ ينظر الى الامبراطورية العثمانية على أنها مريضــة بشـــكل مميت وبالتالى بدأ يفكر فى مصر كبديل عن الامبراطورية العثمانية •

وفى مايو ١٨٨٧ قام وولف والمبعوثون الأتراك بالتنويه الى اجلاء الحامية البريطانية وجعل مصر أراضى محايدة • الا أن المادة الخامسة من الاتفاقية الأنجلو/تركية التمهيدية عدم انسحاب القوات البريطانية « اذا كان هناك ما يدل على ظهور أخطار فى الداخل أو الخارج » • فوجد عبد الحميد نفسه واقعا فى مأزق • فاذا هو وافق على التصديق على الاتفاقية سيكون ذلك بمثابة سابقة أمام الدول الأخرى لكى تحتل أجزاء من امبراطوريته وبعدئذ تطالب بحقها فى الرجوع اليها مرة أخرى قبل الجلاء عنها • واذا رفض التصديق على الاتفاقية فانه يكون فى الواقع قد ألغى سيادته على مصر من الناحية الأسمية أو الشكلية • وفى نهاية الأمر اتخذ قرارا برفض الاتفاقية

وبذلك فان أهم جزء بالعالم العربى قد ضاع من امبراطوريته ·

وابتهج كرومر من قرار السلطان ـ اذ شعر أنه أصبح بمقدوره احكام قبضته على الشئون المصرية مما سيجعل مصر قادرة على تسديد كافة الديون · ولقد كتب فى مذكراته عقب تركه العمل فى مصر « كل التاريخ كان هناك لكى يبرهن على أنه ما أن تضع دولة متحضرة يدها على دولة ضعيفة تمر بظروف بربرية أو شبه متحضرة فانها نادرا ما ترخى قبضة يدها » · ان الاحتلال البريطانى لمصر والذى كان عليه أن يستمر على مدى ٧٤ عاما جاء بطريق الصدفة تقريبا ـ اذ لم يتم التخطيط له أو التنبـؤ به · ولكن على الرغم من أن بريطانيا كانت تؤكد من وقت لآخر عزمها على الجلاء والانسحاب [يشير أحد التقارير الى أن وزراء عايدين أصدروا بيانات لا يقل عددها عن ٧٢ بيانا خلال فترة الاحتلال أعلنوا فيها أن الانسحاب وشيك الوقوع وعلى وشك أن يتم] فان البريطانيين بدأوا يستخفون بمصر ويفترضون أنها أصبحت مملوكة لهم تماما · ولم تكن مساحة مصر مطلية باللون الأحمر على الخريطة الا أن أى تلميذ بريطانى كان يدرك على نحو ما أنها مطلية باللون الأحمر ولم يعد أحد يصدق أن بريطانيا ستتخلى عن سيطرتها على البوابة الخاصة بامبراطوريتها فى آسيا وأفريقيا ·

وعلى كل حال فان سيطرة بريطانيا على مصر كانت أبعد ما تكون عن السيطرة المطلقة · فضم مصر الى الامبراطورية البريطانية كان أمرا غير وارد نظرا لأن الدول الأوربية بقيادة فرنسا قد أوضحت لبريطانيا أن ضمها لمصر يمكن أن يؤدى الى نشوب الحرب · وظل صندوق الديون العامة والامتيازات الأجنبية هى أدوات السيطرة الدولية على الشئون المالية فى مصر · ومرت ٢٢ عاما قبل أن يسوى « الاتفاق الودى لعام ١٩٠٤ » عددا من الخلافات البارزة بين الدولتين الاستعماريتين فى أفريقيا وآسيا [وقد مهد هذا الاتفاق

السبيل أيضا لظهور التحالف الأنجلو/فرنسى ضد ألمانيا فى الحرب العالمية الثانية] • وبصفة خاصة نجد أن الاتفاق الودى لعام ١٩٠٤ قد اشترط أن تتخلى بريطانيا عن حقوقها ومصالحها فى مراكش [مما مهد الطريق أمام احتلال فرنسا لمراكش بعد مرور سنوات قليلة] على أن تتخلى فرنسا عن حقوقها ومصالحها فى مصر مع الموافقة على عدم تحديد وقت محدد لفترة الاحتلال البريطانى لمصر • ولم يتم الغاء صندوق الديون العامة ولكن تم التخفيض من سلطاته بشكل كبير •

ولقد وصف اللورد ملنر Milner — وهو حاكم عسكرى بريطانى آخر — الحكم البريطانى بمصر بأنه « حماية مقنعة على مصر » — فهو نظام كان كرومر يحكم به مصر من وراء ستار مقدم بمعرفة الخديوى وحكومته التى كانت تضم مستشارين بريطانيين فى كافة الوزارات • وكانت هناك خاصيتان رئيسيتان فى تفكير كرومر : فهو فى النواحى السياسية كان استعماريا خبيثا وفى الشئون المالية والاقتصادية كان ليبراليا مؤمنا بعدم التدخل الحكومى فى الشئون الاقتصادية • ومن حسن حظه أنه كان من السهل الربط بين هاتين الأيديولوجيتين فى مصر • ولم يكن يعتقد أن المصريين قادرون على حكم أنفسهم بأنفسهم بل ولن يقدروا على ذلك فى أى وقت من الأوقات مستقبلا • وكثيرا ما كان يردد القول بأن المصريين « عنصر بشرى تابع وخاضع وذليل بطبيعته وذلك بعكس العنصر الأنجلو/سكسونى الذى يعتبر « جنسا حاكما » • كما كان يعتقد أن الأرستقراطية التركية لديها بعض المقدرة على ممارسة الحكم الا أن أعضاءها متفسخون وفاسدون • ومثل العديد من زملائه كان يتعاطف مع الفلاحين • الا أنه كان يعتقد بأنه لا فائدة من وراء تدريبهم على ادارة شئونهم بأنفسهم — وبالتالى فان النقود التى أنفقت على تعليمهم عند مستوى الحد الأدنى كانت بمثابة تبذير خطير للأموال • وكان لا يشك فى أن مصر سوف تستفيد بكل تأكيد

من اضفاء الطابع الأوربى على كافة مظاهر الحياة رغم أنه أدرك فى أسف أن ذلك كان متعذرا ٠

وقد أدت التزامات مصر بتسديد ديون اسماعيل الى امتصاص ما يزيد على نصف ايراداتها مما تطلب الاقتصاد فى الانفاق الى أقصى حد [وهو أمر قد تلاءم مع مبادى جلادستون التى يؤمن بها كرومر]٠ وكان كرومر يؤمن من خلال تجربته فى الهند بنظرية جون ستيورات ميل ـ وهى النظرية التى تبناها جلادستون ـ التى تشير الى أن الضرائب ينبغى أن تكون منخفضة بقدر الامكان وذلك من أجل السماح للنقود بأن « تثمر » فى جيوب الطبقات المنتجة ٠ ولذلك لم تحدث زيادة فى الضرائب وذلك باستثناء الرسوم التعويضية المســـاواتية والتى فرضت وفق مبدأ التجارة الحرة على منتجات الصناعات المصرية التى يمكن جعل أسعارها متســـاوية مع أسعار الواردات الأجنبية ٠

وفى بطء ومعـــاناة وآلام استرد الاقتصـــــاد المصرى وضعه السوى ٠ وبحلول التسعينات من عام ١٨٩٠ بدأت الميزانيات تظهر فائضا صغيرا ٠ وكانت الدعامة الرئيسية فى تحسين الاقتصـــــاد تتمثل فى الزيادة فى انتاج المحاصيل الزراعية وخاصة محصـــــول القطن ٠ الا أن الزيادة شملت أيضا الحبوب والبقوليات والأرز ٠ وقد ساعد على ذلك نوع واحد فقط من الأشغال العامة التى كان كرومر على استعداد لدعمها : ألا وهو الرى ٠ اذ شرع المهندسون البريطانيون والذين حصل معظمهم على خبرات سابقة من العمل فى هذا المجال فى الهند فى اصلاح السدود والقنوات الكبيرة التى سبق أن شيدت فى عهد محمد على واسماعيل علاوة على التوسع فى نظام الرى ٠ وقد توجوا أعمالهم بانشاء سد جديد عند أسوان فى مصر العليا ٠ وقد استكمل انشاء هذا السد فى عام ١٩٠٢ وتم تعليته لمسافة أعلى فى عام ١٩٠٧ ٠ وبحلول عام ١٩١٢ وفر هذا السد

كميات هائلة من الماء من خلال جعل تدفق الماء منتظما فى نهر النيل ما بين موسم الفيضان فى الخريف وباقى شهور السنة .

ونظرا لأن كرومر ومستشاريه لم يتمكنوا من خفض الضرائب وفقا لما كانوا يرغبون فيه فانهم شرعوا فى تحسين أحوال الفلاحين من خلال استبدال السخرة بالعمالة المدفوعة الأجر وحظر استخدام الكرباج . وقد تحقق هذا تدريجيا خلال العشر سنوات الأولى للحكم البريطانى .

ومما لا شك فيه أن مصر أصبحت تحكم على نحو أفضل من ذى قبل . اذ أصبحت القرارات الحكومية تنفذ بشكل طبيعى . كما كان يتم خلق ادارة مدنية غير فاسدة الى حد كبير . ومن أهم العوامل فى هذا الشـأن هو أن الموظفين البريطانيين العاملين فى الادارة المدنية الأنجلو/مصرية كانوا يجمعون المعلومات والبيانات الاحصائية التى بدونها يتعذر أن تصبح الحكومة فعالة . وأصبحت مصر هى الوحيدة فى داخل الامبراطورية العثمانية التى تجرى بها بيانات احصائية .

وباستثناء عـدد قليل من الأعضـاء البرلمانيين الليبراليين والراديكاليين فى وستمنستر نجد أن الشعب البريطانى الذى تشجع من خلال تدفق عشرات الآلاف من السياح على زيارة مصر فى فصل الشتاء لم تساوره الشكوك فى أن المصريين يشـكرون كرومر على الجهود التى يبذلها لصالحهم . أما ردود الفعل لدى المصريين فكانت متعددة ومعقدة . فالخديوى ووزراؤه ومعهم الطبقة الحاكمة التركية/الشركسية التى ينبع منها الوزراء عادة كانوا سعداء لاستردادهم لنفوذهم ولأنه قد تم تجنب الاضطرابات الوطنية الراديكالية . وكان يشـاركهم فى هذا الرأى أولئك الذين اجتاحهم الحماس الوطنى المؤقت لصالح ثورة أحمد عرابى . اذ نجد أن محمد عبده وهو أهم المؤيدين المدنيين لأحمد عرابى قرر التعاون مع المحتلين البريطانيين

عندما سمح له بالعودة من المنفى فى عام ١٨٨٤ . ووافق على أن يصبح قاضيا وبدأ يعمل من أجل إصلاح وتحديث التعليم الإسلامى فى مصر . وكان كرومر يحبه ويحترمه الا أنه كان يشعر أن مهمته صعبة للغاية ومستحيلة .

واذا كانت الطبقة الحاكمة المصرية قد وافقت بصفة مؤقتة على تواجد القوات البريطانية إلا أنها كانت أقل حماسا ازاء ما أسماه نوبار باشا وهو أول رئيس وزراء بعد عام ١٨٨٢ « بالاحتلال الادارى » . ولقد حاول نوبار الاحتفاظ بالسيطرة المصرية على الشرطة المدنية ولكنه فشل فى هذا الشأن . وكذلك فشل رياض باشا وهو الذى تولى منصب رئيس الوزراء بعد نوبار - فى منع الاشراف الأوربى على الجهاز القانونى . اذ كان يتم تعيين المفتشين الأوربيين فى المحاكم الوطنية . وكان كرومر عنيدا ومتصلبا بشأن هذين المجالين . وحقيقة الأمر أنه فى داخل كيان كل شخص مصرى مهما كانت مكاسبه المادية من وراء الاحتلال البريطانى كبيرة ، كانت توجد درجة معينة من الاستياء ضد الحكم الذى تمارسه دولة أوربية مسيحية . وأصبح من المحتم أن يتزايد هذا الاستياء بمرور السنين .

وفى خلال السنوات الأولى من الاحتلال البريطاني كان يوجد تزايد كبير فى القلاقل وأعمال اللصوصية وقطع الطرق بالمناطق الريفية . فشعر كرومر بالإرتباك والحيرة والذعر لأنه كان يعشق النظام الجيد . وكانت هذه القلاقل فى بعض نواحيها بمثابة رفض شعبى للاحتلال . الا أنها كانت تعكس أيضا انهيار الأسلوب التقليدي الذى يتم بمقتضاه تعيين العمد بالقرى بمعرفة الحكومة من أجل الحفاظ على القانون والنظام فى الريف بالتعاون مع القضاة الشرعيين الاسلاميين . فعلى الرغم من أن العمد كانوا يتسمون فى بعض الأحيان بالاستبداد والقسوة الا أنهم كانوا يعكسون بوجه عام وجهة النظر المحلية . وكان ذلك أسلوبا يمكن للفلاح أن يفهمه .

وصحيح أن المبادىء العلمانيـة الأوربيـة للقانون كانت قد أدخلت الى مصر قبل الاحتلال البريطاني بفترة طويلة · اذ أن محمد على قد بدأ في اتخاذ هذا الاجراء الذى تم التوسع فيه لدى ادخال قانون العقوبات العثمانى الجديد الذى يرتكز على القانون الفرنسى فى عام ١٨٦٣ · وبحلول عام ١٨٨٠ أصبحت الشريعة الاسـلامية مقصـورة على مسـائل الأحوال الشخصية [مثل الطلاق والميراث ··· الخ] والقتل · وكانت المشكلة الآن هو أن هذه المبادىء كان يتم تطبيقها على نطاق واسع تحت رعاية وحماية النفوذ الاستعمارى المسيحى ·

وفى عام ١٨٨٣ تمكن اللورد دوفرين من اقناع توفيق باصدار قانون أساسى دستورى ينص على منح حق الاقتراع الشامل للمصريين الذكور الذين يزيد عمرهم على عشرين عاما · ولكن كرومر كان يحرص على أن تظل المجالس المنتخبة التشريعية والقروية ضعيفة وعاجزة · حيث أنه ـ كما رأينا ـ لم يكن يؤمن بمقدرة المصريين على أن يحكموا أنفسهم ولذلك كان يعتقد أن المؤسسات النيابية لا تتلاءم على الاطلاق من أجل حكومة خاصة « بعنصر بشرى خانع وخاضع » ·

بل وكان كرومر يعتقـد أنه لا فائدة ترجى من وراء تدريب الصفوة من المصريين لكي يتولوا المناصب التنفيذية العليا ـ وحقيقة الأمر أن عدد المصريين الذين يشـغلون منـاصب عالية بالادارات الحكومية خـلال فترة حكمـه لمصر والتى دامت ٢٤ عاما قد هبط وتنـاقص كثيرا بينما تزايد عدد الانجليز وغيرهم من الأوربيين الآخرين · وتبعا لذلك فانه لم يكن يهتم بنشر التعليم الذى يزيد عن المرحلة الالزامية الأولية الابتدائية · فهو من خلال تجربته فى الهند قد توصل الى أن التوسع فى التعليم العالى بالأسلوب الغربى يخلق طبقة من الغوغاء الساخطين الراغبين فى الحصول على المناصب

العليا وهى طبقة تنفصل عن الشعب الذى بزغوا منه • ولقد أشار فى مذكراته قبل فترة قصيرة من تركه منصبه قائلا « اننى أبذل كل ما فى جهدى من أجل تدعيم التعليم الابتدائى والتعليم الفنى • فأنا أريد لجميع أفراد الجيل التالى من المصريين أن يكونوا قادرين على تعلم القراءة والكتابة • وأنا أيضـا أريد أن يصبح لدى أكبر عدد ممكن من النجارين والبنائين والعمال الذين يطلون الجدران بالحصى والمصيص ••• الخ • وأنا لا أستطيع أن أفعل أى شىء أكثر من ذلك » • وللأسف نجد أن هذه الجهود المتواضعة فى مجال التعليم لم تحقق نجاحا كبيرا • فلدى تقاعده عن العمل كان عدد الذين يتلقون التعليم الابتدائى حوالى ١½٪ من مجموع السكان فى مقابل ١٪ فى عام ١٨٧٣ • ولذلك يمكن القول أن الغالبية العظمى من الشـــعب المصرى ظلت من الأميين الذين لا يعـرفون القـراءة والكتابة •

وألغى كرومر سياسة محمد على وسياسة اسماعيل التى كانت تحرص على تقديم التعليم المجانى فى المدارس الحكومية والجامعات • فسياسته فى عدم التدخل الحكومى فى الشئون الاقتصادية جعلته يؤمن بأنه ليس من الواجب على الدولة أن تقـــدم التعليم لأفـراد الشعب • كما أن ذلك كان يتمشى أيضا مع أهدافه العامة الرامية الى توفير النفقات • وكانت النتيجة أن أصبح التعليم العــالى هو التفوق الذى يتميز به الأغنياء • وكان كرومر ـ شأنه فى ذلك شأن الغالبية العظمى من زملائه البريطانيين المتواجدين فى مصر ـ غير متعاطف مع الاقتراحات التى تدعو الى انشاء جامعة فى مصر • حيث كان يعتقد أن الجامعة من شأنهـا أن تفجر الروح الوطنيـة الخطيرة • الا أنه لم يتدخل فى شئون معاهد التعليم العليا التى ظلت متواجدة عقب انتهـاء حـكم اسماعيل : مثل معاهد الطب والهندسة والقانون • ومنذ أن أصبحت مجموعة القوانين المصرية الجديدة مرتكزة على القانون الفرنسى صار المدرسون بالمعهد العالى

للحقوق من الفرنسيين • ونظرا لعدم وجود جامعة أصبح هذا المعهد هو مركز النشاط للمشاعر الوطنية والقومية •

والجانب الآخر لاهمال التعليم فى عهد كرومر هو أنه لم تكن هناك محاولة منهجية لفرض الثقافة الانجليزية على مصر بالأسلوب الذى استخدمه الفرنسيون بهدف خلق صفوة مفرنسة من الناس فى ممتلكاتهم المتواجدة بشمال أفريقيا • فالنظام التعليمى فى مصر كان يتم وضعه بشكل جزئى وعلى نحو تدريجى تحت السيطرة البريطانية ووفقا للطابع الانجليزى • وعلى الرغم من أن استخدام اللغة الانجليزية أصبح أكثر انتشارا على نحو حتمى وعلى الرغم من أن الشباب المصرى الطموح كان بحاجة لاكتساب هذه اللغة الا أن الطبقات العليا بالمجتمع المصرى ظلت تتحدث باللغة الفرنسية • والسبب فى ذلك يرجع الى « المحمية المقنعة » ويرجع أيضا الى أن كرومر كان يعتقد أن بذل أية جهود ترمى الى تحويل المصريين الى انجليز زائفين لن تأتى بالنتيجة المرجوة •. وكان كرومر يحتقر المصريين القلائل الذين تمكنوا من الحصول على تعليم فى الجامعات بالخارج وأصبحوا متخذين الطابع الأوربى •

ولذلك كان من الطبيعى ألا يتدخل كرومر فى نظام التعليم الاسلامى الذى كان متواجدا فى الكتاتيب أو مدارس تحفيظ القرآن الكريم بالقرى وفى المدارس الملحقة بالمساجد والتى كان لها مستوى التعليم الثانوى • ولو كان قد تدخل فى شئون هذه المدارس لكان قد أثار ردود فعل عدائية للغاية • ومرة أخرى نقول أن مبدأ عدم التدخل الحكومى فى الشئون الاقتصادية قد حقق له أغراضه • وفى حين أنه كان يحترم القوانين الاسلامية الا أنه أشار الى أن الاسلام من حيث هو نظام اجتماعى تقدمى كان فاشلا للغاية • وكثيرا ما كان يقول أن مصر لا يمكن لها أن تصبح مجتمعا متحضرا بالفعل تحت ظل الاسلام — فوضع المرأة وحده يجعل ذلك أمرا مستحيلا —

الا أنه لم يكن يرغب للمصريين أن يتركوا دينهم الاسلامى • وكان يشعر أن الشخص المصرى المكتسب للطابع الأوربى والذى يشعر نحوه بالكره الشديد « كان بوجه عام مؤمنا بنظرية اللا أدرية » (١) وفى حين أنه كان متعاطفا مع الجهود التى يبذلها الشيخ محمد عبده ـ والذى كان قد أصبح هو المفتى للديار المصرية ـ لاصلاح وتحديث نظام التعليم فى جامع الأزهر الكبير بالقاهرة الا أنه كان واثقا من أن هذه الجهود عديمة الجدوى « لأن الاسلام اذا أدخل عليه تعديلات أو اصلاحات لا يصبح اسلاما بعد ذلك » •

وكثيرا ما كانت فاشستية كرومر متخذة الطابع السلبى وليس الايجابى من حيث التعبير عنها • فهو كان يفضل عدم التدخل الحكومى فى الشئون الاقتصادية على الاجراءات الحكومية الحازمة • وكان يعتبر مصر دولة زراعية بطبيعتها وأن الفلاح المصرى ممتاز للغاية وأفضل من الفلاح الهندى • وأن الفلاح المصرى اذا حصل على مساحة كافية من الأراضى وتمتع بضرائب منخفضة فان ذلك يؤدى الى زيادة انتاجيته الى درجة كبيرة • وكان يعتقد أن طموح محمد على ازاء تحويل مصر الى دولة صناعية هو طموح غير واقعى لأن ذلك من شأنه أن يتطلب تعريفات جمركية وقائية عالية ويتطلب برنامجا موسعا للتدريب الصناعى للمصريين وبالطبع كان محمد على يرفض هذه الأمور •

ومع الادارة المالية الحكيمة أصبحت مصر مزدهرة فى نهاية القرن التاسع عشر وأصبح الدخل الحقيقى للفرد أعلى مما كان عليه فى أى فترة لاحقة • الا أن هذا كان يخفى وراءه بعض نقاط الضعف الخطيرة • فالاعتماد على محصول واحد ـ وهو القطن ـ كان أمرا خطيرا للغاية • كما كانت هناك مشكلات فنية تتعلق بانفجار الأرض

---

(١) اللاأدرية : الاعتقاد بأن وجود الله وطبيعته وأصل الكون هى كلها أمور لا سبيل الى معرفتها ـ (المترجم) •

بالمياه أكثر من اللازم بسبب النقص فى عمليات الصرف • هـذا بالاضافة الى ديدان القطن التى تقاعست الحكومة الشديدة البخل فى مقاومتها • وعلاوة على ذلك فانه على الرغم من أن كرومر كان يأمل فى خلق طبقة كبيرة من صغار الفلاحين بحيث تكون بمثابة الحصن المحافظ على المجتمع فان الاجراءات الحكومية لم تستطع منع تراكم الثروات فى أيدى أولئك الناس المتمتعين بالقوة الاقتصادية بالفعل ألا وهم كبار ملاك الأراضى بينما كان الفلاحون يغوصون أكثر من ذى قبل فى مستنقع الديون • فبعد انقضاء ٢٤ عاما من نظام حكم كرومر نجد أن ٨٠٪ من الناس الذين امتلكوا أراضى فى مصر كانوا يمتلكون ٢٥٪ فقط من المساحة الكلية للأراضى بينما يمتلك ١٪ من الناس أكثر من ٤٠٪ من مجموع مساحة الأراضى •

ولقد أشار الوطنيون المصريون فيما بعد الى أن كرومر تعمد التخطيط من أجل جعل مصر بمثابة مزرعة شاسعة للقطن وبحيث تنتج المواد الخام الرخيصة اللازمة لمحالج القطن فى لانكشاير • الا أنه لم يكن لديه مثل هذا التصميم الواعى ـ اذ كان هذا بالنسبة له مجرد دور طبيعى يؤديه « عنصر بشرى خانع » • وعلاوة على ذلك فانه كان مستمرا فى اتباع سياسات اسماعيل فى نواح كثيرة رغم أنه لم يكن يرغب فى الاعتراف بذلك •

وفى عام ١٨٩٢ انتقل الخديوى توفيق الى رحمة الله • وجاء بعده ابنه عباس حلمى البالغ من العمر ١٧ عاما والذى كان يتلقى تعليمه فى أوربا • وفى بادىء الأمر اعتقد كرومر أن عباس سيكون لين العريكة مثل توفيق • الا أن عباس كان يتسم بالذكاء والنشاط والفاعلية • وكان قريب الشبه من جده اسماعيل وعلى نحو يفوق التشابه بينه وبين والده • وسرعان ما حاول تأكيد ذاته وشخصيته بأن رفض اختيار كرومر للوزراء وانتقد مستوى الجيش المصرى الذى يتلقى تدريبـــاته على أيدى البريطانيين • ونظرا لأن توليه

للعرش قد تزامن مع ظهور المشاعر الوطنية الجديدة التى ظهرت عقب انهيار ثورة عرابى فانه قد بدأ ينظر الى نفسه على أنه يقود تحديا للحكم البريطانى · فشعر كرومر بالذعر الشديد ·

ولم يكن هناك داع لأن يشعر كرومر بالذعر · لأن عباس كان يأمل فى الحصول على المعاونة من استانبول ـ حيث كانت مصر ما زالت من الناحية الاسمية جزءا من الامبراطورية العثمانية · ولكن السلطان عبد الحميد ـ كالمعتاد ـ لم يكن يقدم سوى وعود شفوية بالمساعدة لأنه لم يكن على استعداد على الاطلاق لأن يعرض علاقاته مع بريطانيا والدول الأوربية الأخرى للخطر · وصحيح أن هذه الدول الأوربية الأخرى لم تكن ترحب بالاحتلال البريطانى لمصر الا أنها لم يكن لديها الرغبة فى أن تشاهد أى احياء للاستقلال المصرى · وكان عباس يأمل أيضا فى أن عودة حكومة جلادستون الليبرالية للحكم قد يؤدى الى حصوله على المساعدة والعون لأن الليبراليين كثيرا ما أظهروا تفهما للروح الوطنية المصرية على نحو يفوق المحافظين · ولكن وزير خارجية جلادستون وهو اللورد لوزبرى كان رجلا استعماريا ليبراليا مما جعله يقدم كل التأييد والعون لكرومر · وأذعن عباس بعد أن أدرك أن الضغوط قد تمارس ضده لارغامه على التنازل عن العرش · وهكذا استمر فرض « الحماية المقنعة » على مصر بينما يقوم كرومر بجذب الخيوط من خلف الستار ·

عندما انتقد عباس نوعية الجيش الأنجلو/مصرى غضب كتشنر أو السردار على الجيش [القائد العام للجيش] وهدد بتقديم استقالته · ومنذ تسريح الجيش فى عام ١٨٨٢ كان الضباط البريطانيون قد قاموا بتدريب قوة عسكرية جديدة تضم حوالى ١٥ ألف جندى من بينهم خمسة كتائب سوداء من رجال القبائل السودانية الجنوبية [وتحملت التكاليف الميزانية المصرية علاوة على

مساهمة اضافية فى نفقات اقامة قوات الاحتلال البريطانية فى مصر] ·
وكان الهدف الأول من وراء انشاء هذا الجيش الجديد هو المساعدة فى الدفاع عن حدود مصر · ولكن بحلول عام ١٨٩٢ بدأ كل من كرومر والحكومة البريطانية فى الاعتقاد بأن اعادة غزو السودان يعتبر أمرا حيويا · اذ كانت ايطاليا قد اخترقت أثيوبيا وراحت تهدد بالسيطرة على الميـاه فى أعالى النيـل · ولذلك بعث كرومر بتقرير الى لندن أشار فيه الى أن « أية قوة تستولى على أعالى النيل يمكن لها أن تسيطر على مصر من خلال قوة موقعها الجغرافى » ·

وبدأ الغزو الجديد للسودان فى عام ١٨٩٥ · وفى حذر وفى اقتصاد فى النفقات تقدم جيش كيتشنر المدعم بـ ٨ آلاف جندى بريطانى الى أعالى النيل وتمكن أخيرا من طرد قوات المهدى الى خارج العاصمة الخاصة بهم أم درمان ·

وظهرت المشكلة الصعبة التى تتعلق بالوضـع المستقبلى للسودان · فالغزو الجديد للسودان قد وجه بمعرفة بريطانيـا ولكنه تم تنفيذه باسم الخديوى وبمعرفة القوات المصرية وبنفقات من الميزانية المصرية · ولكن لم يكن هناك تفكير فى اعادة الأوضاع الى ما كانت عليه قبل نشوب ثورة المهدى · وكانت النتيجة هى اصدار قرار بتشييد حكم مشترك أنجلو/مصرى · واعتبر ذلك بمثابة انجاز رائع للبراجماتية البريطانية · ونجح الحكم المشترك الى حد كبير على مدى بضعة سنوات · ومن مزايا هذا الحكم أنه منع أسلوب الامتيازات الأجنبية Capitulations من الامتداد الى السودان · الا أن المساواة من الناحية النظرية بين بريطانيا ومصر فى حكم السودان لم تكن سوى واجهة أو مظهر كاذب : فالمستويات العليا بالوظائف الادارية كانت كلها فى أيدى بريطانية كما أن الحاكم العام الذى كان يتم تعيينه بمعرفة الخديوى بعد استشارة البريطانيين كان دائما رجلا انجليزيا · ولم يكف المصريون أبدا عن

مطالبتهم بحكم السودان • وبعد أن حصل المصريون على استقلالهم عن بريطانيا أصـــبحت أكثر المســائل المثيرة للنزاع بين بريطانيا ومصر •

والنهضة الوطنية فى مصر والتى كان الخديوى عباس يأمل دون جدوى من الاستفادة منها قد تعاظمت فى خلال الســـنوات الأخيرة لكرومر وقبل تقاعده فى عام ١٩٠٧ • وكان زعيم هذه النهضة الوطنية شاب عاطفى نحيل يسمى مصطفى كامل • وهو شأنه شأن العديد من الوطنيين الآخرين قد درس القـــانون فى القاهرة وفى فرنســـا التى حصل فيها على كل التشجيع والتأييد لآرائه • وكان كرومر يميل الى التغاضى عن الوطنيين على أساس أنهم عديمو الأهمية حيث كان الوطنيون فى مصر لهم الخصائص التى يتمتع بها مثقفو الصالونات الذين يتميزون بالفصاحة اللغوية العالية ولكنهم يعجزون عن تقديم المقترحات العملية التى تواجه احتياجات جماهير المصريين العاديين حيث كانوا منفصلين عن مشاعر رجل الشـــارع المصرى أو الجمهور العـــادى • وقد نشـــأت نقاط الضعف هذه عن نوعية وأسلوب التعليم الذى تلقوه وعن « الحماية المقنعة » التى كانت تحرمهم من أى أمل فى المشاركة فى الحكم •

وكان الوطنيون المصريون فى حالة من التشويش والارتباك فيما يتعلق بأهدافهم • اذ كان مصطفى كامل منجذبا نحو حركة الجامعة الاسلامية Pan-Islamic من حيث أنهما أفضل ســلاح ضـــد الاحتلال البريطانى • وحصـــل على بعض التشجيع السرى والأموال لصالح حزبه الوطنى المصرى من السلطان العثمانى • الا أن عدم منطقية الربط بين حركة الجامعة الاسلامية وبين القومية المصرية قد تعرت وانكشفت فى عام ١٩٠٦ عندما قام عبد الحميد الذى كان يشيد خط سكة حديد عبر شبه الجزيرة العربية الى المدينة المنورة بانزال قوات عسكرية عند رأس خليج العقبة وطالب بالحصول على

شبه جزيرة سيناء كلها • فقام مصطفى كامل وحزبه بشن حملة دعائية قوية تأييدا للسلطان • وترك لكرومر مسألة الاصرار على أن سيناء تنتمى لمصر • وكان كرومر مهتما بحماية القناة من الأتراك ولكنه كان هو – وليس الوطنيين التابعين لمصطفى كامل – الذى تبنى قضية الحفاظ على الأراضى المصرية وعدم تجزئتها •

وسمح كرومر للصحافة بأن تصبح حرة ومزدهرة فى مصر • اذ كان لديه مسحة ليبرالية • الا أنه لم يكن يعتقد أساســـا أن المقالات الافتتاحية التى تتقد بالحماس الوطنى [لقد قام مصطفى كامل بتأسيس الجريدة الخاصة به فى عام ١٩٠٠] تشكل تهديدا على نظام حكمه • وكانت النتيجة أنه أصبح يوجد فى مصر حرية للكلمة الشفوية والمكتوبة أكبر مما هو متواجد فى الأقاليم العثمانية العربية • وتم انشاء جريدتين كبيرتين فى القاهرة بمعرفة عرب مسيحيين من سوريا •

ولم تكن الصحافة مقصورة على معاداة البريطانيين بل ولم تكن كلها نشيطة فى تأييدها السياسى للوطنيين التابعين لمصطفى كامل • اذ كان بعضها متعاونا مع العدو الذى يحتل البلاد حيث كان يستفيد من الاحتلال البريطانى ويرى أنه لا منفعة من وراء انتهاء الاحتلال • ولكن كان هناك مصريون معتدلون يحظون بتأييد كرومر ومن بينهم الشيخ محمد عبده الذى انتقل الى رحمة الله فى عام ١٩٠٥ وتلاميذه الروحانيين فى حزب الأمة • حيث كانوا يشككون فى آراء مصطفى كامل السياسية وخاصة أثناء حادث ميناء العقبة • وكان سعد زغلول من بين المصريين المعتدلين أيضا • وكان محاميا شابا • وسمح له كرومر بأن يصبح رئيسا للادارة التعليمية التى أنشئت حديثا • ولدى مغادرة كرومر لمصر امتدح سعد زغلول على أساس أنه النموذج المثالى للرجل الوطنى المعتدل • الا أن سعد زغلول أصبح بعد ذلك رمزا للوطنية المتشددة والعدو الصلب العنيد لبريطانيا •

وفى عام ١٩٠٦ بدأت حركة مصطفى كامل فى الانحسار على الرغم من شعبيته وجاذبيته الشديدة لجماهير الناس · وبعدئذ وقع حادث أدى الى توحيد المشاعر الوطنية لدى كافة المصريين · وعلى الرغم من أن هذا الحادث لم يكن خطيرا للغاية فى حد ذاته الا أنه كان بمثابة نقطة تحول فى تاريخ الاحتلال البريطانى لمصر · وربما يمكن مقـــارنة آثاره بتأثير حـــركة مذبحة أمريتسار Amritsar فى عام ١٩١٩ على الاستقلال الهندى · ففى قرية دنشواى ـ وهى قرية صغيرة فى الدلتا ـ تم مهاجمة مجموعة من الضباط البريطانيين الذين يقومون بالصيد بمعرفة الفلاحين الغاضبين الذين اعتقدوا أن البريطـانيين يقومون بقتل الحمـام الذى هو الغـذاء الرئيسى المحلى الخاص بهم · وذهب ضابط لتقديم العون والمساعدة ولكنه مات بسبب تعرضه لارتجاج فى المخ واصابته بضربة شمس · وحاول فلاح مساعدة ذلك الضابط ولكنه وجد نفسه قد أحيط بمجموعة من الجنود البريطانيين الذين افترضوا أنه قد اغتال الضابط فانهالوا عليه بالضرب حتى الموت ·

واعتقد كرومر وزمـلاؤه ـ وأيدتهـم فى ذلك الصـــــحافة البريطانية ـ أن ذلك الحادث قد نجم عن التعصب المتعلق بالخوف من الأجانب والذى كان يجتاح البلاد والذى كان يروج له الوطنيون المصريون · وأصبح الأمر يتطلب تنفيذ عقاب صارم ليكون عبرة للآخرين · وأصـــدرت محكمة خاصة قرارا بشنق أربعة ومعاقبة ١٧ آخرين بالسجن أو الجلد · وتم تنفيذ الأحكام فى داخل القرية مع ارغام الفلاحين من أهالى القرية على مشاهدة تنفيذ الأحكام · واجتاح الغضب والصـــدمة المصريين بل واجتاح الغضب أولئك المصريين الذين كانوا قد بدأوا يتقبلون التواجد البريطانى · فأعطى ذلك دافعا نهائيا قويا للحركة الوطنية · وعندما تقاعد كرومر وترك منصبه فى السنة التالية راحت جماهير الشعب المصرى الصـامتة ترقبه أثناء توجهه الى محطة القاهرة ومن خلفه القوات البريطانية ·

وظلت سمعة كرومر عالية فى بريطانيا • وتقبل الجميع وصفه لانجازاته المتسم بتهنئة الذات رغم أن بعض المراقبين أدركوا أنه قد أصبح منعزلا على نحو متزايد ومحيطا نفســه بأشياء متواجدة فى خياله فحسب مثل أى أوتوقراطى أو حاكم مطلق مستبد • وفى عام ١٩٠٦ قفزت حكومة ليبرالية اصلاحية الى السلطة فى بريطانيا • وأصبح من الواضح أن الوقت قد حان لحدوث تغير •

ووقع الاختيار على الدون جورست Eldon Gorst ــ لكى يحل محل كرومر فى مصر ــ وهو دبلوماسى كبير كان قد أمضى حوالى عشرين عاما فى مصر وكان قد قاد بصفته مستشار مالى للحكومة المصرية المفاوضات مع فرنسا بشأن الاتفاق الدولى الودى لعام ١٩٠٤ Entente Cordiale وكان ضئيل الجسم وطموحا للغاية ونابغة من الناحية الأكاديمية • وكان احساسه الخارجى بالتفوق يخفى وراءه شعورا داخليـــا بعدم الثقة فى النفس • ولم يكن له نفس الحضور أو الطلعة البهية التى يتمتع بها كرومر • ولكنه ــ على العكس من كرومر ــ كان يتحدث باللغة العربية فى طلاقة ممتازة • ولم يكن الموظفون الأنجلو/مصريون الآخرون يحبونه كثيرا •

ولقد ابتهج جورست من تعيينه فى ذلك المنصب • وكتب فى هذا الشأن « لا يوجد مكان فى جميع أرجاء الامبراطورية البريطانية يتمتع فيه أى شخص شاغل لمنصب كبير بقدر أكبر من حرية التصرف التى يتمتع بها المندوب السامى البريطانى فى مصر أو القنصل العام فى مصر • فالقنصل العام فى مصر يعتبر هو الحاكم الحقيقى الفعلى فى البلاد حيث لا يعوقه برلمان أو شبكة من المجالس مثلما هو عليه الحال فى الهند ••• » • ولكنه بعد أن حل محل كرومر أدرك أن الأمر يتطلب احداث تغيير فى الاتجاه : ــ

« اننى أريد أن أجعل دورنا أكثر تعاطفا مع المصريين بوجه عام ومع المحمديين بصفة خاصة وذلك من خلال منع العنصر البريطانى

من معاملة المصريين بقســوة ومن خــلال فرض قيود على المتطوعين البريطانيين الجدد الذين يتطوعون سنويا ومن خلال تقديم تشجيع كبير لطبقة الموظفين المصريين وأخيرا وليس آخرا من خلال اعطاء مزيد من الطابع الوطني للنظام التعليمي » ٠

ولم يكن جورست يحاول انهاء الاحتلال البريطاني لمصر ولكنه كان يريد أن يجعل الاحتلال مقبولا أكثر من جانب المصريين وذلك بهدف اخماد الاهتياج والثورة الوطنية المصرية ٠ وشرع في تخفيض سلطات زملائه البريطانيين ـ مما أثار غضبهم ـ فصالح المديرين المصريين ٠ بل وحاول أن يبث الحياة في المجالس الاقليمية الخاملة الغارقة في ثبات عميق بهدف أن تصبح تلك المجالس بمثابة هيئات استشــارية للمديرين المصريين ٠ الا أن اســـتيراتيجية جورست الرئيسية كانت تتركز على اعادة السلطة للخديوى والتى كانت قد خفضت وأضعفت على أيدى كرومر ٠ وقد أدى تقاربه الودى مع عباس الى السماح للخديوى بأن يستبدل الوزراء الذين كانوا خاضعين لكرومر بوزراء آخرين يروقون له أكثر ٠ ولكن الخديوى لم يكن ديموقراطيا : اذ كان له نفس رأى جورست الذى يهدف الى تخفيض نفوذ الوطنيين الذين يتحدون سلطاته ٠ ولكن ومثلما يحدث فى كثير من الأحيان فان أى قدر ضئيل من التحرير كان يشـعل المطالب الوطنية ٠ اذ ازداد الاهتياج والتمرد وامتلأت الصحافة بفيض من الشتائم المنصبة على الوزراء المصريين والمحتلين الانجليز ٠ ووجد جورست نفسه مضطرا الى اللجوء الى قانون كبت الصحافة لعام ١٨٨١ والذى لم يجد كرومر مبررا لاستخدامه على الاطلاق لأنه كان يحتقر الصحافة الوطنية ويعتبرها مفيدة من حيث انها تجعل مصر الفتاة قادرة على التنفيس عن مشـــاعرها ٠ وفى المناطق الريفية ظهرت موجة جديدة من الجرائم المزعجة والتى كانت تعكس الى حد ما الروح الثورية للأمة المصرية ٠ وأدخل جورست قانون الترحيل والابعاد مما كان يسمح بوضع اللصوص وقطاع الطرق المشتبه فيهم

بدون محاكمة فى السجن فى مستعمرة جديدة أنشئت فى واحة الخارجة لهذا الغرض ٠

وعلى الرغم أن جروست كان بارعا من الناحية الأكاديمية الا أنه كانت تنقصه المهارة السياسية والخيال السياسى ٠ وكانت غلطته الثانية والتى حدثت فى عام ١٩١٠ تتمثل فى محاولته الرامية الى مد فترة امتياز شركة قناة السويس والتى تبلغ مدتها الأصلية ٩٩ عاما تنتهى فى عام ١٩٦٨ الى أربعين عاما أخرى فى مقابل حصة سنوية من الأرباح ٠ وحاول اقناع البرلمان الباهت بأن يوافق على العرض المقدم من شركة قناة السويس الا أن هذا التجمع الذى يضم وجهاء محافظين كان غير قادر على الموافقة على شىء من شأنه أن يثير غضب الرأى العام المصرى ٠ اذ كان ينظر بالفعل الى شركة قناة السويس على أنها بمثابة « دولة أجنبية فى داخل الدولة المصرية » ٠ ولم يجرؤ على التصويت لصالح الموافقة سوى عضو برلمانى واحد ٠ وبذلك أرغم جورست على التخلى عن هذه الفكرة ٠

وبعد مرور يومين قام شاب وطنى مصرى باغتيال بطرس غالى وهو النبيل القبطى الذى كان الخديوى قد اختاره ليشغل منصب رئيس الوزراء فى مصر ٠ وكان الشعب ينظر الى بطرس غالى على أنه عميل وجاسوس لصالح بريطانيا لأنه عندما كان وزيرا للعدل وافق على أن يكون رئيسا لمحكمة دنشواى ٠ وعندما رفض جورست تأجيل تنفيذ حكم الاعدام فى الشاب الذى اغتال بطرس غالى أصبح ذلك الشاب بطلا فى شوارع القاهرة ٠

وبدأ التدهور على سياسات جورست ٠ وظهر القلق والاهتياج فى بريطانيا ٠ وانتهز آرثر بلفور زعيم المعارضة لحزب المحافظين فى مجلس العموم البريطانى الفرصة لكى يلقى خطابا سياسيا فلسفيا أشار فيه الى أن « الشرقيين » بوجه عام غير قادرين على أن يحكموا أنفسهم بأنفسهم ٠ وقال الرئيس السابق الأمريكى

تيودور روزفلت الذى مر على مصر أثناء عودته من رحلة صيد أفريقية للبريطانيين « اما أن تحكموا مصر واما أن تخرجوا منها » •

وعلى الرغم من أن جورست لم يكن ينقصه حاسة التمييز السياسية أو العزم والتصميم الا أنه كان سيىء الحظ حيث كان يواجه معارضة شديدة من معظم زملائه البريطانيين • وبدأت فترة منصبه بأن شهدت انهيارا ماليا وركودا اقتصاديا حادا • وربما كان بمقدوره انقاذ الموقف لو كان قد احتفظ بقدر من النشاط والاهتمام الا أنه كان يواجه موتا مليئا بالآلام الشديدة بسبب اصابته بمرض السرطان فى عموده الفقرى • واضطر لأن يرحل فى عام ١٩١١ •

وكان كتشنر أو بطل أم درمان هو المرشح لأن يشغل هذا المنصب عقب رحيل جورست • وبعد أن رفضت حكومة العمال البريطانية تحقيق آماله بأن يصبح حاكما على الهند التى شغل بها منصب رئيس الأركان العسكرية فانه شعر بالامتنان لتعيينه فى منصب المندوب السامى البريطانى على مصر لأنه منصب لا يقل أهمية عن منصب الوالى على الهند • وسرعان ما بدأت تراوده الأفكار عن ضم مصر الى بريطانيا وبحيث يصبح هو أول والى على مصر والسودان • وكانت لديه نفس الأحلام التى راودت سيسيل جون روديس (١) : وهى أفريقيا مصطبغة باللون الأحمر على الخريطة من القاهرة الى رأس الرجاء الصالح •

وشددت الحكومة البريطانية فى تعليماتها على ضرورة استعادة الأمن والنظام وعدم احلال حكم عسكرى » محل الحكم المدنى • وأصبح أسلوب كتشنر فى الحكم أقرب الى أسلوب كرومر منه الى أسلوب

---

(١) سيسيل جون روديس : ١٨٥٣ ـ ١٩٠٢ وهو رأسمالى وادارى بريطانى فى اتحاد جنوب افريقيا • وأنشأ مؤسسة ردويس للمنح التعليمية والدراسية (المترجم) •

جورست • اذ قام باضعاف وتخفيض دور الخديوى خصمه القديم • وأعاد النفوذ لمستشاريه البريطانيين وزاد اعدادهم وكانت هيمنته وسطوته الشخصية ـ وهى سطوة شبه ملكية فى طابعها ـ أكبر من سطوة كرومر • لقد أزيل النقاب بالفعل وأصبح طابع الحماية واضحا على مصر •

ومن خلال سلسلة من الاجراءات القمعية نجح كتشينر فى بعثرة الوطنيين [الذين لم تنخفض روحهم المعنوية بسبب الموت المبكر للزعيم مصطفى كامل فى عام ١٩٠٨] الا أنه لم يكن يعتمد فقط على أعمال القهر والاجبار • اذ أظهر ـ مثل كرومر ـ تعاطفا مع الفلاحين • ولكنه اتخذ المزيد من الاجراءات العملية لكى يساعدهم وحاول التعرف على مشاكلهم الحقيقية من خلال قيامه بزيارات شبه ملكية الى الأرياف • وأصدر أوامره بانشاء أول وزارة للزراعة فى مصر والتى كان ينبغى انشاؤها منذ فترة طويلة • كما حاول حل مشكلة اغراق الدلتا بمياه الرى من خلال انشاء قنوات الصرف وحل مشكلة مديونية الفلاحين من خلال اصدار قانون جديد ينص على عدم تسديد أية أموال ـ من خلال اللجوء الى المحاكم ـ اقترضها فلاح يمتلك أقل من خمسة فدادين • فاستفاد من هذا القانون ٩٠٪ من مجموع الفلاحين • وكانت اقتصاديات هذا الاجراء محفوفة بالشكوك والريبة لأنه قد هدم البنك الزراعى الجديد الذى كان قد أنشىء من أجل انقاذ الفلاحين المساكين من قبضة المرابين • الا أن هذا الاجراء قد رفع على الأقل بصفة مؤقتة معنويات الفلاحين الذين أبدوا ارتياحا ازاء سياسات كتشنر •

وبعد أن تمكن كتشنر من تلطيف وتهدئة الريف ـ وهو أهم قطاع فى مصر من وجهة نظر كتشنر وكرومر ـ شعر أن بمقدوره أن يتجاهل طبقة المثقفين الحضريين المحتقرين • بل وشعر فى عام ١٩١٣ بمزيد من الثقة مما جعله يسمح باحداث بعض التغييرات

الدستورية بهدف ارضاء كل من الحكومة الليبرالية فى انجلترا والوطنيين المعتدلين فى مصر • اذ كون هيئة تشريعية جديدة منتخبة جزئيا وأعطاها بعض السلطات التى تتعلق بفرض الضرائب والحق في استجواب الوزراء • وكان هذا بمثابة اجراء ساخر لأن كتشنر ـ شأنه شأن كرومر أو بلفور ـ لم يكن يؤمن بقيمة وأهمية المؤسسات النيابية بالنسبة للشرقيين ولكنه شعر بأنه اجراء مفيد وملطف ومن شأنه أن يبعد أولئك الذين وصفهم بأنهم « متطرفين مزعجين » • ولكنه كان على خطأ فى رأيه • لأن سعد زغلول الوطنى العنيد المتشدد قد انتخب ليشغل منصب النائب الأول لرئيس الهيئة التشريعية الجديدة • وأظهر سعد زغلول أنه رجل برلمانى ماهر للغاية • وتحت قيادته وجهت الهيئة البرلمانية انتقادات شديدة للوزراء الحكوميين وشككت فيهم حتى أنهم شعروا بالارتياح لدى انتهاء الجلسة البرلمانية • ونشبت الحرب العالمية الأولى قبل الموعد المحدد لعقد الجلسة الثانية البرلمانية فأدى ذلك الى وضع نهاية للممارسة التجريبية المؤقتة للحكم الدستورى فى مصر •

وزعم كتشنر أن الفضل يرجع اليه فى اعادة النظام والأمن فى مصر • الا أن التجربة الأخيرة تظهر لنا أنه كان سعيد الحظ وأن حظه السعيد لم يكن من المقدر له أن يستمر • فلولا نشوب الحرب التى أعطت لبريطانيا مبررا لأن تتخذ موقفا أكثر تشددا ازاء النشاط لأصبح من الصعب احتواء الحماس الوطنى الجديد •

وعندما تسببت الحرب العالمية الأولى فى ادخال كل من بريطانيا وفرنسا وروسيا فى صراع ضد ألمانيا والنمسا/المجر كانت بريطانيا تأمل فى أن تظل تركيا واقفة على الحياد وبحيث يصبح فى الامكان ابعاد مصر عن ساحة الحرب • وكان الاهتمام الوحيد الاستراتيجى لدى بريطانيا هو الحفاظ على أمن قناة السويس • ولذلك فانه عندما قررت تركيا الانضمام الى دول أواسط أوربا

ـ وهى المانيا + النسما/المجر ـ فى نوفمبر ١٩١٤ أصبح الوضع فى مصر بمثابة مشكلة لأن مصر كانت لا تزال من الناحية الاسمية الشكلية جزءا من الامبراطورية العثمانية • وظهرت أصوات قوية فى الحكومة البريطانية [وهى الحكومة التى أصبح كتشنر يشغل فيها منصب وزير الحربية] تؤيد فكرة ضم مصر الى بريطانيا والغاء الأسرة الملكية لمحمد على • ولكن الموظفين البريطانيين المتبقين فى مصر اعترضوا على ممارسة حكم مباشر على مصر وفى الوقت الذى يتم فيه اتهام ألمانيا بتمزيق المعاهدات الدولية كانت وزارة الخارجية البريطانية تعارض تحطيم الوعود اللانهائية المتعلقة بعدم ضم مصر •

ولذلك لجأت بريطانيا الى التسوية أو الحل الوسط وهو اعلان الحماية على مصر فى ديسمبر ١٩١٤ وازالة السيادة العثمانية الملفقة على مصر • وكان الخديوى عباس الموالى للعثمانيين فى رحلة فى أوربا فتم ابلاغه بأنه قد تنازل عن العرش • وحل محله عمه حسين كامل المحبـوب الكبيـر فى السن • وكانت لا تزال توجـد بعض المشاكل : اذ لم يكن بالمستطاع منح حسين كامل نفس اللقب الذى يتمتع به سلطانه الجديد آلا وهو الملك جورج الخامس ملك انجلترا • ولذلك استقر الرأى على منح حسين كامل لقب : « السلطان حسين كامل » • وبحيث يخاطب بعبارة « حضرة صاحب السمو » بدلا من « حضرة صاحب الجلالة الملك » • وانتقل السلطان الجديد الى رحمة الله فى عام ١٩١٧ وحل محله أخـوه الأصغر الأمير أحمد فؤاد • ولم يكن أحمد فؤاد ملائما أو مقنعا ولكنه ـ وعلى الرغم من عدم كرهه للانجليز ـ كان قد تلقى تعليمه فى ايطاليا حيث كان يعيش هناك مع والده المنفى الخديوى اسماعيل • وكان أحمد فؤاد لا يعرف سوى قدر ضئيل من اللغة العربية ولم يبذل محاولات تهدف الى اخفاء عدم تعاطفه مع مصر ومشكلاتها •

ولم يكن قد تم التوصل الى حل لمشكلة ما اذا كانت قد أصبحت

جزءا من الامبراطورية البريطانية وما اذا كان المصريون قد أصبحوا رعايا بريطانيين أم لا . وكان كرومر المتقاعد يعتقد أن مصر قد أصبحت بالفعل واقعة فى داخل نطاق الامبراطورية البريطانية الا أن ذلك الأمر قد وضع فى حالة من التعليق المؤقت أو التعطيل المؤقت . فالبيان الذى ينص على وضع مصر تحت الحماية قد أشار فقط الى أن كافة الرعايا المصريين « سوف يكون لهم الحق فى الحصول على حماية حكومة جلالة الملك » . وظلت مصر من الناحية الرسمية واقفة على الحياد على أن تتولى بريطانيا مسئولية الدفاع عنها . الا أنه كان من المتوقع من المصريين أن يشاركوا فى المجهود الحربى . ولذلك نجد أن القوات المصرية ساعدت فى أعمال الدفاع عن قناة السويس ضد الهجوم التركى الأول والوحيد . كما عمل ما يزيد على ٢٠ ألف مصرى فى عمليات النقل التى تتم على ظهور الجمال والدواب وفى فرق العمل فى فلسطين وفى فرنسا وتكبدوا خسائر بشرية هائلة .

ويرجع السبب فى عدم قيام بريطانيا بضم مصر الى الامبراطورية البريطانية الى أن بريطانيا كانت غير قادرة على الغاء الامتيازات الأجنبية وكافة الالتزامات الدولية الأخرى . ومن ناحية أخرى فان الحقيقة التى مفادها أن بريطانيا لم تستعمر مصر أبدا على النحو الذى استعمرت به فرنسا الجزائر كان يعنى أن الاستقلال الذى حصلت عليه مصر فى نهاية الأمر لم يتم نتيجة لكفاح طويل دموى .

وظل البريطانيون غامضين فيما يتعلق بالمفهوم الذهنى عن الأمة المصرية ـ مثلما فعل الكثيرون من المصريين وان كان لأسباب مغايرة . لقد وصف كرومر مصر بأنها « دولة يصعب ويتعذر تصنيفها » . ونظرا لأنه كان من المتعذر وضع تعريف « للمصرى الحقيقى » فان سياسة « مصر للمصريين » أصبحت هراء . وأوضح كرومر قائلا « عندما يصبح لمصر مستقبلا هيئة للحكم الذاتى فان

كافة المجتمعات والجاليـــات بمصر ينبغى أن يكون لهـا تمثيل فى الحـــكومة » • ونظـرا لأن الأوربيين والمشرقيين [الايطاليين + اليونانيين + الملطيين ••• الخ] ـ وهم أولئك الناس الذين أطلق عليهم كرومر اســـم : « البراهمـة الهندوس فى مصر » ـ كانوا يشاركون الى حد بعيد فى معظم الثروة فى مصر فانه ينبغى تمثيلهم فى الحكومة بغض النظر عن النسبة العددية الخاصة بهم • وأثناء الحرب تبنى هذه الأفكار المستشار القانونى البريطانى حيث قدم دستورا مقترحا ينص على منح المستشارين البريطانيين والجاليات الأجنبية سيطرة دائمة على كافة التشريعات • ولكن مثل هذه الأفكار كانت قد أصبحت آنئذ غير واقعية تماما • فروح الوطنية المصرية الكامنة ـ والتى كانت قد كبتت أثناء الحرب ـ قد تفجرت فى قوة هائلة عقب انتهـاء الحرب • وأصـــبح تواجد الأمة المصرية أمرا لا يمكن تجاهله أو انكاره •

الفصل السادس

الأتراك والعــرب

Turks and Arabs

لقد أدى استقلال اليونان وما أعقب ذلك من الانسحاب التركى الذى فرض على تركيا بالقوة من معظم دول البلقان خــلال القرن التاسع عشر الى تحول مركز الجاذبية للامبراطورية العثمانية الى اتجــاه الشرق فى عناد وقســوة • ولأن الخليفة/السلطان لم يعد يمارس الحكم على الملايين من الأوروبيين المسيحيين فانه لم يعد يشكل تهديدا أو تحديا لدول أوربا • الا أنه كان بمقدوره أن يتطلع فى طموح الى ممارسة الزعامة على آسيا •

ومما زاد من شــدة التحول نحو آسيا هو فقدان السلطان العثمانى السيطرة على شمال افريقيا العربى الذى كان قد حصل بالفعل على درجة كبيرة من الاستقلال • فالجزائر وتونس وقعتا فى أيدى الفرنسيين فى عام ١٨٣٠ وعام ١٨٨١ على التوالى • كما أن مصر العظيمة والتى يوجد بهــا الأزهر الشريف الذى كان يدعم السلطة الروحية للخليفة العثمانى قد وقعت فى أيدى البريطانيين ــ بدون داعى ــ فى عام ١٨٨٢ • أما طرابلس وهى بمثابة موطىء

القدم الأخير للعثمانيين على الشاطىء الشمالى لافريقيا فقد سقطت فى أيدى الايطاليين فى عام ١٩١٢ لدى قيـــام اللورد كتشنر فى القاهرة باتخاذ الاجراءات التى تضـــمن بقاء مصر على الحياد ازاء الحرب التركية/الايطالية ·

ومع ذلك كان السلطان عبد الحميد ما زال يسيطر على الأراضى الرئيسية العربية وعلى المراكز العظمى الأولى للحضـــارة العربية/الاسلامية من مكة والمدينة الى بغداد والقدس ودمشق وحلب · كما كانت تركيا تسيطر على معظم الأراضى فى شبه الجزيرة العربية ـ رغم أن البريطانيين كانت لهم مستعمرة فى عدن وكانوا يسيطرون على ميـــاه الخليـــج وكانوا يبـــرمون معـــاهدات خاصـــة مع المشيخات الساحلية · ومن سخريات القدر أن افتتاح قناة السويس قد سهل ارسال قوات لتعزيز قبضـــة الامبراطورية العثمانية على اليمن ·

وكانت السيطرة العثمانية على هذه الأراضى الشاسعة بما فيها من سهول ووديان وسلاسل جبلية وأنهار وأنظمة أنهار تختلف من حيث الشكل والحدة · ففى كثير من المنـــاطق كان يتم الســـماح للأسرات الحاكمة المحلية الوراثية المتدعمة من خلال بعدها الجغرافى فى داخل الوديان والجبال بممارسة قدر كبير من الحكم الذاتى فى مقابل الاحتفاظ بقوات عســكرية كافية وتلبية رغبيـــات الأماكن الريفية المحيطة بها وجمع وتحصيل الضرائب · وفى بعض الحالات ـ مثلما هو الحال فى شـــمال العراق كان الأمر يتطلب من الأسرات المحلية الحاكمة حماية حـــدود الامبراطولية العثمانيـــة من مطامع الامبراطـــورية الفارســـية المنافســـة · وفى أماكن أخرى مثل جبل لبنان حيث كان الحكام من الأهالى المحليين وليسوا مثل الطائفة المملوكية العسكرية ، فان هؤلاء الحكام كانوا أكثر الحكام كفاءة ونشاطا لأنهم كانوا يتمتعون بولاء وحب شعوبهم · ولكن كانت

هناك أيضا مساحات شاسعة من السهول المترامية الخالية من الأشجار ومساحات أخرى صحراوية يسيطر عليها مجموعات قوية من القبائل البدوية مثل قبيلة شمار Shammar أو قبيلة بنى صخر اللتين يتعذر منعهما من أعمال السلب والنهب على طرق الحج والتجارة التقليدية ·

وكانت الحياة بالمدن الكبيرة مستقرة وآمنة بعض الشيء · أما فى الريف فكانت الحياة تختلف اختلافا كبيرا من وقت لآخر طبقا لكفاءة وسلطة الحكام المحليين · وفى ضوء هذا النظام المتنوع وابتداء من عام ١٨٢٠ فصاعدا تم بذل محاولة تهدف الى ادخال اصلاحات « التنظيمات » بغية تحديث وتنظيم الادارة الحكومية للدولة واضفاء الطابع المركزى عليها · وكان الهدف الشامل من وراء هذه المحاولة هو تحديث وتقوية الامبراطورية فى مواجهة التهديد والخطر الأوربى ·

ونظرا لأن هذه الاصلاحات كانت ترتكز على مثل أعلى خيالى وليس على العقل والمنطق فانها أسفرت عن نتائج غير هامة · وأدخلت تعديلات كثيرة على هذه الاصلاحات على مدى خمسين عاما ولكنها تعرضت للفوضى والتمزق · ونظرا لأنها تضمنت أفكارا علمانية حديثة مثل صفة المواطنة والمساواة الشاملة أمام القانون فانها واجهت معارضة شديدة من جانب السلطات الدينية القوية · كما أنها قوضت العلاقات الودية التى صمدت أمام اختبار الزمن بين الأقليات العديدة التى كانت تتألف منها الأمبراطورية الآسيوية · هذا بالاضافة الى أن التمزق سمح للدول الأوربية التى كانت تزيد باستمرار من نفوذها الاقتصادى فى جميع أرجاء المشرق العربى وميزوبوتاميا [العراق] فى القرن التاسع عشر بأن تمارس نفوذها السياسى أيضا · ولذلك كانت هناك عمليتان تحتدمان فى آن واحد مما أدى فى النهاية الى حدوث الصراع المحتوم بينهما : عملية اضفاء الطابع

المركزى أو السيطرة المركزية العثمانية + عملية الاختراق الأوربية ·

وكان جبل لبنان بما فيه من عدد كبير من السكان المسيحيين المارون هو أفضل مسرح ملائم للتدخل الأوربى · وكان الحكام المحليون ـ وهم الأمراء الشهابيون ـ قد ارتدوا عن الاسلام السنى وأصبحوا مارونيين فى نهاية القرن الثامن عشر وقام الأمير البارز بشير الثانى باثارة الفلاحين المارونيين ضد الفلاحين الدروز وعقد تحالف بينه وبين المصريين أثناء فترة حكم ابراهيم باشا [١٨٣١ ـ ١٨٤٠] ·

وعندما أعيد الحكم العثمانى تم ابعاد الأمراء الشهابيين · وفى مواجهة الصراع المارونى/الدرزى العلنى تم تقسيم جبل لبنان · بمعرفة العثمانيين وبتشجيع قوى من الدول الأوربية الى وحدتين اداريتين : احداهما للمارون والأخرى للدروز · وتكونت فى لبنان لأول مرة أول حكومة ترتكز على المساواة أمام القانون دون اعتبار للمذهب أو العقيدة · الا أن هذا الوضع لم ينجح · وذلك لسبب واحد وهو أن المارون كانوا يشكلون غالبية عددية فى المنطقة المخصصة للدروز · هذا بالاضافة الى أن الاقليم كله كان فى حالة من التمزق نظرا لتفسخ وتحطم الاقتصاد التقليدى تحت وطأة غزو المنتجات الغربية للبلاد والذى بدأ فى عهد ابراهيم باشا ·

وتزايد التوتر وعدم الاستقرار الى أن تفجرت حرب أهلية فى عام ١٨٦٠ · اذ كان كبار ملاك الأراضى الدروز فى جبل لبنان يرغبون فى كبح جماح مستأجرى أراضيهم من المارون الذين كانوا يتزايدون فى العدد علاوة على تزايد ثرواتهم · فشنوا هجوما عليهم وذبحو الآلاف منهم · فأدى هذا الى تفجير موجة من اضطهاد المسيحيين فى أجزاء أخرى من سوريا · فقامت فرنسا التى كانت تعتبر نفسها ـ من خلال درجات متفاوتة من التشجيع من جانب السلطان العثمانى ـ حامى حمى المارون الكاثوليك بانزال قوات

عسكرية فى بيروت وغزو الشوف Shuf التى تعتبر معقل الدروز ٠ وقامت الدول الأوربية التى سبق لها التوقيع على معاهدة باريس عقب حرب كريميا Crimean War والتى كانت تضم الامبراطورية العثمانية بعقد اجتماع فى بيروت لبحث الكيفية التى ينبغي أن تحكم بها لبنان ٠ وأسفر الاجتماع عن اتخاذ قرار بخلق حكم ذاتى فى اقليم جبل لبنان تحت قيادة حاكم مسيحى يختاره السلطان من خارج نطاق لبنان على أن يعاونه فى الحكم مجلس يضم أكثرية مارونية ويتم اختيار أعضائه وفقا لمبدأ المساواة أمام القانون دون اعتبار للمذهب أو العقيدة ٠ وعلى أن يتم وضع هذا الحكم الذاتى تحت حماية الدول الستة : بريطانيا وفرنسا وروسيا وبروسيا والنمسا وايطاليا ٠

وكانت منطقة الحكم الذاتى اللبنانى لا تشتمل الا على جزء فقط من مساحة الجمهورية اللبنانية الحالية ٠ حيث لم تشتمل على بيروت وصور Tyre وصيدا Sidon الواقعة على الساحل ووادى البقاع المتواجد فى جهة الشرق ٠ كما كان بها غالبية عظمى من المارون حيث كانوا يشكلون ٩٠٪ من مجموع السكان ٠ وعلى الرغم من أنها ازدهرت على مدى نصف القرن التالى الا أن خلقها كان بمثابة الخطوة الأولى نحو تقويض نظام الملة ـ شبكة الطوائف الاجتماعية القديمة والتى من خلالها كانت الأقليات الدينية تشارك فى الشئون الادارية للامبراطورية ٠

وكانت فرنسا هى الراعى الأول للروم الكاثوليك فى المشرق العربى كما كانت روسيا هى الراعى للارثوذوكس المسيحيين ٠ أما بريطانيا فكانت هى الراعى للدروز وطائفة اليهود الصغيرة العدد التى كانت تشكل ٤٪ من مجموع الشعب الفلسطينى ٠ ولكن الأرمن التعساء المتواجدين بالأراضى الرئيسية للامبراطورية فلم يكن لهم أى راعى فعال خارجى ٠ ولم يكن يوجد مسيحيون من البروتستانت

بالامبراطورية الا فيما ندر • ولكن البعثات التبشيرية الأمريكية البروتستانتية قد لعبت دورا حاسما فى الاختراق الخاص بالنفوذ الثقافى الغربى • فانشاء كلية البروتستانت السورية فى عام ١٨٦٦ ـ والتى أصبحت تعرف فيما بعد بالجامعة الأمريكية لبيروت ـ قد حث الكاثوليك الفرنسيين المذعورين على انشاء جامعة سانت جوزيف فى عام ١٨٧٤ • ولعبت هاتان الجامعتان دورا قياديا فى النهضة الثقافية بالمنطقة •

وفى فلسطين ـ وهى الاقليم الذى يعرفه الغرب المسيحى باسم : الأرض المقدسة والذى أعطى فى القرن العشرين حدودا واضحة المعالم ـ كانت المنافسات الأوربية حادة بصفة خاصة كما هو متوقع• الا أن نتائج تلك المنافسات كانت تميل الى تحييد بعضها البعض • وكان العرب المسيحيون يشكلون أقلية ولكنها أقلية لها أهميتها وشخصيتها القوية • وكانت العلاقات الداخلية بين المسلمين والمسيحيين واليهود تسير فى توافق وانسجام بوجه عام • وعقب انهاء الحكم المصرى على سوريا فى عام ١٨٤٠ أصبح العثمانيون قادرين على تنفيذ اصلاحات « التنظيمات » والتى تتعلق بتدعيم الحكم المركزى • وكان ذلك يعنى اعادة فرض السيطرة العسكرية التركية وتخفيض نفوذ مشايخ الاقطاع المحليين الذين كانوا قد أصبحوا متمتعين باستقلال حقيقى حيث كانوا يقومون بجباية الضرائب الخاصة بهم ويحاربون بعضهم البعض • وكانت نتائج الاصلاح مفيدة بوجه عام • اذ تحسن الأمن والأمان وازداد عدد السكان وازدهر الاقتصاد • وأصبحت يافا اسما مشهورا فى أوربا من خلال تصدير البرتقال الوارد من المزارع الشاسعة المحيطة بها •

وعلى الرغم من تخفيض السلطة المباشرة للعائلات الاقطاعية الا أنه قد سمح للكثير من هذه العائلات بالاحتفاظ بقدر كبير من النفوذ • فمع التوسع والازدهار الاقتصادى ظهرت الحاجة الى تعزيز

أهمية المدن ـ وكانت مجالس المدن واقعة تحت سيطرة مندوبى هذه العـــائلات : مثل عائلة النمر وعائلة طوقان وعائلة خالد وعائلة الحسينى • وعلى الرغم من سياسة استانبـــول المركزية نجد أن الفلسطينيين قد احتفظوا بقدر كبير من الحرية فى ادارة شئونهم • ونظرا للأهمية البالغة للقدس فانها حولت فى عام ١٨٧٤ الى سنجق مستقلة • وكان نتيجة ذلك أن أصبح الحاكم على القدس مسئولا بشكل مباشر أمام السلطان فى استانبول •

ولم تكن فلسطين وحدها هى التى شهدت التحسن فى الأمن الذى أدى الى ازدهار الاقتصاد وزيادة عدد السكان • اذ أشـــار المسافرون الأوربيون فى أواخر القرن التاسع عشر فى تقاريرهم الى أن السهول الشاسعة فى غرب وشمال سوريا كانت مليئة بحقول لا نهائية من القمح الذهبى اللون بينما كانت نفس تلك المساحات قاحلة تماما منذ سنوات قليلة سابقة •

الا أن ذلك التقدم والازدهار لم يكن خاليا من النكسات • اذ أن أراضى الهلال الخصيب القديمة كانت تعتمد على سقوط الأمطار المتقلب من وقت لآخر • ولذلك نجد أن السبعينات من عام ١٨٧٠ قد شهدت سلسلة من المحاصيل الهزيلة التى تصل الى حد الكارثة • كما أن الافلاس العثمانى قد أحدث تأثيرا سلبيا على مقدرة الطبقات الغنية على الاستثمار • وأخيرا فان الكثيرين من الشباب السورى والفلسطينى المتمتعين ببناء جسدى قوى كان يتم تجنيدهم اجباريا فى الجيوش العثمانية أثنـــاء الحروب الروسية والبلقانيـــة الا أن الموقف تحسن فى خلال الثمانينات من عام ١٨٨٠ • فالامبراطورية العثمانية قد تحولت عن البلقان واتجهت نحو الشرق كما أن ادخال السكك الحديدية قد حسن وسائل المواصلات الى درجة كبيرة للغاية • وتزايدت على نحو مضطرد الصادرات من الحرير والفواكه والصوف من الموانى السورية فى نهاية القرن التاسع عشر •

وظلت ميزوبوتاميا أو العراق أكثر الأقاليم المتحدثة باللغة العربية بالامبراطورية العثمانية تخلفا وسوءا فى الحكم • وكانت مواردها الشاسعة قد تركت فى اهمال بدون استثمار • وعقب عام ١٨٣١ عندما فرض من جديد الحكم المباشر من استانبول تحت ظل اصلاحات « التنظيمات » نجد أن الولاة أو الحكام العثمانيين كانوا عاجزين عن احراز تقدم كبير فى تهدئة القبائل المتمردة وزعماء الأكراد بهدف بث الاستقرار فى الريف وتحسين المواصلات والاتصالات • ومعظم الانجازات التى تحققت فى هذا الشأن قد تمت على أيدى مدحت باشا المستنير الذى وصل فى عام ١٨٦٩ • اذ طبق نظام التجنيد الاجبارى وأنشأ المجالس البلدية وشيد المدارس والمستشفيات • كما حاول ازالة الأوحال من قاع الممر المائى فى شط العرب ـ وهو المنفذ المشترك لنهرى دجلة والفرات الى الخليج ـ وفتح نهرى دجلة والفرات أمام الملاحة المنتظمة للبواخر • ولكن كان هناك حد لما يمكن أن يفعله فى خلال السنوات الثلاثة لحكمه فى بغداد • اذ ظلت بغداد ـ التى كانت ذات يوم رمزا لمجد العصر الذهبى للاسلام ـ مدينة قذرة وحقيرة وفقيرة بالمقارنة مع القاهرة أو حلب أو دمشق التى احتفظت كلها بالكثير من عظمتها السابقة •

وعلى الرغم من فقر العراق وتأخره وتخلفه فان الدول الأوربية كانت تدرك جيدا أهميته • اذ نجد أن بريطانيا بصفة خاصة ـ والتى كانت تسيطر آنئذ على مياه الخليج كانت تنظر الى العراق على أنه البوابة التى تؤدى الى الهند ومن ثم كانت تأمل فى تشييد خدمات تلغرافية وبريدية تربط بغداد مع استانبول وتربط الخليج بالهند • وعلى نحو تدريجى أصبحت تنظر الى أواسط وجنوب العراق على أنهما منطقة نفوذ بريطانى • الا أن دولا أخرى كانت تفكر فى العراق وتسبى أغواره • اذ كانت فرنسا مهتمة بالموصل التى تقع فى شمال العراق كما أن روسيا كانت تتطلع الى المياه الدافئة للخليج الفارسى • وفى نهاية القرن التاسع عشر

بدأت ألمانيا الامبريالية والتى أصبحت الحليف الجديد للسلطان تظهر فى الأفق .

وكانت بريطانيا تسيطر بالفعل على مياه الخليج . وفى عام ١٨٦١ أنشأت قاعدة برية عندما وقعت معاهدة مع حاكم البحرين من أجل حماية جزيرته من الادعاءات والمطالب المزعومة الخارجية [من جانب الفرس وتركيا] وفى مقابل ذلك تكون لبريطانيا السيادة على البحرين واستبعاد كافة الدول الأخرى . ولكن ابتداء من منتصف القرن التاسع عشر بدأ العثمانيون يدخلون فى امبراطوريتهم وفى نظامهم الادارى الاصلاحى الجديد كافة مناطق نجد العربية المستقلة [أواسط شبه الجزيرة العربية] وشاطىء الخليج . وكانت الهيمنة العثمانية على هذه المناطق قد زالت منذ انسحاب الأساطيل التركية فى القرن السابع عشر . وفى عام ١٨١٩ قامت القوات المصرية التابعة لمحمد على بغزو الدولة السعودية/الوهابية فى نجد نيابة عن السلطات وامتدت السيطرة التركية/المصرية الى اقليم الأحساء الساحلى . الا أن القوات المصرية سرعان ما رحلت فى عام ١٨٤٠ عندما تم تخفيض طموحات محمد على شبه الاستعمارية . وبذلك دبت الحياة مرة أخرى فى الدولة السعودية التى اتخذت من الرياض عاصمةجديدة لها .

وظهرت فرصة جديدة أمام الأتراك العثمانيين فى عام ١٨٦٥ عندما انتهت فترة حكم الأمير السعودى فيصل بن تركى الطويلة المتميزة بالهدوء والسلام ثم تفجرت الضغائن والخلافات فى الرأى بين ابنيه حول الخلافة على الحكم . ووافق مدحت باشا على عرض التبعية المقدم من أحدهما فى مقابل الحصول على المساندة العثمانية وتم بالفعل فى عام ١٨٧١ ايفاد قوة عسكرية تركية بطريق البحر من أجل إنشاء حاميات عسكرية على طول الساحل الخليجى . الا أن هذا الاجراء قد أثار ذعر الحكومة البريطانية . ولم تكن بريطانيا

فى هذه المرحلة قد تدخلت فى الشئون الداخلية للمشيخات العربية الا أنها كانت تعتبر الخليج بمثابة بحيرة بريطانية • ولذلك فان ظهور الأسطول التركى مرة أخرى ـ رغم حجمه الضئيل المتواضع ـ كان سببا كافيا لاثارة اهتمام وانزعاج البريطانيين • كما أن حكومة الهند التى يسيطر عليها البريطانيون تساءلت فى تعجب عما اذا كان مشايخ العرب أو زعماء الفرس قد يتشجعوا ويحصلوا على قوة بحرية خاصة بهم من أجل تحدى الهيمنة والسيادة البريطانية • ولكن لم يكن هناك داع للشعور بالقلق : فالأتراك قد ركزوا انتباههم على الأماكن الداخلية كما عززت بريطانيا معاهدتها مع حاكم البحرين لكى يحبط مقدما الطموحات التركية والفارسية •

وكان وضع امارة الكويت مع تواجد مينائها الطبيعى الهائل عند الرأس الاستيراتيجى للخليج أمرا مثيرا للاهتمام الكبير • ومنذ انشاء الكويت بمعرفة عائلة الصباح التى هى من هضبة نجد فى منتصف القرن الثامن عشر نجد أنها قد ازدهرت كمركز للتجارة واللؤلؤ تحت قيادة سلسلة متعاقبة من الحكام الأكفاء وأصبحت تشد انتباه البريطانيين الى درجة كبيرة • الا أن الحكام من عائلة الصباح تمكنوا من الاحتفاظ باستقلالهم الحقيقى فى مقابل موافقتهم على السيادة التركية عليهم من الناحية الرسمية الشكلية • ولقد وافقت بريطانيا أخيرا فى عام ١٨٩٩ على الطلب الرسمى الذى تقدم به الأمير الكويتى مبارك الأكبر [١٨٩٥ ـ ١٩١٦] بشأن توفير الحماية البريطانية الرسمية على الكويت ولم يكن هذا المطلب من أجل طرد الأتراك وانما من أجل احباط الخطة الرامية الى مد خط السكة الحديد برلين/استانبول/بغداد الى الكويت • ووفقا للمعاهدة الأنجلو/كويتية نجد أن مبارك قد وافق على صيغة مماثلة للاتفاقيات الأخرى المبرمة مع حكام الخليج العربى على « ألا يعزل أو يبيع أو يؤجر أو يرهن أو يعطى من أجل الاحتلال أو أى غرض آخر أى جزء من أراضيه لحكومة أو رعاية أية دولة أخرى » •

وكانت الحجاز الواقعة فى غرب شبه الجزيرة العربية هى أكثر الأقاليم المتحدثة باللغة العربية التابعة للامبراطورية العثمانية تمتعا بالاحترام والتبجيل • وكانت أقل الأقاليم تطورا من الناحية الاقتصادية • الا أنها كانت تضم المدن المقدسة الاسلامية : مكة والمدينة المنورة • وهنا كانت السيطرة العثمانية متواجدة عقب طرد الوهابيين في عام ١٨١١ ـ ١٨١٩ الا أنها كانت أبعد ما تكون عن الأمن والأمان • وظلت كذلك حتى بعد افتتاح قناة السويس التى جعلت من السهل ارسال قوات عسكرية من استانبول • وكان الولاة العثمانيون في الحجاز يشاركون فى الحكم مع كبار شرفاء مكة العرب المتمتعين بالهيبة والاحترام والذين ينحدرون من بنى هاشم التى تعتبر أكثر العشائر العربية نبلا حيث أنها من سلالة النبى محمد صلى الله عليه وسلم • وكان الأمن العام بالحجاز بالغ السوء • اذ كثيرا ما كان يتم اغتيال القناصل الأجانب بالاضافة الى أن الحجاج المسلمين لم يكن لديهم سوى قدر ضئيل من الدفاع ضد قطاع الطرق الذين يمارسون السلب والنهب والاغارة •

وكما سبق أن رأينا نجد أن السلطان عبد الحميد بعد أن فقد معظم رعاياه المسيحيين بالبلقان ومعظم أراضى امبراطوريته بشمال أفريقيا قرر تدعيم سيطرته على الجزء الذى لا يزال يعتبر أعظم قوة اسلامية فى العالم • وكان على استعداد لأن يستفيد من اصلاحات « التنظيمات » التى تخدم أغراضه في مجال تحسين الشئون الادارية بالولايات البعيدة عن السلطة المركزية • الا أن المفاهيم الذهنية المتضمنة فى هذه الاصلاحات والتى تتعلق بحقوق المواطنين والمساواة أمام القانون كانت بغيضة للغاية من وجهة نظره وعلى نحو يفوق بغض السابقين عليه لها • اذ كان يرغب فى تحقيق أوتوقراطية مطلقة ولكنه حرص على تحقيق أهدافه من خلال اللجوء للدبلوماسية اللبقة الماهرة والمؤامرات والتلاعب والمناورات وليس من خلال استخدام القوة الوحشية •

وكان السلاطنة العثمانيون قد أحيوا لقب : الخليفة ورغم أن هذا اللقب لا يحمل سوى قدر ضئيل من مفهومه الذهبى الأصلى : وهو خليفة الرسول محمد صلى الله عليه وسلم والمرشد والقائد الروحى/السياسى لجميع المسلمين فى العالم كله ، الا أن العالم قد اعترف بذلك اللقب بوجه عام كنوع من الأدب الدبلوماسى • وشرع عبد الحميد فى توطيد نفسه كخليفة/سلطان وزعيم عالمى للاسلام السنى علاوة على نشر نظريات حركة التعاون بين كافة الدول الاسلامية Pan-Islam • وكان هذا من شأنه أن يخدم هدفين : تدعيم مركزه فى نطاق الجزء المتبقى من امبراطوريته وتعبئة القوى البشرية فى امبراطوريته من أجل الوقوف ضد الاختراق المتزايد الذى يقوم به الغرب المسيحى • وكان عبد الحميد ـ على العكس من الكثيرين من السابقين عليه ـ يتميز بالتقوى والصلاح والوقار والاتزان وكان يحرص على أن تلتزم حاشيته ومعاونوه بهذه الصفات الحميدة • وكان ينفق فى سخاء على شئون المساجد والمؤسسات الاسلامية المتواجدة فى جميع أرجاء امبراطوريته • كما كان يحيط نفسه بأكثر العلماء تفقها فى الدين الاسلامى وأنشأ مدرسة تبشيرية اسلامية لكى تنشر أنباء اهتمام استانبول بالعقيدة والتقوى فى جميع أرجاء العالم الاسلامى •

ولم يكن عبد الحميد يشعر بالقلق ازاء ولاء جماهير الفلاحين بالأناضول للخليفة /السلطان الخاص بهم • ولكن طبيعته الميالة للشكوك والارتياب جعلته يشك فى مدى صدق وتقبل قيادته من جانب رعاياه الأكثر عددا المتحدثين باللغة العربية • وأصبح مقتنعا بأنه توجد حركة تهدف الى استعادة الخلافة العربية • ولم تكن هناك دلائل كبيرة تؤكد ظهور هذا الاتجاه • وصحيح أن بعض المفكرين الاسلاميين من غير الأتراك بالامبراطورية كانوا يعتقدون أن القرون الأخيرة للسيطرة العثمانية هى السبب فى احداث التدهور الحالى فى العالم الاسلامى • وصحيح أن تلاميذ جمال الدين الأفغانى من

أمثال الشيخ محمد عبده المصرى والسورى رشيد رضا والسورى عبد الرحمن الكواكبى كانوا مهتمين للغاية باحياء الأمة الاسلامية واعادة توحيدها كوسيلة لمقاومة سيطرة الغرب وتغلغل أفكاره وكانوا يعتقدون أن ذلك البعث لن يتم الا على أيدى العـرب الذين بزغ الاسلام بينهم • ولكن على الرغم من قيام هؤلاء الناس بانشاء الصحف والجرائد وطبع النشرات بالقاهرة أو باريس الا أنهم كانوا مثقفين نظريين وليسوا سياسيين عمليين نشطاء •

ولم يكن الشقاق السياسى فى نطاق الامبراطورية فى تلك المرحلة يتخذ طابعا قوميا/عنصريا • فالزعيم المصرى مصطفى كامل كان ينظر فى التسعينات من عام ١٨٩٠ الى السلطان العثمانى على أنه القائد والزعيم الطبيعى لحركة الجامعة الاسـلامية الشـاملة Pan-Islam التى كان يعتنقها ضد البريطانيين • فالعداء العربى للأتراك والاستياء العربى من الأتراك كان فى بداياته الأولى فقط • بل أن كلمة « عرب » كانت لا تزال تنطبق فقط على الناس شبه البدو الذين يسكنون فى شبه الجزيرة العربية • وكان هناك أناس من أمثال رشيد رضا ممن يعتقدون أن حركة تجديد الاسلام واحيائه ينبغى أن تبدأ من شبه الجزيرة العربية • وحقيقة الأمر أن أول جهود عملية تهدف الى طرد العثمانيين من حيث أنهم حكام غير ملائمين لحكم الوطن الاسلامى قد تمت على أيدى القوات الوهابية السعودية فى أوائل القرن التاسع عشر • ولكن الوهابيين هزموا ولم تتجدد محاولاتهم مرة أخرى الا بعد أن أصبحت الامبراطورية العثمانية على حافة السقوط •

وكان السلطان عبد الحميد يخشى من احتمال لجوء رعاياه من غير الأتراك الى أعمال التخريب • فدفعه ذلك الى اتخاذ سياسة لها شعبتان • اذ قام بترقية البعض الى المناصب العليا فى حكومته علاوة على تقديم الهدايا وكرم الضيافة فى سخاء للزائرين له من

أصحاب المقام الرفيع من العرب • ولكنه فى نفس الوقت كان يحرص باستمرار على اللجوء الى التآمر لكى يمنع الزعماء السياسيين المحليين من أن يصبحوا أقوياء للغاية • واذا اقتضت الضرورة كان يلجأ الى تشجيع العداوات والمنافسات بين العشائر والقبائل • وكان يحرص على تلقى الأنباء باستمرار من خلال شبكة جواسيسه الشاسعة ومن خلال نظام التلغراف الجديد الذى شيده مهندسون فرنسيون وبريطانيون والذى كان يصل الى المناطق البعيدة للغاية • وبذلك كان يتم استئصال أى زعيم محلى خطير أو أى شخص مثير للمتاعب من خلال استخدام القوة اذا اقتضت الضرورة ذلك • وكان من بين هؤلاء الزعماء المحليين الخطرين : حسين بن على وهو أحد أفراد أسرة أشراف مكة ـ أى أنه هاشمى • ولأنه ذو مقام رفيع فان الأمر كان يستلزم معاملته فى أدب • ولذلك قام عبد الحميد فى عام ١٨٩٣ بتوجيه دعوة مغرية له بحيث لا يستطيع أن يرفضها : وهى أن يجىء ليعيش فى استانبول مع أبنائه الصغار الثلاثة : على وعبد الله وفيصل • وكان الحس الغريزى لدى عبد الحميد صادقا وصحيحا لأن الحسين وأبناءه قد أصبحوا من بين الأسباب الرئيسية التى أدت الى سقوط الامبراطورية العمثانية •

وكان السورى عزت باشا هو أشهر شخصية عربية قام عبد الحميد بترقيتها • ففى السنوات الأخيرة من حكم السلطان وصل عزت باشا الى درجة هائلة من النفوذ والسلطة وبحيث أصبح هو القوة الدافعة الرئيسية فى انشاء أهم أداة فى سياسة الجامعة الاسلامية Pan-Islam التى تبناها عبد الحميد : ألا وهى انشاء خط الحجاز للسكك الحديدية • اذ امتد هذا الخط من دمشق الى المدينة المنورة • الا أن الخطة الرامية الى مد هذا الخط الى مكة المكرمة لم تتم على الاطلاق • وقد أنشىء هذا الخط بمعرفة مهندسين من ألمانيا الحليفة الجديدة للسلطان فى الفترة من عام ١٩٠١ حتى عام ١٩٠٨ بتكلفة تبلغ حوالى ٣ مليون جنيه استرلينى • ونظرا لأنه

قدم على أساس أنه يخدم الاسلام ويقلل المخاطر التى يتعرض لها الحجاج المسافرين الى مكة فانه قد تم تحصيل ثلث التكاليف من خلال مساهمات المتبرعين من جميع أنحاء العالم الاسلامى • وأضيفت الى التبرعات قيمة الضرائب الخاصة التى فرضت لهذا الغرض فى الامبراطورية • وقد أدى هذا المشروع الى زيادة احترام الناس للخليفة/السلطان الورع من حيث هو زعيم للاسلام السنى • ولكن كانت له ميزة استيراتيجية/سياسية هامة أخرى لأنه كان يتيح الفرصة لتجنب استخدام قناة السويس الواقعة تحت السيطرة البريطانية بالاضافة الى امكان ارسال قوات عسكرية من سوريا الى الحجاز فى خلال أيام قليلة •

وعلى الرغم من كافة الجهود التى بذلها عبد الحميد بهدف الحصول على ولاء المؤمنين المسلمين كان يوجد بالأقاليم العربية نزعات نحو معارضة الحكم العثمانى التركى • اذ كان لدى العشائر المحلية أو القادة المحليين سبب محدد يدعوهم الى الاستياء عندما كان السلطان يناصر منافسيهم كما كان هناك مزيد من الكراهية • العامة ازاء أساليبه فى الحكم المتسمة بالاستبداد • كما كانت هناك مشاعر مناهضة للعثمانيين بين الطوائف المسيحية العربية المتركزة فى لبنان المارونى حيث كانت تتدعم هذه المشاعر العدائية من خلال الاحتكاك الثقافى والتجارى مع الغرب وانتشار معرفة القراءة والكتابة والتعليم علاوة على الادراك بأنهم يتمتعون بالحماية الفرنسية • ولكن نظرا لأن المسيحيين العرب كانوا يشكلون أقلية وبذلك كان استياؤهم ينبع من الاحساس بأنهم مواطنون من الدرجة الثانية بصفة دائمة فى الامبراطورية فانه كان من المتعذر أن يتحالفوا مع زملائهم العرب المسلمين فى حركة تمرد مشتركة ضد العثمانيين • وكان المفهوم الذهنى عن أمة عربية واحدة مقصورا على عدد قليل من المثقفين بينما نجد أن مفهوم صفة المواطنة العثمانية المشتركة المرتكزة على مبدأ المساواة فى الحقوق والتى بزغت من اصلاحات

« التنظيمات » قد أحرزت تقدما ضئيلا تحت ظل نظام الجامعة الاسلامية Pan-Islam الذى اتخذه عبد الحميد • وكانت الولاءات الدينية مازالت أقوى بكثير من الأفكار العلمانية العربية • فالسوريون العرب لم يفكروا فى الاطاحة بالامبراطورية العثمانية التى ظلت زعيمة وحامية للأمة الاسلامية على مدى أربعة قرون •

أما الثورة الحقيقية ضد عبد الحميد فقد نبعت من مصدر مختلف تماما ومتواجد فى مكان قريب للغاية من استانبول • اذ كان التوسع فى التعليم المدنى والعسكرى وتحسينه وتطويره هو أهم الاصلاحات الحقيقية الفعالة التى أخذها عبد الحميد عن السابقين عليه واستمر فى تنفيذها • فنجم عن ذلك ظهور طبقة متوسطة جديدة متعلمة • وكان « الشباب العثمانى » الذين يرغبون فى انهاء الحكم الاستبدادى للسلطان متفرقين ومبعثرين ومكبوتين فى خلال السنوات الأولى من حكمه • الا أن أفكارهم ظلت باقية وبزغت الى الوجود مرة أخرى فى أواخر القرن على هيئة حركة ثورية تعرف باسم : « الشبان الأتراك » • وانتشرت هذه الحركة بسرعة بين الطلبة فى الكلية الحربية وكلية الطب وكلية الحقوق بالعاصمة والأقاليم • وقام طلعت بك وهو طالب بكلية الحقوق ويعمل فى نفس الوقت فى وظيفة باشكاتب بمكتب بريد سالونيكا ورحمى بك وهو من الوجهاء المحليين بالاشتراك مع عدد قليل من الزملاء بانشاء جمعية سرية أطلقوا عليها اسم : لجنة الاتحاد والتقدم Cup من أجل التأكيد على المبدأ المثالى المنادى بالوحدة والمساواة بين كافة الأجناس والعقائد فى داخل نطاق الامبراطورية • وقد جذب هذا المبدأ المثالى تأييد الماسونيين واليهود الذين بدأوا يلعبون دورا قياديا فى الحركة • وتم اجراء اتصالات مع الأتراك المنفيين فى باريس •

وقام « الشبان الأتراك » بمحاولة انقلاب فى عام ١٨٩٦ • ولكن تم احباطها بكل سهولة • ولم يكن لدى السلطان فكرة واضحة

عن مدى الأخطار المحدقة به ويبدو أن شبكة مخابراته كانت أقل فاعلية بالنسبة للشئون الداخلية • ولقد روع الثوريون بسبب سوء معالجة السلطان للأمور فى مقدونيا التى تعتبر آخر اقليم عثماني رئيسي في أوربا كما شعروا بالغضب بسبب الضعف الذليل للامبراطورية بالمقـارنة مع دول أوربا • وفى عام ١٩٠٨ أشـارت التقارير الى أن ادوارد السابع ملك انجلترا ونيقولاس قيصر روسيا يخططان لتقسيم تركيا فى الاجتماع المنعقد فى تالين Tallinn فأدى هذا الى قيام ضباط بالجيش التركى مثل : انفر Enver بك وجمال باشا ومصطفى كمال [الذى أصبح يعرف فيما بعد باسم مصطفى كمال أتاتورك] بالانضمام الى الحركة الجديدة وضم قيادة الوحدات العسكرية بالجيش المقدوني اليهـا • وسعيا وراء انقاذ الأراضى الأم ، رفع « الشبان الأتراك » فى عام ١٩٠٨ راية الثورة فى سالونيكا العاصمة المقدونية التى كانت قد أصبحت مقر القيادة للجنة الاتحاد والتقدم CUP وانتشرت الثورة بسرعة كبيرة بل وامتدت الى الوحدات الألبانية التى كان يعتبرها عبد الحميد شديدة الولاء والاخلاص له •

وطالب الشبان الأتراك بقيادة الرائد انفر بك باعادة الحكم الدستورى • واضطر عبد الحميد للاذعان عندما اكتشف أن كلا من شيخ الاسلام وغالبية الوزراء التابعين له متعاطفين مع الثوريين • وهكذا نرى أن الدستور القصير الأجل والذى سبق الغـاؤه منذ أربعين عاما قد أعيد مرة أخرى •

ونيابة عن الشبان الأتراك أعلن انفر بك انتهاء الحـكومة الاستبدادية وأوضح مبادىء نظام الحكم الجديد : « من الآن فصاعدا نحن جميعا اخوة • لم يعد هناك بلغاريون ويونانيون ورومانيون ويهود ومسلمون • فنحن جميعا متساوون تحت نفس السماء الزرقاء • ونحن جميعا نتفاخر بأننا عثمانيون •

واستقبل هذا البيان بابتهاج شعبى هائل فى استانبول • ولم يكن عبد الحميد المراوغ الماكر ينقصه الدهاء • اذ تظاهر بأنه متحمس للنظام الدستورى الليبرالى الذى سبق أن تخلص منه على وجه السرعة عقب توليه الخلافة • ثم أعاد فتح البرلمان الذى سبق اغلاقه على مدى ٤١ عاما • فاصطفت الجماهير على جانبى الشوارع وراحت تهتف « يحيا الدستور » ولكنها راحت تتغنى أيضا وتهتف « يحيا السلطان » •

كما رحب العرب باستانبول والوجهاء بالأقاليم العربية بالعهد الجديد • وكانوا يأملون فى أن تؤدى روح المساواة العنصرية المعلنة الى انهاء السيطرة التركية وانهاء فرض اللغة التركية والثقافة التركية على العرب بالامبراطورية •

وجاء بعد ذلك شهر عسل تركى/عربى لفترة قصيرة • الا أنه لم يستمر لأسباب عديدة • أولا لأن الروح الخاصة بالمبادىء العثمانية والمتضمنة فى دستور مدحت باشا لم تهتم بالمساواة العنصرية بين المسلمين • وكان انفر بك قد أشار فى بيانه الى « مسلمين» وليس الى عرب أو أتراك • ولكن أسلوب الانتخابات أدى الى هيمنة الأتراك على البرلمان ــ حيث حصلوا على ١٥٠ مقعدا من مجموع المقاعد البالغ عددها ٢٤٣ بينما حصل العرب على ٦٠ مقعدا ــ رغم أن عدد المواطنين العثمانيين المتحدثين باللغة العربية يزيد بكل تأكيد على عدد الأتراك فى داخل الامبراطورية • والسبب الثانى هو أن ضباط الجيش الذين تولوا قيادة منظمة « الشبان الأتراك » لم يكونوا من الديموقراطيين الليبراليين • وصحيح أن مجاهرتهم بايمانهم بالوحدة والمساواة من حيث هما روح للمبادىء العثمانية لم يكن أمرا متسما بالرياء والنفاق الا أنهم لم يتعمقوا فى هذا الاتجاه • وكانوا يكرهون حكم عبد الحميد بسبب فساد هذا الحكم وعدم كفاءته وليس بسبب اتسامه بالاستبداد • وبعد أن

واجه « الشبان الأتراك » التراث المريع المتعلق بالحكم السيء لعبد الحميد ـ الخزانة الشاغرة + الضغوط الخيالية من الرحمة التي تمارسها الدول الأوربية فى البلقان ثم الغزو الايطالى لليبيا التى تعتبر آخر اقليم عثمانى فى أفريقيا فانه لم يعد لديهم وقت كافى يسمح لهم بتطبيق مبادىء الحرية الدستورية • هذا بالاضافة الى أنهم ـ على العكس من مثقفى « الشباب العثمانى » لم يكن لديهم اهتمامات بالنظريات السياسية حيث كانوا يميلون الى الاتجاهات العملية التجريبية ويركزون هدفهم على تدعيم وتقوية دفاعات الامبراطورية • واذا كانوا قد أبدوا اهتماماتهم واعجابهم بالمثل العليا للثورة الفرنسية فان لسبب فى ذلك هو اعتقادهم فى أن شعارات « الحرية والمساواة والاخاء » قد منحت شعب فرنسا القوة الكامنة التى اجتاحت أعداء الثورة • وذهبوا فى تقديراتهم الى أن مواطنى الامبراطورية العثمانية سيسيرون على نفس المنوال بدون شك •

وكانت المشكلة العاجلة التى واجهتهم هى ظهور محاولة مناهضة للثورة • ففى حين كان عبد الحميد يجاهر بموافقته على الدستور الجديد فانه راح يشجع فى السر العناصر الساخطة والرجعية التى كانت تعارض نظام الحكم الجديد • وفى ابريل ١٩٠٩ تمردت قوات من حامية استانبول واغتالت ضباطها وشنت غارة على البرلمان • وعندما أعلن عبد الحميد عفوه عن زعماء التمرد وأصدر قرارا بتشكيل حكومة جديدة قام « الشبان الأتراك » بارسال جيش من سالونيكا لكى يعيد النظام ويعاقب المتمردين ويعيد السلطة للجنة الوحدة والتقدم CUP • وبعد ثلاثة أيام اجتمع البرلمان وأعلن تنازل عبد الحميد عن الحكم • وتولى أخوه رشاد منصب السلطان بعد أن منح لقب : محمد الخامس • وكان محمد الخامس متسما بمحو الذات والبعد عن الأضواء • وكان يبلغ من العمر ٦٤ عاما • ولذلك كان على استعداد تام لأن يقوم بدور العاهل الدستورى •

وفى نوع من الحكمة والاتزان قررت لجنة الوحدة والتقدم الابقاء على حياة عبد الحميد • ولذلك تم اعتقاله واحتجازه فى فيلا خاصة فى سالونيكا • ويشعر رعاياه السابقون بانطباعات مختلطة على نحو غير عادى عن فترة حكمة الطويلة • فبالنسبة للأتراك نجد أن سجل اصلاحات التحديث التى أنجزها فى بعض المناطق المحدودة يختفى ويتوارى أمام عدم مقدرته على منع الاذلال الأخير النهائى لبيت عثمان الذى كان ذات يوم بمثابة قوة أوربية عظمى • الا أن انطباعا مختلفا قد تبقى بين المسلمين غير الأتراك فى داخل الامبراطورية • ففى بعض الحالات كانوا شعوبا أو قبائل حظيت بتأييد وتدعيم عبد الحميد لها ضد منافسيها : مثال ذلك أن الأكراد تمتعوا بالتأييد ضد الأرمن والسنيين حصلوا على التدعيم ضد الشيعة فى داخل ميزوبوتاميا • ولكن على المدى البعيد نجد أن مبادىء الجامعة الاسلامية الشاملة Pan-Islam التى نادى بها هى التى ظلت باقية على قيد الحياة • وصحيح أنه استخدم هذه المبادىء فى كثير من الأحيان من أجل تدعيم أهدافه الاستبدادية وليس من أجل أن ينظر اليه العالم على أنه الحاكم الأخير الذى يناصر قضية الأمة الاسلامية • الا أن هذا لا يثير قدرا كبيرا من الأهمية • ويكفى أن العرب فى أواخر القرن العشرين سوف يشيرون دائما الى الحقيقة التى مفادها أن السلطان عبد الحميد هو الذى رفض الطلب الذى تقدم به الدكتور تيودور هرتزل النمساوى مؤسس الصهيونية السياسية لتأجير جزء من أرض فلسطين لكى يكون بمثابة وطن قومى لليهود فى فلسطين • وكان عبد الحميد يميل الى الموافقة على ذلك المطلب فى مقابل حصوله على قروض كبيرة من الشعب اليهودى الدولى الا أن وزراءه أقنعوه بأن ذلك من شأنه أن يدمر سياسات الجامعة الاسلامية التى ينادى بها علاوة على تدمير هيبته ونفوذه بين رعاياه من العرب • ولكن رفض السلطان لذلك المطلب هو الذى ظل عالقا فى أذهان الناس •

وإذا كان هناك عدد قليل للغاية من العرب الذين فكروا فى الانفصال عن القلب التركى للامبراطورية والذى ظل هو الحامى الوحيد للاسلام السنى فانه كان هناك عدد كبير من العرب الذين كانوا يأملون فى أن تحصل الأقاليم العربية على اللامركزية والحكم الذاتى والمساواة التامة التركية / العربية • ومن ناحية أخرى نجد أن « الشبان الأتراك » لم يصروا كثيرا على السيطرة التركية حيث كانوا يعتبرونها أمرا مسلما به • ولكنهم فقط عندما شعروا بالتهديد بسبب المشاعر الوطنية المتزايدة التى ظهرت بين العناصر غير التركية فى نطاق الامبراطورية : اليونانيين + الأرمن + الأكراد + العرب فانهم تحولوا الى القومية التركية بشكل محدد • وكانت القومية التركية فى نطاقها الضيق تهدف الى تماسك الأمة التركية المتواجدة فى نطاق الأناضول Anatolia [تقريبا الحدود الحالية للجمهورية التركية] • ولكن كانت هناك حركة أوسع نطاقا ـ وهى حركة الطورانية الشاملة Pan-Turanian ـ التى وضع أيديولوجيتها الكاتب والأديب : ضياء جوكالب Zia Gokalp وكانت هذه الحركة تنادى بتوحيد كافة الشعوب المتحدثة باللغة التركية بما فى ذلك الشعوب المتواجدة فى أواسط آسيا التى نبع منها الأتراك أصلا • وعلى الرغم من أن لجنة الوحدة والتقدم CUP لم تلتزم بشكل رسمى ببرنامج الحركة الطورانية الشاملة الا أن المفهوم الذهنى عن هذه الحركة كان جذابا للغاية من وجهة نظر بعض أعضاء هذه اللجنة مثل انفر بك Enver Bey • وكانت هذه الحركة متسمة بالطابع العنصرى كما كانت رومانتيسكية ومريبة فى طابعها • كما كانت مناهضة للاسلام لأنها تدعو الى العودة الى الفترة التى سبقت اعتناق الأتراك للدين الاسلامى •

وهكذا نرى أن الطابع السائد فى لجنة الوحدة والتقدم CUP كان طابعا علمانيا وقوميا وليس اسلاميا جامعا ـ Pan Islamic • وكان معظم زعماء هذه اللجنة من الماسونيين الذين

كانوا على علاقة وثيقة مع يهود سالونيكا الذين لعبوا دورا هاما فى حركة « الشبان الأتراك » • ولكن هذا لم يكن يعنى انهم يرغبون فى التخلى عن دور الامبراطورية من حيث الزعامة على العالم الاسلامى وهو الدور الذى كان لايزال يعترف به ــ عقب مرور أربعة قرون ــ كل من الرعايا المسيحيين والمسلمين فى داخل الامبراطورية •

وأدرك طلعت بك أن الاتجاهات الجديدة تثير مشكلة أمام أهداف « الشباب الأتراك » الرامية الى خلق امبراطورية مكتسبة الطابع المركزى والعثمانى على نحو يفوق ما كانت عليه فى عهد عبد الحميد • وأشارفى خطابه السرى الذى ألقاه أمام لجنة الوحدة والتقدم لسالونيكا الى أنه فى حين ان الدستور قد نص على تحقيق المساواة بين المسلمين وغير المسلمين الا أنهم جميعا يدركون أن هذا بمثابة مثل أعلى يتعذر تحقيقه :

« فالشريعة وتاريخنا الماضى كله ومشاعر مئات الآلاف من المسلمين بل ومشاعر غير المسلمين أنفسهم الذين يقاومون فى عناد كل محاولة تهدف الى اضفاء الطابع العثمانى عليهم تشكل حاجزا منيعا أمام اقامة وتأسيس مساواة حقيقية • ولقد قمنا بمحاولات غير ناجحة لتحويل غير المسلمين الى عثمانيين مخلصين ومن المؤكد أن مثل هذه المحاولات محكوم عليها بالفشل طالما أن الدول الصغيرة المستقلة فى شبه جزيرة البلقان تظل فى وضع يسمح لها بنشر أفكار الانفصال بين السكان فى مقدونيا » •

وكانت هذه الدول المستقلة : اليونان + الصرب بلغاريا تخشى من احتمال قيام الامبراطورية العثمانية التى دبت فيها الحياة مرة أخرى على أيدى « الشبان الأتراك » بمحاولة من أجل استعادة سيطرتها على البلقان • ولذلك قامت هذه الدول ــ بدون أى تشجيع من الدول الأوربية باستثناء روسيا ــ بعقد تحالف سرى • ثم قامت فى أكتوبر ١٩١٢ بشن حرب ضد تركيا • وبحلول شهر ديسمبر

تمكنت من الاستيلاء على سالونيكا وتراس الغربية Thraca (١) مما أرغم لجنة الوحدة والتقدم على نقل مقرها الرئيسى الى استانبول ٠ وتقهقر الجيش التركى وركز جهوده على الدفاع عن العاصمة ٠ وعندما تشاجر الحلفاء البلقان على تقسيم المغانم فيما بينهم ودخلوا فى حروب ضد بعضهم البعض تمكنت تركيا من استعادة جزء من مقدونيا علاوة على استعادة مدينة ادرين Edirne الهامة ولكن تم التخلى عن جزيرة كريت ومعظم جزر بحر ايجه لصالح اليونان ٠ وبذلك تم القضاء تقريبا على دول تركيا فى داخل أوربا ٠

ولم يتوقع « الشبان الأتراك » أن اضفاء الطابع العثمانى على الرعايا المسلمين فى نطاق الامبراطورية سيثير نفس المشكلات ٠ وكان « الشبان الأتراك » من خلال حماسهم الجديد ازاء القومية التركية يعتقدون أن اضفاء الطابع العثمانى ottomanization يعنى فى حقيقة الأمر اضفاء الطابع التركى turkification [ولسنا بحاجة الى القول بأن نظرية الجامعة الطورانية الشاملة Pan-Turanian لم تكن تروق للعرب العثمانيين] ٠ وصحيح أن اللغة التركية كانت دائما هى لغة طبقة الموظفين العثمانيين ولكن اللغة العربية كانت تحتل مكانها بين جماهير العرب العثمانيين ٠ وكانت اللغة العربية هى السائدة أيضا فى مجال التعليم نظرا لأنها هى لغة الدين الاسلامى ولغة القرآن الكريم ٠ وفى تلك الآونة كان « الشبان الأتراك » يهدفون الى تحويل الامبراطورية المتغايرة العناصر والخواص الى أمة لها لغة واحدة ٠ لذلك تقرر ادخال اللغة التركية كمادة اجبارية فى كل مدرسة ٠ كما تقرر استخدام اللغة التركية فى المحاكم بل وتم تحويل أسماء الشوارع بالمدن الكبرى الى اللغة التركية رغم أن هذه اللغة كانت غامضة وغير مفهومة بالنسبة للغالبية العظمى من السكان فى الأقاليم العربية ٠

(١) تراس : اقليم يقع فى شبه جزيرة البلقان الشرقية ــ (المترجم) ٠

وكانت هذه السياسات الرامية الى اضفاء الطابع التركى بمثابة حافز قوى لايقاظ النزعة العربية Arabism بين العرب العثمانيين • ولكن هذه النزعة العربية كانت لا تزال تقف على مسافة بعيدة من القومية العربية العلمانية التى بزغت فيما بعد : اذ كانت ترتكز أساسا على اعتزازهم باللغة العربية من حيث هى اللغة التى تحدث بها الله سبحانه وتعالى من خلال النبى محمد صلى الله عليه وسلم الى العالم كله علاوة على ارتكازها على المكانة الفريدة للعرب فى تاريخ الاسلام • وكان هذا الوعى العربى مغمورا فى الأعماق • ولكن لم يتعرض للتلاشى والزوال من خلال تقبل القيادة التركية والعسكرية التركية على مدى قرون عديدة •

وكان من بين ردود الفعل العربية على المفهوم الذهنى المتعلق بتسيد العنصر التركى هو انشاء جمعيات عديدة أو تأسيس أحزاب تتركز أهدافها على حماية الحقوق العربية وتحقيق الحكم الذاتى العربى فى داخل نطاق الامبراطورية • وفى بيروت وبغداد والبصرة كان على هذه الجمعيات أن تظل ملتزمة بطابع السرية • ولكن أهم هذه الجمعيات والتى تسمى جمعية الشبان العرب أو الفتات al-Fatat قد أسست بمعرفة مجموعة من الطلبة العرب الذين يدرسون فى باريس وحصلت على العون والتأييد السرى فى جميع أرجاء الأقاليم العربية •

وفى نطاق الامبراطورية كان الزعيم العربى شريف مكة الأكبر فى وضع يسمح له أكثر من غيره بتحدى السيطرة العثمانية • فهو من حيث أنه الحارس الأمين على الأماكن المقدسة الاسلامية والمشرف على الحج الاسلامى كان من الصعب اضفاء الطابع التركى عليه • ولذلك كانت السلطات فى استانبول تضطر لأن تعامله فى احترام وتبجيل• وكان يشغل منصب شريف مكة آنئذ : الحسين بن على وهو العنصر المثير للمتاعب فى الأسرة الشريفة الهاشمية والذى وجه اليه السلطان

عبد الحميد الدعوة فى عام ١٨٩٣ للاقامة في استانبول حتى يتمكن من وضع نشاطه تحت المراقبة الدقيقة • وقامت لجنة الاتحاد والتقدم CUP – من أجل اظهار حسن النوايا أثناء شهر العسل التركى / العربى القصير عقب ثورة ١٩٠٨ – بتعيينه فى منصب الشريف الأكبر متجاهلة التحذيرات الشديدة التى أبداها السلطان عبد الحميد • ولكن سرعان ما شعرت اللجنة بالأسف والندم • اذ أصبح الشريف الحسين بن على البالغ من العمر حوالى ٥٥ عاما المهيب الجليل فى لحيته البيضاء اللون طموحا للغاية • وكانت عذوبته ورقته ومجاملاته الظاهرية تخفى وراءها ارادة حديدية تعزز احساسه بالمصير والقدر الخاص به • ولكنه كان أيضا ملتزما بالحرص والحذر حيث تعمد عدم اثارة المتاعب على الفور مع الأتراك • بل وقاد حملة عسكرية ناجحة نيابة عنهم لكى يقمع تمردا نشب فى اقليم عسير • الذى يقع فى جنوب غرب شبه الجزيرة العربية • وفى مقابل ذلك شجعته الحكومة العثمانية على مد نفوذه الى المناطق الداخلية فأدى ذلك الى دخوله فى صراع عنيف مع المنافس العربى العتيد : بيت سعود وهو الصراع الذى سيؤدى فى نهاية الأمر الى سقوط الهاشمية فى شبة الجزيرة العربية مثلما أن الهاشميين سيصبحون هم الأداة التى تسببت فى الاطاحة بالحكم التركى فى الاقاليم العربية بالامبراطورية •

وكان بيت سعود قد تغلب على انقساماته الداخلية فى خلال الستينات من عام ١٨٦٠ وهى الانقسامات التى ساعدت الأتراك على احتلال الجزء الشرقى من شبه الجزيرة العربية ولكن بيت سعود تكبدوا بعد ذلك الهزيمة على أيدى منافسيهم الصامدين الأشداء المتواجدين فى شمال نجد • وفى عام ١٨٩١ اضطر عبد الرحمن زعيم بيت سعود الى الهرب من الرياض واللجوء الى أمير الكويت • وكان برفقته أكبر أبنائه الخمسه وهو عبد العزيز البالغ من العمر عشر سنوات آنئذ والذى اشتهر بعد ذلك باسم ابن سعود والذى

برهن على أنه من أعظم الشخصيات البارزة فى التاريخ الحديث للشرق الأوسط ٠

وما أن وصل ابن سعود الى سن الرجولة حتى سيطر على رفقائه من خلال جاذبيته وشخصيته القوية ٠ ونجح فى عام ١٩٠٢ فى استعادة الرياض العاصمة السعودية من خلال الاستعانة بقوة عسكرية صغيرة ٠ ثم شرع فى استعادة الدولة السعودية / الوهابية السابقة ٠ وكان نفوذ رشيدى Rashidi فى حالة من الاضمحلال ٠ وتمكن ابن سعود من اعادة فتح نجد ٠ وواصل جهوده فى عام ١٩١٣ لكى يحتل اقليم الحساء الواقع فى الجزء الشرقى من شبه الجزيرة العربية والذى كان خاضعا بعض الشيء للسيطرة التركية ٠ واعترفت بريطانيا بابن سعود من حيث هو « سلطان نجد والبلاد التابعة لها » ولكن لم يكن بمقدوره الذهاب الى أبعد من ذلك نظرا لأن سواحل الخليج الفارسى كله ابتداء من الكويت حتى عمان كان خاضعا للنفوذ البريطانى فقط ٠

وتعرض ابن سعود لنكسة فى الجزء الغربى من شبه الجزيرة العربية ٠ اذ نجح الشريف حسين فى أخذ الشقيق المفضل لدى ابن سعود والذى يسمى : سعد رهينة فاضطر ابن سعود للموافقة على تقبل سيادة عثمانية اسمية لكى يفتدى شقيقه ٠ ثم أقسم أن ينتقم من الهاشميين ٠

وبعد أن جعل الشريف حسين من نفسه انسانا لا غنى عنه بالنسبة للأتراك فانه شرع فى تدعيم حقوق منصبه ووقار وظيفته ومواجهة النفوذ العثمانى على الحجاز ٠ ولكنه كان يتطلع الى ما هو أكثر من ذلك : اذ كان يرغب أن يجعل من الحجاز اقليما عربيا متمتعا بالحكم الذاتى وبحيث يصبح الحجاز نواة لحصول كافة الأقاليم العربية فى داخل نطاق الامبراطورية على الاستقلال ٠

وكان أبناء الحسين والذين أصبحوا آنئذ فى سن الرجولة يشاركون والدهم فى طموحاته • وكان عبد الله وهو الابن الثانى وأكثر الأبنـــاء ذكاء ومهارة مندوبـا عن مكة فى البرلمان العثمانى الجديد • وكان يسبب للجنة الوحدة والتقدم شكوكا هائلة • لذلك حاولوا استمالته بأن عرضوا عليه تولى منصب الحاكم العـام على اليمن التى كان النفوذ العثمانى قد عاد اليها مؤخرا • الا أنه رفض ذلك العرض فى حكمة وبراعة • ونظرا لأنه كان اقل حرصا وحذرا من والده فانه قام بزيارة للقاهرة فى فبراير ١٩١٤ لكى يستطلع رأى المندوب السامى البريطانى اللورد كتشنر وسكرتيره الشرقى السير رونالد ستورز بشأن مدى امكان قيام الحكومة البريطانية بمساندة طموحات عائلته التى تعبر عن طموحات العرب جميعا • ولكن على الرغـم من أن بريطانيـا فى ذلك الوقت لم تكن تعرف الكيفيـة التى يمكن بها تجنب الحـرب مع ألمانيـا وهى أكبر دولة استعمارية جديدة منافسة لبريطانيا فانها لم تكن تعتقد أن التحالف العثمانى مع ألمانيا أمر حتمى ولا مفر منه• وظلت السياسة التقليدية البريطانية التى تعتبر أن بقاء الامبراطورية العثمانية على قيد الحياة يدعم المصالح البريطانية مستمرة وباقية • ولذلك كان كتشنر غير واضح فى آرائه بشـكل مثبط للآمال مما جعـل عبد الله يشعر بالاحباط وخيبة الأمل •

وبعد الانقلاب المضاد الفاشل الذى قـام به عبد الحميد فى عام ١٩٠٩ أصبحت لجنة الوحدة والتقدم CUP منفردة بالسلطة فى الامبراطورية وأصبح لها مطلق الحرية فى اتبـاع سياسـاتها غير الليبرالية المركزية • لذلك قاموا على الفور بمنع انشاء الجمعيات السياسية التى ترتكز على المجموعات العرقية أو القومية وأغلقوا نوادى وجمعيات الأقليات • بل وتوسعوا فى استخدام عقوبة الاعدام على نحو يفوق ما كان يحدث فى عهد عبد الحميد • ولكن سياسات لجنة الوحدة والتقدم Cu تعرضت للتحدى • ففى داخل حركة

« الشبان الأتراك » كانت توجد دائما ميول ليبرالية تفضل لامركزية السلطة وترى أن اضفاء الطابع العثمانى • لا ينبغى أن يتم من خلال فرض الهيمنة الثقافية والسياسية التركية ولكن من خلال خلق امبراطورية متعـددة الأعراق والأجناس ومتعـددة الطوائف والملل الدينية وبحيث يتم احترام حقـوق الحكم الذاتى للأقليات الدينية والقومية • وكان يمثل هذه الميول الليبرالية : رابطة اللامركزية العثمانية للأمير صلاح الدين وهو ابن أخ عبد الحميد والذى كان قد ذهب الى المنفى بباريس لكى يهرب من الحكم الاستبدادى الذى يمارسه عمه عبد الحميد • ونظرا لأن برنامجه السياسى كان يركز على نقل السلطة الى أقاليم تتمتع بالحكم الذاتى تحت ظل العلم العثمانى عـلاوة على حماية الجنس التركى فـانه اجتذب اعجاب العرب والأتراك الليبراليين • وظهرت فروع لهذه الرابطة فى جميع أرجاء الامبراطورية • وقد تم حل هذه الرابطة على أساس أنها هدامة بمعرفة لجنة الوحدة والتقدم عقب تفجر ثورة ١٩٠٨ • الا أنها ظلت تعمل فى السر وظهرت على السطح مرة أخرى فى عام ١٩١٢ تحت اسم : حزب اللامركزية الادارية العثمانية • وهو الحزب الذى تشكل فى القاهرة تحت الرعاية البريطانية بواسطة مجموعة من المهاجرين السوريين البارزين •

وعلى الرغم من قمع الرابطة الأمير على أيدى لجنة الوحدة والتقدم كان يوجد المزيد من الأعضاء بالبرلمان العثمانى الجديد ممن يفضلون الحكم الدستورى الممزوج بدرجة ما من اللامركزية • وكانوا يعتقدون أن لجنة الوحدة والتقدم أكثر استبدادا فى وسائلها من السلطان عبد الحميد • وتلقوا العون والتـأييد من رجال الدولة الليبراليين المحترمين الكبار فى السن المنتمين لعهد عبد الحميد •

وقام جميع هؤلاء الأفراد والمجموعـات بتوحيد صفوفهم فى عام ١٩١١ وكونوا جبهة معارضة واحدة تسمى : الاتحاد الليبرالى •

وسرعان ما أظهر ذلك الاتحاد أنه يتمتع بتـأييد شـعبى على نطاق واسع • فسارعت لجنة الوحدة والتقدم الى حل البرلمان واستخدام كافة وسائل الضغوط فى الانتخابات التـالية والتى عرفت باسم « الانتخاب المريض » مما أدى فى نهاية الأمر الى حصول المعارضة على ستة مقاعد فقط من بين مجموع المقاعد البالغ عددها ٢٧٥ مقعدا •

وأدى هذا الاجراء الاستبدادى الى تفجر معارضة أشد خطورة بين صفوف القوات المسلحة ضد لجنة الوحدة والتقدم • وطالبت مجموعة تسمى « الضباط المنقذون » بانسحاب الجيش من الشئون السياسية • وقامت باستخدام حركات عسكرية تهديدية بتدعيم من وحدات عسكرية ألبانية من أجـل تحقيق انقلاب غير دموى مما أرغم الحكومة الواقعة تحت سيطرة لجنة الوحدة والتقدم الى تقديم استقالتها • وحلت محلها حكومة جديدة برئاسة الليبرالى المحنك كامل باشا •

ولم تستمر الفترة الليبرالية سوى شهور قليلة • اذ كانت الحرب البلقانية قد وصلت الى أخطر مراحلها بعد أن وصل الأعداء الى مشارف استانبول • وأصبحت الفرصة متاحة أمام لجنة الوحدة والتقدم لكى تستعيد نفوذها • وفى ٢٣ يناير ١٩١٣ قام انفر بك Enver Bey مجموعة من الضـباط باقتحام مقر الحـكومة واطلاق الرصـاص على وزير الحربية مما أدى الى مصرعه على الفور • وسـيطرت لجنة الوحدة والتقدم على الحكم مرة أخرى • فاختفت الليبرالية التركية ولجأت الى العمل السرى على مدى فترة طويلة •

وأصبحت الامبراطورية تحكم بواسـطة ديكتاتورية ثلاثية تضم : انفر بك وطلعت باشـا وجمال باشا • وكان انفر ــ وهو الأصغر سنا بين الثلاثة أعضاء ــ شجاعا ومغرورا ومتقدا بالحيوية والتوهج وكان لايزال هو البطل الشعبى « للشبان الأتراك » • وكان يتمتع أيضا بشعبية كبيرة فى داخل الجيش • وقام بتركيز جهوده

على احياء وتطوير القوات المسلحة العثمانية التى كانت روحها المعنوية منخفضة للغاية عقب الكوارث البلقانية • وكان شديد الاعجاب بالقوة العسكرية لألمانيا التى كانت تساعد فى تدريب الجيش العثمانى • ولذلك أصبح أكثر أعضاء حكومة الثلاثة موالاة لألمانيا • وعلى النقيض من انفر بك كان جمال باشا فاترا وواثقا من نفسه فى هدوء • الا أن أدبه الارستقراطى كان يخفى وراءه نوعا من القسوة الشديدة • أما طلعت باشا وهو الشخص المدنى الوحيد فى حكومة الثلاثة فكان أكثرهم ذكاء وكفاءة • وكان عبقريا فى أفكاره • وكان وسيما وجذابا ومتسما بالروح الفكاهية ولكنه كان عنيدا ومتشددا للغاية فى حماسه الشديد للوطنية التركية •

وبحلول عام ١٩١٤ كانت لجنة الوحدة والتقدم قد مارست الحكم فى الامبراطورية على مدى حوالى ست سنوات • وكانت فترة الحكومة الليبرالية قصيرة للغاية مما أدى الى عدم ترسيخ سياساتها • وقد أدت هذه الأوضاع الى احداث تدهور خطير فى العلاقات التركية/العربية بالأقاليم العربية• ولكن فى الأراضى الرئيسية التركية كانت هناك بعض الانجازات الجوهرية من النوع الذى يرتبط عادة بأنظمة الحكم الديكتاتورية الحديثة الفعالة التى لها اهتمامات قليلة بالحريات الدستورية • اذ تحسن الحكم فى الأقاليم والمجالس البلدية الى درجة كبيرة وأصبحت المدن الكبيرة أكثر نظافة وأمنا علاوة على تنظيم وسائل النقل العام • كما أن جافيد Javid باشا وزير المالية البارع ـ وهو من اصل يهودى ـ قد تمكن الى حد ما من تخفيف عبء الديون الأجنبية عن كاهل الامبراطورية ـ وخاصة أثناء سنوات الحروب الباهظة التكاليف • كما أدخل اصلاحات ناجحة على نظام الضرائب بهدف زيادة الدخل [ولقد فشلت لجنة الوحدة والتقدم فى جهودها الرامية الى تصفية الامتيازات الأجنبية • وظلت الامتيازات متواجدة الى أن اشتركت تركيا فى الحرب الأوربية العظمى] •

وربما كان أعظم انجاز للشبان الأتراك يتمثل فى التوسع فى التعليم • اذ اعتمدوا على الجهود التى سبق أن بذلها المصلحون فى القرن التاسع عشر وانطلقوا الى المزيد من الاجراءات الرامية الى خلق نظام تعليمى تقدمى حديث على كافة المستويات علاوة على انشاء كليات جديدة لتدريب المدرسين ومعاهد أخرى متخصصة • وكانوا أول حكام فى دولة اسلامية مستقلة يخلقون نظاما تعليميا حكوميا مفتوحا أمام البنات والفتيات حيث كانت فتيات الطبقات الغنية هن فقط اللائى يحصلن على التعليم فى مدارس خاصة تابعة للقطاع الخاص • وأصبح الطريق مفتوحا أمام النساء التركيات لأن تدخلن الحياة العامة كمحاميات وطبيبات وموظفات فى الشئون الادارية •

ومن الصعب تقييم مدى نجاح انفر بك فى تحديد وتطوير القوات المسلحة العثمانية • وكان حجم القوات المسلحة هائلا للغاية حيث وصل الى مليون جندى فى الوقت لذى تولى فيه الشبان الأتراك السلطة فى البلاد • ثم ازداد هذا الرقم بعد ادخال نظام التجنيد الاجبارى • ولكن الأهم من ذلك كان هو رفع المستويات العسكرية وتحديث الأسلحة • ولذلك تم تعيين الجنرال الألمانى ليمان فون ساندرز مفتشا عاما على الجيش العثمانى كما تم تكليف الأدميرال البريطانى ليمبوس **Limpus** بمهمة اعادة تنظيم البحرية العثمانية • وعندما تفجرت الحرب فان خصوم تركيا الذين لم يكن لديهم أى شك على الاطلاق فى شجاعة الجنود الأتراك اكتشفوا أنهم أصبحوا مدربين على الحرب الحديثة على نحو يفوق توقعاتهم •

ولم تكن لجنة الوحدة والتقدم فى سياساتها الخارجية بأى حال من الأحوال غير متسمة بالدهاء • وكان الهدف الرئيسى يتركز على الحفاظ على الامبراطورية الآسيوية لتركيا وتدعيم دفاعاتها • وتسببت حدة المنافسة بين الدول الأوربية الى خلق فرصة للمناورة •

وكان كل من طلعت باشا وجمال باشا متلهفا على عقد تحالف مع الحلف الثلاثى الذى يضم روسيا وفرنسا وبريطانيا والذى يهدف الى خلق توازن فى أوربا فى مواجهة طموحات دول أواسط أوربا المتمثلة فى ألمانيا الامبريالية والنمسا / المجر الامبريالية • وكانت روسيا أشد الدول رغبة واستجابة حيث كانت مذعورة وخائفة للغاية من المركز التسيدى الذى حصلت عليه ألمانيا فى داخل استانبول مما جعلها تخشى من احتمال سيطرتها على مضايق الدردنيل • وعلى الرغم من أن بريطانيا وفرنسا كانت قد أبدت نزعة بالخير والاحسان تجاه ثورة الشبان الأتراك الا أنهما لم يكن لديهما الاستعداد لادخال الدول البلقانية فى أى ضمانات اقليمية لصالح الوضع المتبقى لتركيا فى داخل أوربا • وكانتا تتوقعان أن تظل تركيا باقية على الحياد لدى تفجر أى حرب فى المستقبل وبذلك تظل مصالحهما فى حالة من الأمن والأمان • ولم تعد بريطانيا تعتقد أن الابقاء على حياة الامبراطورية التركية يشكل أهمية كبيرة لأن التحالف مع روسيا كان يقدم حماية كافية للمصالح البريطانية فى الخليج الفارسى •

وعلى الرغم من الجهود المتكررة التى بذلها طلعت باشا وجمال باشا فانهما عجزا عن تحقيق تحالف مع الحلف الثلاثى • ونظرا لأنهما كانا يشعران بالحاجة الشديدة للحماية من احدى القوى فانهما تقبلا وجهة نظر انفر باشا بضرورة التحالف مع ألمانيا • وفى ٢ أغسطس ١٩١٤ ــ أى عقب مرور خمسة أيام على اغتيال الأرشدوق النمساوى فرنسيس فرديناند فى سراييفو والذى كان سببا مباشرا فى تفجر الحرب العالمية الأولى ــ وقعت تركيا على تحالف سرى مع ألمانيا ينص على السماح لتركيا بالبقاء على الحياد اللهم الا اذا تدخلت روسيا فى الصراع النمساوى/الصربى الذى كان قد تفجر مؤخرا • وفى ٤ أغسطس أعلنت بريطانيا الحرب على ألمانيا • ولكن حتى تلك الآونة لم يكن كل شيء قد ضاع • اذ أن طلعت باشا كان لا يزال يفضل البقاء على الحياد • كما أن العلاقات الدبلوماسية مع بريطانيا

كانت مرضية ومعقولة · كما أن البعثة البحرية البريطانية برئاسة الأدميرال ليمبوس وكذلك السفير البريطاني السير لويس ماليت كانا يتمتعان بمكانة عالية · وفي لندن كان السفير العثماني حقي باشا قد نجح بحلول صيف عام ١٩١٤ في انجاز سلسلة من الاتفاقيات التي أدت الى حسم كافة الخلافات البارزة بين تركيا وبريطانيا وبين فرنسا وألمانيا بشأن مصالحهم المتعلقة بالسكة الحديد في ميزوبوتاميا [العراق] وسوريا والمتعلقة بالملاحة في نهرى دجلة والفرات · وكذلك أوضحت اتفاقية عثمانية / بريطانية الحدود بين الكويت ونجد والعراق ·

وفي نهاية الأمر ألغت تركيا حيادها لأن انفر Enver ـ وهو العضو المسيطر في حكومة الثلاثة ـ كان واثقا تماما من أن ألمانيا سوف تنتصر في الحرب القادمة · وازلت كافة الشكوك ازاء الوقوف الى جانب ألمانيا عندما قامت بريطانيا بمصادرة بارجتين تركيتين لأغراض عسكرية حيث كان تصنيعهما على وشك الانتهاء في أحواض بناء السفن البريطانية · اذ تسبب هذا الاجراء الاستبدادى في اثارة موجة من الاستياء والمشاعر المناهضة للبريطانيين في جميع أرجاء تركيا · وعندما تدفقت السفن الألمانية والجنود الألمان الى استانبول قام الأسطول البريطاني بغلق مضايق الدردنيل وطلب من تركيا أن تؤكد وقوفها على الحياد بأن تقوم بطرد البعثة الألمانية · وفي ٢٨ أكتوبر أخذ الأدميرال الألماني الأسطول التركي الى البحر الأسود لكي يقصف الموانى التركية وفي ٣ نوفمبر قام الأسطول البريطاني بقصف الموانى التركية الواقعة عند مدخل الدردنيل · وعلى الرغم من أن انفر ورفاقه كانوا غير راغبين في الانضمام الى الحرب قبل أن يكون لديهم الوقت الكافي لحشد وتحريك قواتهم العسكرية الا أنهم لم يكن بمقدورهم التراجع · وأعلنت تركيا الحرب على الحلفاء في ٥ نوفمبر ·

الفصل السابع

العـــامل الفـــارسى

The Persian Factor

لقد أدى الانشقاق الهائل الوحيد فى الاسلام بين أهل السنة والشيعة والذى حدث عقب وفاة محمد صلى الله عليه وسلم الى صراع طويل من أجل السيطرة على العالم الاسلامى بين فرعى الدين · وعلى مدى أربعة قرون أصبح بامكان الاسلام الشيعى أن ينتصر وينتشر ووصل الى ذروة نفوذه وسلطانه فى عـــام ١٠٠٠ ميـــلادية · ولكن الأتراك السلاجقة الأوائل الذين تمكنوا من السيطرة على الأراضى الرئيسية الاســـلامية فى القرن الحادى عشر ومن بعدهم خلفاؤهم العثمانيون الذين ظهـــروا عقب مرور ٤٠٠ عـــام كانوا من السنيين المتحمسين للغاية للمذهب السنى الاســـــلامى · واستمر المذهب الشيعى فى البقاء والازدهار فى بلاد فارس وميزوبوتاميا ولكن منذ ذلك الوقت فصـــاعدا أصـــبح الشـــيعة يشـــكلون أقلية آخذة فى الاضمحلال التدريجى فى الأمة الاسلامية ·

ولا يوجد اختلاف عقائدى كبير بين الاسلام السنى والاسلام الشيعى · فهما متفقان فى الرأى من حيث أن النبى هو التمركز

المطلق فى الدين ومن حيث معظم التفاصيل التاريخية لحياته · كما لا توجد فوارق كبيرة فى الطقوس · كما يوجد اجماع فى الرأى حول المسائل اللاهوتية · فالشقاق أو الانقسام هو شقاق تاريخى وسياسى · اذ يعتقد الشيعة أن النبى كان ينبغى أن يخلفه ابن عمه وزوج ابنته على بن أبى طالب وأن الخلافة محتجزة من أجل المنحدرين عن محمد من خلال ابنته فاطمة الزهراء وزوجها على بن أبى طالب · والخليفة أو الامام الذى كان أيضـا هو المفسر المعصوم من الخطأ للاسلام كان يتم تعيينه بوجه عام بمعرفة الامام السـابق من بين أبنائه · ويعتقد معظم الشيعة أنه كان يوجد اثنا عشر اماما : على وابناه الحسن والحسين وتسعة آخرون من سلالة الحسين · وكان آخرهم الامام محمد المولود فى عام ٨٦٣ والذى احتجب أو اختفى فى غموض · وشيعة الاثنى عشر الذين يشكلون فى القرن العشرين الغالبية العظمى من الشيعة فى العالم يعتقدون فى أن الامام محمد فى حالة احتجاب فقط وأنه سوف يظهر مرة أخرى من حيث هو المهدى لكى يستعيد العصر الذهبى [وهنـاك طائفة شيعية أخرى تتواجد فى اليمن فقط وتعرف باسم الزيديين · كما توجد فروع أخرى للمذهب الشيعى مثل الدروز والعلويين والاسماعيليين وهى صغيرة من حيث العدد ولكنها تتمتع بأهمية سياسية كبيرة محلية]·

وقام شاه اسماعيل الأول عاهـل الفرس والذى حكم بلاد الفرس من عام ١٥٠/١ الى عام ١٥٢٤ وأسس أسرة الصفاويد الحاكمة [١٥٠١ ـ ١٧٣٦] باصدار قانون ينص على أن المذهب الشيعى هو الدين الرسمى للدولة · وربما كانت غـالبية رعايـاه من السنيين الا أنه استخدم العقيدة الجديدة لكى يربط بين شعوبه المتفاوتة المتباينة · وأصبح الاسلام الشيعى هو الأساس الذى ترتكز عليه القومية الفارسية المتسمة بالافتخار بل والمصابة بعقـدة الخوف من الأجانب والتى مازالت تحقق الازدهار فى العصر الحديث حيث أن بلاد الفرس [والتى سميت : ايران فى عام ١٩٣٥] ظلت على مدى

القرون الأربعة الماضية هى الدولة / الأمة الوحيدة الهامة التى يعتبر الدين الرسمى بها هو المذهب الشيعى ٠

وكان اسماعيل يعلق آمالا واسعة على المذهب الشيعى الخاص به ٠ وعندما قام السلطان العثمانى السنى المتعصب للمذهب السنى سليم الأول باضطهاد رعاياه من الشيعة حاول اسماعيل تقديم العون والنجدة لهم ٠ وكانت قواته العسكرية غير المدربة غير متكافئة مع القوات الانكشارية العثمانيـــة فتعرض للهزيمة ٠ ولكنه تمكن من منع الأتراك من الاستيلاء على أية مساحات من أراضيه ٠ بل واستمر فى الاحتفاظ بأقاليم الموصل وبغداد التى كان قد استولى عليها خلال حملات عسكرية ســـابقة كمـــا تمكن أيضـــا من ايقاف زحف الأزباكستانيين السنيين فى تركستان وصدهم نحو الشمال الشرقى ٠ وبذلك يمكن القول أن بلاد الفرس قد اتخذت موقفا دفاعيا ولكن تهديدات الأعداء السنيين قد ساعدت على توحيد الأمة الفـارسية وتماسكها ٠

واســـتمر الصراع بين الامبراطورية العثمانيـــة الســـنية والامبراطورية الفارسية الشيعية على مدى أكثر من قرنين من الزمان على طول حدودهما المشتركة الممتدة على مسافة ١٥٠٠ ميل من البحر الأسود الى الخليج الفارسى٠وكانت المعارك الدائرة من أجل الاستيلاء على ميزوبوتاميا تتأرجح جيئة وذهابا٠ثم حسمت فى نهاية الأمر لصالح العثمانيين فى نهاية القرن السابع عشر ٠ ورغـم ذلك لم تصبح ميزوبوتاميا فى مأمن من الهجمات الفارسية من وقت لآخر ٠ ولقد ظلت الحدود الغربية لبلاد الفرس ثابتة بدون أن يطرأ عليها أى تغيير حتى الوقت الحالى ٠

ونظـرا لأن الامبراطـورية العثمانية كانت بحاجة لأن تحمى نفسها من التواجد الفارسى العدائى على حدودها الشرقية فان ذلك قد أدى الى ايقاف التوسع التركى نحو الغرب مما جعل الدول الأوربية

المسيحية تنظر بعين الامتنان والشـــكر لبلاد الفرس • وفى نفس الوقت نجـد أن الامبراطـورية العثمانية قد ساعدت على عـزل الامبراطورية الفارسية عن الغرب •

وباسـتثناء فترات قصيرة من الصحوة والعودة الى الوضـع السوى نجد أن أسرة الصفاويه الحاكمة قد دخلت فى فترة طويلة من التدهـور العلمانى عقب وفـاة مؤسسها • وكانت ذروة مجد وازدهـار هذه الأسرة تتمثل فى فترة حـكم شاه عبـاس الأكبر [١٥٨٧ ـ ١٦٢٩] • اذ تمكن من خلال المساعدة التى قدمها المغامر البريطانى السير روبرت شيرلى من تنفيذ الكثير من الاصلاحات التى كان جيشه فى أمس الحاجة اليها علاوة على انشاء فريق الفروسية الممتاز الذى يمكن مقارنته بالانكشارية التركية • وقد شهد حكمه الفترة التى تفجر فيها الصراع ضد العثمانيين • وكان اداريا قديرا وكان يتميز بالموهبة والعبقرية • واتخذ من أصفهان عاصمة له • وأصبحت أصفهان نموذجا رائعا للفن المعمارى الاســـلامى • كما شجع التجارة والصناعة • ورغم أنه كان مسلما متعصبا للغـاية للمذهب الشيعى فانه شجع الأرمن المسيحيين على الاقامة فى أحد أحياء العاصمة ، وازداد حجم أصفهان العاصمة الى أن أشار زواره من البريطانيين الى أنها أصبحت تنافس لندن من حيث الحجم •

وعندما انتقل شاه عباس الى رحمة الله فانه ترك بلاده وهى أقوى بكثير مما كانت عليه عندما صعد الى العرش وهو فى سن السـادسة عشرة • وكانت بوادر التغلغـــل الأوربى فى داخـل الامبراطورية الفارسية قد بدأت منذ فترة وجيزة للغاية • وتمكن شاه عباس بمساعدة أسطول شركة الهند الشرقية البريطانية من طرد البرتغاليين الذين كانوا قد حصلوا منذ قرن من الزمن فى عهد شاه اسماعيل على قاعدة حربية فى جزيرة هرمز علاوة على الحصول على نقطة انطلاق فى الأراضى الرئيسية المجاورة • وفى مقابل ذلك

فانه منح هذه الشركة امتيازات هامة فى ميناء بندر عباس الذى سمى باسمه • الا أن السيطرة البريطانية على الخليج كانت لا تزال قابعة فى غياهب المستقبل •

وكان يتم استقبال مبعوثى الدول الأوربية الى بلاط عباس فى احترام وتقدير ولكنه كان يرفض اقتراحهم بشأن قيامه بعقد تحالف معهم ضد الأتراك العثمانيين ـ وكان انعزال الفرس عن الغرب هو أفضل الضمانات التى أدت الى الحفاظ على سلامة أراضى الامبراطورية الفارسية •

ولكن عباس ترك فى بلاده تراثا واحدا مميتا : اذ أنشأ بدعة وضع الأمير ولى العهد وغيره من الأمراء الآخرين فى الحجز مع الحريم ـ وهو تقليد كان يشبه كثيرا ما يحدث فى البلاط العثمانى ـ لأغراض تتعلق بالأمن • وكانت النتيجة أن أصبح ولى العهد والأمراء الآخرون فى حالة شديدة من الضعف الجسمانى وعدم البجزة فى فى شئون الحكم • ولذلك نجد أن خلفاءه على العرش كانوا يتسمون بالقسوة والاستبداد وعدم الكفاءة مما جعل خصى البلاط يحصلون على المزيد من القوة والنفوذ •

وفى عام ١٧٠٩ تمرد الأفغان السنيون وتمكنوا من الحاق الهزيمة أكثر من مرة بالقوات الفارسية الرديئة القيادة التى أرسلت لقمعهم • بل ونجحوا فى الاستيلاء على أصفهان وأرغموا الشاه على الفرار والهرب • وسيطر الأفغان على جزء من البلاط فقط واستمرت الغالبية العظمى من الشعب تدين بالولاء للصفاويد •

وأصبحت بلاد فارس فى حالة من الضعف الشديد • وكان بيتر الأكبر قيصر روسيا يسعى منذ فترة طويلة الى انشاء طريق تجارى يؤدى الى الهند عبر بحر قزوين Caspian Sea والأراضى الواقعة وراءه • فقام بغزو بلاد فارس فى عام ١٧٢٢ زاعما أن

هجمات قد وقعت على بعض التجار الروس فى شمال الفرس أثناء تمرد قبلى • وقد أدى هذا الاجراء الى اثارة ذعر الأتراك العثمانيين فبادروا على الفور الى غزو بلاد الفرس بهدف منع روسيا من الاستيلاء على أراضى تقع على حدودهم • وتم تجنب نشوب الحرب بين روسيا وتركيا من خلال التسوية التى تمت فى عام ١٧٢٤ والتى وافق الطرفان بمقتضاهما على تقسيم الأماكن الشمالية والغربية لبلاد فارس بينهما وترك باقى الأراضى للمغتصبين الأفغان المتواجدين فى أواسط البلاد وترك الأماكن المتواجدة فى الشرق للصفاويد • ولذلك كانت الضغوط الروسية من الملامح الدائمة المتعلقة بالتواجد الفارسى •

وفى عام ١٧٢٩ تم اعادة الصفاويد الى العرش • ولم يتم ذلك الا من خلال المساعدة التى قدمها نادر قولى بيج quil Beg Nadir وهو أحد أعضاء قبيلة أسفار Asfar • وكان فيما سبق زعيما لعصابة من اللصوص ولكنه أصبح بعد ذلك جنرالا عسكريا عبقريا • وفى عام ١٨٣٦ أطاح بالشاب شاه عباس الثالث منهيا بذلك فترة حكم أسرة الصفاويد • وتربع على عرش البلاد ومنح نفسه لقب : نادر شـــاه •

وقبل أن يصعد نادر شاه الى العرش فانه كان قد نجح من خلال مهاراته العسكرية فى ارغام الأتراك العثمانيين والروس على التخلى عن الأراضى التى سبق أن استولوا عليها بالقوة • كما تمكن من استعادة كانداهار من الأفغان • وبذلك يكون قد استعاد كافة الحدود السابقة لبلاد الفرس • ولكن هذا الرجل الشديد الطموح لم يقنع بكل هذه الانجازات الهائلة • فتحول بجيوشـــه الى جهة الشرق لكى يغزو الهند التى كانت تحــكمها أسرة المغــول Magul الحاكمة والتى كانت غارقة فى الفساد والاضمحلال ولكنها كانت لا تزال شاسعة الثراء والغنى وتمكن من عبور ممر خيبر الحصين وألحق الهزيمة بالامبراطور المغولى محمد شاه • وفى مارس ١٧٣٩

دخل دلهى فى انتصار . وكانت الغنائم على نطاق هـائل . ولقد أشار مؤرخ هندى الى « أن الثروات المتراكمة على مدى ٣٤٨ عاما انتقلت ملكيتها فى لحظات » وكان من بين الغنائم التى تم الاستيلاء عليها عرش الطاووس الذى نقله نادر الى بلاد الفرس حيث استخدم فى تتويج الحكام الذين حصلوا على لقب الشاه فى المستقبل .

لقد نجح نـادر فى انجاز الأمـور التى فشـل فى تحقيقها الاسكندر الأكبر من قبل . ولكنه لم يحاول الاحتفاظ بالهند حيث أعاد معظم أراضى محمد شاه اليه واحتفظ فقط بالأقاليم الواقعة على الضفاف الجنوبية لنهر الهندوس والتى كانت تابعة للامبراطورية الفارسية فى عهد داريوس الأكبر .

وظل يموج بالرغبة الشديدة فى تحقيق المزيد من الفـتح والغزو . فتحول الى الولايات الأزبكستانية باقليم التركستان الواقعة فى الشمال الشرقى واستولى على سمرقند وبخارى . وتوغل فى القوقاز لكى يوقف زحف الروس المتقدمين . وبحلول عام ١٧٤٠ نجد أنه قد استعاد حدود بلاد الفرس وتوسع فيها بل وتمكن من تدعيم بلاده عسكريا وخلق منها قوة حربية هائلة . الا أن عبقريته كانت تقتصر على النواحى العسكرية فقط حيث لم يهتم بخلق شئون ادارية بالامبراطورية تتسم بالكفاءة والعدالة . اذ كان بونابرت فارسى بدون دستور نابليونى . وكان يتصف بالقسوة والخشونة وكان يموج بالشكوك والهواجس مما جعل رعايـاه يشعرون بالكراهية نحوه . وعندما اغتيل فى عام ١٧٤٧ على أيدى مجموعة من الضباط التابعين له لم يحزن عليه سوى عدد قليل للغاية . وشهدت البلاد حوالى خمسين عاما من الفوضى النسبية بسبب التنازع على العرش بين عدد من المتنافسين المطالبين به . وفى عام ١٧٩٤ تمكن أغا محمد زعيم قبائل القاجار qajar من الحاق الهزيمة بأعدائه وجعل من نفسه شاها على البلاد . وعلى الرغم من أنه كان خصيا [حيث تم

تحويله الى خصى عندما وقع فى الأسر أثناء فترة شبابه] الا أنه أصبح مؤسس أسرة القاجار الحاكمة التى استمرت فى الحكم حتى عام ١٩٢٥ • واتخذ من مدينة طهران عاصـمة له عقب الاستيلاء عليها • وبعد أن تم اغتياله فى عام ١٧٩٧ صعد الى الحكم فتح على Fath Aly ابن أخيه الذى ظل يحكم البلاد حتى عام ١٨٣٤ •

وبحلول بداية القرن التاسع عشر كانت عزلة الفرس الطويلة عن الغرب قد انتهت • لأن الامبراطورية العثمانية التى كانت بمثابة حاجز لحماية الفرس من الغرب رغم مشاعرها العدائية ازاء الفرس قد أصبحت فى حالة من التدهور الشديد الذى يتعذر ايقافه • وكانت بريطانيا مستحوذة على الهند وكان أسطولها البحرى مسيطرا على مياه الخليج الفارسى • كما أن الامبراطورية الروسية كانت مستمرة فى توسعاتها الاستعمارية الكبيرة نحو الشرق فى داخل آسيا وهى التوسعات التى كانت قد بدأت فى عهد بطرس الأكبر • وأصبحت الفرس طـوال فترات القرن التـاسع عشر واقعة تحت الضغوط الشبيهة بالكماشة التى تمارسها هاتان الدولتان الكبيرتان •

الا أن فرنسا ــ وخاصة الطموحات الكبيرة لنابليون بونابرت ــ هى التى كان لها تأثير كبير فى ادخال الفرس فى فلك السياسات الأوربية • فبعد أن فشل نابليون فى محاولته الرامية الى استخدام مصر كنقطة انطلاق للهجوم على البريطانيين فى الهند نجد أنه وضع خطة فى عـام ١٨٠٠ لغزو الهند عن طريق أفغانستان من خـلال التحالف مع بول قيصر روسيا • وعلى الرغم من أن هذه الخطة لم تكن متسمة بالطابع العملى الا أنها أثارت الذعر الشديد بين الحكام البريطـانيين فى الهند • وتعـرضت هذه الخطة للاجهاض بسبب اغتيال القيصر بول فى عام ١٨٠١• الا أن التهديد الفرنسى ظل قائما ومستمرا • وعندما تمكن الروس الزاحفون من ضم مقـاطعتين من جورجيا ثم أعلنوا الحرب على الفرس فى عام ١٨٠٥ وتمكنوا من

الاستيلاء على دربنت Derbent وباكو Baku استغاث فتحعلي بفرنسا لكي تقدم له يد العون والمساعدة. وتم التوقيع على معاهدة فنكنشتاين Finken stein الفرنكو / فارسية في عام ١٨٠٧ والتي تنص على تعهد بونابرت باستعادة الأراضي التي استولت عليها روسيا . ولكن بونابرت بادر على الفور الى عقد اتفاقية سلام مع القيصر الكساندر . وبذلك تركت بلاد الفرس لكي تواجه روسيا بمفردها .

وبمقضى اتفاقية جولستان لعام ١٨١٣ والتى أنهت حربا ميئوسا منها تنازلت الفرس عن جورجيا وباكوا وأراضي أخرى لصالح روسيا . ورغم ذلك لم يتوقف الصراع : اذ ظل النزاع قائما بشأن ثلاثة مناطق واقعة على الحدود . وعندما قامت روسيا باحتلال تلك المناطق فى ظلم واستبداد فى عام ١٨٢٧ اضطر شاه ايران تحت ضغوط الرأى العام المتفجر بالغضب لاعلان الحرب على روسيا. وحقق الفرس سلسلة من الانتصارات في بادىء الأمر ولكن الحرب انتهت على نحو مأساوى فى حجم الكارثة بالنسبة لبلاد الفرس . وكان السبب الرئيسى فى ذلك هو أن الشاه رفض اعطاء الرواتب الشهرية لجنوده أثناء فصل الشتاء . وبمقتضى معاهدة تركمان لعام ١٨٢٨ المتسمة بالاذلال تخلت الفرس عن كافة مطالبها فى جورجيا وغيرها من الأراضى الأخرى التى فقدت فى الحرب السابقة . بل والتزمت بتسديد تعويضات مالية هائلة علاوة على موافقتها على منح حقوق وامتيازات خارجية نطاق التشريع الوطنى [شبيهة بالامتيازات العثمانية] للمواطنين الروس المقيمين فى الأراضى الفارسية . وكانت هذه المعاهدة بالاضافة الى معاهدة تجارية أبرمت فى نفس الوقت وتنص على حرية التجارة بين روسيا والفرس بمثابة الأساس الذى ارتكزت عليه العلاقات المستقبلية بين فارس ودول أوربية أخرى .

وكان الاهتمام الرئيسى لبريطانيا فى هذه المنطقة فى أوائل

القرن التاسع عشر هو الابقاء على أفغانستان من حيث هى حاجز أمام الطموحات الفرنسية والروسية المتجهة نحو الهند • وفى عام ١٨٠٠ أرسلت بريطانيا بعثة الى بلاد الفرس وهى أول بعثة منذ عهد الملك تشارلز الثانى • وكانت هذه البعثة برئاسة شاب اسكتلندى وهو الكابتن مالكولم • وكانت تهدف الى اقناع الشاه بالسيطرة على أمير كابول الأفغانى الطموح بهدف احباط أية مخططات يقوم بها الفرنسيون أو الروس علاوة على ابرام معاهدة سياسية وتجارية مع الفرس • وحققت هذه البعثة نجاحا كبيرا • ولكن المعاهدة ألغيت فى عام ١٨٠٧ عندما رفضت بريطانيا تقديم يد العون والمساعدة ضد العدوان الروسى على الحدود الشمالية الغربية لبلاد الفرس الا أن الاهتمامات البريطانية ظلت باقية • ففى عام ١٨١٤ تم التوقيع على معاهدة أخرى وافق بمقتضاها الشاه على عدم التوقيع على معاهدات أو التعاون عسكريا مع دول معادية لبريطانيا وفى مقابل ذلك تحصل بلاد الفرس على اعانة مالية حكومية قدرها ١٥٠ ألف جنيه استرلينى سنويا وبشرط أن تلغى هذه الاعانة فى حالة دخول الفرس فى أية حرب عدوانية • وقد ألغيت هذه الاعانة بالفعل فى عام ١٨٢٧ عندما اتضح أن الفرس هى التى شنت العدوان من الناحية الفنية فى حربها المهلكة الثانية مع روسيا •

وعندما انتقل فتح على الى رحمة الله صعد الى العرش حفيده محمد شاه [١٨٣٤ — ١٨٤٨] • وكان هذا الشاه الشاب مصمما على احراز الشهرة من خلال استعادة بعض الأراضى التى سبق أن فقدها الفرس • وكان يتسم بالحكمة والاتزان لأنه أدرك أنه ليس بمقدوره أن يفعل أى شىء ازاء ايقاف موجة الاستعمار الروسية المتوغلة فى أرجاء التركستان والتى توقفت بصفة مؤقتة بسبب نشوب حرب كريميا Crimean War ثم استؤنفت فى قسوة بالغة خلال منتصف القرن التاسع عشر • ولذلك نجد أنه — وبتشجيع من روسيا — قد تحول نحو الشرق بهدف محاولة فتح اقليم حيرات الذى

يقع فى شمال غرب أفغانستان والأراضى الواقعة وراءه • وعلى الفور شعرت بريطانيا بالقلق والذعر • ففرنسا لم تعد تشكل خطورة على الهند ولكن روسيا التوسعية هى التى أصبحت تشكل تهديدا خطيرا للغاية • وكانت المعاهدة الروسية / الفارسية لعام ١٨٢٨ قد أعطت للروس الحق فى تعيين قناصل فى جميع أرجاء الأرضى الفارسية • وقامت بريطانيا بتقديم المساعدة لحكام حيرات • ومارست ضغوطا على الشاه من خلال احتلال جزيرة خرج kharq بالخليج الفارسى • فاضطر محمد شاه الى الغاء الحصار المفروض على حيرات •

واتبع ناصر الدين شاه الذى تولى الحكم بعد والده محمد فى عام ١٨٤٨ ، وهو فى سن السابعة عشرة والذى ظل يحكم البلاد على مدى ٤٨ عاما نفس السياسة الرامية الى محاولة استعادة الأراضى الواقعة فى جهة الشرق بتشجيع من الروس • فاحتجت بريطانيا وفرضت معاهدة على الفرس تعهد الشاه بمقتضاها الابتعاد عن التدخل فى شئون أفغانستان • وعندما تمكن ناصر الدين فى عام ١٨٥٦ — على الرغم من النصوص الواردة فى المعاهدة — من السيطرة على حيرات من خلال تعيين حاكم أفغانى موالى له على حيرات قامت بريطانيا على الفور بالاستيلاء على جزيرة خرج ثم أنزلت قوات عسكرية بالقرب من بوشير Bushire وتقدمت هذه القوات فى الأراضى الداخلية وهزمت جيشا فارسيا قويا • ثم انسحب البريطانيون بعد ذلك وأبحروا فى الممر المائى لشط العرب عند رأس الخليج لكى يستولوا على ميناء محمرية Mohammereh •
ووفقا لمعاهدة أبرمت فى باريس فى عام ١٨٥٧ وافقت الفرس على الانسحاب من حيرات والاعتراف رسميا لمملكة أفغانستان •

وفى خلال السبعينات والثمانينات من القرن التاسع عشر استكملت روسيا غزوها لأواسط آسيا وأصبحت لها حدود مشتركة مع بلاد الفرس من الجهة الشمالية الشرقية والجهة الشمالية • وكانت

الحدود المشتركة التى يبلغ طولها ١٢٠٠ ميل تمتد من جبل أرارات وحول بحر قزوين الى الحدود مع أفغانستان • ونظرا لأن بلاد الفرس كانت تدرك جيدا أنها ضعيفة وعاجزة أمام القوى الروسية فان وسيلتها الوحيدة فى مقاومة الضغوط الروسية كانت تتمثل فى السعى للحصول على المساندة من بريطانيا وقد تطلب هذا منح مجموعة متتالية من التنازلات لصالح الشئون التجارية البريطانية •

وطوال القرن التاسع عشر كان الحكام الفرس يمارسون حكما مطلقا استبداديا مع قدر قليل من التحكم فى النفوذ الشخصى الخاص بهم • وكانت القبائل البدوية والتى تشكل حوالى ربع العدد الاجمالى للسكان وتسكن فى المناطق الجبلية الواقعة على طول الحدود الشرقية والغربية لبلاد فارس هى فقط التى تحتفظ بدرجة من الاستقلال وتنظر الى النظام الملكى فى شىء من الاحتقار والازدراء • وكانت الغالبية العظمى من باقى السكان يتألفون من فلاحين أميين يعيشون فى مستوى معيشى منخفض للغاية فى قرى صغيرة مليئة بالأكواخ المصنوعة من الطين • وعلى الرغم من أنهم كانوا أحرارا من الناحية القانونية الا أنهم من الناحية العلمية كانوا مرتبطين بالأرض • وكان معظم كبار ملاك الأراضى الاقطاعيين [والذين كانوا يقيسون ثرواتهم بعدد القرى التى يمتلكونها] يعيشون بعيدا عن الأماكن الريفية ويسكنون فى المدن الكبيرة ويكلفون مندوبا عنهم لكى يدير شئون القرى التابعة لهم • وعلى الرغم من ثرواتهم الهائلة ونفوذهم الكبير بين طبقات الفلاحين فانهم لم يشكلوا طبقة اجتماعية اقطاعية متماسكة بحيث تكون قادرة على تحدى الحكم المطلق للعرش ونظرا لأن الشاه يعتبر هو المالك الحقيقى لكافة الأراضى فانه لم يكن يتردد فى مصادرة ممتلكات أى اقطاعى عندما يكون فى حاجة للحصول على أموال •

ولم يكن يوجد فى بلاد فارس طبقة برجوازية أو مهنية على غرار الطراز الأوربى • وفى بلاد فارس الشيعية نجد أن طبقة رجال

الدين التى تتألف من الملا وتضم مجموعة من المجتهدين المتفقهين فى الشريعة الاسلامية كانت أكبر حجما من طبقة العلماء الدينيين المتواجدة فى الاسلام السنى . ولكن على الرغم من نفوذها بين جماهير الشعب فانها نادرا ما كانت تتحدى السلطة المتربعة على العرش . أما الطبقة التى تعتبر أقرب ما تكون الى الطبقة المتوسطة فكانت تتألف من البازاريين أو التجار الذين يتراوحون ابتداء من الباعة الجائلين الى مصدرى السجاجيد والأقمشة الأغنياء حيث كانت السجاجيد والأقمشة بمثابة البضائع الوحيدة المصنعة عند الفرس . ولكن نظرا لأن هذه الطبقة كانت غير متحدة وغير متماسكة فان نفوذها السياسى كان محدودا للغاية .

وكانت أخطر التحديات للشيه[جمع شاه] تجئ من زعماء الطوائف الدينية . ففى الأربعينات من القرن التاسع عشر تفجرت ثورة بقيادة أغاخان الزعيم الروحى للطائفة الاسماعيلية ثم تفجرت ثورة أخرى على أيدى حركة بابى Babi التى أنشأها ميرزا على محمد الذى هو نجل تاجر شيرازى والذى أعلن عن نفسه — عقب تأديته فريضة الحج فى مكة — أنه الباب المؤدى الى الحقيقة الالهية . وانتشرت حركته وأصبحت قوية للغاية حتى أن ناصر الدين وشاه قد اضطر فى عام ١٨٥٠ الى اصدار أوامره باعدامه . وبعد مرور عامين حدثت بابية لاغتيال الشاه فأدى ذلك الى الاضطهاد الشديد لهذه الطائفة مما جعل معظم المتبقين على قيد الحياة يهربون الى خارج البلاد . الا أن فرعا من ذرية البابيين — وهم البهائيون — استمروا فى التواجد فى داخل بلاد الفرس . ولم يكن البهائيون يشكلون أى تهديد على أى شاه فى بلاد الفرس الا أن الشكوك والهواجس كانت تحوم دائما حولهم .

وكانت أقرب حركة شبيهة بحركة اصلاح فى بلاد الفرس فى القرن التاسع عشر هى تلك التى أنشأها ميرزا تقى خان ' Mirza

Taqi Khan الوزير القدير الأمين الذى عينه الشاب ناصر الدين لدى صعوده الى العرش فى البلاد • وكان ميرزا معجبا باصلاحات « التنظيمات » التى طبقت فى تركيا العثمانية فقام باقناع الشاه باعادة تنظيم وتدعيم القوات المسلحة والحرص على دفع رواتب الجنود بطريقة سليمة والكف عن بيع الألقاب والمناصب الكبيرة وغير ذلك من المفاسد الأخرى المختلفة • وكان هو المسئول أيضا عن انشاء دار الفنون فى طهران وتأسيس أول جريدة فارسية • الا أن الاصلاحات لم تستمر سوى لفترة قصيرة • اذ قامت الأم الرهيبة للشاه باقناعه بأن تقى خان قد أصبح متمتعاً بنفوذ هائل للغاية وعندئذ أصدر الشاه ناصر الدين أوامره باعدامه •

وعلى الرغم من تصرفات الشاه المتسمة بالقسوة والتى تحدث من وقت لآخر الا أنه كان بوجه عام حاكما متسما بالطابع الانسانى • ولكن ميوله الليبرالية والاصلاحية والتى كان يشجعه عليها تقى خان لم تستمر • اذ بدأ يقع تحت تأثير فشل الحركة الدستورية فى تركيا العثمانية وعودة عبد الحميد الثانى بسرعة الى الحكم الأوتوقراطى فى عام ١٨٨٧ • وفى السنوات الأخيرة من حكمه كان يحكم بنفس الطابع الاستبدادى الذى كان يسير عليه الحكام السابقون عليه • وكانت أهم انجازاته تتمثل فى ترسيخ الأمن والأمان فى جميع أرجاء الامبراطورية الفارسية • وكان يوجد هناك قدر ضئيل للغاية من التحديث المتمثل فى الطرق المرصوفة والتلغراف الكهربائى [الذى تم انشاؤه بمعرفة شركة التلغراف الهندية / الأوروبية التى كانت تعمل نيابة عن الحكومة البريطانية فى الهند لصالح خدمة الأغراض الامبريالية] • وكانت دار الفنون بطهران تدرس العلوم والهندسة وفق المناهج الحديثة • كما كان هناك بعض التقدم فى طبع ونشر الصحف والجرائد والكتب • ولكن بوجه عام كانت أنظمة الشئون الادارية والتعليم والعدالة [والتى كانت تطبق كلا من قوانين الشريعة الاسلامية والقوانين العرفية

التى كانت سائدة فى بلاد الفرس قبل ظهور الاسلام] مازالت متسمة بطابع العصور الوسطى • وكان الشاه يستمتع بالسفر فى رحلات الى أوربا ولكنه كان يمنع تعليم أبناء الطبقة العليا الفارسية فى الخارج لكى لا يتأثروا بعدوى من الأفكار والآراء الغربية •

وكان الشاه وأفراد حاشيته متسمين بالتبذير وكثرة المطالب • ولكى يحمى الشاه عرشه فانه كان يحتفظ بعدد كبير من القوات المسلحة الرئيسية التى كانت باهظة التكاليف على الرغم من أنها كانت تحصل على مرتبات منخفضة للغاية بالاضافة الى أنها كانت فاسدة وعديمة الكفاءة • ونظرا لأنه لم يكن يوجد هناك سوى قدر ضئيل للغاية من النمو أو التنمية الاقتصادية كما كانت العائدات من وراء بيع المناصب الحكومية ضئيلة فان الدخل الحكومى كان يصل الى مستوى الحد الأدنى • ولذلك بدأ الشاه فى اللجوء الى منح الامتيازات للمصالح الأجنبية • وكان أشهر تلك الامتيازات هو ذلك الامتياز الذى منح للبارون جوليوس دى رويتر وهو من الرعايا الحاصلين على الجنسية البريطانية فى عام ١٨٧٣ • وكان ذلك الامتياز يغطى كل مساحة بلاد الفرس • وكان ينص على منح البارون احتكارا لمدة سبعين عاما فى مجال انشاء وتشغيل كافة السكك الحديدية الفارسية وكافة الترام واى بالشوارع الفارسية علاوة على استغلال كافة الموارد المعدنية والغابات الحكومية بما فى ذلك الأراضى غير المستصلحة بالاضافة الى منحه حرية الاختيار فيما يتعلق بالمشروعات المستقبلية المرتبطة بانشاء الطرق البرية والتلغرافات والمطاحن والمصانع والورش والأشغال العمومية على اختلاف أنواعها وأشكالها • وكذلك منحه الحق فى تحصيل كافة الرسوم الجمركية الفارسية على مدى ٢٥ عاما • وفى مقابل ذلك يتعين على دى رويتر أن يسدد للحكومة الفارسية ٢٠٪ من أرباح السكك الحديدية + ١٥٪ من أرباح كافة الموارد الأخرى • ولقد أشار اللورد كورزون Surzon الى أن ذلك الامتياز يعتبر بمثابة « تسليم كامل وغير

طبيعي للغاية لكافة الموارد الصناعية فى دولة ملكية الى أيدى أجنبية على نحو يفوق كافة التخيلات وعلى نحو لم يحدث فى تاريخ البشرية من قبل » •

وفي سذاجة اعتقد الشاه أنه قد ضمن بذلك الحصول على بعض العائدات علاوة على تكليف بريطانيا بمهمة تنشيط الاقتصاد فى بلاده • وصدرت عن روسيا ردود فعل غاضبة للغاية فاضطر الشاه الى الغاء ذلك الامتياز • الا أن الضغوط البريطانية أرغمته فى عام ١٨٩٩ على أن يمنح امتيازا محدودا بعض الشيء مما أدى الى تمكين دى رويتر من انشاء البنك الامبريالى الفارسى مع اعطاء ذلك البنك الحق فى اصدار أوراق البنكنوت الخاصة به علاوة على الحق فى التنقيب عن البترول •

وبسبب رغبة ناصر الدين فى اخضاع موارد بلاده للرهن بهذه الطريقة المخزية فانه فقد شعبيته فى سنواته الأخيرة • وبدأت تظهر فى الأفق حركة اصلاحية ليبرالية • وعلى الرغم من أن بلاد الفرس كانت منعزلة عن الغرب أكثر من تركيا العثمانية الا أنه كان هناك بعض تغلغل للأفكار والطرائق الغربية من خلال البعثات العسكرية الأجنبية وموظفى القنصليات والبنوك ومن خلال البعثات التبشيرية المسيحية التى سمح لها بانشاء المدارس والمستشفيات ، وكان لحركة الاصلاح حافز آخر أكثر قوة وفعالية قادم من مصدر آخر : ألا وهو المصلح الاجتماعى المروج لأفكار نظرية الجامعة الاسلامية الشاملة Pan-Islam جمال الدين الأفغانى • وكان الشاه شديد الاعجاب بالمقالات التى يكتبها الأفغانى أثناء تواجده فى المنفى بباريس • فقام فى عام ١٨٨٦ بتوجيه الدعوة له للمجيىء الى فارس حيث أصبح عضوا مبجلا فى المجلس الملكى الفارسى • ولكن الأفغانى سرعان ما شرع فى القاء الخطب والمواعظ المليئة بالأفكار الثورية والهدامة مما أدى الى شعور الشاه ووزرائه بالذعر والانزعاج • وفى عام ١٨٩٠ قاد الأفغانى الاستنكار الشعبى الذى يشجب منح امتياز للتبغ

لمجموعة من رجال الأعمال البريطانيين فأدى ذلك الى نفيه وابعاده عن فارس · ولكن حركة جمال الدين الأفغاني ظلت ضاربة بجذورها في المجتمع الفارسي · وفي عام ١٨٩٦ قام أحد تلاميذ الأفغاني باغتيال ناصر الدين ·

وتعاظمت حركة الاصلاح أثناء فترة حكم الابن المريض الضعيف لناصر الدين والذى يسمى مظفر الدين والذى كان يفوق والده فى الاسراف والتبذير · وظهر زعيم اصلاحى جديد وهو مالكوم خان السفير الفارسى لدى لندن الذى قاد حملة ضد رئيس وزراء الشاه · وعندما طرد من منصبه قام باصدار جريدة « القانون » ودعا الى شن مجموعة من القوانين المحددة وتشكيل برلمان · وعلى الرغم من فرض حظر على هذه الجريدة فى داخل بلاد فارس فانها كانت تتداول على نطاق واسع فى جميع أرجاء البلاد ·

وفى عام ١٩٠٣ قام الشاه بتعيين زوج ابنته الأمير عين الدولة الذى يتميز بالكفاءة العالية رغم أنه رجعى للغاية لكى يضطلع بمهمة الاشراف على الشئون الحكومية · فأثارت تصرفاته وأعماله المزيد من المعارضة ووصلت الأمور الى ذروتها فى عام ١٩٠٥ · اذ اعتصم فى احدى مساجد طهران مجموعة من التجار الساخطين بسبب التبذير والاسراف والفساد المستشرى فى البلاط الملكى وبسبب غرق الدولة فى المزيد من الديون مما دفع الحكومة الى ادخال تعريفات جمركية جديدة مرهقة · وكانوا يهدفون من وراء اعتصامهم بالمسجد الى التعبير عن احتجاجاتهم وفقا للأسلوب القديم المتبع فى مثل هذه الأحوال · ثم انضم اليهم بعض كبار الشخصيات الدينية البارزة [الملا] وعندما وعد الشاه بتلبية بعض مطالبهم ثم راوغ بعد ذلك ولجأ الى تشديد القمع والكبت اعتصمت مجموعة أكبر تضم العديد من الوجهاء والتجار وأصحاب البنوك ورجال الدين فى ساحة دار المفوضية البريطانية للتعبير عن اصرارهم على ضرورة وضع مجموعة

قوانين تشريعية بل والمطالبة لأول مرة بوضع دستور للبلاد • وفي أكتوبر ١٩٠٦ أذعن الشاه واستجاب لهذه المطالب على مضض شديد بعد أن أصبح فى حالة صحية متدهورة للغاية • وتم توجيه الدعوة الى عقد اجتماع للبرلمان وتم اعداد مشروع للقانون الأساسى للدستور •

وسميت هذه الحركة ب « الثورة الدستورية » • وتلقت التأييد من الأمة كلها وأصبحت من الأحداث البالغة الأهمية في التاريخ الفارسى • وحاول الملوك الذين جاءوا بعد ذلك ابطال الدستور • ولكن لم يحرز أى واحد منهم أى نجاح كامل • ولذلك ظل شكل ما من أشكال الحكومة الدستورية النيابية قائما ومتواجدا حتى يومنا هذا •

وحصل الدستوريون على بعض الالهام من المحاولة التى قام بها نظراؤهم الروس فى عام ١٩٠٥ لانهاء الحكم الأوتوقراطى للقيصر • كما جاء حافز من نوع مختلف من الحرب الروسية/اليابانية التى تفجرت فى نفس تلك البيئة والتى تمكنت فيها لأول مرة دولة أسيوية متخذة الطرائق العصرية من الحاق الهزيمة باحدى الدول الأوربية العظمى ألا وهى روسيا القيصرية • [وكانت تلك الحرب أيضا بمثابة الهام للزعيم الوطنى المصرى مصطفى كامل فى نفس تلك الفترة] • ولكن حركة الاصلاح كان لها طابع فارسى قوى متميز وذلك من خلال اتسامها بالمزج بين النواحى الدينية والعلمانية •

وصعد الى العرش بعد مظفر الدين — فى عام ١٩٠٧ — ابنه محمد على الذى حكم البلاد لمدة سنتين فقط وسط قلاقل واضطرابات مستمرة • وأعطى وعودا متكررة — مثل والده تماما — بالموافقة على الاصلاحات ولكنه تجاهل الالتزام بوعوده • وبذل محاولات من أجل حل المجلس [البرلمان] ولكنه فشل فى ذلك • فاضطر الى قصف مبنى البرلمان بالقنابل مما أدى الى سقوط العديد من النواب بين

قتيل وجريح • وأدى هذا الحدث الخطير الى تفجر ثورة هائلة فى تبريز • وعجزت قواته عن اخماد تلك الثورة • وتدخلت القوات الروسية على زعم أنها تهدف الى حماية رعاياها الروس المتواجدين فى بلاد الفرس • واستجمعت القوات الوطنية قواها وزحفت على طهران • ولم يتمكن الشـــاه من مقاومة الثورة • وهرب الى دار المفوضية الروسية • وبعد أن ذهب الى المنفى فى روسيا اتخذ المجلس [البرلمان] قرارا بأن يحل محله أكبر أبنائه أحمد ميرزا البالغ من العمر أحد عشر عاما •

وكانت المشاعر الشعبية قد أثيرت ليس فقط بسبب تصرفات الشاه وأعماله ولكن أيضا بسبب الاتفاقية الأنجلو/روسية المبرمة في أغسطس ١٩٠٧ والتى تهدف الى تسوية كافة نقاط الخلاف الرئيسية بين روسيا وبريطانيا فيما يتعلق بفارس وأفغانستان • حيث كانت روسيا وبريطانيا تتوقعان الدخول فى صراع مرتقب مع ألمانيا الامبريالية وتتوقعان دخول تركيا العثمانية فى تحالف مع ألمانيا • وقد نصت تلك الاتفاقية على تقسيم بلاد فارس الى مناطق نفوذ روسية وبريطانية بحيث تأخذ روسيا الأماكن الشـــمالية والوسطي وتأخذ بريطانيا المناطق الواقعة فى الجنوب الشرقى مع الابقاء على المنطقة المتبقية بالجنوب الغربى لتكون منطقة « محايدة » • وتفجر الرأى العام الفارسى فى ثورة غاضبة عندما تم الاعلان عن نصوص هذه المعاهدة • وكان هناك اعتقاد سائد بأن بريطانيا بصفة خاصة قد تعاطفت مع الثورة الدستورية الفارسية • ثم اتضح أن المصالح الاستيراتيجية للدول الكبرى الأوربية لا تهتم على الاطلاق بالشعب الفارسى • وبدأ الشعب الفارسى ينظر الى روسيا وبريطانيا على أنهما دولتـــان استعماريتان تســـعيان الى تدمير واستقلال بلاد الفرس •

وقد يقال أن مكاسب بريطانيا من وراء اتفاقية عام ١٩٠٧ تعتبر ضئيلة للغاية نظرا لأن المناطق الجنوبية الشرقية من فارس تتألف

معظمها من أراض صحراوية • ولكن المصالح البريطانية فى فارس كانت بصدد الحصول على تشـــجيع وعون هائل • وصحيح أن دى رويتر قد ألغى امتياز التعدين الخاص به عقب مرور سنتين نظرا لفشله في العثور على البترول • ولكن فى عام ١٩٠١ قام الشاه مظفر الدين بمنح الانجليزى وليام كنوكس دارسى امتيازا للبترول والغاز لمدة ستين عاما يغطى كافة أرجاء الامبراطورية الفارســـية ، وكانت الحكومة البريطانية قد حاولت أن تكسب التأييد لصالح دارسى من خلال دار المفوضية بطهران • والتزم رئيس الوزراء الفارسى الذى نجح البريطانيون فى كسبه لصفهم باخفاء أنباء هذه الصفقة عن الروس الى أن تم التوقيع عليها •

وراح دارسى يبحث عن البترول على مدى سنوات عديدة بدون أن يتمكن من احراز أى نجـــاح الى أن قاربت اعتمـــاداته المالية على النفاذ • فبدأ يجوب العالم بحثا عن مستثمرين جدد • وفى هذه المرحلة تدخلت امارة البحر البريطانية • وكان أمير البحر الديناميكى المتفـــتح الذهن الأدميرال جون فيشر قد قرر منذ فترة طويلة بأنه ينبغى أن تحول البحرية البريطانية سفنها من استخدام الفحم الى استخدام البترول • لأن ذلك من شأنه أن يزيد من كفاءتها القتالية بنسبة ٥٠٪ • الا أن ٩٠٪ من بترول العالم فى ذلك الوقت كان يتم انتاجه فى أمريكا وروسيا والبـــاقى كان مغطى بالفعل من خـــلال الامتيازات والحقوق الممنوحة • وكان سوق البترول العالمى واقعا تحت سيطرة شركة ستاندرد أويل وشركة شيل الهولندية الملكية • وكان من الضرورة للغاية العثور على مورد مستقل تحت السيطرة البريطانية • وفى عام ١٩٠٥ قامت امارة البحر باقناع شركة بورماه البريطانية للبترول بأن تتحد مع دارسى وتقدم اعتمـــادات ماليـــة جديدة • وفى عام ١٩٠٨ وبينما كان المهندسون التابعون لدارسى على وشك الكف عن التنقيب بسبب اليأس من العثور على البترول فانهم بدأوا فى التنقيب فى واحد من أكبر آبار البترول فى العالم

فى منطقة مسجد سليمان الواقعة فى جنوب غرب بلاد الفرس • وتكونت شركة البترول الانجلو / فارسية • وبيعت أسهم وأنصبة للجماهير الفارسية المتفجرة بالحماس •

ولكن كانت لا تزال هناك بعض المشاكل • فحقول البترول لم تكن واقعة ضمن منطقة النفوذ البريطانية وانما كانت واقعة فى المنطقة المحايدة • وكان الشيخ العربى شبه المستقل الذى يحكم منطقة محمرية Mohammereh يعتبر هذه المنطقة أراض خاصة به وتابعة له •

كما أن القبائل المتجولة الغازية كانت تشكل تهديدا على خطوط الأنابيب اللازمة لتصدير البترول الى الخليج • لذلك قامت بريطانيا بالتوقيع على اتفاقية تعترف فيها بأن الشيخ وخلفائه هم الحكام الشرعيون على منطقة محمرية فى مقابل السماح لبريطانيا بتأجير الأراضى سنويا • وتعهد الشيخ بتوفير الحماية للمنشآت البترولية •

وفى عام ١٩١١ أصبح الشاب ونستون تشرشل يشغل منصب اللورد الأول لامارة البحر فى حكومة الليبراليين ببريطانيا • وتم البدء فى برنامج ضخم للتنمية البحرية باهظ التكاليف لفترة ثلاث سنوات • وعلاوة على الأهمية الاستراتيجية الحيوية لبلاد الفرس بالنسبة للامبراطورية البريطانية فان البترول الفارسى كانت له أهمية عسكرية حاسمة • وفى يونيو ١٩١٤ وقبل نشوب الحرب العالمية الأولى بشهرين فقط عرض تشرشل على مجلس العموم البريطانى اتفاقية تنص على أن الشركة الأنجلو / فارسية سوف تضمن امدادات البترول على مدى عشرين عاما بينما تقوم الحكومة البريطانية بشراء حصة أسهم فى الشركة [سميت الشركة فيما بعد باسم شركة البترول الأنجلو ٪ ايرانية ثم سميت فى نهاية الأمر

باسم شركة البترول البريطـانية] فى مقـابل ٢ر٢ مليون جنيه استرليني . وعلى الرغم من شكوك بعض الأعضاء فى أن ذلك من شأنه أن يثير سخط الروس ويزيد من ضعف الحكومة الفارسـية فقد تم اقرار هذه الاتفاقية بأغلبية ساحقة . وأشار تشرشل فيما بعد الى أن الاستثمار قد جلب مدخرات قدرهـا ٤٠ مليون جنيه استرليني وقدم التمويـل اللازم للتوسـع الهائـل فى البحرية البريطانية بدون القـاء أى عبء على كاهـل دافعى الضرائب البريطانيين .

ومع صعود أحمد ميرزا البالغ من العمر أحد عشر عاما الى العرش أصبحت الأوضاع الداخلية فى فارس تموج بالمزيد من الفوضى . وانقسم الوطنيون المنتصرون الى حزبين ـ الرجعيين والمعتدلين . وأرسل الروس جنودا الى كازفين Kazvin باقليم طهران على زعم أنهم يرغبون فى حماية رعاياهم المقيمين فى بلاد الفرس . فاحتج البريطانيون على ذلك الاجراء . وكان نظام الحكم الجديد تنقصه الخبرة فى الشئون الادارية فظهرت الحاجـة الملحة للاستعانة بمستشارين أجانب . ولكن نظرا لأن بريطانيا أو روسيا لم يكن لديهما الاستعداد للموافقة على تعيين خبراء تابعـين للطرف الآخر فقد استلزم الأمر البحث عن مستشارين ليسوا من رعايا بريطانيا أو روسيا . وتم الاستعانة ببلجيكيين للاشراف على شئون الجمارك . وتم اجراء اتصالات مع الولايات المتحـدة الأمريكية فرشـح الرئيس تافت Taft محاميا له خبرة كبيرة فى الشئون المدنية يسمى وليام شوستر William Shuster . وتم تكليف شوستر فى عام ١٩١١ بالاشراف على الشئون المالية الفارسية مع منحه سلطات كاملة لفترة ثلاثة سنوات . وعلى الرغـم من أن أمريـكا لم تكن بمثابة دولة استعمارية لها طموحات فى الشرق الأوسط فى تلك الفترة الا أن الروس أبدوا احتجاجـات شديدة واسـتمروا فى معارضتـهم بل وهددوا باحتلال طهران . وعندئذ قام الوصى على العرش ناصر الملك

بانقلاب وحل المجلس [البرلمان] ووافق على مطالب الروس وقام بطرد شوستر وزملائه فى يناير ١٩١٢ · وكانت جهود شوستر قد بدأت تظهر نتائج جيدة ولكن البلاد قد تركت بعدئذ فى مزيد من الفوضى والاضطراب ·

وصدرت احتجاجات عن الحكومة الأمريكية والرأى العام الليبرالى فى بريطانيا ولكن دون جدوى ـ فالحاجة الى التوصل الى تسوية الخلافات مع روسيا فى مواجهة الحرب المتوقعة مع ألمانيا كانت أمرا حيويا للغاية من وجهة نظر الحكومة الليبرالية لبريطانيا · وعندما تفجرت الحرب بالفعل وتحالفت تركيا مع ألمانيا فان التهديد التركى للأراضى الروسية ولحقول البترول المتواجدة فى الجنوب تسبب فى قيام روسيا وبريطانيا باحتلال جزء من بلاد الفرس على الرغم من اعلانها الوقوف على الحياد ·

الفصل الثامن

الرجل المريض يموت : ١٩١٨

The Sick Man Dies : 1918.

في نوفمبر ١٩١٤ تقرر مصير الامبراطورية العثمانية بصفة نهائية عندما اشتركت تركيا في حرب أوربا المسيحية من خلال تحالفها مع دول أواسط أوربا التي تضم ألمانيا والنمسا / المجر ضد بريطانيا وفرنسا وروسيا • وكما سبق أن رأينا فان دول أوربا باستثناء روسيا من وقت لآخر كانت تفضل الحفاظ على سلامة وحدة الأراضي لتركيا الآسيوية وأراضي الأقاليم العربية الخاضعة لها • وكانت تتدخل من أجل ممارسة ضغط على السلاطين العثمانيين المتعاقبين بهدف تدعيم مصالحها الا أنها لم تكن تفكر في تقسيم الامبراطورية العثمانية • أما الاحتلال البريطاني لمصر في عام ١٨٨٢ فلم تكن بريطانيا ترغب فيه وتم بطريق المصادفة الى حد كبير بل وكانت بريطانيا تفكر في اعادة السلطة العثمانية على مصر ولكنها كانت تجد أن ذلك الاجراء غير متسم بالطابع العلمي البراجماتيقي • ولكن بعد أن تم الاحتلال بالفعل أصبحت مصر

بمثابة رابطة حيوية فى النظام الامبريالى العالمى لبريطانيا • وأصبح من المتعذر الغاء هذه الرابطة •

وكان على جميع الحلفاء الثلاثة أن يفكروا فى ردود الفعل لدى الملايين من الرعايا المسلمين المتواجدين فى امبراطورياتهم ـ العرب بشمال أفريقيا الفرنسية والشعوب الاسلامية فى الهند البريطانية وفى أواسط آسيا الروسية • فهل هؤلاء المسلمين سيكون لديهم الرغبة للقتال لصالح حكامهم المسيحيين ضد السلطان / الخليفة ؟ وكان هناك اعتقاد شائع بأن أى شخص مسلم ينتظر النداء للجهاد أو الحرب المقدسة لكى يبادر بذبح الكفار • ولذلك بادرت حكومة الثلاثة أعضاء التى تحكم تركيا باصدار نداء للجهاد موجه الى كافة المسلمين •

وكان لدى بريطانيا اهتمامان استراتيجيان عاجلان فى الشرق الأوسط وهما : حماية قناة السويس وحماية الخليج • فهما وصلتان حيويتان مع الهند : وكان الأمر يستلزم الابقاء على قناة السويس مفتوحة من أجل نقل القوات الهندية الى أوربا كما أن منطقة الخليج قد أصبح لها آنئذ القيمة الاضافية نظرا لتواجد المنشآت البترولية فى عبدان •

وكان جمال باشـــا هو عضو حكومة الثلاثة العثمانية الذى تولى القيادة فى سوريا • وعندما خطى بقدمه الى داخل القطار فى استانبول أعلن « لن أعود الا بعد أن أدخل الى القاهرة » • وكان جمال جنرالا قديرا وكان يساعده رئيس أركان ألمانى نابغة يسمى فون كريسنشتاين • وكانت مصر خالية من القوات البريطانية بعد أن أرسلت تلك القوات الى فرنسا • ولم يكن يدافع عن مصر سوى وحدات عسكرية أسترالية وهندية شكلت على وجه السرعة • وكانت تعاونها المدفعية المصرية بالاضافة الى طرادين فرنسيين تصادف أن كانا متواجدين فى مياه قناة السويس • وشن جمال أول هجوم له

على قناة السويس فى يناير ١٩١٥ • ولكنه تعرض للفشل • وكان يأمل فى أن تثور جماهير الشعب المصرى ضد المحتلين البريطانيين ولكن آماله باءت بالفشل • ومع ذلك فقد تمكن فون كريسنشتاين من خلال مساعدة رجال القبائل البدوية فى سيناء من الابقاء على القوات البريطانية محتجزة فى داخل منطقة القناة على مدى عامين • كما نجح الألمان أيضا فى اثارة وتحريك رجال القبائل السنوسية الشديدة البأس المتواجدة فى سيرين Cqrenaica • وعلى الرغم من أنهم لم يشكلوا تهديدا حربيا خطيرا فانهم نجحوا فى الابقاء على أعداد كبيرة من القوات البريطانية محتجزة عند الحدود •

وبمجرد تفجر الحرب مع تركيا تم انزال لواء حربى هندى فى ميناء البصرة • وتمكن هذا اللواء من الاستيلاء على البصرة بدون صعوبة وشرع فى التقدم نحو بغداد • وعانت بريطانيا من نكسة خطيرة عندما حوصرت قوات أنجلو / هندية كبيرة عند منطقة كوت Kut وأرغمت على الاستسلام • ولكن بغداد سقطت فى مارس ١٩١٧ وبحلول نهاية الحرب كانت القوات البريطانية قد أصبحت مسيطرة على معظم أراضى العراق الحالية الحديثة •

وبدأت الحرب على نحو مأساوى بالنسبة للأتراك لأن انفر باشا الذى كان رئيسا للأركان ووزيرا للحربية فى آن واحد لم يأخذ بنصيحة الألمان وأصر على شن هجوم ضد روسيا فى منطقة القوقاز على أمل أن يثير التمرد بين مسلمى أواسط آسيا مما يساعد على تحقيق آماله بشأن الطورانية الشاملة Pan-Turan • وتمكن الروس من استعادة توازنهم عقب الهجوم الأولى • ثم عانت القوات التركية من البرد المروع المخيف • وعلاوة على ذلك كان الأتراك فى جميع أرجاء الأناضول الشرقية يتعرضون للتهديدات بسبب العصيان المسلح الذى يمارسه الرعايا الأرمن الحانقين الذين راحوا يدمرون وسائل المواصلات والاتصالات ويشكلون فرق تطوع من أجل

مساعدة الروس . وانضم آخرون الى القوات الأرمينية الروسية . فاضطر الأتراك الى الانتقام من الأمين بأن أصـــدروا أوامر بترحيل جميع السكان الأرمن من الأناضول الشرقية الى الأماكن الشمالية من سوريـا . وتم قتل مئـات الآلاف من الأرمن ومات الكثيرون منهم بسبب الجوع والتعرض للأحوال الجوية القاسية والأمراض . ومات عدد يتراوح ما بين ١¼ الى ١½ مليون شخص . وما زال الوطنيون الأرمن يسعون للانتقام من ممثلى الدولة التركية .

وعلى الرغـم من الهزائم والنكســات التى شـهدتها الجبهه القوقازية فان تركيا كانت أبعد ما تكون عن الهزيمة النهائية . ومع عدم المقدرة على احراز أى تقـدم فى الحرب الدائرة فى مســتنقع فرنســا ومع ايقاف الزحف الروسى على أيدى ألمانيا والنمسا حاولت بريطانيا ابعاد تركيا عن دائرة الحرب من خلال انزال قوات كبيرة [تشــتمل على فرق عســكرية أسترلية] فى شبه جزيرة جاليبولى بهدف تهديد اســتانبول . وكان المراقب العام الألمانى ليمـان فون ساندرز هو المسئول عن الدفاعات التركية وكان نائبه هو مصطفى كمال [والذى عرف فيما بعد باسم مصطفى كمال أتاتورك] . وعلى الرغم من النقص الشديد فى الذخيرة حارب الأتراك فى تماسك وعناد وشجاعة ولم ينجح أحد الجانبين فى زحزحة وطرد الطرف الآخر . ولكن مع حلول الشتاء كانت بريطانيا هى التى تقبلت الهزيمة وقامت بسحب قواتها . فارتفعت الروح المعنوية لتركيا . ومن خلال موجة كبيرة من التجنيد أصبحت قواتها تضم ٥٢ فرقة أو ٨٠٠ ألف مقاتل . ولكن النجاحات ضد بريطانيا فى ميزوبوتاميا قد توازنت مع حالات التقدم المستمرة للروس فى الأراضى الشرقية للأناضـول . حيث كانت القوت التركية موزعة على جبهات عديدة .

وكان دور مصر فى حملة جاليبـولى هى أنها كانت بمثـابة معسكر حربى شـاسع ومستشفى بالنسبة للحلفـاء . واستجاب

الشعب المصرى بصداقته الراقية المعهودة للغزو الذى قام به عشرات الآلاف من عساكر الحلفاء رغم أن هؤلاء العساكر تسببوا فى أحداث ارتفاع فى الأسعار . وتم ارسال فرقة أعمال مساعدة تضم حوالى ٣٠٠٠ شخص مصرى الى الدردنيل حيث حققوا هناك نجاحا عظيما فى حفر الخنادق .

وفى صيف عام ١٩١٦ قام فون كريسنشتاين بشن هجومه الأخير على قناة السويس . ولكنه تعرض للهزيمة . وأصبحت القوات البريطانية التى صارت تحت قيادة الجنرال موراى فى وضع يسمح لها بطرد الأتراك من سيناء . وبحلول ديسمبر ١٩١٦ وصلت الى العريش ومنها الى غزة .

وقد أرغم الشعب المصرى على الالتزام بالهدوء السياسى بسبب الثقل الهائل للتواجد العسكرى البريطانى . وكان الفلاحون يبدون مقاومة سلبية ازاء المطالب الملحة المتزايدة من جانب الحكومة العسكرية بضرورة قيامهم بتسليم أسلحتهم على ظهور الجمال أو الانضمام الى معسكرات العمل المساعدة . وفى نهاية الأمر قام عدة آلاف من المصريين بالعمل فى فلسطين وفرنسا وسقط عدد منهم بين قتيل وجريح .

ولم يكن يوجد هناك تقريبا أى تواجد للمشاعر الموالية للأتراك أو للجامعة الاسلامية الشاملة Pan-Islam وهى المشاعر التى كانت بريطانيا تخشى من تفجرها . ولقد كتب السكرتير الشرقى بالقاهرة السير رونالد ستورز ما يلى : « المسلمون المتدينون يهزمون رءوسهم ويقولون [نحن نرغب للأتراك أن يحققوا كل النجاح — ولكن من بعيد] (١) . وفى منطقة قناة السويس قام بعض المسلمين المتواجدين

---

(١) أى يرون أن نشارك معهم فى تحقيق ذلك النجاح .

فى كتيبتين هنديتين تابعتين لجيش الدفاع عن القناة الهرب للانضمام الى الأتراك • ولكن تم الامساك بهم واطلاق الرصاص عليهم • وتم احتواء هذه الحادثة ومنعها من الانتشار بين الناس • وجاءت مجموعات متتالية من الأمراء المسلمين الحكام فى الهند ـ بناء على تعليمات بريطانية ـ من أجل المساعدة فى تدعيم الروح المعنوية للجنود •

واخماد المشاعر الموالية للأتراك لم يكن يعنى أن الروح الوطنية المصرية كانت ميتة • فعلى الرغم من أن الطلبة كانوا بدون قيادة ومتسمين بالتشويش والارتباك الا أنهم كانوا يموجون بالروح الوطنية المحمومة • وكانت أنديتهم تموج بالمعارضة المريرة للاحتلال • وعبروا فى السر عن ابتهاجهم من المحاولتين الفاشلتين الراميتين الى اغتيال السلطان حسين كامل • ولكن الحكومة البريطانية كانت تتناول الموقف فى شىء من اللباقة • فعندما مات السلطان فى صيف عام ١٩١٧ نجد أنها قاومت الآراء التى تطالب بضرورة ضم مصر الى الامبراطورية البريطانية وهى الآراء التى عبر عنها بعض أعضاء برلمانيين وأيدها السير رجينالد ونجيت المندوب السامى البريطانى الجديد بالقاهرة •وبدلا من ذلك تم احضار الأمير أحمد فؤاد البالغ من العمر ٤٩ عاما ـ وهو ابن الخديوى اسماعيل ـ لكى يحل محل السلطان حسين كامل •

وفى حين كانت المشاعر الموالية للأتراك تشكل مشكلة بسيطة بالنسبة لبريطانيا فى مصر فانه كانت هناك احتمالات لامكان تشجيع المشاعر المناهضة للأتراك فى البلاد العربية العثمانية • اذ كان من المعروف أن العرب لديهم أسباب وجيهة تدعوهم للشعور بالاستياء ضد حكامهم ـ وخاصة فى أعقاب شهر العسل العربى / التركى القصير الذى جاء بعد نشوب ثورة « الشبان الأتراك » ـ الا أن المعلومات التفصيلية كانت غير متوفرة •

وقبل دخول تركيا فى الحرب بستة أسابيع نجد أن اللورد كتشنر – بناء على اقتراح من رونالد ستورز – أجرى اتصالات مع الشريف حسين لم ينجم عنها سوى ردود فعل قليلة فى ميزوبوتاميا العرب فى حالة تحالف تركيا مع ألمانيا • وأبدى الشريف حسين الحرص والحذر مثلما كان كتشنر نفسه ملتزما بالحرص والحذر مع الأمير عبد الله منذ ثمانية شهور • وأشار الشريف حسين أنه ربما يحث الحجازيين على الثورة ضد الأتراك اذا ضمن الحصول على الدعم والتأييد الكافى من البريطانيين • ووصلت رسالة أخرى من كتشنر [والذى كان قد أصبح آنئذ وزيرا للحربية فى الحكومة البريطانية] يعد فيها الشريف حسين بأنه اذا تمرد ضد تركيا فان بريطانيا سوف تضمن له الاحتفاظ بلقب الشريف الكبير وتدافع عنه اذا تعرض لأى عدوان خارجى • كما ألمحت الرسالة الى أنه اذا أعلن عن أن الشريف أصبح خليفة للمسلمين فانه سيحصل على تأييد وموافقة بريطانيا كما تضمنت الرسالة وعدا عاما بمساعدة العرب على الحصول على حرياتهم •

وكان نص هذه الرسالة كافيا لتشجيع الشريف حسين على التفكير فى احداث تمرد عام ضد الأتراك تحت قيادته • ولكنه لكى يفعل ذلك كان بحاجة للحصول على المزيد من التأكيدات المحددة من الحلفاء • وانقضى عام ١٩١٥ أثناء محاولته انتزاع تلك التأكيدات من القاهرة مع الاستمرار فى نفس الوقت فى استطلاع آراء الزعماء العرب الآخرين بشبه الجزيرة العربية والذين كان على اتصال بهم •

والحكومة البريطانية من جانبها لم يكن لديها سياسة واضحة تجاه العرب أو تجاه مستقبل الأقاليم العثمانية المتواجدة فى آسيا عقب هزيمة تركيا • وكانت هناك رغبة واضحة فى أن يتم اخراج تركيا من الحرب بأسرع ما يمكن • ولكن الهدف الأساسى من وراء ذلك كان يتركز على اعطاء الفرصة لفرنسا وبريطانيا للوصول الى

روسيا ورومانيا من أجل تطويق دول أواسط أوربا • وكانت هذه هي الاستراتيجية وراء حملة جاليبولى • وكان هناك افتراض بأن الأتراك سيتعين عليهم التخلى عن القسطنطينية / استانبول ومضايق الدردنيل وأنه « من مصلحة الاسلام » [طبقا لما أورده وزير الخارجية السير ادوارد جراى] أن تكون هناك وحدة اسلامية unit سياسية مستقلة فى أى مكان آخر • ومن الطبيعى أن يكون مركز هذا الكيان الاسلامى متواجدا فى الأماكن المقدسة وشبه الجزيرة العربية ويبقى تقرير الأماكن الأخرى التى ينبغى أن يشتمل عليها هذا الكيان الاسلامى •

وتطورت سياسة بريطانيا ازاء العرب على نحو اعتبره البريطانيون متسما بالطابع العملى البراجماتيقى بينما اعتبره العرب متسما بالتجرد من المبادىء الأخلاقية • اذ كان السير بيرسى كوكس الرئيس السياسى للحملة العسكرية على العراق والتى احتلت البصرة فى بداية الحرب مدركا لأهمية كسب ابن سعود الذى يمثل القوة الجديدة المتواجدة فى أواسط شبه الجزيرة العربية بالنسبة للقضية البريطانية • فأوفد الكابتن و• هـ• أ• شكسبير كممثل بريطانى لدى البلاط السعودى • وكان شكسبير قد سبق له عقد صداقات مع ابن سعود أثناء رحلاته البطولية التى قام بها لاستكشاف مجاهل شبه الجزيرة العربية وكان هو الرجل الانجليزى الذى يشعر نحوه الحاكم الوهابى بالاعجاب الشديد • ثم قتل شكسبير أثناء مناوشات مع الأعداء الرشيديين للسعوديين فى يناير ١٩١٥ • فأدى ذلك الى احجام بريطانيا عن استغلال السعوديين الذين كانوا قد أظهروا استقلالهم عن الأتراك كقادة لتمرد عربى •

وكان لدى المكتب العربى والذى يضم مجموعة من الخبراء البريطانيين على أعلى مستوى بالقاهرة أسباب سياسية قوية تدعو الى التطلع الى الهاشميين بالحجاز لكى يتولوا مهمة قيادة العرب • فمركز الشريف حسين من حيث هو المسئول عن الأماكن المقدسة

الاسلامية قد جعل منه الشخص الملائم الذى يستطيع مقاومة النداء العثمانى للجهاد ضـــد الكفار · ولكن فى هذه المرحلة لم يكن لدى بريطانيا سوى معلومات قليلة عن حالة الرأى العام فى ميزوبوتاميا [العراق] وسوريا رغم أنها كانت فى موقع يسمح لها بسبر أغوار المشاعر واستطلاع آراء كبار الشخصيات العربية بالقاهرة · وعلاوة على ذلك كان على بريطـانيا أن تضع فى الاعتبار مصـالح حلفائها الأساسيين : روسيا + فرنسا · وفى عام ١٩١٥ ظهرت مخاوف من احتمال أن يفقد الشعب الروسى حماسه للحرب وذلك بسبب الخسائر الهائلة التى تعرضت لها الجيوش الروسية · كما أن فرنسا التى كانت تتحمل الوطأة العظمى للحرب على الجبهة الغربية كانت تطالب بأن يكون لها وضع خاص فى داخل سوريا ارتكازا على الروابط الثقافية والسياسية التى سبق أن اعترفت بها بريطانيا قبل نشوب الحرب · وأثناء عام ١٩١٥ دخلت بريطانيا فى مفاوضات سرية مع فرنسا وروسيا بشأن مستقبل كافة الأراضى العثمانية · كما أن حكومة الهند كانت لها أيضا - وذلك على الرغم من أنها حكومة بريطانية - مصالحها الخاصة بها ووسائل الضغوط الخاصة بها والتى تمارسها على لندن حيث كانت تنظر الى العراق والخليج وشـــبه الجزيرة العربية على أنها تدخل ضمن اهتماماتها الخاصة بها وليس من المدهش أن بريطانيا لم يكن لها سياسة متماسكة وواضحة تجاه العرب ·

واتفقت الحكومة البريطـانية مع الشريف حسين من خـلال مراسلات تمت فى الفترة من يوليو ١٩١٥ حتى فبراير ١٩١٦ تحت اشراف السير هنرى ماكماهون المندوب السامى البريطانى لدى مصر على أن يفجر ثورته ضد الأتراك ·

وكان الشريف حسين يهدف الى الحصول على التأييد البريطانى للاســتقلال العربى فى كافة الأقاليم العربية التابعة للامبراطورية

العثمانية التى يحدها ميرسين Mersin من جهة الشمال والحدود الفارسية من جهة الشرق والبحر الأبيض المتوسط من جهة الغرب والبحر الأحمر والمحيط الهندى من جهة الجنوب • وكان الاستثناء المؤقت الوحيد المستعد لتقديمه يتمثل فى عدن • ومما لا شك فيه أنه كان يدرك جيدا أن بريطانيا لن توافق على كافة مطالبه ولكنه كان يعرض الحد الأقصى لموقفه التفاوضى •

وكان الخطاب الثانى لماكماهون المؤرخ فى ٢٤ أكتوبر ١٩١٥ هو الخطاب الهام الحاسم حيث تعهد فيه بالمساندة البريطانية للاستقلال العربى فى المناطق التى اقترحها شريف مكة ولكن وفق تحفظات معينة :

« ان مناطق ميرسين وألكساندريتا وتلك الأجزاء من سوريا الواقعة غرب دمشق وحمص وحماه وحلب لا يمكن اعتبارها عربية تماما وبالتالى ينبغى أن تستثنى من التحديدات المقترحة •

وطبقا لذلك التعديل وبدون الاجحاف والحاق الضرر بالمعاهدات المبرمة بيننا وبين بعض مشايخ العرب فاننا نقبل ذلك التحديد •

وبالنسبة للمناطق الواقعة فى داخل نطاق الحدود المقترحة والتى يكون لبريطانيا العظمى فيها مطلق الحرية للتصرف بدون الحاق الضرر بمصالح فرنسا فأننى مخول لأن أقدم لك التعهدات التالية نيابة عن حكومة بريطانيا العظمى ومخول لأن أرد على مذكرتك على النحو التالى :

مع الالتزام بالتعديلات سالفة الذكر فان بريطانيا العظمى على استعداد لأن تعترف باستقلال العرب وتدعم ذلك الاستقلال فى كافة المناطق الواقعة فى داخل نطاق الحدود التى اقترحها شريف مكة »•

وفى فقرات أخرى من نفس ذلك الخطاب أشار ماكماهون الى أنه قد أصبح من المفهوم لدى بريطانيا « أن العرب قد قرروا بالفعل اللجوء الى بريطانيا العظمى وحدها للحصول على المشورة والنصيحة وأن المستشارين والموظفين الأوربيين الذين قد تكون هناك حاجة اليهم لانشاء نظام قوى للشئون الادارية سوف يكونوا من البريطانيين » • وأضاف أنه يعتقد أنه قد تمت الموافقة على :

« بالنسبة لولاية بغداد وولاية البصرة فان العرب يدركون أن الوضع المترسخ لبريطانيا العظمى ومصالحها هنالك سوف يستدعى اقامة ترتيبات ادارية خاصة من أجل حماية تلك المناطق من العدوان الأجنبى ومن أجل تدعيم رفاهية سكانها وحماية مصلحتنا المشتركة المتبادلة » •

ومما لا شك فيه أن الغموض الوارد فى بعض هذه العبارات كان متعمدا • وكان الشريف الماكر الداهية يدرك الأسباب التى دعت الى ذلك • واحتج الشريف بشدة على استثناء الشريط الساحلى السورى المطل على البحر الأبيض المتوسط من منطقة الاستقلال العربية مشيرا الى أن ولاية حلب وولاية بيروت ليسا سوى أقاليم عربية • ووافق على مضض على تأجيل النظر فى هذه المشكلة خلال فترة الحرب • ولكنه أعلن أنه يعتقد أن بريطانيا سوف تتمكن من اقناع « حليفتها فرنسا » على تسليم هذه المناطق للعرب • كما كان على استعداد لأن يتوصل الى تسوية فيما يتعلق بالأقاليم العراقية • وكان يدرك الحقيقة الواقعية القائمة المتمثلة فى الاحتلال العسكرى البريطانى للعراق ولكنه أوضح أنه نظرا لأن هذه الأقاليم كانت جزءا من الامبراطورية العربية السابقة ومقرا للخلفاء وأول مركز للثقافة العربية « فانه من المستحيل تماما اقناع أو ارغام الأمة العربية على التخلى عن وحدة الأراضى الجديدة بالاحترام » • ووافق على أن يتم انهاء الاحتلال من خلال المفاوضات « ولكن على نحو لا يعرض حقوق

أى من الجانبين للأذى ولا يعرض الثروات والموارد الطبيعية لهذه الأطراف للأضرار » ٠

وكان الغموض الذى أثار معظم المتاعب مستقبلا يتعلق بفلسطين٠ اذ لم يذكر اسم فلسطين فى التراسل بالخطابات لأن فلسطين لم تكن قسما اداريا عثمانيا رغم أنها كانت تعبيرا جغرافيا يستخدم فى جميع أرجاء العالم المسيحى ٠ ومن المؤكد أن وزراء الحكومة البريطانية كانوا يشيرون الى فلسطين فى مناقشاتهم ٠ ولم يكن أحد يتخيل أن استثناء ماكماهون « لأجزاء من سوريا تقع الى الغرب من مناطق دمشق وحمص وحماه وحلب » والذى كان بمثابة محاولة غامضة للتلاؤم مع المصالح الفرنسية فى لبنان ـ كان ينطبق على سنجق القدس الذى كان يشتمل على ٢/٣ من مساحة فلسطين ويقع فى اتجاه الجنوب ٠ وقد يحاول البعض البرهنة على أن شريف مكة كان يدرك أن كان ينبغى عليه أن يدرك أن فلسطين مستثناة ٠ ولكن لا يوجد دليل واضح على ذلك ٠ وهو لم يتقبل ذلك على الاطلاق فى أى وقت من الأوقات ٠ وكان بمقدور بريطانيا توضيح الموقف بكل سهولة بأن تنص صراحة على أن فلسطين ينبغى أن يكون لها وضع خاص لأنها مكان مقدس بالنسبة للديانة اليهودية والمسيحية والاسلامية ولكن لم يرد نص على ذلك النحو ٠ لأن الوضوح لم يكن له علاقة بالهدف المقصود ٠

ونقطة الضعف فى موقف شريف مكة تتمثل فى الحقيقة التى مفادها أن ادعاءه بأنه زعيم للعرب لم يكن أمرا معترفا به من جانب العرب المتواجدين خارج منطقة الحجاز ٠ وبصرف النظر عن امام اليمن [الذى ظل مواليا للأتراك] والمشايخ العرب المتواجدين عند حواف شبه الجزيرة العربية [والذين كانوا على علاقة مع بريطانيا من خلال المعاهدات] وابن سعود بالأماكن الداخلية من شبه الجزيرة العربية [والذى كان بمثابة العدو المنافس لشريف مكة] فان عرب

ميزوبوتاميا كانوا يتطلعون الى الحصول على استقلالهم بينما لم يكن لشريف مكة سوى اتصالات قليلة مع عرب سوريا الذين كانوا يرزحون تحت الحكم الحديدى التركى • فعندما وصل جمال باشا لأول مرة الى سوريا لكى يتولى قيادة الجيش الرابع نجد أنه كبح جماح طبيعته الاستبدادية وأعلن أنه سيلتزم باتخاذ سياسة « الاعتدال والرحمة اوالتسامح نحو العرب » • وقال فى دمشق فى يناير ١٩١٥ « اننى فى وضع يسمح لى بأن أؤكد لكم بأن المثل العليا التركية والعربية لا تتصارع ولا تتعارض مع بعضها البعض» • ولكنه بعد أن فشل فى غزو مصر ثم قدمت له أجهزة مخابراته تقارير عن حجم الأنشطة الكبيرة العربية المعادية للأتراك فانه لجأ على الفور الى اتباع سياسة القمع • ولجأ فى بادىء الأمر الى انتهاز كل فرصة مواتية لكى يرسل وحدات عسكرية عربية تابعة للجيش العثمانى الى خارج سوريا ويستبدلها بالأتراك وبعدئذ أصدر أوامره بمحاكمة عدد من كبار الشخصيات العربية الذين ثبت تورطهم فى الأنشطة المنطوية على الخيانة والغدر من خلال الوثائق التى عثر عليها فى القنصليات الفرنسية • وتم اعدام أحد عشر فردا منهم علنا أمام الجماهير فى أغسطس ١٩١٥ علاوة على اعدام ٢١ آخرين فى شهر مايو التالى بالميادين الرئيسية فى دمشق وبيروت •

وكان السوريون يشعرون بالعداء المتزايد تجاه الأتراك • الا أن ذلك لم يكن يعنى بأى حال من الأحوال أنهم يعتقدون أن فرنسا هى التى ستنقذهم من ذلك المستنقع • وكانت المخابرات البريطانية تندهش من العداء السورى ازاء احتمالات قيام حكم فرنسى فى داخل سوريا وأرجعت ذلك الى مظاهر السياسة الاستعمارية الفرنسية المطبقة فى شمال غرب أفريقيا • وكان المارون بجبل لبنان هم فقط الذين يتطلعون الى الحصول على الحماية الفرنسية •

وبحلول ربيع عام ١٩١٦ أدرك الشريف حسين أنه ينبغي عليه أن يتخذ اجراءات نظرا لأن جيشاتركيا / ألمانيا كبيرا كان على وشك الوصول الى الحجاز في طريقه الى اليمن • وفي ١٦ يونيو رفع راية الثورة العربية واستولى على مكة وأخذها من أيدي الحامية التركية الصغيرة المتواجدة هناك • وكان يأمل في أن يتم انزال لقوات الحلفاء في نفس الوقت عند ألكساندريتا [اسكنديرون] بهدف تدعيم التمرد ضد الأتراك في سوريا • الا أن حكومة الحرب البريطانية رفضت ذلك على الرغم من التأييد القوى من جانب القوات المسلحة البريطانية وذلك بسبب معارضة فرنسا لأى انزال في سوريا اللهم الا اذا كان الانزال يتم بمعرفة قوات فرنسية • وظلت الثورة العربية مقصورة على الحجاز بصفة مؤقتة • وفي ٢ نوفمبر ١٩١٦ أعلن عن الشريف حسين بأنه أصبح « ملكا على الأقطار العربية » بمعرفة أتباعه • الا أن ذلك الاعلان لم يلق قبولا من جانب فرنسا وبريطانيا • وتم التوصل الى تسوية وفي يناير ١٩١٧ اعترفت فرنسا وبريطانيا به ملكا على الحجاز •

ولم يسبق لبريطانيا على الاطلاق أن وعدت بشكل محدد بأن تعترف بمطلب الشريف حسين في الزعامة على جميع العرب رغم أنها قد شجعته على أن يعتقد بأنها سوف تعترف به • وحقيقة الأمر أن المفاوضات السرية التي عقدتها بريطانيا مع فرنسا بشأن مستقبل الأراضي العربية العثمانية كانت قد أسفرت بالفعل عن اتفاقية أبرمت في وقت مبكر من عام ١٩١٦ • وكانت هاتان الحليفتان قد سبق لهما أن وافقتا ـ في شيء من الشكوك ـ على حصول روسيا على القسطنطينية والدردنيل • وكانت مهمة التفاوض قد ألقيت على كاهل كل من : جورج بيكو الفرنسي والسير مارك سايكس البريطاني • فتوصلا الى اتفاقية سايكس / بيكو التي تنص على تقسيم سوريا كلها والعراق بأكملها وأجزاء كبيرة من المناطق الجنوبية لتركيا الى مناطق نفوذ فرنسية وبريطانية مباشرة

أو غير مباشرة • وكانت مناطق النفوذ الفرنسية تشتمل على مساحة سوريا ولبنان الحاليتين ومناطق النفوذ البريطانية تضم مساحة العراق وشرق الأردن الحاليتين • وكانت منطقة النفوذ المباشر لفرنسا هي الأقاليم الساحلية المطلة على البحر الأبيض المتوسط بينما منطقة النفوذ المباشر لبريطانيا هي منطقة البصرة وبغداد [بالاضافة الى ميناء حيفا وميناء عكا Acre] • وفي الأراضي الواقعة الى الداخل والتي ستكون تحت السيطرة غير المباشرة لفرنسا وبريطانيا فانهما على استعداد « للاعتراف بدولة عربية مستقلة أو اتحاد فيدرالى لدول عربية تحت سيادة زعيم عربى » • وعلاوة على ذلك كانت هناك مساحة تشتمل على القدس ومعظم أراضى فلسطين وهى التى تقرر لها أن توضع تحت شكل ما من أشكال الاشراف الدولى • أما المناطق التى تقرر لها أن تترك فى حالة استقلال تام فهى المساحة التى تشغلها حاليا المملكة العربية السعودية وجمهورية اليمن العربية [وكانت بريطانيا قد حصلت على عدن واحتفظت بعلاقات متميزة مع مشيخات الخليج العربية] •

ولأسباب هامة فضلت بريطانيا وفرنسا عدم انشاء التفاصيل المتعلقة بذلك الاتفاق • وكان الشريف حسين تساوره بعض الشكوك ازاء نوايا الحلفاء • وفى أوائل ١٩١٧ تم ايفاد السير مارك سايكس الى جدة بمعرفة وزارة الخارجية البريطانية بهدف التهدئة من شكوك مخاوف الشريف حسين ولكن على الرغم من أنهما تناقشا فى مسألة الجيوش الفرنسية المتواجدة فى لبنان والمناطق الساحلية السورية ــ ولقد أوضح الشريف حسين أن هذه المناطق عربية الطابع تماما شأنها فى ذلك شأن المناطق الداخلية ــ فان سايكس لم يطلع الشريف حسين على النواحى التفصيلية لاتفاقية سايكس/ بيكو •

وفى تلك الأثناء وعلى الرغم من أن الثورة العربية التى أطلقها الشريف حسين لم ينجم عنها سوى ردود فعل قليلة فى ميزوبوتاميا

وسوريا حيث كانتا لا تزالان تحت السيطرة التركية المحكمة الا أنها قد أسهمت اسهاما كبيرا فى مجال الشئون الحربية بالشرق الأوسط · اذ شلت حركة حوالى ٣٠ ألف جندى تركى على طول خط السكك الحديدية للحجاز من عمان الى المدينة المنورة وضعت القوات التركية / الألمانية فى سوريا من الترابط مع الحامية التركية المتواجدة فى اليمن وكانت النتائج ستصبح خطرة للغاية بالنسبة للحلفاء لو أن قوات الأعداء ترابطت مع الألمان المتواجدين فى الأماكن الشرقية بأفريقيا ونجحت فى غلق البحر الأحمر أمام سفن الحلفاء · وكانت القواته العربية ـ وهى تتألف أساسا من رجال القبائل المسلحين الذين لهم جزء مركزى صغير يتألف من قوات نظامية ـ تحت قيادة الأمير فيصل الابن الثالث للشريف حسين · ولم يكن لدى فيصل نفس الذكاء البارع الذى يتميز به أخوه الأكبر الأمير عبد الله ولكنه من خلال مظهره الجليل المهيب ووقاره الشديد قد بدا للكولونيل ت· أ· لورانس ـ وهو أحد الضباط البريطانيين الموفدين بمعرفة المكتب العربى بالقاهرة لمساعدة وتدعيم الثورة ـ وكأنه يتمتع بالصفات الملائمة للقيادة والزعامة ·

وفى ربيع عام ١٩١٧ كان الهجوم البريطانى على تركيا فى منطقة سوريا / فلسطين يسير على نحو ردىء وسيىء للغاية · وفى ابريل نجد أن الحملة العسكرية للجنرال موراى قد صدت فى عنف فى غزة وأوقفت على مدى ثلاثة شهور · وفى نهاية يونيو تم استبدل موراى بالجنرال اللينبى Allenby وهو قائد يتسم بالنشاط والذكاء [وكان يسمى ب « الثور »] · فقام على الفور بنقل القيادة العامة العسكرية من القاهرة الى فلسطين وتمكن من رفع الروح المعنوية على وجه السرعة· وفى نهاية أكتوبر شن هجومه وواصل الزحف فى اتجاه القدس ·

وكانت الروح المعنوية مرتفعة أيضا فى معسكر الأمير فيصل· وفى يوليو تمكنت قواته من الاستيلاء على ميناء العقبة من خلال شن

هجوم فجائى جريىء • وهكذا نرى أن العرب قد ساهموا بدور فعال فى الحاق الهزيمة بتركيا • ولكن أثناء تقدم الليثبى استولى البلاشفة على السلطة فى روسيا واكتشفوا وثائق تشير الى اتفاقية سايكس / بيكو كانت متواجدة فى الأرشيف الامبراطورى • فقاموا بابلاغ الأتراك عن كل ما يتعلق بهذه الاتفاقية السرية • وعلى الفور قام جمال باشا بابلاغ العرب بتفاصيل هذه الاتفاقية التى تعتبر دليلا ساطعا على الخيانة التى تمارسها الدول المسيحية ضد الشعوب الاسلامية بالامبراطورية العثمانية • وعلى الفور طلب الشريف حسين توضيحا من السير رجينالد وينجيت [الذى كان قد حل محل ماكماهون فى القاهرة] • فأشار وينجيت الى أن وثائق بتروجراد تشير الى تبادلات فى الرأى مؤقتة بين الحكومة البريطانية والفرنسية والروسية ولا تشير الى أى اتفاقية جادة وصارمة • وأوضح أن نجاح الثورة العربية وانسحاب روسيا من الحرب قد خلق موقفا جديدا تماما •

وهذه النقطة الأخيرة كانت صحيحة وصادقة • الا أن النتيجة الرئيسية المترتبة عليها كانت تتمثل فى عدم ايفاء الحلفاء بوعودهم بشأن اعطاء القسطنطينية والمضايق لروسيا • ولم يؤد النجاح الذى أحرزته الثورة العربية الى تحسين الوضع التساومى للشريف حسين فى مواجهة الحلفاء • اذ ظلت مصالحهم المستقلة المتبادلة على ما هى عليه بدون أن يطرأ عليها أى تغيير • وأصبحت بريطانيا هى أقوى دولة ذات نفوذ فى الشرق الأوسط حيث كان لها قاعدة عسكرية ضخمة فى مصر وكان لها جيوش الليثبى المتواجدة فى فلسطين بالاضافة الى سيطرتها على ميزوبوتاميا [حيث كانت بغداد قد سقطت فى مارس ١٩١٧] • وكان أهم ما تحرص عليه بريطانيا هو تحقيق الأمن والأمان للامبراطورية البريطانية سواء فى الوقت الراهن أو مستقبلا • ولكن فرنسا كانت هى الشريك الكبير الوحيد لبريطانيا طوال فترات الحرب ضد ألمانيا • وهى كانت قد تكبدت

خسائر بشرية فادحة في أوربا ـ وعلى نحو يفوق كثيرا ما تكبدته بريطانيا من خسائر ـ وأصبحت عزيمتها متسمة بالتذبذب فى عام ١٩١٧ • لم تكن بريطانيا على استعداد لأن تحبط طموحات حليفتها فرنسا فى الشرق الأوسط من أجل الهاشميين الذين كانوا يعتمدون تماما على الأموال والأسلحة والمشورة العسكرية البريطانية •

وواصل اللينبى زحفه لكى يستولى على القدس فى ٩ ديسمبر • وفى لباقة دخل الى المدينة المقدسة سيرا على الأقدام وليس راكبا فى سيارة عسكرية • ولكنه تعرض للصد والعرقلة بسبب سوء الأحوال الجوية فى الشتاء وصلابة القوات التركية / الألمانية بقيادة الجنرال ليمان فون ساندرز والتى كانت تحاول الاستفادة من انسحاب روسيا من الحرب • ولكن الليثبى واصل زحفه فى سبتمبر ١٩١٨ لكى يطرد الأتراك من سوريا • وسقطت دمشق فى أول أكتوبر ١٩١٨ • وكانت أول قوات للحلفاء تصل الى دمشق هى وحدة استرالية من سلاح الفرسان ولكن لورانس عمل الترتيبات اللازمة لكى يجعل القوات العربية هى التى تدخل منتصرة إلى المدينة وتعين الحاكم الخاص بها هناك •

وتم استدعاء ليمان فون ساندرز • وبدأ مصطفى كمال الذى كان قد تمكن من ايقاف الزحف الروسى على الأناضول فى عام ١٩١٦ فى انقاذ الجيش السابع من الأخطار المحدقة به • اذ رجع بالجيش السابع الى حلب ثم قام بعملية انسحاب منظمة عبر جبال طوروس Taurus • وسقطت حلب فى أيدى الحلفاء فى٢٦أكتوبر • وبعد مرور يومين أعلنت الحكومة العثمانية انسحابها من الحرب وقامت بالتوقيع على اتفاقية الهدنة فى مودروس Mudros

ولم يكن الكشف عن اتفاقية سايكس / بيكو هو السبب الوحيد لتفجر شكوك العرب ازاء نوايا بريطانيا فيما يتعلق بمستقبل الأقاليم العربية للامبراطورية العثمانية • ففى يوم ٢ نوفمبر ١٩١٧

ـ أى قبل أيام قليلة • من قيام جمال باشا بابلاغ الشريف حسين عن اتفاق السرى الأنجلو / فرنسي ـ تم طبع ونشر خطاب صادر عن وزير الخارجية البريطانية آرثر بلفور وموجه الى اللورد روتشيلد وهو زعيم يهودى صهيونى بريطانى :

« ان حكومة جلالة الملك تؤيد انشاء وطن قومى للشعب اليهودى فى فلسطين • ولسوف تبذل أقصى وأفضل المساعى لديها لتسهيل تحقيق هذا الهدف • وليكن من الواضح تماما أنه لن يتم اتخاذ أى اجراء من شأنه أن يضر بالحقوق المدنية والدينية للجماعات غير اليهودية المتواجدة فى فلسطين أو بالحقوق والوضع السياسى الذى يتمتع به اليهود فى أية دولة أخرى » •

ولقد أدت هذه الوثيقة غير المثيرة من الناحية الظاهرية والتى اشتهر باسم « وعد بلفور » الى زرع بذور الصراع الذى استمر حتى مشارف نهاية القرن العشرين • وليس من المحتمل أن يحسم هذا الصراع قبل انقضاء قرن آخر من الزمان • وكان وعد بلفور نتيجة لتسوية تمت بين الأهداف الصهيونية والأهداف البريطانية ولكن لم يدرك هذا فى ذلك الوقت سوى عدد قليل من المراقبين • ولقد اتضح أن نتائج وعد بلفور كانت أكثر خطورة من النتائج التى ترتبت على اتفاقية الأنجلو / فرنسية والتى قضى عليها من خلال زوال القوة الامبريالية لكل من انجلترا وفرنسا فى خلال عقود قليلة من الزمان •

ومنذ فشل المحاولة الأولى لاستعادة الاستقلال اليهودى فى فلسطين فى عام ١٣٢ ميلادية أصبح اليهود مشتتين فى جميع ارجاء العالم • ولم يتبق فى القدس سوى آلاف قليلة من اليهود المتدينين• كما كانت هناك بعض المجموعات الصغيرة اليهوديه المبعثرة فى اماكن مختلفة فى داخل نطاق الأرض المقدسة [فلسطين] • وشهد اليهود المتواجدون فى بقية أجزاء العالم درجات متفاوتة من الاضطهاد

والازدهار والتفرقة والتسامح ولكنهم ابتداء من القرن الثامن عشر بدأوا يستفيدون من التوسع الاقتصادى لأوربا الغربية ومن الاتجاهات نحو التسامح الدينى • وخلال القرن التاسع عشر بدأت الاتجاهات الليبرالية واتجاهات التذويب والامتصاص تحرز تقدما متزايدا فى أوربا الغربية وخاصة فى روسيا وبولندا الروسية اللتين كان يوجد بهما أكبر كثافة سكانية يهودية • وبمجرد أن بدأت الحركات المناهضة لليهود – تحت تأثير المزاج القومى الذى اتسم به القرن التاسع عشر – فى التركيز على الجنس أو السلالة العرقية وليس على الدين فان اليهود أنفسهم تحت تأثير بيئاتهم وضغوط الاضطهاد بدأوا يفكرون فى قومية يهودية جديدة • ولكن الأمر استغرق حوالى ٢٠٠٠ عام لكى تظهر فكرة العودة الجماعية لد ١٢ مليون يهودى بالعالم الى فلسطين من أجل خلق دولة يهودية مرة أخرى – وكانت الصلاة اليهودية « السنة القادمة فى القدس » بمثابة تعبير عن هدف أو مثل أعلى روحانى أو يهودى وليس كشعار سياسى •

وفى النصف الثانى من القرن التاسع عشر كانت هناك حركة منتظمة لحث يهود أوربا الشرقية على الاقامة فى فلسطين • وبتدعيم من الاحسان والخيرية اليهودية ذهبوا أساسا الى فلسطين لكى ينشئوا المستعمرات ويستغلوا الأراضى • وكانوا بمثابة الرواد « للصهيونية البراجماتيقية العلمية » • وكان عددهم أقل بكثير من أولئك الذين ذهبوا الى أوربا الغربية والولايات المتحدة الأمريكية ولكن بحلول عام ١٩١٤ وصل عدد اليهود بفلسطين الى ثمانين ألف شخص [بما فى ذلك اليهود الذين هم من السكان الأصليين بفلسطين] بينما كان عدد العرب حوالى ٦٥٠ ألف فلسطينى عربى •

أما « الصهيونية السياسية » أو المفهوم الذهنى المتعلق بتحويل فلسطين الى دولة يهودية وطنية فقد ابتدعها تيودور هرتزل وهو

صحفى سياسى نمساوى شهير قام بطبع ونشر كتابه : [الدولة اليهودية : محاولة للعثور على حل جديد للمشكلة اليهودية] فى عام ١٨٩٦ • وأشار فى هذا الكتاب الى أن المشكلة اليهودية ليست اجتماعية أو دينية ولكنها مشكلة قومية • وعلى الرغم من أنه هو نفسه يهودى مؤمن بمذهب اللاأدرية (١) علاوة على أنه يهودى مهجن نجد أنه أشار الى أن التذويب والامتصاص لم يأته بالنتيجة المرجوة • لأن المشاعر المناهضة للسامية كانت آخذة فى التزايد • ولم يكن يعتقد أنه ينبغى ارغام جميع اليهود فى العالم على الذهاب الى الدولة اليهودية الجديدة • ولكن الشيء المهم من وجهة نظره هو أنه ينبغى أن يستمتع اليهود بالسيادة على جزء من الأراضى لكى يتلاءم ذلك مع احتياجاتهم القومية • واذا قدر لهذه الأرضى أن تكون فى فلسطين فان اليهود الأوربيين سيساعدون فى تثقيف المنطقة المجاورة لهم واضفاء الطابع الحضارى عليها •

وقام هرتزل بتنظيم المؤتمر الصهيونى الأول الذى عقد فى بازل Basle فى عام ١٨٩٧ حيث نادى المندوبون بضرورة استعمار فلسطين على أيدى العمال اليهود الزراعيين والصناعيين علاوة على تنظيم وتوحيد كافة اليهود المتواجدين فى جميع أرجاء العالم •

ولأسباب تكتيكية نجد أن الصهانية الأوائل تحدثوا عن « وطن » فى داخل فلسطين ولم يشيروا الى اقامة « دولة » فى فلسطين على الرغم من أنه كان لايزال يتعين عليهم الحصول على الموافقة العثمانية على ذلك • وكما سبق أن أوضحنا فان السلطان عبد الحميد قد رفض الموافقة على مطلب هرتزل • وبعدئذ فكر هرتزل فى سيناء وقبرص [التى كان يسكنها أتراك ويونانيون] ولكن هذه المطالب واجهت اعتراضا من جانب كرومر المندوب السامى

---

(١) أى يعتقد بأن وجود الله وطبيعته وأصل الكون هى أمور لا سبيل الى معرفتها ـ (المترجم) •

البريطاني في مصر ومن جانب المكتب الاستعماري البريطاني · وفي عام ١٩٠٣ عرضت الحكومة البريطانية في شيء من الفتور تقديم أراضي لليهود في أوغندا · فوافق هرتزل على مضض على دراسة هذا العرض · ولكن المؤتمر الصهيوني السادس رفض هذا العرض قبل موت هرتزل في عام ١٩٠٤ بوقت قصير ·

وشهدت الصهيونية السياسية احباطا على مدى السنوات العشرة التالية · وتم انشاء المنظمة الصهيونية العالمية بمدينة فيينا على أسس راسخة وأصبح بالامكان تدعيم عملية الصهيونية البراجماتيقية العملية حيث أن « الشبان الأتراك » سمحوا بتخفيف القيود بعض الشيء علي الهجرة اليهودية الى فلسطين · وتم انشاء صندوق قومي يهودي في عام ١٩٠١ لكي يقوم بشراء أراضي في فلسطين : ولكن الهدف الخاص بتحويل فلسطين الى وطن قومي اليهود كان يبدو أملا بعيدا للغاية · اذ كان ينبغي أولا أن يتحول الشعب اليهودي العالمي الى الفكر الصهيوني · حيث كان الكثيرون من الشخصيات اليهودية البارزة والغنية في أواسط وغرب أوروبا يعارضون الصهيونية ويرون أنها حركة مثيرة للفوضى · كما كان اليهود الأمريكان مازالوا يظهرون قدرا ضئيلا من الاهتمام · بل وكان الزعماء الدينيون منقسمين في الرأى بعد أن أعلن رئيس حاخامات فيينا أن الصهيونية تتعارض مع اليهودية ·

وجاء أهم تدعيم للصهيونية من جانب جماهير اليهود المتواجدين في أوروبا الشرقية · ولكن في خلال السنوات القليلة السابقة على تفجر الحرب العالمية الأولى بدأت المنظمة الصهيونية تركز انتباهها على بريطانيا لأنها أدركت أنه يمكن لها العمل في مزيد من الحرية في بريطانيا ولأن بريطانيا ـ وفقا لما أورده هرتزل ـ كان يوجد بها الحد الأدنى من المعاداة للسامية · وكان يعيش في انجلترا آنئذ شخصيتان أوربيتان شرقيتان من كبار مساعدى هرتزل وهما : حاييم فيتسمان + ناحوم سوكولوف · وبحلول عام ١٩١٤ أصبح

فايتسمان على علاقة حميمة مع نصف أعضاء الحكومة البريطانيه وذلك من خلال منصبه كرئيس للاتحاد الصهيونى الانجليزى • ومثل هؤلاء الصهاينة كانوا يدركون جيدا مدى أهمية الحصول على تأييد أقوى العناصر المسيحية علاوة على تأييد اليهودية العالمية • لأن ذلك يوفر عليهم بذل الجهود الرامية للاقناع بالنسبة لبعض القضايا الهـــامة •

ولقد ساهم أفراد كثيرون مختلفون فى خلق وتكوين وعد بلفور • وكان من بينهم مسيحيون بريطانيون يعتمل فى نفوســهم مزيج من المشاعر السياسية الامبريالية والمشاعر الرومانتيكية / التاريخية • وكان هربرت صمويل وهو عضو يهودى فى الحكومة البريطانية هو أول من اقترح فى يناير ١٩١٥ على الحكومة فكرة انشاء دولة يهودية فى فلسطين لكى يتم ضمها الى الامبراطورية البريطانية • ولكن القضية الصهيونية لم تحرز أى تقدم حقيقى الا بعد أن تولى دافيد لويد جورج مهمة تسيير شئون الحرب فى نهاية عام ١٩١٦ كزعيم للائتلاف الوطنى لليبراليين والمحافظين • وكان رئيس الوزراء دافيد لويد جورج صديقا حميما ل س٠ب٠ سكوت C. P. Scott رئيس التحرير الصهيونى المسيحى للمانشيستر جارديان • ولذلك كان من السهل كسب تعاطفه لصـــالح الصهيونية مثلما كان من الســـهل كسب تعاطف أعضاء آخرين بوزارته مثل بلفور وزير الخارجية واللورد ميلنر Milner القنصل الامبريالى السابق لدى افريقيا عـــلاوة على مجموعة كبيرة من موظفى وزارة الخـــارجية والمستشارين الحكوميين الذين من بينهم السير مارك سايكس • وقد اعتقد هؤلاء الناس الذين ليسوا يهودا أن بريطانيا ستحصل على فوائد هائلة فى حالة انشاء دولة يهودية فى فلســـطين كجز من الامبراطورية البريطانية • ولكن بالاضافة الى معتقداتهم الأمبريالية فانهم كانوا يؤمنون بالنداء الرومانتيكى الداعى الى عودة كافة اليهود الى جبل صهيون بالقدس والذى يرتكز على مسيحية العهد القديم

والذى كان جزءا من تنشئتهم الفيكتورية [وكانت للصهيونية هذه الجاذبية المزدوجة بالنسبة لتشرشل الذى لم يكن عضوا بالحكومة فى عام ١٩١٧ ولكنه عاد اليها بعد ذلك] • وكانت الحكومة البريطانية قد انحرفت بالفعل بعيدا عن الالتزام الوارد فى اتفاقية سايكس / بيكو وتحولت الى فكرة اخضاع فلسطين للاشراف الدولى • اذ قال رئيس الوزراء لرئيس تحرير المنشستر جارديان س•ب• سكوت « يمكن لبريطانيا الاعتناء بالأماكن المقدسة على نحو أفضل من أى دولة أخرى وأن اخضاع فلسطين لاشراف فرنسى هو أمر غير وارد » •

ومن الغريب حقا أن العضو الوحيد اليهودى فى الحكومة البريطانية وهو المستر ادوين مونتاجو وزير الدولة لشئون الهند • كان أكثر الأعضاء اعتراضا فى صراحة على وعد بلفور • اذ كان مونتاجو عضوا فى أرستقراطية أنجلو/يهودية شديدة الذوبان • وكان الكثيرون من أفراد هذه الطبقة الأرستقراطية يخشون من تأثيرات القوميه اليهودية على مركزهم الخاص بهم • وكان لمونتاجو نظراؤه فى دول أخرى - مثال ذلك أن هنرى مورجنثاو وهو السفير الأمريكى السابق لدى تركيا كان مناهضا للصهيونية فى صراحة وحزم • الا أن الحكومة البريطانية كانت مقتنعة بأن اليهودية العالمية تقف فى صالح الصهيونية بأغلبية ساحقة وأن ذلك يعطى مبررا لبريطانيا لكى تدعم القضية اليهودية • كما كانت تعتقد بأن هذا قد ساعد على ادخال أمريكا فى الحرب فى ابريل ١٩١٧ وساعد على الابقاء على حماسها بعد ذلك • وربما كان لدى البريطانيين وجهة نظر مبالغ فيها عن التأثير الشديد الذى يحدثه اليهود الأمريكان من خلال ثرواتهم ونفوذهم على وشنجتن ولكن اعتقادهم هذا هو الشىء الذى كانت له أهميته • وهذا بالاضافة الى أن الألمان كانوا يدركون أن باستطاعتهم تحقيق الكثير من خلال كسب التعاطف اليهودى وخاصة بين اليهود الأمريكان الكثيرين الذين هم من أصل أوربى شرقى لأنهم

يكرهون الحكومة الروسية • وحاولت ألمانيا مرارا اقناع الأتراك بأن يتخلوا عن معارضتهم للاستيطان اليهودى بفلسطين ولكن محاولاتهم باءت بالفشل • وأخيرا فان بريطانيا كانت تأمل فى أن يؤدى تبنيها للصهيونية الى كسب تعاطف الاشتراكيين اليهود الروس الذين كانوا يحاولون التأثير على حكومة كرينسكى لاخراج روسيا من الحرب •

وكل هذه الخيوط المجدولة من الأمور المتسمة بالطابع العملى والطابع المثالى قد تضافرت وأدت الى خلق وعد بلفور • وكانت الحكومة البريطانية تعتقد أن وثيقة وعد بلفور تتسم بالتوازن • وعندما طلب بلفور من كل من روتشيلد وفايتسمان أن يتقدما بمشروع قرار فانها أعدا مسودة وردت بها هذه العبارة : « ينبغى أن يعاد تشكيل فلسطين من جديد بحيث تصبح هى الوطن القومى للشعب اليهودى » • وكانت هذه العبارة شديدة للغاية ولذلك فان الصيغة النهائية — كما سبق أن رأينا — أشارت فقط الى أن الحكومة البريطانية ترحب « بأن ينشأ فى فلسطين وطن قومى من أجل الشعب اليهودى » وأضافت أيضا الشروط والفقرات المتعلقة « بالحقوق المدنية والدينية للشعب غير اليهودى بفلسطين » والمتعلقة « بالحقوق والوضع السياسى الذى يتمتع به اليهود فى أية دولة أخرى » •

ورغم هذه الصياغة المتسمة بالحرص والحذر فانها أثارت ذعر الشريف حسين وشكوكه ازاء نوايا الحلفاء • وفى هذه المرة تم ايفاد القائد د•ج• هوجارث رئيس المكتب العربى لكى يعقد اجتماعا مع الشريف حسين فى جدة • وركز هوجارث فى حديثه على مسألة عودة اليهود الى فلسطين ولكن الشريف حسين — الذى أصبح آنئذ ملك الحجاز — أبدى تخوفا شديدا من احتمال أن يؤدى وعد بلفور الى اقامة دولة يهودية فى فلسطين • وكتب هوجارث فى تقريره « الملك ليس على استعداد لأن يوافق على اقامة دولة يهودية مستقلة فى فلسطين • وأنا لم يكن لدى تعليمات بأن أنبهه الى أنه يتم التفكير

فى انشاء مثل هذه الدولة بالفعل » • وتقبل حسين التأكيدات التى قالها هوجارث وأنهى كلامه بأن أبدى تحمسه للفوائد التى ستترتب على الهجرة اليهودية الى البلاد العربية •

ثم سارعت الحكومة البريطانية الى تنفيذ بنود وعد بلفور • وعقب الاستيلاء على القدس من الأتراك مباشرة وصل فايتسمان على رأس بعثة صهيونية وأنشأ لها مركز قيادة هناك • واكتشفت البعثة أن عرب فلسطين يشعرون بالذعر الشديد بالفعل لأنهم كانوا يعتقدون أنه من الأموز البديهية تماما أن تظل فلسطين دولة عربية خالصة • وكانوا قد بدأوا قبل نشوب الحرب فى اظهار استيائهم من الأنشطة التى يقوم بها الاستعماريون الصهاينة والتى تتمثل فى انشاء مجتمعات تقتصر على اليهود فقط • الا أن هذه الأنشطة لم تكن تشكل تهديدا خطيرا نظراً لأن السلطات العثمانية قد حرصت على الابقاء على توسعاتهم عند الحد الأدنى • والآن وفى عام ١٩١٨ بدأ العرب يعتقدون بأن الصهاينة يهدفون الى الاستيلاء على فلسطين والعمل على اخضاعهم واذلالهم • ومع ذلك وعلى الرغم من أن العرب كانوا يشكلون ٩٠٪ من شعب فلسطين نجد أن وعد بلفور أشار اليهم على أنهم « الجماعات غير اليهودية المتواجدة » التى ينبغى ألا تتعرض حقوقهم المدنية والدينية — ولكن ليست حقوقهم السياسية — للاجحاف •

وشعر فايتسمان وأعضاء اللجنة أن السلطات العسكرية البريطانية لا تبذل جهودا كافية لكى توضح للعرب الفلسطينيين تصميم وعزم بريطانيا على تنفيذ البنود الواردة فى وعد بلفور • كما أن الموظفين البريطانيين من جانبهم كانوا يعتقدون أن الصهاينة ينبغى عليهم أن يبذلوا المزيد من الجهد لكى يؤكدوا للغالبية العظمى العربية نواياهم الحقيقية • وكانت المشكلة هى : ما هى هذه النوايا الحقيقية ؟

وعلى الرغم من أن الصهاينة كانوا على اســتعداد للجوء لتسويات تاكتيكية من النوع الذى أدى الى خلق وعد بلفور فانه لم يكن هناك شك فى أن هدفهم الحقيقي هو تحويل فلسطين بحيث تصبح الوطن القومى لليهود الذى يســتوعب معظم يهود العالم الراغبين فى الهجرة • ربما اختلفوا فى الرأى بشأن الحدود الدقيقة لذلك الوطن القومي ولكنهم كانوا متفقين على أن فلسطين ينبغى أن تصبح دولة يهودية قومية تعيش فيها غالبية عظمى من اليهود • ولكنهم سرعان ما أدركوا أن تحقيق التفوق العددى لليهود يعتبر أمرا صعبا للغاية • وشعر فايتسمان بالدهشة البالغة عندما أدرك أن القدس وفلسطين لا توجد بهما سوى أقلية ضئيلة للغاية من اليهود • وغادر فلسطين بعد شهور قليلة وهو يعتقد بأنه ربما يكون من المتعذر تماما منع فلسطين من أن تصبح دولة عربية •

وكانت اتجاهات الوزراء البريطانيين أكثر تعقيدا • فعلى الرغم من أنهم لم يكن لديهم سوى فكرة غامضة عن الأهداف الحقيقية للصهيونية فان معظمهم كان يجهل تماما حقيقة الوضع فى فلسطين ومشاعر شعبها العربى وان كان عدد قليل منهم كان يعتقد أن هذه الأمور لها أهمية عظمى بالمقارنة مع مصالح الامبراطورية البريطانية • ومن المؤكد أنهم لم يكن بمقدورهم التنبؤ بأنهم باتجاههم هذا كانوا يساعدون على خلق مشكلة من أصعب المشــكلات السياسية التى يتعذر حلها فى القرن العشرين • وشعر بعضهم بالقلق والانزعاج عندما أصبح التنافر والتعارض بين الآمال الصهيونية ومشاعر السخط العارمة للعرب أمرا واضحا تماما من خلال التقارير التى بعث بها الموظفون البريطانيون العاملون فى فلسطين • ولم يكن مؤلف وعد بلفور لديه مثل هذه الشكوك • اذ كتب عقب مرور سنة على الحرب « ان الدول العظمى الأربعة قد ألقت بنفسها فى أحضان الصهيونية • والصهيونية سواء أكانت على صواب أو خطأ وسواء أكانت جيدة أو رديئة فانها لها جذور متأصلة فى التراث منذ عهد بعيد وفى

الاحتياجات الحالية وفى الآمال المستقبلية ولها معنى أعمق بكثير من رغبات وأهواء أل ٧٠٠ ألف عربى الذين يسكنون الآن فى تلك الأراضى القديمة » ٠

والشـــكوك التى أثيرت حول نوايا الحلفاء لم تمنع الابتهاج العربى الشديد بتحرير سوريا ٠ وكان الأهالى قد عانوا على نحو رهيب من الحرب وذلك لأن كارثة الجراد والتمزيق الطبيعى الناجم عن الحرب وفساد الموظفين الأتراك وجشـــع التجار السوريين قد تسبب فى احداث مجاعة رهيبة فى جميع أرجاء سوريا أدت الى موت عدد يتراوح ما بين ٣٠٠ ألف الى ٥٠٠ ألف نسمة من بين العدد الاجمالى للسكان وهو ٤ مليون نسمة ٠

وعلى الرغم من السياسة التى اتبعها اللينبى Allenby بشأن السماح لقوات الأمير فيصل بالدخول منتصرا فى المدن التى يتم الاستيلاء عليها وتولى الشئون الادارية بها فان بريطانيا ٠ كانت تعطى أهمية أولى للاتفاق الذى عقد مع فرنسا ٠ وعندما اعترضت فرنسا على رفع العلم الخاص بالأمير فيصل على بيروت أذعن اللينبى وأصدر أوامره بانزال العلم ٠ ثم سارع الفرنسيون الى انزال قوات فى بيروت لدى انتهاء الحرب وأصبحت المنطقة الساحلية كلها ابتداء من صور Tyre حتى سليسيا Cilicia بآسيا الصغرى تحت الحكم العسكرى الفرنسى ٠ وكانت الادارة البريطانية لأراضى العدو المحتلة بالجنوب OETA South تغطى فلسطين بينما المدن الرئيسية بالأماكن الداخلية السورية كانت تحت نفوذ فيصل ولكن بالارتباط مع ضباط بريطانيين فى الأوتا شرق OETA East حيث كان العرب بخبرتهم المحدودة فى الشئون الادارية يعتمدون على هؤلاء الضباط اعتمادا كبيرا ٠ أما ميزوبوتاميا فقد احتفظ بها كوحدة منفردة تحت الادارة الانجـــلو/هندية ٠ وهكذا نرى أن اتفـــاقية سايكس/بيكو التى عدلت لـــكى تعكس حقائق الموقف كان يتم تطبيقها بالفعل ٠

وواجه اللينبى والاداريون العسكريون التابعون له صعوبات كبيرة فى تسيير الشئون الادارية ومما زاد الأمور تعقيدا تلك الأوامر والتعليمات المتناقضة التى كانوا يتلقونها من هوايتهول Whitehall وعلاوة على مطالب فرنسا والصهانية فان الحليف الأمريكى الجديد قد دخل الى مسرح الأحـــداث • وحقيقة أن أمريكا لم يكن لديها طموحات امبريالية تجاه الشرق الأوسط قد أعطى تدعيما أخلاقيا هائلا للخطب الشبيهة بالمواعظ الدينية والتى كان يلقيهـا الرئيس ولسون عن تسوية ما بعد الحرب • ولقد اختار ولسون أن يعمل على أساس الاعتقاد فى أن بريطانيا صادقة فيما تقوله • وعندما قامت مجموعة تضم سبعة من كبار الشخصيات العربية المقيمين فى القاهرة بتقديم مذكرة يطلبون فيها تحديد واضـــح للسياســـة البريطانية ـ بقدر فان رد بريطانيا ـ والذى عرف باسم : الاعلان

للسبعة والذى حظى بقدر كبير من النشر والاعلام ـ أشار الى أن الحـكومة المستقبلية للأراضى العربيـة التى تم تحـريرها بمعرفة الجيوش العربية سوف ترتكز على مبدأ « موافقة المحكومين » وقام ولســـون بتضمين هذه العبارة فى بيانه عن « الأهداف الأربعة للسلام » وهى الأهداف التى ضمنت فيما بعد ـ من خلال نفوذه وتدخله ـ فى ميثاق عصبة الأمم • بل وحصـــل مبدأ « موافقة المحكومين » فيما بعد على مزيد هائل من التدعيم من خلال البيان الأنجلو/فرنسى الصادر فى ٧ نوفمبر ١٩١٨ ـ أى فى خلال الأسبوع من التوقيع على اتفاقيات الهدنة مع تركيا وألمانيا ـ والتى أشارت الى أن هدف الحكومتين البريطانية والفرنسية هو الاستكمال والتحرير النهائى للشعوب الرازخة تحت ظلم الأتراك وانشاء حكومات وطنية وشئون ادارية وطنية تستمد سلطانها من الممارســـة الحرة لمبادرة واختيارات السكان المحليين •

وحتى مع النظر بعين الاعتبار الى الضغوط الأمريكية فانه من الصعب أن ندرك السبب الذى جعل بريطانيا وفرنسا تشعران بأن

مثل هذا النفاق السافر الوقح كان أمرا ضروريا • اذ كان تركيا قد لحقت بها الهزيمة بالفعل ولم تعد هناك حاجة لمساندة الثورة العربية • ولم تكن توجد هناك نية فى لندن أو باريس للسماح للسكان المخليين بالأراضى العثمانية السابقة بممارسة حرية الاختيار لحكامهم • وهكذا نرى أن عبارة « موافقة المحكومين » كانت مجرد عبارة خاوية وجوفاء •

الفصل التاسع

الحركات الوطنية ضد الاستعمار الأنجلو ـ فرنسى

١٩١٨ ـ ١٩٣٩

The Anglo-French Interregnum : 1918-1939.

تقســـيم المشرق العربى :

لقد كان انتهاء القرون الأربعة من الحكم التركى فى الشرق الأوسط فجائيا وكاملا • ونظرا لأن الحكم التركى قد تقبله الناس كنظام طبيعى على مدى فترة زمنية طويلة للغاية فانه ليس من المدهش أن يشعر الغالبية العظمى من السكان بالتشويش والارتباك عقب ازالة ذلك الحكم • وكانت الطبقة الحاكمة العثمانية هى التى تزود المجتمع العربى بالقادة والحكام بما فى ذلك مصر التى ظلت تحت السيطرة البريطانية على مدى أربعين عاما تقريبا •

وكما سبق أن رأينا فان الحكومات العثمانية ومندوبيها فى الأقاليم العربية كانوا يقدمون فى بعض الأحيان الأسباب التى تجعل الناس يشعرون نحوهم بالكراهية الشديدة • الا أن ذلك لم يكن يعنى أن القيادة السياسية التركية للعالم الاسلامى فى هذه المنطقة

قد بدأت تصبح أمرا غير طبيعي • فعلى الرغم من المحاولات الأخيرة التي تناولت اعادة كتابة التاريخ نجد أن مفهـــوم الأمة العربية المنفصلة عن تركيا ـ وبدرجة أقل مفهوم القومية العربية العلمانية ـ لم يكن قد بدأ في الظهور الا فيما ندر • أما المطالبة الهاشـــمية بالزعامة العربية فقد تولدت على نحو عشوائي في ظروف الحرب • ولذلك لم تلق قبولا من جميع العرب ولم تحظ دائما بالتأييد والرعاية البريطانية • ولكن الانهيار العثماني الشامل قد أتاح الفرصـــة لبريطانية وفرنسا لفترة قصيرة بأن تشعرا بأن بامكانهما عمل أى شيء كما يحلو لهما الى حد بعيد • ولو كان الوضع بخلاف ذلك لأصبح أمرا يتعذر تخيله بالنسبة للدولتين المسيحيتين الغازيتين •

وكانت الأراضي الرئيسية التركية بالامبراطورية العثمانية هي فقط التي نجت من التعرض للتفكك ـ وذلك من خلال القيادة التي لا تقهر لرجل واحد يسمى مصطفى كمال • وعقب التوقيع على اتفاقية مودروس Mudros . للهدنة قام الســـلطان الجديد محمد السادس [وكان محمد الخامس قد انتقل الى رحمة الله في يوليو ١٩١٨] بحل البرلمان التركي وشكل حكومة جديدة من رجال كانوا على استعداد لقبول شروط الحلفاء • وبالاضافة الى تواجد ادارة للحلفاء في استانبول كان الفرنسيون يحتلون سليسيا Cilicia وأدنا Adana كما كانت القوات البريطانية قد اســـتولت على مضيق الدردنيل كما كان الايطاليون وهم الحليف الرابع للحلفاء الغربيين قد أنزلوا قواتهم عند أنتاليا Antalya • أما الروس فهم فقط الذين لم يكن لهم حق المطالبة بأى شيء • ووفقـــا لمعاهدة برست/ليتوفسك [٩ مارس ١٩١٨ عقب قيام الثورة البلشفية] كانت تركيا قد استعادت كافة الأراضي التي سبق أن استولت عليها روسيا أثناء الحرب بالاضافة الى تلك الأراضي التي سبق التخلي عنها في عام ١٨٧٧ • الا أن ذلك كان يعني قدرا قليلا للغاية

من المكاسب فى حالة اذا ما قدر لتركيا أن تتوقف عن التواجد على قيد الحيـــاة ٠

وكانت لجنة الوحدة والتقدم قد انهارت تماما ولجأ زعماؤها الى الهرب ٠ وعندئذ قرر السلطان سحق الفلول المتبقية من « الشبان الأتراك » ٠ وكان مصطفى كمال الذى يتمتع باحترام كبير وشعبية بالغة فى داخل تركيا يسبب المتاعب للسلطان وحكومته من خلال تنظيم المقاومة الشعبية ضد الحلفاء المتواجدين فى استانبول ٠ لذلك قام محمد السادس بتعيينه قائدا عاما على الجيش التاسع المتمركز فى سامسون Samsun وأصدر له الأوامر بتسريح الفلول المتبقية من القوات العثمانية ٠

ووصل مصطفى كمال الى سامسون فى ٩ مايو ١٩١٩ ولكنه بدلا من قيامه بتسريح الجيش فانه راح يحشد المؤيدين لفكرة انشاء دولة تركية متحررة من السيطرة الأجنبية ٠ فقرر الحلفاء محاربة الاتجاهات الوطنية التركية التى انبعثت وتفجرت من جديد وأرسلوا جيشا يونانيا كبيرا لكى ينزل فى أزمير ويحتل الاقليم المحيط بها ٠ وامتدت الطموحات اليونانية الى كافة أراضى الأناضول الغربية والتى كان يوجد بها أقليات يونانية كبيرة العدد بعض الشىء ـ وصمم اليونانيون على ضرورة استعادة امبراطورية القسطنطينية المسيحية الســـابقة ٠

وفى حين أن الســـلطان أصدر أوامره للقوات التركية بعدم مقاومة اليونانيين راح مصطفى كمال يجمع العون والتأييد لقضية الاستقلال التركى ٠ وعلى الرغم من أن الشعب التركى كان فى غاية الارهاق بسبب دخوله فى حروب شبه مستمرة على مدى ثمانية سنوات الا أنه قد أثير لمواصلة الكفاح بسبب التقدم اليونانى نحو الأراضى الرئيسية فى الأناضول ٠ وكان الشـــعب التركى يرفض الشروط القاسية الواردة فى معاهدة سيفر Sèvres المبرمة فى أغسطس ١٩٢٠ والتى جعلت تركيا عاجزة ومحرومة من بعض أغنى

أقاليمها كما أن السلطان الذى أصبح مجرد ألعوبة مما أدى الى تشويه سمعته واضعاف الثقة فيه على نحو متزايد ٠

واستمرت الحرب اليونانية/التركية لمدة عامين ابتداء من عام ١٩٢٠ حتى عام ١٩٢٢ ٠ وفى بادىء الأمر كان الأتراك غير قادرين على ايقاف الزحف اليونانى ٠ ولكن فى عام ١٩٢١ تغيرت الأوضاع عندما حقق الأتراك انتصارا عظيما عند نهر سكايرا sakayra ٠ وفى عام ١٩٢٢ أصيب الجيش اليونانى بالضعف والوهن بسبب الشقاق والنزاع الذى حدث فى داخل اليونان فاضطر الى الانسحاب بشكل متواصل ومستمر ٠ وفى سبتمبر ١٩٢٢ تمكن مصطفى كمال من احتـــلال أزمير ٠ وعندما عبرت قوات مصطفى كمال مضيق الدردنيل لكى تطرد اليونانيين من تركيا الأوربية أيضا تم تجنب الدخول فى صــــدام مباشر مع بريطانيا بصعوبة بالغة ٠ وتراجع الحلفاء واعترفوا بالسيادة التركية على استانبول والمضايق وثراسى Thrace الشرقية وذلك وفقـــا لشروط الهدنة التى التزمت بها اليونان أيضا ٠

وعقد مؤتمر للسلام بعد ذلك ٠ وأسفر هذا المؤتمر عن التوقيع على معاهدة لوزان فى ٢٤ يوليو ١٩٢٣ ٠ وأدى ذلك الى الاعتراف بالسيادة التركية الكاملة على جميع الأراضى تقريبا التى تشغلها الجمهورية التركية الحالية ٠ وفقد الأرمن الذين كافحوا على مدى فترات طويلة للغاية مليئة بالمعاناة آمالهم فى الاستقلال ٠ وعقب قيام الثورة البلشفية أعلنت أرمينيا الشرقية أو الروسية استقلالها ٠ وتدمرت آمال الأرمن الغربيون أو الأرمن الأتراك فى الانضمام الى الجمهورية الجديدة بسبب تقدم قوات مصطفى كمال ٠ وفى ديسمبر ١٩٢٠ قامت الحكومة بالعاصمة الأرمينية يريفان Yerevan بتسليم السلطة سلميا للبلاشـــفة ٠ ثم هربت الفلول المتبقية من الأرمن الأتراك الى لبنان وسوريا حيث منحت لهم عقب مرور ســـنوات

قليلة صــفة المواطنة وأصبحت لهم واجبات المواطن وحقـــوقه وامتيازاته ٠

وعاني الأكراد من احباطات مريرة مماثلة ٠ وصحيح أن معاهدة سيفر sèvres اعترفت بدولة كردية مستقلة لكردستان الا ان معاهدة لوزان لعام ١٩٢٣ قد ألغت ذلك ٠ وظلت المشكلة الكردية تعمل على تحطيم الاستقرار السياسى بالدول الثلاثة التى يشكل بها الأكراد أقليات لها أهميتها : تركيا + ايران + العراق ٠

وعلى الرغم من أن شريحة كبيرة من الرأى العام التركى كانت تفضل الاحتفاظ بالنظام الملكى الدستورى الا أن مصطفى كمال كان مصمما على التخلص من السلطان ٠ وكان مصطفى كمال متمتعا بالهيبة والنفوذ مما جعله يتصرف كما يريد وكما يحلو له ٠ وفى أول نوفمبر ١٩٢٢ أصدرت الجمعية العمومية قانونا ينص على الغاء منصب الســـلطان ٠ فاضطر محمد الخامس الى الهرب الى خارج البلاد ٠ وفى ٢٩ اكتوبر ١٩٢٣ صدر قرار باعلان الجمهورية فى تركيا وتعيين مصطفى كمال رئيسا للجمهورية ٠

وكانت الخلافة الاسلامية تجتذب قدرا كبيرا من الولاء شأنها فى ذلك شأن السلطنة ٠ وعلى الرغم من أن مصطفى كمال كان يميل الى الغاء منصب السلطان ومنصب الخليفة فى آن واحد الا أنه انحنى للارادة الشعبية فى هذا الشأن ٠ حيث وافق على أن يصبح ابن أخ محمد الخامس والذى يســمى عبد المجيد زعيما روحيا للاسلام ٠ ولكن على الرغم من أن الخليفة الاسلامى عبد المجيد قد جرد من كافة سلطاته الروحية الا أن بلاطه قد أصبح مركزا للتآمرات الملكية ٠ وعندما قام زعيمان اســلاميان هنديان وهما : الأمير على + أغاخان باصــدار بيـان يدعوان فيه الشعب التركى الى الحفاظ على الخلافة الاســلامية انتهز مصطفى كمال ردود الفعل التركية المتســمة بالســخط ازاء هذا التدخل الأجنبى فى شــئون

تركيا • وبادر الى الغاء الخلافة • ووافقت الجمعية الوطنية فى ٣ مارس ١٩٢٤ على مشروع قانون ينص على الغاء الخلافة هذا •

ومنذ ذلك الحين لم يظهر لقب الخليفة الى الوجود مرة أخرى على الاطـــلاق • وفى مايو ١٩٢٦ عقد مؤتمر خاص بالخلافة فى القاهرة وحضره مندوبون عن ١٣ دولة اسلامية [ليس من بينهم تركيا] ولكن مشاوراته ومداولاته كانت غير حاسمة • ومنذ ذلك الحين لم تصبح الخلافة مسألة مثيرة للخلاف والنقاش فى سياسات العالم العربى •

لقد كان مصطفى كمال زعيما وطنيا علمانيا • وكان يعتقد بأنه ينبغى الغاء كل تراث الامبراطورية العثمانية وينبغى تحويل تركيا الى دولة أوربية حديثة • وهذا لا يعبر عن تخاصم فجائى مع الماضى أو انحراف عن الأوضاع التى كانت سائدة • فاصلاحات « التنظيمات » قد وضعت الأسس التى يمكن أن ترتكز عليها دولة علمانية • كما أن « الشبان الأتراك » ـ حتى أثناء محاولاتهم الرامية الى الحفاظ على الامبراطورية ـ قد أعطوا قوة دافعة لقضية القومية التركية • كما أنه فى خلال سنوات الحرب أحرز التعليم العلمانى خطوات للأمام وفتحت الجامعات والوظائف العامة أمام النساء • كما أن بعض المحاكم الخاضعة للسلطات الدينية قد وضعت تحت اشراف وزارة العدل • هذا بالاضافة الى اصدار قانون فى عام ١٩١٦ ينص على ادخال تعديلات واصلاحات على النواحى المتعلقة بالزواج والطلاق •

وقام مصطفى كمال بتعميق الاتجاهات العلمانية • وتم وضع دستور جديد يرتكز على مجموعة من القوانين الأوربية لكى يحل محل الشريعة الاسلامية • وفى عام ١٩٢٨ أصبح الدستور علمانيا على نحو رسمى بعد أن تم شطب العبارة التى تفيد بأن الاسلام هو الدين الرسمى للدولة التركية ، وبعد أن تم التأكيد على أن النظام

العلمانى قد رسخ من حيث هو أحـد المبـادىء الرئيسية الستة للدولة • وتم وضع حروف أبجدية ترتكز على الحروف اللاتينية لكى تحل محل حروف اللغة التركية وأخـيرا وفى عام ١٩٣٥ تم ادخال الكنية أو اللقب الخاص بالأسرة وفق الأسلوب الأوربى • وأصبح مصطفى كمال يلقب باسم : أتاتورك أو [والد الأتراك] •

وبسبب الهيمنة الشديدة لمصطفى كمال على شعبه أصبحت هذه الاصلاحات عميقة الأثر لدرجة كبيرة • الا أن ذلك لم يكن يعنى أن الشعب التركى بوجه عام قد تخلى تماما عن الدين الاسلامى • فرغم تدمير نفوذ العلماء [رجال الدين] استمرت جماهير الشعب التركى والتى ظل معظمها من المزارعين الفلاحين فى الحفاظ على دينها الاسلامى • بل ان طبقة المثقفين الأتراك كانوا يستنكرون الفكرة القائلة بأنهم لم يعودوا مسلمين ـ فكل ما حدث من وجهة نظرهم ليس سوى ادخال اصلاحات تركية على الاسلام •

ان خلق الجمهورية التركية والغاء الامبراطورية لم يكن معناه أن تركيـا قد توقفت فجأة عن كونهـا أحد العوامل فى التنمية السياسية للشرق الأوسط [لم يكن يوجد هناك سوى المنازعات الاقليمية المتبقية على ولاية الموصل وولاية حلب وقد تم تسوية هذه المنازعات فى العشرينات من عام ١٩٢٠ والثلاثينات من عام ١٩٣٠ مع بريطانيا وفرنسا] • اذ أن نجاح أتاتورك فى انشاء دولة قومية قوية قادرة على التعامل مع الدول الأوربية على أسس من المساواة والندية قد أحدث تأثيرا على الوطنيين العرب والفرس ـ وخاصـة الوطنيين الفرس ولكن اختلاف ظروفهم كان يعنى أن تركيا كانت ملهمة أكثر مما هى نموذج • فالعرب والفرس لم يكن لديهم الرغبة أو الطموح فى أن تصبح بلادهم جزءا من أوربا • رغم أنه كان بمقدور تركيا أن ترعى هذا الطموح حتى ولو بدا للبعض أنه أمر غير واقعى •

وبعد الغاء السلطنة والخلافة قام أتاتورك بتنظيم الجمهورية الجديدة كدولة ديموقراطية برلمانية علمانية . ونص دستور عام ١٩٢٤ على المساواة بين جميع الناس أمام القانون علاوة على ضمان حرية الفكر والكلام والطبع والنشر والاجتماع . ومن الناحية النظرية كان الشعب يتمتع بالسيادة . وكانت السيادة تمارس باسمهم من خلال البرلمان الذى يضم مجلسا واحدا ـ والذى يسمى الجمعية الوطنية العمومية ـ والذى قام بانتخاب رئيس الجمهورية الذى قام بدوره باختيار الوزراء . وكان من المفترض أن الوزراء مسئولون أمام البرلمان .

ومع ذلك ظلت القيود الشديدة مفروضة على الديموقراطية . واستخدم أتاتورك نفوذه الهائل لكى يتجاهل الدستور كلما أراد ذلك . وفى عام ١٩٢٤ قام بتنظيم مؤيديه وألف منهم حزب الشعب الجمهورى RPP . وسيطر هذا الحزب على الحياة السياسية فى البلاد حيث كان جميع أعضاء الجمعية الوطنية العمومية ينتمون اليه . وظل حزب الشعب الجمهورى يحكم تركيا على مدى ٢٧ عاما . وعلى الرغم من الأساليب الاستبدادية التى انتهجها أتاتورك ولجوئه الى نظام الحكم المطلق الا أنه غرس بذور الحكم الدستورى الليبرالى . اذ كانت للجمعية الوطنية العمومية سلطات حقيقية كما أن أتاتورك كان يحاول أن يشق طريقه من خلال الاقناع وليس من خلال استخدام القوة والعنف .

وفى المجال الاقتصادى نجد أن أتاتورك ركز جهوده على تنمية الموارد المعدنية الغنية لتركيا وتطوير الصناعة ووسائل النقل والمواصلات والاتصالات . ونظرا لأنه كان يتذكر جيدا مدى خضوع تركيا العثمانية للسيطرة المالية والاقتصادية الأوربية من خلال الامتيازات الأجنبية Capitulations فانه أصر على أن تقوم الدولة بمشروعات حكومية ضخمة على نطاق واسع بهدف ممارسة الاشراف

اللصيق على التخطيط والتنمية . وعلى الرغم من أن تلك المشروعات الضخمة كانت متسمة بالطابع البيروقراطى وعدم الكفاءة الا أنها أحرزت تقدما كبيرا نحو تضيع تركيا خلال الفترة ما بين الحرب العالمية الأولى والحرب العالمية الثانية ونظرا لأنها لم تكن ترتكز على أسس أيديولوجية ماركسية فان تحررها النهائى لم يقدم مشاكل من النوع الذى يتعذر حلها .

وعقب وفاة أتاتورك فى عام ١٩٣٨ نجد أن المعارضة الموجهة ضد الديكتاتورية المنتخبة قد أحرزت تقدما والدليل على ذلك أن رئيس الجمهورية الذى جاء بعده وهو عصمت انونو والذى كان واقعا بعض الشيء تحت تأثير المثل العليا الديموقراطية للحلفاء الغربيين فى الحرب العالمية الثانية قد سمح بانشاء نظام تعدد الأحزاب . وظهر الحزب الديموقراطى كمنافس رئيسى لحزب الشعب الجمهورى حيث كان يتبنى مشروعات القطاع الخاص وأسلوب الاقتصاد الحر ونظام تعدد الأحزاب مما جعله يكسب المزيد من الشعبية والأعضاء تدريجيا الى أن تمكن فى نهاية الأمر من تحقيق انتصارات باهرة فى انتخابات عام ١٩٥٠ . وقد ظهر صدق وأصالة الديموقراطية العلمانية بتركيا عندما سمح انونو بنقل وتحويل السلطة بطريقة سلمية .

أما تجربة الرعايا العرب السابقين الذين كانوا تابعين لتركيا فكانت تجربة مختلفة تماما .

ففى نهاية الحرب العالمية الأولى كان الاهتمام الرئيسى للحلفاء الغربيين الأربعة أثناء استعدادهم لعقد مؤتمر السلام فى باريس منصبا على تسوية ما بعد الحرب فى أوربا عقب هزيمة ألمانيا وامبراطورية النمسا/المجر . ولم يكن مستقبل الشرق الأوسط من البنود الهامة المعروضة فى جدول أعمال المؤتمر . اذ كانت بريطانيا قد اكتسبت كنتيجة لالحاقها الهزيمة بتركيا نفوذا هائلة فى منطقة الشرق الأوسط بحيث لم تعد تخضع الا لالتزاماتها ازاء

حليفتها فرنسا • وكانت الحرب فى الصحراء قد أثارت اعجاب الرأى العام البريطانى نظرا لأن الأعمال البطولية الرومانتكية التى حظيت بالدعاية الجيدة والتى قام بها ت•أ• لورانس كانت تبعد الناس عن الرعب الهائل الذى اتسمت به حرب الخنادق على الجبهة الغربية •

واحتمالات ضم الأقاليم العربية العثمانية السابقة كمستعمرات لم يفكر فيها جديا سوى عدد قليل من الموظفين المستعربين — لأن عصر التوسع الاستعمارى الأوربى كان قد انتهى بالفعل • ولكن العرب الذين ظلوا رازخين تحت حكم الأتراك لفترات طويلة للغاية كان ينظر اليهم على أنهم احدى « الأجناس البشرية الخاضعة » وليسوا « جنسا بشريا حاكما » اذا صح لنا أن نستخدم تصنيف كرومر للبشرية • [أما البدو العرب « النبلاء المستقلون » فكانوا مختلفين الا أنهم لم يحتلوا مناطق لها أهمية من الناحية السياسية أو الاقتصادية] • ولذلك نجد أن مسألة التعارض والصراع بين التعهدات التى قدمت للشريف حسين والتعهدات الأخرى التى قدمت لفرنسا لم يهتم بها سوى أقلية ضئيلة من المتخصصين مثل ت •أ• لورانس نفسه الذين كانوا جميعا يبغضون الفرنسيين ويخافون منهم • وبوجه عام كان هناك شعور سائد بأنه ينبغى على العرب أن يشعروا بالامتنان لتحريرهم من الأتراك — ومعظمهم كان يشعر بالامتنان بالفعل بسبب التحرر من الأتراك • وعلى الرغم من أن المبدأ الجديد لحق تقرير المصير والمرتكز على المثل العليا للرئيس ولسون كان — من الناحية النظرية — هو المبدأ المرشد فى تسوية ما بعد الحرب الا أن تأثيره كان ضعيفا للغاية •

وكانت مصر — وهى الدولة التى كانت قد ظلت رازخة بالفعل تحت الحكم البريطانى على مدى أربعين عاما تقريبا — هى الدولة التى قدمت الصدمة الأولى • وكان المصريون بالمقارنة مع السوريين

قد لاقوا معاناة قليلة بسبب الحرب . ومع الارتفاع الهائل فى أسعار القطن تزايدت الثروة الطبيعية فى مصر بالفعل . وتم تحقيق أرباح كبيرة من وراء امداد قوات الحلفاء بالسلع والبضائع . الا أن ذلك الازدهار كان يخفى وراءه أحزانا اجتماعية هائلة . فتجنيد الفلاحين وجمالهم وحميرهم فى فرق العمل والنقل كان يتم بطريقة اجبارية وفقا لقـانون الأحـكام العرفية مما جعل الشعب يشعر بالاستياء الشديد . كما أن الثروات الجديدة تراكمت فى أيدى طبقة كبار ومتوسطى ملاك الأراضى الذين كانوا يمتلكون ٧٥٪ من مجموع الأراضى الزراعيـة وفى أيدى الطبقة الرأسمالية الجديدة المتواجدة فى المدن . أما بقية الشعب المصرى فكانوا يعانون من ارتفاع حاد فى الأسعار وتكلفة المعيشة . ونظرا لأن الحكومة المصرية لم يكن لديهـا أى سياسة اجتماعية/اقتصـادية فقد أدى ذلك الى السماح لكبار ملاك الأراضى بترك زراعة المحاصيل الغذائية والاهتمام بزراعة القطن مما أدى بالتالى الى خلق مجاعة وارتفاع حاد فى معدلات الوفيات على نحو يفوق معدلات الولادة أثناء فترة الحرب .

وصعدت الى السـطح الروح الوطنية المتأججة التى ظلت مغمورة بسبب قانون الأحكام العرفية . وكان المندوب السـامى البريطانى السير رجينالد وينجيت قد سمح بتشكيل لجنة برئاسة المستشار القضائى البريطانى من أجل دراسة الاصلاحات التشريعية والوضع السياسى فى مصر عقب انتهاء الحرب . فأشارت اللجنة فى توصياتها بأن مصر ينبغى أن يكون لها هيئة تشريعية تضم مجلسين أو غرفتين وبحيث يكون لمجلس الأعيان أهمية أكبر . وتضم الهيئة التشريعية وزراء مصريين ومستشـارين بريطانيين ومندوبين عن الجاليات الأجنبية يتم انتخابهم من خلال ناخبين غير اعتياديين . وكانت وجهة نظر المستشار القضائى أنه نظرا لأن المصالح المالية لمصر توجد فى أيدى أجنبية الى درجـة كبيرة فانه ليس من حق

المصريين التعبير عن الاتجاه الذى ينبغى أن يهيمن الى التشريع الذى يؤثر عليهم ·

ولدى تسرب أنباء هذه الاقتراحات فى نوفمبر ١٩١٨ فانها أثارت استياء واستفزاز القيادة الوطنية فى مصر · اذ كانت القيادة الوطنية المصرية تدرك جيدا أن نظرية ولسون بشأن حق تقرير المصير للشعوب المتحررة من الحكم التركى قد تمت الموافقة عليها من جانب الحلفاء · وكان عرب شبه الجزيرة العربية والذين كان ينظر اليهم المصريون على أنهم أكثر تخلفا من أنفسهم [وكان المصريون على حق فى هذا الرأى] يستعدون لايفاد مندوب لكى يحضر مؤتمر السلام فى باريس · وعقب مرور يومين على التوقيع على الهدنة ذهب سعد زغلول باشا الى دار المندوب السامى البريطانى وقدم نفسه كرئيس لوفد [وكلمة الوفد باللغة العربية أصبحت مرتبطة بأعوان ومؤيدى سعد زغلول] ليقول أن الشعب المصرى يرغب فى الحصول على الاستقلال التام ولكى يطلب السماح له بمواصلة الذهاب الى لندن من أجل أن يعرض قضية المصريين · وكان سعد زغلول قد أبعد عن الحكومة بمعرفة وينجيت الا أنه بكل تأكيد كان زعيم الحركة الوطنية فى مصر · ورفض بلفور وزير خارجية بريطانيا والذى كان يتطلع بالفعل الى عقد مؤتمر باريس للسلام ـ فى غلظة وخشونة السماح لسعد زغلول بزيارة لندن · وعندما عرض رشدى باشا رئيس الوزراء المصرى أن يذهب الى لندن بدلا من سعد زغلول · رفض بلفور ذلك أيضا وبعث برسالة الى وينجيت أشار فيها الى أنه بينما أن الحكومة البريطانية « ترغب فى التصرف وفق المبدأ الذى اتبعته دائما والخاص بمنح المصريين نصيبا متزايدا باستمرار فى حكم البلاد ···· فانه كما تعرفون جيدا لم يتم الوصول بعد الى المرحلة التى يمكن فيها للمصريين أن يمارسوا الحكم الذاتى » · ولم يكن لدى بريطانيا النية لأن تتخلى عن مسئولياتها عن النظام

والحكم الجيد فى مصر « وازاء حماية حقوق ومصـــالح الســكان الوطنيين والأجانب فى مصر » •

وانتهز سعد زغلول الفرصة المتاحة أمامه • وبعد أن أشار الى أن مطلب رئيس وزراء مصر نفسه قد رفض فى ازدراء بدأ ينظم حملة احتجاج فى جميع أرجاء مصر من أجل مساندة مطلبه بأن يكون هو المندوب الحقيقى الذى يمثل مصر • وتخلى بلفور عن تشدده ووجه الدعوة بالفعل لرشدى باشا للمجيىء الى لندن ولكنه رفض الموافقة على اصرار رشدى على ضرورة أن يصطحبه سعد زغلول أثناء زيارته للندن • ثم قدم رشدى وأعضاء حكومته استقالتهم فى أول مارس ١٩١٩ بموافقة كاملة من السلطان فؤاد •

وعلى الرغم من أن سعد زغلول زاد من اثارته للقلاقل وتحريكه للاهتياجات فان المندوب السامى البريطانى اعتقد بأن الاهتياجات ستتلاشى تدريجيا • وأصــدر توصياته بضرورة نفى ســعد زغلول وثلاثة من زملائه على وجه السرعة الى قطار متجه الى بورسعيد ثم نقلوا الى مدمرة بريطانية لكى تنقلهم الى مالطة •

وكانت ردود الفعل لدى جماهير الشعب المصرى فورية وعنيفة • اذ تظاهر الطلبة فى ثورة شديدة بالقاهرة وساندتهم الاضرابات عن العمل من جانب الموظفين الحكوميين والأطباء والمحامين وتوقفت مظاهر الحياة تماما فى العاصمة • وأصيب البريطانيون بالدهشة البالغة عندما انتشرت الثورة وامتدت الى المدن الاقليمية والمناطق الريفية وأصبحت بمثابة ثورة شــعبية وطنيــة شاملة وهى الثورة التى أطلق عليها الوطنيون المصريون فيما بعد اسم : ثورة ١٩١٩ •

وخمدت الثورة فى خلال أسابيع قليلة بعد أن لجأت السلطات البريطانية الى الاجراءات العسكرية الصارمة ونقل الجنود على وجه السرعة الى المناطق الريفية والقاء القنابل على التجمهرات والتجمعات

المشكوك فى أمرها · الا أن الحكومة البريطانية أدركت أن اجراءات القمع لن تأتى بالنتيجة المرجوة · كما أن أخبار الثورة لم تكن أمرا يبعث على الارتياح كما أنها كانت غير متوقعة فى وقت كانت فيه الحكومة مشغولة بالقلاقل الايرلندية القريبة من انجلترا علاوة على انشغالها بالشئون المتعلقة بمؤتمر باريس · وقرر لويد جورج رئيس الوزراء البريطانى ـ فى واحدة من توهجاته الحدسية النادرة ـ أن الجنرال اللينبى الذى كان قد وصـــل الى باريس ليدلى بآرائه عن سوريا هو الرجل المناسب لاعادة الوضع الى ما كانت عليه مصر · وفى مارس ١٩١٩ تم ايفاد اللينبى على الفور لكى يحل محـــل وينجيت ·

وكانت الأوامر المقتضبة الصـــادرة للينبى هى اعادة تطبيق القانون والنظام وعمل أى شىء متطلب « انطلاقا من الرغبة الملحة فى الحفاظ على الحماية على مصر على أسس آمنة ومنصفة وعادلة » · ولـــكن خلف المظهر الخارجى الحربى الجاف للينبى كانت توجد عقلية سياسية بارعة ذات ميول ليبرالية · وكان قد عارض بالفعل فى باريس فكرة فرض الحكم الفرنسى على سوريا لأن ذلك يتناقض مع رغبات الأهالى السوريين فى الاستقلال والتى عبروا عنها بكل وضوح · وهو على الأقل كان يؤمن بعض الشىء بمبدأ حق تقرير المصير ·

وعقب وصول اللينبى الى مصر فانه أكد للمصريين أنه يهدف الى تخليصهم من الظلم الواقع عليهم · ثم استخدم كل ما لديه من نفوذ لارغام لويد جورج على الموافقة على اطلاق سراح سعد زغلول وزملائه ـ وهو الاجراء الذى أثار ذعر الموظفين الأنجلو/مصريين · ولكن سعد زغلول ـ فى غير توبة أو ندم ـ استأنف المطالبة بانهاء الحماية على مصر · وتجددت الاضـــطرابات والمظاهرات والاضراب العام · وكان رد الفعل لدى اللينبى حازما كما توقعت لندن · ولكنه كان يدرك جيدا أن الحماية على مصر ينبغى أن تلغى وهو أمر لم تكن

الحكومة البريطانية تدرك جوانبه • وبعدئذ رحب اللينبى بالقرار الخاص بايفاد لجنة على مستوى عالى برئاسة وزير المستعمرات اللورد ميلنر Milner رغم أن مهمة اللجنة كانت تنحصر فقط فى دراسة أسباب الاضطرابات واصدار توصيات بشأن نوعية الدستور الذى يمكن له تحت ظل فرض الحماية « أن يؤدى الى تدعيم السلام والازدهار فى مصر وتدعيم وتنمية مؤسسات الحكم الذاتى بها وتوفير الحماية للمصالح الأجنبية » • وفى كلمات مليئة بالتبصر قام بلفور بابلاغ مجلس العموم البريطانى فى ١٧ نوفمبر بأن « ••• قضية مصر وقضية السودان وقضية قناة السويس تشكل كيانا عضويا كليا غير قابل للتذويب أو التفكيك » وأن انجلترا ليست بصدد التخلى عن أية مسئولية من مسئولياتها • وأضاف « ان السيادة البريطانية متواجدة وقائمة • ولسوف يتم الحفاظ على السيادة البريطانية » •

وحقيقة الأمر أن مسار الحرب العالمية الأولى قد بدا وكأنه يبرر الاحتلال البريطانى لمصر ويبرر التغير الذى حدث فى بؤرة سياسة بريطانيا فى الشرق من استانبول الى القاهرة وهو ذلك التغير الذى حدث بطريق الصدفة تقريبا فى القرن التاسع عشر • وليس من المدهش أنه لم يكن يوجد هناك أى رجل دولة بريطانى فى عام ١٩١٩ على استعداد لأن يفكر فى التخلى عن السيطرة على مصر •

وعندما تم الاعلان بوضوح عن نوايا الحكومة البريطانية أصدر سعد زغلول أوامره بمقاطعة لجنة ميلنر التى أمضت ثلاثة شهور مليئة بالاحباط والتى كانت تواجه فى كل مكان بالمظاهرات والهتافات العدائية والمطالبة بحصول مصر على الاستقلال التام • وعلى كل حال فان اللجنة توصلت الى بعض القرارات الواقعية الحازمة • من بينها أنه طالما أن مصر لم يسبق لها أن كانت جزءا من الامبراطورية البريطانية فى أى وقت من الأوقات فانه يصبح من

المتعذر ضمها فى فترة ما بعد الحرب وبالتالى ينبغى الاعتراف بها كدولة ملكية دستورية مستقلة ٠ وأنه يمكن الحفاظ على الحقوق والمصالح البريطانية من خلال معاهدة أنجلو/مصرية تحل محل أسلوب فرض الحماية على مصر ٠ وقد أدى هذا الى اثارة مسألة : من الذى سيقوم بالتوقيع على المعاهدة نيابة عن مصر ؟ ٠ لقد كان عدلى باشا رئيس الوزراء المصرى رجل سياسة له مكانة كبيرة الا أنه كان يدرك جيدا أنه لا يستطيع أن يقود الأمة بدون معاونة من سعد زغلول ٠ وقام عدلى باشا باقناع سعد زغلول بالذهاب الى لندن مع بعثته من أجل دراسة التفاصيل ٠ وبعد مرور أسابيع مليئة بالمناقشات قام خلالها الطرفان بتقديم بعض التنازلات تم التوصل الى وضع الأساس الذى سترتكز عليه المعاهدة بحيث تصبح مصر دولة مستقلة لها مندوبوها الدبلوماسيون الخاصون بها ٠ وبحيث تقوم بريطانيا بالدفاع عن مصر فى حالة نشوب حرب وعلى الرغم من أن بريطانيا يكون لها الحق فى الابقاء على قوات فى الأراضى المصرية من أجل حماية « مواصلاتها الامبريالية » الا أن ذلك لن يشكل بأى حال من الأحوال احتلالا عسكريا للبلاد أو يعرض حقوق حكومة مصر للضرر والأذى » ٠

لقد حقق سعد زغلول ومعه الوفد الخاص به معظم أهدافه وليس كل أهدافه ٠ وهنا أظهر سعد زغلول أن لديه نقصا مميتا فى فن الحكم وادارة شئون الدولة ٠ اذ لم يكن لديه الرغبة فى الاعتراف بأنه قد فشل فى تحقيق الاستقلال التام لمصر ٠ ورفض أن يحث جماهير الشعب المؤيدين له فى أرجاء البلاد على تقبل شروط المعاهدة ٠ وعندما ذهب عدلى باشا بصفته رئيسا لمجلس الوزراء الى لندن فى يوليو ١٩٢١ لكى يقوم بالتوقيع على المعاهدة [بدون أن يصطحب معه سعد زغلول لأنه أصر على رئاسته للوفد] فانه لم يجرؤ على تقديم التنازلات التى طلبتها حكومة جورج لويد التى كانت تزيد من موقفها المتشدد ٠ وكان عدلى يدرك أن سعد زغلول بمقدوره

أن يثير جماهير الشعب المصرى ضده لكي تتهمه بالخيانة • وعندما عاد عدلى باشا من انجلترا خاوى اليدين ضاعف سعد زغلول وزملاؤه من احتجاجاتهم المليئة بالاضراب والمظاهرات •

وهنا لجأ اللينبى الى الحزم مرة أخرى وأصدر أوامره بنفى سعد زغلول للمرة الثانية — فى هذه المرة الى جزيرة سيشيل — بعد أن ضمن من خلال استخدام العنف المكثف بأن ثورة ١٩١٩ لن تتكرر • وبعد ذلك اقترح على بريطانيا أن تعلن من جانب واحد استقلال مصر على أن تحتفظ فى نفس الوقت بمصالحها الحيوية • وانقسم أعضاء الحكومة البريطانية بين معتدلين بقيادة وزير الخارجية اللورد كورزون ومتشددين برئاسة ونستون تشرشل الوزير الجديد الشاب لشئون المستعمرات • واندفع اللينبى فى غضب مسافرا الى لندن وهدد بالاستقالة فى حالة عدم موافقة الحكومة على مقترحاته • فرضخ جورج لويد • وفى ٢٨ فبراير ١٩٢٢ أصدرت بريطانيا بيانا أعلنت فيه الاعتراف بمصر « كدولة مستقلة ذات سيادة » ولكنها أبقت على تحفظات أربعة لكى يتم التفاوض بشأنها بين الانجليز والمصريين مستقبلا • وهذه التحفظات الأربعة هى : أمن المواصلات الخاصة بالامبراطورية البريطانية فى مصر + الدفاع عن مصر ضد العدوان الأجنبى أو التدخل المباشر أو غير المباشر + حماية المصالح الأجنبية فى مصر وحماية الأقليات بها + مسألة السودان » •

وبعد أسبوعين حصـــل السلطان فؤاد على لقب الملك فؤاد الأول • ثم قامت لجنة دستورية بوضع دستور يرتكز على النموذج البلجيكى وينص على تشـكيل مجلس للشيوخ Senata ومجلس للنواب منتخب • وعلى الرغم من أن هذا قد أعطى للملك سلطات كبيرة — بما فى ذلك الحق فى حل البرلمان وتعيين بعض أعضاء مجلس الشيوخ — الا أن هذه السلطات كانت أقل مما يرغب فيه الملك • فاضـــطر اللينبى الى التدخل لكى يمنع اقامة نظام ملكى

ديكتاتورى . وكانت النتيجة النهائية هى أن مصر ظلت تحكم على مدى الثلاثين عاما التالية من خلال توازن مزعزع وغير فعال بين ثلاثة قوى : القصر حيث أعيدت سلطات أسرة محمد على الحاكمة على نحو جزئى + البرلمان ورجال السياسة حيث كان حزب الوفد هو المسيطر عادة وليس دائما + مقر المندوب السامى البريطانى [والذى لم يكن بمثابة سفارة على الرغم من الاعلان عن استقلال مصر] . وبذلت جهود متكررة من أجل التوصل الى معاهدة أنجلو/ مصرية بهدف تسوية الخلافات القائمة ولكنها فشلت لأن الحد الأدنى من مطالب بريطانيا كانت تتعارض مع العزة الوطنية والافتخار القومى للمصريين . وكانت أشد هذه الخلافات تتعلق بالسودان . حيث كان الملك والوفد متفقين فى الرأى من حيث المطالبة بضم السودان الى مصر وهو مطلب كانت ترفضه بريطانيا فى شدة وحزم . وحقيقة الأمر أن مشكلة السودان هى التى تسببت فى تحطيم العلاقات نهائيا بين بريطانيا وسعد زغلول . وبعد أن سمح للزعيم سعد زغلول البالغ من العمر سبعين عاما بالعودة الى مصر من المنفى فانه حقق انتصارا كاسحا لحزب الوفد الخاص به فى أول انتخابات برلمانية . وبعد أن أصبح رئيسا للوزراء أصر على مطالبة مصر بالسودان . وكان هناك تمرد عسكرى كامل بين طلبة الكلية العسكرية السودانية الذين كانوا متحمسين لوطنيتهم السودانية ولكنهم كانوا على استعداد فى نفس الوقت للتعاون مع نظرائهم المصريين ضد بريطانيا . وبالطبع ألقى الموظفون الأنجلو/ سودانيون اللوم على مصر وقالوا أنها السبب فى القلاقل والاضطرابات التى تحدث فى السودان . وفى هذا الجو المحموم من صيف عام ١٩٢٤ تم اغتيال السير لى ستاك Lee stack سردار الجيش المصرى والحاكم العام بالسودان على أيدى مجموعة تضم تسعين ارهابيا مصريا . فانفجر اللينبى فى غضب شديد وذهب الى البرلمان المصرى ومعه حرس من سلاح الفرسان لكى يوجه انذارا شديد اللهجة

يشتمل على حظر كافة أنواع المظاهرات ودفع تعويضات كبيرة عن الخسائر • والأهم من ذلك كله سحب جميع القوات المصرية من السودان • ورفض سعد زغلول ذلك الانذار وقدم استقالته • وعلى الرغم من أن سعد زغلول ظل هو الزعيم الوطنى لمصر الا أنه لم يسترد السلطة مرة أخرى على الاطلاق • وانتقل الى رحمة الله فى عام ١٩٢٧ • ثم قام الملك بحل البرلمان وأصبح قادرا لبعض الوقت على اقامة حكم شبه أوتوقراطى ملكى مع تواجد وزراء لهم سلطات ضعيفة • الا أن سلطاته كانت غير كافية لاستمرار هذا الوضع • وظلت الواجهة الضعيفة للديموقراطيــة البرلمانيــة باقية على قيد الحياة •

وفى مصر كانت بريطانيا قد ظلت تحكم البلاد على نحو فعال على مدى أربعين عاما تقريبا • الا أنها كانت تتعامل هناك مع شعب قد ظل يتألف من أمة على مدى حوالى ٥٠٠٠ عام حتى فى الفترات التى كان واقعا فيها تحت حكم سلسلة متعاقبة من الامبراطوريات • وفى باقى الأقاليم العثمانية السابقة كان الحلفاء المنتصرون يواجهون موقفا مختلفا تماما • فباستثناء مملكة اليمن النائية المليئة بالجبال لم يكن توجد هناك دول/أمة nation-states • فالمطلب الطموح للشريف حسين فى أن يصبح حاكما على مملكة موحدة قد رفض على وجه السرعة من جانب الحلفاء وصارت طموحاته مقصورة على مملكة الحجاز الضعيفة الفقيرة •

وعلى الرغم من المعارضـــة الفرنسية الشديدة نجد أن الأمير فيصل ـ وهو ابن الشريف حسين ـ قد حصل على مكان فى مؤتمر باريس للســلام • ولكنهم أوضـــحوا له أنه يمثل الحجاز فقط ولا يعتبر مندوبا عن العرب بوجه عام • ومن خـلال هذا الموقف الضعيف بباريس حاول أن يسترد الآمال العربية بقدر المستطاع • واقترح ـ من خلال الارتكاز على البيانات والتصريحات العديدة التى

أصدرها الحلفاء لصالح حق تقرير المصير ـ ارسال لجنة لتقصى الحقائق الى سوريا وفلسطين لكى تتفحص وتدرس رغبات المواطنين هناك • وفى حماس وافق الرئيس ولسون على ذلك الاقتراح كما وافق المؤتمر على اقتراحه بأن تتشكل اللجنة من مندوبين فرنسيين وبريطانيين وايطاليين وأمريكيين • ولكن الفرنسيين أظهروا عداء شديدا لهذه اللجنة بينما أبدى البريطانيون حماسا فاترا • وفى نهاية الأمر انسحب جميع الأطراف باستثناء الأمريكان • وقرر المندوبان الأمريكيان المعينان فى هذه اللجنة الذهاب على مسئوليتهما• وأعدا تقريرا يوضحان فيه الأسباب التى أدت الى ظهور العداء البريطاني والفرنسى ازاء اللجنة • وكان هذان المندوبان هما : هنرى كينج + تشارلز كرين •

واكتشفا أن الأهالى فى سوريا/فلسطين يعارضون تماما الاقتراح الخاص بوضعهم تحت انتداب الدول العظمى لأن الانتداب هو شكل مقنع من أشكال الحكم الاستعمارى • واعترفا بأن هناك حاجة للحصول على المساعدات الخارجية بشرط أن تجىء المساعدات من جانب أمريكا أو من جانب بريطانيا كاختيار ثان • ولم يرغبا فى مساعدة من فرنسا بأى حال من الأحوال • واتخذت لجنة كينج/كرين منذ البداية اتجاها مناصرا للصهيونية • الا أنهما سرعان ما أشارت الى أن البرامج والخطط الصهيونية ينبغى ادخال تعديلات جوهرية عليها حتى يمكن تدعيم حقوق الأهالى من غير اليهود فى فلسطين • وعقب المناقشة مع الزعماء الصهاينة بالقدس لم يعد لديهما شك فى أن الصهاينة يتطلعون الى « طرد جميع السكان الحاليين غير اليهود من فلسطين » •

وتجاهل الحلفاء تقرير كينج/كرين • وكان من الواضح أن تقرير بغيض من وجهة نظر بريطانيا وفرنسا • كما أن الولايات المتحدة الأمريكية بعد أن طرحت على بساط البحث الكثير من

التوقعات والآمال بدأت تفكر فى الدخول فى عزلة على مدى عشرين عاما • ولكن شقـاقا خطيرا بدأ يظهر بين الحلفـاء عندما اعتقدت الحكومة البريطانية أن الطموحات الفرنسية فى سوريا تعتبر مفرطة وزائدة عن الحد المعقول ــ وهى وجهة نظر كان يتبناها بقوة كافة كبار المستعربين البريطانيين من أمثال ت•أ• لورانس • كما أن بريطانيا كانت تشعر ببعض الالتزام نحو الهاشميين ــ وهى عاطفة لم يشارك فيها الفرنسيون بأى حال من الأحوال • وعندما أبدت فرنسا رغبتها فى أن تحتل موقعا حصينا فى سوريا وتزوده بقوات فرنسية رفضت بريطانيا ذلك المطلب •

وفى تلك الأثناء • وعقب عودة الأمير فيصل من باريس فى مايو ١٩١٩ قام أعوانه بتنظيم انتخابات فى كافة الأماكن المكنة فى جميع أرجاء سوريا [رغم أن الأماكن كانت مغلقة بمعرفة الفرنسيين فى الأقاليم الساحلية] • وتم عقد مؤتمر سوريا عام بدمشق من أجل المطالبة بالاعتراف باستقلال سوريا [بما فى ذلك فلسطين] والعراق ورفض الاعتراف باتفاقية سايكس/بيكو • ورفض وعـد بلفور ونظام الانتداب • ولكن الحقائق الواقعيـة للسلطة والنفوذ سرعان ما أثبتت وجودها • اذ قامت بريطانيا باقناع الأمير فيصل بأنه ينبغى عليه أن يعقد تسوية مع فرنسا • وفى نوفمبر ١٩١٩ سافر فيصل الى باريس وتوصل الى اتفاقية مع كليمينصو رئيس الوزراء الفرنسى تنص على احتلال فرنسا للمناطق الساحلية وانفراد فرنسا بتقديم المساعدة للدولة العربية الوليدة فى المناطق الداخلية •

ولم يتمكن الأمير فيصل على الاطلاق من اقناع أتباعه بالموافقة على تجزئة وتفكيك سـوريا • وفى ٨ مارس ١٩٢٠ اتخذ المؤتمر السورى العام بدمشق قرارا بالمطالبة باستقلال سوريا/فلسطين مع اعطاء الحكم الذاتى للبنان • وفى نفس الوقت عقد زعماء العراق

اجتماعا مشـــابها وأعلنوا استقلال العراق وتنصيب الأمير عبد الله ملكا على العراق ٠

وجاءت ردود الفعل سريعة من جانب بريطانيـا وفرنسـا ٠ ورفضتا الاعتراف بقرارات دمشق وسارعتا الى عقد اجتماع عاجل للمجلس الأعلى لعصبة الأمم التى أصدرت قرارها فى ٥ مايو ١٩٢٠ ٠ ونص القرار على تقسيم سوريا الى منطقتى انتداب فرنسيتين فى سوريا ولبنان ومنطقة انتــداب بريطانية فى فلسطين بينما تظل العراق غير مقسمة تحت الانتـــداب البريطانى ٠ وكان الانتداب البريطانى على فلسطين يتضمن الالتزام بتنفيذ بنود وشروط وعد بلفور ٠

وثارت ثائرة عرب سوريا بسبب هذه القرارات وحثوا الأمير فيصل على اعلان الحرب على الفرنسيين ٠ وكان فيصل يدرك مدى ضعفه من الناحية العسكرية ٠ لذلك سـمح لضباطه من الشباب المتهور بالهجوم على المواقع الفرنسية المتواجدة على الحدود اللبنانية٠ فقام رئيس الأركان الفرنسى الجنرال جوروود Gouraud بارسال انذار فى ١٤ يوليو يطلب فيه السماح للقوات الفرنسية باحتلال حلب وحمص وحماه وسهل البقاع ووافق فيصل على الانذار ٠ ولكن بدون جدوى لأن الفرنسيين كانوا قد قرروا الاستيلاء على سوريا ٠ وتقدم طابور عسكرى يضم جنودا من السنغال وعرب شمال أفريقيا واستولى على دمشق فى ٢٥ يوليو ٠ ولكن المقاومة الشجاعة لجنود فيصل غير المدربين لم تستطع عمل أى شىء فى مواجهة الدبابات والطائرات الفرنسية ٠ وطالبت فرنسا من الأمير فيصل أن يغادر سوريا واستقبل فى المنفى بمعرفة حكومة بريطانية تشعر بالخجل والارتباك ٠ وقال وزير المستعمرات ونستون تشرشل فى مؤتمر امبريالى فى عام ١٩٢١ أن العمليات العسكرية الفرنسية ضد سوريا كانت « مؤلمة للغاية » وأضاف « ولكننا لدينا هذه الروابط القوية

مع الفرنسيين وينبغي أن تكون هذه الروابط هي العنصر السائد الهام • ولذلك لم يكن بمقدورنا عمل أى شيء من أجل مساعدة العرب فى هذا الشأن ••• » •

وبعد أن منحت فرنسا الانتداب على سوريا ولبنان • فان أول عمل قامت به هو التوسع فى مساحة لبنان على حساب سوريا • اذ كانت فرنسا ترغب فى أن تتخذ من لبنان مركزا لعملياتها الشرق أوسطية • وكان المارون فى لبنان يعتبرون فرنسا حليفة تقليدية لهم بينما كانت سوريا قد أصبحت المقر الرئيسى للقومية العربية • وأصدر الجنرال جورود Gouraud فى ٣١ أغسطس ١٩٢٠ قرارا ينص على خلق لبنان الكبرى بحيث تتكون من سنجق جبل لبنان المتمتع بالحكم الذاتى فيما سبق + سهل البقاع فى جهة الشرق + المدن الساحلية لطرابلس فى اتجاه الشمال + صيدا Sidon وصور Tyre فى اتجاه الجنوب • وكانت توجد أكثرية مسيحية ضئيلة فى لبنان الكبرى الا أن هذه الأكثرية كانت تتعرض للتهديد والأخطار بسبب ميل المسيحيين الى الهجرة الى خارج لبنان ومعدلات المواليد المرتفعة لدى المسلمين •

ولم تتم قرارات الحلفاء بشأن تقسيم الامبراطورية العثمانية بأسلوب سلمى • فبالاضافة الى القتال فى داخل سوريا كانت هناك تلك الثورة التى شنها العرب ضد اليهود فى فلسطين والتى اشتدت حدتها عندما أصبحت أهداف الزعماء الصهاينة واضحة تماما • وفى العراق التى أحبطت فيها آمال العرب بسبب انشاء الادارة الأنجلو/هندية وفق أساليب استعمارية وبدون أن يشارك فيها العرب نجد أن قبائل أواسط منطقة الفرات قد شنوا ثورة عارمة لم يتمكن المستعمرون من اخمادها الا بعد تكبد خسائر فادحة •

والحاجة الملحة لاقتصاد ما بعد الحرب حث الحكومة البريطانية على اتخاذ اجراءات • اذ عقد تشرشل ومعه ت•أ• لورانس كمستشار

مؤتمرا فى القاهرة فى مارس ١٩٢١ • ولم يحضر فى هذا المؤتمر أية شخصيات عربية ولكن حضر فى هذا الاجتماع المندوب السامى البريطانى على العراق السير بيرسى كوكس والمندوب السامى البريطانى المعين حديثا على فلسطين السير هربرت صمويل الذى كان أول من عرض النظرية الصهيونية على الحكومة البريطانية • وتقرر فى هذا الاجتماع تنفيذ الترتيبات التى سبق اعدادها فى لندن بشأن جعل فيصل ملكا على العراق • وبسبب مستقبل الأمير عبد الله فى خلق مشكلة • فهو بعد أن أحبططت آماله فى أن يصبح ملكا على العراق سافر من الحجاز الى معن Maan القريبة من ميناء العقبة فى نوفمبر ١٩٢٠ على رأس قوات قبائلية بهدف مهاجمة الفرنسيين المتواجدين بسوريا لكى يثأر لأخيه فيصل •

وسافر تشرشل من القاهرة الى القدس من أجل أن يطمئن العرب الفلسطينيين والتأكيد لهم بأنه لا توجد هناك نية للسماح بأن تصبح فلسطين دولة يهودية وأيضا من أجل عقد اجتماع مع عبد الله • ورفض الاقتراحات العديدة التى قدمها عبد الله من أجل ادماج شرق الأردن [أى الضفة الشرقية لنهر الأردن] مع العراق أو مع فلسطين تحت حكومة عربية • ولكن تم التوصل الى تسوية مؤقتة وافقت بريطانيا بمقتضاها على الاعتراف بعبد الله كأمير على شرق الأردن ومنحه اعانة مالية سنوية بريطانية الى أن تتمكن بريطانيا من اقناع فرنسا بأن تشيد من جديد دولة عربية فى سوريا وبحيث يكون عبد الله رئيسا لهذه الدولة • ونظرا لأن الفرنسيين قد اتخذوا موقفا متشددا ضد ذلك فان التسوية المؤقتة أصبحت دائمة وبزغت دولة شرق الأردن الى الوجود الى أن أدمجت ـ عقب الحرب العربية/الاسرائيلية الأولى ١٩٤٨ ـ ١٩٤٩ ـ مع الضفة الغربية لنهر الأردن وأصبحت تسمى مملكة الأردن الهاشمية •

ووافق مجلس عصبة الأمم فى يوليو ١٩٢٢ رسميا على نظام الانتداب فى كل من فلسطين وسوريا ولبنان والعراق • وأصبح

الانتداب نافذ المفعول فى سبتمبر ١٩٢٣ · وفى عام ١٩٢٤ نجد أن الولايات المتحدة الأمريكية التى لم تكن عضوا فى عصبة الأمم أعطت موافقتها على الانتدابات سالفة الذكر ، وأضيفت شرق الأردن الى الانتداب البريطانى على فلسطين ولكن تم استثناؤها من منطقة الاستيطان اليهودى ·

وهكذا نرى أن تفكيك الامبراطورية العثمانية قد أدى الى خلق خمسة دول جديدة : سوريا + لبنان + شرق الأردن + العراق + فلسطين · وكلها كانت رازخة تحت وصاية ونفوذ بريطانيا أو فرنسا اللتين كانتا أيضا مسئولتين عن تشكيل الحدود بين هذه الدول الجديدة · ووفقا لمعاهدة مودروس Mudros لعام ١٩١٨ نجد أن السيادة التركية على اليمن والتى لم تكن سيادة فعالة على الاطلاق فى أى وقت من الأوقات قد انتهت · ونظرا لأن اليمن تقع على مسافة بعيدة مما يجعل الوصول اليها أمرا صعبا ونظرا لرغبات حكامها المحليين فقد أدى ذلك الى بقائها فى حالة من التخلف الشديد ولكن ذلك قد أدى أيضا الى بقائها دولة مستقلة · وظهرت دولة جديدة أيضا وهى مملكة الحجاز وهى بمثابة البقية المتبقية من حلم الملك حسين فى انشاء اتحاد فيدرالى عربى مستقل تحت الحكم الهاشمى ولكنها عاشت لفترة قصيرة · لأن ابن سعود أى « سلطان نجد والبلاد التابعة لنجد » والمتواجد فى باقى أجزاء شبه الجزيرة العربية كان يحرص على مد نفوذه الى المناطق الأخرى · فهو بعد أن تمكن فى نهاية الأمر من اخضاع أعدائه الرشيديين المتواجدين فى المناطق الشمالية أرسل فى عام ١٩٢٠ ابنه الكبير فيصل البالغ من العمر ١٥ عاما الى الهضاب الجنوبية الغربية لشبه الجزيرة العربية والتى تسمى عسير Asir بهدف الحصول على ولاء شعبها · وفعل نفس الشىء مع منطقة الجوف Jawf الواقعة على حدود امارة شرق الأردن التى خلقت مؤخرا · ولكن ابن سعود كانت تواجهه مشكلة متكررة : اذ قام المقاتلون القبليون المتسمون بالضراوة

وعدم النظام التابعون له والذين لا يكترثون بالحدود الدولية بشن غارات فى عمق أراضى شرق الأردن والعراق • فانضمت الطائرات البريطانية والسيارات المصفحة الى رجال القبائل المحليين وتمكنوا من صدهم وتكبيدهم خسائر فادحة •

وكانت الحدود بين نجد وكل من الكويت والعراق ما زالت غير محددة على نحو واضح وسليم • وكان ابن سعود يعتقد أن رسم حدود فاصلة واضحة يعتبر أمرا سخيفا فى منطقة يسكنهـا بدو ليس لديهم فكرة عن الحدود الفاصلة بين الدول علاوة على اعتيادهم على التجول عبر مساحات شاسعة من الأراضى الصـحراوية بهدف العثور على المراعى اللازمة لقطعانهم من الأغنام والماعز والجمال • ولكن الحـكام البريطانيين فى العراق والكويت كانوا مصممين على انشاء حدود لا تسمح للنفوذ الوهابى بالتوسع فيها • ففى عقير Uqair وهى الميناء البحرى لاقليم الأحساء المطل على الخليج توصل السير بيرسى كوكس المندوب السامى البريطانى للعراق الى اتفاقية مع ابن سعود تنص على تخصيص شريحة كبيرة من الأراضى التى تطالب بهـا العراق للمملكة العراقية الجديدة • ولكى يسترضى ابن سعود أعطى لنجد ثلثى الأراضى التى كانت تعتبر جزءا من الكويت فى الوقت الذى تم فيه التوقيع على اتفاقية عام ١٩١٣ مع الحكومة العثمانية • وأوضح كوكس المتورط لأمير الكويت فيما بعد أنه لم يكن بالمستطاع اتخاذ أى اجراء لمنع ابن سعود من الحصول على أية مساحة من الأراضى اذا رغب فى ذلك •

وكانت بريطانيا أقل نجاحا من حيث عمل الترتيبات اللازمة من أجل التوصل الى تسوية سلمية بين ابن سعود ومنافسه وعدوه القديم حسين ملك الحجاز حيث كانت كافة طموحات الوهابيين متجهة نحو الحجاز ورفض الملك العجوز المليىء بالضغينة والمرارة التوقيع على مشروع معاهدة عام ١٩٢١ والتى كانت تعنى موافقته

على الحقائق الواقعة التى تفيد بأن سوريا ولبنان وفلسطين أصبحت غير خاضعة لحكم أسرته • وكانت المعونة المالية السنوية التى يحصل عليها من بريطانيا قد قطعت • الا أنه كان لا يزال يهدف الى ارغام الآخرين على الاعتراف بمنصبه • وأظهر سلطانه على أسرته بأن قام بزيارة لميناء العقبة حيث استقبل هناك فى احترام وتبجيل شديد من جانب ابنه عبد الله الذى أصبح الأمير الجديد لشرق الأردن • ثم وقع فى غلطة مميتة • اذ أعلن نفسه أنه قد اكتسب لقب « أمير المؤمنين وخليفة النبى » نظرا لأن مصطفى كمال رئيس الجمهورية التركية الجديدة كان قد ألغى منذ فترة قصيرة نظام الخلافة الاسلامية •

وفى فترة مبكرة أثناء الحرب كانت بريطانيا قد أيدت فكرة استعادة الخلافة العربية ولكنها الآن لم تعد تهتم بهذه الفكرة • وفى العالم الاسلامى بوجه عام باستثناء بعض الموالين الهاشميين فى فلسطين وسوريا كانت ردود الفعل على اعلان حسين تتراوح ما بين عدم المبالاة والغضب • وتفجر الغضب بين المحاربين الوهابيين التابعين لابن سعود • وكانت بريطانيا قد قررت فى تلك الآونة ايقاف الاعانة المالية التى تبلغ ٦٠ ألف جنيه استرلينى والتى كانت تدفعها سنويا لابن سعود منذ عام ١٩١٥ • ولذلك لم يعد لديه أى حافز لكى يكبح جماح المحاربين التابعين له الذين شنوا على الفور هجومهم على الحجاز • وكان حسين الذى ظل رغم أخطائه يتمتع بالشجاعة والوقار حتى آخر لحظة يرغب فى مواصلة القتال حتى النهاية • ولكن الحجازيين أقنعوه بأن يتنازل عن العرش لصالح ابنه الأكبر على الذى كان قد تقهقر لكى يحصن نفسه وقواته وراء المتاريس عند جدة على أمل أن يتمكن من الحصول على شروط مقبولة من الوهابيين • وأبحر حسين الى المنفى فى قبرص آخذا معه ما تبقى له من كنوزه •

وصمد على فى جدة لمدة عام • ثم اضطر الى الاستسلام والتنازل عن العرش • وبعدئذ اجتاحت قوات ابن سعود باقى أجزاء الحجاز ولكنه حرص على كبح جماح تجاوزات اخوانه المحاربين بعد أن وردت اليه تقارير تفيد بأن تجاوزات محاربيه كانت تثير الرعب فى قلوب السكان المحليين • وأعطى ابن سعود أهمية أولى لمسألة توفير الأمن والأمان • وقام باعادة فتح طريق الحج الاسلامى ، وأظهر للجميع أنه بمقدوره توفير الأمن بالأماكن المقدسة بعد أن شهدت قرونا من الفوضى • ولقد قال رجل انجليزى مسلم قام بتأدية فريضة الحج فى عام ١٩٢٥ فى كتاباته عن ابن سعود : « ربما يكون هو أفضل حاكم شهدته شبه الجزيرة العربية منذ عهد الخلفاء الراشدين الأربعة » •

ومع تنازل على عن العرش فى ديسمبر ١٩٢٤ أصبح ابن سعود حاكما على منطقة الحجاز كلها باستثناء تلك المساحة الواقعة فى أقصى الشمال الغربى حيث كانت السلطات البريطانية بفلسطين قد احتفظت ببعض الأراضى من خلال ارسال قوات وعربات مدرعة لاحتلال شريط الأراضى الذى يقع ما بين معان Maan والعقبة على أساس أن هذه المساحة ــ من حيث أنها كانت جزءا من ولاية دمشق العثمانية السابقة ــ ينبغى أن تضمن الآن فى الانتداب البريطانى على فلسطين • وحقيقة الأمر أنها كانت قد اعتبرت هامة للغاية بالنسبة لامارة شرق الأردن التابعة لعبد الله لأنها تعطى منفذا للامارة يطل على البحر • ولم يتقبل ابن سعود هذا الأمر الواقع على الاطلاق• الا أنه لم يكن قادرا على منع حدوث ذلك •

وأصبح ابن سعود مسيطرا على الأماكن المقدسة الاسلامية • وكانت المشكلة هى : على أى نحو ستكون عليه ردود الفعل لدى العالم الاسلامى ؟ وكانت الغالبية العظمى من المسلمين الذين ليسوا من العرب يشكون فى امكان نجاح زعيم قبلى من أواسط شبه الجزيرة العربية فى حماية الأماكن المقدسة بينما فشل فى ذلك

الحكام الأشراف والأتراك العثمانيون • وبدأوا يشعرون بالذعر بالفعل بسبب قيام الوهابيين بتدمير أضرحة مشايخ المسلمين •

وحرص ابن سعود على التصرف فى حرص وحذر • اذ قام بتعيين ابنه الثانى الأمير فيصل حاكما على الحجاز وتعيين عبد الله الدملوجي وهو عراقى متمرس مساعدا له فى الشئون الخارجية • وقامت وفود من كبار الشخصيات الفارسية والهندية الاسلامية بزيارة الحجاز وكتبت تقارير لصالح ابن سعود • كما أن شعب الحجاز نفسه كان مبهورا ومعجبا من مقدرة ابن سعود على الحفاظ على الأمن والنظام ورغبته فى التوافق مع أساليب الحجازيين الحضرية الأكثر تطورا • وفى ٨ يناير ١٩٢٦ تقدم كبار الشخصيات الحجازية بطلب رسمى يطلبون فيه من ابن سعود على أن يحكم البلاد بعون من الله من خلال الشريعة المقدسة الاسلامية •

وبالاضافة الى منصبه كملك على البلاد كان ابن سعود أيضا هو الامام بالنسبة للشعب بمعنى أنه هو الذى يؤم الناس أثناء تأدية الصلاة ويكون بمثابة النموذج الذى يحتذى به من حيث الولاء والاخلاص الدينى • ولكنه لم يذهب الى ما هو أبعد من ذلك ـ فهو بعكس الشريف حسين وبعكس فاروق ملك مصر فى وقت لاحق لم يتطلع على الاطلاق الى الحصول على لقب « خليفة المسلمين » ولكنه كان يعارض بشدة حصول أى شخص آخر على ذلك اللقب •

وكان الاتحاد السوفيتى هو أول دولة تعترف بالحكومة السعودية الجديدة • ثم توالت الاعترافات بسرعة من جانب بريطانيا وفرنسا وغيرهما من الدول الأوربية الأخرى • وكان على الولايات المتحدة الأمريكية أن تنتظر على مدى عشر سنوات أخرى قبل أن تبدى أى اهتمام بشبه الجزيرة العربية • وكان الاتحاد السوفيتى يعتقد أن ابن سعود بمثابة قوة مستقلة مناهضة للامبريالية وكان يأمل فى استخدام دولته الجديدة كوسيلة للاختراق السياسى

والتجارى لمنطقة الشرق الأوسط التى كانت واقعة تحت النفوذ البريطانى أو الفرنسى • وبحلول عام ١٩٣٨ أدرك السوفيت أنهم وقعوا في تصورات خاطئة • وتم اغلاق دار المفوضية السوفيتية المتواجدة فى جدة • وتم تصفية معظم الموظفين خــلال التطهيرات الستالينية •

وظلت المشكلات مع بريطانيا قائمة نظرا لأن ابن سعود رفض الاعتراف بالانتداب البريطانى على العراق وفلسطين وشرق الأردن الى أن تتم الموافقة على مطالبته بأراضى معان ــ العقبة Maan-Aquba ووفقا لمعاهدة عام ١٩٢٧ تقرر تأجيل فى هذا الموضــوع ولكن المعاهدة نصت على اعتراف بريطانيا « بالاستقلال التام الكامل المطلق للأراضى الخاضعة لابن سعود » واعتراف ابن سعود فى مقابل ذلك بجميع معاهدات الحماية البريطانية التى أبرمت مع المشيخات العربية الخليجية •

وكان لا يزال أمام ابن سعود مهمة توحيد وتسيير الشئون الادارية فى أراضيه الشاسعة ــ وان كانت تتسم بالانخفاض الشديد من حيث الكثافة السكانية ــ التى تبلغ حوالى ⅔ من مساحة الهند • وكان قد عين ابنه الأكبر سعود حاكما على نجد وابنه فيصل حاكما على الحجاز الا أنه كان بحاجة أيضا لمساعدة خارجية • وحرص على أن تكون المساعدة الخارجية مقصورة على العرب المسلمين فقط ــ العراقيين والسوريين والمصريين • وكانت سياسته تركز على جعل كل رئيس قبيلة مسئولا عن الأمن والنظام فى المنطقة الخاصة به ومسئولا أمامه شخصيا بينما يظل الجيش الوهابى باقيا فى الخلفية ليكون بمثابة الزادع الأخير • كما قام أيضــا بالزواج من فتيات عديدات من بنات زعمــاء الاتحادات القبلية الهــامة • وذلك هو السبب فى أنه كان له ٤٤ ابن لدى وفاته • وفى هذه الأيام يوجد حوالى ٥٠٠٠ أمير سعودى ينحدرون من الذرية المباشرة للملك •

وأبدى ابن سعود الحكمة فى كثير من النواحى • فعلى الرغم من أنه ظل الحاكم الأعلى فى البلاد وظل متمتعا بهيبة كاسحة فانه لم يتجاهل الرأى العام فى أى وقت من الأوقات • وكان مصمما على أنه ينبغى أن تحصل مملكته على تلك الاختراعات الغربية التى تيسر وتسهل الحياة بالنسبة للناس طالما أن هذه الاختراعات لا تهدم أسلوب حياتهم • ولم يحاول استخدام العنف والاكراه وانما اعتاد استخدام الاقناع كلما أمكنه ذلك • واقتنع حشد من مشايخ الدين بأن التليفون ليس أداة للشيطان عندما سمعوا من خلاله صوتا يتلو القرآن الكريم [وبعد حوالى ثلاثين عاما استخدم ابنه الملك فيصل نفس الأساليب لكى يتغلب على المعارضات الموجهة ضد التلفزيون وتعليم البنات] •

وعلى الرغم من اللباقة البراعة السياسة التى اتسم بها ابن سعود فانه واجه فى عام ١٩٢٩ ـ ١٩٣٠ ثورة على نطاق واسع تفجرت بين الاخوان المحاربين الذين استنكروا بدعاته الغربية وطالبوا بالحصول على حق الاغارة عبر الحدود الى داخل شرق الأردن والعراق لتأديب الشعب المتواجد هناك والذى يعتبر كافرا من وجهة نظرهم • واضطر ابن سعود فى نهاية الأمر الى الدخول فى معركة ضدهم واخماد ثورتهم • وأصبحت سلطاته قوية للغاية بعد ذلك فى جميع أرجاء الأراضى التابعة له • وفى ٨ سبتمبر ١٩٣٢ تم التوحيد رسميا بين مملكة الحجاز وسلطنة نجد وأصبحت تسمى : المملكة العربية السعودية •

وظلت الحدود الصحراوية للمملكة الجديدة مع المشيخات الخليجية العربية غير مستقرة على نحو حاسم • الا أن ذلك لم تنجم عنه مشكلات الا فيما بعد وخاصة فى عهد ظهور البترول • ومن ناحية أخرى نجد أن النزاع مع الامام يحيى حاكم المملكة القديمة لليمن بشأن منطقة عسير الساحلية المطلة على البحر الأحمر قد أدى

الى نشوب حرب قصيرة سعودية/يمنية فى عام ١٩٣٤ • فبعد أن تمكنت قوة عسكرية سعودية تحت قيادة الأمير فيصل من احتلال ميناء الحديدة اليمنى أصدر ابن سعود أوامره بالتوقف عن القتال • وفى مفاوضات السلام أبدى ابن سعود الكرم والشهامة وامتنع عن المطالبة بالحصول على أية أراضى يمنية • وتم التوقيع على معاهدة « الصداقة الاسلامية والأخوة العربية » وأصبحت هذه المعاهدة هى الأساس فى العلاقات القوية الراسخة بين الدولتين والتى استمرت على مدى الثلاثين عاما التالية •

وفى خلال العقود الثلاثة الأولى عقب تفكك الامبراطورية العثمانية كانت المملكة العربية السعودية واليمن هما فقط الدولتان الوحيدان بالمشرق العربى المتمتعتان بالاستقلال التام ، وفى ظل حكم الامام يحيى الذى حكم اليمن من عام ١٩٠٤ حتى عام ١٩٤٨ نجد أن جبال اليمن الشاهقة قد جعلت من المتعذر اختراق اليمن بمعرفة قوى خارجية وجعلت اليمن منعزلا حتى أنه نادرا ما كان يصطدم بالسياسات التى تعتمل فى المنطقة • أما المملكة السعودية فكانت تمارس نفوذا أكبر نظرا لأنها تضم الأماكن المقدسة الاسلامية بالاضافة الى تواجد ابن سعود الحاكم المتميز بهيبة فريدة من نوعها • ولكن السعودية ظلت أقل تنمية من باقى أجزاء المنطقة • وكانت شامخة ولكنها فقيرة للغاية • الا أن تحسين الشئون الادارية المتعلقة بالحج قد زاد من العائدات فى العشرينات من عام ١٩٢٠ لدى تزايد عدد الحجاج الى ١٠٠ ألف حاج سنويا وقيام كل حاج بتسديد رسوم قدرها خمسة جنيهات استرلينية ذهبية • ولكن عدد الحجاج انخفض بشدة فى الثلاثينات من عام ١٩٣٠ بسبب فترة الكساد الاقتصادى العالمى وأصبح فى حدود ٢٠ ألف حاج فقط فى عام ١٩٣٠ • وفى عام ١٩٣١ اضطر وزير المالية التابع لابن سعود لأن يصدر قرارا رسميا بتأجيل سداد كافة الديون المستحقة على الدولة ومصادرة مخزون الجازولين فى شركتين من

القطاع الخاص بجدة بهدف الحصول على سيولة نقدية • وفى شىء من الاحجام وعدم الرغبة قام ابن سعود فى عام ١٩٣٣ بمنح امتياز للتنقيب عن البترول بالأراضى الشرقية للمملكة لشركة استاندرد أويل أوف كاليفورنيا • وتم اكتشاف البترول بكميات اقتصادية فى عام ١٩٣٨ • واتضح بعد ذلك أن حقل البترول المكتشف يعتبر واحدا من أكبر حقول البترول فى العالم • ولكن بسبب تفجــر الحرب العالمية الثانية نجد أن المملكة العربية السعودية لم تصبح أكبر منتجة للبترول فى الشرق الأوسط ولم تكسب ثروات مالية هائلة الا فى خلال عصر الخمسينات •

فترة السنوات الواقعة بين الحربين العالميتين :

١ ــ مصر : لقد أعلنت بريطانيا من جانب واحد استقلال مصر فى عام ١٩٢٢ مع الابقاء على تحفظات هامة تهدف الى حماية المصالح الامبريالية البريطانية • فأعطى ذلك لمصر اطارا سياسيا غير راسخ وغير طبيعى • وصحيح أن دار المندوب السامى البريطانى لم تعد هى المركز الحقيقى الوحيد للسلطة فى البلاد ولكنها أصبحت واحدة من ثلاثة مراكز بجوار القصر وحزب الوفد ونظرا لأن القوات البريطانية ألمت تحتل البلاد فانه كان بالمستطاع ممارســة النفوذ البريطانى باستمرار • الا أنه كان يمارس فى مزيد من الصعوبة وبفاعلية آخذة فى التناقص التدريجى •

وكان نفس النموذج من الأحداث يتكرر مرات عديدة • فالملك الذى كان يتمتع بسلطات كبيرة فى ظل الدستور ولكنه كان يتطلع الى الحصول على المزيد من السلطات كان يلجأ الى حــل البرلمان ويحاول ممارسة الحكم بدون تواجد برلمان ، وعندما يصــبح مــن المتعذر مواصلة الحكم بدون برلمان فانه يتم اجراء انتخابات حيث كان حزب الوفد يفوز بأغلبية ســاحقة فى حالة حدوث انتخابات حرة نزيهة • وفى سنوات لاحقة بدا على الوفد وكأنه فقد تماسكه

وفقد الاحساس بالتصميم على تحقيق الهدف بعد أن أصبح مليئا بالشـــقاق والخلافات والفســـاد ولكنه فى خلال عقد الثلاثينات كان بكل تأكيد هو المعبر السـياسى عن مصر وكان شـــبيها بحزب المؤتمر فى الهند أثناء فترة الكفاح من أجل الاستقلال عن الحكم البريطانى ٠

وفى عام ١٩٢٥ قامت حكومة حزب المحافظين فى بريطانيا باستبدال اللينبى المندوب السامى البريطانى على مصر باللورد لويد Lord Lloyd وهو صـــديق حميم لونســتون تشرشل ٠ وكان متفقا فى الرأى مع تشرشل من حيث رفض الاعتراف بأن الامبراطورية البريطانية قد دخلت فى مرحلة التدهور ٠ وتقبل لويـد الوضع الدســتورى فى مصر واســتخدم نفوذه لكى يمنع الملك فؤاد من محاولاته الرامية الى اقصاء الوفد عن السلطة ٠ الا أنه كان متشددا فى عناد من حيث الابقاء على تحفظات بريطانيا المتعلقة باســتقلال مصر ٠ ولذلك كان يعتقــد أنه من الضرورى عدم تخفيض أعداد وسلطات الموظفين الأنجلو / مصريين المدنيين منهم والعسكريين الى ما هو أقل من الحد الأدنى الضرورى ٠ وقاوم بصفة خاصة جهود حزب الوفد الرامية الى التوسع فى القوات المسلحة واســتبدال القيادة العليا البريطانية بالضباط المصريين ٠ ونظرا لأنه كان يخشى من تجدد ثورة مماثلة لثورة ١٩١٩ فانه كان دائما على استعداد لاستدعاء البوارج الحربية البريطانية للمجيىء الى الاســكندرية فى أوقات الأزمات ٠

وبوجه عام كان الجنرال لويد يفعل ما يريد كما يحلو له ٠ ولكنه كان يشعر بالاحباط المليىء بالغضب ٠ اذ كتب لصـــديق له ما يلى :

« أن وضعنا الحالى لا يطاق ٠٠ فنحن لم يعد بمقدورنا مواصلة نشاطنا كما ينبغى ٠ ونحن لنا أهمية وشأن خطير ولكن بدون وضع

يوفر لنا أفضلية أو امتيازا • وعلينا مسئوليات ولكن بدون سيطرة كاملة • وينبغي على أن أعمل على عدم لجوء دولة أجنبية الى التدخل في شئون التعليم أو الطيران أو الاتصالات اللاسلكية أو السكك الحديدية أو الجيش [حيث أن كافة الدول تسعى الى تحقيق ذلك التدخل] وينبغي على أن أحقق كل ذلك بدون أن أبطل مفعول الحكم البرلماني الذى فرضناه على البلاد رغم معارضة الملك •• » •

وكان تحليل لويد للوضع الشاذ البريطاني في مصر صحيحا• فقد ظل هدف الحكومة البريطانية هو التوصل الى معاهدة تحالف أنجلو / مصرية تتقبل مصر بمقتضاها ـ في مقابل بعض التنازلات من جانب بريطانيا ـ فرض قيود على الاستقلال المصرى علاوة على تخلى مصر عن مطالبتها بالسيادة على السودان • وعندما قام الملك فؤاد بزيارة رسمية الى لندن في عام ١٩٢٧ حاولت وزارة الخارجية البريطانية الشروع في مفاوضات من أجل التوصل الى معاهدة مع رئيس الوزراء المصرى ثروت باشا بدون علم لويد • وكان لويد واثقا تماما من أن أى رئيس وزراء مصرى لن يرغب ولن يكون وعندما انتقل سعد زغلول الى رحمة الله في وقت لاحق من تلك قادرا على الترويج لمثل هذه المعاهدة في داخل البرلمان المصرى • السنة كان النحاس باشا ـ وهو الزعيم الجديد لحزب الوفد عقب وفاة سعد زغلول ـ حريصا على أن يبدو أمام الجميع على أنه مدافع متحمس عن الاستقلال المصرى المتحرر من كافة القيود والأغلال مثل سعد زغلول تماما • وبعد أسابيع من المناورات السياسية التى تدور بدون هدف رفض البرلمان المصرى المعاهدة المقترحة ••

وعندما صعد رمزى ماكدونالد الى السلطة في بريطانيا كرئيس لحكومة حزب العمال تم استبدال لويد الذى كانت سياساته الرومانتيكية اليمينية المحافظة أمرا لايطاق حتى بالنسبة لحكومة حزب المحافظين التى كانت برئاسة ستانلى بالدوين • وتم بذل

محاولة أخرى من أجل الاتفاق على صيغة معاهدة • وفى هذه المرة بدأت دلائل النجاح تظهر فى الأفق نظرا لأن بريطانيا أصبحت على استعداد لسحب قواتها من مصر بل ومن منطقة قناة السويس • الا أن المفاوضات تعرضت للانهيار بسبب مطالبة مصر بضرورة ادخال تعديلات وتنقيحات على اتفاقية الحكم الأنجلو / مصرى المشترك للسودان المبرمة فى عام ١٨٩٩ • فالسودان كانت مسألة بالغة الأهمية ويمكن أن تتسبب فى اثارة البلاد فى جميع أرجاء مصر كلها نظرا لأن الجميع بما فيهم الفلاحون الأميون كانوا يدركون مدى أهمية فيضان النيل ومدى توقف حياتهم على مياه النيل •

ولم يفقد الملك فؤاد الأمل فى أن يتمكن من تخفيض هيمنة حزب الوفد على الحياة السياسية فى مصر • وعندما رفض منح موافقته على مشروعى قرار مقدمين الى البرلمان بمعرفة حزب الوفد • بادر النحاس باشا الى تقديم استقالته على أساس أن الملك سيعجز عن مقاومة القوة الشعبية لحزب الوفد • ولكن الملك تحول الى صدقى باشا • وهو مليونير أوتوقراطى سبق له شغل مناصب وزارية فى اقتدار فى الحكومات المختلفة ولكنه كان يسير دائما وفق أسلوبه الخاص به • ولم يكن صدقى من أنصار الملك ولكنه كان على استعداد لانشاء شبه نظام ديكتاتورى تحت الرعاية الملكية• وبمساعدة من القوات البريطانية تمكن صدقى باشا من قمع المظاهرات الشعبية ثم شرع فى ادخال تعديلات على دستور عام ١٩٢٣ وقانون الانتخابات بهدف زيادة سلطات الملك وضمان الحاق الهزيمة بحزب الوفد فى انتخابات عام ١٩٣١ •

وتدعم مركز صدقى بدرجة هائلة من خلال الحقيقة التى مفادها أنه ليس عميلا لبريطانية أو القصر أو أى شخص آخر • وقام بكبت حرية الصحافة وتخفيض أهمية حزب الوفد من خلال منعه من استخدام أقوى أسلحته ألا وهى السيطرة على الشوارع • وفى نفس الوقت لجأ صدقى باشا الى ايقاف النشاط السياسى من

أجل أن يستعرض موهبته فى الشـــئون المالية ٠ ولقد كان صدقى واحدا من كبار الرأسماليين المصريين خلال الحرب العالمية الأولى وكانت قدراته تتلاءم مع التعامل مع نتائج فترة الكســـاد العالمى وحماية مصر من تلك النتائج بقدر المستطاع ، وكان حكمه بمثابة نقطة البدء فى الابتعاد عن ليبرالية التجارة الحرة التى أنشئت فى عهد كرومر والتحول نحو تمصير الاقتصاد أو اعطاء الطابع المصرى للاقتصـــاد ٠

وازدادت شعبية الوفد أكثر من أى وقت مضى عندما أصبح يحتل مركز المعارضة ٠ وعنـــدما أرغم صدقى فى عام ١٩٣٣ على التخلى عن منصبه كرئيس لمجلس الوزراء عقب ضربة فجائية موجهة ضده وجاء بعده سلسلة متعاقبة من الرجال الأقل منه كفاءة أصبح الوفد قادرا على اثارة مشاعر جماهير الناس وحثهم على المطالبـــة باعادة دستور عام ١٩٢٣ الذى من شأنه أن يعيد حزب الوفد الى السلطة على نحو حتمى ٠

ووقعت بريطانيا فى ورطة ٠ اذ أصبحت المشاعر الجماهيرية فى مصر متأججة وبالغة الخطورة ٠ وفى عام ١٩٣٥ تفجرت مظاهرات طلابية لصالح الوفد بين الطلبة بالقاهرة [ولقد أصيب زعيم طلبة المرحلة الثانوية جمال عبد الناصر البالغ من العمر ١٧ عاما بكشط فى جبهته من جراء رصاصة أطلقها عليه أحد رجال الشرطة] ٠ الا أن بريطانيا كانت لاتزال غير راغبة فى بحث امكانية عودة حزب الوفد الى الحكم ٠

ولكن كان هناك حل فى متناول الأيدى ٠ فعلى الرغم من أن الوفد لم يفقد شهيته فى الصعود الى السلطة الا أنه قد أصبح أكثر استعدادا للدخول فى حل وسط أو تسوية من أجل تحقيق صعوده الى الحكم ٠ وكان الوفد قد أدرك جيـدا أنه لا يستطيع الاحتفاظ بالسلطة لفترة طويلة رغم المعارضة البريطانية ٠ وفى نفس الوقت

كان الوفد يشترك فى الرأى مع بريطانيا من حيث الشعور بالذعر المتزايد ازاء الأطماع الامبريالية الايطالية والتى تجلت من خلال قيام ايطاليا بغزو أثيوبيا والاستيلاء عليها • وكانت مصر تعتمد فى الدفاع عن نفسها على بريطانيا •

وعندما تخلى الوفد عن المطالبة بالجلاء البريطانى الشامل الفورى فان العلاقات تحسنت مع دار المندوب السامى البريطانى • وأصبح النحاس باشا على علاقة جيدة مع السير مايلز لامبصون Miles Lampson الذى كان قد عين فى منصب المندوب السامى البريطانى فى عام ١٩٣٣ والذى ظل متربعا على هذا المنصب على مدى ١٣ عاما •

وحتى الملك فؤاد الذى كان لايزال يكره حزب الوفد كان على استعداد للتفكير فى امكانية عودته الى الحكم لأن ذلك من شأنه أن يعطيه بعض الشعبية التى يحتاج اليها • وفى ديسمبر ١٩٣٥ وافق الملك على اعادة دستور عام ١٩٢٣ • وبعد ذلك بأربعة شهور انتقل الملك أحمد فؤاد الى رحمة الله وجاء بعده الى العرش ابنه الأكبر فاروق الوسيم الودود البالغ من العمر ١٦ عاما والذى عاد من بريطانيا عقب قضاء فترة قصير غير كافية من التعليم هناك •

وكان أول حدث هام خلال الحكم الجديد هو التوقيع فى ٢٦ أغسطس ١٩٣٦ على معاهدة التحالف الأنجلو / مصرية بعد أن تمت ست محاولات فاشلة على الأقل فى خلال الأربعة عشر عاما السابقة • واذا كان بيان عام ١٩٢٢ قد أعطى مصر شبه استقلال فان معاهدة ١٩٣٦ قد قطعت شوطا آخر على الطريق نحو الاستقلال التام • وأصبح السير مايلز لامبسون سفيرا لدى مصر بدلا من كونه المندوب السامى البريطانى فى مصر • كما سعت بريطانيا الى ضم مصر الى عصبة الأمم • وتعهدت بريطانيا بوضع نهاية

سريعة للامتيازات الأجنبية فى مصر • وفى مؤتمر مونترو فى عام ١٩٣٧ حصلت بريطانيا على موافقة الدول المتمتعة بالامتيازات على تطبيق الحقوق الكاملة للتشريع والضرائب على جميع المقيمين فى مصر •

واستمرت هذه المعاهدة لفترة عشرين عاما • ثم التزم الطرفان بالدخول فى تحالف آخر فى عام ١٩٥٦ مع اعطاء الحق لمصر فى أن تطرح على طرف ثالث مسألة ما اذا كانت القوات البريطانية لم تعد ضرورية فى مصر • ووفقا لتلك المعاهدة لعام ١٩٣٦ انتهى الاحتلال البريطانى من الناحية الرسمية. ولكنه تقرر انسحاب القوات البريطانية بشكل تدريجى الى منطقة قناة السويس وسيناء لدى تحسن المقدرة الدفاعية لمصر • وبدأت مصر تسيطر لأول مرة على قوات الأمن والشرطة الخاصة بها منذ عام ١٨٨٢ • وتم استبدال المفتش العام البريطانى بالجيش المصرى بمفتش عام مصرى كما تم تمصير الحربية ، وتم تخفيض أعداد الأوروبيين فى قوة الشرطة رغم أن رسيل Russell باشا ظل رئيسا لشرطة القاهرة الى أن اعتزل الخدمة بعد مرور عشر سنوات • وكان على مصر أن تتخلى عن معظم طموحاتها بشأن استعادة السيطرة على السودان رغم أن البنود الخاصة بانذار اللينبى لعام ١٩٢٤ كانت قد ألغيت • ولم تعد توجد قيود على الهجرة المصرية الى السودان • كما تقرر وضع القوات المصرية والقوات السودانية تحت تصرف الحاكم العام • وتقرر أن يتم تعيين موظفين مصريين فى المناصب التى لا يتوفر لها سودانيون أكفاء لشغلها • ولكن هذا لم يكن يعنى أن الوضع قبل عام ١٩٢٤ بالسودان قد استرجع لأنه بحلول هذا الوقت كانت الحركة الوطنية السودانية قد تزايدت وتطورت وأصبح المزيد من السودانيين مؤهلين • ولم يكن الحكم الأنجلو / مصرى المشترك

فى السودان حقيقة واقعة نظرا لأن بريطانيا قد ظلت هى الشريك السائد والمسيطر تماما •

وكما أسفرت عنه الأمور فان كافة التنازلات الواردة بالمعاهدة لصالح المطالب الوطنية المصرية قد أبطل مفعولها الى حـــد كبير من خلال الفقرة التى أعطت لبريطانيا الحق فى احتلال البلاد مرة أخرى مع الاستخدام الكامل للموانى والمطـــارات والطرق البرية المصرية فى حالة دخول بريطانيا فى حرب • ومضت ثلاث سنوات فقط قبل تنفيذ هذه الفقرة • ولكن ردود الفعل المبـــاشرة لدى الجماهير المصرية فى عام ١٩٣٦ كانت ملائمة • وتم الهتاف بحياة الملك الشاب فى الشوارع بل وتم الهتاف أيضا بحياة السير مايلز لامبصون • وكانت هناك آمال بشأن الدخول فى عهد جديد عندما أعطى الملك انطباعا بأنه سيهتم بصفة خاصـــة بالحالة السيئة للفلاحين الفقراء • وتحت توجيهات الملك بدأ الوفد فى ادخـــال بعض الاصلاحات الحقيقية •

وكانت الحقائق الواقعة مختلفة بعض الشىء • اذ لم يكن فاروق ينقصه الذكاء أو النوايا الطيبة الا أنه لم يكن لديه الخبرة التى تعينه على انجاز مثل هذه المهام • هذا بالاضافة الى أنه كان يشعر بالكراهية الشديدة نحو الوفد والميل الشديد الى المؤامرات السياسية مثل والده تماما •

وظل حزب الوفد هو حزب جماهير الشعب والمعبر الحقيقى عن الأوضاع الســـياسية فى مصر • ولكن قبـــل المعاهدة كانت « المعاداة للبريطانية » هى البند الحقيقى الوحيـــد فى برنامجه السياسى • وكانت صفوف الوفد تشتمل على كافة أنـــواع الآراء ابتداء من الآراء المحافظة التقليدية الى الآراء الليبرالية المتطرفة الا أن مركز الجاذبية به كان متجها نحو اليمين • فالغالبية العظمى من أولئك الذين أعطوا أصواتهم لصالح الوفد كانوا يعيشون فى

المناطق الريفية التى كان يسيطر عليها كبار ومتوسطى ملاك الأراضى • ولم يكن يوجد سوى عدد قليل للغاية من الأعضاء البرلمانيين الوفديين الذين يرغبون بالفعل فى ادخال تغييرات خطيرة وهامة على النظام الاجتماعى أو الاقتصادى فى مصر • وفوق كل شيء لم يكن لديهم الرغبة فى ادخال أية اصلاحات على ملكيات الأراضى غير المتكافئة على نحو لايصدقه العقل حيث كان ٦٪ من ملاك الأراضى يمتلكون ٦٣٪ من مجموع الأراضى الزراعية • ومن ناحية أخرى كان القطاع الصناعى الصغير ـ ولكنه كان آخذا فى النمو ـ قد خلقه عدد قليل من المصريين الأثرياء غير المنتمين لحزب الوفد من أمثال صدقى باشا وطلعت حرب باشا الذين تعاونوا مع عدد من رجال الصناعة والممولين الأجانب فى انشاء الاتحاد المصرى للصناعات فى عام ١٩٢٤ •

وفى مجال واحد ـ وهو مجال التعليم ـ يمكن القول أن الوفد قد شجع على ادخال الاصلاحات من أجل التعويض عن اهمال التعليم الذى ساد فى عهد كرومر • ومن بين الاجراءات الأولى التى اتخذتها حكومة سعد زغلول فى ١٩٢٣ هى جعل التعليم مجانى واجبارى • وتزايدت ميزانيات التعليم على نحو مضطرد فى العشرينات من عام ١٩٢٠ والثلاثينات من عام ١٩٣٠ كما تزايد عدد التلاميذ والتلميذات بسرعة كبيرة • وكان التوسع فى التعليم الثانوى والجامعى كبيرا للغاية ، ولكن كانت هناك عيوب خطيرة • اذ تم بناء عدد قليل من المدارس الجديدة فأدى ذلك الى ازدحام الفصول بالتلاميذ مما أدى بالتالى الى تدهور المستويات التعليمية • كما أنه لم تبذل محاولات من أجل خلق تواؤم وتوافق بين النظام التعليمى واحتياجات مصر مما جعل الأعداد المتزايدة من خريجى الجامعات والمدارس الثانوية الحكومية غير قادرة على الحصول على وظائف ـ وهى ظاهرة أصبحت تتميز بها الكثير من الدول التى حصلت على استقلالها مؤخرا • وتضاعفت المشكلة بسبب وجود

نوعين من التعليم منفصلين عن بعضهما البعض : مدارس أجنبية علمانية ودينية بجوار المدارس الحكومية المصرية • وكانت المدارس الأجنبية تتمتع باحترام كبير ولكنها عمقت الانقسامات الطبقية نظرا لأن أبناء وبنات الطبقة العليا المصرية الذين أرسلوا الى هذه المدارس نشأوا على تعلم اللغة الفرنسية وبدأوا يشعرون بالانفصال بعض الشيء عن الجماهير من اخوانهم المواطنين •

وبدأ الطلبة فى اظهار المزيد من نفاذ الصبر والاستياء من حزب الوفد ومن الديموقراطية البرلمانية المعوقة فى مصر • وكان الكثيرون منهم يعتقدون أن المعاهدة الأنجلو / مصرية بمثابة خيانة للوطن • وبدأ بعضهم يتطلع الى زعيم جديد : وهو مدرس فصيح له شخصية جذابة ومبهرة يسمى حسن البنا وهو الذى قام بتأسيس جماعة الاخوان المسلمين فى مدينة الاسماعيلية فى عام ١٩٢٨ •

وكان لحسن البنا خلال سنواته الأولى شعبية كبيرة بين الفقراء والأميين • ولكنه نقل مركز قيادته الى القاهرة فى عام ١٩٣٤ • وبدأ يجتذب أنصارا من الطبقة المتعلمة مثل الطلبة والمدرسين والموظفين المدنيين وضباط الجيش • وانتشرت فروع جماعة الاخوان المسلمين فى جميع أرجاء مصر ، وكانت الدعوة التى ينشرها حسن البنا تتسم بالبساطة والمثالية • اذ كان ينادى بانشاء دولة اسلامية ترتكز على القرآن الكريم والتراث الاسلامى الذى يقدم كل شىء يحتاجه النظام الاجتماعى الجديد • ولم يكن لحركة الاخوان المسلمين برنامج سياسى ولكنها مع ذلك كانت تتسم بالتنظيم من خلال شبكة فروعها المنتشرة فى أرجاء البلاد • وبدأت مجموعات شبان الاخوان المسلمين فى تلقى تدريبات شبه عسكرية •

وكان لجماعة الاخوان المسلمين منافسون من حيث التوجه

الى الشباب • اذ كان هناك حزب مصر الفتاة برئاسة أحمد حسين، وهو حزب اشتراكى من الناحية الاسمية ولكنه من خلال زيه الرسمى المتمثل فى القمصان الخضراء المشكلة وفق نموذج القمصان السوداء النابعة لموسيلينى كان له طابع فاشستى قوى • ورد الوفد على ذلك بتشكيل مجموعة منافسة من القمصان الزرقاء الذين دخلوا فى سلسلة من المعارك الضارية ضد القمصان الخضراء بالجامعات • وبعد فترة قصيرة تكونت حركة من الشباب الملكى الفاشستى الطابع وانضمت الى حلبة الشجار والعراك • وبدأت الحياة السياسية فى مصر فى التدهور السريع •

وعلى الرغم من أن المعاهدة الأنجلو / مصرية لم تكن مقبولة من وجهة نظر أولئك الذين يرغبون فى ازالة كافة آثار الاستعمار البريطانى فانها كان لها أثر جانبى ايجابى واحد أدى الى مساعدتهم فى قضيتهم • فالجيش المصرى كان قد أصبح الآن من الناحية النظرية حليفا للبريطانيين ولذلك أصبحت بريطانيا حريصة على ادخال تحسينات عليه وفى نفس الوقت كان حزب الوفد يرغب فى كسب المزيد من الشعبية • ولأول مرة فتحت الأكاديمية العسكرية لكى يلتحق بها شباب من طبقات غير طبقة كبار ملاك الأراضى الأرستقراطية • وبذلك تمكن جمال عبد الناصر وأنور السادات وأعداد كبيرة من الشباب المصرى الطموح من الالتحاق بالسلك العسكرى وتمكنوا من أن يلعبوا دورهم فى حركة الضباط الأحرار التى فجرت بعد مرور ١٧ عاما ثورة عام ١٩٥٢ التى قضت على النظام الملكى وأنهت الاحتلال البريطانى •

وكان الوفد يمر بحالة من التدهور البطىء ولكنه تدهور غير قابل للعلاج • ولم يعد له نفس السيطرة الكبيرة على جماهير الناس والتى كان يتمتع بها فى عهد سعد زغلول • وكان الملك فاروق

والذى أصبح فى وضع أفضل من والده بعد أن سيطر على الشرطة السرية الخاصة به عنوة على سيطرته على حركة الشباب شبه العسكرية قد عين السياسى المستقل النشيط على ماهر رئيسا للحكومة • وفى ديسمبر ١٩٣٧ شعر بالمزيد من النفوذ فقام بطرد الوفد « لأن الوفد انتهك روح الدستور » • وفى الانتخابات التالية والتى تم التلاعب فيها بعض الشىء تعرض الوفد لهزيمة ثقيلة • وفى أغسطس ١٩٣٩ - أى قبل نشوب الحرب العالمية الثانية بحوالى أسبوعين - شعر الملك أنه قادر على تعيين على ماهر رئيسا للوزراء •

ولكن على الرغم من أن سلطة الوفد كانت آخذة فى التدهور فان الملك كان لايزال مضطرا لأن يعمل ألف حساب للسفارة البريطانية ويخاف منها وذلك بسبب التحالف الذى أصبح قائما بالفعل بين الوفد والسفارة البريطانية • وعلى الرغم من أن لامبسون من الناحية النظرية لم يعد يتمتع بنفس السلطات التى كان يتمتع بها كرومر الا أنه كان يتصرف وكأنه يتمتع بنفس سلطات كرومر حيث كان تعامله مع الملك الشاب شبيها بتعامل كرومر مع الخديوى الثائر عباس حلمى منذ أربعين عاما • وكان لامبسون يتحدث عن الملك فاروق فى احتقار ويطلق عليه اسم « الولد Boy » • وكان يؤكد لوزارة الخارجية البريطانية بأنه قادر تماما على التعامل مع الملك فاروق • وكان فاروق يكره لامبسون منذ اللحظة الأولى التى وصل فيها لامبسون الى مصر ولكنه كانت تنقصه الشجاعة وقوة الشخصية التى تمكنه من الصمود أمام السفارة البريطانية بشأن المشاكل الهامة ذات الطابع السياسى ، وكان الملك فاروق يثير غيظ لامبسون فى المسائل الصغيرة فقط بأن يجعله - على سبيل المثال - ينتظر فى الصالون لفترات طويلة قبل أن يسمح له بمقابلته رغم تحديد الموعد مقدما للمقابلة الشخصية •

ومع ذلك كان بالمستطاع التوصل الى تسوية مؤقتة لو لم تتفجر الحرب العالمية الثانية فى عام ١٩٣٩ • فقد أدى نشوب الحرب الى زيادة أهمية موقع مصر الجغرافى من وجهة نظر بريطانيا من حيث هى قاعدة عسكرية كما أدى فى نفس الوقت الى تدعيم موقف لامبسون فى تعاملاته مع الملك فاروق •

(ب) **الدول الرازخة تحت الانتداب** : كان نظام الانتداب الذى وضعته عصبة الأمم وفق المادة رقم ٢٢ من ميثاقها أمرا لم يسبق له مثيل • وكان أيضا بمثابة شكل من أشكال التسوية أو الحل الوسط • وفى حين أن الدول المنتصرة فى الحرب العالمية الأولى كانت ترغب فى الاحتفاظ بالمستعمرات الألمانية وأقاليم الامبراطورية العثمانية لأنها بذلت تضحيات هائلة لكى تتمكن من غزوها وفتحها نجد أنها قدمت تعهدات عديدة لسكانها بأنهم لن يعاد تسليمهم الى أسيادهم السابقين • وكانت أيضا قد تبهدت بأن ضم الأراضى ليس هو هدفها فى الحرب • ومن أشهر تلك التعهدات ذلك البيان الانجلو / فرنسى الذى صدر فى ٥ نوفمبر ١٩١٨ بشأن الأقاليم العثمانية السابقة •

ولكن لم تكن الدول الواقعة تحت الانتداب بمثابة مستعمرات وانما كانت شكلا من أشكال الرعاية بحيث تقوم الدولة المكلفة بممارسة الانتداب بادارة شئون الأراضى تحت اشراف عصبة الأمم من خلال « لجنة الانتدابات الدائمة » • وقام المجلس الأعلى لعصبة الأمم بتحديد شروط الانتدابات وتحديد أراضى الدول الواقعة تحت الانتداب • ولم تكن أمريكا عضوا فى عصبة الأمم ولكنها بصفتها احد أعضاء الحلفاء السابقين أصرت على ضرورة الحصول على موافقتها على الانتدابات • وبذلك تم عرض كافة المقترحات المتعلقة بالانتدابات على الولايات المتحدة الأمريكية • فوافقت عليها أمريكا بشرط «ضمان المعاملة النزيهة والعادلة وفقا للقانون والواقع فيما يتعلق بالتجارة الخاصة بجميع الدول » •

وينبغى القول أن بعض رجال الدولة من البريطانيين والفرنسيين كانوا يعتقدون أن الفارق بين الدول الواقعة تحت الانتداب والمستعمرات ليس سوى نوع من الخيال • وكان وزير الخارجية البريطانى اللورد كورزون صريحا للغاية عندما قال فى مجلس اللوردات البريطانى فى ٢٥ يونيو ١٩٢٠ ما يلى :

« من الخطأ الجسيم أن نفترض •• أنه وفقا لميثاق عصبة الأمم •• أو أية أداة أخرى تكون منحة الانتداب متوقفة على قرار يصدر عن عصبة الأمم • فعصبة الأمم لا تفعل ذلك • وانما الأمر متروك للدول التى غزت وفتحت الأراضى وأصبح من حقها القيام بتوزيع هذه الأراضى بينها وفى ظل هذه الظروف تم منحنا الانتداب على فلسطين وميزوبوتاميا • فوافقنا على ذلك كما تم منح فرنسا الانتداب على سوريا فوافقت فرنسا على ذلك » •

وكانت الأراضى الواقعة تحت الانتداب والتى تضم المستعمرات الألمانية السابقة فى أفريقيا والباسفيك تمر بمراحل مختلفة من التنمية السياسية والاجتماعية • ونظرا لأن مبدأ الانتداب ينص على أنه ينبغى توصيل هذه الأراضى الى مرحلة الاستقلال التام بمجرد أن يصبح ذلك ممكنا من الناحية العملية • فقد تم تصنيفها الى ثلاثة فئات • والولايات التركية السابقة فى ميزوبوتاميا [العراق] وفلسطين وسوريا قد وضعت فى الفئة رقم واحد A التى يتوقع لها بكل سهولة أن تحصل على الاستقلال فى وقت مبكر • وصدرت قرارات بتكليف بريطانيا وفرنسا بممارسة الانتداب على هذه الأراضى عندما أصبحت معاهدة لوزان سارية المفعول فى أغسطس ١٩٢٤ • وبحلول هذا الوقت كانت الدولتان الحليفتان قد قامتا بالفعل بعمل ترتيبات تتعلق بارساء الحدود وتحديد أشكال الشئون الادارية مما جعل عصبة الأمم فى وضع لا يمكنها من ابطال مفعول تلك الاجراءات لأنها أصبحت أمرا واقعا وأصبح الأمر يتطلب قبول الكثير من حالات الأمر الواقع •

وكان من المفترض أن عصبة الأمم لهـــا الحق التــام فى الاشراف • ولذلك أرغمت الدول المكلفة بممارسة الانتـــداب على تقديم تقارير سنوية تتعلق بوصايتهم على تلك الأراضى • وعلاوة على ذلك كان بمقدور عصبة الأمم أن تتلقى الالتماسات من أهالى تلك الأراضى وغيرهم من الأطراف المهتمة • وكانت أضعف نقطـــة فى أسلوب الانتداب هى تعذر التأكد من صـــحة التقارير التى تعدها الدول المكلفة بتطبيق الانتداب حيث كانت متباينة من حيث الالتزام بالدقة والصدق •

١ ـ العراق : كانت مملكة العراق الجديدة تعانى من مشكلات عديدة تتعلق بوحدتها القوميــة • اذ كانت قوى الطـــرد المركزى شديدة للغاية • فالأقلية الكردية الكثيرة الثائرة المتواجدة فى شمال العراق كانت تشعر بأنها قد حرمت من آمالها فى حق تقرير المصير من خلال تسوية ما بعد الحرب ، كما كانت هناك أيضا أقليـــات تركمانية وأشورية مسيحية • كما كان الســـكان العرب منقسمين ما بين شيعة وسنيين وكان الشيعة أكثـر عددا بينما كان السنيون هم المسيطرون من الناحية السياسية •

ومع ذلك فربما كان العراق يوجد به أكثـــر أنظمة الحكم الانتدابى نجاحا • وعلى الرغم من أن الملك فيصل الأول قد فرض على البلاد من الخارج الا أنه أثبت أنه قوة توحيدية ذات فعالية • وتم التغلب تدريجيا على التمرد البدوى القبلى كما تم السيطرة على « المجتهدين » الشيعة أو العلماء الدينيين [الذين كانوا أساسا من الفرس] • ولم تكن العلاقات مع فارس ودية الا أنها ظلت متسمة بالطابع السلمى • وكانت النزاعات على الحدود مع ابن ســـعود والتى تفاقمت بسبب المنافسة الهاشمية / السعودية أكثر مرارة الا أنه تم التوصل الى قدر من التسوية من خـــلال الوســـاطة البريطانية • وكانت العلاقة مع السادة الحكام الأتـــراك السابقين

صعبة للغاية • وفى مؤتمر لوزان لعام ١٩٢٣ طالبت جمهورية العراق بعودة معظم أراضى اقليم الموصل الذى كان يعتقد أنه غنى بالبترول من تركيا • وبعد مرور عامين من المجادلات فى داخل نطاق عصبة الأمم وافقت تركيا على مضض وفى وضوح تام عى منح الموصل للعراق •

وعقب الحاق الهزيمة بأولئك الموظفين البريطانيين فى فترة ما بعد الحرب والذين كانوا يفضلون ادماج العراق فى داخل الامبراطورية البريطانية تم اتباع سياسات ليبرالية بعض الشىء • وتم تدريجيا تخفيض السلطات الواسعة الشاملة التى يتمتع بها الموظفون البريطانيون فى العراق • وعقد اجتماع دستورى فى عام ١٩٢٤ ثم وافق البرلمان الدستورى فى السنة التالية على معاهدة أنجلو / عراقية وعلى قانون دستورى ينص على جعل الوزراء العراقيين مسئولين أمام برلمان يتكون من مجلسين • ولكن المعاهدة التى نصت على الحفاظ على الحقوق البريطانية فقط فى العراق لم يتم الموافقة عليها الا بعد ممارسة ضغوط بريطانية شديدة ضد المعارضة الراديكالية التى كانت تطالب بحصول العراق على استقلال كامل متحرر من كافة القيود •

وبحلول أواخر العشرينات كانت بريطانيا على استعداد لانهاء الانتداب بشرط الحفاظ على المصالح البريطانية • ولكن التوصل الى معاهدة جديدة قد تأخر كثيرا بسبب المعارضة الوطنية المستمرة لأى وصاية بريطانية فى شكل مستتر ومقنع • وكذلك أصر بعض أعضاء عصبة الأمم على أن العراق لم يصبح جاهزا أو مؤهلا للحصول على الاستقلال التام [اذ كانت فرنسا بصفة خاصة تشعر بالذعر لأن استقلال العراق التام سيعتبر سابقة بحيث يطبق الاستقلال بعد ذلك على الانتدابات الخاصة بها] • وفى نهاية الأمر تم التوقيع على معاهدة أنجلو / عراقية فى عام ١٩٣٠ تنص على الدخول فى تحالف لمدة ٢٥ عاما وبحيث تقوم الدولتان خلال تلك الفترة بالتشاور

مع بعضها البعض بهدف التنسيق بين مصالحهما المشتركة في مسائل السياسة الخارجية • كما نصت هذه المعاهدة على أن يكون لبريطانيا الحق في استخدام بعض القواعد الجوية ووسائل المواصلات المتواجدة بالعراق وفي مقابل ذلك تقوم بريطانيا بتزويد العراق ببعثة عسكرية للمساعدة في تدريب الجيش العراقي •

وفي عام ١٩٣٢ انتهى الانتداب البريطاني على العراق رسميا• وأصبحت العراق دولة مستقلة وانضمت الى عضوية عصبة الأمم تحت الرعاية البريطانية • ولكن الرأى العام العراقي ظل راضي عن هذه الاجراءات حيث كان يعتقد أن العراق مازال واقعا تحت السيطرة البريطانية • وكانوا يعتقدون أن الوضع قد ازداد سوءا بسبب نفوذ شركة البترول العراقية التي كانت تحتكر موارد البترول في العراق• وفي أغسطس ١٩٣٣ انطلقت بوادر الاستقلال مع وقوع حادث شؤم حيث قامت وحدة من الجيش بذبح ٣٠٠ من القرويين الأشوريين بشمال العراق • وابتهج معظم الرأى العام العراقي من هذا الحادث ولم يتلق الجنود أي عقاب على الاطلاق • فغادر جزء كبير من المجتمع الأشورى العراق متجها ــ الى سوريا •

وانتقل الملك فيصل الأول الى رحمة الله فجأة في عام ١٩٣٣ وخلفه على العرش ابنه غازى • وكان غازى وسيما ومتمتعا بحب الجماهير لأنه اشتهر بأنه وطنى عربى متحمس للعروبة • ولكنه لم يكن له نفس قوة شخصية والده • وفي عام ١٩٢٧ كان البترول قد تم اكتشافه بكميات اقتصادية بالقرب من كركوك بشمال العراق وبدأ الانتاج يعطى أول عائد له في عام ١٩٣٤ • ولذلك بدأ التحسن والتقدم يظهر في مجال الرى والمواصلات وقطاع الخدمات العامة وبدأت تنمية الموارد الشاسعة في البلاد • الا أن غياب الملك فيصل قد زاد من صعوبة انشاء نظام سياسى حيوى قابل للتطبيق• اذ كانت الدولة تدار بمعرفة بعض الوزراء الأكفاء المخلصين وبعض الموظفين النابهين الذين تبقوا من الفترة العثمانية حيث كان

نورى السعيد هو أشهر شخصية بينهم • ولكن الديموقراطية البرلمانية فشلت فى الترسخ ومد جذورها فى الأعماق • حيث لم تنشأ أحزاب سياسية لها صفة الشرعية • وكانت الانتخابات غير متخررة الى درجة كبيرة حيث ظلت المصالح الطبقية والشخصية هى السائدة • وجاءت سلسلة متتابعة من الحكومات الرجعية الاستبدادية غير المتسمة بالكفاءة • وكان رجال السياسة يسارعون الى تنظيم تمرد قبلى ضد الحكومة التى يرأسها منافسوهم وعلى نحو يتعذر معه السيطرة على التمرد سيطرة كاملة • وكان رجال السياسة التقليديون الذين هم من الطراز القديم يلقون المعارضة من جانب تحالف يضم مثقفين اصلاحيين من الطبقة المتوسطة علاوة على ضباط من الشباب الوطنى بالجيش ممن يحذون حذو مصطفى أتاتورك ويعتبرونه المثل الأعلى أمامهم • وتمكن هؤلاء الضباط فى عام ١٩٣٦ من الاستيلاء على السلطة تحت زعامة الجنرال بكر صدقى • ولكن هذه الحركة انتهت ـ عقب مرور عشرة شهور ـ بسبب حدوث اغتيالات وانقلاب عسكرى • ولقد فشلت هذه الحركة بسبب استبعاد العناصر المثقفة الاصلاحية ولأن الجيش قد انقسم على نفسه ولأن معظم الأهالى قد أبعدوا عن الحكام • الا أن الانقلاب العسكرى كان حدثا له أهمية كبيرة لأنه قد أرسى سابقة لانقلابات عسكرية فى العالم العربى • وعلى الرغم من فشل الانقلاب العسكرى نجد أن الجيش العراقى قد اكتسب الثقة بالنفس والميل نحو التدخل فى الحياة السياسية •

وظلت فصائل الجيش التى أطاحت بالجنرال بكر صدقى باقية فى السلطة من وراء ستار وبحيث أصبحت قادرة على تشكيل الحكومات أو عزلها • الا أن هذه المجموعة والتى تعرف باسم مجموعة السبعة أعضاء كانت ذرائعية ومتسمة بالطابع العملى عندما أحضرت فى عام ١٩٣٨ شخصية مدنية وهو نورى السعيد الى السلطة • وكان نورى السعيد مواليا للبريطانيين وتقليديا محافظا وتمكن من

السيطرة على دولة العراق على مدى العشرين عاما التالية من خلال شخصيته القوية ودهائه السياسي ·

٢ ـ سوريا ولبنان : بعد أن قامت فرنسا بالتوسع فى مساحة لبنان على حساب سوريا راحت تشـيد سياستها فى الدولتين الواقعتين تحت الانتداب على تدعيم وتقوية العناصر المسيحية المارونية المحبة لفرنسا والثقافة الفرنسية منذ عهد بعيد · لكى تقف ضد السكان العرب المسلمين · وفي خلال السنوات الأولى من الانتداب على الدولتين كانت فرنسا تتصرف بأسلوب الحكم الاستعمارى معتمدة على قواتها العسكرية المتفوقة · وأحكمت سيطرتها على الصحافة ولجأت الى قمع المظاهرات الوطنية على الفور ·

وكانت شروط الانتداب تقضى بوضع دستور للدولتين فى خلال ثلاث سنوات · ولكن فرنسا كانت تعتقد أن خلق دولة وحدوية متحدة مركزية مستقلة فى سوريا يعتبر هدفا بعيدا للغاية · كما أن الجيش الفرنسى يرى أن السيطرة الاستيراتيجية على الاقليم يعتبر أمرا جوهريا · كما أن السياسيين الفرنسيين كانوا دائما مهتمين وقلقين فيما يتعلق بتأثير التنازلات على ممتلكات فرنسا بشمال افريقيا ·

وكان بعض الأعضاء من الأقليات ونسبة ضئيلة من الأغلبية السكانية المسلمة السنية يعتقدون أن الحكم الفرنسى قد يؤدى الى التقدم والتنمية والتطور · الا أن الغالبية العظمى ـ وخاصة الطبقة العليا المثقفة ـ كانوا يطالبون بالاستقلال الفورى بل وذهب بعضهم الى ما هو أبعد من ذلك حيث طالبوا بأن تشتمل الدولة المستقلة على فلسطين وشرق الأردن · ومن ناحية أخرى كانت فرنسا عاقدة النية على تقسيم سوريا حتى يمكن لها أن تحكمها بسهولة أكثر · وقامت بتقسيم سوريا الى مناطق حكم ذاتى منفصلة عن

بعضها البعض : منطقة فى جبال النصيرية العلوية بالشمال الشرقى والتى يسكنها أكثرية من الشيعة العلويين ومنطقة فى جبل الدروز بالجنوب والتى يسكنها أكثرية من الدروز • ومنطقة ثالثة تشغل باقى مساحة سوريا وتشمل دمشق كعاصمة لها • وفى داخل نطاق هذه المنطقة الثالثة تم اعطاء وضع خاص لاقليم الكساندريتا [الآن تسمى : اسكندرونة] الذى يسكنه خليط من السكان يضم عربا وأتراكا وأرمينيين • وكان لجميع هذه المناطق الثلاثة ادارات حكم ذاتى تضم مستشارين فرنسيين ولكن كانت هناك ادارة للاشراف الشامل تحت قيادة المندوب السامى الفرنسى لسوريا ولبنان المتواجد فى بيروت •

وسرعان ما اهتز هذا الاطار الهش الضعيف عندما تفجرت ثورة فى عام ١٩٢٥ فى جبل الدروز نتيجة للمظالم المحلية وأدت الى خلق تحالف بين الدروز والوطنيين فى دمشق الذين بدأوا ينظمون أنفسهم فى داخل اطار « حزب الشعب » •

وتمكن المحاربون الدروز من اختراق لبنان • بل ووصلوا الى مشارف دمشق مما أدى الى قيام الفرنسيين بالقصف بوابل من القنابل على مدى يومين • واستمرت الثورة بشكل متقطع على مدى عامين مما أدى الى قدر كبير من مشاعر المرارة والكراهية • ولكن الفرنسيين أرغموا على اتباع سياسة تتسم بالمزيد من الاسترضاء • وفى عام ١٩٢٨ ووافق الفرنسيون على السماح باجراء انتخابات من أجل تشكيل جمعية تأسيسية بهدف وضع دستور للبلاد • وكانت الصياغة التمهيدية التى أعدتها الجمعية لا تروق للفرنسيين كما كان متوقعا ـ لأنها أشارت الى وحدة سوريا الجغرافية وتغاضت عن الاعتراف بالاشراف الفرنسى •

وفى عام ١٩٣٠ أعلن المندوب السامى الفرنسى من جانبه عن دستور جديد ينص على جعل سوريا جمهورية برلمانية مع احتفاظ

فرنسا بالاشراف على الشئون الخارجية وشئون الأمن الداخلى • وأعقب ذلك مفاوضات متقطعة وغير ناجحة كانت تهدف الى التوصل الى معاهدة فرانكو / سورية تكون مقبولة من الطرفين • ولكن بحلول عام ١٩٣٦ نشأ موقف جديد • اذ صعدت الى الحكم فى فرنسا حكومة الجناح الأيسر « للجبهة الشعبية » علاوة على أن بريطانيا كانت قد خلقت سابقة بمنحها الاستقلال للعراق وابرام معاهدة مع مصر • وكان الوطنيون السوريون قد نظموا أنفسهم آنئذ ـ شأنهم فى ذلك شأن نظرائهم المصريين ـ فى ائتلاف « لكتلة وطنية » وأبدوا قلقهم من تصاعد التوترات التى خلقتها الطموحات الامبريالية الايطالية فى منطقة البحر الأبيض المتوسط •

وأحرزت المفاوضات آنئذ تقدما • وتم التوقيع على معاهدة فى عام ١٩٣٦ تنص على منح سوريا الاستقلال مع اللجوء الى مشاورات فرانكو / سورية فيما يتعلق بالسياسة الخارجية واعطاء أولوية لفرنسا فى مجال المشورة والمساعدات واحتفاظ فرنسا بقاعدتين عسكريتين • نصت المعاهدة على ادماج منطقة الدروز ومنطقة العلويين مع سوريا •

واعتمد البرلمان السورى هذه المعاهدة ووافق عليها ولكن البرلمان الفرنسى لم يوافق عليها فى أى وقت من الأوقات • وبذلك ظلت معطلة وغير نافذة المفعول • ثم سقطت حكومة « الجبهة الشعبية » الفرنسية وحلت محلها حكومة جناح أيمن فاصرت على ضرورة السيطرة على دول المشرق العربى لأسباب استيراتيجية واقتصادية • اذ كانت هناك توقعات عن احتمال اكتشاف بترول فى شمال غرب سوريا بالاضافة الى أن سوريا ولبنان تقعان عبر الخطوط الجوية التى تؤدى الى الشرق الأقصى • ومع تجدد احتمالات تفجر الحرب مع ألمانيا فان تأثير الاستقلال السورى على شمال افريقيا الفرنسى أصبحت له المزيد من الأهمية ـ ففرنسا التى يبلغ

عدد سكانها ٤٠ مليون نسمة كانت تأمل فى أن تتوازن مع ألمانيا الذى يبلغ عدد سكانها ٨٠ مليون نسمة من خلال الاعتماد على القوى البشرية بشمال افريقيا •

كما أن احتمالات تفجر الحرب مع ألمانيا قد دفع فرنسا أيضا الى استرضاء تركيا بشأن مشكلة اقليم الكساندريتا الذى كانت تطالب تركيا به • ففى عام ١٩٣٧ منحت فرنسا ذلك الاقليم الحكم الذاتى الكامل • وبعد أن ضمنت لجنة فرانكو/تركية أغلبية تركية فى انتخابات برلمانية [رغم أن العرب والأرمن يتفوقون على الأتراك فى عدد السكان] وافقت فرنسا على ضم وادماج اقليم الكساندريتا مع تركيا فى يونيو ١٩٣٩ • وأعطى هذا الاقليم اسما جديدا : حتاى Hatay • وظلت تركيا واقفة على الحياد أثناء الحرب العالمية الثانية وهى على الأقل لم تصبح حليفة لألمانيا مثلما فعلت فى الحرب العالمية الأولى ، وحتى يومنا هذا مازالت الخرائط الرسمية للجمهورية العربية السورية تشير الى أن الكساندريتا جزء من سوريا •

وبحلول عام ١٩٣٩ أصبح من الواضح تماما أن فرنسا ليست لديها النية للتصديق على المعاهدة الفرانكو / سورية • وقبل نشوب الحرب العالمية الثانية مباشرة قدم الرئيس السورى استقالته وتم تعليق الدستور •

وكانت فرنسا تتوقع بأن حكمها فى لبنان سيكون أسهل من حكمها فى سوريا نظرا لأن لبنان تضم أكثرية من الناس المحبين لفرنسا وللثقافة الفرنسية • ولكن خلق لبنان الكبرى التى ضمت الكثيرين من المسلمين والمسيحيين غير المارونيين قد أحدث تغييرا فى التوازن السكانى • وعلى الرغم من أن المارونيين ظلوا هم الطائفة الوحيدة الأكبر عددا فان أكثريتهم السكانية الضيقة كانت تتعرض للتآكل والتضاؤل نتيجة لمعدلات المواليد المنخفضة لديهم وبسبب

ميلهم للهجرة أكثر من الجماعات الأخرى • وتم اعداد دستور لبنانى فى باريس من خلال استشارة قليلة مع اللبنانيين • وفرض ذلك الدستور على لبنان فى عام ١٩٢٦ • وقد نص على برلمان له مجلسان تشريعيان ورئيس للدولة • وفى محاولة للتخفيف من حدة التوترات الطائفية تقرر ارساء مبدأ توزيع المقاعد البرلمانية والمناصب الوزارية والحكومية على أساس الانتماء الدينى • وتقرر أن يكون رئيس الجمهورية من المارونيين ورئيس مجلس الوزراء من المسلمين السنيين ورئيس مجلس النواب من الشيعة • كما تقرر أن يكون هناك دائما وزير من الأرثوذوكس اليونانيين ووزير آخر من الدروز فى التشكيل الوزارى • ولكن رئيس الجمهورية الذى ينتخب لتولى المنصب لمدة ست سنوات والذى له الحق فى اختيار رئيس الوزراء كان يتمتع بأقوى السلطات • ولذلك ظل المارونيون مسيطرين على البلاد من الناحية السياسية والاجتماعية •

ومن الناحية العاطفية كان جزء كبير من السكان اللبنانيين يرفضون ويستنكرون السيطرة الفرنسية وكانوا ينظرون الى أنفسهم على أنهم جزء من سوريا أو جزء من العالم العربى الكبير • ولم يكن الأهالى فى طرابلس وصيدا وسهل البقاع متفقين فى الرأى بالاجماع من حيث الرغبة فى الانفصال عن الجمهورية اللبنانية • وكان بالمستطاع تقوية وحدة الأمة اللبنانية وتجنب الكثير من المتاعب مستقبلا لو كان المارونيون قد وافقوا على مساهمة عادلة فى السلطة، من خلال السماح على سبيل المثال بأن يصبح منصب رئيس الجمهورية متناوبا بين المسيحيين والمسلمين • ومع ذلك نجد أن ازدهار بيروت من حيث هى مركز للتجارة والخدمات قد ساعد على نمو طبقة متوسطة تضم مسلمين ومسيحيين لديهم بعض الادراك السليم للمصلحة الوطنية التى تتخطى الى حد ما الولاءات الطائفية • وظهرت حركة وليدة تهدف الى تحقيق الاستقلال وتنتقد التدخل الفرنسى المفرط غير المتناقص فى شئون الحكومة اللبنانية •

فانضم اليها عدد من كبار الشخصيات المارونية البـــارزة • وفى عام ١٩٣٦ قام البطريرك المارونى بطبع ونشر مجموعة من المذكرات مشـــيرا الى هذه الانتقادات فى شىء من التفصيل والاســـهاب • وفى نفس ذلك العام اقترحت الحكومة الفرنسية التوصـــل الى معاهدة فرانكو/لبنانية شبيهة بالمعاهدة مع سوريا • ومثلما حدث مع سوريا نجد أن البرلمان اللبنانى قد وافق على الفور على المعاهدة الفرانكو / لبنانية بينما لم توافق عليها حكومات الجنـــاح الأيمن الفرنسية المتعاقبة والتى جاءت بعد حكومة « الجبهـة الشعبية » بفرنســـا •

وفى خارج نطاق المجال السياسى نجد أن انجازات الانتدابات الفرنسية على لبنان وسوريا لم تكن تافهة أو جديرة بالاهمـــال • اذ أدخلت نظاما اداريا حديثا بعض الشىء علاوة على تنظيم الجمارك وتســجيل الأراضى على أساس من الدراســـة المساحية الرائدة • كما شيدت الكثير من الطرق البرية وأدخلت تحسنات على وسائل الراحة والخدمات الحضرية • وبدأت فى عملية تخطيط المدن فى كل من دمشق وحلب • ومن أعظم انجازاتها انشاء مصلحة للآثار القديمة من أجل الحفاظ والاشراف على التراث الأثرى القديم فى دولتى المشرق العربى • كما أعطى بعض التشجيع والتدعيم لقطاع الزراعة وخاصة فى اقليم الجزيرة الذى يقع فى شـــمال غـــرب سوريا • الا أن الجهود الاقتصادية التى بذلها الانتداب الفرنسى قد تأثرت كثيرا بسبب ضعف الفرنك الفرنسى الذى كانت ترتكز عليه العملة اللبنانية والعملة السورية • وأيضا كان هناك قدر كبير من الاستياء بسبب سياسة منح احتكارات للشركات الفرنسية التى كانت أرباحها تعاد الى فرنسا •

وحصل التعليم على دفعة قوية رغم أن السياسة التعليمية فى بعض النواحى كانت مثيرة للجدل والخلاف فى الرأى • اذ كان يتم

تشجيع اللغة الفرنسية والتقافة الفرنسية • كما كان الأطفال العرب يدرسون التفسير الفرنسى للتاريخ بل وكانوا يتعلمون كيف يتغنون بنشيد « المارسيليز » وكانت مدارس التبشير الدينى الأجنبية تلقى كل الدعم والتشجيع • وفي لبنان ظل قدر كبير من النظام التعليمى وكل التعليم العالى متركزا فى أيدى الأجانب بالاضافة الى أن معظم التدريس كان يتم باللغة الفرنسية أو الانجليزية ونتيجة لذلك كانت المستويات التعليمية للشعب اللبنانى بوجه عام أعلى مما هى عليه فى أى مكان آخر من الأمبراطورية العثمانية السابقة ، وفي سوريا التى كانت توجد بها مدارس تبشيرية ذات أهمية أقل بكثير من أهمية المدارس التبشيرية فى لبنان نجد أن النظام التعليمى الحكومى قد شيد تحت ظل الانتداب علاوة على انشاء جامعة دمشق التى كان التعليم فيها يتم أساسا باللغة العربية •

٣ ـ فلسطين وشرق الأردن : عندما اضطلعت الحكومة البريطانية بمهمة الانتداب على فلسطين فى عام ١٩١٩ لم تكن تدرك أنها قد أقدمت على مهمة صعبة على نحو لا يطاق • كما أن فشل بريطانيا فى حل المشكلات قد أفسد علاقاتها مع العرب على مدى جيل من الزمان • وقد نصت المادة السادسة من وعد بلفور والتى ضمنت فى شروط الانتداب على ما يلى :

« ان الادارة الحكومية لفلسطين بينما تعمل على عدم الاجحاف بحقوق وأوضاع القطاعات الأخرى من الشعب ستقوم بتسهيل الهجرة اليهودية تحت ظروف ملائمة وسوف تشجع التعاون مع الوكالة اليهودية المشار اليها فى البند رقم ٤ وتطبق استيطان اليهود على الأراضى بما فى ذلك الأراضى الحكومية والأراضى البور غير المطلوبة للمنفعة العامة » •

وكان أول مندوب سامى بريطانى فى فلسطين فى الفترة من

عام ١٩٢٠ حتى عام ١٩٢٥ هو السير هربرت صمويل وهو الرجل اليهودى الذى كان أول من عرض فكرة انشاء « دولة يهودية فى فلسطين » على الحكومة البريطانية فى عام ١٩١٤ ٠ الا أنه لم يكن عضوا نشيطا فى الحركة الصهيونية على الاطلاق ٠ وأثناء شغله لمنصب المندوب السامى البريطانى بفلسطين نجد أنه بذل جهودا كبيرة لكى يكون عادلا ومنصفا ازاء « القطاعات الأخرى من السكان » ٠٠

مما أدى فى نهاية الأمر الى شعور الصهاينة بالاحباط بل وشعورهم بالبغض والكراهية نحوه ٠ وقام بانشاء ادارة تضم مسلمين ومسيحيين ويهود ٠ وظل يعمل لبعض الوقت مستعينا بمجلس استشارى يتألف من أعضاء ينتمون الى الأديان الثلاثة ٠ وكان يأمل فى أن يصبح ذلك المجلس فى نهاية الأمر بمثابة برلمان تشريعى منتخب جزئيا لمجتمع واحد متحد ومترابط ، ولكن العرب الذين كانوا يرفضون أساسا الانتداب ووعد بلفور قاطعوا الانتخابات وطالبوا بانشاء حكومة وطنية ٠ ثم تفجرت ثورات حادة ٠ وبناء على اصرار من صمويل أصدرت الحكومة البريطانية الكتاب الأبيض White Paper الذى أعلنت فيه عزمها على الحفاظ على التوازن بين الجماعات الغربية واليهودية ٠ الا أن العرب كانوا متأكدين من أن الهدف الرئيسى من وراء الكتاب الأبيض هو الانتظار وعدم اعطاء الحكم الذاتى الى أن يصبح عدد اليهود كبيرا للغاية بحيث يصيروا هم القوة السائدة فى البلاد ٠ واستمر العرب فى المطالبة بتشكيل حكومة وطنية على الفور ٠ وأشاروا الى الوعود التى منحت للعرب أثناء الحرب ٠ ورفضوا الاقتراح الذى تقدم به صمويل والخاص بتشكيل وكالة عربية لكى تتنافس مع الوكالة اليهودية ،

وأقدم صمويل على خطوة لكى يظهر حسن نواياه ازاء العرب الا أنها أتت بنتائج مهلكة ٠ فهو لكى يحافظ على التوازن بين أكبر عائلتين فى القدس تدخل فى الانتخابات التى أجريت لاختيار مفتى القدس لكى تصبح فى صالح شاب وطنى يسمى الحاج

أمين الحسينى ، ومن خلال هذا المنصب يتمكن أمين الحسينى وهو وطني متشدد تنقصه تماما الحكمة السياسية ـ من الحصول على الزعامة على عرب فلسطين ·

وعلى كل حال كانت الفترة من عام ١٩٢٣ حتى عام ١٩٢٩ هادئة نسبيا لأن مخاوف العرب تناقصت لدى انخفاض الهجرة اليهودية الى فلسطين · ففى عام ١٩٢٧ لم يهاجر أى شخص يهودى الى فلسطين وفى عام ١٩٢٨ لم يهاجر سوى عشرة أشخاص فقط · واستمر الصهاينة فى تدعيم مستوطناتهم وتواجدهم السياسى · الا أن آمالهم فى السيطرة انحسرت وتراجعت · وأصبحت سلطات الانتداب البريطانية راضية عن الأوضاع وقامت بتخفيض الحامية العسكرية على نحو حاسم على الرغم من تحذيرات لجنة الانتدابات الدائمة ·

الا أن الوضع تغير بشدة فى عام ١٩٢٩ · ففى أغسطس وافقت بريطانيا على خلق وكالة يهودية موسعة بحيث يتم تجنيد · نصف أعضائها من المتعاطفين الصهاينة المتواجدين فى خارج فلسطين · وبدأ الصهاينة يكتسبون الثقة بالنفس مرة أخرى · وفى نفس الشهر حدث نزاع بشأن الممارسات الدينية عند حائط المبكى فى القدس مما أدى الى مصادمات طائفية على نطاق واسع أسفرت عن خسائر شديدة فى الأرواح · واندفعت القوات العسكرية الى مكان الشغب · وتم استعادة الأمن والنظام ـ ثم قام العرب بذبح عدد من سكان المستعمرات اليهودية فى الخليل · وكانت الخسائر البشرية بين العرب ناجمة عن تدخل الجنود البريطانيين بالدرجة الأولى ·

ووجدت بريطانيا نفسها تواجه متناقضات شديدة فى مهمة الانتداب على فلسطين · واقترح المندوب السامى البريطانى الجديد السير جون تشانسلور John Chancellor [١٩٢٨ ـ

١٩٣١] ضرورة تغيير شكل الانتداب وبحيث يتم ازالة الامتيازات الخاصة التى يتمتع بها اليهود وفرض قيود على شرائهـم للأراضى [والتى كانت تتم وتتقدم بسرعة كبيرة .. بمساعدة من الأموال الصهيونية ومن خلال حالات بيع الأراضى بمعرفة كبار ملاك الأراضى العرب المقيمين بعيدا عن أراضيهم] واعطاء العرب درجة معقولة من الحكم الذاتى . وقد أشار تقرير فنى بريطانى الى أنه لا يمكن أن يوجد هناك احتياطى من الأراضى المتاحة للمهاجرين الجدد بدون تواجد اعتمادات مالية للتنمية وأن الحكومة البريطانية فى هذا الوقت من فترة الكساد العالمى غير مستعدة على الاطلاق لتقديم تلك الاعتمادات المالية . وفى عام ١٩٣٠ أصدر وزير المستعمرات فى حكومة العمال ببريطانيا « كتابا أبيضا » يعطى بعض الأولوية لالتزامات بريطانيا نحو العرب من خلال فرض قيود على الهجرة اليهودية وانهاء شراء اليهود للأراضى . فتفجر غضب الصهاينة فى بريطانيا لأنهم اعتقدوا أن آمالهم فى اقامة دولة يهودية فى فلسطين بدأت تتلاشى . وشرعوا فى استخدام المتعاطفين معهم بين كافة الأحزاب الممثلة فى البرلمان البريطانى لكى يرغموا حكومة رمزى ماكدونالد الضعيفة القلقة على الغاء « الكتاب الأبيض » ، وبدأ العرب الفلسطينيون يعتقدون أن أية توصيات تصدر لصالحهم سوف تتعرض للالغاء فى مركز السلطة فى لندن . ولذلك شرعوا فى تنظيم تدعيم دولى خاص بهم . وفى ديسمبر ١٩٣١ تمت الدعوة الى عقد مؤتمر اسلامى فى القدس . وحضر المؤتمر ممثلون عن ٢٢ دولة اسلامية وذلك من أجل التحذير من مخاطر الصهيونية . ولكن على الرغم من أن الأخوة العرب بالدول المجاورة كانوا قد بدأوا يشعرون بالضيق والغضب بسبب الورطة التى وقع فيها العرب الفلسطينيون الا أنه لم يكن بمقدورهم تقديم سوى قدر ضئيل من المساعدات العملية . كما أن المناداة بمقاطعة البضائع الصهيونية والبريطانية فى عام ١٩٣٣ كانت غير فعالة الى درجة كبيرة .

وفي خلال النصف الأول من الثلاثينات من عام ١٩٣٠ حدثت زيادة هائلة فى الهجرة اليهودية حيث زادت من ٤٠٠٠ شخص فى عام ١٩٣٠ الى ٣٠ ألف شخص فى عام ١٩٣٣ والى ٦٢ ألف شخص في عام ١٩٣٥ • وكان من بين أسباب ذلك هى المخاوف من احتمال صعود هتلر الى السلطة فى ألمانيا ولكن السبب الرئيسى فى ذلك هو تزايد الثقة فى مستقبل فلسطين التى - رغم الكساد الاقتصادى العالمى - كانت تتمتع بقدر من ازدهار اقتصادى يرتكز على صناعة الليمون والبرتقال • وفى عام ١٩٣٥ طالبت الأطراف العربيـة - على الرغم من أنها أبعد ما تكون من الاتحـــاد مع بعضها البعض - بايقاف الهجرة اليهودية ومنع نقل ملكية الأراضى من شخص لآخر وانشاء مؤسسات ديموقراطية • وعرض البريطانيون فكرة انشــاء مجلس تشريعى يضم ٢٨ عضوا وبحيث يحصل العرب على ١٤ مقعدا ويحصل اليهود على ثمانية مقاعد مع حجز المقاعد الستة المتبقية من أجل الموظفين البريطانيين • ولكن معظم العرب رفضوا ذلك الاقتراح لأن هذه النسبة لاتمثل أعدادهم الكبيرة • لما رفض اليهود فى مرارة ذلك الاقتراح لأنهم اعتقدوا أنه من شأنه أن يزود العـــرب بقوة خانقة دائمة تسمح لهم بعرقلة انشاء وطن قومى يهودى •

وتفجرت الثورة العربيـة ضد الانتداب من عام ١٩٣٦ حتى عام ١٩٣٨ حيث كانت تحتدم فى كمون فى بادىء الأمر ثم انفجرت فى لهيب مشتعل • وكان السبب فى تفجر هذه الثورة هو المخاوف المستمرة من احتمال أن تؤدى الهجرة اليهودية الى سيطرة صهيونية علاوة على التأكد من أن بريطانيا لا تمنع الهجرة بطريقة فعالة • وتفجرت الشرارة الأولى عندما وصلت معلومات الى العرب تفيد بأن الصهاينة يقومون بتهريب الأسلحة الى داخل فلسطين من أجـــل الدفاع عن النفس • وفى ابريل ١٩٣٦ شكلت الأطراف العربيـة السياسية لجنة عليا عربية تحت قيادة الحاج أمين الحسينى نادت باضراب عام • وظل الاضراب مستمرا على مدى ستة شهور • وفى

نفس الوقت لجأ الثوار العرب ـ وقد انضـــم اليهم متطوعون من الدول العربية المجاورة ـ الى التلال • وبدأ تمرد وطنى على نطاق واســـــع •

وقامت بريطانيا بايفــــاد سلسلة متعاقبة من لجـان تقصى الحقائق • وأشارت لجنة اللورد بيل Peel لعام ١٩٣٧ الى أن التزامات بريطانيا ازاء العرب واليهود متناقضة ومتعارضة • وأن الانتداب البريطانى غير فعال وغير متسم بالطابع العملى • ولذلك أوصت هذه اللجنة لأول مرة بتقسيم فلسطين الى دولة يهـــودية وأخرى عربية مع الابقاء على القدس وحيفا تحت الانتداب البريطانى وعلى أن تكون الهجرة اليهودية فى حدود ١٢ ألف مهاجر سنويا على مدى السنوات الخمسة التالية • وأشارت اللجنة أيضا الى أنه يمكن ضم الدولة العربية الصغيرة الى شرق الأردن تحت رئاســـة عبد الله • وكانت ردود الفعل لدى الصهاينـــة متسمة بتكافؤ الضدين • فبريطانيا قد تحدثت لأول مرة عن انشاء دولة يهودية صراحة وعرضت النقل الاجبارى لبعض السكان العرب • ولكنهم كانوا يكرهون فرض قيود على حجم الدولة اليهـــودية ويكرهون استبعاد القدس وفرض قيود على الهجرة اليهودية • وكانوا لايزالون يأملون فى أن يصبحوا هم العنصر السائد فى فلسطين الموحدة غير المقسمة • ومن ناحية أخرى كان العرب بالاجماع يشعرون بالغضب الشديد [باستثناء الأمير عبد الله المتربع على السلطـــة فى شرق الأردن والذى حث العرب على قبول التقسيم] وزادوا فى حـــدة ثورتهم على الرغم من الاستخدام المكثف للقوة البريطانية واصدار قرار بفرض الحظر على اللجنة العليا العربية ، وتم ترحيل معظـــم أعضاء اللجنة العليا العربية بالقوة ونفيهم الى جزيرة سيشيل ، ولكن الحاج أمين الحسينى تمكن من الهرب الى بغداد • ومن هناك استمر فى بذل بعض الجهود لصالح التوصل الى الحد الأقصى من المطالب العربية •

وتم تفويض عصبة الأمم للقيام باعداد خطة تفصيلية لتقسيم فلسطين • الا أن اللجنة الفنية التى أعدت تقريرها فى نوفمبر ١٩٣٨ أشارت الى أن الاقتراح الذى تقدمت به لجنة بيل Peel غير متسم بالطابع العملى وبالتالى لا يصلح • فوافقت بريطانيا على ذلك الرأى • ودعت الى عقد مؤتمر منضدة مستديرة • وعقد المؤتمر فى لندن خلال فبراير ومارس ١٩٣٩ • وفشل هذا المؤتمر كما فشل المؤتمرات اللذان عقدا بعد ذلك مع اليهود والعرب • [وكان المؤتمر مع العرب يضم مندوبين عن الدول العربية وذلك كاعتراف بأن فلسطين تهم جميع العرب] •

وهدأت الثورة العربية تدريجيا فى خلال الشهور الأولى من عام ١٩٣٩ • وعقب أزمة ميونيخ لعام ١٩٣٨ وانحسار الأخطار التى تهدد بتفجر حرب فورية أصبحت بريطانيا قادرة على جلب المزيد من قواتها الى فلسطين • لما أن الكفاح الطويل غير المثمر جعل العرب الفلسطينيين مصابين بحالة من الاحباط وانخفاض الروح المعنوية •

ولكن الحكومة البريطانية أصبحت تهتم أساسا بموضوع الحرب العالمية الآخذة فى الاقتراب والتى بدت آنئذ أمرا حتميا لا مفر منه • وأصبحت الأولوية تنصب على الحصول على الأقل على التأييد السلبى من جانب العرب الذين يشكلون الغالبية العظمى السكانية فى منطقة الشرق الأوسط ذات الأهمية الاستيراتيجية الحيوية [بما فى ذلك فلسطين التى كان العرب فيها مازالوا يشكلون حوالى ٧٠٪ من العدد الاجمالى للسكان] • وكان من المفترض أن اليهود سوف يقفون حتما الى جانب بريطانيا فى أية حرب ضد هتلر • فأصدرت الحكومة البريطانية « كتاب أبيض » جديد فى مايو ١٩٣٩ ينص على أن تكون الهجرة اليهودية فى حدود ٧٥ ألف شخص على مدى السنوات الخمس التالية وأنه لن يتم السماح بأعداد أخرى من المهاجرين الا فى حالة « موافقة العرب »

على ذلك • كما أشار الكتاب الأبيض الى أن الهدف هو أن يتم انشاء « فى خلال عشر سنوات دولة فلسطينية مستقلة ترتبط بعلاقات من خلال معاهدة مع المملكة المتحدة تؤدى الى رعاية كافة المصالح التجارية والاستيراتيجية للدولتين : فلسطين وبريطانيا » • وكان من الواضح أن العرب سيظلون آنئذ يشكلون أغلبية كبيرة •

وعلى الرغم من أن هذه السياسة الجديدة كانت متلائمة أكثر مع العرب الا أن حزب المفتى رفضها — على أساس أن التجربة قد أظهرت أنه لايمكن الوثوق فى أن الحكومة البريطانية يمكنها أن تنفذ هذه السياسة الجديدة رغم المعارضة اليهودية ، وكان الكثيرون من العرب المعتدلين تساورهم نفس هذه الشكوك ، ومن ناحية أخرى نجد أن الصهاينة قد شعروا بالذعر والغضب الشديدين لأنهم اعتبروا ذلك بمثابة ضربة مميتة لآمالهم وخيانة لوعد بلفور • بل وزادوا من تصميم على انشاء الدولة اليهودية الخاصة بهم فى فلسطين ، وكان المجتمع اليهودى فى داخل فلسطين قد بدأ يحكم نفسه بنفسه الى درجة كبيرة من خلال جمعية منتخبة تقوم بفرض وتحصيل الضرائب الخاصة بها • كما كانت النقابات العمالية قد أصبحت ملتحمة فى اتحاد يسمى : « الهسنادروث » الذى كان يضطلع بمهام أخرى عديدة من حيث هو صاحب بنك ومقاول ومالك للأراضى • وفى الفترة من عام ١٩٢٢ حتى ١٩٣٩ كادت المستعمرات اليهودية قد زادت من ٤٧ الى ٢٠٠ مستعمرة كما أصبحت ممتلكات اليهود من الأراضى أكثر من الضعف • كما أن الجامعة العبرية التى أنشئت فى جبل سكوبوس Scopus بالقدس وافتتحت فى عام ١٩٢٥ كانت تلعب دورا قياديا فى تدريب القيادة الأكاديمية والثقافية فى البلاد ، وكان أهم تطور بالنسبة للمستقبل هو خلق « الهاجاناه » وهو الجيش اليهودى السرى الذى حصل فى نفس الوقت على موافقة رسمية من بريطانيا • وقد أدى هذا الى اكتساب الخبرة فى الدفاع عن المستوطنات اليهودية ضد هجمات العرب

كما قام بعض أعضاء الهاجاناه بمساعدة القوات البريطانية فى عمليات قمع الثورة العربية ٠

وأصبح اليهود فى فلسطين يشكلون قوة مرعبة ٠ وكانوا مصممين على معارضة سياسة بريطانيا الجديدة ٠ ولكن هذا التفوق كان يجعل الأمور فى غير صالحهم على ما يبدو ٠

وفى شرق نهر الأردن حيث توجد امارة شرق الأردن التى أنشئت حديثا تحت حكم الأمير عبد الله كانت المشكلات أقل تعقيدا ٠ فبعد أن حصلت بريطانيا على موافقة عصبة الأمم على استبعاد شرق الأردن من السياسة المتعلقة بانشاء وطن قومى يهودى فى ٢٥ مايو ١٩٢٣ اعترفت بشرق الأردن كدولة مستقلة خاضعة للالتزامات البريطانية وفقا للانتداب على فلسطين ٠ وتحت الضغوط الفرنسية تم اصدار الأوامر للزعماء السوريين الذين كانوا قد لجأوا الى شرق الأردن بمغادرة البلاد ٠

وكانت كافة القوات تحت قيادة ضابط بريطانى ٠ ومن خلال المساعدة البريطانية أصبحت القوات الأردنية الوليدة قادرة على التعامل مع الانشقاقات الداخلية القبائلية وغزوات المحاربين الوهابيين المنطلقة من نجد فى أوائل العشرينات من عام ١٩٢٠ ٠

وكانت دولة شرق الأردن فقيرة وغير نامية وقليلة السكان ولكن كان يوجد بها ذلك التماسك السياسى والاجتماعى الذى لا يتوفر فى فلسطين ٠ ولقد قامت بريطانيا باملاء شروط وبنود معاهدة ١٩٢٨ والتى بمقتضاها ـ ومن خلال مندوب بريطانى مقيم معين بمعرفة المندوب السامى البريطانى على فلسطين ـ كان الأمير عبد الله يتلقى التوجيه من المشورة البريطانية والنصائح البريطانية فى أمور العلاقات الخارجية والشئون المالية ومدى ممارسة السلطة على الأجانب ٠ وكان يوجد فريق من المستشارين البريطانيين علاوة على تخصيص اعانة مالية بريطانية ضئيلة

[مائة ألف جنيه استرليني من اجمالى ميزانية الدولة التى بلغت فى عام ١٩٢٥/١٩٢٦ حوالى ٢٥٧ ألف جنيه استرليني] وعلى الرغم من انتشار الفقر فى ربوع البلاد تم احــراز بعض التقدم البطيء المضطرد • وتم تشييد بعض الطرق البرية والمدارس ولكن انقضت ١٥ عاما قبل أن يصبح بالبلاد أكثر من مدرسة ثانوية واحدة •

وفى عام ١٩٣١ وبعد أن أمضى عشر ســنوات من الخبرة فى العراق وصل الكابتن جون باجوت جلوب [أو جلوب باشا حيث اشتهر بهذا الاســم فيما بعــد] الى شرق الأردن لكى ينشىء « دورية خفر الصحراء Desert Patrol » كشعبة خاصــة من جيش شرق الأردن [الذى يسمى الفيلق العــربى] تقوم بمهمة حفظ الأمن والنظام فى الصحراء ، ومن ابتكاراتها الجديدة أنهــا استخدمت رجال القبائل في عملية حفظ الأمن والنظام بين زملائهم من البدو • وأحرز جلوب باشا نجاحا عظيما حيث تمكن من كسب ثقة البدو واقناعهم بأن هناك منافع وفوائد عظيمة تعود عليهم من وراء الاستقرار والنظام • وبهذه الطريقــة أصبح البدو يشعرون بالولاء ازاء دولة شرق الأردن بل وجاء العديد منهــم لكى يلتحق بالخدمة في القوات المسلحة النظامية •

وبعد أن واجهت بريطانيا المشكلة المتفجرة فى فلسطين فانها حرصت على السماح بالاستقلال المتزايد لعبد الله من حيث هو الزعيم الشعبى المتمتع بحب جميع الجماهير فى شرق الأردن • وعلى الرغم من ادعائه بأن حكمه كان يرتكز على ايمان أسرته الهاشمية بالقومية العربيــة الشــاملة Pan-Arabism نجد أن مهاراته السياسية الكبيرة قد مكنته من الحصول على الولاء الشديد لنفسه ولأسرته من جانب زعماء القبائل المحلية • وفى عام ١٩٣٤ وافقت بريطانيــا على أن يقوم الأمير عبد الله بتعيين قناصل فى دول عربية أخرى • وفى عام ١٩٣٩ وافقت بريطانيا على تشكيل مجلس للوزراء يكون

مشرفا على الادارات الحكومية ومسئولا أمام الأمير عبد الله • وفى عام ١٩٤٦ أصبحت شرق الأردن مستقلة من الناحية الرسمية ولو أنها ظلت تعتمد اعتمادا كبيرا على الاعانة المالية البريطانية والتدعيم البريطانى • وحصل الأمير عبد الله على لقب : الملك •

وعلى الرغم من أن شرق الأردن كانت تنمو وتتطور على نحو منفصل ومختلف الا أنها لم تكن منعزلة عن الأحداث التى تجرى فى فلسطين الواقعة غرب نهر الأردن • كما كانت هناك العديد من صلات القرابة بين الشعبين اللذين يسكنان على ضفتى النهر • كما أن المستوى التعليمى الأعلى بين الفلسطينيين أدى الى تعيين بعض الفلسطينيين فى المناصب الكبيرة بالحكومة الوليدة بعمان في شرق الأردن ، وكان الشعب فى شرق الأردن مهتما للغاية بالمأساة الآخذة فى التزايد والانتشار والتى أصابت الشعب الفلسطينى • ومع ذلك بدأ عنصر الوطنية الاقليمية المحلية فى النمو فى داخل شرق الأردن مثلما حدث فى أى مكان آخر بالأقاليم العربية الأخرى التى كانت تابعة للامبراطورية العثمانية • [والوطنية المحلية فى شرق الأردن قد أعطيت بعض الشرعية التدريجية من خلال الاحساس بأن أهالى شرق الأردن ينحدرون عن النبطيين التابعين لبترا (Petra] • وفى نهاية الأمر نجد أن شعار « شرق الأردن من أجل أهالى شرق الأردن » قد ترجم الى قانون ينص على أن تقتصر الوظائف الحكومية على أهالى شرق الأردن • وقد عارض هذا القانون الوطنيون العرب الذين أشاروا الى أنه لاينبغى أن يتسبب أى شيء فى تعميق التقسيمات الاصطناعية المفروضة بين العرب • ولكن من الناحية العملية كانت التنمية المنفصلة لشرق الأردن تحظى بتأييد الغالبية العظمى من أهالى شرق الأردن •

وركز عبد الله على تدعيم قاعدة نفوذه فى شرق الأردن التى كانت أصغر حجما من فلسطين أو سوريا ولكنها كانت تتميز بأنه يمكن له أن يحكمها من خلال سلطته الشخصية • الا أن هذا

لم يكن يعني أنه قد تخلى عن طموحاته الهاشمية المتعلقة بالقومية العربية الشاملة Pan-Arab · ولم تكن طموحاته تشتمل على مصر أو شبه الجزيرة العربية التى فقدها الهاشميون واستولى عليها ابن سعود فى عام ١٩٢٥ ولكنه لم يتخل أبدا عن استحقاقات أسرته فى سوريا الكبرى · وكانت فرصته ضئيلة بالنسبة لسوريا التى يحكمها الفرنسيون · ولكن الوضع كان مختلفــا بالنسبة لفلسطين · وفى بداية فترة الانتداب البريطانى فى فلسطين قام عبد الله باجراء تقييم ذكى وواقعى لقوة الصهاينة وآمالهم وأصبح على استعداد تام للتفاوض معهم · وتنبأ بأنه سيجىء وقت يحتاج فيه الفلسطينيون العرب انى حمايته ويصبحون بذلك على استعداد لتقبل حكمه · وكان ذلك هو السبب فى أنه حث الفلسطينيين على الموافقة على الاقتراح الذى تقدمت به لجنة بيل Peel والخاص بتقسيم فلسطين وضم الجزء العربى من فلسطين الى شرق الأردن ·

وعلى نحو حتمى فان هذا الموقف من جانب عبد الله قد تسبب فى ظهور أعداء كثيرين له من بين العرب الوطنيين الذين يعارضون الهاشميين ابتـــداء من عائلة الحاج أمين الحسينى فى فلسطين الى الجمهوريين فى سوريا · وكان لعبد الله أعوان ومؤيدون فى هاتين الدولتين · ولكنهم لم يتفوقوا ولم يتمكنوا من احـــراز الهيمنة والسيطرة · وكان أبناء عمه الهاشميين بالعراق أكثر ميلا الى اتخاذ موقف ودى · ولكنهم لم يكونوا على استعداد لتقبل زعامته وقيادته · وكان عبد الله على استعداد لأن ينتظر لحين ظهور نتائج الأحداث التى تعتمل فى داخل فلسطين ·

بلاد الفرس / ايران : على الرغم من أن فارس أعلنت وقوفها على الحياد لدى تفجر الحرب العالمية الأولى فانها لم تستطيع الهروب من التورط فى الحرب · اذ أن انتهاك تركيا للأراضى الفارســية بهدف مهاجمة روسيا علاوة على التهـديد التركى لشركة لبترول

الأنجلو / فارسية وحقولها ومعمل تكريرها بجنوب البلاد قد أدى الى قيام القوات الروسية والبريطانية باحتلال مساحات كبيرة من الأراضى الفارسية • وهذا بدوره أدى الى زيادة التعاطف بين جماهير الشعب الايرانى لصالح الألمان والأتراك فى الحرب • وبعد انتهاء الحرب انضمت فارس الى عضوية عصبة الأمم كدولة مستقلة • الا أن البلاد كانت فى حالة من الفوضى وكانت قواتها المسلحة منقسمة كما كانت الميزانية شاغرة •

وقد أدت هزيمة روسيا فى الحرب وتفجر الثورة البلشفية الى انقاذ فارس من الضغوط الروسية لبعض الوقت • وهذا بدوره شجع بريطانيا على وضع فارس فى منطقة النفوذ الخاصة بهسا • اذ كتب وزير الخرجية البريطانى اللورد كوزون فى عام ١٩١٩ ما يلى :

« نظرا لأننا على وشك أن نضطلع بمهمة الانتداب على العراق مما سيجعل لنا حدود مشتركة مع الحدود الغربيـة لفارس فانه لايمكن لنا أن نسمح بأن تتواجد ما بين حدود امبراطورية الهند الخاصة بنا وحدود المحمية الجديدة التابعة لنا بيئة متسمة بالحكم الفاسد ومؤامرات الأعداء والفوضى السياسية والماليـة •• فنحن نمتلك فى الركن الجنوبى الغربى من بلاد الفرس أشـياء عظيمة تتمثل فى حقول البترول التى تشغل لصالح البحرية البريطانيـة التى تجعلنا نهتم بذلك الجزء من العالم » •

وشجع كورزون على ابرام الاتفاقية الانجلو / فارسية لعام ١٩١٩ التى ـ على الرغم من اعادة التأكيد على استقلال بلاد الفرس وسلامة ووحدة أراضى بلاد الفرس ـ قد نصت على تعيين مستشارين عسكريين ومدنيين من البريطانيين علاوة على التعاون فى تنميـة وسائل النقل والمواصلات بالاضافة الى قرض قيمته ٢ مليون جنيه استرلينى • وكانت هذه الاتفاقية تتيح الفرصة لبريطانيا بممارسة

الهيمنة والسيطرة على بلاد الفــرس مما جعــل الولايات المتحدة الأمريكية تنتقدها بشدة • ولكن نظرا لقوة المشاعر التى أثيرت فى أرجاء البلاد رفض المجلس [البرلمان الفارسى] التصديق على هذه الاتفاقية وتم ارسال المستشارين البريطانيين الذين كانــوا قد شغلوا وظائفهم فى فارس الى بريطانيا ••

وعلى النقيض مــن ذلك تم التوقيــع فى ٢٦ فبراير ١٩٢١ على معاهدة سوفيتية / فارســـية تنص على استنكار الحكومة السوفيتية « للسياسة الاســتبدادية » التى انتهجتها روســـيا القيصرية والغاء كافة الديون الفارسية والغــاء كافة الامتيــازات الأجنبية التى كانت قد منحت للروس المقيمين فى فارس • وقد وافــق المجلس [البرلمان الفارسى] على هذه المعاهدة على الفور • ولم يهتم الفرس كثيرا بالفقرة التى تعطى لروســـيا الحق فى ارسال قوات الى فارس اذا رأت روسيا أن بلاد الفرس قد أصبحت قاعدة لعمل عسكرى موجه ضد روسيا •

وتعرض الوضع الداخلى للمزيد من التــدهور بسبب تواجد حكومة ضعيفة وفاسدة وبسبب الشاه الشاب غير المتسم بالكفاءة • وفى هذه المرحلة نجد أن القائــد النشيط البـــارز لفرقة القوزاك الفارســـية الكولونيل رضــا خان قد أقنعته مجموعة من المصلحين الاجتماعيين بالزحف مع رجاله على طهران • فتمكن من دخـــول العاصمة فى ٢١ فبراير ١٩٢١ • فاستقالت الحكومة • وتم تشكيل حكومة جديدة شغل فيها رضا خان منصب وزير الحربية ورئيس الأركان • وبعد مرور فترة قصيرة شغل رضا خان منصب رئيس الوزراء وأصبح مسيطرا تماما على الحكومة •

وكانت أول مهمة قام بهــا رضا خان هى اعادة توحيد وبناء القوات المسلحة • وقام بتخصيص الاعتمادات المالية الحكومية لكى يضمن منح الجنود مرتباتهم بانتظام • وبهذه الطريقة تمكن من خلق

جيش متسم بالنظام والكفاءة بعض الشيء ويضم ٤٠ ألف جندى حيث كان يهدف من خلال انشاء هذا الجيش الى اقامة حكومة مركزية قوية فى جميع أرجاء البلاد · وفى عام ١٩٢٤ تمكن من قمع التمرد الذى قام به صيخ منطقة محمرية [والتى عرفت بعد ذلك باسم خورامشهر] المتمتعة بالحكم الذاتى والتى توجد بها الأراضى الخاصة بالامتياز الذى منح لشركة البترول الأنجلو / فارسية · ولكن يتمكن من اعادة تنظيم النواحى المالية المتدهورة الى درجة الكارثة فانه أحضر الخبير المالى الأمريكى أ · س · ميلزبوغ الذى أحرز تقدما كبيرا من خلال الاستعانة بمجموعة صغيرة من المستشارين · وفى خلال السنوات الواقعة بين الحرب العالمية الأولى والحرب العالمية الثانية أصبحت فارس منتجة للبترول بكميات كبيرة · اذ ارتفع الانتاج من ١٢ مليون برميل فى عام ١٩٢٠ الى ٤٦مليون برميل فى عام ١٩٣٠ مما جعل فارس هى رابع دولة منتجة للبترول فى العالم كله بعد أمريكا وروسيا وفنزويلا ·

وبسبب التدهور والتفسخ العام الذى صاحب النظام الملكى الفاسد وغير المتسم بالكفاءة على مدى فترات طويلة فقد انتشرت الآراء المطالبة بانشاء نظام جمهورى الا أن الزعماء الدينيين الذين كانوا يخافون من النتائج المترتبة على الغاء مصطفى كمال أتاتورك للخلافة وانشاء جمهورية علمانية عارضوا هذه الآراء · لذلك قرر رضا خان الاحتفاظ بالنظام الملكى · وجعل من نفسه الشاه على البلاد · وفى ٣١ أكتوبر ١٩٢٥ أعلن المجلس [البرلمان] من خلال أغلبية كبيرة انهاء حكم أسرة القاجار الملكية الحاكمة · وبعدئذ قامت جمعية تأسيسية جديدة بمنح العرش لرضا شاه ومنح الخلافة على العرش لورثته · وسمى رضا أسرته الحاكمة باسم : الأسرة البهلوية · وفى عام ١٩٣٥ قام رسميا بتغيير اسم الدولة من فارس الى ايران ·

وعلى الرغم من أن الملا [رجال الدين] هم الذين ساعدوه على أن يصبح هو الشاه المتربع على عرش البلاد الا أنه كان ينظر الى معظمهم على أنهم متأخرون ورجعيون · بل انه فى كثير من النواحى كان يشكل نظام حكمه وفقا لأسلوب أتاتورك وشرع فى اتخاذ سياسة تميل الى اضفاء الطابع الغربى على كافة الأمور ، اذ أدخل نظاما قضائيا فرنسيا أدى الى تحدى اختصاصات المحاكم الدينية الشرعية · وفتح مكاتب مدنية من أجل اتخاذ اجراءات الزواج · وأعاد تنظيم التعليم وفق الأساليب الغربية · وحرص على زيادة معدلات معرفة القراءة والكتابة بين جماهير الناس بشكل مضطرد · بل وتم انشاء جامعة طهران فى عام ١٩٣٥ وأحضر لهـا عدد من الأساتذة الأجانب للعمل ضمن هيئة التدريس بها · وفى عام ١٩٣٦ أرغمت النسـاء على ترك الحجـاب وفرض الزى الأجنبى الأوربى اجباريا على الأناث والذكور ، واتبع رضـا شـاه سياسة تهدئة واسترضاء وتوحيد البلاد ـ وهى مهمة صعبة لم تنجح أسرة القاجار فى انجازها ـ من خلال اخضاع القبائل شبه المستقلة · وتم وضع للباختيار Bakhtiaris والقاجار Kashgars تحت حكم ضباط عسـكريين ·

وكان تحسين الاتصالات والمواصلات يعتبر أمرا حيويا بالنسبة لتوحيد الأراضى الشاسعة للامبراطورية · وقامت شركة جانكارز الألمانية بتنظيم رحلات طيران داخلية · كما تحسنت الى درجة كبيرة الخدمات البريدية والاتصالات السلكية واللاسلكية · وسـاعد مهندسون أمريكيون وأوربيون فى تشييد الطرق البرية والسكك الحديدية · وكان انشاء خط السكة الحديد عبر ايران من بحـر قزوين حتى الخليج مشروعا عظيما أثار به الشاه اعجاب وحماس الأمة الفارسية كلها ·

وكان التقدم يعنى التصنيع · لذلك تم انشاء مجموعة جديدة

من مصانع الأقمشة والصلب والأسمنت علاوة على مصانع أخرى ، وقد حققت بعض هذه المصانع أرباحا كبيرة ·

وكان الحكم الحازم لرضا شاه وتأكيده على الحقوق الوطنية له أثر عظيم فى تدعيم مكانة ايران الدولية وزيادة قدرتها على المساومة · وكان رضا شاه يشجب كافة المعاهدات التى تعطى حقوقا خارج نطاق التشريع الوطنى لرعايا الدول الأجنبية الذين يقيمون فى ايران · وعندما نشب نزاع مع الحكومة السوفيتية بشأن الأماكن التى يتواجد بها السمك فى بحر قزوين فانه توصل الى تسوية من خلال الموافقة على تكوين شركة فارسية / روسية لاستغلال مصايد الأسماك · ولكى يتمكن من تحقيق أهدافه الرامية الى تحسين العائدات الضئيلة التى تحصل عليها ايران من شركة البترول الأنجلو / فارسية فانه كان على استعداد لأن يخاطر بالغاء الامتياز فى عام ١٩٣٢ · ولجأت بريطانيا الى عرض المشكلة على عصبة الأمم · وانتهى النزاع فى عام ١٩٣٣ من خلال التوصل الى تسوية تعطى لفارس شروطا أفضل الى حد كبير ·

وكان رضا خان يؤكد بشدة على الحقوق الوطنية الفارسية مما أرغم بريطانيا على نقل مقر سلطتها بالخليج الى البحرين المطلة على الساحل الغربى · كما تم ازالة مرفأى الاستفحام البريطانيين اللذين يزودان البواخر بالفحم واللذين كانا يتواجدان على الأراضى الفارسية · كما غير سلاح الطيران الملكى البريطانى خطوط طيرانه الى الهند من الشاطىء الفارسى الى الشاطىء العربى · ولكن الشقاق والخلافات استمرت نظرا لأن رضا خان كان يثير من وقت لآخر مطالبة فارس بالحصول على البحرين ·

وكان للنجاجات التى أحرزها رضا خان بعض النواحى السلبية ، اذ أن حكمه العسكرى المتسم بالتبذير والاستبداد قد ضيق المجال أمام الحريات الشخصية أو المبادرات الخاصة · وصحيح انه تم الابقاء على المجلس [البرلمان] الا انه كان الى حد ما بمثابة

واجهة • كما أن بعض السياسات الاقتصادية كانت متسمة بالتبذير والخطأ فى الفهم والادراك • هذا بالاضافة الى أن الزراعة قد لاقت اهمالا خطيرا • كما أن سياسة توطين البدو كانت فاشـلة للغاية لأنه لم يتخذ التدابير الكافية اللازمة لهم للحفاظ على قطعانهم فى مناطق الاستيطان الخاصة بهم • ومن الأمور البالغـــة الخطورة بالنسبة لسمعة رضا خان هى أنه حصل لنفسه على مساحات هائلة من أجود الأراضى الزراعية سواء من خلال مصادرة تلك الأراضى أو من خلال وسائل للشراء تصل فى حقيقة الأمر الى درجة التجريد من الملكية ومصادرة الأراضى •

البترول والشرق الأوســـط : كانت فارس هى أول مكان بالشرق الأوسط يتم فيه اكتشـاف البترول • وعلى مدى العقود الثلاثة الأولى من القرن العشرين ظلت فارس هى الدولة الوحيـدة المنتجة للبترول فى الشرق الأوسط • وربما لم يبالغ اللورد كورزون كثيرا عندما قال « أن الحلفاء كانوا يطوفون نحو النصر فوق موجة من البترول] فى الحرب العالمية الأولى • ولكن بالنسبة لبريطانيا ومن خلال اهتمامها الشديد بشركة البترول الأنجلو / فارسية أصبح البترول الفارسى هو أهم النواحى الاستيراتيجيـة والاقتصـــادية بالمنطقة جنبا الى جنب مع قناة السويس •

ولكن ــ وحتى قبل تفجر الحرب العالمية الأولى ــ كانت هناك بعض الشكوك الضئيلة فى أن شمال العراق كان بمثابة منطقـــة أخرى غنية بالبترول • اذ كان البترول الذى ينز متسربا الى السطح يتم نقله على ظهور الحمير من أجل استخدامه كوقود فى المنازل فى تركيا • وفى عام ١٩٠٤ نجد أن كالوست حولبنكيان وهو ممول أرمينى غنى أعد تقريرا عن الامكانيات التجارية للبترول بشمال العراق مما دفع السلطان عبد الحميد الى ضم هذه الأراضى الحكومية الى الموارد الشخصية الخاصة به • وقبل نشـــوب الحرب العالمية

الأولى مباشرة قامت الحكومة العثمانية بمنح امتياز لشركة البترول التركية TPC وهو الامتياز الذى حصلت فيه شركة البترول الأنجلو / فارسية على نصف الأسهم بالاشتراك مع شركة شل الهولندية الملكية وبنك دويتش الألمانى . وتعهد المساهمون فى شركة TPC بعدم التدخل بشكل مباشر أو غير مباشر فى انتاج أو تصنيع البترول بالامبراطورية العثمانية سواء فى أوربا أو آسيا اللهم الا من خلال شركة TPC مع استثناء مناطق تحدد على خريطة بخط أحمر . وأصبح هذا يعرف باسم « اتفاقية الخط الأحمر » . ولذلك فان بريطانيا مع احتلال قواتها للموصل وقيامها بمصادرة الأسهم الألمانية فى شركة IPC أصبحت فى وضع قوى يسمح لها بالسيطرة على البترول العراقى . الا أن بريطانيا كانت لديها التزامات تجاه فرنسا وفقا لاتفاقية سايكس / بيكو السرية لعام ١٩١٦ والتى كانت تنص فى صيغتها الأصلية على أن تكون الموصل مو ضمن منطقة النفوذ الفرنسى . وفى عام ١٩١٩ تمكنت بريطانيا من اقناع فرنسا بأن يتم تحويل الموصل الى منطقة النفوذ البريطانى وبحيث تحصل فرنسا فى مقابل ذلك على دور مضمون فى تنمية بترول الموصل .

كما وافقت فرنسا أيضا على تشييد خطين منفصلين لنقل البترول من العراق وفارس عبر مناطق النفوذ الفرنسية الى البحر الأبيض المتوسط .

وعند هذه النقطة تدخلت حكومة الولايات المتحدة الأمريكية . فعلى الرغم من أن أمريكا كانت تتراجع نحو العزلة السياسية والتى استمرت حتى نشوب الحرب العالمية الثانية الا أنها كانت مصممة على أنه أثناء تقبلها للانتدابات الأنجلو/فرنسية ينبغى الحفاظ على سياسة « الباب المفتوح » فى النواحى التجارية فى الأراضى الواقعة تحت الانتداب . وكان هذا يعنى المساواة فى المعاملة « فيما يتعلق بالتجارة الخاصة بجميع الدول » الا أن البترول كان هو الاهتمام

الرئيسي • ومن ناحية أخرى كانت الحكومة البريطانية تشعر أن أمريكا لديها بالفعل البترول الذى يكفى احتياجاتها والذى يتواجد فى تكساس • وتم تبادله مراسلات وخطابات مطولة وأحيانا قاسية ولاذعة بين الادارة الأمريكية ووزارة الخارجية البريطانية • وكانت النتيجة النهائية هى أن صناعة البترول فى العراق أصبحت احتكارا لشركة بترول العراق IPC التى خلفت شركة TPC التى كانت مملوكة ملكية مشتركة بنسبة ٢٣٫٧٥٪ من الأسهم لكل من : شركة البترول الانجلو / فارسـية [والتى عرفت فيما بعد باسـم BP] + شركة شل الهولندية الملكية + مجموعة أمريكية تحولت فى نهاية الأمر الى ستاندرد أويل أوف نيوجيرسى أند سوكونى - فاكيوم [والتى عرفت فيما بعد باسم : موبيل] + الشركة الفرنسية للبترول CEP علاوة على حصول كالوست جولبنكيان على الـ ٥٪ الباقية • وهكذا نرى أن الادارة الأمريكيـة قد مكنت الشركـات الأمريكية من الدخول الى ميدان الصراع على البترول فى الشرق الأوسط ولكنها باتخاذها لهذا الاجراء كانت تتقبل بالفعل لبنود اتفاقية الخط الأحمر التى كانت بريطانيا تعتبرها مازالت سارية المفعول والتى تبعد جميع المشاركين باستثناء المساهمين فى شركة البترول العراقية IPC •

وتم اكتشاف حقل بترولى كبير بالقرب من كركوك فى عام ١٩٢٧ وبحلول عام ١٩٣٤ بدأ الانتاج يساهم بشـكل فعال فى ايرادات العراق •

وطـوال العشرينات من عام ١٩٢٠ نجد أن شركة البترول الأنجلو/فارسية التى استمرت فى السـيطرة على بترول الشرق الأوسط قد أظهرت اهتماما ضئيلا بالاحتمالات البترولية • بالأراضى الواقعة على الشواطئ الغربية للخليج - أى فى الكويت أو البحرين أو الاقاليم الشرقى من المملكة التى عرفت فيما بعد باسـم المملكة العربية السـعودية • ويرجع السبب فى ذلك الى حد ما الى أن

الجيولوجيين بالشركة كانوا يعتقدون أن الجانب الشرقى فقط من الخليج هو الذى يمكن ان يعطى بترولا بكميات اقتصادية وذلك على الرغم من تواجد تسربات للبتيوم [القار] فى الكويت • اذ أن الشواطىء الغربية للخليج لم يكن يوجد بها تلك التكوينات الصخرية الأوليجوسينية/الميوسينية التى عثر عليها فى فارس والعراق • ومع ذلك فان هذا لم يكن يعنى أن الحكومة البريطانية أو شركة البترول الأنجلو/فارسية APOC كانت يسعدها أن تشاهد امتيازا يمنح لشركة غير بريطانية للتنقيب عن البترول فى الشواطىء الغربية • ولقد قامت الحكومة البريطانية نيابة عن شركة APOC بمقاومة الضغوط الأمريكية الرامية الى السماح لأمراء الكويت والبحرين بمنح امتيازات لشركات غير بريطانية • وفى عام ١٩٣١ قام أمير البحرين بمنح امتياز لشركة ستاندرد أويل أوف كاليفورنيا التى قامت بتأسيس شركة البحرين للبترول Bapco كشركة محدودة كندية تمتلك كندا أكثر من نصف أسهمها بهدف الايحاء بأنها شركة بريطانية •

وعندما عثرت شركة Bapco على البترول بكميات اقتصادية فى مايو ١٩٣٢ عقب مرور ستة شهور فقط على البدء فى التنقيب تغير الموقف • اذ أصبحت الامكانيات البترولية فى الشواطىء الغربية للخليج واضحة المعالم • وعلى الفور قامت شركة ستاندرد أويل باجراء اتصالات مع الملك ابن سعود بهدف الحصول على امتياز للتنقيب عن البترول • فاستجاب الملك نظرا لأنه كان فى أشد الحاجة للحصول على أموال • وأوفدت الشركة الأنجلو/فارسية مندوبا عنها من أجل عرض ثمن أعلى • ولكن نظرا لأن الشركة الأنجلو/فارسية كان يوجد لديها كميات وفيرة للغاية من البترول وكانت تهدف أساسا الى ابعاد المنافسين عن المنطقة فان مندوبها قد كلف بأن يعرض دفعة مقدمة من الأموال فى حدود خمسة آلاف جنيه استرلينى فقط بينما عرضت شركة ستاندرد أويل ـ عقب الدخول فى مساومات

صعبة ـ مبلغ ٥٠ ألف جنيه استرليني • وفى يوم ٢٩ مايو ١٩٣٣ تم التوقيع على امتياز لصالح ستاندرد أويل أوف كاليفورنيا يغطى كافة الأجزاء الشرقية من المملكة •

وبهذه الطريقة تم وضع الأسس التى ارتكزت عليها العلاقات الوثيقة بين السعودية العربية والولايات المتحدة الأمريكية والتى أحدثت تأثيرا كبيرا على التاريخ الحديث لمنطقة الشرق الأوسط • وعلى الرغم من أن الملك السعودى كان أبعد عن كونه مناهضا للبريطانيين الا أن ميوله قد اتجهت لصالح الشركة الأمريكية ـ وذلك بصرف النظر عن العرض السخى المقدم منها ـ لأن أمريكا لم يكن لها تاريخ أو سجل استعمارى فى منطقة الشرق الأوسط • ونظرا لأنه حاكم على دولة متمتعة بالاستقلال التام فانه كان قادرا تماما على الاختيار بارادته الحرة وبدون أن يتدخل أحد فى شئونه •

وقامت شركة ستاندرد أويل فيما بعد ببيع أنصبة فى امتيازها لشركة تكساس • وفى عام ١٩٤٤ اتخذت الشركة التى تقوم بتنفيذ الامتياز اسم : شركة البترول العربية/الأمريكية [أرامكو Aramco] • وقامت شركات البترول الأمريكية بتنمية أكبر مورد طبيعى بالعربية السعودية مما أحدث تأثيرا هاما كبيرا على المملكة • ولم تكن أرامكو بمثابة أداة فى أيدى السياسة الأمريكية الخارجية ـ بل انها كانت فى حقيقة الأمر فى كثير من الأحيان فى حالة خلاف وخصام مع وشنجتن ـ وساعدت فى مجال تدريب الشباب السعودى • وبدأ اتجاه أدى الى ظهور غالبية عظمى تضم طبقة راقية جديدة سعودية تتلقى على الأقل جانبا من التعليم فى الجامعات الأمريكية • وكان من الطبيعى أن تلعب شركات أمريكية من بينها شركة بشتيل Bechtel الشهيرة دورا بارزا فى تنمية المرافق والبنية الأساسية الجديدة بالمملكة • وبعد أن اتضح أن العربية السعودية تمتلك حوالى ربع الاحتياطى البترولى فى العالم

وفقا للتقديرات العلمية فان العلاقات السعودية/الأمريكية أصبحت أكثر عمقا وأهمية ٠

وكان الأمير أحمد الحاكم على الكويت المتسم بالذكاء والدهاء قد دخل في مفاوضات مطولة مع كل من : شركة أبوك APOC وشركة الخليج الأمريكية للبترول بشأن منح امتياز للتنقيب عن البترول ٠ ولكن الاجتماعات كانت تتم على فترات متباعدة نظرا لأن شركات البترول كانت تخفض من استثماراتها أثناء فترة الكساد العالمى الاقتصادى ٠ كما أن اصرار بريطانيا على ابعاد الشركات غير البريطانية كان يشكل أيضا عقبة شديدة ٠ ومع ذلك ففى عام ١٩٣٢ ووفقا للسابقة التى حدثت فى البحرين اضطرت بريطانيا فى نهاية الأمر الى الرضوخ للضغوط الأمريكية الشديدة ووافقت على اتخاذ سياسة « الباب المفتوح » بالنسبة لشركات البترول الأمريكية فى الكويت ٠ ومع اكتشاف البترول فى البحرين ومع ابرام الاتفاقية السعودية مع استاندرد أويل فى السنة التالية بدأت الأمور تسير بخطوات سريعة ٠ وبعد مفاوضات مطولة جرت خلف الستار وافقت كل من : شركة أبوك APOC وشركة الخليج للبترول على دفن خلافاتهما وتشكيل تحالف من أجل عقد مفاوضات مشتركة كشريكين متساويين يرغبان فى الحصول على امتياز ٠ ومن أجل هذا الغرض قامتا بتكوين شركة بترول الكويت KOC على أساس من المناصفة ٠ وبعد عقد المزيد من المفاوضات المطولة والتى حارب خلالها الأمير أحمد بنجاح لكى يقلل من حجم السيطرة السياسية التى كانت بريطانيا تصر على فرضها على شركة كوك KOC من خلال اتفاقية منفصلة أبرمتها مع الشركة فانه تم التوقيع على امتياز لمدة ٧٥ عاما يغطى كافة أراضى الكويت فى ديسمبر ١٩٣٤ ٠

أما باقى المشيخات العربية الواقعة على الجانب الغربى من الخليج فكانت لها اتفاقيات معاهدة مع بريطانيا وحدها ٠ الا أن الحكومة البريطانية كانت لا تزال تشعر بالخوف من احتمال قيام

أحد الحكام المستقلين تماما بالتصرف وفق السابقة التي أرساها الملك ابن سعود الذى قام بمنح امتياز لشركة أمريكية بحتة · ولذلك تم تشكيل شركة تسمى « الامتيازات البترولية المحدودة » وتضم شركات أنجلو/هولندية وأمريكية وفرنسية لها أنصبة بنفس النسبة المتواجدة فى شركة بترول العراق وذلك من أجل القيام بالتفاوض · وقام حاكم قطر بمنحها امتيازا فى عام ١٩٣٥ · الا أن حكام دول الهدنة الستة Trucial States [أطلق عليها هذا الاسم منذ عقد هدنة فى عام ١٨٥٣ مع بريطانيا تعهدت بمقتضاها بالتخلى عن الحروب والصراعات البحرية] لجأوا الى المساومة والمراوغة من أجل الحصول على شروط أفضل وبرهنوا على أنهم أكثر تشددا · وتطلب الأمر استخدام وسائل للضغط متنوعة ــ بما فى ذلك التهديد بمصادرة أساطيل صيد اللؤلؤ الخاصة بهم على أساس أنهم مازالوا متورطين فى تجارة العبيد ــ الى أن رضخوا وأذعنوا فى نهاية الأمر · وكان آخر من أذعن من هؤلاء الحكام ــ وذلك فى عام ١٩٣٩ ــ هو حاكم أبو ظبى الشيخ شخبوط Shakhbut الذى كان قد أصبح بمثابة أسطورة فى الخليج نظرا لأنه عقب توليه الحكم فى عام ١٩٢٨ قد نجح فى اعادة الاستقرار والأمن فى أبى ظبى عقب مرور عشرين عاما من النزاع الوحشى القبائلى · وكان واثقا من تواجد البترول فى الأراضى الخاصة به ــ حيث كانت فقاقيع من البترول قد شوهدت حول بعض جزر أبى ظبى التى يبلغ عددها ٢٠٠ جزيرة ــ وأشار خبراء البترول الى أنها أكثر الدول التى تبشر بظهور البترول بين دول الهدنة الستة · ولذلك دخل فى مفاوضات ومساومات صعبة ومتشددة من أجل أن يمنح امتيازا · وكان عليه أن ينتظر لمدة عشرين عاما قبل أن يتضح أنه على صواب فى رأيه ولكن البترول بعدئذ عثر عليه بكميات هائلة ·

وفى العربية السعودية والكويت وقطر اكتشف البترول بكميات اقتصادية قبل نشوب الحرب العالمية الثانية بوقت قصير

ولكن الموقف تطلب تأجيل تنمية انتاجه لحين انتهاء الحرب . وعلى كل حال كان من الواضح بالفعل فى عام ١٩٣٩ أن الأراضى المحيطة بالخليج الفارسى سـوف تصـبح لها أهمية هائلة من النـاحية الاستراتيجية والاقتصـادية . وبحلول النصف الثانى من القرن العشرين وصلت احتياطيات هذه الأراضى من البترول والغاز الطبيعى الى حوالى ٢/٣ من جميع تلك الاحتياطيات التى اكتشفت .

الفصل العاشر

الحرب العالميــة الثانيــة ونتائجهــا

The Second World war and its Afternath

لقد تورط الشرق الأوسط بشدة فى الحرب العالمية الثانية ـ ١٩٣٩ ـ ١٩٤٥ وهى ذروة ما وصف فى دقة بأنها الحرب الأهلية الأوربية التى دامت ثلاثين عاما ـ مثلما سبق له أن تورط فى الحرب العالمية الأولى ١٩١٤ ـ ١٩١٨ • فقد كانت الجمهورية التركية واقفة على الحياد • وكانت الدول/الأمة nationstate شبه المستقلة الجديدة والتى تكونت من الأقاليم العربية للامبراطورية العثمانية غير مشاركة فى الحرب • الا أنها كانت واقعة تحت الاحتلال البريطانى أو الفرنسى • وبالتالى كانت تقع فى داخل نطاق منطقة الحرب • وكانت الحياة السياسـيـة متجمدة الى درجة كبيرة طـوال فترة الحرب •

ومثلما حدث فى الحرب العالمية الأولى • كان الاحتفاظ بالهند له أهمية كبرى من الناحية الاستراتيجية والسياسية بالنسـبة لبريطانيا • كما كانت حماية الامدادات البترولية الواردة من ايران تحظى بالاهتمام الثانى الكبير • ومرة أخرى أصبحت مصر بمثابة القاعدة البريطانية العظمى بمنطقة البحر الأبيض المتوسط • ومع

التزام تركيا وايران بالوقوف على الحياد بدت منطقة الشرق الأوسط وكأنها متمتعة بالأمن والأمان بعض الشيء . وأدرك البريطانيون فى شيء من الارتياح أن العرب الفلسطينين لن يسببوا لهم الارباك أثناء انشغالهم فى الحرب ضد ألمانيا وذلك نتيجة للكتاب الأبيض الذى أصدرته بريطانيا عن فلسطين فى عام ١٩٣٩ .

الا أن الموقف تغير بسبب دخول ايطاليا فى الحرب لصالح ألمانيا فى يونيو ١٩٤٠ . اذ دخلت القوات البريطانية المتواجدة فى مصر فى معارك ضد الايطاليين المتواجدين فى ليبيا كما أن القوات البريطانية فى السودان بدأت تقاتل الحاميات العسكرية الايطالية المتواجدة فى أريتريا . ثم شنت الطائرات الايطالية غارات جوية على مصر وتوقع الأهالى فى مصر احتمال وقوع غزو شامل على نطاق واسع . ومثلما حدث فى عام ١٩١٥ تم احضار تعزيزات عسكرية من استراليا ونيوزيلندا وجنوب افريقيا . وصممت بريطانيا على ابعاد قوات المحور عن منطقة شرق البحر الأبيض المتوسط مما جعلها نضطر الى تحويل الدبابات من بريطانيا الى مصر فى فترة ذروة توقع قيام هتلر بغزو بريطانيا .

وكانت المعارك فى صحراء مصر الغربية تسير فى موجات من الكر والفر أو التقدم والانسحاب . وفى سبتمبر ١٩٤٠ دخل الايطاليون الى مصر ووصلوا الى سيدى برانى . وفى نهاية نفس هذا العالم أحرز البريطانيون بعض الانتصارات المثيرة وأرغموا الايطاليين على التراجع الى ليبيا . ولكن مع وصول تعزيزات ألمانية تمكنت قوات المحور التى أصبحت تحت قيادة الجنرال روميل من الدخول الى مصر مرة أخرى فى اريل ١٩٤١ . وفى خلال الشهر التالى تمكن الألمان من الاستيلاء على جزيرة كريت . فأصبحت السيطرة البريطانية على منطقة شرق البحر الأبيض المتوسط محفوفة بالمخاطر .

وتضاعف الخطر بالنسبة لبريطانيا بسبب الموقف فى سوريا والعراق . فعلى الرغم من أن العراق قطع العلاقات مع ألمانيا فى

سبتمبر ١٩٣٩ نجد أن مجموعة وطنيـة من المدنيين والعسكريين الذين يكرهون الانجليز أصبحت مسيطرة على نحو متزايد بعد أن تشجعت بسبب الانتصارات الرائعة التى أحرزتها ألمانيا فى فرنسا ٠ وفى مارس ١٩٤١ تمكنت هذه المجموعة من الاستيلاء على السلطة من خلال انقلاب عسكرى وأصبح رشيد على الجيلانى رئيسا للوزراء فى حكومة لها نزعات موالية للمحور ٠ واضطر الوصى على العرش نورى السعيد وغيره من الشخصيات السياسية البارزة للفرار الى خارج البلاد ٠ ثم رفضت الحكومة العراقية الطلب الذى تقدمت به بريطانيا لنقل قواتها عبر العراق وفقا لبنود وشروط المعـاهدة الأنجلو / عراقية ٠ فأدى ذلك الى عداوات علنية مكشوفة ٠ وأحاطت قوات عراقية بالقاعدة العسـكرية البريطانية المتواجدة فى الحسبانية ٠ الا أن الرأى العام العراقى كان منقسما وغير محدد المعالم ٠ كما أن وعود المحور بتقديم التدعيم للثوار جاءت متأخرة أكثر من اللازم بالاضافة الى أن المساعدات كانت ضئيلة للغاية ٠

وتم انزال قوة هندية صغيرة فى البصرة لكى تنضم مع قوات عربية تابعة لشرق الأردن وتحت قيادة جلوب باشا ٠ فتعرضت الثورة للانهيار عقب مرور أسابيع قليلة ٠ وهربت حكومة رشيد على وعاد الوصى على العرش ٠ ثم تعاونت سلسـلة متعاقبة من الحكومات العراقية مع الحلفاء طوال الفترات المتبقية من الحرب ٠

وعقب سقوط فرنسا فى عام ١٩٤٠ أصبحت سوريا ولبنان تحت اشراف حكومة فيشى Vichy ٠ وأعلنت بريطانيا على الفور أنها لن تسمح لألمانيا بأن تحتل هاتين الدولتين التابعتين للمشرق العربى ٠ الا أن حكومة فيشى التى كانت تحرص على الحصول على أكبر قدر من التنازلات من ألمانيا أصـدرت تعليمات للجنة العليا ببيروت بأن تتعاون تعاونا كاملا مع المحور ٠ ووصلت الأمور الى ذروتها فى يونيو ١٩٤١ عندما تقرر السماح لطائرات ألمانية تتجه لتقديم المساعدة للرشيد على بالعراق باستخدام المطارات السورية ٠

وفى ٨ يونيو ١٩٤١ قامت قوات بريطانية بالاشتراك مع قوات فرنسا الحرة التابعة للجنرال دى جول بشن غزو على ثلاثة محاور من فلسطين • وعلى الرغم من ظهور بعض المقاومة العنيدة من جانب قوات فيشى الا أن القتال لم يستمر سوى ستة أسابيع وبعدها تم التوقيع على اتفاقية هدنة • وتم تخيير قوات فيشى ما بين الانضمام لقوات فرنسا الحرة أو اعادتها الى وطنها فرنسا •

وبدأت الدلائل تشير الى أن الحلفاء سوف يكسبون فى الحرب وذلك بعد أن دخل الاتحاد السوفيتى فى الحرب فى يوليو ١٩٤١ وبعد أن دخلت أمريكا فى الحرب أيضا فى ديسمبر ١٩٤١ وفى شتاء ١٩٤١/١٩٤٢ تم ارغام قوات المحور مرة أخرى على التراجع الى ليبيا • الا أن أسود اللحظات الحالكة بالنسبة لبريطانيا قد جاءت بعد ذلك : فمع الانتصارات اليابانية فى الشرق الأقصى مما شكل تهديدا على ملايا Mlalaya والهند جاء الدور على القوات البريطانية فى الصحراء الغربية لكى تحرم من الدبابات التى تم تحويلها فى اتجاه الشرق • وفى يناير ١٩٤٢ تمكن روميل مرة أخرى من البدء فى التقدم نحو مصر •

وكانت مشاعر الشعب المصرى تجاه الحرب مختلطة • اذ كانت الغالبية العظمى من رجال السياسة ضد فكرة اعلان الحرب على ألمانيا ، اما لأنهم كانوا يشعرون أن الحرب ليست هى حرب مصر واما لأنهم كانوا يعتقدون أن الحلفاء لن ينتصروا فى الحرب • ومن ناحية أخرى نجد أن مصر قد أوفت بكافة التزاماتها وفقا للبنود والشروط الواردة فى المعاهدة الأنجلو/مصرية • وتم اعتقال كافة المواطنين الألمان المقيمين فى مصر • كما وضعت الممتلكات الألمانية تحت المصادرة •

ولم يكن لدى الملك فاروق مشاعر ودية خاصة تجاه ألمانيا ولكن الكثيرين من حاشيته كانوا من الايطاليين كما أن على ماهر وهو رئيس

وزرائه المفضل لديه كان يعرف عنه أنه متعاطف مع المحور • وعندما رفض على ماهر اتخاذ اجراءات ضد الأشخاص الايطاليين قام السفير البريطانى السير ميلز لا مبصون بممارسة ضغوط على الملك لكى يطرد على ماهر من وظيفته • فأذعن الملـــك فاروق على مضـــض واستبدل على ماهر باثنين متعاقبين شـــغلا منصب رئيس الوزراء وتميزا بأنهما أكثر تعاطفا مع قضية الحلفاء • وفى أغسطس ١٩٤١ تولت قوات مصرية مهمة الحراسة فى منطقة قناة السويس •

ولكن كان هناك كثيرون فى مصر ـ بالاضافة الى الملك ـ ممن ظلوا متشككين فى نتائج الحرب للغاية مما جعلهم يشعرون بأنه ينبغى على مصر أن تكون لها حكومة تميل أكثر نحو الحياد وذلك كضمان فى حالة انتصار المحور • بل وذهب آخرون الى ما هو أبعد من ذلك حيث اعتقـــدوا بأنه ينبغى على مصر أن تعمل تماما على مساعدة المحور لكى يحرز الانتصار • ومن بين هؤلاء الجنرال عزيز المصرى رئيس الأركان المصرى وضابط شاب يسمى أنور السادات • وتم ضبط السادات وهو متلبس بالعمل لصالح جمعية سرية موالية للألمان بمعرفة المخابرات البريطانية وألقى القبض عليه •

ولم يكن رئيس الوزراء البريطانى تشرشل يتحلى بالصبر ازاء مشاعر الوطنيين المصريين ولم يكن لديه أى صبر نحوهم فى وقت الحرب • وكان يشتكى باستمرار من أن المصريين لا يتخذون التدابير الكافية ضـــد عملاء العدو الذين « يغيرون » على قناة السويس • وبمجرد أن أدرك تشرشل أن ولاء الجيش المصرى مشكوك فيه ازاء قضية الحلفاء فانه أصر على ارجاع القوات المصرية من الصـــحراء الغربية الى الدلتـــا وعلى ضرورة طرد الجنرال عزيز المصرى من وظيفته • وأصبح أى احتمال للسماح للملك فاروق بارجاع على ماهر للسلطة أمرا غير وارد ولا مجال للبحث فيه •

ووصلت الأزمة بين بريطانيا والملك الى الذروة فى أوائل عام ١٩٤٢ • فتحت الضغوط التى مارسها الحلفاء قررت الحكومة قطع

العلاقات مع حكومة فيشى الفرنسية • وكان الملك آنئذ غير متواجد بالقاهرة ولم يتم الحصول على مشورته • فانفجر فى غضب شديد وأرغم رئيس وزرائه على تقديم استقالته • ونظرا لأن استبداله بعلى ماهر كان سيعتبر أمرا مثيرا للاستفزاز أكثر من اللازم فانه أبدى عزمه على تعيين ماهر كعضو فى حكومة بحيث يكون هو المتمتع بالسلطة الحقيقية • ومن ناحية أخرى كان لامبسون يرغب فى أن يتم تعيين حكومة وفدية • وكان روميل يحرز تقدما فى سيرين Cyreenaica وكانت صيحات « يعيش روميل » تدوى فى شوارع القاهرة • وكان لامبسون يدرك أن حزب الوفد يمكن له أن يقدم تدعيما فعالا للحلفاء لأنه يتمتع بشعبية هائلة فى جميع أرجاء البلاد • وكان يدرك أيضا أن الملك فاروق سيرفض عودة الوفد الى الحكم لأنه يكره حزب الوفد •

وتمكن لامبسون من الحصول على تأييد الحكومة البريطانية والرؤساء العسكريين لاستخدام القوة • وقام بتوجيه انذار للملك بأنه اذا رفض تكليف النحاس باشا بتشكيل حكومة بحلول الساعة السادسة مساء فانه سوف يواجه فى مساء اليوم التالى [الموافق ٢ فبراير] « النتائج المترتبة على ذلك » • وعندما انتهت فترة الانذار بدون الحصول على رد أصدر لامبسون أوامره للقوات والعربات المدرعة البريطانية بمحاصرة قصر عابدين • ثم شق طريقه لكى يقابل الملك وقد حمل معه وثيقة تنازل عن العرش لكى يوقع عليها الملك • واضطر الملك أخيرا للاذعان والرضوخ فى الساعة الواحدة بعد الظهر ووافق على تكليف النحاس باشا بتشكيل الحكومة • وشعر لامبسون بالضيق لأنه كان يأمل فى أن يتمكن من التخلص نهائيا من الملك فاروق •

وكان هذا الاذلال للنظام الملكى حدثا يشتمل على بذور التطور فى تاريخ مصر الحديث • فعلى الرغم من الأخطاء الكثيرة التى ارتكبها الملك الا أنه كان لايزال يجسد شخصية مصر • ولذلك تفجر الغضب

بين الوطنيين المصريين • وطلب ضابط كبير واحد وهو الجنرال محمد نجيب من الملك السـماح له بأن يقدم استقالته من الجيش المصرى • كما أن الملازم أول جمال عبد الناصر البالغ من العمر ٢٤ عاما والمتواجد آنئذ فى السودان كان واحدا من مجموعة من الضباط الشبان الذين بدأوا يحلمون باتخاذ اجراءات لتجديد واحياء الجيش المصرى •

وفى هذه اللحظة الحاسمة من حرب الصحراء كانت بريطانيا تهتم أساسا بتأمين الجبهة الداخلية فى مصر • واستمرت قوات روميل فى التقدم الى أن وصلت على مسافة ٦٠ ميلا من الاسكندرية • وقام بضعة آلاف من الجنود البريطانيين المصابين بالارهاق وانخفاض الروح المعنوية بالهرب والاختفاء فى دلتا النيل • وقامت السـفارة البريطانية بالقـاهرة بحرق أوراقها وملفاتها فأصـيب المدنيون البريطانيون المقيمون فى مصر بالهلع الشديد • وتم ارسال النساء والأطفال البريطانيين بالقطار الى فلسطين • ولكن النحاس باشـا وحكومته وضـعوا قدرهم ونصـيبهم فى كفة بريطانيا وتمالكوا أعصابهم • وقامت حكومة النحاس باعتقال جميع الناس المتعاطفين مع المحور بما فى ذلك على ماهر باشـا • ورفضوا تقبل حتمية الاحتلال الألمانى رغم قيام راديو روميل بالاعلان فى انتصار عن أن الوصول الى القاهرة أصبح وشيكا •

وفى أغسطس ١٩٤٢ جاء تشرشل الى القاهرة وتقرر أن يتولى الجنرال مونتجمرى قيادة الجيش الثامن • وفى ٢٣ أكتوبر نشبت معركة العلمين التى تعتبر نقطة تحول فى الحرب حيث كانت بمثابة بداية تدهور المحور فى الشرق الأوسط • ففى خلال سبعة شهور كانت البقايا المتبقية من القوات الألمانية والايطالية قد غادرت شمال افريقيا • وابتعدت المعارك الحربية عن مصر ومع ذلك أصبحت مصر بمثابة قاعدة حربية للحلفاء أكثر اتساعا عن ذى قبل حيث كان يوجد بها حوالى ٢٠٠ ألف جندى سواء أكانوا فى حالة اقامة متمركزة أو

فى حالة عبور أو قضاء الأجازات · بل وظهر التواجد الأمريكى بشكل ملحوظ حيث نجد أن المركز الأنجلو / أمريكى لامدادات الشرق الأوسط قد جعل من مصر مركزا للمجهود الحربى للحلفاء فى الشرق الأوسط وشمال افريقيا ·

وكان رضا شاه ملك ايران أقل حظا من الملك فاروق · اذ كانت بلاده لها نفس أهمية مصر من الناحية الاستيراتيجية بالنسبة للحلفاء كما أن التقدم والزحف الألمانى الهائل عقب غزو الاتحاد السوفيتى فى يونيو ١٩٤١ قد زاد من احتمال قيام الألمان باحتلال ايران وحقول البترول الايرانية · ونظرا لأن روسيا وبريطانيا كان لهما تاريخ طويل امبريالى عدوانى من وجهة نظر الايرانيين فان المشاعر الوطنية وخاصة بين الطبقة الحاكمة وكبار ضباط الجيش كانت متعاطفة مع الألمان · وكان الحكم النازى قد بدأ ينتهز الفرصة ويستفيد من هذه الأوضاع قبل نشوب الحرب · اذ لعبت الشركات الألمانية دورا قياديا فى عمليات التصنيع الايرانية وأصبحت الدعاية الألمانية قوية وأصبح العملاء النازيون نشطاء فى جميع أرجاء ايران ·

وبمجرد أن دخل الاتحاد السوفيتى فى الحرب بدأ يطالب بضرورة كبح جماح العملاء الألمان والمخربين · فلجأ رضا شاه الى أمريكا لكى تساند وقوف ايران على الحياد · ولكن أمريكا على الرغم من أنها كانت لاتزال غير مشتركة فى الحرب كانت ملتزمة بالفعل من خلال قانون الاعارة والتأجير لعام ١٩٤١ (١) بامداد الاتحاد السوفيتى بالأسلحة عبر ايران · وكانت وشنجتن غير متعاطفة مع ايران وحثت رضا شاه على تقديم المساعدات للحلفاء « من أجل ايقاف طموح هتلر الذى يرغب فى غزو العالم كله » ·

---

(١) قانون صادر فى ١١ مارس ١٩٤١ قدمت أمريكا بموجبه كافة المساعدات المادية الى الدول الحليفة التى تحارب ألمانيا وايطاليا ·

ووصلت الأزمة الى ذروتها عندما رفضت الحكومة الايرانية رسميا طلبا مشتركا سوفيتيا وبريطانيا بارسال امدادات من الأسلحة عبر ايران الى الاتحاد السوفيتي • وفى ٢٥ أغسطس ١٩٤١ قامت قوات سوفيتية وبريطانية بغزو ايران فى وقت واحد من جهة الشمال ومن جهة الجنوب • وكانت العراق بمثابة قاعدة حربية ملائمة ينطلق منها الغزو البريطاني عقب استبدال حكومة رشيد على بحكومة أخرى موالية للبريطانيين • ولم يكن بمقدور القوات الايرانية تقديم مقاومة كبيرة • وفى ١٦ سبتمبر تنازل رضا شاه عن العرش لصالح أكبر أبنائه محمد رضا بهلوى البالغ من العمر ٢٣ عاما • وفى يناير ١٩٤٢ تم ابرام معاهدة تحالف ثلاثية مع بريطانيا والاتحاد السوفيتي تعهدت بمقتضاها كل من بريطانيا والاتحاد السوفيتي « باحترام سلامة أراضى ايران وسيادة ايران واستقلالها السياسى والدفاع عن ايران بكل الوسائل ضد العدوان اذا طلب الايرانيون ذلك » • وقامت بريطانيا والاتحاد السوفيتي بتحديد المناطق الخاصة بكل منهما حيث احتل البريطانيون الجنوب والوسط والغرب واحتل الروس الأقاليم الثلاثة الشمالية : أذربيجان وجيلان ومزانداران •

وطالب الروس بحق التدخل وفقا لشروط المعاهدة الفارسية / السوفيتية لعام ١٩٢١ • الا أن الاتفاقية الجديدة أشارت الى أن القوات السوفيتية والبريطانية التى سمح لها بالبقاء فى الأراضى الايرانية لا تشكل احتلالا ويتم سحبها فى خلال فترة لا تزيد عن ستة شهور عقب انتهاء الحرب • وفى مقابل ذلك تعهدت ايران بتقديم مساعدات حربية غير محدودة للحلفاء • وفى سبتمبر ١٩٤٣ أعلنت ايران الحرب على ألمانيا • وفى ديسمبر قام كل من ستالين وروزفلت وتشرشل بعقد أول اجتماع مشترك بينهم فى طهران وأصدروا بيانا عبروا فيه عن « رغبتهم فى الحفاظ على استقلال وسيادة وسلامة أراضى ايران » •

وتزايد الدور الأمريكى فى ايران على نحو مضطرد أثناء

الحرب . وبحلول عام ١٩٤٥ أصبح يوجد فى البلاد ٣٠ ألف جندى أمريكى رغم أنهم لم يكونوا من المحاربين وانما كانوا يقومون بمهمة ارسال ونقل الامدادات الى روسيا وتشغيل خط السكة الحديد الايرانى كما كانوا يشكلون جزءا من القوات البريطانية المسئولة عن تطبيق القانون والمحافظة على الأمن والنظام فى ايران .

ردود الفعل فى الشرق الأوسط : القومية Nationalism
نظرية الجامعة العربية الشاملة Pan-Arabism + الاسلام :-

لقد أدى استسلام ايطاليا فى عام ١٩٤٣ وزوال التهديد الألمانى بغزو منطقة الشرق الأوسط الى تدعيم مركز بريطانيا فى الشرق الأوسط . الا أن الموقف الجديد كان يعنى أيضا أن بريطانيا أصبحت أقل مقدرة على استخدام مقتضيات الحرب الملحة فى مجال احكام السيطرة على التطورات السياسية . وصحح أن الأقلية من أهالى الشرق الأوسط ـ سواء أكانوا من العرب أو الايرانيين ـ الذين كانوا يعتمدون على أن نجاح المحور سيضمن تلبية مطالبهم القومية قد أحبطت آمالهم الا أن هذا لم يكن يعنى أن غالبية أهالى الشرق الأوسط قد تخلوا عن أهدافهم الرامية الى ازالة السيطرة الأوربية على منطقة الشرق الأوسط .

وكان الموقف فى سوريا ولبنان غير عادى من حيث أن بريطانيا قد ساعدت حكومة فرنسا الحرة التابعة لشارل دى جول لكى تحل محل حكومة فيشى فى عام ١٩٤١ على أساس أن فرنسا سوف تعترف باستقلال هاتين الدولتين . وقد أعلن ذلك الجنرال كاتروكس Catroux مندوب دى جول قبل الغزو الذى قامت به قوات حكومة فرنسا الحرة ووقعت بريطانيا على الوثيقة وأضافت عبارة غامضة بعض الشىء تفيد بأن بريطانيا سوف تعترف بأن فرنسا كان لها وضع متفوق على الدول الأوربية الأخرى بمجرد تنفيذ الوعود بمنح الاستقلال .

الا أن شارل ديجول لم يكن يعتقد بأن « فرنسا الحرة » قد حررت سوريا ولبنان من أجل أن تتركهما • وكان يرغب فى عقد معاهدات معهما ترتكز على اتفاقيات عام ١٩٣٦ التى كانت غير كافية من حيث منح الاستقلال • ورفض السوريون بالاجماع فكرة ابرام معاهدة مع فرنسا • وكانوا يرغبون فى تصعيد الأمور بحيث تصبح على شكل أزمة كبيرة فى الوقت الذى تكون فيه القوات البريطانية مازالت متواجدة •

وحتى فى لبنان نجد أنه على الرغم من اعتماد المارونيين بشكل تقليدى على حماية الفرنسيين لهم فان رغبتهم فى الاستقلال كانت واضحة وسائدة • كما أن الطبقات الجديدة المشتغلة بالتجارة سواء من المسيحيين أو المسلمين كانت تشعر بأنها قوية بالقدر الكافى وبالتالى فهى ليست فى حاجة الى حماية من الفرنسيين كما كانت تكره القيود التى فرضها الانتداب على أنشطتهم • وفى عام ١٩٤٣ تم التوصــــل الى « تحالف وطنى » غير مكتوب بين بعض الزعماء المسيحيين والمسلمين ينص على أنه ينبغى على لبنان أن تبقى مستقلة فى داخل نطاق الحدود القائمة ولكن يجب عليها أيضا أن تتبع سياسة خارجية عربية مستقلة • كما أن الانتخابات التى أجريت فى نفس ذلك العام قد أدت الى فوز أولئك الذين عارضوا الانتداب واقترحت الحكومة الجديدة أن يزال من الدستور تلك الفقرات التى تشير الى السيطرة الفرنسية على البلاد • ورد الفرنسيون على ذلك بأن قاموا بالقاء القبض على رئيس الجمهورية اللبنانية ومعظم أعضاء الحكومة • وبعد أن واجه الفرنســيون الاضطرابات الشــعبية والاحتجاجات العــالمية والانذار البريطانى اضــطروا الى التراجع والاذعان • وتم اطلاق سراح الوزراء • وتم بالفعل تعديل الدستور •

وأيضا أسفرت الانتخابات فى سوريا فى عام ١٩٤٣ عن فوز الوطنيين • وعلى مضض وعلى نحو تدريجى بدأ الفرنسيون فى نقل سلطات الانتداب فى سوريا ولبنان الى الحكومتين الجديدتين بهما •

ولكن الفرنسيين لم يفقدوا الأمل تماما • اذ حرصوا على وضـــع القوات المسلحة اللبنانية والسورية المحلية تحت سيطرة القيادة العليا الفرنسية كوسيلة لانتزاع معاهدات فى فترة ما بعد الاستقلال • وعندما نزلت فى مايو ١٩٤٥ فرقة سنغالية فى بيروت اعتقــد السوريون ـ وكانوا على حق فى اعتقادهم ـ أن فرنسا تهدف الى الابقاء على السيطرة العسكرية عقب رحيل البريطانيين • وتفجر القتــال فى دمشق • وقام الفرنســيون بقصف دمشق بالقنابل والمدافع • فصدر انذار بريطانى آخر مما أرغم القوات الفرنسية على العودة الى ثكناتها • وعلى الرغم من أن هذه القوات قد ظلت باقية لمدة عام آخر فان حكم فرنسا فى المشرق العربى قد انتهى • وفى عام ١٩٤٦ انضمت سوريا ولبنان الى عضوية الأمم المتحدة كدولتين مســـتقلتين •

وبعد أن اعترفت الولايات المتحدة الأمريكية والاتحاد السوفيتى بالاستقلال السورى واللبنانى لم يعد لديهما الاستعداد للموافقة على استمرار سيطرة فرنسا على سوريا ولبنان • ولكن فرنسا اعتقدت أن بريطانيا هى المسئولة الأولى عن ابعادها عن المشرق العربى • وبعد مرور عشرين عاما نجد أن الجنرال ديجول قد اتخذ بعض الاجراءات الانتقامية من خلال استخدام حق الفيتو ورفض الموافقة على انضمام بريطانيا الى السوق الأوربية المشتركة •

وكانت مصر هى مركز النفوذ البريطانى فى الشرق الأوسط • ولكن بعد تنصيب حكومة الوفد لم تعد السياسة الداخلية فى البلاد تشغل قدرا كبيرا من اهتمامات البريطانيين • وعلى الرغم من أن حزب الوفد كان لايزال واثقا تماما من أنه يعبر عن الارادة الشعبية الا أنه كان حساسا من ناحية الاتهامات القائلة بأنه قد وضع فى الحكم بمعرفة البريطانيين • وأشار الوفد الى أنه يدافع عن قضية تمصير الدولة واضفاء الطابع المصرى عليها • وأصر حزب الوفد على جعل اللغة العربية اجبارية بالنســبة لكافة المراســلات الحكومية

والمحاسبات التجارية مما أثار ضيق البريطانيين والجاليات الأجنبية الأخرى • الا أن النحاس باشا كان لايزال فى حقيقة الأمر معتمدا على مساندة لامبصون من أجل منع الملك المشتاق للانتقام من طرده من السلطة • وحقيقة الأمر أن حزب الوفد كان قد أصبح مشوها بسبب انتشـــار الفساد والفضائح العامة مما جعله يفقد تفوقه وسيطرته تدريجيا • وفى نفس الوقت تعاظمت مكانة بعض القوى غير الممثلة فى البرلمان المصرى • وكان أهمها وأخطرها جماعة الاخوان المسلمين • كما أن التضخم المالى الشديد بالاضافة الى تواجد قوات الحلفاء قد تسبب فى ظهور المزيد من الاستياء الشعبى والكراهية نحو الحكومة • كما كانت طبقة كبار ملاك الأراضى الزراعية يزدادون غنى وثراء • ومثلما حدث أثناء الحرب العالمية الأولى ظهرت طبقة جديدة غنية من التجار ورجال الصناعة حيث كانوا يقومون بتزويد القوات الأجنبية بالسلع والخدمات • ولكن الغالبية العظمى من الشعب المصرى كانت تزداد غرقا فى مستنقع الفقر •

وفى أكتوبر ١٩٤٤ انتهز الملك فاروق فرصة غياب لامبصون عن مصر وقام بطرد النحاس باشا واستبدله بأحمد ماهر وهو شقيق على ماهر ولكنه معتدل ومختلف تماما عن على ماهر • وأصر رئيس الوزراء الجديد على أنه ينبغى على مصر أخيرا أن تعلن الحرب على ألمانيا وذلك لكى تضمن أن تصبح عضوا فى منظمة الأمم المتحدة المقرر انشائها • وفى يوم ٢٤ فبراير ١٩٤٥ أعلن أحمد ماهر فى البرلمان المصرى اعلان مصر للحرب على ألمانيا • فاغتيل أثناء مغادرته مبنى البرلمان • وتشير التقديرات الى أن خطة الاغتيال قد وضعت بمعرفة الجناح الارهابى الجديد لجماعة الاخوان المسلمين • وبذلك أصبح الاغتيال السياسى من الملامح الجديدة التى ظهرت فى الحيـــاة المصرية •

وشعر المصريون المنتمون لكافة الأحزاب السياسية المصرية أنه ينبغى تقديم مكافأة لمصر على مساهمتها فى المجهود الحربى للحلفاء

بأن تقوم بريطانيا بالجلاء عن البلاد تماما والموافقة على قيام وحده بين مصر والسودان • ولكن على الرغم من أن المصريين كانوا يأملون فى أن يصبح حزب العمال البريطانى الذى كان قد صعد الى السلطة توا أكثر تعاطفا مع الآمال الوطنية المصرية الا أن حكومة حزب العمال الجديدة كانت مهتمة أساسا بالحفاظ على السيطرة العسكرية البريطانية فى الشرق الأوسط بل وكانت غير مستعدة لاجراء تعديلات على معاهدة عام ١٩٣٦ لأنها كانت تشعر أن هذه المعاهدة قد صمدت أمام اختبارات الزمن • وكانت القوات البريطانية الكلية الوجود والمتواجدة باستمرار بالقاهرة تذكر المصريين باستمرار الاحتلال • وأصبح حزب الوفد الذى يتزعم المعارضة حريصا على تجديد مواقفه الوطنية • لذلك قام بتشجيع الثورة والاهتياج ضد البريطانيين • وفى فبراير ١٩٤٦ تفجرت مظاهرات واضرابات أدت الى ثورة عنيفة شارك فيها الاخوان المسلمون والشيوعيون والوفديون •

وتم استدعاء صدقى باشا العجوز — لكنه كان لا يزال مرعبا — لكى يتولى منصب رئيس الوزراء فى البلاد • فعمل على السيطرة على المظاهرات • ولكن استمرت بعض الهجمات ضد الجنود والمدنيين البريطانيين • فأصر صدقى باشا على ضرورة أن تدخل بريطانيا فى المفاوضات مع المصريين • وفى هذه المرة أصبحت حكومة حزب العمال البريطانية على استعداد للتفاوض • فأشارت وزارة الحربية البريطانية والمعارضة البريطانية المتمثلة فى حزب المحافظين البريطانى برئاسة ونستون تشرشل الى أن مصر تعتبر بمثابة قاعدة غربية أساسية بالنسبة لنظام الدفاع الاقليمى • ثم نشبت أزمة مع الاتحاد السوفيتى تتعلق بايران أدت الى بداية ما يعرف باسم الحرب الباردة • الا أن وزير الخارجية البريطانى ارنست بيفين Ernest Bevin كان على استعداد للموافقة على مبدأ التفاوض بشرط امكان تنشيط قاعدة السويس فى حالة تجدد الحرب فى الشرق الأوسط] والتى أصبحت تعنى الآن من وجهة نظر الدول

الغربية قيام السوفيت بغزو لاحدى دول الشرق الأوسط] • ووافق الفيلد مارشـــال مونتجمرى الذى قام بزيارة لمصر فى صيف عام ١٩٤٦ على أن بريطانيا يمكن لها أن تقوم بالجلاء عن قاعدة السويس بشرط أن تحتفظ بقوات لها فى فلسطين وليبيا وقبرص • الا أنه أشار فى شؤم منذر بالسوء الى « أنه ينبغى على بريطانيا أن تبقى قوية ومسيطرة فى السودان من أجل مواجهة أية مشكلات تنشأ مع المصريين » • وأوضح أنه من الضرورى « السيطرة على النيل الذى يعتبر دماء الحياة أو شريان الحياة بالنسبة مصر » •

وظل العائق القديم الذى يعرقل انها الاحتلال فى مصر قائما • وعلى الرغم من أن صدقى توصل الى اتفاق بسرعة مع بيفين بشأن جلاء بريطانى شامل فى خلال ثلاث سنوات الا أنهما راحا يقدمان تفسيرات خاطئة تتعلق بمسألة السودان • وقالا أن اتفاقية الحكم المشـــترك الأنجلو/مصرى على السودان لعام ١٨٩٩ ستظل سارية المفعول الى أن يتم التوصل — من خلال مشاورات مع السودانيين — الى اتفاقية جديدة مشتركة بشأن الوضع المستقبلى فى السودان « فى اطار من الوحدة بين السودان ومصر تحت التاج المشترك لمصر » •

وفسر المصريون ذلك على أساس أنه يعنى أن بريطانيا قد تقبلت فاروق ملكا على مصر والسودان • الا أن الحكومة البريطانية — من خلال تأييد شديد من جانب الموظفين البريطانيين المتواجدين فى السودان — سرعان ما أوضحت أنها ليست لديها مثل هذا الاتجاه • وبدلا من ذلك بدأت تخلق اتجاهات نحو قيام الســـودانيين بحكم أنفسهم بأنفسهم • وظلت العلاقات الأنجلو/مصرية متدهورة مثلما كانت عليه من قبل • وقامت بريطانيا من جانب واحد بتنفيذ جزء من اتفاقية صدقى/بيفين حيث تم انسحاب كافة القوات من الدلتا الى منطقة قناة السويس • الا أن العدد الاجمالى للجنود البريطانيين كان يزيد على سبعة أضعاف العدد المنصوص عليه فى معاهدة ١٩٣٦ وهو عشرة آلاف مقاتل •

وفي مارس ١٩٤٥ كان قد تم انشـــاء جامعة الدول العربية بتشجيع ومباركة من جانب بريطانيا · وكان المقر الرئيسى لها متواجدا بالقاهرة كما كان الأمين العام لجامعة الدول العربية مصريا · ولكن الدول الأعضـــاء المؤسسة وهى الدول العربية التى حصلت على الاستقلال : مصر والعراق والمملكة العربية السعودية وشرق الأردن واليمن وسوريا ولبنان تكفلت بألا تصبح جامعة الدول العربية بمثابة اتحاد فيدرالى بأى حال من الأحوال · واحتفظت كل دولة عضوة بســـيادتها التامة كما أن القرارات التى يتخذها مجلس الجامعة العربية كانت ملزمة بالنسبة لتلك الأعضاء التى صوتت بالموافقة عليهـــا ·

وعلى الرغم من أن جامعة الدول العربية كانت مستلهمة من الناحية النظرية من نظرية وحدة العرب الشاملة Pan-Arab الا أن هذه النظرية ظلت بمثابة أيديولوجية هشة وغير متطورة · وطوال الفترات التى ظلت فيها الامبراطورية العثمانية متواجدة على قيد الحياة كانت الغالبية العظمى من العرب ـ مهما كانت شكواهم من ظلم الأتراك ـ تفترض أن الامبراطورية يجب أن تظل زعيمة للعالم الاســـلامى · ولم يكن يفكر فى الانفصال عن الامبراطورية العثمانية سوى العرب المسيحيين المتواجدين بالمشرق العربى والذين لم يكن لديهم مثل هذا الولاء · وكان هناك عدد قليل من المثقفين العرب مثل رشيد رضا أو الكواكبى ممن ذهبوا الى أن الأتراك قد أضاعوا حقهم فى قيادة المسلمين · وأن الاسلام سيلقى خدمة أفضل من خلال العودة الى الخلافة العربية · الا أن هذا الرأى لم يتعمق على الاطلاق بحيث يصبح برنامجا لعمل سياسى ·

أما النزعة العربية الشاملة Pan-Arabism التى نادى بها الشريف حسين عندما فجر ثورته العربية فكان لها طابع العفويه والصدفة والتخلف علاوة على أنها كانت مســـتقاة من طموحاته الشخصية وطموحات أسرته · ولذلك نجد أن مطالبته بأن يكون

ملكا على جميع العرب لم تلق استجابة الا من عدد قليل للغاية ٠ وفى خلال الفترة البهيجة القصيرة التى عين فيها الأمير فيصل ملكا على سوريا فانه حاول الابقاء على حياة فكرة النزعة العربية الشاملة Pan-Arab ٠ اذ قال فى مايو ١٩١٩ « نحن شعب واحد نعيش فى المنطقة التى يحدها البحر من جهة الشرق والجنوب والغرب ويحدها جبال توروس Taurus من جهة الشمال » ٠ والأهم من ذلك أنه يحلو له أن يقول « نحن عرب قبل أن نكون مسلمين ومحمد عليه الصلاة والسلام هو شخص عربى قبل أن يكون نبيا » ٠ وكان هذا القول الأخير هو الأساس الذى ارتكزت عليه القومية العربية العلمانية فيما بعد ٠ ولكن فى خلال سنة واحدة تم طرد فيصل من سوريا وعلى الرغم من أن البريطانيين قاموا بتنصيبه على عرش العراق الا أن الشعوب العربية التى كان يتحدث عنها كانت منقسمة على بعضها بسبب الحدود الوطنية الجديدة التى تفصل كل دولة عن الأخرى ٠

ولذلك ففى خلال السنوات التى أعقبت الحرب العالمية الأولى كان يوجد هناك اتجاهان متعارضان بين عرب المشرق العربى ٠ وكان أحد هذين الاتجاهين يتمثل فى تنمية وتطوير القومية الاقليمية بالدول القومية الجديدة التى أصبحت منهمكة فى الكفاح من أجل حصولها على الاستقلال التام عن فرنسا أو انجلترا ٠ وتطلب هذا خلق هوية قومية وتم تدعيم هذه الهوية من خلال طموحات ومنافسات الزعماء القوميين ٠ وكان بيت سعود يشعر بالعداء والشكوك ازاء الهاشميين كما كانت هناك منافسات وصراعات بين الهاشميين بالعراق والهاشميين فى شرق الأردن ٠

أما الاتجاه المعارض فكان يتمثل فى النزوع الى وحدة عربية شاملة ترتكز على المشاعر التى يشعر بها جميع العرب الى حد ما والتى تفيد بأنهم جميعا قد تم تقسيمهم على نحو اصطناعى بهدف اضعافهم وابقائهم تحت النفوذ والسيطرة الغربية ٠ فالوحدة من

وجهة نظرهم أمر ضرورى للغاية من أجل حماية العرب واحيـــائهم ونهضتهم • وقد حصل هذا الاتجاه على المزيد من التدعيم القوى من خلال أحداث فلسطين • فالوعى المتزايد بأن الصهاينة ـ بمساعدة من الغرب ـ يهدفون الى الاستيلاء على أكبر مساحة ممكنة من أرض فلسطين العربية كان بمثابة أقوى العوامل التى أدت الى حشد الرأى العام العربى الذى لاقى الاحباط ولكنه لم يكبت من خلال الحقيقة التى مفادها أنه ليس بالامكان تقديم مساعدات فعالة من أجل مساعدة العرب الفلسطينيين •

وكان الاسلام ولايزال هو العنصر الفعال على نحو فذ وغريب من نوعه فى القومية العربية • فالمجاهدون الاسلاميون من أمثال جماعة الاخوان المسلمين قد أشاروا الى أنه لا يوجد هناك تعارض بين القومية العربية والاسلام طالما أن جميع المسلمين من كافة الأجناس البشرية ابتداء من الصين حتى مراكش كانوا أعضاء فى نفس الأمة الاسلامية الكبرى • وحاول المثقفون المؤمنون بنظرية الجامعة العربية الشاملة Pan-Arab البرهنة بما يفيد العكس من ذلك أى البرهنة على أن الاسلام والقومية العربية مشتملان على بعضهما البعض بالتبادل • وكما أشار عبد الرحمن عزام وهو أول شخص يشغل منصب أمين عام جامعة الدول العربية فى احدى محاضراته فى عام ١٩٤٣ فان المثل العليا للاسلام كانت هى نفس تلك المثل العليا الخاصة بالقومية العربية الحديثة والأمة العربية والتى تهدف الى اتخاذ مكانها الصحيح فى العالم واستئناف الرسالة التى بدأها محمد صلى الله عليه وسلم • ولكن الجدل كان زائفا الى درجة كبيرة • فالمجاهدون الاسلاميون بالدول العربية كانوا يركزون على الاحياء الاسلامى بين اخوانهم العرب • ومن ناحية أخرى فان القومية العربية لم يكن بمقدورها أبدا أن تكون علمانية فى طابعها وبنفس الدرجة المتواجدة فى الجمهورية التركية فى عهد أتاتورك [أو حتى بنفس الدرجة المتواجدة فى ايران فى عهد رضا شاه] لسبب بسيط وهو

أن الاسلام جزء لا يتجزأ من الحضارة العربية والثقافة العربية ٠ ومن هنا نجد أن ميشيل عفلق وهو المدرس الشاب السورى المسيحى الذى وضع أيديولوجية حزب البعث الذى أسسه فى دمشق فى الأربعينات من عام ١٩٤٠ قد أشار الى أن الاسلام كان بمثابة نزعة دائمة فى حياة الأمة العربية وقال لأتباعه : « ومحمد كان هو المثال أو القدوة ولايزال كذلك لجميع العرب ٠ ولذلك ينبغى أن نرحب بأن يكون جميع العرب فى هذه الأيام مسلمين » ٠ ومن ناحية أخرى نجد أن مندوبى بيت سعود المسئولين عن الحفاظ على الأماكن المقدسة الاسلامية ٠ لم يكن لديهم فى أى وقت من الأوقات أية مشكلة بشأن التوفيق بين آمالهم العربية وآمالهم الاسلامية حيث كانوا يذكرون تلك الآمال العربية والاسلامية فى آن واحد وفى نفس اللحظـــة ٠

وفى العشرينات من عام ١٩٢٠ والثلاثينات من عـــام ١٩٣٠ أبعدت مصر نفسها عن أى نزعة نحو نظرية الجامعة العربية الشاملة Pan-Arab وذلك بموافقة من اخوانها العرب ٠ اذ كان يوجد فى مصر صراع بين النزعة الفرعونية وبين المثل العليا لحركة الجامعة الاسلامية الشاملة Pan-Islam ٠ وقد قدم طه حسين الكاتب المصرى الكبير وجهة نظر متطرفة ٠ اذ أشار الى أنه على الرغم من أن مصر يمكن لها أن تكون جزءا من أوربا بمقتضى ثقافتهـــا الحالية الا أنها فرعونية الطابع فى تراثها وتقاليدها ـ وهى لم تكن بالتأكيد جزءا من الشرق الاسلامى ٠ الا أن معظم المصريين لديهم مشـــاعر مختلطة وحرصوا على الابقاء على تحمســـهم الوطنى لمصريتهم مع استلهام مفهوم الوحدة الاسلامية فى نفس الوقت ٠ وكان مصطفى كامل الزعيم الوطنى المصرى الذى ظهر فى نهاية عهد كرومر من نفس هذا النـــوع ٠ الا أن حركة الجـــامعة العربية الشـــاملة Pan-Arabism لم تكن تشكل اغراء للمصريين بوجه عام ٠ اذ نجد أن سعد زغلول قاطع عزام باشا الذى كان يتحدث معه عن

الوحدة العربية بأن وجه اليه هذا السؤال : « اذا قمت باضافة صفر الى آخر ثم قمت باضافة صفر ثالث ٠ فما هو حاصل الجمع الذى ستحصل عليه ؟ » ٠

الا أن الموقف تغير تدريجيا اعتبارا من الثـــلاثينات من عام ١٩٣٠ فصاعدا ٠ اذ تزايد عدد المصريين - ومن بينهم عزام باشا - الذين بدأوا يدركون الدور الكامن الذى يمكن أن تقوم به مصر بمجرد تحررها من السيطرة البريطانية ٠ كما توصل الى نفس هذا الرأى عرب آخرون بالدول العربية المجاورة ٠ اذ نجد أن ساطع الحصرى وهو الكاتب المولود فى حلب والذى اصطحب الأمير فيصل من سوريا الى العراق والذى قام بجهود أكبر مما قام بها أى شخص آخر من أجل الدعاية والترويج لفكرة الوحدة العربية قد أشار فى عام ١٩٣٦ الى أن الطبيعة قد منحت مصر كافة الخصـــائص التى تجعلها قادرة على تولى قيادة وزعامة الحركة الوطنية العربية ٠

والتحول نحو النظر الى القاهرة على أنها قاعدة للنزعة العربية الشاملة Pan-Arabism لم يكن يؤمن به الزعمـــاء العرب أو الجماهير العربية بما فى ذلك جماهير الشعب المصرى نفسه ٠ بل ولم يكن هناك اتفاق فى الرأى بشأن ضرورة النظر الى المصريين على أنهم عرب ٠ ففى ديسمبر ١٩٤٢ نجد أن نورى السعيد قد وضع مشروعا لتوحيد سوريا ولبنان وفلسطين وشرق الأردن مع اعطاء « شبه حكم ذاتى » لليهود المتواجدين فى فلسطين وذلك كخطوة أولى نحو الوحدة العربية ٠ ولم تكن مصر متضمنة فى مشروع نورى السعيد ٠ كما أن المشروع الآخر الذى اقترحه المستعرب البريطانى د٠ سانت جون فيلبى - وهو صديق ومستشار ابن سعود - كان من أجل أن يصبح العاهل السعودى رئيسا على اتحاد فيدرالى عربى يضم دولة يهودية متمتعة بالحكم الذاتى فى فلسطين ٠ ولقى هذا المشروع ترحيبا من المسيحى الصهيونى ونســـتون تشرشل ومن الزعامة الصهيونية ٠ ومرة أخرى نجد أن مصر قد استبعدت من ذلك

المشروع · ولكن على الرغم من النفوذ الكبير لابن سعود والذى جعل كلا من تشرشل وروزفلت يعتقدان أنه بمثابة « ملك العرب » فان مثل هذه المشروعات كانت كلها غير متسمة بالطابع العملى وذلك بسبب العداوة والخصـــومة المستمرة بين السعوديين والهاشميين مما جعل من المتعذر أن يتقبل أى طرف منهما قيادة الطرف الآخر ·

وعلى كل حال كانت وزارة الخارجية البريطانية تؤيد تواجد علاقات وثيقة بين الدول العربية بشرط أن يتم الحفاظ على المصالح الغربية · والسبب الرئيسى فى ذلك هو أن بريطانيا كانت تعتقد أنه من الأسهل أن يتم حل المشكلة الفلسطينية من خلال اطار عربى واسع · وابتداء من مايو ١٩٤١ فصاعدا نجد أن أنتونى ايدن وزير الخارجية البريطانى قد أصدر بيانات متكررة تشير الى أن بريطانيا تحبذ أى مشروع ينال موافقة عامة بين العرب من أجل تدعيم الروابط الثقافية والاقتصادية والسياسية بين الدول العربية · ثم بدأت بريطانيا تعتقد أن مصر ــ من حيث هى المكان الذى يتواجد فيه مركز امدادات الشرق الأوســـط ومن حيث هى مركز المجهـــود الحربى للحلفاء بمنطقة الشرق الأوســـط ــ تعتبر أفضل مقر لأى اتحاد فيدرالى عربى يتم تحت الرعاية الغربية · وعلاوة على ذلك نجد أن حكومة الوفد برئاسة النحاس باشا والتى كانت متحالفة مع بريطانيا أثناء فترة الحرب قد بدأت تميل الى انشاء اتحاد عربى برئاسة مصر · كما كان الملك فاروق مصمما على ضرورة عدم اغفال مصر وعدم اهمالها · وعلى مضض بدأ نورى السعيد والقادة العرب الآخرون يتقبلون الأمر المحتوم : وهو أنه لا توجد هناك دولة عربية بديلة يمكن لها أن تحل محل مصر · وكان آخر عمل قامت به حكومة الوفد قبل طردها من الســـلطة فى أكتـــوبر ١٩٤٤ هو التوقيع على بروتوكول الاسكندرية مع الدول الست العربية الأخرى المستقلة مما أدى الى انشاء جامعة الدول العربية فى السنة التالية ·

وفى حين كان العرب والايرانيون الذين يشكلون أغلبية ساحقة يسعون الى ازالة النفوذ والسيطرة الأوربية فى أعقاب الحرب كانت هناك مجموعة واحدة فى الشرق الأوسط لها أولويات مختلفة : ألا وهم اليهود الصهاينة • وعندما نشبت الحرب كانت آمالهم فى انشاء دولة يهودية مستقلة فى فلسطين قد تضاءلت نتيجة لحدوث ذلك التغير فى السياسة البريطانية والذى ورد فى الكتاب الأبيض لعام ١٩٣٩ • وتزايدت مشاعر الغضب والمرارة لديهم • ومع ذلك فانهم كانوا مصممين على مساعدة بريطانيا فى حربها ضد النازيين • ورفع دافيد بن جوريون — وهو الزعيم الصهيونى الذى أصبح بعد ذلك أول من يشغل منصب رئيس الوزراء فى اسرائيل — الشعار القائل بأن اليهود سيحاربون الكتاب الأبيض كما لو لم يكن هناك حرب وسيخوضون الحرب كما لو لم يكن هناك الكتاب الأبيض • وانضم حوالى ٢٧ ألف يهودى فلسطينى الى القوات البريطانية أثناء الحرب ولكن آخرين من اليهود اعتقدوا بأنه يمكن لهم خدمة قضيتهم على نحو أفضل من خلال انشـــاء الهاجاناه وهو الجيش الصهيونى شبه السرى فى فلسطين • وأعطت الحرب قوة دافعة نحو تنمية صناعة الذخيرة اليهودية التى كانت تزود القوات البريطانية بالذخيرة فى عام ١٩٤٣/٤٢ ولكنها أدت الى تقوية الصهاينة مستقبلا • واستمر البريطانيون فى رفض المطالب الصـــهيونية المتعلقة بتكوين جيش يهودى يرفع العلم الصهيونى لكى يحارب الى جوار الحلفاء •

وبعد زوال خطر الغزو الألمانى عقب هزيمة روميل فى معركة العلمين وبعد أن بدأت الأخبار تتسرب من أوربا فى نفس الوقت عن الأعمال الوحشية التى يرتكبها هتلر ضد اليهود تحول الصهاينة بفلسطين الى الوقوف ضد بريطانيا على نحو حاسم • وازداد غضب اليهود الصهاينة بعد أن قامت بريطانيـــا بترحيـــل عدد قليـــل من المهاجرين اليهود الذين تمكنوا من الوصول الى فلسطين بطريقة غير شرعية وبدأوا يلقون باللوم على بريطانيا وحدها بسبب الفشل فى

انقاذ الشعب اليهودى الأوربى • وتزايدت أعمال المقاومة المناهضة للبريطانيين فى فلسطين • بل وقامت مجموعة منشقة على الاتجاه السائد للهاجاناة بالانضمام الى عصابة ستيرن Stern الأكثر تطرفا من أجل القيام بهجمات على نطاق واسع وصلت الى الذروة لدى اغتيال اللورد موين Moyne وزير الدولة البريطانى بالقاهرة فى نوفمبر ١٩٤٤ • فغضب تشرشل لأنه كان صديقا حميما لموين وقرر التخلى بصفة مؤقتة عن موقفه المؤيد للصهيونية منذ فترة طويلة •

وأدت الحرب أيضا الى اجراء حاسم يتمثل فى نقل المقر الرئيسى للصهيونية الدولية من بريطانيا الى الولايات المتحدة الأمريكية • وكان حاييم فايتسمان مازال يعتقد بأن آمال الصهاينة فى تحقيق أهدافهم معقودة على بريطانيا ولكنه اضطر للرضوخ لرأى الجيل الجديد بزعامة بن جوريون والذى بدأ يتطلع الى القوى العظمى الأمريكية التى يمكن لها أن ترغم بريطانيا على الاذعان • وتم عقد مؤتمر تتمثل فيه جميع درجات وظلال الفكر الصهيونى فى فندق بلتيمور بنيويورك فى مايو ١٩٤٤ • وأسفر المؤتمر عن اصدار بيان ينص على العمل على اطلاق الهجرة اليهودية بدون أية قيود وتحويل فلسطين الى دولة كومنولث يهودية « مندمجة فى كيان العالم الديموقراطى الجديد » •

ومن ناحية أخرى ظل عرب فلسطين ملتزمين بالهدوء الى درجة كبيرة أثناء الحرب • بل انضم حوالى ١٢ ألف مقاتل فلسطينى الى القوات البريطانية • وهرب الحاج أمين الحسينى من بغداد عقب سقوط حكومة رشيد على • وذهب الى ألمانيا حيث حاول من هناك تعبئة الرأى العام الاسلامى لصالح قضية المحور • ولكنه لم يحدث سوى تأثيرات قليلة •

وبعد أن وصلت للسلطة فى بريطانيا حكومة تابعة لحزب العمال فى عام ١٩٤٥ ازدادت آمال الصهاينة لأن حزب العمال كان

قد عارض الكتاب الأبيض لعام ١٩٣٩ بل وكان قد أصدر بيانا فى عام ١٩٤٤ يشير الى أن العرب ينبغى عليهم الخروج من فلسطين لدى دخــول اليهود اليها • ولكن ما أن صــعدت حــكومة أتلى Attlee الى السلطة حتى وجدت نفسها تواجه حقائق معقدة ومروعة • وكانت بريطانيا من الناحية الاســمية احدى الدول الثلاث العظمى التى انتصرت فى الحرب ولذلك فان حــكومة حزب العمال لم يكن لديها النية ـ شــأنها فى ذلك شأن حكومة المحافظين ـ فى التخلى عن موقعها المتصدر للمائدة • وفى منطقة الشرق الأوسط التى أحرز فيها البريطانيون انتصارا واضحا بدت بريطانيا على نحو يشير بأنها الدولة ذات السلطة العليا • وحقيقة الأمر أن بريطــانيا كانت قد أصبحت مرهقة وفقيرة بسبب الحرب بل وأصبحت تواجه اضمحلالا فى دورها بالاضافة الى أن القرار الخطير الذى اتخذته حكومة العمال بمنح الاســتقلال للهند فى عــام ١٩٤٧ قد أدى الى تقويض مركز بريطانيا من حيث هى قوة عالمية • وفى نفس الوقت كانت بريطانيا تواجه مشكلات فى أوربا ناجمة عن توسع الامبراطورية السوفيتية فى أوربا الشرقية وانهيار التحالف الذى كان قائما مع ســتالين أثناء فترة الحرب مما أدى الى تفجر الحرب الباردة • وفى الشرق الأوســط كانت بريطــانيا تواجه مطالب مصر بانهاء الاحتــلال البريطانى • وكان بالمستطاع العثور على قواعد عسكرية بديلة فى منطقة شرق البحر الأبيض المتوسط ولكن هذا لم يكن يقدم حــلا للمشكلة الفلسطينية التى أصبحت مستعصية •

والأفكار التى عرضت فى الكتاب الأبيض لعام ١٩٣٩ والتى تشير الى أن فلسطين ستصبح دولة عربية / يهودية مزدوجة القومية ذات حكومة يسيطر عليها العرب قد تدمرت بسبب هتلر • فبعد أن هزم هتلر ظهرت ضغوط ساحقة تشير الى أنه ينبغى السماح لليهود الذين تبقوا على قيد الحياة عقب « الهولوكاست » بالهجرة واللجوء

الى فلســطين • ولم تكن الدول الغربية مثـل أمريكا ولا القيـادة الصهيونية ترغب لهم فى الذهاب الى أى مكان آخر •

وكان وزير الخارجية البريطانى ارنست بيفين مازال يعتقد بأنه يمكن التوصل الى حل لمشكلة فلسطين من خلال المفاوضات • وفى غير تبصر أبلغ مجلس العموم البريطانى بخطته وقال « اننى أراهن بمستقبلى السياسى على حل مشكلة فلسطين » • ولكنه كان يرغب فى أن تشارك معه أمريكا فى تحمل المسئولية • وبمجرد أن انتهت الحرب بعث الرئيس ترومان ببرقية للحكومة البريطانيـة يطلب فيها السماح فورا بدخول مائة ألف يهودى الى فلسطين • اذ كان الكونجرس الأمريكى يرغب فى اطلاق الهجرة الى فلسطين بدون قيود أو شروط • وفى نوفمبر ١٩٤٥ أعلن بيفين عن تشكيل لجنة أنجلو / أمريكية لتقصى الحقائق • فأوصت هذه اللجنة فى ابريل ١٩٤٦ باستمرار الانتداب على فلسطين وانشاء دولة موحدة متكاملة والغاء القيود على بيع الأراضى والسماح الفورى بدخول مائة ألف يهودى الى فلسطين - بما يفيد العودة الى سـياسة عام ١٩٢٢ • وانتقدت اللجنة تواجد قوات سرية يهودية وقدرت حجم هذه القوات بحوالى ٦٥ ألف مقاتل وأوصت بضرورة نزع سلاح هؤلاء المقاتلين•

ورأت الحكومة البريطانية أن هذه التوصـيات غير متسـمة بالطابع العملى • ولكنها وافقت على اجراء بعض المناقشات التى تتعلق بالحكم الذاتى اليهودى والعربى • ولدى اسـتمرار بريطانيـا فى جهودها الرامية الى منع الهجرة اليهودية غير الشرعية قامت المنظمات السرية اليهودية بتكثيف أنشطتها التى وصلت الى الذروة عنـدما تم فى يوليو ١٩٤٦ تفجير فندق الملك داود بالقدس الذى يضم المكاتب المدنية والعسكرية البريطانية •

وفى تلك الأثناء كانت الدول العربية السبع المستقلة تحاول اتخـاذ اجراءات تهدف الى الحيلولة دون وقـــوع كارثة عربية فى

فلسطين • واجتمع رؤساء هذه الدول فى مصر فى مايو ١٩٤٦ وأصدروا بيانا أكدوا فيه من جديد على الطابع العربى لفلسطين • ثم عقدوا اجتماعا آخر فى يونيو فى سوريا • واتخذوا قرارات سرية تنص على تهديد المصالح البريطانية والأمريكية فى الشرق الأوسط اذا تم تجاهل الحقوق العربية فى فلسطين •

وواجهت الحكومة البريطانية ورطة شديدة يتعذر عليها الافلات منها • اذ كان الرأى العام البريطانى فى بريطانيا منقسما ما بين المتعاطفين الصهيونيين وأولئك الغاضبين بسبب الأعمال الوحشية التى يرتكبها الصهاينة فى فلسطين • وفى الشرق الأوسط كانت كافة المصالح البريطانية فى العالم العربى ستتعرض للتهديد والأخطار فى حالة السماح للصهاينة بالاستيلاء على فلسطين • الا أن بريطانيا كانت واقعة تحت ضغوط هائلة من جانب أمريكا من أجل السماح بحدوث هجرة يهودية جماعية ضخمة • وفى نفس الوقت كانت بريطانيا فى فترة ما بعد الحرب معتمدة اعتمادا كبيرا على وشنجتن من الناحية المالية • [وتدعيما لنظرية ترومان للتدخل الأمريكى فيما وراء البحار والتى أعلن عنها فى خطاب موجه للكونجرس فى ١٢ مارس ١٩٤٧ طلب الرئيس ترمان من الكونجرس تقديم المساعدة ـ وهى المساعدة التى لم يعد بمقدور بريطانيا تقديمها ـ من أجل تمكين اليونان وتركيا من الحفاظ على استقلالهما فى مواجهة التهديدات السوفيتية] • وبعد أن أقدمت بريطانيا على محاولة أخرى فاشلة بشأن التوصل الى موافقة عربية ويهودية على خطة مشتركة بينهما فانها ألقت بالمشكلة كلها على كاهل الأمم المتحدة فى فبراير ١٩٤٧ •

وفى أغسطس ١٩٤٧ صدر تقرير حصل على أغلبية الأصوات عن اللجنة الخاصة للأمم المتحدة بشأن فلسطينUNSCOP• وأوصى هذا التقرير بتقسيم فلسطين الى دولة عربية وأخرى يهودية مع الابقاء على توحيدهما من الناحية الاقتصادية ومع تدويل القدس

والضواحى التابعة لها • ووافقت الجمعية العامة للأمم المتحدة على هذه التوصيات حيث حصلت على التـأييد من جانب ٣٣ صوتـا والرفض من جانب ١٣ صوتـا وامتنـاع عشرة أصوات عن الادلاء بالرأى • وبذلك أصدرت الجمعية العامة قرارها رقم ١٨١ فى ٢٩ نوفمبر ١٩٤٧ • وقد صدر ذلك القرار لأن كلا من أمريكا والاتحاد السوفيتى اللتين كانتا تسيطران آنئذ على الأمم المتحدة قد صوتت لصالح القرار وكانتا على استعداد لممارسة الضغوط • وكان الاتحاد السوفيتى فى ذلك الوقت ينظر الى الكفاح الصهيونى فى فلسطين على أنه بمثابة احدى حركات التحرير المناهضة للامبريالية • ولم يصوت ضد القرار سوى الدول الأسيوية الاسـلامية • واقترح العرب الاسـتفسار من محكمة العدل الدولية عن مدى اختصاص الجمعية العمومية فى تقسيم دولة ضد رغبة الغالبية من سـكانها [فى عام ١٩٤٦ بفلسطين كان عدد العرب ٠٠٠ ٢٦٩ر١ بينما كان عدد اليهود ٦٧٨٠٠٠] الا أن ذلك الاقتراح رفض بأغلبية ضئيلة •

ورحب الصهاينة بالتقسيم لأنه يعنى الاعتراف باقامة دولة يهودية • هذا بالاضافة الى أن مساحة الدولة اليهودية وفقا لخطة التقسيم كانت تغطى ٥٥٪ من المساحة الكلية لفلسطين ـ ولو أنها كانت تضم مساحة كبيرة من الأراضى الصحراوية المتمثلة فى صحراء النقب الواقعة فى الجزء الجنوبى من فلسطين ـ فى حين أن ممتلكات اليهود من الأراضى كانت لا تزال أقـل من ٨٪ من المسـاحة الكلية للبلاد • أما العرب فكانوا ـ كعادتهم دائما ـ يعارضون مشروع التقسيم ولكنهم كانوا يشعرون بالمزيد من الغيظ والمرارة لأن المشروع المقترح باقامة دولة يهودية كان سيجعل الدولة اليهودية تشتمل على عدد كبير من السكان العرب مماثل لعدد اليهود بها •

وكانت بريطانيا قد أعلنت بالفعل فى سبتمبر ١٩٤٧ عزمها على ترك الانتداب على فلسطين فى ١٥ ابريل ١٩٤٨ • ولم تكن الأمم المتحدة قد تقدمت باقتراحات تتعلق بالكيفية التى سيتم بها

تقسيم فلسطين أو تمويل عملية التقسيم . كما أن بريطانيا رفضت تنفيذ سياسة غير مقبولة من الطرفين كما رفضت المشاركة فى لجنة الأمم المتحدة بشأن فلسطين والتى كان يفترض لها أن تقوم بالاشراف على فلسطين خلال الفترة الانتقالية . واكتفت بريطانيا بتسليم السلطة للمجتمع الذى كان يتألق فى صعود وتفوق على المجتمع الآخر . ونظرا لأن الكوادر العربية كانت غير متوفرة بوجه عام بالمقارنة مع الكوادر اليهودية فان النظام كان متوفرا على نحو أفضل فى الأماكن اليهودية . وتفجر القتال الجماعى الطائفى على الفور . وسرعان ما تطور ووصل الى مرحلة حرب أهلية شاملة لدى تفكك ورحيل الادارة البريطانية .

وبعد أن واجهت أمريكا هذه الكارثة نجد أنها تراجعت وأعلنت معارضتها لفكرة التقسيم الاجبارى الاكراهى لفلسطين . وفى ٣٠ مارس ١٩٤٨ وجهت الدعوة الى عقد هدنة واجراء المزيد من البحث فى هذه المشكلة بمعرفة الجمعية العامة للأمم المتحدة . ولكن اليهود الصهاينة بدأوا يخشون من احتمال أن تغير أمريكا سياستها الموالية لهم فقرروا مضاعفة جهودهم الرامية الى انشاء الدولة الصهيونية الخاصة بهم . وأصبحت عصابة ايرجون Irgun الصهيونية المتطرفة وعصابة ستيرن Stern تتعاونان مع الهاجاناة . وتم البدء فى تنفيذ الخطة الرئيسية التى تعرف باسم : خطة داليت Pla n Dalet والتى تهدف الى الاستيلاء على معظم مساحة فلسطين . وتم شن الهجمات ضد القرى العربية المتواجدة فى أماكن استيراتجية . وتمكن جيش تحرير عربى يضم ثلاثة آلاف متطوع من خارج فلسطين من احراز بعض النجاحات الأولية الا أنه لم يستطع أن يفعل سوى القليل أمام قوات الصهاينة المتفوقة الى درجة هائلة . وتقوضت الروح المعنوية للمدنيين العرب بسبب الهجمات الصهيونية الضارية والحرب النفسية التى شنها الصهاينة والتى استغلت التقارير الواردة عن المذبحة التى قام بها أفراد من عصابة ايرجون الصهيونية

في ١٠ مايو في قرية دير ياسين وتمكنوا من ذبح ٢٥٠ مواطنا من أهالي هذه القرية · واستولى الصهاينة على طبرية Tiberias وحيفا وعكا Acre ويافا ومساحة كبيرة من القدس العربية · واضطر حوالى ٤٠٠ لاجيء فلسطيني الى الفرار في ذعر في اتجاه الدول العربية المجاورة ·

وفي ١٤ مايو رحل آخر مندوب سامي بريطاني عن فلسطين · وبذلك انتهى الانتداب البريطاني على فلسطين رسميا · وعلى الفور أعلن الصهاينة انشاء دولة اسرائيلية · وفي خلال ٢٤ ساعة حصلوا على الاعتراف بالأمر الواقع من جانب الاتحاد السوفيتي والولايات المتحدة لأمريكية ·

وفي وقت مبكر من يوم ١٥ مايو عبرت وحدات من جيوش نظامية تابعة لسوريا وشرق الأردن والعراق ومصر حدود فلسطين على أمل اعادة الوضع الى ما كان عليه والذي كان في صالح العرب ·

وهذا العمل المليء بالعزم والتصميم الظاهري والذي قامت به الدول العربية المستقلة كان يخفي وراءه الشقاق والخلاف المميت الذي يجتاح الدول العربية · لقد صدر قرار بالاجماع من جامعة الدول العربية ينص على التدخل في فلسطين الا أن الوحدة بين الدول العربية لم تكن سوى واجهة · اذ لم تكن هناك رابطة فعالة بين الجيوش العربية · ولم تعمل هذه الجيوش في توافق وتشاور وانسجام· كما أن قدراتها العسكرية لم تكن تعكس التفوق العربي الكاسح من حيث العدد حيث كان ٤٠ مليون عربي يواجهون حوالى ٦٠٠ ألف يهودي صهيوني · واذا نظرنا الى ميادين المعارك نجد أن مصر كان لها عشرة آلاف جندي نظامي والفيلق العربي التابع لشرق الأردن كان يضم ٤٥٠٠ مقاتل وسوريا كان لها ثلاثة آلاف مقاتل والعراق ثلاثة آلاف مقاتل ولبنان كان لها ألف مقاتل · وكانت الأسلحة التي يستخدمها العرب اما بريطانية أو فرنسية ·

وفي حالة جيش شرق الأردن كان رئيس الأركان هو الجنرال جلوب البريطاني كما كان كبار ضباط الجيش من البريطانيين • ويشير أحد رجال الدولة العرب المتبقين على قيد الحياة الى ان الجيوش العربية في ذلك الوقت لم تكن تصلح الا فى أداء العروض العسكريه أثناء الاحتفالات الرسمية • وكانت هذه الجيوش العربية تواجه حوالي ٦٠ ألف جندى يهودى مسلحين ومدربين بل وكان الكثيرون منهم قد سبق له الاشتراك فى معارك حقيقية رغم أن سلطات الانتداب لم تعترف بهم رسميا على الاطلاق فى أى وقت من الأوقات•

وكان بعض زعماء العرب وخاصة في سوريا والعراق يجهلون الموقف تماما لدرجة أنهم كانوا يتوقعون تحقيق انتصار سهل للغاية على الصهاينة • أما الملك عبد الله فكان هو أول زعيم عربى لديه فكرة واقعية وحقيقية عن القوة الكبيرة للصهاينة • ولقد ظل لبعض الوقت يجرى مفاوضات سرية مع الزعماء الصهاينة بل وكان قد كون معهم ما يمكن أنه يسمى بتحالف استيراتيجي يفضى بتمكينه من الاستيلاء على الجزء الغربى من فلسطين وابعاد الزعماء الفلسطينيين الوطنيين من أمثال الحاج أمين الحسينى وأقاربه الذين كانوا يشعرون بالعداء ازاء الهاشميين • كما كان رئيس الوزراء المصرى النقراشي باشا – وهو لم يكن لديه تلك الثقة بالنفس التى كان يتمتع بها النحاس باشا الطموح – تساوره الشكوك أيضا ازاء تحقيق انتصار عربى • بل ولم يكن لديه أوهام عن مدى كفاءة القوات المسلحة المصرية وقدرتها على انجاز الغرض المطلوب • الا أن الرأى العام المصرى كان فى حالة من الاثارة الشديدة • كما كانت جماعة الاخوان المسلمين ترغب فى الدخول فى المعارك لصالح فلسطين كما أن الحاج أمين الحسينى الذى كان متواجدا بالقاهرة آنئذ قد أحدث تأثيرا قويا • ومن الأمور البالغة الأهمية أن الملك فاروق كان مصمما على ضرورة دخول الجيش المصرى فى الحرب •

وفى حالة انهيار المقاومة الصهيونية فان الملك عبد الله ربما كان سيضطر الى الاستمرار فى القتال الى أن يتم خنق دولة اسرائيل الوليدة فى مهدها • الا أن الهدف الذى أعلنته الحكومات العربية كان يقتصر على استعادة الأمن والنظام وحماية مساحة الـ ٤٥٪ من البلاد التى خصصت للعرب الفلسطينيين وفقا لخطة التقسيم التى وضعتها الأمم المتحدة •

وفى بادىء الأمر سارت الأمور على ما يرام بالنسبة للجيوش العربية وذلك أثناء قيامها باحتلال الأراضى التى لم يكن اليهود قد سيطروا عليها بعد • اذ دخل المصريون نمرة وبئر سبع وتلاقوا مع الفيلق العربى التابع لشرق الأردن بالقرب من بيت لحم • وكان الفيلق العربى مع حلفائه العراقيين قد استولوا على القطاع الأوسط من فلسطين وحاولوا فرض حصار على الجزء الغربى اليهودى من القدس رغم أنهم كانوا غير قادرين على قطع الطريق تل أبيب / القدس مما كان يشكل كارثة بالنسبة للعرب •

وتمكن الوسيط التابع للأمم المتحدة الكونت فولك برنادوت السويدى الجنسية من التوصل الى وقف لاطلاق النيران لمدة أربعة أسابيع ابتداء من ١١ يونيو • ثم قدم مقترحات بهدف التوصل الى تسوية سلمية • ولكن الجانبين رفضا مقترحاته • وعندما استؤنف القتال تمكن اليهود من فك الحصار على القدس الغربية • وحققوا انتصارات مبهرة فى كافة القطاعات تقريبا بل واستولوا على الناصرة Mazareth والجليل الغربى وهما من المناطق التى كانت قد خصصت للعرب • وتم توجيه نداء آخر لوقف اطلاق النيران فى ١٨ يوليو ولكنه لم يصبح سارى المفعول • وعندما توقف القتال فى نهاية الأمر فى يناير ١٩٤٩ أصبح اليهود يحتلون صحراء النقب بالكامل وحتى الحدود المصرية / الفلسطينية السابقة باستثناء قطاع غزة المطل على الساحل وأصبح العراقيون والأردنيون يحتلون

شريحة من الأراضي تقع الى شمال وجنوب القدس • وبذلك لم يتبق للعرب الفلسطينيين سوى ٢١٪ من المساحة الكلية لفلسطين • وتناقص عدد العرب الذين يسكنون فى المناطق التى احتلتها اسرائيل بعد أن رحل عنها عدد يتراوح ما بين ٧٠٠ ألف الى ٧٥٠ ألف نسمة •

وفى خلال الفترة ما بين فبراير ويوليو ١٩٤٩ نجح وسيط الأمم المتحدة الجديد وهو الأمريكى رالف بانش فى عقد اتفاقيات هدنة منفصلة بين اسرائيل ومصر وبين اسرائيل والدول العربية [باستثناء العراق التى قامت بسحب قواتها على الرغم من ذلك] • وتم الموافقة على وضع حدود مؤقتة عند الخطوط التى كانت متواجدة لدى البدء فى المفاوضات علاوة على نزع سلاح بعض مناطق حدودية معينة • وتم تقسيم القدس وأصبحت توجد هناك القدس الشرقية العربية والقدس الغربية اليهودية • ووضع قطاع غزة تحت الادارة المصرية •

ولم يتم التوقيع على معاهدة سلام • وفى ديسمبر ١٩٤٨ قامت الجمعية العمومية للأمم المتحدة بتعين لجنة مصالحة وتسوية تضم ثلاثة أعضاء من أجل العمل على التوصل الى تسوية نهائية وعمل الترتيبات اللازمة من أجل انشاء حكومة دولية للقدس • الا أن كافة جهودها تعرضت للاحباط الشديد • اذ رفضت الدول العربية النظر فى التوصل الى معاهدة سلام اللهم الا اذا وافقت الحكومة الاسرائيلية على قبول كافة اللاجئين العرب الذين يرغبون فى العودة الى ديارهم التى تقع ضمن أراضى اسرائيل • وأصدرت الجمعية العمومية للأمم المتحدة عدة قرارات متتالية تؤكد فيها على أنه ينبغى اعطاء اللاجئين الفلسطينيين الحق فى الاختيار ما بين عودتهم الى ديارهم السابقة أو حصولهم على تعويضات عن ممتلكاتهم • وكان ذلك هو الأساس الذى ارتكزت عليه الأمم المتحدة من حيث

منح إسرائيل العضوية فى ١١ مايو ١٩٤٩ . الا أن اسرائيل أشارت الى أن مسألة مستقبل اللاجئين الفلسطينيين يمكن منـاقشتها من حيث هى جزء من التسوية السلمية الشاملة . ووصل المأزق الى ذروته . وأصبح الطريق مسدودا تماما . اذ تحول نصف الشعب الفلسطيني الى لاجئين . ولم تعد دولة اسرائيل الوليدة ولا جيرانها العرب يتوقعون التوصل الى الحد الأدنى من الأمن والاستقرار .

الفصل الحادى عشر

دخول الدول العظمى وعهد عبد الناصر
١٩٥٠ – ١٩٧٠

The Entry of the Superpowers
and the Nasser Era, 1950-1970.

وانتشرت أصداء فلسطين وكارثة فلسطين فى جميع أرجاء المشرق العربى. وظهر ما يسمى بالنهضة العربية . وألقت الشعوب العربية اللوم على بريطانيا والولايات المتحدة الأمريكية وعلى الزعماء العرب الذين ساهموا من خلال عدم كفاءتهم ومنافساتهم المثيرة للخلاف والشقاق فى أن يكون الأداء العربى هزيلا . وأصبح الرأى العام العربى متسما بالطابع الراديكالى . ففى سوريا تفجر انقلاب عسكرى حتى قبل التوقيع على الهدنة وعلى الرغم من أنه تم الاطاحة بسرعة بذلك الانقلاب العسكرى وتعيين حكومة برلمانية دستورية من نوع ما الا أن القوات المسلحة السورية كانت قد اكتسبت ميولا نحو النفوذ والسيطرة السياسية وهى ميول لم تتناقص على الاطلاق بل وأصبحت نموذجا لعدم الاستقرار السياسى .

وعلى الرغم من دخول النظام الملكى بشرق الأردن فى دوامة العاصفة الا أنه تمكن من البقاء على قيد الحياة من خلال التدعيم

المقدم من جيش ملكى ٠ وتمكن الملك عبد الله من تحقيق طموحاته الرامية الى ضم الجزء المتبقى من فلسطين الى مملكته الأردنية الهاشمية التى أعلن عنها مؤخرا ٠ اذ رأت الغالبية العظمى من السكان المحاطين باليهود أنها محرومة من وسائل الدفاع عن نفسها وأنها عرضة للوقوع فى أخطار الابتلاع على أيدى الصهاينة ولذلك لم يكن يوجد أمامها سوى الانضمام الى الأردن ٠ وفى ديسمبر١٩٤٨ عقد مؤتمر يضم حوالى ٢٠٠٠ من الوجهاء العرب فى مدينة أريحا ووجهوا الدعوة للملك عبد الله لكى يقوم بتوحيد فلسطين مع الأردن ٠ وقد عارضت الدول العربية ذلك بشدة وحاولت منع تحقيق هذا الضم ولكن دون جدوى ٠ كما حاولت الدول العربية احياء قرار الأمم المتحدة الخاص بتدويل القدس ولكنهم فشلوا أيضا فى هذا الصدد نظرا لأن اسرائيل كانت تعارض هذه الفكرة ٠ وظل الملك عبد الله مسيطرا على مدينة القدس العربية القديمة ٠

وأصبحت دولة الأردن تضم عددا من الفلسطينيين يفوق ضعف عدد سكان شرق الأردن ٠ وكان بين هؤلاء الفلسطينيين حوالى نصف مليون من اللاجئين الفقراء المعدمين الذين لا يمتلكون أى شىء على الاطلاق ٠ ولقد وافق الفلسطينيون على ضم الملك عبد الله لهم نتيجة لأسباب خارجة عن ارادتهم ٠ الا أن معظمهم كانت لهم تحفظات بشأن خضوعهم لحكم أهالى شرق الأردن الذين يعتبرونهم أقل تقدما وتطورا من الفلسطينيين بل وكان هناك بعض الفلسطينيين الذين يشعرون بالكراهية ازاء الهاشميين ٠

وكان الملك عبد الله يتناول هذا الوضع الدقيق الحساس فى شىء من الغموض والالتباس ٠ فهو وحكومته حاولوا تنفيذ التكامل السياسى مع الشعب الجديد وأصبحت الأردن هى الدولة العربية الوحيدة التى تعرض على اللاجئين الحصول على صفة المواطنة الكاملة ولكنها ظلت مثل باقى الدول العربية الأخرى تشير الى أن

الأمم المتحدة مسئولة عن الحقوق الاقتصادية والسياسية للاجئين وأن اللاجئين لن يتخلوا أبدا عن حقهم الشرعي في العودة الى ديارهم بفلسطين • وهكذا نرى أن الأردن كانت ترغب في تحقيق هدفين : الهدف الأول هو مقاومة النزعة الانفصالية الفلسطينية والهدف الثاني هو الابقاء على حق الأردن في التحدث بلسان الفلسطينيين مع التصريح في نفس الوقت بأنه سيتم استرداد فلسطين العربية ذات يوم • وقدر لهذه « الجنة الأردنية » أن تستمر على مدى ثلاثين عاما تقريبا • ولقد تسببت في خلق مشاكل سياسية حادة ولكن النظام الملكي الأردني تمكن من البقاء على قيد الحياة من خلال عدة عوامل من بينها الحظ السعيد والمساعدات المالية الخارجية والانقسامات التي تفشت بين أعدائه ومرونة وتصميم وعزم الحكام بالأردن • وتم اغتيال الملك عبد الله على أيدى شاب فلسطيني لدى دخوله الى المسجد الأقصى بالقدس في ٢٠ يوليو ١٩٥١ • واتضح أن ابنه طلال مختل عقلياً وتنازل عن العرش بعد مرور عام واحد • وصعد الى العرش ابنه حسين البالغ من العمر آنئذ ١٧ عاما والذى كان يتلقى التعليم في انجلترا • وعلى العكس من كافة التوقعات أصبح الملك حسين هو أول رئيس دولة عربية يظل متواجدا في الحكم لفترة طويلة للغاية •

وكانت مصر هي الدولة العربية التي أحدثت بها كارثة فلسطين آثارا خطيرة وهامة على المدى البعيد • فالضباط المصريون الشبان الذين شاركوا في الحرب أصبحوا متأكدين تماما من أن الرجال الذين يحكمون مصر يتصفون بالعجز وعدم الكفاءة والاجرام • اذ كانت الأطعمة والامدادات الطبية غير كافية كما كانت الأسلحة من الطراز القديم للغاية الذى بطل استخدامه بل وكانت الأسلحة في بعض الحالات عديمة الجدوى • كما كان كبار الضباط يصدرون أوامر متناقضة وخالية من المعنى أو المغزى بل وكانت بعض الأوامر تدل على عدم الكفاءة على نحو خطير ومميت] وذلك باستثناء اللواء

محمد نجيب الذى أصيب بجراح خطيرة أثناء المعارك] • واكتسب جمال عبد الناصر ـ الذى كان قد رقي الى رتبة رائد وأصيب بجراح ـ شهرة كبيرة بسبب نجاحه فى معركة دفاعية • الا أنه ظل يذكر الكلمات التى قالها له أحد رؤسائه من الضباط الذين يثيرون اعجابه الشديد قبل أن يقتل بوقت قصير « تذكر أن المعركة الحقيقية متواجدة فى داخل مصر » •

وعلى مدى سنوات عديدة كانت هناك حركة سرية بين الضباط الوطنيين الأصغر سناً • وكان عبد الناصر المتميز بالوقار وعمق التفكير وقلة الكلام والمتسم فى نفس الوقت بقدر هائل من الجاذبية الشخصية قد بزغ كقائد طبيعي ومنظم لهذه الحركة • وقد خدم الكثيرون من زملائه معه فى فلسطين وبعد عودتهم الى مصر زادوا من نشاطهم حيث أصبحوا متأكدين أكثر من ذى قبل بأن الأمر يستلزم احداث تغيير راديكالى فى نظام الحكم • وكان للانقلاب العسكرى الذى حدث فى دمشق فى مارس ١٩٤٩ أثر كبير فى احداث سلسلة من ردود الفعل التى أثرت على كافة الدول العربية • ففى مصر نجد أن الضباط الأحرار ـ وهو الاسم الذى أطلقه الضباط الشبان المصريون على أنفسهم ـ قاموا بتشكيل لجنة تنفيذية • وتم انتخاب عبد الناصر الذى كان قد ترقي الى رتبة الكولونيل رئيسا لهذه اللجنة بشكل رسمى • وبعدئذ قام الضباط الأحرار بانشاء خلايا فى جميع أنحاء القوات المسلحة • وبدأوا فى توزيع نشرات دعائية مكتوبة على الآلة الكاتبة تشير الى شجب الحكومة وتوجيه الاتهامات اليها •

وكانت الديموقراطية البرلمانية فى مصر قد بدأت فى التقوض بالفعل لدى تعاظم القوى المتواجدة خارج نطاق البرلمان • وكانت جماعة الاخوان المسلمين هى أهم تلك القوى غير الممثلة فى البرلمان خاصة بعد أن اكتسبت المزيد من الهيبة والاحترام الناجم عن الأعمال البطولية التى قام بها المتطوعون من الاخوان المسلمين فى

الدفاع عن فلسطين . وفى نوفمبر ١٩٤٨ استغل النقراشى باشا قانون الأحكام العرفية وأعلن حل جماعة الاخوان المسلمين واغلاق فروعها المنتشرة فى جميع أرجاء البلاد . وبعد مرور شهر واحد تم اغتيال النقراشى باشا . وبعد مرور شهرين على اغتيال النقراشى تم اغتيال حسن البنا المرشد العام للاخوان المسلمين حيث أطلق عليه الرصاص بمعرفة أحد أجنحة الشرطة الحكومية المناهضة للارهاب وفقا لما تؤكده بعض المصادر .

وكان الملك فاروق قد بدأ يفقد الجزء المتبقى له من الشعبية التى كان قد اكتسبها أثناء فترة شبابه . اذ أن الاعتلال فى الغدد والانغماس فى الشهوات قد حولت الصبى الملك الوسيم الى صورة كاريكاتورية هجائية لرجل فى متوسط العمر غارق فى الملذات . كما أن طلاقه من زوجته المصرية فريدة المتمتعة بحب الجماهير خلال ذروة الحرب فى فلسطين قد أساء كثيرا الى سمعته . كما أن انغماسه فى حياة المجون والترف فى مصايف حوض البحر الأبيض المتوسط رغم المتاعب التى تجتاح مصر كان بمثابة اهانة شديدة لرعاياه الفقراء .

وعلى الرغم من أن اذلال فاروق على أيدى بريطانيا قد جعل منه انسانا ساخرا وشكاكا فى طبيعة الدوافع البشرية نجد أنه لم يتخل عن حبه للمؤامرات السياسية أو رغبته فى الاستمرار فى ممارسة السلطة . وفى يناير ١٩٥٠ استدعى عدوه اللدود القديم النحاس باشا وسمح باجراء انتخابات عامة تمكن خلالها حزب الوفد من تحقيق انتصار ساحق كالمعتاد . وكان الطرفان فى تحالف القصر / الوفد يأملان فى الحفاظ على نصيبهما فى النظام الحكومى فى مصر المتداعى الآيل للسقوط .

وكانت بريطانيا تأمل أيضا فى تحسين العلاقات الأنجلو / مصرية أثناء فترة الاتفاقية النهائية التى كانت لا تزال تتسم

بالمراوغة وقامت ببعض الاجراءات الاسترضائية • وكانت الحكومة البريطانية قد ظلت تعمل من أجل انشاء قيادة مشتركة شرق أوسطية مع أمريكا وتركيا وفرنسا على أمل أن تنضم مصر الى هذه القيادة المشتركة • وهو اجراء من اجراءات الحرب الباردة يهدف الى ابعاد الاتحاد السوفيتي عن منطقة شرق حوض البحر الأبيض المتوسط ولكنه واجه فشلا ذريعا • لأن المشاعر الحيادية كانت قد بدأت في الظهور حديثا في الشرق الأوسط حيث كان معظم السكان ينظرون الى الدول الاستعمارية القديمة على أنها تشكل تهديدا أكثر خطورة من التهديد الناجم عن الشيوعية السوفيتية • وعندما عرضت بريطانيا الخطة على مصر في أكتوبر ١٩٥١ سارعت مصر الى الرفض بكل صراحة • وحقيقة الأمر أن حكومة الوفد كانت قد قررت بالفعل القيام بالغاء معاهدة ١٩٣٦ الأنجلو / مصرية والاعلان من جانب واحد عن فاروق ملكا على مصر والسودان •

فبعد أن واجه حزب الوفد الانتقادات المتزايدة وفضح الفساد المنتشر في أرجائه أصبح حريصا على استعادة أوراق اعتماده المنادية بالوطنية المتشددة • وعلى الرغم من أن اتجاهات الوفد كانت تلقى شعبية كبيرة في أرجاء البلاد الا أنها كانت خطيرة لأن الحكومة المصرية في كفاحها ضد بريطانيا كان ينبغي عليها الحصول على التدعيم من كافة القوى في البلاد التي كانت تهدف الى الاطاحة بالحكم الدستوري • ولم يكتف النحاس باشا باعلان حالة الطوارىء في البلاد واتخاذ خطوات نحو قطع امدادات الطعام والعمالة المصرية عن القوات البريطانية المتواجدة في منطقة قناة السويس وانما ذهب الى ما هو أبعد من ذلك حيث شجع على تشكيل فرق « تحرير » من المتطوعين لكي يقوموا بهجمات فدائية تخريبية • وانضم الى هذه الفرق متطوعون من الاخوان المسلمين والشيوعيين ومن أي مجموعات أخرى لها خبرة كبيرة في النواحي العسكرية • وقدم بعض الضباط الأحرار المساعدة في مجال تدريب هذه الجماعات سرا •

وفى بريطانيا فاز حزب المحافظين فى انتخابات أكتوبر ١٩٥١ · وظل متربعا على السلطة على مدى الثلاثة عشرة عاما التالية · وعاد تشرشل كرئيس لمجلس الوزراء كما عاد ايدن الى منصب وزير الخارجية · وكانت مصر مازالت تشكل أهمية قصوى من وجهة نظرهما ولكن لم يكن هناك حل واضح للأزمة · وكان يتم الحفاظ على قاعدة قناة السويس من خلال استيراد عمالة من شرق أفريقيا الا أن ذلك الاجراء كان عديم الجدوى نظرا لأن الـ ٨٠ ألف جندى بريطانى كانوا منهمكين باستمرار فى الدفاع عن القاعدة وحمايتها من الأعمال التخريبية · وكان الأجراء البديل هو اعادة احتلال القاهرة · ولكن لم يكن هناك أحد من الساسة البريطانيين بما فيهم تشرشل نفسه لديه الرغبة فى دراسة هذه الفكرة ·

ومع تعاظم هجمات الفدائيين زاد البريطانيون من اجراءاتهم المضادة · وبدأوا فى القاء القبض على المشتبه فيهم بما فى ذلك بعض رجال الشرطة المصريين · وفى يوم ٢٥ يناير ١٩٥٢ قامت قوة عسكرية بريطانية بتطويق مركز قيادة الشرطة بالاسماعيلية فى الفجر وطلبوا من رجال الشرطة تسليم أنفسهم · فأصدر وزير الداخلية الأوامر لهم بالمقاومة · فدخلوا فى اشتباكات متسمة بالشجاعة الهائلة الى أن مات منهم خمسون جنديا علاوة على اصابة أعداد هائلة للغاية بجراح خطيرة ·

وفى اليوم التالى — والذى سمى بعد ذلك بيوم السبت الأسود — قامت جماهير الشعب التى اجتاحها الغضب الشديد بحرق منطقة وسط القاهرة · وتم التركيز على حرق الممتلكات البريطانية علاوة على حرق الدكاكين والفنادق والمطاعم التى يمتلكها الأجانب · ولم يعرف على الاطلاق بشكل واضح ومحدد الجهة المسئولة عن ذلك الحريق الضخم · ولكن الغوغاء كانت تحت قيادة مليشيات عسكرية تابعة لجماعة الاخوان المسلمين وحزب مصر

الفتاة شبه الفاشستي وبعض الجماعات الأخرى • وربما تغاضت الحكومة عن الهجمات الأولى الا أنها لم تكن تتوقع انتشار الهجمات على ذلك النحو الخطير • ولم يحاول الملك الذى كان يستضيف بعض كبار الضباط على الغذاء التدخل • ومع حلول المساء تم استدعاء قوات نظامية بهدف فرض السيطرة على المدينة • وبعدئذ بدأ كل من الملك والحكومة فى القاء اللوم على بعضهما البعض فيما يتعلق بالتأخر فى اتخاذ الاجراءات اللازمة •

ومما ساعد على التأخر في استدعاء الجيش هو الخوف الشديد من احتمال تحرك القوات البريطانية من منطقة السويس من أجل التدخل ، اذ أن جميع المصريين يتذكرون جيدا أن الاحتلال البريطانى فى عام١٨٨٢ قد حدث بسبب التمرد الذى كان يجتاح الاسكندرية• وحقيقة الأمر أن البريطانيين كانوا قد وضعوا خطة للتدخل من أجل حماية أرواح البريطانيين وممتلكاتهم • الا أن التمرد انتهى قبل صدور قرار بالتدخل •

وانتهز الملك فرصة اخفاق الحكومة فى معالجةالأزمة وطرد النحاس من السلطة • ثم استدعى الشخصية المفضلة لديه وهو على ماهر باشا • ولكن على ماهر لم يستمر فى الحكم سوى خمسة أسابيع • ثم جاءت بعده أربع حكومات متعاقبة فى خلال أسابيع • وأصبح من الصعب العثور على شخصية سياسية تبعث على الاحترام والثقة •

وأدرك الضباط الأحرار أن الحكم قد بدأ يتعرض للتقوض والانهيار • وقبل نشوب هذه الأزمة كانوا قد خططوا لاتخاذ اجراءاتهم فى عام ١٩٥٤ أو عام ١٩٥٥ • ولأنهم كانوا بحاجة لضابط له رتبة عسكرية كبيرة وله اسم مشهور وبحيث يقوم بدور الرئيس الصورى لهم ويعطى لحركتهم أهمية واحتراما فى داخل مصر وخارجها فقد اختاروا اللواء محمد نجيب الذى عرف عنه أنه

متعاطف معهم • وأصبح محمد نجيب بالفعل رئيسا للجنة التنفيذية للضباط الأحرار فى يناير ١٩٥٢ • ولكن الالتزام بالسرية كان أمرا بالغ الأهمية • وكان الملك فاروق يشعر بالكراهية نحو اللواء محمد نجيب • وفى نفس ذلك الشهر غضب الملك لدى انتخاب محمد نجيب رئيسا لنادى ضباط الجيش بعد أن فاز على المرشح التابع للملك • وعلى الرغم من الجهود التى بذلها الضباط الأحرار للحفاظ على السرية فانهم بدأوا يدركون أن شرطة الأمن السرية الحكومية أصبحت على وشك أن تكتشف تنظيمهم السرى • ولكن من حسن الحظ أن الملك كان لا يزال يعتقد أن الغالبية العظمى من الجيش تدين بالولاء له • وفى شهر يوليو سافر كالمعتاد الى قصره الصيفى بالاسكندرية •

وفى ليلة ٢٣/٢٢ يوليو قامت وحدات من الجيش تدين بالولاء للضباط الأحرار بالاستيلاء على النقاط والمواقع الرئيسية بالعاصمة بعد أن تغلبت على مقاومة ضئيلة • ثم أعلن أنور السادات من راديو القاهرة نبأ نجاح الثورة • ونظرا لأن الضباط الأحرار كانوا يدركون أن بريطانيا ربما تتدخل لانقاذ الملك فانهم سارعوا الى السيطرة على الاسكندرية • وتمكن عبد الناصر من التغلب على رأى بعض زملائه الذين أشاروا الى ضرورة محاكمة الملك فاروق واعدامه • وبدلا من ذلك تم السماح للملك بالتنازل عن العرش والذهاب الى المنفى مع زوجته الجديدة الملكة ناريمان وابنهما القاصر • وقد أدى هذا الاجراء الى تدعيم سمعة الثوريين نظرا لأن سلوك الملك السابق بالمنفى قد عزز فقدان ثقة الناس فى النظام الملكى •

وكان اللواء محمد نجيب الذى يعكف دائما على التدخين فى الغليون يتمتع بحب الجماهير مما أعاد الطمأنينة للدول الأوربية التى تهتم بالشئون الداخلية فى مصر ودفعها الى سرعة الاعتراف بنظام الحكم الجديد فى مصر • وقام الضباط الأحرار بتحويل اللجنة التنفيذية الخاصة بهم الى « مجلس قيادة الثورة RCC » برئاسة

اللواء محمد نجيب . وبعد مرور أكثر من عام اتضح للعالم الخارجى أن الكولونيل عبد الناصر الطويل القامة المثير للرهبة والاعجاب والمتسم بالغموض الى حد ما البالغ من العمر ٣٤ عاما هو القائد الحقيقى للثورة .

لقد ظل الضباط الأحرار يخططون لثورة على مدى عشر سنوات . ولذلك كانت لديهم فكرة ذهنية واضحة عن الأمور التى يريدون تحقيقها : تخليص البلاد من النفوذ الأجنبى [وخاصة النفوذ البريطانى] + القضاء على نفوذ كبار ملاك الأراضى ونفوذ النظام الملكى + القضاء على فساد الحياة السياسية . ولكن لم يكن لديهم أية أفكار سياسية متطورة ناهيك عن برنامج سياسى . وكان عدد قليل منهم متعاطفا مع جماعة الاخوان المسلمين . كما كان يوجد بينهم عدد قليل من الماركسيين . ولكن غالبيتهم يمكن أن يوصفوا بأنهم مجرد أناس وطنيين غيورين على وطنهم مصر . وتحركوا جميعا بسرعة من أجل تدعيم نفوذهم . وظل الوفد يشكل تهديدا بالنسبة لهم حيث كان بمقدور الوفد ـ وفقا للدستور القديم ـ أن يكسب ويفوز فى أية انتخابات برلمانية . ولذلك سارعت الثورة الى محاكمة كبار الزعماء الوفديين وأصدقاء الملك السابق فاروق واتهمتهم بالتآمر مع دولة أجنبية والفساد . وصدرت ضدهم أحكام بالسجن لفترات مختلفة .

وفى يناير ١٩٥٣ شعر مجلس قيادة الثورة أنه أصبح قادرا على حل جميع الأحزاب السياسية ومصادرة أموالها . وتم الاعلان عن دستور مؤقت جديد ينص على منح سلطة مطلقة فى أيدى مجلس قيادة الثورة على مدى السنوات الثلاث القادمة . وأصبح الاتجاه قريبا للغاية من اتخاذ الخطوة التالية ألا وهى الغاء النظام الملكى . وفى ١٨ يونيو ١٩٥٣ تم الاعلان رسميا عن الجمهورية المصرية . وصدر قرار بالغاء الألقاب العثمانية القديمة : مثل لقب الباشا

ولفب البيه • وقال محمد نجيب معلقا على الغاء الملكية « ان أقدم نظام ملكى فى العالم قد أصبح ـ بصفة مؤقتة ـ أحدث نظام جمهورى فى العالم » • ولم يكن محمد نجيب يعتبر نفسه رئيسا صوريا : اذ كان يشعر أنه قد استدعى لكى يتولى القيادة بنفسه • وأصر على الحصول على منصبى رئيس الجمهورية ورئيس مجلس الوزراء • واكتفى عبد الناصر بصفة مؤقتة بالحصول على منصبى نائب رئيس مجلس الوزراء ووزير الداخلية •

وقام مجلس قيادة الثورة باتخاذ خطوة سياسية اجتماعية هامة فى خلال الأسابيع الأولى عقب تفجر الثورة : ألا وهى الاصلاح الزراعى • ففى عام ١٩٥٢ كان أقل من ½٪ من ملاك الأراضى يمتلكون ما يزيد على ثلث المساحة الكلية للأراضى الزراعية فى حين أن ٧٢٪ من المزارعين يمتلك كل واحد منهم أقل من فدان واحد مما يشكل مساحة ١٣٪ فقط من الأراضى الزراعية وقبل عام ١٩٥٢ تقدم الكثيرون من رجال السياسة والاقتصاد المصريين بمشروعات مدروسة بالتفصيل عن الاصلاح الزراعى بل ووصلت بعض هذه المشروعات الى مرحلة العرض على البرلمان كمشروع قانون قبل أن يتم الغاؤها فى هدوء • ونص مشروع الاصلاح الزراعى الذى أعلنه مجلس قيادة الثورة على تحديد ملكية الأراضى ب ٢٠٠ فدان واعادة توزيع الأراضى التى صودرت على الفلاحين المعدمين بمساحات تتراوح من فدانين الى خمسة أفدنة • كما تم تخفيض الايجارات تخفيضا شديدا • وكان الاصلاح الزراعى راديكاليا وليس ثوريا • وأشار الماركسيون الى أنه « اصلاح له طابع أمريكى » • ولم يستفد من اعادة توزيع الأراضى سوى ١٠٪ من الفلاحين • ولكن نظرا لأنه كان ناجحا بوجه عام من حيث تجنب • حدوث انخفاض شديد فى الانتاج الزراعى فانه أصبح نموذجا يحتذى به بالنسبة للدول النامية الأخرى • وعلاوة على ذلك فانه نجح فى تحقيق هدفه الأساسى وهو تخفيض النفوذ السياسى الساحق الذى كان يتمتع

به كبار ملاك الأراضى الذين ظلوا يحبطون بنجاح كافة الاصلاحات السياسية والاجتماعية على مدى أجيال متعاقبة .

ولم يكن نظام الحكم السابق هو الوحيد الذى يشكل تهديدا على مجلس قيادة الثورة . اذ كان التحدى الرئيسى يجيىء من جانب جماعة الاخوان المسلمين والشيوعيين . وكانت جماعة الاخوان المسلمين من خلال تنظيمها المنتشر فى جميع أرجاء البلاد تعتبر أقوى بكثير من الشيوعيين . ونظرا لأنها لعبت دورا رئيسيا فى هدم النظام الملكى فانها شعرت بأن لها الحق فى المشاركة فى السلطة فى نظام الحكم الجديد وأن هذه المشاركة تمثل الحد الأدنى من مطالبهم . ولكن الأخوان المسلمين أحبطوا وهزموا على أيدى عبد الناصر الذى برهن على أنه بارع فى التاكتيك السياسى .

وخلال عام ١٩٥٣ دخل عبد الناصر فى صراع على السلطة مع كل من اللواء محمد نجيب والاخوان المسلمين . وعلى الرغم من أن محمد نجيب كان متسما بالصدق والشرف والأمانة ومتمتعا بحب الجماهير الا أنه لم يكن زعيما ثوريا بطبيعته . اذ لم يكن ميالا الى الاتجاهات الثورية العنيفة . وشعر أن منصبه يخول له ممارسة السلطة وكبح جماح الضباط الشبان المتهورين الذين يشكلون مجلس قيادة الثورة . وكان محمد نجيب ساذجا أيضا من الناحية السياسية . وتظاهر عبد الناصر بأنه يذعن لمطالب محمد نجيب وسمح لنفسه بأن يوضع فى موقف بحيث يبدو عليه وكأنه يؤيد فكرة العودة الى النظام السياسى الذى كان سائدا فى فترة ما قبل اندلاع الثورة وهو الأمر الذى لم يكن الجيش ــ بصفة خاصة ــ يتسامح بشأنه . وفى ابريل ١٩٥٤ رضخ نجيب وأذعن أمام عبد الناصر الذى أصبح رئيسا لمجلس الوزراء واحتفظ محمد نجيب بمنصبه كرئيس للجمهورية وبدون أن يكون له أى سلطة حقيقية .

وتسبب ميل الاخوان المسلمين الى ممارسة العنف فى حل جماعتهم . اذ أعطت محاولة اغتيال عبد الناصر فى أكتوبر ١٩٥٤

مبررا للقضاء على منظمة الاخوان المسلمين · ونظرا لأن محمد نجيب كان على علاقة ودية مع الاخوان المسلمين – وعلى الرغم من أنه لم يكن متورطا على الاطلاق فى محاولة اغتيال عبد الناصر – فانه أقيل من منصبه كرئيس للجمهورية ووضع تحت التحفظ فى منزله ·

وبحلول نهـــاية عام ١٩٥٤ لم يعد يوجد هناك أحد ينازع عبد الناصر على السلطة فى مصر · وظل مسيطرا على الأوضاع فى مصر الى أن مات فى عام ١٩٧٠ · وكان أول مصرى يحكم مصر منذ عهد الفراعنة · وكان والده الذى جاء من أسرة قروية فقيرة من الفلاحين بصعيد مصر قد حصل على شهادة اتمام الدراسة بالمرحلة الابتدائية مما مكنه من الدخول فى طبقة الياقة البيضاء المصرية كموظف فى مكتب للبريد · وحصل جمال عبد الناصر على شهادة الثانوية العامة · ثم التحق بالكلية العسكرية عندما فتحت أمام أبناء الشعب – بعد أن كانت مقصورة فقط على أبناء البشوات والبكوات – نتيجة لنصـــوص المعـــاهدة الأنجلو/مصرية · ولقد أظهر جمال عبد الناصر منذ أيامه الأولى المبكرة صفات الزعامة والقيادة واخلاصه وولاءه الشـــديد لمصر · وقرأ عبد النـــاصر الكثير من كتب التاريخ والبيوجرافيا الغربية والعربية/الاسلامية فاقتنع بأن الشعب المصرى يتمتع بخصال متأصلة فى فطرته تجعله ينتظر التحرر عقب مرور قرون من الظلم والقمع والاخضاع ·

وفى عام ١٩٥٤ تدعمت حرية عبد الناصر فى المناورة الى درجة كبيرة من خلال العمل على حل المشكلتين البارزتين اللتين أزعجتا مصر على مدى فترة تزيد على خمسين عاما : مشكلة الاحتلال البريطانى العسكرى ومشكلة السودان · ودائما ما كان الفشل فى حل المشكلة الأخيرة يؤدى الى عرقلة حول المشكلة المتعلقة بالاحتلال العسكرى لمصر ·

وتم تناول مشكلة السودان أولا مما أدى الى التوصل الى اتفاق أنجلو/مصرى فى ٢١ فبراير ١٩٥٣ يقضى بمنح السودان على الفور

الحكم الذاتى على أن يعقب ذلك منحه حق تقرير المصير عقب مرور ثلاث سنوات • والى حد ما كان الطرفان المصرى والبريطانى يحرصان على اللجوء الى الخداع ـ اذ لم يكن أحدهما قادرا على رفض مبدأ السودنة Sudanization والحكم الذاتى عندما يقترحه الطرف الآخر • وكان المصريون يأملون بل ويتوقعون بأن السودان لدى حصوله على الاستقلال التام سوف يفضل الاتحاد مع مصر • وكان البريطانيون يأملون أن تسفر الانتخابات السودانية عن مجيىء حكومة سودانية موالية للبريطانيين [ومناهضة للمصريين] تابعة لحزب الأمة السودان المحافظ التقليدى • وصدم البريطانيون عندما فازت الأحزاب السودانية الموالية لمصر فى الانتخابات ولكن مجلس قيادة الثورة المصرية قد صدم أيضا عندما قررت الحكومة السودانية الجديدة أن يتمتع السودان بالاستقلال التام وعدم الاتحاد مع مصر • وتم الاعلان عن استقلال السودان فى أول يناير ١٩٥٦ •

وشعر مجلس قيادة الثورة المصرية بالاحباط الشديد ازاء مسألة السودان • الا أن الاتفاق مع البريطانيين بشأن مسألة السودان قد أتاح الفرصة لمصر للبدء فى المفاوضات بشأن قاعدة قناة السويس • واستمرت المفاوضات بشكل متقطع خلال عام ١٩٥٣ وفى أوائل عام ١٩٥٤ • وكانت العقبة الرئيسية التى تعرقل التوصل الى اتفاق هى أن بريطانيا كانت لا تزال تعتبر مصر جزءا من منطقة النفوذ الغربى • الا أن المفاوضات بدأت تسير فى مزيد من اليسر والسهولة بسبب الحقيقة التى مفادها ان مصر لم تعد مركزا لسياسة بريطانيا الشرق أوسطية ـ وذلك بعد أن انضمت تركيا لحلف شمال الأطلنطى NATO فى خريف عام ١٩٥٢ وبعد أن تم نقل مركز قيادة القوات المسلحة المشتركة البريطانية من السويس الى قبرص فى ديسمبر ١٩٥٢ •

ورفض عبد الناصر الطلب الذى تقدمت به بريطانيا بشأن بقاء سبعة آلاف جندى بريطانى فى منطقة السويس ولكنه وافق

على اعادة تنشيط قاعدة السويس فى حالة حدوث هجوم خارجى على أى دولة عربية أو تركيا • وبينما كانت المفاوضات تسير فى بطء وتثاقل سمح عبد الناصر للفدائيين بالهجوم على قاعدة قناة السويس كوسيلة لممارسة الضغط على بريطانيا • وأخيرا وفى يوليو ١٩٥٤ تم التوصل الى اتفاق يرتكز على اقتراح بريطانى باجلاء جميع الجنود البريطانيين مع الاحتفاظ بالقاعدة من خلال عقد ايجار لمدة سبع سنوات • ووفقا لذلك الاتفاق غادرت مصر آخر مجموعة من الجنود البريطانيين فى ٣١ مارس ١٩٥٦ • ولقد كتب مراسل التايمز The Times فى ٢ ابريل ١٩٥٦ ما يلى « لقد كان رحيلهم صامتا وخاليا من الاحتفالات مثلما حدث أثناء نزول قوات الجنرال ولسلى من السفن بالليل وقيامها بالاستيلاء على بورسعيد منذ ٧٤ عاما » •

ولدى التوقيع على الاتفاقية بالقاهرة تحدث عبد الناصر عن « عهد جديد من العلاقات الودية •••• فنحن نريد التخلص من الكراهية المتواجدة فى قلوبنا والبدء فى بناء علاقاتنا مع بريطانيا على أساس متين من الثقة المتبادلة التى ظلت مفقودة على مدى السبعين عاما الماضية » • الا أن هذه الآمال لم تتحقق • فالحكومة البريطانية ـ وخاصة وزير الخارجية أنتونى ايدن الذى حل محل تشرشل كرئيس للوزراء فى ابريل ١٩٥٥ ـ كانت قد تكونت لديها كراهية شديدة ازاء عبد الناصر أثناء المفاوضات المضنية القاسية فى كثير من الأحيان بشأن مسألة السودان وقاعدة قناة السويس • ولدى تزايد هيبة ونفوذ عبد الناصر فى جميع أرجاء الشرق الأوسط فانه بدا وكأنه يشكل تهديدا خطيرا على المصالح البريطانية فى المنطقة • بل وتزايدت مشاعر بريطانيا العدائية من خلال الحقيقة التى مفادها أن المصريين ـ على الرغم من تراثهم العظيم منذ أيام الفراعنة ـ كان ينظر اليهم على أنهم أحد « الأجناس الخاضعة المحكومة » التابعة للورد كرومر • اذ كان البريطانيون يتقبلون القيادة من جانب

شخص أرستقراطي صحراوي مثل ابن سعود وليسوا على استعداد لتقبل القيادة من جانب كولونيل مصري منتمي لطبقة الفلاحين ٠

وفي كتابه الصغير « فلسفة الثورة » الصادر في عام ١٩٥٤ أوضح عبد النـاصر أنه مدرك لنوع الدور الذي يمكن لمصر أن تؤديه ٠ وأشار في كتابه عن مركز مصر الذي يتوافق مع ثلاث دوائر في آن واحد : الدائرة العربية والدائرة الأفريقية والدائرة الاسلامية ٠ وأوضح في عبارات غامضة أنه يعتقد أن مصر بمثابة مركز لحركة شاسعة مهتمة بمقاومة الاستعمار الغربي ٠ وهو في بداية الأمر لم ينظر الى الدائرة العربية على أنها وحدة عربيـة شـاملة جامعـة Pan-Arabic Unity ٠ بل وكان ينظر بين الشك والريبة في جامعة الدول العربية ويعتبرهـا بمثابة مفهوم ذهني امبريالي مخادع ٠ وخفض من أهمية جامعة الدول العربية بأن قام بأبعاد عبد الرحمن عزام من منصبه كأمين عام للجامعة وهو رجل فصيح وعلامة في شئون العرب ومؤمن بالوحدة العربية ٠ الا أنه كان يرى أن الدول العربية يمكن لها أن تتحالف سـويا من أجل القضـاء على النفوذ والهيمنة الغربية ٠ ومن سـوء الحظ أن الدولة العربية الأخرى الوحيدة المستقلة والتي تتمتع بالسلطة المستقلة الراسخة : ألا وهي العراق كانت تحت قيادة رجل يعتبره عبد الناصر الحليف الرئيسي للغرب الاستعماري وهو نوري السعيد ٠ ومما زاد الأمور سـوءا بالنسبة لعبد النـاصر أن نوري السعيد كان يتمتع بمكانة كبيرة وشخصية قوية ٠ وكانت هذه المنافسة المريرة مع نوري السعيد [والتي كانت أكثر من مجرد صدام بين شخصيتين] بمثابة العامل الرئيسي في تورط مصر بعمق في سياسات القومية العربية ٠

ووصلت الأزمة الى ذروتها في عام ١٩٥٥ لدى ابرام سلسلة متعاقبة من الاتفاقيات العسكرية بين العراق وكل من تركيا وايران وبريطانيا مما أدى الى ما يعرف بـ « حلف بغداد » وكانت فكرة هذا الحلف المناهض للسوفيت قد نبعت أصلا من الولايات المتحدة

الأمريكية • ثم تخلت أمريكا عن تلك الفكرة لدى ادراكها أن العرب مهتمون بالتهديدات الاسرائيلية أكثر من اهتمامهم بأية تهديدات أو أخطار من جانب السوفيت • وكانت بريطانيا قد انضمت لحلف بغداد كوسيلة للحفاظ على جزء من وضعها البارز فى المنطقة • وبذل عبد الناصر كل الوسائل من أجل منع العراق من الانضمام للحلف لأنه كان يرى أن الحلف بروابطه مع ناتو NATO من خلال تركيا بمثابة أداة من أجل استمرار السيطرة الغربية • الا أنه فشل فى اقناع نورى السعيد الموالى للغرب المناهض للسوفيت • وكان الرأى العام لجماهير الشعوب العربية يؤيد عبد الناصر فى هذا الموضوع وكان نفوذ عبد الناصر قويا مما أدى الى منع الأردن من الانضمام لحلف بغداد رغم أن الملك الشاب حسين كان يؤيد الانضمام الى الحلف • ولكن مع تزايد شعبية عبد الناصر بين جماهير الشعوب العربية ازدادت أيضـــا مشاعر العداء نحوه من جانب الغرب •

وبدأت تتسع آفاق عبد الناصر • وتأثرت أفكار عبد الناصر على نحو حاسم بآراء البانديت نهرو الذى يرمز الى استقلال الهند والذى قام بزيارة عبد الناصر فى القاهرة فى فبراير ١٩٥٥ واتفق معه فى الرأى على معارضة جميع التحالفات العسكرية مثل حلف بغداد • كما أظهر عبد الناصر اعجابا شديدا بدولة يوغوسلافيا تحت قيادة ورئاسة الزعيم تيتو • ففى حين نجح نهرو فى اتباع سياسة مستقلة غير منحازة مع الابقاء على الهند عضوا فى الكومنولث البريطانى فان تيتو تحدى الزعامة السوفيتية للكتلة الشـــيوعية [حتى فى عهد ستالين] ووافق على قبول المعونة الأمريكية بدون التخلى عن الشيوعية • ويعتبر نهرو وتيتو وعبد الناصر هم الأعضاء المؤسسون لنادى دول عدم الانحياز • وفى ابريل ١٩٥٥ ترأس عبد الناصر وفد مصر فى المؤتمر الأفرو/آسيوى المنعقد فى باندونج بأندونيسيا ـ وهو حدث له أهمية عظمى معاصرة نظرا لأنه يرمز

الى محاولة متسمة بالتخطيط والتنسيق من جانب الغالبية العظمى للجنس البشرى والتى هى ملونة تهدف الى الاطاحة بهيمنة الدول الغربية البيضاء • وتم الاعتراف بأهمية مصر وثورة مصر حيث تلقى عبد الناصر معاملة تجعله متساويا مع كبار رجال الدولة الآسويين من أمثال نهرو ورئيس الوزراء الصينى شو اين لاى • ويرجع الفضل فى ذلك الى الصفات الشخصية التى يتمتع بها عبد الناصر • فهو على الرغم من أنه كان صغيرا فى السن للغاية وعديم الخبرة الا أنه كان يتصرف ببراعة وشجاعة وثقة بالنفس •

وبدأ عبد الناصر يشق طريقه لكى يصبح بطل القومية العربية • وأصبحت صورته معروضة فى جميع أرجاء المشرق العربى • الا أن وضعه البطولى جلب عليه المزيد من الأخطار والمسئوليات الجديدة لأنه بدأ يثير آمالا ضخمة بين جماهير الشعوب العربية • ونظرا لأنه كان يدافع عن قضية الحياد خلال الحرب الباردة فانه بدأ يثير هواجس وشكوك وعداء الولايات المتحدة الأمريكية • وفى نفس الوقت بدأت اسرائيل تنظر الى مصر الناصرية على أنها التحدى الرئيسى الخارجى الماثل أمامها •

وعلى الرغم من أن بريطانيا بدت وكأنها ما زالت هى الدولة الغربية الرئيسية التى لها مصالح واهتمامات فى الشرق الأوسط من خلال السنوات العشر التى أعقبت الحرب العالمية الثانية الا أن أمريكا بدأت تتفوق عليها وتحل محلها بسرعة فى هذا الشأن لسببين : السبب الأول هو تزعم أمريكا للحرب الباردة والسبب الثانى هو رعاية أمريكا لاسرائيل •

وشهدت ايران بداية التورط الأمريكى فى شئون الشرق الأوسط • فلدى انتهاء الحرب قامت كل من بريطانيا والولايات المتحدة الأمريكية بسحب قواتهما من ايران وفقا للشروط الواردة فى معاهدة عام ١٩٤٢ ولكن الاتحاد السوفيتى رفض على مدى شهور

عديدة الجلاء عن المديريات الشـــمالية • وعندما انسحب الجيش السوفيتي فى نهاية الأمر حرص الاتحاد السوفيتي على تبنى حكومة اشتراكية عملية فى أذربيجان بهدف أن تنفصل عن ايران وتنضم الى الاتحاد السوفيتي • فقامت الحكومة الايرانية باجراء حازم على نحو غير متوقع مما أدى الى كبح جماح الانفصاليين فى أذربيجان • الا أن الاتحاد السوفيتي ظل يمارس ضغوطا على ايران من خلال تدعيم الحركات المنادية بالحكم الذاتى فى أذربيجان وكردســـتان علاوة على تدعيم حزب توده الشيوعى الايرانى وعلى الفور سارعت أمريكا الى تطبيق مشروع ترومان Truman Doctrin الصادر فى مارس ١٩٤٧ على ايران • وهو المشروع الذى قدمت أمريكا بمقتضاه المساعدات لكل من اليونان وتركيا من أجل مساعدتها على الحفاظ على استقلالهما [وهى المساعدات التى لم يعد بمقدور بريطانيــا تقديمها] • وفى أكتوبر ١٩٤٧ استجمع المجلس الايرانى [البرلمان] شجاعته وقام بالغــاء اتفاقية سوفيتية/ايرانيــة بشأن الاستغلال المشترك للاحتياطيــات البترولية المتواجدة فى الأقاليم الشـــمالية الايرانية حيث كانت هذه الاتفاقية لا تحظى بأى تأييد من جانب جماهير الشعب الايرانى •

وظلت بريطانيا وشركة البترول الأنجلو/ايرانية هما الهدفان الرئيسيان أمام القوة الفعالة للقومية الايرانية التى أصبح السياسى الارستقراطى المحنك الدكتور محمد مصـــدق هو المتحدث الرسمى باسمها • وفى عام ١٩٤٩ أطلقت الحكومة الايرانية خطة طموحة للتنمية مدتها سبع سنوات [وهى خطة كانت ايران فى أشـــد الحاجة اليها] ترتكز على العائدات فى البلاد • ولكن فى حين أن أرباح شركة البترول الأنجلو/ايرانية قد تزايدت أكثر من عشرة أضـعاف فى الفترة من عام ١٩٤٤ حتى ١٩٥٠ فان أرباح ايران تزايدت بمقدار أربع أضعاف فقط • وبدأت المفاوضات مع الشركة فى عام ١٩٤٨ حول زيادة حصة ايران من الأرباح • ولكن الدكتور

مصدق وأتباعه أعلنوا فى المجلس [البرلمان] رفضهم لهذه المفاوضات وأصروا على أنه من حق ايران أن تستعيد سيطرتها بالكامل على أهم مورد طبيعى فى البلاد • ووقفت جماهير الشعب الايرانى فى صف الدكتور مصدق مما جعل الشاه الشاب يضطر فى مايو ١٩٥١ الى تعيين الدكتور مصدق رئيسا لمجلس الوزراء علاوة على الموافقة على مشروع قانون يقضى بتأميم صناعة البترول الايرانية •

وحظى هذا الاجراء بشعبية هائلة بين جماهير الشعب الايرانى بل وألهب مشاعر وحماس رجل الشارع العربى • وأصبح اسم مصدق أسطورة فى جميع أرجاء الشرق الأوسط مثلما حدث بالنسبة لاسم عبد الناصر بعد سنوات قليلة • الا أن الدكتور مصدق لم يكن قادرا على تحقيق ثورته بسبب تعاظم القوى التى تعارضه ولأنه لم يكن لديه خصائص الزعيم الثورى • وانسحبت شركة البترول الأنجلو/ايرانية من ايران ثم قامت شركات البترول الكبرى الدولية ــ سعيا وراء مصلحتها المشتركة ــ بفرض مقاطعة ناجحة على البترول الايرانى • ولجأت بريطانيا الى الضغوط الاقتصادية والتهديدات العسكرية بهدف الغاء التأميم • ثم لجأت الى محكمة العدل الدولية التى وقفت ضد التأميم وأخيرا عرضت الأمر على مجلس الأمن التابع للأمم المتحدة ولكنه رفض التدخل فى هذا الموضوع • وحاولت الحكومة الأمريكية القيام بدور الوساطة ولكنها لم تحرز أى نجاح • وتضاءلت عائدات ايران وانخفضت الى درجة خطيرة •

وتزايدت شعبية مصدق بين الأغلبية الايرانية الفقيرة بسبب اتخاذه لموقف عنيد متشدد ضد الغرب • وطالب بمنحه سلطات فاشستية • وحصل بالفعل عليها • ثم قام بقطع العلاقات الدبلوماسية مع بريطانيا وأغلق قنصلياتها • ونظرا لأنه أحد أعضاء طبقة كبار ملاك الأراضى فانه عارض فكرة تقسيم الضياع الضخمة لصالح الملاك الفلاحين • بل وقام بايقاف المشروع المتواضع الخاص

بتقسيم الأراضي والذى تقدم به شاه ايران • ولدى تزايد الشكوك حول مصدق بين رجال السياسة الايرانيين تشجع الشاه وبدأ يتحدى الأعمال التى يقوم بها مصدق • بل وقام بتعيين الجنرال زاهدى الموالى للنظام الملكى رئيسا للوزراء • وفشلت محاولة الشاه • واضطر الى الهرب الى خارج ايران فى أغسطس ١٩٥٣ • الا أنه عاد بعد مرور ستة أيام حيث تم الاطاحة بالدكتور مصدق فى انقلاب مضاد تم بمعرفة المخابرات المركزية الأمريكية CIA بالاشتراك مع المخابرات البريطانية •

وتم اعادة العلاقات مع بريطانيا ولكن أمريكا هى التى أصبحت تمارس النفوذ الغربى الرئيسى فى داخل ايران • وقامت مجموعة من شركات البترول الأمريكية والهولندية والبريطانية بتكوين اتحاد مالى حصلت بمقتضاه شركة البترول الأنجلو/ايرانية على حصة قدرها ٤٠٪ وتمكن الاتحاد من التوصل الى اتفاق مع شركة البترول الوطنية الايرانية التى كانت قد تشكلت لكى تحصل على ممتلكات شركة البترول الأنجلو/ايرانية وتستأنف الأعمال • وكانت فترة الاتفاق هى ٢٥ عاما • وفى أغسطس ١٩٥٥ قامت الحكومة الايرانية بالتوقيع على معاهدة مع الولايات المتحدة الأمريكية • ومن خلال هذه المعاهدة بالاضافة الى الانضمام الى حلف بغداد فى السنة التالية رغم الاحتجاجات السوفيتية الشديدة اللهجة أصبحت ايران منضمة بدون شك الى المعسكر الغربى فى الحرب الباردة •

وفى عام ١٩٥٢ عندما صعد أيزنهاور الى السلطة بعد الرئيس ترومان لم يكن لدى أمريكا سوى اهتمام خارجى ضئيل بسياسات العالم العربى • وكانت أمريكا تشعر بتعاطف ضئيل ازاء ما تبقى من الطموحات الامبريالية لكل من بريطانيا وفرنسا • وكانت لها علاقات جيدة مع الشباب الثورى فى مصر مما جعلت تحث بريطانيا على سرعة التوصل الى تسوية مع المصريين بشأن الاحتلال العسكرى •

الا أنها لم يكن لديها الرغبة فى أن تحل محل بريطانيا • فعندما أدرك جون فوستر دلاس وزير الخارجية الأمريكية فى حـــكومة أيزنهاور أن مصر والدول العربية الأخرى غير راغبة فى الانضمام الى حلف دفاعى شرق أوسطى مناهض للسوفيت فانه ترك بريطانيا لتكون العضو الغربى الوحيد فى حلف بغداد وركز جهوده فى نفس الوقت على تدعيم « الصف الشمالى » للدول التى تواجـه الاتحاد السوفيتى : وهى تركيا وايران والباكستان •

الا أن أمريكا كان لها اهتمام شديد باسرائيل وذلك لأسباب سياسية داخلية • فالنفوذ السياسى الصهيونى فى داخل أمريكا كان يتجاوز المجتمع اليهودى الأمريكى الى حـد بعيـد • اذ كان الكونجرس الأمريكى مؤيدا على نحو ساحق للدولة الصهيونية الوليدة فى الشرق الأوسط • وعلى الرغم من أن أيزنهاور كان أقل الرؤساء الأمريكيين فى فترة ما بعد الحرب ميلا للتخلى عن سيطرة السلطة التنفيذية الخاصة بالسياسة الخارجية الأمريكية الا أنه لم يستطع تجاهل هذه المشاعر •

وعلى الرغم من المنافسة المباشرة بين أمريكا والاتحاد السوفيتى بشأن ممارسة النفوذ فى الشرق الأوسط أصبحت تبدو وكأنها جزءا من النظام الطبيعى السائد فى الخمسينات من عام ١٩٥٠ الا أن تاريخ وتطور الاهتمام الروسى والاهتمام الأمريكى بمنطقة الشرق الأوسط كانا مختلفين تماما • بل وكان المفهوم الذهنى نفسه عن الشرق الأوسـط من حيث هو كيان جيوبوليتيكى جديدا بالنسبة لروسيا •

ومن الناحية التاريخية نجد أن روسيا كان لهـــا أسباب تدعوها الى الاهتمام بالعالم الاسلامى بوجه عام أكثر من أى دولة أوربية غربية • فعلى مدى ٢٥٠ عاما ظلت روسيا خاضعة لحـكم المغول المتخذين الطابع الاسلامى Islamized Mongols • وبعد

رجوع روسيا المقدسة Holy Russia للمسيحية نجد أنها امتصت الملايين من الرعايا المسلمين • وبحلول نهاية القرن التاسع عشر وعقب التوسع القيصرى الهائل فى اتجاه الشرق نجد أن الامبراطورية الروسية قد اشتملت على حوالى ١٥ مليون مسلم بل وشاركت فى حدود تصل الى حوالى ٢٠٠٠ ميل مع الدول الاسلامية التى يمكن أن تعتبر مستقلة وذات سيادة بالفعل والتى تتمثل فى الامبراطورية العثمانية وبلاد فارس •

واحتفظ البلاشـــفة الروس بالامبراطورية القيصرية وخلقوا الجمهوريات السوفيتية الست المسلمة بهدف تشكيل وتكوين الحافة الجنوبية للاتحاد السوفيتى • وكانت روسيا المسيحية خلال فترة ما قبل الثورة البلشفية تنظر الى الاسلام دائما نظرة عدائية ولكن الحقائق الدامغة ظلت تشير الى أن سكانها الجنوبيين من وجهة نظر الثقافة والدين والى حد ما من وجهة نظر السلالة العرقية هم بمثابة جزء من الشرق الأوســط • فالكل كان ينتمى الى المشرق المسلم التابع لأنظمة الخلافة الاسلامية •

وتلك كانت هى الحقيقة التى ورثهــا الاتحاد السوفيتى • وكانت سياسة لينين تتركز على استنكار كافة الطموحات القيصرية الامبريالية فى الشرق الأوسط وتعزيز قبضة السوفيت فى نفس الوقت على الجمهوريات الاســلامية التى تقع فى جنوب الاتحــاد السوفيتى • وكان الشيوعيون يشعرون بالعداء الشديد للاســلام شأنهم فى ذلك شأن القياصرة حيث كانوا يعتقدون أن الإســلام بمثابة قوى مناهضة للثورة البلشفية • وكانوا يتصورون أن الغرب يعمل على الابقاء على الاسلام من خلال استخدام كافة الوســائل الاصــطناعية لكى يستغله المتآمرون الغربيون الاستعماريون كأداة ضد السوفيت ولكنهم أدركوا بمرور السنين أن الثقافة الاسلامية لها سيطرة ونفوذ فى داخل الاتحاد السوفيتى وخارجه •

وفى بادىء الأمر كانت سياسة الاتحاد السوفيتي فى الشرق الأوسط ترتكز على الافتراض بأن شعوب الشرق الأوسط التى سبق لهـا أن عانت كثيرا من سـيطرة واسـتغلال الاستعمار العثمانى والبريطانى والقيصرى سوف تنجذب نحو المثل العليا التى نادت بها الثورة البلشفية • واعتقد الزعماء السوفيت أنهم قد أصبحت لديهم فرصة عظيمة للسيطرة على الحركات القومية العلمانية التى كانت قد بدأت فى الظهور والانتشار فى منطقة الشرق الأوسط الا أن الدول العربية ظلت واقعة بصـفة مؤقتة تحت السـيطرة البريطانية أو الفرنسية ولذلك تركزت آمال السوفيت الرئيسية • على تركيا وايران اللتين كانتا دائما بؤرة الاهتمام الروسى • ولكن الفهم الخاطىء للقومية من جانب السوفيت سرعان ما جلب عليهم الشعور بالاحباط وخيبة الأمل • ففى تركيا نجد أن مصطفى كمال وزملاءه كانوا على استعداد تام للحصـول على الأسلحة والأموال السوفيتية التى تساعدهم فى كفاحهم ضد الغرب ولكنهم سرعان ما أوضـحوا أنهم يكرهون الشيوعية وأنهم ما زالوا يعتقدون أن روسيا هى العدو التقليدى لتركيا • هذا بالاضافة الى أنه بينما كان لينين يحبذ على الأقل فكرة القومية البرجوازية حتى ولو كان ذلك يؤدى الى انهيار الحركات الشيوعية المحلية على أساس أن القومية سوف تؤدى الى تقهقر الامبريالية وبالتالى تؤدى فى نهاية الأمر الى سقوط الرأسمالية فان سياسته هذه قد تعرضت للالغاء على أيدى ستالين الى درجة كبيرة • اذ كان ستالين يعتقد أن الأحزاب الشيوعية المحلية ينبغى أن تكون بمثابة رأس الحربة فى السياسة السوفيتية • وأن المصالح السوفيتية يمكن لها أن تلقى تدعيما على نحو أفضل من خلال وضع خطة للتخريب أو من خلال اللجوء الى عمل مباشر فى الأماكن التى يتلاءم معها العمل المباشر المكشوف •

وفى ايران كانت هذه السياسة متسمة بالشؤم الى درجة الكارثة • فتدعيم الاتحاد السوفيتي لانشـاء حزب توده الشيوعى

ومحاولته استغلال حركات التمرد التى تظهر فى الجيش وجهوده المستمرة نحو انجاز عمليات تخريبية من خلال الاستعانة بقنصلياته ومنظمـــاته التجارية ونواديه وعمـــلاء الدعاية التابعين له لم ينجم عنه سوى حشد مشاعر القومية الايرانية المناهضة للروس على النحو الذى كانت عليه منذ أيام القياصرة • وبحلول عام ١٩٣٤ قام رضا شـــاه باغلاق كافة الوكالات التجارية السوفيتية وجميع النوادى وجميع القنصليات السوفيتية باستثناء قنصلية واحدة •

وفى الدول العربية بالشرق الأوسط كانت الأحزاب الشيوعية صغيرة الحجم للغاية وكانت واقعة تحت سيطرة المثقفين الذين ينتمون بوجه عام للأقليات الدينية والعرقية • وحاول الاتحاد السوفيتى اختراق العالم العربى من الناحية السياسية والتجارية من خلال المملكة العربية السعودية التى أنشئت مؤخرا ولكنه واجه فشـــلا ذريعا واضـــطر ستالين الى غلق دار المفوضية السوفيتية فى عام ١٩٣٨ •

وكانت الدول العربية لا تكاد تشعر بتواجد الاتحاد السوفيتى فى فترة ما قبل نشوب الحرب العالمية الثانية • الا أن دخول الاتحاد السوفيتى فى الحرب فى عام ١٩٤١ غير الموقف • اذ أن المقاومة الملحمية البطولية التى قام بها الاتحاد السوفيتى ضد جيوش هتلر أعطت له نفوذا وهيبة جديدة • ومن حيث هو حليف للدول الغربية فان تمثيله الدبلوماسى والذى كان مقصورا على تركيا وايران بدأ يمتد الى معظم الدول العربية • هذا بالاضـــافة الى أن الاحتلال العسكرى السوفيتى للمناطق الشمالية من ايران قد تم بالاتفاق مع بريطانيا وأمريكا •

ولكن فى الفترة التى أعقبت انتهاء الحرب مباشرة نجد أن سياســـات ستالين الاستعمارية الجديدة سرعان ما لاقت الرفض والاستنكار • وظل الاهتمام السوفيتى منصبا على ايران وتركيـــا

ولكن مشاعر العداء فى ايران وتركيا تفجرت ضد السوفيت بسبب قيام السوفيت بمحاولات لانشاء أذربيجان ايرانية انفصالية موالية للسوفيت علاوة على مطالبته باستعادة اقليم كارز Kars واقليم أردهان Ardahan اللذين كانا قد تم التخلى عنهما لصالح تركيا فى عام ١٩٢١ • وفى عام ١٩٥٢ نجد أن الحكومة الموالية للغرب فى مملكة العراق قامت بقطع علاقاتها مع موسكو ثم بدأت التحركات التى أدت الى توحيد العراق مع تركيا وتوحيد ايران مع الباكستان فى حلف بغداد المناهض للسوفييت • وهكذا نرى أن سياسة الاتحاد السوفيتى فى الشرق الأوسط كانت تعانى من الحصار الشديد •

وبدأ الموقف يتغير مع موت ستالين فى مارس ١٩٥٣ فتحت قيادة خروشتشوف للحزب الشيوعى السوفيتى نجد أن الاتحاد السوفيتى تخلى عن فكرة تقديم العون للأحزاب الشيوعية الصغيرة الضعيفة النفوذ المتواجدة بالدول العربية ورجع الى سياسة لينين التى تركز على مساندة الزعماء الوطنيين الشعبيين الذين يظهرون استعدادهم للاستقلال عن الغرب • ولذلك تم التركيز على تدعيم عبد الناصر من حيث هو الزعيم العربى رقم واحد بدون أدنى شك • وقام دانييل سولود الخبير فى شئون الشرق الأوسط والذى كان يشغل منصب السفير السوفيتى لدى القاهرة بوضع الأساس للتحالف الواقعى بين الاتحاد السوفيتى والثورة المصرية •

وكان للشعبية المتزايدة لعبد الناصر بين العرب ومناصرته للسياسات الحيادية أثر كبير فى ظهور نتيجتين حتميتين : النتيجة الأولى هى تدهور علاقاته مع الدول الغربية والنتيجة الثانية هى أن اسرائيل بدأت تنظر الى مصر على أنها بمثابة أكبر تحدى خارجى فى مواجهتها • وكانت الدولة الصهيونية قد تزايدت فى القوة والثقة بالنفس بشكل هائل منذ مولدها • فطبقا « لقانون العودة » والذى

يقضى باعطاء الحق لأى يهودى فى الهجرة الى اسرائيل والاستقرار هناك تدفق الى البلاد حوالى ٧٠٠ ألف مهاجر يهودى حيث جاءوا فى بادىء الأمر من شرق وأواسط أوربا ثم بعد ذلك جاءوا من اليمن والعراق ودول المغرب العربى • وقد نجم عن امتصاص واستيعاب هؤلاء المهاجرين علاوة على تصميمهم على الحصول على توظيف كامل ورغبتهم فى الحصــول على مسـتوى عال من الخدمات الاجتماعية وميلهم الى العيش وفقـا للمستويات المعيشـية الأوربية مشكلات وعقبات هائلة خاصة وأن الدولة الجديدة كانت معزولة عن أسواقها الطبيعية من خلال المقاطعة الاقتصادية الشاملة التى حاولت الدول العربية فرضها بالاضافة الى أنها كانت تشعر بأنها بحاجة لأن تتفوق على القوة العســكرية الاجمالية لجيرانها من الدول العربية • وعلى الرغم من أن اقتصاد اسرائيل ظل عرضة للتدهور الا أنه قد تم التغلب على العقبات من خلال المشاريع التجارية والمهارات الاقتصادية للسكان والتدفق الهائل من المساعدات المالية الأجنبية ـ ومعظمها على هيئة منح وليست قروض ـ المقدمة من الشعب اليهودى العالمى وألمانيا الغربية [تعويضات عن الأضرار التى لحقت باليهود أثناء الحرب] والولايات المتحدة الأمريكية •

ونظرا لعدم وجود أية بارقة أمل فى عقد مفاوضات للســلام تؤدى الى تسوية عربية/اسرائيلية فقد حرصت اسرائيل منذ البداية على اتباع سياسة تتسم بالانتقام الساحق من أى انتهاكات للحدود أو أية أعمال للتسلل ـ سواء أقام بهذه الأعمال أفراد من الفلاحين الفلسطينيين الذين شطرت أراضيهم الى نصفين بسبب خطوط الهدنة أو فدائيون مدربون • ففى حادثة واحدة فى أكتوبر ١٩٥٣ قامت القوات الاسرائيلية بقتل حوالى خمسين من الفلاحين من أهالى قبيه Qibya بالضفة الغربية •

وعندما صعد عبد الناصر الى السلطة فى مصر فانه كان لديه كل الأسباب التى تدعوه الى تجنب الاشتباك المسلح مع اسرائيل •

اذ كان يواجه مشكلات داخلية وخارجية كبيرة علاوة على أن حرب فلسطين كانت قد كشفت عن ضعف القوات المسلحة المصرية • ولم يكن الغرب على استعداد لبيع أسلحة له الا بكميات ضئيلة • كما أنه لم يكن حتى تلك الآونة على استعداد لأن يتحول الى الشرق من أجل الحصول على ما يريده من أسلحة • وعندما انسحب أول رئيس وزراء في اسرائيل وهو المحار دافيد بن جوريون بصفة مؤقتة من العمل السياسى فى ديسمبر ١٩٥٣ وحل محله السياسى المعتدل موشى شاريت ظهــــر فتـرة انفراج نسبى فى العلاقات المصرية / الاسرائيلية • ولكن في فبراير ١٩٥٥ انكشفت فضيحة لافون Lavon بعد أن فشلت الخطة التى وضعتها المخابرات السرية الاسرائيلية من أجل ارغام البريطانيين على البقــاء فى مصر من خــلال تشجيع المصريين على شن الهجمات ضد المؤسسات والمنشآت البريطانية • فأدى ذلك الى عودة بن جوريون الى السلطة • وبعد أسبوع واحد قام الجيش الاسرائيلى بشن هجوم انتقامى ضخم ـ كرد على هجمات الفدائيين ـ على مركز القيادة المصرية فى غزة مما أدى الى وقوع خسائر هائلة فى الأرواح • وأصبح هذا الهجوم من المعالم الهامة فى تاريخ الصراع العربى/الاسرائيلى •

ولم يكن بمقدور عبد الناصر أن يتجاهل هذه التعرية المذلة التى تكشف عن الضعف العسكرى المصرى • فكان رد الفعل المباشر لديه هو اطلاق المزيد من الفدائيين الذين حاولوا التوغل فى عمق اسرائيل وتفجير المنشآت الاسرائيلية • وعانت مصر من الشجب والادانة على نطاق واسع ولكن عبد الناصر ـ من خلال ذلك الاجراء ـ قد أبطل مفعول كافة الآراء التى تطالبه بضرورة الدخول على الفور فى حرب شاملة ضد اسرائيل حيث كان يدرك أن امكانيات مصر العسكرية لا تؤهلها للدخول فى مثل هذه الحرب •

ومن الاجراءات البالغة الأهمية أن عبد الناصر بدأ فى الدخول فى مفاوضات سرية من أجل شراء الأسلحة • وأخيرا تم الاعلان فى

٢٧ سبتمبر ١٩٥٥ ـ وهذا يعتبر نقطة تحول أخرى هامة في التاريخ الحديث للشرق الأوسط ـ عن عقد اتفاق مع تشيكوسلوفاكيا بشأن امداد مصر بكميات هائلة من الأسلحة تشتمل على طائرات ودبابات سوفيتية في مقابل حصـــول تشيكوسلوفاكيـا على الأرز والقطن المصرى ٠ وكانت هذه أول صفقة من نوعها تتم في أى دولة عربية ٠ وتفجر الغضب الشديد في الدول الغربية بينما ابتهج الرأى العام العربى ٠

ووصل العداء الغربى والقلق الاسرائيلي الى الذروة ٠ وانضمت فرنسا الى أعداء مصر نظرا لأنها كانت تعتقد [وهو اعتقاد خاطيء] أن الثورة الجزائرية التى تفجرت في عام ١٩٥٤ قد حدثت بتشجيع وتمويل من القاهرة ٠ وتم تكوين تحالف فرانكو/اسرائيلي ٠ وهو تحالف قدر له أن يدوم لفترة تزيد على عشر سنوات ٠ وتسربت أنباء عن عقد اتفاق سرى لتزويد اسرائيل بأسلحة فرنسية مما دفع عبد الناصر الى سرعة البحث عن أسلحة ٠ وكانت الكراهية التى تشـــعر بها الحكومة البريطانية نحو عبد الناصر قد وصلت الى ذروتها ٠ اذ أشار أنطوني ايدن رئيس الوزراء البريطانى الى أن عبد الناصر هو المسئول الأول عن تفجر المشاعر العربية المناهضة للغرب وكافة الاجراءات المناهضة للغرب بما في ذلك قيام الحسين ملك الأردن بطرد الجنرال جلوب القائد العام البريطانى للفيلق العربى ٠ وكان ايدن قد قرر بالفعل ضرورة الاطاحة بعبد النـــاصر ٠ هذا بالاضـــافة الى أن الامبراطوريات الاستعمارية لكل من بريطانيـــا وفرنسا في افريقيا السوداء كان من المتوقع لها أن تتفكك وذلك بعد أن بدأت مصر تلعب دورها في الدائرة الافريقية على النحو الذى تنبأ به عبد الناصر ٠ وكان راديو القاهرة يبث تأييدا قويا باللغات المختلفة لحركات التحرير المناهضـــــة للاستعمار في جميع أرجاء أفريقيا ٠ أما أمريكا ـ والتى كان لا يزال لديها اهتمامات بالعالم العربى تقل عن اهتمامات انجلترا أو فرنســـا ـ فكان اهتمامهـــا

الرئيسى ينصب على الجانب الحيادى الناصرى فى الحرب الباردة ٠ وانضم رجال الكونجرس المؤيدون للصهيونية الى الآراء الجماعية التى يرددها أولئك الذين يقولون أن عبد الناصر يهدف الى توحيد الدول العربية بالقوة وتحويلها الى دول تدور فى فلك السوفيت ٠

ثم قام عبد الناصر بالاعتراف بالصين الشيوعية التى تلقى كل الكراهية من جانب أمريكا ٠ وبغض النظر عن اظهار عبد الناصر لاستقلاله فانه كان بمقدوره تفادى أى حظر يمكن أن تفرضه الأمم المتحدة على امداد الشرق الأوسط بالأسلحة [لأن الصين لم تكن عضوا فى الأمم المتحدة] ٠

الا أن الدول الغربية لم تكن قد فقدت الأمل تماما فى جعل مصر تدور فى فلكها ٠ اذ كان نظام الحكم الجديد المصرى قد عقد كل آماله على بناء سد عملاق على نهر النيل بالقرب من أسوان ٠ وأصبح بناء ذلك السد هو الركن الأساسى فى بناء برنامج التنمية فى مصر حيث كان من المتوقع له أن يزيد المساحة الزراعية بنسبة ٣٠٪ علاوة على توفير مخزون من المياه السنوية التى تحول دون حدوث الفيضانات أو التحاريق والجفاف بالاضافة الى زيادة الامداد بالطاقة الكهربائية الهيدوليكية على نحو هائل ٠ وفى عام ١٩٥٦ تم التوصل الى اتفاق مؤقت ينص على قيام البنك الدولى بتقديم قرض لمصر بمبلغ ٢٠٠ مليون دولار أمريكى من أجل الايفاء بالنفقات من العملة الصعبة ٠ ثم قامت أمريكا وبريطانيا بفرض شروط اعتبرها عبد الناصر صعبة للغاية نظرا لأنها تشتمل على ممارسة بعض السيطرة الغربية على الاقتصاد المصرى ٠ ولكن عندما قرر عبد الناصر فى نهاية الأمر تقبل هذه الشروط فان أمريكا أعلنت فجأة أن الاجراءات تتخذ لسحب العرض المقدم لمصر نظرا لأن اقتصاد مصر ضعيف للغاية بحيث يتعذر عليه مواجهة مثل هذا المشروع الضخم ٠

وكانت أمريكا وبريطانيا تعتقدان أنه اذا لم يسقط عبد الناصر ويترك السلطة فانه سوف يصبح أكثر مرونة وانصياعا • ولم يخطر على بالهما أن الاتحاد السوفيتى سوف يوفى بتعهداته عندما أشار الى أنه على استعداد لتمويل السد العالى • ثم شعرتا بالدهشة والغضب عندما أعلن عبد الناصر أثناء الاحتفال بالعيد السنوى الرابع لقيام الثورة المصرية والذى أقيم فى يوم ٢٦ يوليو ١٩٥٦ أمام حشد هائل من الجماهير المتفجرة بالهتافات فى الاسكندرية وأمام جماهير العالم العربى عبر راديو القاهرة تأميم قناة السويس وخلق هيئة مصرية للقناة لكى تقوم بتسيير شئون القناة • وماج العالم الثالث كله بالبهجة والسرور • اذ لم يكن هناك رمز قوى يدل على السيطرة الاستعمارية الغربية أكثر من قناة السويس • ولكن كان هناك خوف أيضا من الشرور المرتقبة لأن الغرب لن يسمح بكل تأكيد لعبد الناصر بأن يحرز النجاح •

وأعقب ذلك ثلاثة شهور من المفاوضات فى لندن ونيويورك حاولت لندن خلالها الترويج لفكرة فرض سيطرة دولية على قناة السويس بالقوة • وفشلت هذه المفاوضات نظرا لأن ادارة أيزنهاور /دلاس رفضت فكرة استخدام القوة لارغام مصر على الطاعة والاذعان • الا أن الحكومتين البريطانية والفرنسية كانتا مصممتين على استخدام القوة • وقام التحالف السرى الفرنكو/اسرائيلى بتدبير خطة مشتركة لغزو مصر بالاشتراك مع بريطانيا • وأخيرا وافق ايدن على مضض حيث كان يخشى من انكشاف التواطؤ مع اسرائيل مما يؤدى الى تدمير المصالح المتبقية لبريطانيا فى العالم العربى •

وفى ٢٩ أكتوبر ١٩٥٦ قامت اسرائيل بغزو سيناء • وفى اليوم التالى أصدرت بريطانيا انذارا مشتركا [بعد مرور ٧٦ عاما على المذكرة الرسمية المشتركة الخاصة بهما والتى يهددان فيها عرابى باشا] تطلبان فيها من مصر واسرائيل التوقف عن القتال وسحب

قواتهما على مسافة عشرة أميال من قناة السويس • وكجزء من المؤامرة وافقت اسرائيل على الفور على ذلك الانذار رغم أن قواتهـا كانت لا تزال على مسافة أبعد بكثير من عشرة أميال من القناة • ورفض عبد الناصر الانذار وأصدر أوامره لقواته التى كانت تتكبد خسائر هائلة فى سيناء بالانسحاب والعودة عبر قناة السويس • وعندما انتهت فترة الانـذار فى يوم ٣١ أكتوبر بدأت الطائرات البريطانية والفرنســية فى القاء القنابل على المطارات المصرية • وتمكنت من تدمير ســلاح الطيران المصرى بأكمله باستثناء تلك الطائرات التى كانت قد أرسلت الى سوريا من أجل الحفاظ عليها هناك • وفى يوم ٥ نوفمبر تجمعت قوة حربية أنجلو/فرنسية فى قبرص ثم نزلت بالقرب من بورسعيد • وبعد أن اســتولت على بورسعيد بدأت فى الزحف جنوبا على طول خط القناة التى كان المصريون قد قاموا بسدها وغلقها من خلال اغراق السفن فى داخلها •

وعلى نحو ساحق اتخذ الرأى العام العالمى موقفا عدائيا من الغزو الثلاثى على مصر • واتخذت بريطانيا قرارا بوقف أعمالها الحربية فى منطقة قناة السويس بسبب عوامل عديدة وهى : احتمال تحطم الكومنولث البريطانى + الانذارات السوفيتية + معارضة أمريكا للغزو ورفضها تقديم المســاعدة للغزو علاوة على رفضها تخفيف العبء الشديد الواقع على كاهل الجنيه الاسترلينى • وقررت الجمعية العمومية للأمم المتحدة فى ٤ نوفمبر انشاء قوة طوارىء دولية UNEF لكى تشرف على وقف اطلاق النيران الذى كانت تنادى به والذى وافقت عليه بريطانيا وفرنسا فى يوم ٦ نوفمبر • وأصبح من المتعذر على اسرائيل الاستمرار فى الحرب بمفردها • وكانت بريطانيا وفرنسا قد وقعتا فى خطأين كبيرين : الخطأ الأول هو الاعتقاد بأن المصريين ســوف يعجزون عن تشــغيل قنــاة السويس بمفردهم والخطأ الثانى هو الاعتقاد بأنه سيحدث تمرد شعبى ضد عبد الناصر بمجرد بدء العدوان الثلاثى على مصر • اذ تمكن المصريون

عقب التأميم من تشغيل القناة بكفاءة عالية كما أن شعبية عبد الناصر فى داخل مصر والعالم العربى ازدادت بشكل هائل ووصلت الى الذروة • وصحيح أن مصر عانت من هزيمة عسكرية فى مواجهة القوى الساحقة للدول الثلاثة ولكنها تمكنت من تحقيق انتصار دبلوماسى شامل • اذ أرغم الرئيس أيزنهاور المتفجر بالغضب الاسرائيليين على الانسحاب من سيناء وقطاع غزة فى أوائل عام ١٩٥٧ مما جعلهم يتركون مصر وهى مسيطرة سيطرة كاملة على قناة السويس علاوة على استيلاء المصريين على المخازن البريطانية الموجودة فى منطقة قناة السويس والمليئة بكميات هائلة من الذخائر والأسلحة البريطانية • ومن خلال المساعدات الأمريكية تم تطهير قناة السويس من السفن الغارقة فيها • وتم اعادة فتح قناة السويس فى ابريل ١٩٥٧ • وقامت مصر بمصادرة كافة الممتلكات والعقارات البريطانية والفرنسية المتواجدة فى مصر • بل وقامت بطرد حوالى ٣٠٠٠ من البريطانيين والفرنسيين المقيمين فى مصر • وغادر مصر المزيد من الآلاف الآخرين من البريطانيين والفرنسيين بسبب فقدانهم رزقهم وسبل معيشتهم • وحاولت بريطانيا وفرنسا القيام برد انتقامى من خلال فرض حصار اقتصادى على مصر الا أن ذلك الاجراء كان فاشلا وعديم الجدوى •

وأخيرا بدأ قرن من السيطرة الأنجلو/فرنسية على العالم العربى يقترب من نهايته • فبعد مرور عامين نجد أن الحليف العربى الرئيسى المتبقى لبريطانيا والمتمثل فى النظام الملكى العراقى قد تم الاطاحة به من خلال انقلاب عسكرى شعبى فأدى ذلك الى انهيار حلف بغداد • واستمر الدور البريطانى شبه الاستعمارى فى الخليج والجزء الجنوبى من شبه الجزيرة العربية لمدة عشر سنوات أخرى الى أن تعرض للتفكك بسبب الظروف المالية الصعبة • وعلى الرغم من أن فرنسا كانت تبدو أكثر رسوخا فى المغرب العربى نجد أنها انسحبت من العالم العربى قبل بريطانيا وذلك عندما منحت

الاستقلال للجزائر في عام ١٩٦٢ عقب محاولة مطولة وفاشلة لممارسة القمع والكبت ٠

وكانت السنوات من عام ١٩٥٦ حتى عام ١٩٥٩ تمثل السد العالى للناصرية حيث بدا عبد الناصر وكأنه يكتسح كل شيء أمامه ٠ وكان يتمتع بحب جماهير الشعب العربى كله وخاصة الجيل من الشباب الذين يشكلون غالبية بين الناس ٠ ورأوا أنه صلاح الدين الجديد الذى يعمل على توحيدهم لكى يتمكنوا من طرد الصهاينة أو الصليبيين الجدد الذين ظهروا فى القرن العشرين ٠ وكان الخطر المحدق بعبد الناصر يتمثل فى أنه كان يثير آمالا لا يستطيع هو أو مصر تحقيقهـا ٠ وكان عبد الناصر يدرك جيدا مدى الضعف العسكرى العربى وأن المساعدات السوفيتية الرامية الى اصـلاح وعلاج ذلك الضعف سوف تستغرق وقتا طويلا ٠ ولكنه فى نفس الوقت لم يكن بمقدوره التحكم فى موجة الحماس التى تجتاح العالم العربى بشـدة ٠ وبذلك كانت شخصية عبد الناصر تتفوق على الشكوك العربية ازاء التزام مصر بقضية الوحدة العربية هى شكوك كان يشارك فيها المصريون أنفسهم ٠

وفى يونيو ١٩٥٦ تم الاعـلان عن دستور جمهورى جديد وحصل على موافقة بنسبة ٩٩٪ من الأصوات ٠ ونص هذا الدستور على أن الاسلام هو الدين الرسمى للدولة علاوة على الاعتراف بأن مصر هى جزء من الأمة العربية ٠ كما نص على حـكومة من خلال رئيس ومجلس للوزراء وهيئة برلمانية تشريعية تضم مجلسا واحدا ٠ وتم تثبيت عبد الناصر للجمهورية لفترة مدتها ست سنوات ٠ وتم استبدال الأحزاب السياسية بتنظيم سـياسى مماثل وهو الاتحاد القومى ٠ وهكذا أصبحت سلطة عبد الناصر متخذة الطابع الرسمى ٠ وعلى الرغم من أن عبد الناصر أعطى المناصب التنفيذية العليا لبعض زملائه السابقين البارزين فى مجلس قيادة الثورة الا أنه كان يحرص على عدم تكوين مراكز قوى منافسة له ٠ وكان الاستثناء الجزئى

الوحيد والذى أدى الى كارثة فى نهاية الأمر هو أنه سمح لوزير الدفاع عبد الحكيم عامر بممارسة سيطرة كبيرة مستقلة على القوات المسلحة · وكان عبد الحكيم عامر يتمتع بالجاذبية الشخصية وحب الجماهير ولكن كان ينقصه الانضباط الذاتى وتنقصه الكفاءة من الناحية العسكرية ·

ولم يكن من السهل نقل أستاذية عبد الناصر السياسية وسيطرته على مصر الى الدول العربية الأخرى · صحيح أن شعبية عبد الناصر كانت جارفة بين جماهير الشعوب العربية ولكن حكام معظم الدول العربية المستقلة ـ علاوة على نور السعيد فى العراق ـ كانوا أساسا موالين للغرب وتقليديين وبالتالى كانوا مناهضين للناصرية · ولذلك استخدموا كل ما لديهم من وسائل لمناهضة الاتجاه المثير للأخطار · وفى الأردن سار الملك حسين مع التيار بأن قام بطرد الجنرال جلوب باشا علاوة على السماح بتشكيل حكومة موالية لعبد الناصر وهى الحكومة التى قامت فى أكتوبر ١٩٥٦ بالغاء الاتفاقية التى كانت بريطانيا تقدم بمقتضاها معونة مالية للجيش الأردنى · ولكن عندما اقترحت الحكومة الأردنية فى ابريل ١٩٥٧ اقامة علاقات دبلوماسية مع الاتحاد السوفيتى ثم علم الملك حسين بعد ذلك أن انقلابا عسكريا وطنيا يتم التخطيط له بهدف الاطاحة بالنظام الملكى فانه بادر على الفور ـ من خلال مساعدة من العناصر البدوية الموالية للنظام الملكى بالجيش ـ الى طرد الحكومة · وقد ساعده على اتخاذ ذلك الاجراء الحقيقة التى مفادها أن الاطاحة بالنظام الملكى الأردنى سيؤدى حتما الى احتلال اسرائيل للضفة الغربية · وهكذا نرى أن وضع الأردن المحفوف بالمخاطر المهلكة قد ساعد على سيطرة الملك حسين على الصراع السياسى فى البلاد · هذا بالاضافة الى أن ذكاءه وشجاعته قد لعبا أيضا دورا كبيرا فى تسيير شئون البلاد ·

وفي لبنان نجد أن الرئيس كميل شمعون الطموح الداهية الواسع الحيلة قد استخدم سـلطاته القوية المتمثلة فى منصب الرئيس المارونى للجمهورية للعمل على انجاح الأغلبية الساحقة من المؤيدين له الموالين للغرب فى الانتخابات البرلمانية • ولم يكن بمقدور الوطنيين العرب اللبنانيين الذين كان معظمهم من المسلمين سوى الاحتجاج •

أما موقف المملكة العربية السعودية تجاه تعاظم الناصرية فكان أكثر غموضا • فالملك سعود الذى صعد الى العرش بعد والده ابن سعود فى عام ١٩٥٣ كان دمث الأخلاق وعذب المعاشرة ومهيبا من الناحية الجسمانية مثل والده تماما ولكنه كان أقل كفاءة من والده من نواح أخرى • اذ كان متسما بالتبذير الشديد والحماقة • وعلى الرغم من أنه فوض بعض السلطات لأخيه ولى العهد الأمير فيصل المتسم بالكفاءة والخبرة الا أنه احتفظ بأسلوب شخصى فى الحكم الى درجة كبيرة بمساعدة من مجموعة من المستشارين الفاسدين فى معظم الأحيان • ولم يكن لديه الحكمة التى تجعله يتوافق مع تدفق الثروة البترولية الجديدة أو المطالب المتزايدة المعقدة للقرن العشرين •

وكانت سياسته العربية ترتكز فى بادىء الأمر على المنافسة القديمة التى كانت تدور بين بيت سعود والهاشميين • وهذا جعله أكثر قربا من مصر وذلك على الرغم من التناقض والتعارض بين الأوضاع التقليدية السعودية والثورة المصرية • وفى عام ١٩٥٥ وافقت المملكة العربية السعودية على الانضمام الى مصر وسوريا فى قيادة عسكرية مشتركة كانت موجهة بشكل واضح ضد حلف بغداد • وفى عام ١٩٥٧ وافق الملك سعود أيضا على ضرورة أن تقدم السعودية العون لمصر وسوريا لكى تقوما بتقديم المساعدات المالية للأردن بدلا من بريطانيا •

وكانت سوريا هى الدولة الرئيسية التى تشهد صراعا على السلطة فى المشرق العربى . وكانت هى الدولة التى يشعر فيها الناس بالرغبة والحاجة الى وحدة عربية على نحو عاطفى شديد ، ولكن لم يكن بهـا أية حـكومة مركزية قوية تمثل هوية سـوريا وشخصيتها . فمنذ سقوط الكولونيل الشيشيكلى الذى سيطر على البلاد من عام ١٩٥٠ الى عام ١٩٥٤ أصـبحت الأحزاب السياسية القديمة المتواجدة منذ أيام الانتداب الفرنسى على سوريا تتنافس على السلطة تحت مظلة الدستور البرلمانى . ولم يكن العراق المحافظ الموالى للغرب خاليا من النفوذ والتأثير ولكن الاتجاه فى سوريا كان يميل نحو اليسار المتطرف ونحو الحياد الراديكالى المتواجد فى مصر الثورية . وفى عام ١٩٥٦ سارت سوريا على نهج مصر من حيث الحصـول على الأسلحة من الاتحاد السوفيتى والاعتراف بالصين الشيوعية . وكان الاتجاه نحو اليسار مرتبطاً ارتباطا وثيقا بتزايد نفوذ وسلطان حزب البعث . وعلى الرغم من أن ذلك الحزب قد نشأ فى بادىء الأمر كجمعية للمناظرة والمناقشات منذ عشر سنوات فقط على أيدى اثنين من المدرسين فى دمشق هما : ميشيل عفلق وصلاح البيطار نجد أن البعثيين نجحوا أكثر من أى مجموعة أخرى فى اثارة المشاعر الوطنية بين جماهير الناس . وعلى الرغم من أن فيلسوف الحزب ميشيل عفلق كان خجولا وغير متسم بالجاذبية الجماهيرية الا أنه اكتسب عددا كبيرا من الأتباع من جيل الشبان الذين آمنوا بأفكاره المتعلقة بالجامعة العربية الشاملة Pan-Arabism . وحصـل البعثيون على عـدد ضـئيل من المقـاعد فى البرلمـان ولكن كان لهم مؤيدون فى المناطق الرئيسية علاوة على أنهم كانوا على علاقة وثيقة مع مجموعة من الضباط الذين كانوا محايدين بشدة فى مواقفهم ومتمتعين بالهيمنة على الجيش . وأصبح هؤلاء الضباط ابتداء من عام ١٩٥٦ عناصر أساسية لا غنى عنها فى أى حكومة .

وألهبت حرب السويس المشاعر الوطنية بين جماهير الشعب في سوريا وزادت من حده الاتجاه نحو اليسار • كما زادت الحكومة السورية من تعميق علاقاتها مع الاتحاد السوفيتي •

وظهرت احتمالات تحرك المشرق العربي كله في اتجاه المعسكر السوفيتي مما آثار ذعر أمريكا التي كانت تنظر الى العالم كله من منظور الحرب الباردة • وكانت المصداقية التي حصلت عليها أمريكا بين الوطنيين بسبب موقفها في اعاقة العدوان الثلاثي على مصر قد تبددت بسرعة بعد أن انضمت أمريكا للحصار الأنجلو/فرنسي الذي فرض على مصر • وحاولت أمريكا في صراحة وعلنية أن تشفي القوى الموالية لعبد الناصر للغرب من مرضها • ففي يناير ١٩٥٧ أصدر الرئيس الأمريكي ما عرف باسم « نظرية أيزنهاور » التي اعتبرت « الشيوعية الدولية » بمثابة أكبر تهديد يشكل خطرا على الشرق الأوسط ووعدت بتقديم المساعدات المالية لأية حكومة تعمل على مقاومة ذلك الخطر • فوافق العراق وكذلك كميل شمعون رئيس الجمهورية اللبنانية على الحصول على مثل هذه المساعدات بل ووافقت على ذلك أيضا المملكة العربية السعودية وان كان بشروط غامضة • اذ كان الملك سعود آنئذ قد أصبح مذعورا من الاتجاه الراديكالي الموالي للسوفيت في العالم العربي ولكنه لم يكن على استعداد للانضمام لمعسكر أعدائه القدامى الهاشميين المتواجدين في بغداد • وقام بارسال بعض القوات الى الأردن كتدعيم رمزي لحكومة الملك حسين عقب قيام الملك بطرد حكومته الوطنية • وفي محاولة لتحسين أوضاع العاهل السعودي من حيث هو منافس لعبد الناصر في العالم العربي أو من حيث هو « بابا اسلامي » ـ وهو مفهوم ذهني يتضمن تناقضا ذاتيا قامت ادارة أيزنهاور بتوجيه الدعوة له للقيام بزيارة رسمية للولايات المتحدة الأمريكية • وفي لبنان نجد أن المساعدات المالية التي قدمتها السفارة الأمريكية والمخابرات المركزية الأمريكية للقوى الموالية لكميل شمعون أثناء

الانتخابات البرلمانية قد انكشف أمرهـــا كما انكشفت المحاولات الرامية الى احداث انقلاب عسكرى من داخل الجيش السورى لصالح الغرب ٠

وبوجه عام نجد أن هذه التصرفات الأمريكية قد زادت من تدعيم الاتجـــاه القومى الوطنى / الحيـادى فى الشرق الأوسط ولم تؤد الى الغرض المطلوب منها تماما وهو اعادة الطمأنينة للعناصر الموالية للغرب ٠ هذا بالاضافة الى أن الاتحاد السوفيتى الذى تعهد بتقديم المساعدة فى بناء السد العالى فى مصر ومقاومة الحصـــار الاقتصادى الغربى المفروض على مصر تمكن من الحصول على أصدقاء جدد ٠ وقام راديو « صوت العرب » بالقاهرة ببث البرامج الدعائية المجردة فى كثير من الأحيان من المبادىء الأخلاقية ـ ومع ذلك كانت لها تأثير قوى للغاية ـ ضد أمريكا وضد « الرجعيين » من حلفاء أمريكا فى العالم العربى ٠

ولدى تفاقم الحرب الباردة فى الشرق الأوسط شعر الحكم السورى المتسم بالعصبية والمعرض للسقوط بالضغوط الهائلة التى تمارس ضده ٠ وعندما حذرت أمريكا من أن سوريا تتحرك فى اتجاه المعسكر السوفيتى بادر الاتحاد السوفيتى الى تحذير الغرب لكى لا يتدخل فى شئون سوريا ٠ وفى سبتمبر ١٩٥٧ اتهمت سوريا تركيا بحشد قواتها على الحدود السورية ٠ ولم يكن هناك حشد حقيقى على الحدود السورية ولكن عبد الناصر أرسل قوات رمزية الى دمشق لكى يعبر عن دعمه وتأييده لسوريا ٠

وعلى الرغم من أن الحكومة كان يسيطر عليها عادة ساسـة سوريون ينتمون للمدرسة القديمة ويفضلون الابقاء على سـوريا فى نطاق المعسكر الموالى للغرب الا أن السلطة الحقيقية كانت توجد فى أيدى حزب البعث ٠ ولكن موجة المشاعر الموالية للسوفيت كان تعنى أيضا أن الشيوعيين يحرزون تقدما ـ وخاصـــة فى داخل الجيش ٠ ونظرا لأن حزب البعث كان يواجه ضـــغوطا أمريكية

قاسية ولكنه يواجه فى نفس الوقت احتمال اقتسام السلطة مع الشيوعيين أو احتمال قيام الشيوعيين بالاستيلاء على السلطة نهائيا والانفراد بها فانه رأى أن أفضل وسيلة هى انشاء وحدة بين سوريا ومصر تضمن توفير الحماية لسوريا من خلال عبد الناصر • واضطر السياسيون القدامى التقليديون الى الانجراف مع التيار الشعبى فى سوريا • وفى يوم ٢ فبراير ١٩٥٨ أعلن الرئيس المصرى والرئيس السورى بيانا مشتركا عن الاندماج الكامل للدولتين تحت اسم : الجمهورية العربية المتحدة •

فشعر الغرب وحلفاؤه من العرب بالذعر والاتجاهات العدائية • وكرد على ذلك قام العاهلان الهاشميان فى العراق والأردن بالاعلان عن اتحاد فيدرالى يضم العراق والأردن • ومن ناحية أخرى نجد أن الامام أحمد الموغل فى الرجعية والانعزالية فى اليمن رأى أنه من الحكمة أن ينضم الى الجمهورية العربية المتحدة فى اتحاد كونفدرالى غامض يعرف باسم : الدول العربية المتحدة والذى أعلن عنه أيضا فى فبراير ١٩٥٨ •

ومنذ ذلك الوقت فصاعدا تحركت الأحداث بسرعة كبيرة ـ اذ كان عام ١٩٥٨ بالغ الأهمية والخطورة بالنسبة للشرق الأوسط • ففى مارس أرغم الملك سعود على التخلى من سلطاته لصالح أخيه فيصل بعد أن كشف السوريون عن تفاصيل مؤامرة دبرها الملك سعود أو أحد مستشاريه لاغتيال جمال عبد الناصر بهدف منع اقامة الوحدة بين مصر وسوريا • وكان فيصل يعتبر أقل موالاة للغرب وأكثر موالاة للمصريين من أخيه سعود • وفى شهر مايو نجد أن الاستقطاب السياسى الخطير للبنان بين الوطنيين اللبنانيين والوطنيين العرب والذى كان قد تعمق من خـلال أزمة السويس بدأ يتطور ويتحول الى حرب أهلية مكتومة ومستمرة فى الغليان طوال الصيف مع سوريا التى أصبحت جزءا من الجمهورية العربية المتحدة مما

ساعد على تشجيع وتدعيم التمرد الوطنى العربى ضـــد الرئيس شمعون وحكومته الموالية للغرب ٠

وقرر نورى السعيد رئيس الوزراء بالعراق تقديم العون والمساعدة لكميل شمعون فأدى ذلك الى سقوط نورى السعيد فى العراق فى يوليو ١٩٥٨ ٠ فعلى الرغم من أن نورى السعيد كان دائما أستاذا فى الشئون السياسية الا أنه وزملاءه كانوا منفصلين عن الرأى العام العراقى على نحو خطير ـ وخاصة بين ضباط الجيش ٠ وكان تنظيم عراقى مشابه لتنظيم الضباط الأحرار فى مصر قد تشكل تحت قيادة العميد عبد الكريم قاسم ٠ وعندما أصدرت الحكومة أوامرها لفرقة عسكرية متمركزة ٠ بالقرب من بغداد بالتحرك الى الأردن ـ بهدف ممارسة ضغوط على سوريا لكى تتخلى عن اتحادها مع مصر ـ انتهزت هذه الفرقة الفرصة وقامت بالاستيلاء على بغداد والاطاحة بنظام الحكم واعلان الجمهورية ٠ وكانت المقاومة ضئيلة وعند حدها الأدنى ومع ذلك فقد تم اغتيال الملك الشاب فيصل الثانى وعمه ولى العهد وجميع أفراد الأسرة الملكية باستثناء شخص واحد علاوة على اغتيال نورى السعيد رئيس الوزراء وذلك على النقيض من الانقلاب العسكرى فى مصر الذى اتسم باللون الأبيض والخلو تماما من اراقة الدماء ٠ وتشكلت حكومة شغل فيها عبد الكريم قاسم منصبى رئيس الوزراء ووزير الدفاع بينما شغل ضباط آخرون من الجيش باقى المناصب الرئيسية الأخرى ٠ وأعلنت جمهورية العراق الجديدة انحيازها الشديد الى جانب مصر ٠

لقد انتصر عبد الناصر والمذهب الناصرى ٠ اذ أصـــبح الناصريون يحكمون فى سوريا التى هى بمثابة الأراضى الرئيسية العربية الحيوية ٠ وعلاوة على ذلك فان العراق الذى يعتبر أقوى خصم لهم فى العالم العربى والأداة الوحيدة الفعالة المتبقية لصالح السياسات الموالية للغرب قد سقط بالفعل ٠ وصحيح أن النتائج

الفورية المترتبة على تفجر ثورة العراق قد تمثلت فى قيام أمريكا الخائفة من انهيار المعسكر الموالى للغرب فى الشرق الأوسط بانزال عشرة آلاف من جنود البحرية الأمريكية المدربين على العمل فى البر والبحر فى بيروت بناء على طلب الرئيس شمعون علاوة على ارسال قوات بريطانية بالطائرات الى الأردن • الا أن جنود البحرية الأمريكية لم يعملوا على مساعدة شمعون على البقاء فى السلطة ــ لأن أمريكا شجعت فى حكمة على التوصــل الى تسوية أثنــاء قيام اللبنانيين بتسوية أزمتهم بأنفسهم • وتم انتخاب الجنرال فؤاد شهاب وهو قائد الجيش الذى حرص على الابقاء على حياد القوات المسلحة أثناء الصراع السياسى بطريقة دســتورية لكى يخلف كميل شمعون • وحقق المتمردون الكثير مما كانوا يريدونه نظرا لأن لبنان أصبحت أكثر اتساما بالوقوف على الحياد وأقل موالاة للغرب مما كانت عليه فى عهد شمعون • وتفكك الاتحاد الفيدرالى الأردنى/ العراقى بعد أن عاش لفترة قصيرة للغاية • وبدأ الأمر وكان ذلك العدد القليل من الجنود البريطانيين لا يكفى للابقاء على الملك حسين متربعا على العرش •

وعلى الرغم من أن عبد الناصر كان فى ذروة نفوذه وصولجانه فى الشرق الأوسط فان الانحدار من القمة كان أمرا محتوما وعلى نحو يتعذر تجنبه ؛ وفى حقيقة الأمر نجد أن نجاحات عبد الناصر غير العادية ــ والتى كانت ناجمة الى حد ما عن أخطاء خصــــومه وفشلهم فى فهم الطبيعة الحقيقية لجاذبيته لجمــاهير الشــــعوب العربية ــ قد أخفت وراءها نقاط الضعف الكامنة فى أوضاعه • فحرب السويس والآثار المترتبة عليها قد أعطت لمصر وضعا دوليا لم تستطع الحفاظ عليه •

وكانت التوقعــات العربيــة للانتصار الوشيك الوقوع لقضية الوحدة العربية قد وصــــلت الى ذروتها ــ اذ كان بمقدور الدول

العربية الأعضاء فى جامعة الدول العربية أن تتحد فى كيان واحد مثلما حدث بالنسبة للولايات الألمانية أو الولايات الايطالية فى القرن التاسع عشر • الا أنه كانت هناك مجموعة من الأسباب الجغرافية والسياسية التى جعلت من المتعذر أن يصبح دور عبد الناصر مماثلا للدور الذى قام به بسمارك • فالمجتمعات السياسية للدول القومية العربية nation-States — وبعضها دول/قومية جديدة مثل سوريا والعراق والبعض الآخر قديم مثل مصر واليمن — كانت مختلفة عن بعضها البعض اختلافا شاسعا بحيث لم يكن النشاط العاطفى المتعلق بالجامعة العربية الشاملة Pan-Arabism كافيا لتوحيدها •

وكانت المشكلة الفورية الملحة التى واجهها عبد الناصر تتمثل فى حكومة الجمهورية العربية المتحدة • ولقد أشار عبد الناصر فيما بعد الى أنه عندما جاء الزعماء السوريون الى القاهرة ليطلبوا الوحدة مع مصر فانه شعر بأنه من الأفضل البدء باتحاد فيدرالى متمتع بحرية الحركة على مدى فترة انتقالية • وعندما أصروا على الوحدة الكاملة فانه أشار الى أنه اذا كان سيتحمل المسئولية فانه ينبغى أن تحكم الجمهورية العربية المتحدة من القاهرة • ولكن على الرغم من أن عبد الناصر كانت لديه مقدرة كبيرة على تنقيف الذات — وهو فى خطبه الشعبية المطولة كان يبدو دائما وكأنه المعلم لشعبه — الا أنه لم يكن يعرف الكثير من المعلومات عن سوريا • اذ كانت سوريا أكثر غنى وأقل ازدحاما بالسكان وأكثر تعددية فى الآراء من مصر • كما أن مجتمعها السياسى كان أقل نضجا بكثير من المجتمع السياسى فى مصر • وعلاوة على ذلك كانت سوريا دولة يصعب حكمها الى درجة كبيرة •

ومن ناحية أخرى نجد أن البعثيين السوريين الذين كانوا هم القوة المحركة التى أدت الى الاتحاد قد خدعوا أنفسهم • اذ جعلوا

أنفسهم يشعرون بأن عبد الناصر يشترك معهم فى الكثير من مثلهم العليا وأهدافهم وهو بذلك قد أصبح من وجهة نظرهم يتبنى شعارات ميشيل عفلق : « الحرية والوحدة والاشتراكية » ... « أمة واحدة لهـا رسالة أبدية خالدة » . وكانت هناك بعض الحقائق فى هذا الصدد ولكن عبد الناصر لم يكن على استعداد للسماح لحزب البعث أن يحكم سوريا تحت مظلة نفوذ وهيبة عبد الناصر . ولذلك فانه سارع الى اهمال الزعماء البعثيين وازاحتهم مما جعلهم منعزلين فى حزن أو منضمين للمعارضة المريرة . كما أن الدستور البرلمانى لفترة ما بعد الاستقلال قد حل محله تنظيم سياسى وحيد وفقـا للنموذج المصرى . ثم قام عبد الناصر بتعيين نائبين سوريين لرئيس الجمهورية العربية المتحدة علاوة على تعيين وزراء عديدين سوريين فى الحكومة المركزية الا أنه احتفظ لنفسه بمعظم السلطات التنفيذية والتشريعية .

وكان لبعض الموظفين المصريين الذين ذهبوا للعمل فى سوريا مكانة ومقدرة ذهنية وأخلاقية عالية الا أن الكثيرين منهم لم يكونوا كذلك . وعلى نحو حتمى بدأ السوريون يشعرون أنهم أصبحوا فى مركز منخفض بالنسبة للمصريين الذين يعتبرونهم أقل كفاءة ونشاطا من أنفسهم . وبصفة خاصة بدأ الجيش السورى يعانى من جرح كبريائه بينما التجار وكبـار رجال الأعمال وكبار ملاك الأراضى السوريون الذين اعتادوا منذ عهود بعيدة على النشاط الديناميكى للاقتصاد الحر راحوا يرقبون فى ادراك متزايد ما تقوم به مصر من فرض لمبادئها الاشـتراكية عليهم . وفى مصر نجد أن اتجاه الاقتصاد المصرى عن الغرب الرأسمالى زميله نحو الكتلة السوفيتية علاوة على الاتجاه نحو التصنيع السريع وانشاء الأشغال العـامة العملاقة بما فى ذلك بناء السد العالى قد جعل التوسع فى القطاع العام أمرا حتميا . وربما كانت « الاشتراكية العربية » التى حرص عبد الناصر على انشائهـا تتعرض للقيود على أيدى البراجماتية

المتواجدة فى مصر . ولكن الاشتراكية العربية لم تكن متلائمة مع اليسار السورى الذى كان يموج بالروح العدائية . ولدى طرد حزب البعث تم منح بعض التسامح للشيوعيين السوريين لفترة قصيرة – وعلى النحو الذى تم مع الشيوعيين فى مصر .

ومما زاد الأمور سوءا أن الاقتصاد السورى المرتكز على الزراعة بصفة أساسية قد عانى على مدى ثلاث سنوات متتالية بسبب الجفاف وقلة الأمطار من عام ١٩٥٨ حتى عام ١٩٦٠ .

ومع تزايد الاستياء السورى من الوحدة مع مصر نجد أن الحكومة الثورية الجديدة بالعراق سرعان ما خيبت آمال المناصرين لفكرة الجامعة العربيه الشامله Pan-Arabists . فقبل انتهاء عام ١٩٥٨ قام عبد الكريم قاسم بالقاء القبض على أكبر شخصية شاركت معه فى الانقلاب العسكرى وايداعه فى السجن : وهو الكولونيل عبد السلام عارف الذى كان يحبذ اقامة اتحاد مصرى/عراقى على الفور . ووجه عبد الكريم قاسم اللوم الى عبد الناصر واعتبر عبد الناصر هو المسئول عن ذلك التمرد الفاشل الذى حدث فى الموصل – والذى كان مواليا للقومية العربية – فى فبراير ١٩٥٩ . وفى خلال عام ١٩٥٩ سمح عبد الكريم قاسم للشيوعيين العراقيين بتعزيز مركزهم على حساب القوميين العرب [الذين كانوا تحت قيادة البعثيين العراقيين] وعلى مدى حوالى أربع سنوات نجح فى الحفاظ على التوازن من خلال منع أى من المجموعتين من الاستيلاء على السلطة . وعلى الرغم من ذلك كان عبد الناصر لا يشعر بالثقة على الاطلاق فى عبد الكريم قاسم وكان واثقا من أن الشيوعية العراقية تشكل خطرا داهما على العالم العربى كله . وكان عبد الكريم قاسم يتسم بالغرور والتوتر العصبى . وكان يشعر بالمرارة والحقد والكراهية الشديدة ازاء عبد الناصر .

ولكى يعالج عبد الناصر الموقف المتدهور فى سوريا فانه أوفد فى عام ١٩٦٠ أقرب زملائه اليه : الفيلد مارشال [المشير]

عبد الحكيم عامر الى دمشق ليكون حاكما اداريا هناك وأصدر له تعليمات بالعمل على ازالة الأسباب التى أدت الى تزايد المعارضة السورية للوحدة مع مصر • ولكن على الرغم من أن عبد الناصر كان لا يزال يحتفظ بشعبيته الهائلة بين جماهير الشعب السورى ويجتذب أعدادا هائلة من الجماهير السورية المائجة بالحماس الجنونى لدى زياراته لسوريا الا أنه فشل فى التوصل الى وسيلة ملائمة تعينه على تسيير دفة الحكم فى سوريا وفى يوم ٢٨ سبتمبر ١٩٦١ تمردت مجموعة من ضباط الجيش السورى ضد الحكم المصرى • وقاموا بالقاء القبض على المشير عبد الحكيم عامر وأرسلوه فى طائرة الى القاهرة وأعلنوا انفصال سوريا عن الجمهورية العربية المتحدة • ثم تشكلت حكومة جديدة على وجه السرعة من سياسيين سوريين محافظين •

وفكر عبد الناصر فى بادىء الأمر فى التدخل عسكريا فى سوريا • ولكنه غير رأيه عندما تلاشت بسرعة كل أنواع المقاومة التى وقفت ضد الانقلاب • وبعد أيام قليلة أشار عبد الناصر الى أنه لم يكن من الضرورى أن تبقى سوريا جزءا من الجمهورية العربية المتحدة • ولكنه أوضح أنه لن يعارض انضمامها مرة أخرى الى « الدول العربية المتحدة » •

وكانت تلك هى الفترة التى شعر فيها أعداء عبد الناصر الكثيرون سواء بالشرق الأوسط أو فى أى مكان آخر بالبهجة والانتصار • وابتهجت الحكومات الغربية ولكن زعماء العراق والأردن والمملكة العربية السعودية لم يستطيعوا أيضا اخفاء شعورهم بالسعادة والبهجة •

وقال عبد الناصر فى خطاب موجه للمصريين « ينبغى أن يكون لدينا الشجاعة التى تعيننا على الاعتراف بأخطائنا » • الا أن التحليلات الشخصية الخاصة به تشير الى أنه كان ينبغى عليه أن يكون اكثر

حزما فى فرض اشتراكية مصر على سوريا • فقبل انفصال سوريا بثلاثة شهور صدرت سلسلة متعاقبة من القرارات فى مصر بشأن تأميم شركات تصدير القطن والبنوك وشركات التأمين علاوة على تأميم ٢٧٥ من الشركات الكبرى الصناعية والتجارية بالاضافة الى تخفيض الحد الأقصى للممتلكات من الأراضى الزراعية الى النصف مع فرض زيادة حادة على ضريبة الدخل • وكان عبد الناصر واثقا من أن انفصال سوريا قد نجم عن الهجوم المضاد الذى شنته البرجوازية السورية ضد مثل هذا الاتجاه الشديد نحو اليسار • ونظرا لأنه بدأ يعتقد أن البرجوازيين فى مصر ربما يخططون للقيام بعمل مماثل فانه شن هجومه المضاد الوقائى والذى تم بمقتضاه مصادرة ممتلكات ما يزيد على ألف عائلة تعتبر هى أغنى العائلات فى مصر •

وكان يدرك أن هذا اجراء لا يكفى وأنه ينبغى عليه أن يعطى اشتراكيته العربية تعريفا أيديولوجيا أكثر وضوحا • لذلك أمضى شتاء عام ١٩٦٢/٦١ فى اعداد كتاب تحت عنوان « ميثاق العمل الوطنى » الذى يضم ٣٠ ألف كلمة ، وذلك قبل الدعوة لعقد المؤتمر الوطنى للقوى الشعبية الذى حضرته النقابات العمالية والاتحادات المهنية وغيرها من مجموعات الطوائف الأخرى لكى يتم مناقشة البنود الواردة فى هذا الميثاق • وعلى الرغم من تأثر عبد الناصر بالماركسية [وخاصة النموذج اليوغوسلافى] واشتراكية دولة الرفاهية الأوربية فانه حاول التوفيق بينها وبين وجهة نظره فيما يتعلق بالاحتياجات الخاصة بالمجتمع المصرى والعربى/الاسلامى •

وكان الميثاق متخذا الطابع العلمانى ولكنه لم يكن مناهضا للأديان • ويبدأ الميثاق من افتراض أن الديموقراطية البرلمانية المصرية فى فترة ما قبل الثورة والمرتكزة على النماذج الغربية كانت بمثابة « مهزلة مخزية » وذلك لأن « الديموقراطية السياسية لا يمكن

فصلها عن الديموقراطية الاجتماعية » • فالتصويت فى الانتخابات لا معنى له الليم الا اذا كان المواطن متحررا من كافة أنواع الاستغلال ومتمتعا بالفرصة المتساوية مع اخوانه المواطنين فى الحصول على نصيب عادل من الثروة الوطنية وحاصلا على قدر ملائم من المستوى المعيشى • وعلى الرغم من أن الميثاق صادق على تأميم كافة المرافق والخدمات العامة ومعظم الصناعة وتجارة التصدير/الاستيراد الا أنه أشار الى أن تأميم الأراضى الزراعية هو أمر غير وارد على الاطلاق • وسمح بالملكية الخاصـــة للمبـــانى والعمارات بشرط اخضاعهـــا للاشراف • وابتعد الميثاق عن التجربة السوفيتية وذلك بأن رفض اعطاء أولوية للصناعة الثقيلة على حساب انتاج السلع الاستهلاكية •

كما نص الميثاق على خلق تنظيم سياسى جديد فريد من نوعه عرف باسم : « الاتحاد الاشتراكى العربى » وله شكل هرمى يرتكز على « وحدات أساسية » فى القرى والمصانع والورش ويتصاعد من خلال مجالس منتخبة على مستوى الحى ومستوى المحافظة الى اللجنة التنفيذية الوطنية برئاسة رئيس الجمهورية • وتم الابقاء على المؤتمر القومى كأداة تشريعية تابعة للاتحاد الاشتراكى العربى ASU • وفى هذا المؤتمر القومى وكذلك فى كافة الهيئات المنتخبة التابعة للاتحاد الاشتراكى العربى تقرر حجز نصف المقاعد من أجل العمال أو الفلاحين [وتم تعريف الفـلاح بأنه أى شخص يمتلك أقل من ٢٥ فدانا] • وكان عبد الناصر يعتقـــد أن هدفه من وراء ذلك واضح للغاية : ألا وهو خلق ديموقراطية اجتمـــاعية تشارك فيها جماهير الشعب المصرى مشاركة حقيقية لأول مرة • ولكن من المتعذر أن ينجح مثل هذا النظام عندما يتم خلقه على الفور من أعلى ــ والجدير بالذكر أن المؤتمر القومى وافق على الميثاق بدون ادخال أية تعديلات عليـــه •

واستغراق عبد الناصر وانهماكه فى ميثاقه الوطنى علاوة على الحقيقة التى مفادها أنه لم يعد يهتم بالمشكلات المتعلقة بسوريا والتى

قال عنها أنها استغرقت ¾ وقته على مدى ثلاث سنوات ونصف السنة ـ لم يكن يعنى أنه قد أدار ظهره للعالم العربى أو أنه تخلى عن مطالبته بالزعامة العربية على جميع العرب • فهذه لم تكن عى نواياه ومآربه ـ وحتى لو كانت هذه هى نواياه فان الظروف لم تكن تسمح بها • اذ ظل الى حد بعيد هو الشخصية الرئيسية الأولى على مسرح العالم العربى وظلت الآمال معقودة عليه من وجهة نظر جماهير الشعب العربى • واحتفظ عبد الناصر باسم : الجمهورية العربية المتحدة بالنسبة لمصر عقب انفصال سوريا وذلك لكى يرمز الى اتجاهاته السياسية •

وراحت الحكومات العربية المعادية تصب وابلا من القدح والذم والطعن • وركز السعوديون هجومهم على الاشتراكية المصرية التى قالوا عنها أنها اشتراكية الحادية • وحتى الامام أحمد رئيس اليمن ـ الذى كان معتل الصحة ومع ذلك كان لا يزال يثير الخوف والرهبة بين رعاياه ـ انضم الى الكوراس المناهض للمصريين • وهكذا تم تفكك كل من : الدول العربية المتحدة والجمهورية العربية المتحدة • وانطلقت أعنف الشتائم من سوريا التى شهدت سلسلة متعاقبة من الحكومات غير المستقرة المنتخبة وفقا للدستور القديم والتى أعقبت بعضها البعض فى تتابع سريع • واتهم المتحدثون الرسميون السوريون جمال عبد الناصر ومصر بممارسة حكم ظالم مليىء بالرعب فى سوريا علاوة على اختلاس الأموال من الدولة السورية • وكانت ردود القاهرة أعلى صوتا وأكثر فاعلية من كافة تلك الانتقادات لأن أجهزة الدعاية فى مصر كانت أكثر تطورا من أى جهاز دعاية متواجد فى أى دولة عربية أخرى • وأشار عبد الناصر الى أنه يتعذر خلق تسوية بين الاشتراكية العربية « والرجعية » • ومن أشهر العبارات التى رددها أن « وحدة الصفوف لا يمكن أن تحل محل وحدة الأهداف » •

الا أن مصر كانت الى حد ما فى موقف دفاعى فبعد تفجر شجار عنيف مع السوريين فى اجتماع لجامعة الدول العربية عقد فى لبنان أعلن عبد الناصر انسحاب مصر من جامعة الدول العربية · وبعدئذ ـ وعقب مرور عام على انفصال سوريا ـ تفجرت أحداث فى شبه الجزيرة العربية النائية أدت الى تمكين عبد الناصر من استرداد زمام المبادرة · ففى ٢٨ سبتمبر ١٩٦٢ قام بعض ضباط موالين للمصريين بالجيش اليمنى بانقلات ضد الامام بدر الذى كان قد صعد توا الى الحكم خلفا لوالده · ثم استولوا على المدن الرئيسية باليمن وأعلنوا آن اليمن أصبحت جمهورية · ولكن قضية النظام الملكى باليمن لم تضع نهائيا لأن الامام بدر تمكن من الهرب ولأن عمه الأمير حسن عاد الى المملكة العربية السعودية قادما من أمريكا من أجل العمل على حشد رجال القبائل اليمنيين ضد الجمهورية اليمنية الجديدة · وقرر عبد الناصر على الفور تلبية النداء الموجه اليه من الثوريين لكى يقدم لهم يد العون والمساعدة · ثم أبحرت حملة عسكرية مصرية ضخمة فى البحر الأحمر متجهة الى ميناء الحديدة اليمنى · وكانت النتيجة أن تورطت مصر فى حرب طويلة فى اليمن ـ وصفت بأنها « فيتنام المصرية » ـ مما كبد مصر خسائر فادحة · اذ كانت القوات المصرية غير مدربة على مواجهة حرب العصابات القبلية التى تتم فى الأراضى الجبلية · ولم يلق هذا التدخل العسكرى تأييدا فى مصر من جانب تلك الفئات الجماهيرية التى تأثرت بشكل مباشر من الحرب وعانت من أضرارها · كما أن معظم باقى المصريين نظروا الى هذا الحرب فى لا مبالاة · ولكن حدوث انقلاب ناصرى فى داخل اليمن أدى الى رفع معنويات مصر فى ذلك الوقت وزاد من هيبتها فى باقى أرجاء العالم العربى · ولدى ارسال الحملة العسكرية المصرية الى اليمن أشار عبد الناصر الى أن القوات المسلحة المصرية هى القوات الوحيدة بالعالم العربى التى تخشاها اسرائيل · وأصبح خصوم عبد الناصر آنئذ هم الذين

يتخذون موقفا دفاعيا . ثم لجأ الى مصر سبعة من الطيارين السعوديين فى أكتوبر ١٩٦٢ . وبعد ذلك بوقت قصير لجأ قائد سلاح الطيران الأردنى واثنان من الطيارين الأردنيين مما أظهر أن ولاء القوات المسلحة فى هاتين المملكتين العربيتين لم يكن راسخا .

كما أن العاطفة الموالية للنزعة العربية الشاملة Pan Arabist كانت عاملا حاسما فى حدوث انقلاب آخر فى العراق فى ٩ فبراير ١٩٦٣ . اذ تفجرت ثورة فى الجيش لعب فيها الضباط البعثيون دورا رئيسيا . وأطاحت بالجنرال عبد الكريم قاسم وقامت بقتله . وتم تنصيب الكولونيل عبد السلام عارف رئيسا للجمهورية . وعلى الفوز أعلن عبد السلام عارف تعاطفه مع المصريين .

ولم يعد بمقدور الحكومة الهشة فى سوريا مقاومة الضغوط المشتركة التى تمارس من جانب القاهرة وبغداد . وبعد مرور شهر واحد على الانقلاب العسكرى العراقى تفجر انقلاب عسكرى فى دمشق وأطاح بجميع الرجال الذين كانوا يسيطرون على الحكم منذ انهيار الوحدة المصرية/السورية . وتعهد مجلس قيادة الثورة الجديد « بتدعيم ومساندة حركة الوحدة العربية الجديدة » . ولم يكن البعثيون هم الذين قادوا الانقلاب ـ مثلما حدث فى العراق ـ ولكنهم كانوا بمثابة التنظيم المدنى الوحيد المتواجد خارج نطاق الحكم القديم والذى كان قادرا على تشكيل حكومة . وفى خلال أسبوع حضرت الى القاهرة وفود وزارية عراقية وسورية من أجل مناقشة الخطط الرامية الى اقامة اتحاد يضم سوريا والعراق ومصر .

وبدت هذه مثل لحظة أخرى من لحظات النصر الكبير لعبد الناصر . الا أن التحرر من الوهم ظهر بسرعة تفوق السرعة التى ظهر بها أثناء الوحدة المصرية/السورية . حيث ظهرت على السطح فقدان الثقة المتبادلة بين عبد الناصر والبعثيين . وشعر عبد الناصر أنه يمكن له أن يتوافق مع البعثيين العراقيين لأسباب

عديدة منها : أنهم تحملوا وطأة الكفاح ضد عبد الكريم قاسم علاوة على أنهم أكثر انضباطا من نظرائهم السوريين بالاضافة الى أنهم ليس لديهم تراث من الحقد والضغائن تجاه مصر ـ ولكنه لم يكن يشعر بأى ثقة تجاه البعث السورى • وكان يوجد عدد قليل من البعثيين المثاليين فى كل من سوريا والعراق لديهم اختلاف عقائدى مع مصر من حيث مطالبتهم بالحريات الديموقراطيـــة والقيـــادة الجماعية • الا أن معظم البعثيين كانوا يعتقدون أن انقاذ العرب لن يتم الا من خلال حزب البعث • ولكى يتحقق لهم ذلك الهدف فانهم كانوا على استعداد لاستخدام وسائل شمولية استبدادية على النحو السائد فى مصر •

وتعرقلت محادثات الوحدة الثلاثية بسبب شخصية عبد الناصر القوية الكاسحة وخبرته الطويلة فى الشئون السياسية والحـــكم [عبر عبد الناصر فيما بعد عن سخريته الشديدة من مشيل عفلق الخجول المتحفظ الذى ينطق الكلام فى تمتمة وفأفأة والذى كان غير قادر على التعبير عن آرائه فى وضوح] • وعلى الرغم من أنه قد تم التوصـــل الى صيغة اتفاق بشـــأن اتحاد فيدرالى ثلاثى فى ١٧ ابريل الا أن الوحدة قد ولدت ميتة • ففى خلال مايو ويونيو قام البعثيون السوريون بتطهير الجيش من الضباط غير البعثيين علاوة على كبت المظـاهرات المؤيدة لعبد الناصر • وعقب القمع الوحشى لانقلاب موالى لعبد الناصر فى سوريا فى شهر يوليو بدأ عبد الناصر يهاجم حزب البعث علنا لأول مرة بأن وصف الحكم السورى بأنه « انفصـــالى وغير انسانى وغير أخلاقى » وأعلن عن أن المخابرات المصرية قد كشفت عن تحالف عراقى/سورى موجه ضده •

وبينما كانت علاقات مصر مع العراق وسوريا تتعرض للتدهور وتزداد سوءا شعر عبد الناصر ببعض الارتياح • ففى شهر نوفمبر انقسم البعثيون العراقيون الذين كانوا قد أثاروا استياء الجماهير

بسبب لجوئهم للوسائل العنيفة والذين كانوا قد استأنفوا الحرب المرهقة ضد الأقلية الكردية الثائرة التى أصابت حكومة عبد الكريم قاسم بالضعف الشديد ـ الى فصيلتين فتم طردهم بمعرفة الرئيس عبد السلام عارف [حيث كانوا قد حاولوا الابقاء عليه كرئيس صورى فقط] وبعض ضباط كبار غير بعثيين • ونظرا لأن عبد السلام عارف كان صادقا مع مبادئه وأفكاره فانه مارس الضغوط مرة أخرى من أجل الوحدة الفورية مع مصر • الا أن التجربة جعلت عبد الناصر يلتزم بالحرص والحذر • فاقترح على العراقيين أن يعملوا أولا على تحقيق الوحدة الوطنية الخاصة بهم والتى تعنى ايجاد حل للمشكلة الكردية وغيرها من المشكلات الأخرى •

وعلى الرغم من أن عبد الناصر كان يعتقد أن الوحدة السياسية العربية هى أمر متعذر تماما فى المستقبل القريب الا أنه كان يرى أن الأمر يستلزم ضرورة التوصل الى نوع ما من العمل العربى المشترك • اذ كان الاسرائيليون قد استكملوا تحويل بعض مياه نهر الأردن الى صحراء النقب رغم أنه ومعه الزعماء العرب قد أقسموا على منع ذلك الاجراء • ولم يكن هذا وقتا ملائما للاصرار على « وحدة الأهداف » قبل « وحدة الصفوف » • ففى موقف العرب المتسم بالانقسام لم يكن هناك سوى أمل ضئيل فى اتخاذ عمل مشترك فعال ولكن كان هناك خطر حقيقى بسبب احتمال قيام دولة عربية واحدة ـ مثل سوريا التى كانت تسيطر عليها عناصر يسارية متهورة ـ بالتصرف من تلقاء نفسها واغراق الدول العربية الأخرى فى حرب مع اسرائيل بدون استعداد كافى لمواجهة هذه الحرب • ولذلك قام عبد الناصر بتوجيه الدعوة لجميع الملوك والرؤساء العرب ـ وكان يدرك أنه من الصعب عليهم للغاية أن يرفضوا تلبية هذه الدعوة ـ للاجتماع فى القاهرة فى يناير ١٩٦٤ مما أعطى سابقة لعقد اجتماعات للقمة بصفة منتظمة • وانتهز عبد الناصر الفرصة لاصلاح علاقاته مع الزعماء العرب الموالين للغرب مثل الملك حسين

والملك سعود المتوعك الصحة والحبيب بورقيبة رئيس تونس وتشديد فرض العزلة على حزب البعث • وتم عقد اجتماع ثان للقمة في الاسكندرية في شهر سبتمبر • روافق الزعماء العرب على انشاء قيادة عسكرية عربية موحدة تحت رئاسة جنرال مصرى علاوة على انشاء منظمة التحرير الفلسطينية [ولكنها ليست بمثابة حكومة فى المنفى] وتكوين جيش خاص بها لكى تمثل الشعب الفلسطينى • كما وافقوا جميعا — وان كان فى قدر ضئيل من الحماس — على اختيار المحامى الفلسطينى الممل المزعج أحمد الشقيرى رئيسا لمنظمة التحرير الفلسطينية • وأوضح الملك حسين للجميع بأنه لن يسمح لمنظمة التحرير الفلسطينية بممارسة أية سلطة فى داخل الأراضى الأردنية • ووافق الرؤساء العرب أيضا على وضع خطط لتحويل منابع نهر الأردن الى الأراضى العربية بهدف احباط مشاريع الرى الاسرائيلية •

أما المشكلة الملحة المتعلقة بكيفية تلبية مطالب جماهير الشعب العربى باتخاذ اجراء بشأن فلسطين بدون اثارة حرب مع اسرائيل قد تسفر عن نتائج فى حجم الكارثة بالنسبة للعرب فلم تتخذ اجراءات لحلها وتقرر تأجيلها • وانخدع الرأى العام العربى حيث تخيل الناس أنه يتم على الأقل اتخاذ اجراء ما ايجابى • واحجمت سوريا ولبنان عن تنفيذ عمليات تحويل روافد نهر الأردن المتواجدة فى أراضيهما بدون توفير حماية كافية تفوق تلك التى كانت ضرورية من أجل أن تتمكن القيادة العسكرية العربية الموحدة من أداء عملها كانت مفقودة •

وخلال عام ١٩٦٥ وعام ١٩٦٦ تعمق الانقسام بين المعسكر العربى الراديكالى [بقيادة مصر] والمعسكر التقليدى المحافظ [بقيادة المملكة العربية السعودية] • وكان الملك سعود قد تنازل عن العرش فى ديسمبر ١٩٦٤ وصعد الى الحكم بعده أخوه فيصل •

وعلى الرغم من أن عبد الناصر قد اتفق علنا مع فيصل على أن الأمر يستلزم تسوية الحرب الأهلية الملكية/الجمهورية فى اليمن والتى وصلت الى حجم الكارثة نجد أن كلا منهما لم يكن على استعداد لانجاز المصالحة والتسوية اللازمة ٠

ووجد عبد الناصر نفســه يواجه لأول مرة منذ موت نورى السعيد شخصية تجومية متألقة منافسة متمثلة فى الملك فيصل ٠ وكان فيصل من نوع مختلف تماما عن عبد الناصر ٠ وكانت الصفة المشتركة بينهما تتمثل فى التقشف والزهد والبساطة فى حياتهما الخاصة ٠ وكان فيصل متحفظا ووقورا ومتسمابالتأمل والتفكير الشديد مما جعله يجتذب الاحترام الفورى من جانب الناس ٠ وكان فيصل لا يروق كثيرا لطبقة المثقفين أو جماهير الناس الحضريين ـ شأنه فى ذلك شأن نورى السعيد ـ ولكنه كان الراعى للأماكن المقدسة الاسلامية والحاكم على دولة عربية لم يسبق لها أن رزخت تحت السيطرة الاســتعمارية ـ وان كانت متخلفة وغير نـامية ـ وبالتالى لم يكن بها تلك العقد النفسية التى تواجدت فى الدول التى وقعت تحت الاستعمار ٠ وهو كرجل دبلوماسى ورجل دولة كان مختلفا عن أخيه سعود : ففى حين أنه كان يرفض ادخال أى نوع من الاصلاح الدستورى الليبرالى نجد أنه كان يشجع على تنفيذ المزيد من التنمية الاجتماعية والاقتصادية المتسمة بالسرعة والذكاء فى داخل البلاد ٠ فأدى هذا الى تسهيل مهمته فى أن يحشد تحت لوائة تلك العنـاصر المتواجدة بالعـالم العربى التى تخاف من الناصرية أو تشعر بالعداء نحوها ٠

وكانت اتجاهات فيصل متسمة بالطابع الاسلامى أكثر من اتصافها بالطابع القومى ٠ وفى ديسمبر ١٩٦٥ قام بزيارة رسمية لايران ٠ وألقى خطابا فى المجلس [البرلمان] الايرانى أشار فيه الى الحاجة الى الوحدة الاسلامية فى مواجهة التأثيرات الهدامة التى

تجيء من الخارج • وعلى الرغم من أنه تعمـــد التحدث بوجه عام بدون ذكر أسماء الا أنه يشير بكل تأكيد الى الاشتراكية العربية المتواجدة فى مصر • وهكذا نرى أن فيصل قد بدأ بالفعل فى خلق « جبهة اسلامية » محافظة تقليدية ضد عبد الناصر •

ورغم كل ذلك فان عبد الناصر هو الذى استمر فى القيـــام بالدور الرئيسى القيادى على المسرح العالمى • اذ كان قد تم التغلب على خلافاته مع الاتحاد الســـوفيتى والتى كانت قد نشأت بسبب عداء عبد الناصر للشيوعيين العراقيين وبحيث كانت موسكو لاتزال تنظر الى القاهرة على أنها المركز لسياستها فى الشرق الأوسط • وتمثلت العـلاقة الوطيدة فى الزيارة التى حظيت بقدر هـائل من الدعاية والتى قام بهـا رئيس الوزراء السوفيتى خروشوف لمصر فى مايو ١٩٦٤ بمناسـبة افتتاح المرحلة الثانية من بنـاء السد العالى ـ وهو المشروع الضخم الذى يهدف ليس فقط الى تغيير وجه الحياة فى مصر ولكن لكى يكون أيضا بمثابة بارجة الأميرال الخاصة بالمساعدات السوفييتية للعالم الثالث • ومن ناحية أخرى أن أمريكا قد تقبلت أيضا حتمية قيادة عبد الناصر للعالم العربى • فقبيل انتهاء ادارة أيزنهاور الثانية أصبحت الحكومة الأمريكية واثقة تماما من أن عبد الناصر ليس شيوعيا بل والأكثر من ذلك أنه يعتبر أفضل تحدى ضد الشيوعية فى الشرق الأوسط • وتدعم هذا الاتجاه الجديد الأمريكى نحو مصر على أيدى الرئيس كيندى الذى اقترب تماما من اقامة علاقات ودية ومليئة بالثقة مع عبد الناصر الذى كان يشعر أيضا بالاعجاب الشديد بشخصية كيندى • وفى خلال الفترة من عام ١٩٥٨ حتى عام ١٩٦٤ قدمت أمريكا الى مصر ما يزيد على بليون دولار كمساعـدة لمصر ـ ومعظمها قـروض طويلة الأجل وبفوائد منخفضة •

وكان لموت كيندى وقع الصدمة الهائلة على عبد الناصر وجميع العرب حيث شعروا أنهم قد فقدوا أول رجل دولة أمريكى لديه بعض

التعاطف مع وجهة النظر العربية • ولم يشعر عبد الناصر بالاطمئنان عندما أظهر الرئيس جونسون ـ الذى كانت اهتماماته بالشئون الخارجية تقل كثيرا عن اهتمامات كيندى ـ دلائل تشير الى أنه متعاطف كثيرا مع الصهاينة الأمريكيين • وبدأت علاقات عبد الناصر مع أمريكا في التدهور بشدة بسبب مسألة الكونغو [زائير] حيث كانت مصر تقدم المزيد من الدعم للثوار ضد حكومة تشومبى التى كانت أمريكا تريد لها البقاء فى السلطة • وتصرف عبد الناصر فى غضب وتحدى عندما أدرك أن أمريكا كانت تحاول استخدام امداداتها للطعام الرخيص لمصر كوسيلة للضغط عليه لكى يغير سياساته • ولكن عندما أصدر مجلس النواب الأمريكى قرارا بايقاف كافة المساعدات التى تمنح لمصر رفض الرئيس جونسون ووزير خارجيته دين راسك تقييد أيدى أمريكا فى الشرق الأوسط على هذا النحو • وبذل الرئيس جونسون كل ما لديه من نفوذ من أجل الغاء ذلك القرار لدى عرضه على مجلس الشيوخ •

ولأسباب تتعلق باللغة والانتماء العنصرى والدينى والمصالح الاستراتيجية نجد أن عبد الناصر لم يمنح الدائرة الأفريقية نفس الاهتمام الذى أعطاه للدائرة العربية • الا أن مصر اكتسبت نفوذا هاما فى جميع أرجاء أفريقيا السوداء التى كانت معظم الدول بها قد حصلت على استقلالها منذ فترة قصيرة للغاية • ففى يوليو ١٩٦٤ استضاف عبد الناصر المؤتمر الثانى لمنظمة الوحدة الأفريقية • وكان وضعه كزعيم لحركة عدم الانحياز أمرا مسلما به ومعترفا به من الجميع • وفى أكتوبر ١٩٦٤ عقد رؤساء ومندوبو ٥٦ دولة من دول عدم الانحياز اجتماع القمة الخاص بهم فى القاهرة • وربما يكون المفهوم الذهنى لعدم الانحياز لا يتضمن تعريفا محدد المعالم الا أنه كان له معنى حقيقى لدى معظم دول العالم الثالث التى عرفته الى حد ما من خلال ربطه بعبد الناصر وسياسات عبد الناصر •

ولم يكن بمقدور عبد الناصر من حيث هو رجل دولة عالمي أن يحل مشاكله الداخلية أو يتفادى أخطار الدخول في حرب جديدة مع اسرائيل . اذ كانت التزامات مصر متعـددة للغـــاية وعلى نحو خطير . فعلى الرغم من سياسات عبد النـاصر المتعلقة بالتصـنيع والتوسع الاقتصادى السريع قد حققت معدل نمو معقول على مدى السنوات العشرة الماضية الا أن بعض المشروعات كانت قد درست بطريقة خاطئة مما جعل عبء الديون يتصاعد الى مستويات منذرة بالخطر . وصحيح أن عبد الناصر كان قد نجح في استغلال دور مصر الاستراتيجي من أجل الحصول على مساعدات مالية من الغرب والشرق الا أن المساعدات الغربية أصبحت تتضاءل تدريجيا وأصبح رصيد الدائن في مصر يتعرض للاستنزاف بل وصار التبادل الأجنبي هزيلا وغير كاف . وعلى الرغم من أن قبول المصريين لقيادته كان لا يزال يبدو كاسحا وعلى نحو لا يمكن ارجاعه فقط الى الوسائل البوليسية التي كان نظامه يستخدمها بدون شك نجد أن عبد الناصر قد أعلن في صيف عام ١٩٦٥ في اكتئاب عن اكتشاف مؤامرة تحاك على نطاق واسع بمعرفة جماعة الاخوان المسلمين مما كشف النقاب من الاستياء الأيديولوجي والسياسي على مستويات عديدة بالمجتمع .

وكانت مسئوليات الدور الذي تقوم به مصر في قيادة العرب متسمة بالخطورة على نحو متزايد . فاستمرار الحرب الأهلية في اليمن قد زاد من الأعباء الاقتصادية الواقعة على كاهل مصر بل وأدى أيضا الى احتجاز حوالى ٤٠ ألف من أفضل الجنود المصريين المدربين تدريبا جيدا . وفي نفس الوقت كانت الأحداث تتحرك بسرعة نحو تفجر حرب عربية/اسرائيلية ثالثة .

ففي فبراير ١٩٦٦ نجد أن نظام الحكم السوري الذي كان قد بدأ اعادة العلاقات الودية مع مصر قد تم الاحاطة به على أيدى الجناح الراديكالي لحزب البعث . ولم يكن الحكام السوريون الجدد يشعرون بأى حب تجاه عبد الناصر الا أنهم كانوا يشعرون بالمزيد

من العداء تجـاه الملوك العرب بل وكانوا أكثر ميـلا من الحكام السابقين عليهم الى الدخول فى حرب ضد اسرائيل • وبينما كان الملك حسين يحاول منع الفدائيين الفلسـطينيين من شن هجماتهم من داخل أراضيه على اليهود قامت سوريا بتشجيعهم وتقديم العون والمساعدة لهم مما جعل اسرائيـل توجه تهديداتها الانتقـامية الى سوريا بصفة خاصة • ولم يكن بمقدور عبد الناصر رفض مناشدة سوريا له بتقديم المساعدات لها • وفى نوفمبر ١٩٦٦ قام بالتوقيع على اتفاقية دفاع شاملة سوريا / مصرية • وأصبح عبد الناصر بذلك ملتزما بالدفاع عن سوريا وبدون أن تكون لديه المقدرة على السيطرة على الموقف •

وبعد ثلاثة أيام قتل ثلاثة جنود اسرائيليين بسبب انفجار لغم بالقرب من الحدود الأردنية • وعلى الرغم من أنه كان من الواضح أن سوريـا هى المصـدر الذى تنطـلق منه الهجمـات التخريبية الفلسطينية فان اسرائيل شنت انتقامها الشنيع كالمعتاد بالاغارة بالطائرات على قرية بالضفة الغربية • فاحتج الفلسطينيون بسبب عدم قيام الجيش الأردنى بتوفير الحمـاية الكافية لهم فى الضفة الغربية وتمردوا فى ثورة كبيرة مما جعل الملك حسين لا يتمكن من اخمادها الا بصعوبة • ثم وجه الملك حسين فى غضب شديد هجوما على عبد الناصر بسبب انتقاداته للطريقة التى تناولت بها الأردن الأمور • وسخر من عبد النـاصر لأنه يتخفى وراء حمـاية قوة الطوارىء الدولية للأمم المتحدة التى جعلت الجبهة الاسرائيلية / المصرية هادئة منذ عام ١٩٥٦ •

ووصل التوتر الى مستويات أعلى فى الربيع التالى لدى قيام القادة الاسرائيـليين بتوجيه تحذيرات شـديدة لسوريا • وقامت المخابرات السـوفييتية والسـورية والمصرية فى آن واحد بتنبيه عبد الناصر الى أن هجوما اسرائيليا على سوريا على وشك أن يتم خلال

فترة قصيرة • فكان رد فعل عبد الناصر هو أن طلب فى ١٨ مايو من يوثانت سكرتير عام الأمم المتحدة سحب قوات الطوارىء الدولية من سيناء [حيث كانت قد تمركزت فقط على الجانب المصرى من الحدود بناء على اصرار من اسرائيل] • وعندما وافق يوثانت على مطلب عبد الناصر أصبح الطريق الى الحرب مفتوحاً على مصراعيه • وأصدر عبد الناصر أوامره للقوات المصرية بالدخول الى سيناء • ثم أعلن – بينما أعين العالم العربى مصوبه اليه متركزة عليه – غلق مضايق تيران أمام السفن الاسرائيلية • وأدرك الملك حسين أنه لن يكون بمقدوره الوقوف بمنأى مبتعدا عن الحرب الحتمية الوشيكة الوقوع • فبادر الى الذهاب بالطائرة الى القاهرة فى ٣٠ مايو لكى يوقع على اتفاقية دفاع مع مصر • وأصبحت لدى مصر اتفاقيات دفاع مع كل من سوريا والأردن • الا انه لم يكن هناك أى تعاون حقيقى بينهم كما لم يكن هناك أى مظهر من مظاهر القيادة العربية المشتركة •

وأصبحت الدول العربية آنئذ فى حالة من الانفعال العاطفى حيث ساد الاعتقاد بأن النصر النهائى على اسرائيل بات وشـــيك الوقوع • وحتى عبد الناصر نفسه تخلى عن شكوكه الاعتيادية بشأن الامكانيات العسكرية العربية على الرغم من أنه كان يبالغ فى ثقته فى القائد العسكرى الخاص به : المشير عبد الحكيم عامر • وكان أيضا يعتقد فى احتمال قيام أمريكـــا بمنع اسرائيل من الهجوم مما يتيح له الفرصـــة باحراز انتصـــــار تكتيكى بدون الدخول فى حرب • بل ووعد الاتحاد الســـوفيتى بأن مصر لن تقوم بتوجيه الضربة الأولى فى الحرب • ولكنه كان ينبغى أن يدرك من خلال التجارب أن الاحتمال كبير للغاية فى أن اسرائيل ستلجأ للحرب اذا لم تؤد الضغوط الدولية الى اعادة فتح مضايق تيران أمام السفن الاسرائيلية • وكان ينبغى ازاحة أية شكوك أخيرة متبقية عندما انضم

الجنرال النشيط موشى ديان الى الحكومة الاسرائيلية فى أول يونيو ١٩٦٧ ·

وفى يوم ٥ يونيو ١٩٦٧ قامت اسرائيل بشن هجوم على جميع المطارات الحربية البالغ عددها ١٧ مطارا فى مصر محطمة معظم سلاح الطيران المصرى أثناء تواجد الطائرات على الأرض · وفى يوم ٦ يونيو توغلت القوات الاسرائيلية بسرعة فى داخل سيناء · وهزمت الفرق العسكرية المصرية السبع · وقتل حوالى عشرة آلاف جندى مصرى أو ماتوا من العطش أثناء كفاحهم من أجل العودة عبر قناة السويس التى وصلت اليها القوات الاسرائيلية فى ٩ يونيو · وبعد أن انتهت اسرائيل من تدمير سلاح الطيران المصرى تحولت الى الأردن التى كانت قد دخلت فى الحرب كحليفة لمصر · وبحلول مساء يوم ٧ يونيو واحتلال مدينة القدس القديمة والضفة الغربية وافقت الأردن على مطلب مجلس الأمن التابع للأمم المتحدة بوقف اطلاق النيران · ثم وافقت مصر على وقف اطلاق النيران فى اليوم التالى · فأصبحت لاسرائيل حرية الحركة لكى تتحول الى سوريا التى كانت قد اكتفت بشن هجمات لجس النبض · فاجتاحت القوات الاسرائيلية مرتفعات الجولان وقامت باحتلال مدينة القنيطرة الواقعة على الهضبة السورية · فاضطرت سوريا الى الموافقة على وقف اطلاق النيران فى ١٠ يونيو ·

وكان للانتصار السريع الساحق فى حرب الأيام الستة نتائج عديدة مباشرة وعلى المدى البعيد · اذ أصبح لدولة اسرائيل الصهيونية سيطرة عسكرية على القدس كلها وعلى الجزء المتبقى من فلسطين والذى تبلغ مساحته ٢١٪ من المساحة الكلية لفلسطين · كما قام حوالى ٢٠٠ ألف من اللاجئين العرب بعبور نهر الأردن الى الضفة الشرقية · كما أن اسرائيل احتلت كل سيناء وأصبحت قواتها متواجدة على الضفاف الشرقية لقناة السويس حيث كانت من هذه المرة تعتزم البقاء · ومع احتلال اسرائيل لمرتفعات الجولان تكون قد أزالت الميزة الاستراتيجية لسوريا ·

وبينما كان الانتصار الاسرائيلى سريعا للغاية بحيث لم يتمكن الاتحاد السوفييتى من مساعدة أصدقائه المصريين والسوريين فاننا نجد أن الحكومات الغربية والرأى العام الغربى كان معاديا بالاجماع تقريبا تجاه العرب ومناصرا لاسرائيل • وذلك باستثناء ديجول رئيس فرنسا الذى أظهر أثنـاء الحرب وبعدها بعض التعاطف مع موقف العرب وحذر من الاتجاهات الاستبدادية لاسرائيل • وقطعت مصر كافة العلاقات مع بريطانيا وأمريكا • فمع بداية الحرب وطبقا للمعلومات الواردة من الملك حسين والتى تفيد بأن محطات الرادار الأردنية قد رصدت سربا كبيرا من الطائرات القادمة من جهة البحر مما يؤكد أنها قد انطلقت من حاملات للطائرات بريطانية وأمريكية قامت مصر بقطع العلاقات مع أمريكا وبريطانيا وطرد جميع الرعايا الأمريكيين والبريطانيين •

وكان من الواضـح أن عبد النـاصر يتحمـل قدرا كبيرا من المسئولية عن وقوع هذه الكارثة • وبدأ مركزه فى مصر وبين العرب يتعرض للتدمير على نحو يتعذر اصلاحه • وفى نغمة حزينة أعلن فى مساء اليوم الثالث من الحرب عبر راديو القـاهرة أنه مسئول بصفة شـخصية مسـئولية كاملة عن الكارثة وأنه يعتزم تقديم استقالته وتسليم السلطة الى نائبه زكريا محيى الدين • كما قام أيضا باصدار قرار بطرد أقرب الناس اليه فى الحكومة وهو المشير عبد الحكيم عامر • وسواء أكان عبد الناصر قد توقع ردود الفعل المؤيدة له أم لا فان الجماهير قد طالبت على نحو ساحق بضرورة بقائه فى الســـلطة • فالهيمنة غير العادية التى كان قد حققها فى داخل مصر ووضعه كأب محبوب لأمة اعتـادت على النفوذ الأبوى كانت تعنى أنه لا ينبغى أن يترك الرئاسة فى مثل هذه الأوقات العصيبة • وبدأت صحته فى التدهور ــ حيث كان يعانى من مرض « البول السكرى الأسود » الذى يحدث خللا فى الدورة الدموية ــ ومن المرجح أن كارثة ١٩٦٧ تسببت فى موته المبكر • ولكن الأوضاع

فى مصر قد جعلت موقفه أكثر سهولة نظرا لأن أولئك الراغبين فى تحدى سلطاته كانوا مكتوفى الأيدى نظرا لأنه لم يكن لديهم أى بديل عملى يحل محل سياساته • وفى أغسطس واجه مؤامرة تهدف الى اعادة المشير عبد الحكيم عامر الى منصبه كرئيس للقوات المسلحة • وفى عام ١٩٦٨ وعام ١٩٦٩ تفجرت اضطرابات وقلاقل خطيرة بين الطلبة والعمال بالمصانع الا أنه تمكن من التغلب عليها من خلال اللجوء الى الحزم وتقديم بعض التنازلات • وفى حين كان هناك قدر كبير من الاستياء وخاصة بين الطبقات المهنية وطبقة المثقفين لأن البنية السلطوية القديمة لم يطرأ عليها أى تغير فان حالة الطوارىء المستمرة مع اسرائيل كانت بمثابة حجة قوية لتأجيل الاصلاحات الجذرية •

وأبدى الاتحاد السوفييتى على الفور استعداده لتعويض مصر عن الخسائر العسكرية الهائلة التى لحقت بها • وبدأت تتدفق الأسلحة والمعدات السوفييتية الى البلاد • ولكن على الرغم من أن الخطب الجماهيرية التى ألقاها عبد الناصر كانت مليئة بالتحدى بل ومتسمة بالرغبة فى القتال الا أنه فى حقيقة الأمر كان يدرك أن اختيارات مصر العسكرية محدودة للغاية • وفى نوفمبر ١٩٦٧ وافق على قرار مجلس الأمن التابع للأمم المتحدة الصادر تحت رقم ٢٤٢ الذى ينص على انسحاب اسرائيل من الأراضى العربية المحتلة فى مقابل الاعتراف العربى باسرائيل كأمر واقع • كما أعلن اتفاقه فى الرأى مع الزعماء السوفييت بشأن ضرورة التوصل الى تسوية سياسية فى الشرق الأوسط •

وبعد أن استعادت القوات المسلحة المصرية قوتها سمح لها عبد الناصر فى عام ٦٩/١٩٧٠ بشن حرب استنزاف ضد اسرائيل على طول قناة السويس • وأحرز المصريون نجاحات عديدة مما أدى الى ارتفاع الروح المعنوية للجماهير • الا أن اسرائيل كبدت مصر

خسائر فادحة من خلال شن غارات على مدن القناة وفى عمق الأراضى المصرية • فطلب عبد الناصر من الاتحاد السوفييتى مضاعفة مساعداته • وبذلك تزايد عدد المستشارين العسكريين السوفيت فى مصر من ثلاثة آلاف الى عشرة آلاف مستشارا • ولكن عبد الناصر كان لا يزال يعلق آمالا على امكان التوصل الى تسوية سياسية للصراع العربى/الاسرائيلى من خلال قيام أمريكا بممارسة ضغوط على اسرائيل لكى تنسحب من الأراضى العربية المحتلة • وفى يوم أول مايو ١٩٧٠ وجه عبد الناصر للرئيس نيكسون ما سماه « بالمناشدة النهائية » للامتناع عن تقديم العون لاسرائيل طالما استمرت هى فى احتلال الأراضى العربية • وفى ٢٣ يوليو أعلن موافقة مصر على مبادرة روجرز التى تقدم بها وزير الخارجية الأمريكى وليام روجرز والتى ترتكز على قرار الأمم المتحدة رقم ٢٤٢ • وأدى ذلك الى وقف اطلاق النيران فى منطقة قناة السويس فى ٧ أغسطس •

واتضح فى نهاية الأمر أن عبء القيادة العربية كان ثقيلا للغاية بحيث لم تتحمله مصر • ومن المبالغة أن نقول أن عصر عبد الناصر قد انتهى خلال الأيام الستة المشئومة من شهر يونيو ١٩٦٧ رغم أن عهده بدأ فى التدهور بالفعل وعلى نحو غير قابل للتوقف منذ يونيو ١٩٦٧ • اذ نجد أن العار والاذلال الذى لحق بالعرب بسبب كارثة ١٩٦٧ قد زاد من الاتجاهات المضادة للغرب فى أجزاء من العالم العربى • ففى جنوب شبه الجزيرة العربية [مستعمرة ومحمية عدن البريطانية السابقة] تمكن المتطرفون من الجناح الأيسر من الاستيلاء على السلطة عندما انسحبت بريطانيا فى ١٩٦٧ وأنشأوا جمهورية اليمن الديموقراطية الشعبية • وفى عام ١٩٦٩ نجد أن الحكم الدستورى البرلمانى المحافظ بالسودان قد أطيح به على أيدى ضباط اشتراكيين راديكاليين بالجيش بقيادة الكولونيل جعفر النميرى الذى اتجه بالبلاد الى اليسار من خلال انشاء علاقات وثيقة مع مصر والاتحاد السوفيتى • وبعد شهور

قليلة تم الاطاحة بالملك الطاعن فى السن ادريس ملك ليبيا من خلال انقلاب عسكرى بقيادة الكولونيل الشاب البدوى الناصرى معمر القذافى • وبذلك نجد أن الأحداث التى حدثت فى السودان وليبيا كانت بمثابة تدعيم وتشجيع لعبد الناصر خلال فترة تدهوره• اذ قدمت السودان وليبيا عمقا استراتيجيا للقوات المسلحة لمصر علاوة على تقديم المساعدة الاقتصادية من خلال الثروة البترولية فى ليبيا • وبناء على اصرار من جانب القذافى بدأت ليبيا والسودان ومصر فى مناقشة خطط تهدف الى اقامة اتحاد فيدرالى بينها •. ولكن تجربة عبد الناصر السابقة جعلته غير متحمس لمثل هذه المشاريع • وفى عام ١٩٦٩ لم يكن بمقدور السودان أو ليبيا تقديم قدر كبير من المساعدة فى مجال حل المشكلات العاجلة التى تواجهها مصر •

ومساندة السودان وليبيا لمصر لم تستطع التفوق على حقيقتين كبيرتين تعملان على تخفيض دور مصر فى العالم العربى • الحقيقة الأولى هى أن هزيمة مصر قد دعمت الى درجة هائلة مركز الملك فيصل زعيم الدول البترولية المحافظة الموالية للغرب فى شبه الجزيرة العربية • ففى اجتماع القمة الذى عقد بالخرطوم عقب حرب عام ١٩٦٧ تمكن الملك فيصل من الحصول على موافقة عبد الناصر على سحب القوات المصرية من اليمن • وعلى الرغم من أن الزعماء العرب فى مؤتمر القمة قد توصلوا الى القرار المتشدد الذى ينص على عدم اقامة سلام مع اسرائيل أو اجراء مفاوضات مباشرة معها أو الاعتراف بها نجد أن عبد الناصر قد وافق على قيام الدول العربية البترولية بالغاء المقاطعة الفاترة التى كانت قد فرضتها على بريطانيا وأمريكا خلال حرب الأيام الستة وذلك فى مقابل المساعدات الاقتصادية الكبيرة التى تقرر لها أن تستمر الى « أن يتم ازالة آثار العدوان » •

وأصبح الملك فيصل فى مركز قوى يسمح له بالتأكيد على وجهة نظره من حيث أن الوحدة الاسلامية لها ــ على الأقل ــ نفس

أهمية الوحدة العربية • وفى عام ١٩٦٩ حصل على الموافقة على عقد أول مؤتمر لرؤساء الدول الاسلامية فى الرباط قبل مؤتمر القمة العربى الذى كان عبد الناصر يلح من أجل عقده • وكان مؤتمر القمة الاسلامى بمثابة انتصار للملك فيصل حيث صدرت الموافقة على انشاء منظمة المؤتمر الاسلامى وبحيث يكون مقرها الدائم فى جدة • وعندما تم عقد مؤتمر القمة العربى بعد مرور شهور قليلة فشل عبد الناصر فى الحصول على موافقة فيصل بشأن ضرورة أن يقوم العرب بتخصيص جميع مواردهم من أجل مساعدة مصر فى كفاحها ضد اسرائيل • ولذلك نجد أن عبد الناصر الذى أصبح مرهقا ومتحررا من الأوهام قد وافق على قرار الأمم المتحدة بوقف اطلاق النيران فى منطقة قناة السويس بعد شهور قليلة •

والحقيقة الكبرى الثانية الناجمة عن هزيمة مصر هى أن العرب الفلسطينيين أصبحوا لا يعقدون الآمال على قيام الجيوش العربية النظامية بقيادة مصر بتحرير فلسطين • ولأنهم كانوا يعقدون الآمال على الجيوش النظامية فاننا نجد أن منظمة التحرير الفلسطينية التى أنشأها رؤساء الدول العربية وكذلك جيش تحرير فلسطين لم يلعبا أى دور خلال حرب الأيام الستة • ومن ناحية أخرى نجد أن منظمة فتح وهى أكبر المنظمات الفدائية الفلسطينية غير الرسمية كانت تنفذ عملياتها منذ عام ١٩٦٥ من الأردن وسوريا • وبعد حرب ١٩٦٧ قامت منظمة فتح باختيار أحد قادتها ـ وهو الشاب الديناميكى ياسر عرفات ـ ليكون المتحدث الرسمى باسمها • وكانت العمليات الفدائية ضد اسرائيل تواجه عقبات شديدة وتعطى انطباعا عسكريا ضئيلا • ولكنها فى أعقاب الحرب أثارت حماسا شعبيا هائلا • وفى عام ١٩٦٩ تمكنت منظمة فتح وحليفاتها من طرد أحمد الشقيرى من القيادة لأنه لا يحظى بالثقة • وأصبح ياسر عرفات هو الرئيس المنتخب للجنة التنفيذية الجديدة لمنظمة التحرير الفلسطينية • وصحيح أن منظمة التحرير الفلسطينية لم يكن

بمقدورها أن تستقل تماما عن الدول العربية لأنها لا يمكن لها أن تعمل الا من خلال أراضى الدول العربية الا أنها لم تكن واقعة تحت سـيطرة أى دولة من هذه الدول العربية • وهكذا نرى أن كيانا سياسيا حقيقيا جديدا فى العالم العربى ـ وهو جنين دولة فلسطينية مستقبلية ـ قد بزغ الى الوجود •

والاتجاه الراديكالى المناهض للغرب بين العرب عقب حرب الأيام الستة كان يسير فى اتجاه مضاد للنفوذ المتزايد للمملكة العربية السعودية • ولكن الفدائيين الفلسطينيين والبعثيين الذين يسيطرون على سوريا والعراق لم يكونوا أكثر ميلا من الملك فيصل نحو تقبل القيادة المصرية • ولكن كان لا يزال بمقدور عبد الناصر أن يقوم بدور الوسيط • فعندما تفجرت فى الأردن حرب أهلية فى سبتمبر ١٩٧٠ بين القوات المسلحة الأردنية ومنظمات المقاومة الفلسطينية التى كانت تنتقد عبد الناصر فى مرارة بسبب موافقته على خطة السلام الأمريكية تمكن عبد الناصر من استدعاء رؤساء الدول العربية لحضور مؤتمر قمة عاجل بالقاهرة • ونجح عبد الناصر فى هذا المؤتمر فى عقد مصالحة بين ياسر عرفات والملك حسين • وكان ذلك هو آخر عمل سياسى يقوم به عبد الناصر • ففى ٢٨ سبتمبر انتقل الى رحمة الله ـ عقب مغادرة ضيوفه البلاد ـ بسبب تعرضه لأزمة قلبية •

وفى بعض الأحيان كان يتم عقد مقارنة بين جمال عبد الناصر ومحمد على • اذ أنه ـ شأنه شأن محمد على ـ سيطر لبعض الوقت على معظم منطقة الشرق الأوسط من القاهرة وأعطى لمصر قوة ونفوذا فى العالم على نحو يفوق ويتجاوز قوتها الطبيعية • كما أنه تمكن أيضا من النجاح لبعض الوقت فى استغلال المنافسات الدائرة بين الدول القوية • ولكنه انتهى بالفشل فى نهاية الأمر • ولكن المقارنة ليست دقيقة تماما • فعلى العكس من محمد على كان عبد الناصر

مواطنا مصريا ـ وهو أول مصرى يحكم مصر منذ أكثر من ٢٠٠٠ عام ـ يشعر بعاطفة الحب الجارفة نحو مصر • ولكنه كان يؤمن فى صدق بالحركة الرامية الى توحيد العرب • وكان يعتقد أن مصر هى القائد الطبيعى لهذه الحركة • وكان يهدف من وراء الاصلاحات الاجتماعية والاقتصـــادية الى خلق مجتمع مصرى تســوده العدالة والتعليم مما يعطى المزيد من القوة للبلاد • ولقد أعطى للمصريين ـ بعد أن شــهدوا فترة طويلة من الخضوع والاذلال ـ احساسـا بالفخـر والاحترام لم يختف تماما بأى حال من الأحوال عقب سقوطه •

وأيضـــا كان عبد النـــاصر رجل عصره ـ وهو عصر ازالة الاستعمار عن العالم العربى ـ فهو وفقـا لما لاحظه عن نفسه فى كتابه الذى صدر فى وقت مبكر تحت عنوان « فلسفة الثورة » قد قام بالدور الذى كان ينتظر منه القيام به • وتعرض نفوذه للتدهور قبل أن يموت فى سن مبكرة عن ٥٢ عاما • ولم تستطع الناصرية أو المذهب الناصرى ـ وهو اصطـلاح كان يشـعر نحوه بكراهية شخصية ـ أن تبقى على قيد الحياة لفترة طويلة عقب وفاته ـ والى حد ما نجد أن الطريقة التى جعلت منه بمثابة تجسيد للعرب فى عيون العالم قد أعطت المشرق العربى وحدة مؤقتة وغير طبيعية عقب تفكك الامبراطورية العثمانية • وبعد موت عبد الناصر ظهرت على السطح قوى تحتية سرعان ما أظهرت كيف أن الشرق الأوسط قد أصبح مجموعة من الشظايا المتناثرة •

— الفصل الثانى عشر

سنوات الشغب والاضطراب

Years of Turbulence

ومع انتهاء عهد عبد الناصر نجد أن الاتجاهات التى ظهرت عقب كارثة العرب لعام ١٩٦٧ بدأت تتعاظم وتؤكد ذاتها فى مزيد من القوة • وبدأ النفوذ والسلطة فى التحول أكثر نحو الدول المنتجة للبترول فى الشرق لأوسط • وفى نفس الوقت نجد أن اسرائيل التى كانت قد عانت من أزمة اقتصادية وعدم الثقة بالنفس لبعض الوقت قبل تفجر حرب الأيام الستة قد اكتسبت ثقة جديدة من حيث هى القوة العسكرية ـ السائدة فى الشرق الأوسط بدون أدنى شك • ومن ناحية أخرى نجد أن عرب فلسطين الذين تعمقت محنتهم ومعاناتهم بدأوا فى عملية التأكيد على الهوية الفلسطينية الوطنية الخاصة بهم •

وفى الدولتين الرئيسيتين بالمشرق العربى : سوريا والعراق بزغ زعيمان أصغر سنا وهما : حافظ الأسد وصدام حسين وذلك بعد أن نجحا ـ رغم المعارضة الشديدة ـ فى السيطرة على دولتيهما

على مدى عشرين عاما على الأقل • ولم يكن بمقـــدور أحدهما أن يأمل فى ارتداء عباءة عبد الناصر الخاصة بالزعامة العربية وذلك بسبب المنافسة الشديدة بينهما ولكنهما تمكنـا من جعل سوريا والعراق دولتين لهما أهميتهما الكبيرة فى منطقة الشرق الأوســـط • وقد ساعدهما على ذلك الحقيقة التى مفادها أن أنور السادات الذى صعد الى الحكم بعد عبد الناصر قد تخلى عن المطالبة بزعامة مصر على العالم العربى وسلك الطريق الخاص به الذى أدى الى عقد سلام منفرد مع اسرائيل • وأصبحت جمهورية لبنان الصغيرة الحجم هى الضحية المأساوية للقوى الدينية / السياسية والاجتماعية / الاقتصـــادية المتصـــارعة فى الشرق الأرســـط حيث تعرضت للتدمير والخراب ابتداء من عام ١٩٧٥ بسبب تفجر حرب أهلية تبدو لا نهائية •

وتميزت فترة ما بعد عبد الناصر بالتدهور الحاد فى نفوذ الاتحاد السوفييتى فى الشرق الأوسط وبظهور بعض التحسن فى العلاقات بين أمريكا ومعظم الحكومات العربية رغم أن هذه العلاقات دائما ما كانت تتعرض للأخطار بســـبب الدعم الأمريكى المتزايد المستمر لاسرائيل • وبحلول نهاية الستينات من عام ١٩٦٠ انسحبت بريطانيا من الخليج والجزء الجنوبى من شبه الجزيرة العربية وبالتالى فان الدور البريطانى شبه الاستعمارى فى الشرق الأوسط قد تعرض للتصفية النهائية •

نهضة وعلو شأن الدول البترولية :

قبل نشوب الحرب العالمية الثانية كانت دول الشرق الأوسط ـ وخاصة ايران والعرب ـ تنتج أقل من ٥٪ من البترول الخام فى العـــالم • وبحلول عام ١٩٤٩ وبعد أن انضمت الـــكويت والمملكة العربية السعودية الى صفوف كبار الدول المنتجة للبترول وأصبحت أوربا الغربية شديدة النهم للبترول من أجل تدعيم عودتها الى الوضع الطبيعى فى فترة ما بعد الحرب ارتفع الانتاج الى ١٢٪ ثم ارتفع مرة

أخرى بعد مرور عشر سنوات الى نسبة ٢٥٪ ونظرا لأن بترول الشرق الأوسط كان متوفرا بكميات هائلة وسهل الانتاج ونظرا لأن اقتصاديات الدول الصناعية الغنية استمرت فى التوسع فان الاتجاه التصاعدى فى انتاج بترول الشرق أوسطية بدا أمرا حتميا • وبحلول عام ١٩٧٠ أصبح الشرق الأوسط ينتج نصف ما يحتاجه العالم غير الشيوعى من البترول •

وبدأت الدول المنتجة للبترول بالشرق الأوسط تتجه نحو الغنى والثراء بعض الشىء خلال فترة ما بعد الحرب العالمية الثانية - ففى عام ١٩٥٠ نجد أن العرف السائد الخاص بدفع ضريبة بسيطة عن كل طن يستخرج من البترول الخام قد ألغى وحل محله نظام جديد يقضى بتقسيم صافى الأرباح مناصفة بين شركات البترول وحكومة الدول المنتجة للبترول • ونظرا لأن الناتج كان يتزايد أيضا بسرعة على نحو مضطرد فان العائدات الحكومية ازدادت بسرعة • ففى العراق ازداد العائد من البترول من ١٣ر٩ مليون جنيه استرلينى فى عام ١٩٥١ الى ٥١ر٣ مليون جنيه استرلينى فى عام ١٩٥٣ • وفى السعودية كان العائد فى حدود ½ مليون دولار قبل الحرب العالمية الثانية ثم وصل الى ٥٦ مليون دولار فى عام ١٩٥٠ ثم تصاعد الى ما يزيد على ٢٠٠ مليون دولار فى عام ١٩٥٦ •

وهذه الثروة الجديدة غيرت وجه الحياة ودلائل المستقبل فى هذه البلاد التى كانت ترزخ تحت الفقر ومكنتها من البدء فى بناء المدارس والمستشفيات علاوة على تشييد البنية التحتية الاقتصادية • الا أن احتياجاتها كانت هائلة ودخولها كانت لا تزال محدودة بالنسبة لسكانها وأراضيها الشاسعة • فايران التى كانت تحصل على دخول من البترول على مدى جيلين كان يوجد بها أكبر عدد سكانى – حوالى ٢٠ مليون نسمة فى عام ١٩٦٠ • وكان الاستثناء يتمثل فى الكويت حيث كان عدد سكانها اقل من ٢٠٠ ألف نسمة يتركزون

الخاص بها من خلال وسائل أخرى بدون اللجوء الى التأميم – فهى أساسا فى مدينة الكويت التى تقع عند رأس الخليج • وتزايدت العائدات من البترول فى الكويت زيادة فلكية – من ٣ مليون جنيه استرلينى فى عام ١٩٤٩ الى ٦٠ مليون جنيه استرلينى فى عام ١٩٥١ مما جعلها فى مقدمة الدول / المدنية city-states البترولية [حيث أعقبتها بعد عشر سنوات امارات أبو ظبى ودبى] وأصبح بمقدور الأمير عبد الله سالم الصباح المتميز بالتواضع والحكمة على نحو غير عادى [١٩٥٠ – ١٩٦٥] أن يضمن لشعبه مستويات معيشة غربية فى خلال جيل واحد •

وفى الخمسينات من عام ١٩٥٠ كانت الكويت مازالت مرتبطة مع بريطانيا من خلال المعاهدة الأنجلو / كويتية لعام ١٨٩٩ • وكانت الكويت تبدو فى عيون العالم الخارجى والدول العربية بصفة خاصة أصغر من أن تكون مستعمرة بريطانية • وكان من الصعب على الكويت أن تصبح متمتعة بالاستقلال التام وذلك بسبب عدم توفر الكويتيين المتعلمين القادرين على تسيير دفة الشئون الادارية فى البلاد • ومع ذلك نجد أن الحكومة الكويتية قد طلبت فى عام ١٩٦١ الغاء المعاهدة الأنجلو / كويتية فاضطرت بريطانيا الى الاذعان والموافقة على مطلبها • ثم ظهرت المخاطر على الفور عندما قام الديكتاتور العراقى الجامح عبد الكريم قاسم باحياء المطالبة بالكويت والتهديد باحتلالها بالقوة • فلجأ أمير الكويت لبريطانيا لكى توفر الحماية للكويت • فسارعت بريطانيا بارسال قوات – حيث رأت حكومة ماكميلان أن فى ذلك فرصة ملائمة لها لرد اعتبارها وتعويضها عن العار الذى لحق بها أثناء الأحداث التراجيدية لحرب السويس – ولكن بعد مرور شهرين تم سحب القوات البريطانية وحلت محلها قوات تابعة لجامعة الدول العربية • وهكذا أظهرت الكويت فى مهارة بارعة أنه على الرغم من أن الدول العربية ربما كانت تنظر الى الكويت فيما سبق على أنها كيان اصطناعى

زائف فأنها أصبحت ترغب فى استــقلال الكويت وتحرص عليه . وكان هذا بمثابة أعظم ضمان بالنسبة لمستقبل الكويت .

وفى حكمة اتخذ الكويتيون موقفا محايدا بين المعسكر المحافظ التقليدى والمعسكر الراديكالى فى العالم العربى . كما أعلنوا عن عدم انحيازهم فى الحرب الباردة من خلال اقامة علاقات دبلوماسية على الفور مع الاتحاد السوفيتى .

وأهم العوامــل التى دعمت مركز الكويت هى الجهود التى بذلتها لكى يحصــل الاخوة العرب على نصيب من الثروة الكويتية الجديدة . ففى عام الاستقلال أنشأت الكويت « صندوق الكويت للتنمية الاقتصادية العربية » من أجل منح قروض طويلة الأجل بفوائد منخفضة لمشروعات التنمية الحيوية بالدول العربية الأخرى. وكان هذا الصندوق رائدا من نوعه فى مجال تنمية العالم الثالث .

وكان حكام الدول العربية الخليجية الأخرى الذين كانت لهم علاقات من خلال معاهدات مع بريطانيا ـ وهم حكام البحرين وقطر والامارات الصغيرة المطلة على الساحل الخليجى ـ لا يزلون يرون أن الأمر لا يستلزم الغاء الحماية البريطانية والحصول على الاستقلال التام الكامل . وكان البترول قد اكتشف فى عام ١٩٥٨ بكميات هائلة فى أبو ظبى التى سميت ب « الكويت الجديدة » الا أن عدد سكانها كان أقل من ربع عدد سكان الكويت . وبدت صغيرة للغاية لا يمكن أن تصبح دولة / مدنية أخرى . وعندما قررت حـكومة العمل البريطانية فى عام ١٩٦٦ الجلاء عن الجزء الجنوبى من شبه الجزيرة العربية بما فى ذلك قاعدة عدن العســكرية أصــبح من البديهى أنها ستدعم قاعدتها العسكرية المتواجدة فى البحرين . اذ كان رئيس الوزراء البريطانى مازال يحلم بأن يكون لبريطانيا دور شبه اســتعمارى فى شرق السويس . ولكن الأزمة المالية الحادة التى تعرضت لها بريطانيا فى عام ١٩٦٨ أحدثت تغيرات كاملة فى

اتجاه بريطانيا مما جعلها تبلغ الأمر للحكام العرب بأنها سوف تنسحب نهائيا من الخليج بحلول عام ١٩٧١ • وهذا قد دفع الحكام العرب الى أن يتناقشوا لأول مرة في مسألة تصنيف منافساتهم فى حكومة فيدرالية • فاختارت البحرين وقطر الاستقلال بينما اختارت المشيخات السبعة تشكيل اتحاد فيدرالى تحت اسم « الامارات العربية المتحدة » عاصمتها أبو ظبى التى تعتبر أكبر وأغنى الأعضاء • وأصبح حاكم أبو ظبى الذكى البارع القدير الشيخ زايد رئيسا للاتحاد الفيدرالى الذى تمكن من البقاء على قيد الحياة على مدى عشرين عاما فى مواجهة قدر كبير من الشكوك •

ونجد أن ثراء وغنى الدول العربية الخليجية ودورها فى صناعة البترول العالمية قد أعطى لها أهمية كبيرة فيما يتعلق بشئون الشرق الأوسط وباقى أنحاء العالم بما لا يتوازى مع الحجم الضئيل لسكانها • الا أن هذا لايعنى أن الدول المنتجة للبترول فى الشرق الأوسط ـ بما فى ذلك تلك الدول التى يوجد بها عدد كبير من السكان مثل ايران أو العراق ـ حصلت على أى دور هام فى الشئون العالمية فى الخمسينات من عام ١٩٥٠ وفى الستينات من عام ١٩٦٠ كنتيجة لزيادة عائداتها • اذ لم يكن لها سوى قدر ضئيل من السيطرة على تصدير وتسويق البترول الخام والغاز الطبيعى الخاص بها ـ الذى يعتبر أكبر الموارد القومية بها أو المورد الوحيد بها فى بعض الحالات • اذ ظلت السيطرة باقية فى أيدى شركات البترول الدولية الكبرى وما حدث بالنسبة لفشل محاولة الدكتور محمد مصدق للحصول على السيطرة الكاملة على صناعة البترول فى ايران من خلال التأميم كان بمثابة تحذير مقنع • وفى عام ١٩٥٦ وعام ١٩٦٧ نجد أن المحاولات التى قامت بها الدول العربية المنتجة للبترول من أجل استخدام البترول كسلاح ضد المساندة الغربية لاسرائيل كانت خالية من الحماس وغير فعالة بل وسرعان ما تم التخلى عنها • ولكن هذا لم يكن يعنى أن هذه الدول قد فقدت كل

الأمل فى اكتساب المزيد من السيطرة على المورد القومى الرئيسى الخاص بها من خلال وسائل أخرى بدون اللجوء الى التأميم — فهى كلها كانت تشعر بالظلم الفادح الواقع عليها • ففى الخمسينات والستينات نجد أن التدفـق الهائل من البترول المنتج بتـكاليف منخفضة من الشرق الأوسط قد تسبب فى انخفاض أسعار البترول• وفى عام ١٩٥٩ قامت شركات البترول الكبرى بتخفيض أسـعار البترول الخام فى فنزويـلا والشرق الأوسط بدون أن تسـتشير الحـكومات بالدول التى يتواجد البترول فى أراضـيها • ولذلك شعرت الحكومات فى العراق وايران والكويت والسعودية وفنزويلا بالاسـتياء الشديد مما دفعها الى انشـاء « منظمة الدول المصـدرة للبترول » OPEC التى أخذت على عاتقها ارجاع الأسعار الى ما كانت عليه وارغام الشركات البترولية على استشارة أعضاء الأوبيك قبل ادخال أية تغييرات فى الأسعار مستقبلا •

ونظرا لأن جميع الدول الرئيسية المنتجة للبترول قد انضمت الى منظمة الأوبيك فان أعضاءها أصبحوا يسيطرون على ٩٠٪ من الصادرات البترولية خارج نطاق العالم الشيوعى • ولكن الأوبيك لم تكن بمثابة اتحاد فعال حيث أن أعضاءها لم يكن لديهم الوسائل أو التصميم على فرض توزيع الحصص مقدما — بمعنى تحديد الانتاج وفقا لنظام الحصص والذى كان سيصبح هو الوسيلة الوحيدة لرفع الأسعار • ولم يكن هذا يعنى أنهم قد تخلوا عن هدفهم الرامى الى اكتساب السيطرة على تنمية الموارد الطبيعية الخاصة بهم • وسرعان ما أدركوا أن الحـل الرئيسى للمشكلة يتمثل فى اكتساب الأهالى الوطنيين للمعرفة والخبرة فى مجال صناعة البترول • وعلى الرغم من فشل المغامرة التى قام بها الدكتور مصدق نجد أن ايران التى يوجد بها أقدم صناعة بترولية بالشرق الأوسط كانت لديها ميزة تتمثل فى بقاء شركة البترول الايرانية الوطنية على قيد الحياة وهى الشركة التى اكتسبت خبرة عظيمة اعتبارا من عام ١٩٥٧ فصاعدا

من خلال المشـاركة مع شركة البترول الحكومية الايطـالية AGIP خارج نطاق مناطق انتاج البترول الرئيسية التى يسيطر عليها اتحاد الشركات الكبرى الأمريكية والبريطانية والفرنسية • وحذت العراق والكويت والسعودية حذو ايران بأن قامت بانشاء شركات البترول الوطنية الخاصة بها فى الستينات • وفى عام ١٩٦١ قام عبد الكريم قاسم حاكم العراق بمحاولة طائشـة من أجل اختصـار الاجراءات الرامية الى السيطرة على موارد البلاد البترولية بأن أصدر القانون رقم ٨٠ الذى ينص على المصادرة بدون تعويضات لكل منطقة الامتياز المخصصة لشركة بترول العراق باستثناء ½٪ من هذه المنطقة وهى المساحة التى كانت تعمل فيها الشركة بالفعل • فرفضت الشركة قبول هذا القرار الصادر من جانب واحد وقامت على الفور بتخفيض الانتاج والصادرات تخفيضـا شديدا مما أدى ـ مثلما حـدث فى ايران فى عام ١٩٥٢ ـ الى فقدان العراق لمركزها بين كبار الدول المنتجة للبترول فى الشرق الأوسط •

الا أن الشركة البترولية لم تظل منتصرة وشاعرة بالازدراء نحو الأوبيك لفترة طويلة • ففى أواخر الستينات حدث أول انقلاب كامل فى سوق البترول الدولية لصالح الدول المنتجة للبترول • فغلق قناة السويس [من عام ١٩٦٧ حتى عام ١٩٧٥] والغلق المتقطع من جانب السوريين لخط أنابيب البترول الذى يمر عبر أراضيهم قد أحدث نقصـا فى حـدود ٢٥ مليون طن من البترول بالنسـبة لأوربا • فأدى هذا الى التسابق على الحصول على البترول الليبى بثمن أكثر ارتفاعا من السعر المعتاد حيث كان العقيد معمر القذافى الشاب الناهض للغرب قد حل محل الملك ادريس العجوز المحافظ التقليدى فى عام ١٩٦٩ • وكان بمقدور ليبيا أن تستغل الحقيقة التى مفادها انها كانت تتعامل مع شركات بترولية أمريكية «مستقلة» صغيرة خارج نطاق الدائرة السحرية للشركات الكبرى • وتمكنت

ليبيا من الحصول على زيادة في السعر · وصحيح أن الزيادة كانت متواضعة ولكن اتجاها جديدا قد تم ترسيخه · وما كانت تخشاه الشركات البترولية من امكان حدوث « وثبة تجاوزية » قد حدث بالفعل لدى توصـــل أكبر ثلاثة دول منتجة للبترول فى الشرق الأوسط : وهى ايران والسعودية والعراق من خلال وزراء بترولها ذوى الخبرة الغربية والتدريب الغربى الى اتفاقية طهران لعام ١٩٧١ التى ضمنت الحصول على زيادة أخرى فى أسعار البترول · وكان من المفترض أن تكون الاتفاقية سارية المفعول حتي عام ١٩٧٦ ولكن الحرب العربية /الاسرائيلية الثالثة لعـــام ١٩٧٣ جعلت الدول العربية تعلن فرض الحظر البترولى على الدول التى تساند اسرائيل ـ وهذا هو أول استخدام فعال الى حد ما لسلاح البترول ـ وفى سوق الســلعة الرائجة التى نجمت عن الخوف الشـديد من نقص البترول بين الدول الصناعية تزايد سعر البترول الى أرقام خيالية لم يكن أحد يتصورها من قبل · فبحلول نهاية عام ١٩٧٤ زاد السعر بمقدار أربعة أضعاف ـ اذ ارتفع من ٣½ دولار للبرميل الى ١٥ دولار للبرميل ·

وهذا الانتقال الضـــخم فى الدخل ـ وبالتالى فى الســـلطة والنفوذ ـ الى عدد قليل من دول الشرق الأوسط كان له آثار هامة سياسية واقتصادية · وظهرت النتائج على الفور · ففى خلال أيام قليلة عقب انتهاء حرب ١٩٧٣ نجد أن الدول التسع المنضمة الى السوق الأوربية المشتركة European Economic Community. واليابان أصدرت بيانا مشـــتركا عن المشكلة العربية/الاسرائيلية لصالح وجهة النظر العربية لأول مرة وعلى نحو لم يسبق له مثيل ·

والتحول فى النفوذ قد ظهر بشكل واضـح وفورى للغـاية بالنسبة لايران التى يتربـع على عرشها الشـاه الطموح المصطبغ بالطابع الغربى والتى يصل عدد سكانها الى رقم كبير لا يمكن مقارنته

الا مع عدد السكان في مصر بمنطقة الشرق الأوسط وعلى الرغم من أن ايران لم تكن متورطة فى الحرب العربية / الاسرائيلية أو مشاركة فى الحظر البترولى العربى الذى فجر الأسعار المرتفعة الجديدة الا أنها تزعمت عملية استغلال الموقف فى داخل الأوبيك مطالبة بزيادة أكبر فى أسعار البترول حتى يمكن التعويض عن التضخم [والذى نجم جزئيا عن زيادة الأسعار فى حد ذاتها] فى أسعار السلع الصناعية المستوردة من الغرب • وتوسع الشاه الى درجة كبيرة فى أهدافه الرامية الى تحويل ايران الى دولة عظمى اقليمية حيث أعلن فى مقابلات صحفية عديدة أن ايران ستصبح واحدة من بين أكبر ست دول صناعية فى العالم كله بحلول نهاية القرن العشرين • وقام بزيادة الانفاق المرتفع أصلا على القوات المسلحة الايرانية [لم تكن أمريكا تطبق التحفظات المفروضة على بيع الأسلحة للدول العربية المجاورة لاسرائيل - على ايران] • وكجزء من تصميمه على فرض « السلام الايرانى » على منطقة الخليج وابعاد العناصر الراديكالية الموالية للشيوعية فانه قام بارسال حوالى ٣٠٠٠ جندى الى عمان من أجل مساعدة السلطان الخاص بها على مواجهة التمردات اليسارية التى تحدث فى ضوفار Dhufar بتدعيم من دولة اليمن الجنوبية شبه الماركسية • وفى نفس الوقت نجد أن التقديرات الأصلية للانفاق الحكومى وفقا للخطة الخمسية للشاه ١٩٧٨/١٩٧٣ كانت أكثر من الضعف مع التأكيد على تنمية البنية الأساسية والتصنيع •

وكان تأثير ارتفاع الأسعار على السعودية دراماتيكيا ومذهلا أيضا • وان كان مختلفا من حيث النوعية بعض الشيء • فقبل حدوث الزيادة الهائلة فى أسعار البترول كانت السعودية - شأنها شأن ايران - تنفق نفقات هائلة على البنية الأساسية الاقتصادية والتعليم والصحة بينما كانت تخصص ¼ عائداتها على شئون الدفاع • وتحت القيادة الحكيمة المتزنة للملك فيصل نجد أن المملكة قد

تحولت فى خلال عشر سنوات من دولة غارقة فى الديون الى دولة لديها فائض كبير • وعلى الرغم من أن الدولة كانت لاتزال بحاجة الى تنمية ضخمة فانه لم تكن هناك وسيلة تجعل ايقاع التنمية السريع يساير ايقاع الدخل المتزايد السريع • ولذلك فانه على الرغم من الانفاق المرتفع على القوات المسلحة بالسعودية فاننا نجد أنها مازالت أبعد ما تكون عن كونها قوة حربية هامة • وأصبحت السعودية تواجه مشـــكلة جديدة غير مألوفة وهى كيفية التصرف فى فائض الدخل المتواجد لديها • وتعمقت هذه المشكلة الى مستوى مختلف تماما عندما زادت أسعار البترول فى عام ١٩٧٣ الى أربعة أضعاف • اذ ارتفعت العائدات من ٢ر٧ بليون دولار فى عام ١٩٧٢ الى حوالى ٢٥ بليون دولار فى عام ١٩٧٥ • وأصبح ما تحصل عليه من عائدات فى خلال ساعة يساوى ما كانت تحصل عليه فى سنة كاملة خلال الثلاثينات من عام ١٩٣٠ •

وتزايد ايقاع التنمية السعودية الى درجة هائلة • واستلزمت الخطة الخمسية الثانية ٧٥ ــ ١٩٨٠ انفاق مبلغ ١٤٢ بليون دولار أو عشرة أضعاف الخطة الخمســـية الأولى • وأصبح التطلع الى استكمال كافة مشروعات البنية الأساســـية الرئيســـية : الطرق والمطـــارات والموانى البحـــرية ومحطـــات الكهرباء أمرا يمكن انجازه وتحقيقه بسهولة فى نهاية السنوات العشرة • الا أن الهدف الرئيسى الذى كان قد تقرر فى أوائل الستينات كان يتركز على الاستفادة من موارد البلاد الضخمة من البترول والغاز الطبيعى كأساس لعدد متنوع من الصناعات الأخرى • وكان الجزء الرئيسى من هذه الخطة هو خلق مدينتين صناعيتين جديدتين تماما ــ احداهما تقع فى الجبيل Jubail المطلة على الخليج والأخرى تقع فى ينبع المطلة على البحر الأحمر • وكانت التكلفة المبدئية تقدر ب ٧٠ بليون دولار وهى تكلفة تزيد على نفقات وضع انسان على سطح القمر • وكان هذا يعتبر أضخم مشروع صناعى فى تاريخ البشرية •

وعلى الرغم من هـذه التكاليف الفلكية الا أنه كان لا يزال بالامكان جلب منافع مباشرة على الشعب السعودى من خلال منح الاعانات المالية والغاء عدد من الضرائب المتواجدة ٠

وأصبحت السعودية أيضا واحدة من الدول التى تقدم أضخم الاعانات المالية المجانية سواء من خلال صندوق التنمية السعودى الخاص بها والذى أنشىء فى عام ١٩٧٤ أو من خلال مجموعة من الوكالات الدولية ٠ ففى السبعينات نجد أن برنامج المســاعدات العربية السعودية وصل الى ما يزيد على ١٠٪ من برنامج التنمية GDP للملكة ـ وهى نسبة أعلى من أى نسبة متواجدة فى أى دولة من الدول الصناعية الكبرى ٠ ولكن على الرغم من هذا الانفاق الهائل نجد أن السعودية بحلول عام ١٩٧٥ قد تجمع لديها مال احتياطى أكثر مما لدى أمريكا واليابان مجتمعتين ٠

وفى خـــلال فترة تقل عن جيل واحد (١) نجد أن المملكة الصحراوية الفقيرة قد اكتســبت مسئوليات دولية ضخمة كدولة عظمى من الناحية المالية ٠ اذ أصبحت عضوا كبيرا فى صندوق النقد الدولى وفى البنك الدولى ٠ ونظرا لأنها تعتبر الى حد بعيد أكبر دولة مصدرة للبترول غير شـــيوعية فى العالم فانها أصبحت « الدولة المسيطرة « Swing producer » فى داخل الأوبيك بمعنى أنها من خلال زيادة أو خفض مستوى انتاجها من البترول يمكن لها أن تسيطر على السعر العالمى للبترول ٠ بل وأصبح وزير البترول الســعودى أحمد زكى اليمانى فى السبعينات واحدا من أعظــم الشخصيات المرموقة فى العالم كله ٠

وكان اغتيال الملك فيصل فى ابريل ١٩٧٥ على أيدى ابن أخ مجنون بمثابة خسارة تراجيدية للمملكة التى ساعدها خلال فترة

---

(١) الجيل : حوالى ثلاثين عاما ـ (المترجم) ٠

مليئة بالعقبات وأدخلها الى دائرة التألق الدولى مما جلب عليها مشكلات جديدة • ولكن أخاه خالد تولى السلطة بعده فى هدوء وسلاسة • وكان الملك الجديد معتل الصحة وزاهدا فى الحكم • ولذلك نجد أن ولى العهد الأمير فهد ــ وهو رجل قدير وهادىء الطباع ولديه رغبة قوية فى ممارسة الحكم ــ تولى المسئولية الرئيسية فى ادارة شئون الحكم [واستمر فى انجاز الأعمال عندما صعد الى العرش عقب وفاة أخيه خالد فى يونيو ١٩٨٢] • وكان مجيىء فهد الأنيس العذب المعاشرة بعد فيصل الأرستقراطى الصارم المتقشف يعنى حدوث تغير فى الأسلوب وليس فى الجوهر • اذ ظلت السياسات السعودية على ما هى عليه بدون تغير • ففى الداخل كان الايقاع السريع الخطير للغاية للتنمية الاقتصادية مصحوبا بالاتجاهات التقليدية المحافظة للغاية فى مجال الأعراف والعادات الاجتماعية • وفى الخارج كانت الدبلوماسية السعودية تتميز بالهدوء والحرص والحذر والطابع الاسترضائى بوجه عام حتى أثناء الدفاع عن قضية الاسلام والقضية العربية •

وفى العراق ــ وهى ثالث أكبر دولة بترولية فى الشرق الأوسط ــ نجد أن البعثيين قد استردوا السلطة فى عام ١٩٦٨ من خلال انقلاب عسكرى بعد أن أمضوا خمس سنوات فى القفار البرية وذلك بفضل جهود صدام حسين النائب المدنى لرئيس مجلس قيادة الثورة العراقية • وهو لديه خصال الزعامة بطبيعته ويتسم بالتصميم الشديد الى درجة القسوة • ولذلك فهو الذى أحكم السيطرة على خدمات الأمن الداخلى والجناح العسكرى لحزب البعث مما جعله يبزغ كأقوى رجل فى الحكومة • وكان للرئيس حسن البكر قدر ضئيل من النفوذ • وفى يونيو ١٩٧٢ اتخذ صدام حسين الخطوة الجريئة الخاصة بتأميم شركة البترول العراقية • وكانت الظروف قد تغيرت فى خلال العشرين عاما منذ المحاولة التى قامت بها ايران لتأميم بترولها • وفى خلال العشر سنوات منذ قيام عبد الكريم

قاسم بمصادرة معظم مساحة الأراضى المخصصة للشركة وفقا للامتياز الممنوح لها • وكانت الشركات الأم لشركة البترول العراقية تتعرض لخسائر شديدة من خلال تخفيض انتاج العراق • وبعد أن قدمت احتجاجات شديدة اللهجة فانها وافقت فى نهاية الأمر على الخضوع للتأميم فى مقابل الحصول على تعويضات عادلة •

وبعد أن تمكنت العراق من تحطيم الطريق المسدود أو المأزق الذى استمر ١٢ عاما فى صناعة البترول الخاصة بها علاوة على الزيادة فى أسعار البترول الى أربعة أضعاف فى الفترة ١٩٧٣/١٩٧٤ تغير المستقبل الاقتصادى للعراق • اذ ارتفع العائد من ٥٨٤ مليون دولار فى عام ١٩٧٢ الى $7\frac{1}{2}$ بليون دولار فى عام ١٩٧٤ • ولذلك فان الاستفادة من الامكانيات الطبيعية الهائلة الكامنة والتى كانت قد تعرقلت لفترة طويلة للغاية بسبب عدم الاستقرار السياسى أصبحت أمرا يمكن تحقيقه فى مزيد من السهولة • الا أن مشكلة العراق الدائمة المزمنة مع الأقلية الكردية التى تعتبر أكبر الأقليات حجما فى داخل العراق والتى أعاقت استقرار العراق منذ انشاء العراق كدولة/أمة nation-state ظلت باقية • وفى عام ١٩٧٠ كان صدام حسين يأمل فى أن تكون هذه المشكلة الصعبة قد دفنت عندما توصل الى اتفاقية مع الزعيم الكردى المتمرس الملا مصطفى البرزانى وأتباعه تنص على تعيين نائب للرئيس كردى فى الحكومة المركزية وخلق اقليم كردى متمتع بالحكم الذاتى فى المنطقة الشمالية الشرقية وبحيث يكون للغة الكردية هناك وضع متساوى مع اللغة العربية • ولكن على الرغم من تحسن العلاقات لبعض الوقت فانها تدهورت مرة أخرى خلال فترة الأربع سنوات الانتقالية المقترحة • وفى مارس ١٩٧٤ رفض البرزانى العرض المقدم من بغداد بشأن الحكم الذاتى ووصفه بأنه زائف وغير ملائم وغير كاف وأعلن التمرد مرة أخرى • وتجددت الحرب بين القوات العراقية والجنود الأكراد غير النظاميين فى ضراوة ووحشية كالمعتاد •

وكان الأكراد يديرون شئون حربهم بمساعدة من ايران ومن ملتجأ متواجد فى داخل الأراضى الايرانية • وكانت العلاقات بين حكومة الشاه والبعث العراقى قد ظلت متدهورة على مدى سنوات بل ووصلت الى حافة الحرب فى بعض الأوقات وذلك بسبب الخلافات على الأراضى الحدودية والاتهامات المتبادلة باللجوء الى أعمال التخريب • فقرر صدام حسين اتخاذ اجراء حاسم • ففى مارس ١٩٧٥ وافق على التوصل الى تسوية سلمية مع الشاه أثناء اجتماع القمة لدول الأوبيك بالجزائر • وطبقا لشروط ذلك الاتفاق أوقف الشاه مساعداته للأكراد العراقيين وأغلق حدود ايران فى وجههم • ولذلك أصيبت الثورة الكردية بالانهيار التام وهرب البرزانى الى المنفى خارج البلاد • ولكن فى مقابل ذلك اضطر العراقيون الى الموافقة على أن الحدود الايرانية/العراقية عند المجرى المائى لشط العرب ــ وهو المنفذ المشترك لنهرى دجلة والفرات عند الخليج ــ ينبغى أن تمر بمحازات الخط الواقع فى الوسط وليس بمحازات الشاطىء الشرقى على النحو الذى وافق عليه فى عام ١٩٣٧ عندما كانت العراق تلقى مساندة دبلوماسية من بريطانيا • وشعر البعثيون العراقيون بالاستياء الشديد من هذا التنازل الذى منح لايران فى لحظة ضعف وظل هذا الاستياء يتأجج ويفور فى الأعماق مما أدى الى ظهوره الى السطح بعد سنوات قليلة •

وانتهى التمرد الكردى بصفة مؤقتة فقط • ولكن العراق مع شعوره بالمزيد من الأمن والأمان ومع تزايد العائدات العراقية الى درجة هائلة أصبح قادرا على أن يلعب دورا بارزا على المسرح العربى بعد أن ظل دوره هامشيا على مدى بضع سنوات • وصعد صدام حسين الى منصب الرئيس فى أغسطس ١٩٧٩ واستخدم وسائل ديكتاتورية ووحشية ولكنه مع ذلك أظهر أنه يتمتع بقدر كبير من الصفات القيادية • وبما يتمشى مع أيديولوجيته الخاصة بالجامعة العربية الشاملة Pan-Arab فانه وجه الدعوة لعشرات الآلاف من المصريين للمجيىء الى العراق والاقامة بها والمساعدة فى الاسراع

بالتنمية في البلاد • كما بذل جهودا كبيرة أيضا لكى يسترضى المسلمين الشيعة العراقيين الذين ـ على الرغم من تفوقهم العددى ـ قد ظلوا دائما خاضعين لسيطرة السنيين من الناحية السياسية والاجتماعية • وأصبحت الدولة العراقية تلقى التأييد والحماس من جانب الشعب العربى كله • وهكذا نرى أن العراق الجديد الأكثر ديناميكية قد بدأ من خلال أيديولوجيته الراديكالية يسبب بعض الذعر بين الدول التقليدية المحافظة المجاورة له المتواجدة فى شبه الجزيرة العربية •

وتزايد حدة المنافسة بين الدول المنتجة للبترول فى الشرق الأوسط لم يغير الحقيقة التى مفادها أن هذه الدول مجتمعة قد أصبحت لها أهمية عالمية كبيرة كنتيجة للتحول المفاجىء الذى حدث فى صناعة البترول الدولية • فهى أولا كانت فى طليعة دول العالم الثالث من حيث تحقيق وتنفيذ قرار الجمعية العمومية للأمم المتحدة الصادر فى ١٩٦٦ والذى يدعو كافة الدول لممارسة سيادة دائمة على الموارد الطبيعية الخاصة بها • ولقد فضلت الدول التقليدية المحافظة مثل السعودية والكويت أسلوب الحصول على المزيد من المشاركة الحكومية فى الشركات التى تعمل فى أراضيها • وكانت النتيجة واحدة • ففى خلال عشر سنوات ابتداء من منتصف الستينات من عام ١٩٦٠ نجد أن دور شركات البترول الدولية قد انخفض وأصبح مجرد التنقيب عن البترول وانتاجه وتسويقه وفقا للتعاقد الذى يتم مع الدول التى تمتلك الأراضى •

وفى نطاق العالم العربى نجد أن التحول فى الوزن والنفوذ من مراكز النفوذ السياسية التقليدية بالقاهرة ودمشق الى اتجاه الشرق نحو شبه الجزيرة العربية ـ وهو الأمر الذى كان ملموسا بعض الشىء فى الستينات من عام ١٩٦٠ ـ قد أصبح الآن واضحا تماما • اذ بدأ العمال العاديون والعمال الفنيون والمهنيون فى دول المشرق

العربى ومصر يتطلعون الى الموطن الأسطورى للدول العربية الخليجية كوسيلة لرفع مستوياتهم المعيشية ٠

الا أن الدور المتزايد فى مجال الاقتصاد العالمى الذى قامت به الدول المنتجة للبترول فى الشرق الأوسط هو الذى أعطاها هذه المكانة الجديدة ٠ فقرارات الأوبيك ـ التى كانت تسيطر عليها دول الشرق الأوسط سيطرة ساحقة ـ كانت تتصدر الصفحات الأولى بالصحف والمجلات كما أن استثمار الفائض الضخم المتزايد من « الدولارات البترولية » لدى أعضاء الأوبيك قد أحدث تأثيرا ليس فقط على أسواق العملة الدولية ولكن أيضا على المناخ التجارى المالى فى الكثير من الدول الصناعية المتقدمة ٠

وكان هناك الجانب المضاد لكل ذلك ٠ ففى المقام الأول نجد أن الدول البترولية ـ التى تجسدها وسائل الاعلام الغربية على أنها « العرب » ـ أصبحت هدفا للاستياء والعداوات على نطاق عالمى واسع ٠ اذ قامت الدول الغنية الصناعية بالقاء اللوم على العرب لأنهم السبب فى التضخم المالى العالمى الذى حدث فى السبعينات من عام ١٩٧٠ ٠ كما أن دول العالم الثالث التى ليس لديها بترول خاص بها أشارت الى أن خطط التنمية الخاصة بها قد تحطمت بسبب الزيادة الهائلة فى أسعار البترول المستورد ٠ وفى حين أن الدول العربية البترولية كانت قادرة على استخدام نفوذها المتزايد من أجل الحصول على بعض التأييد الدولى لموقف العرب من قضية فلسطين فاننا نجد أن أولئك المعادين لقضية العرب أشاروا الى أن ما يقوم به العرب هو بمثابة « ابتزاز بترولى » ٠ وبالطبع بذلت اسرائيل كل ما فى وسعها من أجل الترويج لوجهة النظر هذه ٠

وسرعان ما اكتشفت دول الأوبيك تواجد القيود التى تحد من نفوذها ٠ ففى فترة حرب أكتوبر ١٩٧٣ أعلنت الدول العربية أنها

سوف تستمر فى فرض الحظر على الدول الغربية المساندة لاسرائيل الى أن تنسحب اسرائيل من كافة الأراضى العربية المحتلة • الا أن المخاوف الحقيقية من احتمال قيـــام أمريكا وحلفاؤها لدى تعرض اقتصادياتها الصناعية للكوارث بغزو واحتلال حقول البترول العربية أرغمت العرب على رفع الحظر فى مارس ١٩٧٤ • ولدى انحسار وتراجع هذه المخاوف أصبح من الواضح أن زيادة الأسعار الى أربعة أضعاف كان يؤدى الى تخفيض فى معدلات الاستهلاك وأن هذا بدوره سرعان ما سيؤدى ـ بالاشتراك مع الزيادة فى الانتاج ـ الى فائض بترولى عالمى • كما أن الدول الصناعية التى روعت عندما أدركت أن هناك أخطار تنجم عن الاعتماد على البترول الرخيص الثمن بدأت تسعى للحفاظ على الموارد الخاصـــة بها واستغلال مصادر بديلة للطاقة مثل الفحم أو الطاقة النووية أو الرواسب الطينية الصفحية الحاملة للبترول • واتضح من احتمال حدوث انخفاض شديد فى أســـعار البترول أن الأوبيك كانت أبعد ما تكون عن كونها كتلة منليثية قوية متراصة ومتوافقة ـ اذ كان هناك اختلاف كبير فى وجهة النظر بين تلك الدول التى هى مثل ايران أو الجزائر التى تتخطى احتياجاتها العائدات الخاصة بها وتلك الدول التى هى مثل الكويت أو ليبيا أو أبو ظبى التى يوجد بها عدد قليل من السكان والتى يمكن لها أن تخفض الانتاج بهدف الحفاظ على الأسعار • وهذا تسبب فى القاء مسئولية اضافية على كاهل المملكة العربية السعودية من حيث هى « المنتج المسيطر Ewing producer » على الأوبيك والمسئولة عن ثلث انتاج الأوبيك ومن حيث أنها ـ من خلال طاقاتها الاحتياطية الهائلة ـ باستطاعتها أن تضاعف انتاجها أو تخفضه بهدف تخفيض أو رفع الأسعار فى الأسواق الدولية •

ولدى استمرار المناقشات الحادة بل والقاسية فى بعض الأحيان فى داخل الأوبيك فانه يبدو فى بعض الأحيان أن الأوبيك قد تتعرض للتحطم والتفكك • بل ان زوالها كان يتم التنبؤ به باستمرار من

جانب بعض رجال الاقتصاد الدوليين • الا أن هذا لم يحدث • فعندما كانت الكارثة تطل برأسها كان يتم التوصل الى الحد الأدنى من الاتفاق بشأن توزيع حصص الانتاج • وكان الفضل فى هذا يرجع الى رغبة المملكة العربية السعودية فى استخدام نفوذها من أجل تثبيت السوق وجعله مستقرا • بل وتمكنت الأوبيك من التغلب على موجة من الاندفاع الخطير فى أسعار البترول فى عام ٧٩/١٩٨١ ناجمة عن الهلع الذى تفجر بين المستهلكين لدى نشوب الحرب العراقية/الايرانية فالانفجار الاصطناعى الذى جعل الأسعار ترتفع الى ٣٤ دولار للبرميل الواحد قد أعقبه اغراق الأسواق بكميات كبيرة متوفرة من البترول فى الثمانينات وهى الفترة التى تمكنت الأوبيك خلالها من الاحتفاظ بسعر ١٨ دولار للبرميل بصعوبة •

وهبط نصيب الأوبيك من الصادرات البترولية العالمية من القمة التى وصل اليها وهى نسبة ٩٠٪ ـ عندما أنشئت منظمة الأوبيك ـ الى حوالى ٤٠٪ لدى تزايد الانتاج من مصادر غير الأوبيك مثل بحر الشمال وألاسكا والمكسيك • ونظرا لتزايد العجز فى الميزانية فى السعودية والكويت فانهما بدأتا فى الاعتماد على المال الاحتياطى الأجنبى الخاص بهما ونظرا للخسائر المادية الهائلة الناجمة عن حرب الخليج فانه لم يعد بالمستطاع اعتبار ايران والعراق من بين الدول الغنية لبلدان العالم الثالث • ومع ذلك تبقى الحقيقة التى مفادها أن ما يزيد على ٦٠٪ من كافة الاحتياطيات المؤكدة للبترول الخام فى العالم متواجدة فى أراضى الدول التى تطل على الخليج الفارسى/العربى بل ومن السهل انتاجها بتكلفة رخيصة • وبالتالى فان التدهور النسبى لأهمية هذه الدول فى الاقتصاد العالمى وهبوطه من الذروة التى وصل اليها فى السبعينات من عام ١٩٧٠ كان من المحتمل أن يكون تدهورا مؤقتا • فالله خالق الكون قد أعطى العرب والفرس أداة للنفوذ اكتشفت وحققت فى القرن العشرين ولسوف يتم بدون شك استخدام تلك الأداة فى براعة فى خلال القرن الحادى والعشرين •

المبـــادرات المصرية :

ان موت عبد الناصر فى عام ١٩٧٠ والذى كان قد سيطر تماما على الحياة السياسية فى مصر على مدى ١٦ عاما قد ترك فراغا ٠ ولكن عندما غادر عبد الناصر مصر لكى يحضر اجتماع قمة عربى فى مراكش فى عام ١٩٦٩ ـ وكانت صحته قد أخذت فى التدهـــور آنئذ ـ قام بتعيين أنور السادات فى منصب نائب رئيس الجمهورية لكى يدير شئون البلاد أثناء غيابه فى مراكش ٠ فأصبح أنور السادات هو النائب الوحيد لرئيس الجمهورية ٠ وكان السادات من نفس عمر جمال عبد الناصر ٠ وكان ضابطا سابقا فى الجيش ومشاركا فى الثورة المصرية [رغم أنه كان مدنيا أثنـــاء تفجر الثـــورة فى عام ١٩٥٢] ٠ وكان قد نشأ فى بيئة ريفية مزدهرة بعض الشىء ٠ وعلى الرغم من أن الســــادات كان عضوا فى مجلس قيادة الثورة الا أن عبد الناصر لم يعينه فى منصب وزارى على الاطلاق ولكنه جعل منه المتحدث الرسمى باسم البرلمان عقب عام ١٩٥٦ علاوة على تكليفه من وقت لآخر ببعض المهام الدبلوماسية الهامة ٠ ولم يكن الجمهور المصرى ينظر الى السادات على أنه سياسى ثقيل الوزن والأهمية ٠ بل وكان أضحوكة وهدفا للكثير من النكات السياسية القاهرية ٠ ومع ذلك فنظرا لأنه النائب الوحيد لرئيس الجمهورية فان انتخابه كرئيس للجمهورية كان بمثابة تنفيذ لقرار سابق وفقا للدســـتور المصرى ٠

وفى بادىء الأمر أشار السادات الى أنه ســـوف يسير وفقا لخطوات عبد الناصر ومبادئه ٠ ولكن سرعان ما ظهر التأكيد على السياسة التى تنادى بمبدأ : « مصر أولا » ٠ وتم اصلاح وتحسين العلاقات مع تركيا وايران وبعض الدول الأوربية بعد أن كانت علاقات متسمة بالروح العدائية ٠ وأصبح يوجد استرخاء واضح وملموس فى جو الحياة العامة ٠

وفى ابريل ١٩٧١ اتخذ السادات المزيد من الخطوات الحاسمة لكى يضفى بصماته الخاصة على الحكم فى مصر • اذ قام بطرد نائبه على صبرى الذى كان فيما سبق من أقرب المساعدين لعبد الناصر والذى سبق له أن تحدى سياسات عبد الناصر فى داخل الاتحاد الاشتراكى العربى • وعندما قام ــ بعد مرور أسبوعين ــ سبعة من الوزراء والموظفين بتقديم استقالة جماعية فانه أصدر أوامره بالقاء القبض عليهم واتهمهم بمحاولة تدبير انقلاب ضـــده • وكان هؤلاء الوزراء يأملون فى فرض قيادة جماعية وبحيث يكون السادات بمثابة رئيس صورى الى حد ما • ولكن السادات كان يتمتع بشعبية بين جماهير الناس بالاضافة الى أن الجيش المصرى كان يسانده •

وبدأ السادات يعلن عن أن « عهد السادات » قد بدأ • وراح ينتقد فى خطبه بشـــكل متزايد الأخطـاء التى ظهرت فى عهـــد عبد الناصر • ووعد بتحطيم جهاز الدولة البوليسية (١) واعادة الحكم بالقانون وتنفيذ الحكم بالقاهرة فى دقة شـــديدة وعقد انتخابات برلمانية حرة تماما • وأطلق على تلك الاجراءات اسم : « ثورة التصحيح » •

ولكن على الرغم من أن هذه الاجراءات قد دعمت شـــعبيته الا أنه كان يتعرض للأخطار الناجمة من عدم احراز أى تقدم فى النزاع العربى/الاسرائيلى • اذ أظهرت الحكومة الأمريكية عدم رغبتها فى تنفيذ مبادرة روجرز لعام ١٩٧٠ من خـــلال ارغام اسرائيل على الانسحاب من سيناء • كما أن العرض الذى تقدم به السادات فى فبراير ١٩٧١ والخاص باعادة فتح قناة السويس فى مقابل تراجع اسرائيل الى ممرات متلة والجدى الواقعة فى أواسط سيناء لم يلق أية استجابة • ومن ناحية أخرى رفض الاتحاد السوفيتى مناشدات

---

(١) الدولة البوليسية : دولة تعتمد على كبت الحكومة للحياة السياسية والاجتماعية والاقتصادية باستخدام قوة الشرطة وخاصة قوة البوليس السرى استخداما اعتباطيا ــ (المترجم) •

مصر المتكررة بامدادها بأنواع من الأسلحة تجعل عبور القناة بمثابة اجراء بديل ملائم • وأصبحت أمريكا والاتحاد السوفيتي مهتمتين بشكل متزايد بالانفراج فى العلاقات الدولية بينهما • كما أن الرئيس نيكسون ومستشاره للأمن القومي هنرى كسينجر كانا سعيدين لأن غلق القناة من شأنه أن يعرقل الامدادات الشيوعية الى فيتنام الشمالية • ومن ناحية أخرى نجد أن سكرتير عام الحزب الشيوعى السوفييتى بريجينيف لم يكن يرغب فى تفجر حرب أخرى فى الشرق الأوسط على أساس من الافتراض المشكوك فيه وغير المضمون بأن مصر سوف تتمكن من استعادة القناة وسيناء • وكانت اسرائيل بالطبع راضية عن استمرار الوضع الراهن •

وفى الداخل أصبح السادات يواجه بشكل متزايد هذا المأزق أو الطريق المسدود ويواجه الشعب المصرى الذى يموج بالقلق والتململ • وتظاهر الطلبة اليساريون ضد هذا المأزق • وانخفضت الروح المعنوية للجنود المصريين المرابطين عند قناة السويس فى حالة من الشلل • بل ان الوعود المتكررة من جانب السادات بأنه سيعمل على استعادة الأرض المحتلة فى وقت قريب لم ينجم عنها سوى اثارة المزيد من الهواجس والريبة والشكوك •

وفى يوليو ١٩٧٢ قام الرئيس السادات باجراء أشبه بالمغامرة الميئوس منها من أجل استعادة شعبيته بين الناس عندما أصدر أوامره بطرد جميع المستشارين السوفيت العسكريين منهم والمدنيين والبالغ عددهم ١٥ ألف مستشار من مصر • فابتهج الشعب المصرى من هذا الاجراء لأن التواجد السوفييتى كان قد أصبح مكروها على نطاق واسع وخاصة من جانب الجيش المصرى • الا أن مصر فى هذه المرحلة لم يكن لديها بديل حقيقى يحل محل المساعدة السوفييتية • وبدأت علاقات الغرب فى التحسن مع مصر ولكن ليس الى درجة امداد مصر بالأسلحة • فتفجر نفاذ الصبر لدى جماهير الشعب

المصرى على هيئة تمرد فى يناير ١٩٧٣ مما أثار الشكوك ازاء امكان بقاء حكم السادات على قيد الحياة ٠

وحقيقة الأمر أن السادات كان قد قرر بحلول ذلك الوقت شن حرب ضد اسرائيل لها أهداف محدودة وبحيث ترغم الغرب والاتحاد السوفييتى على اعادة تقييم الموقف ٠ وكانت المخاطرة ضخمة للغاية الا أنه لم يعد بالامكان أمام السادات أن يركن الى عدم اتخاذ أى اجراء ٠ ومما ساعد السادات أن اسرائيل والدول الكبرى كانت تفترض ـ فى شىء من الاحتقار ـ بأن السادات لن ينجح فى عبور القناة على الاطلاق ٠

وعمل السادات الترتيبات اللازمة بأن ضمن وقوف سوريا الى جانبه كحليفة مع مصر فى الحرب كما ضمن السعودية كحليفة له من الناحية الدبلوماسـيـة والمالية ٠ وكانت العـلاقات بين مصر والسعودية قد تحسنت عقب موت عبد الناصر ولكن سوريا كانت توجد بها المزيد من الصعوبات ٠ اذ أن زعيمها حافظ الأسد كان أصغر من السادات بـ ١٢ عاما وكان منتميا للأقلية العلوية السورية وهى الطبقة الاجتماعية القليلة الأهمية رغم أنها كانت ممثلة فى الجيش بنسبة كبيرة غير متلائمة مع حجم أفرادها ٠ وكان الأسد قد ارتفع نجمه بسرعة فى داخل سلاح الطيران وحزب البعث حيث كان ينتمى فى داخل حزب البعث الى الجناح الراديكالى الذى يعارض العناصر المعتدلة من أمثال الزعيم المحنك البعثى صلاح البيطار الذى كان يفضل استرضاء الطبقة المتوسـطة السـورية ٠ وعندما قام الراديكاليون أو البعثيون الجدد بطرد خصومهم من خلال انقلاب فى عام ١٩٦٦ أصبح حافظ الأسد يشـغل منصب وزير الدفاع ٠ أما صلاح البيطار وميشيل عفلق وهما المؤسسان لحزب البعث فقد ذهبا الى المنفى خارج البلاد ٠

وتمكن نظام الحكم الجديد فى سوريا من تخطى عقبة كارثة فلسطين لعام ١٩٦٧ بصعوبة ٠ الا أن التجربة قد أدت الى توسيع

آفاق حافظ الأسد فبدأ يظهر ذكاءه وجدارته البارعة كانسان بارع في الاستيراتيجية السياسية • فهو بعد أن أدرك أن أعضاء الحكومة المنتمين للجناح المدنى لحزب البعث كادوا يقودون البلاد الى كارثة من خلال تشـــددهم فى رفض كافة الحلول السياسية للصراع العربى/ الاسرائيلى بدون أن تكون لديهم أية مقدرة على القيام بأى هجوم عســكرى فانه تحرك فى عام ١٩٧٠ لكى يفرض سلطة الجناح العسكرى ولكى يحصل على تأييد القوات المسلحة السورية • وأصبح رئيسا لمجلس الوزراء • وفى عام ١٩٧١ أصبح رئيسا للجمهورية فأدخل تعديلات على الدستور مما أدى الى حصـــوله على ســلطة تنفيذية عليا • وعلى الرغم من نقطة الضعف عنده والتى تتمثل فى أنه شخص علوى فى سوريا التى يسودها الاسلام السنى الا أنه نجح فى خلق حكم له الطـــابع الشــخصى ولا يتعرض للتحديات الخطيرة • وقصارى القول أنه أصبح حليفا لأنور السادات ولكنه سرعان ما سيتحول بعد ذلك ليصبح أكبر خصم عنيد للسادات • اذ كان هذان الرجلان يشعران بعدم الثقة فى بعضهما البعض كما كانت هناك اختلافات جوهرية من حيث أهدافهما من وراء الحرب • حيث كان الأسد يهدف الى طرد الاسرائيليين من الأراضى السورية المحتلة والحاق هزيمة نكراء بالعدو الصهيونى • أما السادات فكان يريد انتصارا من أجل ارغام الغرب ـ وخاصة أمريكا ـ على مراجعة وتغيير وجهة نظره ازاء الصراع فى الشرق الأوسط حيث كان يأمل فى أن تهتم أمريكا بمصر بنفس اهتمامها باسرائيل •

وقام المصريون والسوريون بالتنسيق بين خططهما خلال صيف ١٩٧٣ وقاموا بشن هجومهما فى وقت واحد فى الفترة المسائية من يوم ٦ أكتوبر الذى يوافق عيد « يوم كيبور Yom Kippur » اليهودى • وأحرزوا انتصارا مذهلا فى المراحل الأولى • ففى خلال ٢٤ ساعة كان المصريون قد نقلوا عبر القناة ٩٠ ألف مقاتل + ٨٥٠ دبابة واستولوا على خط بارليف الحصين وأنشأوا جسورا على قناة

السويس • وفقدت اسرائيل حوالى ٣٠٠ دبابة • وفى نفس الوقت تمكنت ثلاث فرق سورية ولواء مدرع سورى من تحطيم دفاعات اسرائيل بمرتفعات الجولان واستعدوا للنزول الى سهول منطقة الجليل •

وكان أقوى سلاح لدى العرب هو عنصر المفاجأة الكاملة المذهلة ومما ساعد على ذلك أن اسرائيل كانت فى حالة من الاسترخاء والرضى عن النفس • وكانت القوات المصرية فى حالة من التدريب الجيد علاوة على تعاظم روح الأخوة بين الضباط والجنود بالاضافة الى التخطيط المنطقى البارع فأدى كل ذلك الى الحفاظ على الروح المعنوية العالية • أما التفوق النوعى لدى اسرائيل فى سلاح الطيران والقوات المدرعة فقد تم تحييده نسبيا من خلال نظام الدفاع المرتكز على الصواريخ السوفيتية ومن خلال الصواريخ الصغيرة المضادة للدبابات والتى يمكن أن يحملها جندى واحد من جنود المشاه •

وكانت مصر وسوريا قد تعمدتا استبعاد الأردن من الانضمام الى الهجوم لأن الأردن لم يكن لديه أنظمة دفاع جوى ترتكز على الصواريخ السوفيتية وبالتالى فانه سيصبح عاجزا عن منع حدوث كارثة فى حالة قيام اسرائيل باختراق الأراضى الأردنية عبر المناطق الجنوبية من سوريا • ولكن عقب نشوب الحرب بادرت الأردن بارسال لواءين مدرعين الى سوريا • كما ساهمت العراق بثلاث فرق وثلاثة أسراب مقاتلة تعرضت لخسائر فادحة على الجبهة الشمالية • بينما دخل ١٨٠٠ مقاتل مراكشى فى قتال شرس بالقرب من مونت هيرمون أو جبل الحرمل Mount Hermon فى خلال اليوم الأول • وكان الاسهام الرئيسى للدول العربية المنتجة للبترول يتمثل فى استخدام سلاح البترول من خلال التخفيض فى الانتاج على الفور وفرض الحظر على تصدير البترول الى الدول التى تساند اسرائيل • الا أن هذا لم يحدث تأثيرا على النتائج العسكرية •

وأفاقت اسرائيل من الصدمة واستعادت قوتها العسكرية

بسرعة وذلك من خلال مد جسر جوى فورى ضخم لنقل أحدث الأسلحة المتطورة من أمريكا الى اسرائيل • وبدأت اسرائيل بشن هجومها على سوريا التى كانت تشكل تهديدا مباشرا على أراضى اسرائيل • وتمكنت بحلول يوم ١٢ أكتوبر من دفع القوات السورية الى الوراء نحو خطوط دفاعاتها الرئيسية الى أن أصبحت الجبهة مستقرة على مسافة ثلاثين ميلا من دمشق [وربما خافت اسرائيل من احتمال التدخل السوفييتى اذا حاولت التقدم نحو العاصمة السورية] • وأصبحت اسرائيل بعد ذلك قادرة على تحويل كل ثقلها وقوتها ضد القوات المصرية فى سيناء التى سبق لها أن حطمت الهجمات المضادة الاسرائيلية الأولية وكبدتها خسائر فادحة • وكان السوفييت قد بدأوا فى نقل أسلحة بطريق الجو الى مصر عقب مرور فترة قصيرة على قيام أمريكا بمد جسر جوى من الأسلحة والعتاد الحربى الى اسرائيل • ولكن فى ليلة ١٥ أكتوبر تمكنت قوة اسرائيلية بقيادة الجنرال أرييل شارون من النجاح فى العبور الى الضفة الغربية لقناة السويس من خلال ثغرة متواجدة بين الجيوش المصرية وانشاء جسر عبر القناة هناك • وأحجمت القيادة العليا العسكرية المصرية لأسباب تتعلق بالهيبة والمكانة عن سحب قواتها من سيناء لكى تتعامل مع القوات التى تسـللت الى غرب القناة وأصبحت ردود الفعل لدى المصريين بطيئة للغاية • وانطلق الاسرائيليون عبر الجسر الخاص بهم وأصبحوا على مسافة خمسين ميلا من القاهرة • وتم محاصرة وتطويق الجيش الثالث المصرى وعزله عن سيناء ؛

وتمكنت كل من أمريكا والاتحاد السوفيتى من اصدار قرار من مجلس الأمن يدعو الى وقف اطلاق النيران على الفور وتنفيذ قرار الأمم المتحدة رقم ٢٤٢ لعام ١٩٦٧ والدخول فى مفاوضات من أجل التوصل الى تسوية سلمية « تحت الرعاية الملائمة » • وأصبح هذا يعرف باسـم : قرار الأمم المتحدة رقم ٣٣٨ بتاريخ ٢٢ أكتوبر ١٩٧٣ • ووافقت مصر واسرائيـل على ذلك القرار على الفور كما وافقت سوريا بعد مرور ٢٤ ساعة • وكان من المقرر أن يصبح وقف

إطلاق النيران نافذ المفعول فى ٢٢ أكتوبر الا أنه تعرض للانهيار على الفور • وهنا اقتربت كل من أمريكا والاتحاد السوفيتى أكثر من أى وقت مضى من الدخول فى صدام مباشر بسبب قضية الشرق الأوسط • اذ هددت السوفييت بالتصرف من جانب واحد من أجل تلبية رغبة المصريين فى ارسال قوات سوفييتية وأمريكية الى الشرق الأوسط لضمان تنفيذ وقف اطلاق النيران بالقوة فردت أمريكا على ذلك التهديد بأن وضعت قواتها فى حالة طوارىء دفاعية خـــلال الساعات المبكرة من يوم ٢٥ أكتوبر • فتراجع الاتحاد السوفييتى ووافق بدلا من ذلك على تشكيل قوة طوارىء دولية تابعة للأمم المتحدة فى الشرق الأوسط لا تضم قوات تابعة للدول الدائمة العضوية فى مجلس الأمن •

وكانت النتائج المترتبة على هذه الحرب العربية/الاسرائيلية الرابعة [أو الخامسة فى حالة تضمين حرب الاستنزاف ١٩٦٨ ـ ١٩٧٠ التى دارت على طول قناة السويس] جوهرية وذات آثار على المدى البعيد ولكنها لم تكن كلها واضحة على نحو فورى ولم تظهر التأثيرات الكاملة الا بعد مرور بعض الوقت •

لقد تمكنت اسرائيل من تحويل الهزيمة التى تعرضت لها فى بادىء الأمر الى انتصار عسكرى الا أن التكلفة كانت باهظة كما أن الآثار النفســـية كانت عميقة • فخســـائر اسرائيل من الدبابات والطائرات كانت أكبر بكثير من جميع خسائرها فى كافة حروبها السابقة علاوة على قتل ٢٥٢١ اسرائيليا وجرح ٧٠٥٦ اسرائيليا حيث أصبح نصفهم تقريبا مقعدين ومشوهين بصفة دائمة • وكانت خسائر العرب أكبر بكثير من الاسرائيليين ولكنها مع ذلك تعتبر خسائر أقل بكثير من خسائر الاسرائيليين اذا وضعنا فى الاعتبار النسبة السكانية للعرب • هذا بالاضافة الى أن أداء الجيوش العربية كان كافيا لتحطيم أسطورة جيش اسرائيل الذى لا يقهر • كما أن الرأى العام الاسرائيلى قد شن من خلال الصحافة حملة لتوزيع اللوم

مع التركيز على حكومة حزب العمال الائتلافية برئاسة جولدا مائير وبصفة خاصة على وزير الدفاع موشى ديان الذى قيل عنه أنه أصيب بالانهيار وفقد شجاعته لدى وقوع الهجوم المفاجئ العربى • وكان حزب العمل الاسرائيلى قد حكم اسرائيل على نحو فعال ورائع منذ انشاء دولة اسرائيل وذلك بمعاونة من اليهود الاشكينازى الأكثر ثراء وتعليما المنحدرين من أصل أوربى • الا أن هذا الحزب بدأ يدخل فى مرحلة من التدهور السياسى البطيء المستمر • وبدأ نجم حزب الليكود اليمينى المتطرف فى الصعود تحت قيادة مناحم بيجين • ولم يكن أحد يتصور من قبل أن حزب الليكود يمكن له أن يحرز تقدما فى الانتخابات ولكنه بدأ الآن فى الحصول على تأييد كبير من جانب السيفارديك أو اليهود الشرقيين الذين كانوا يستاءون من الهيمنة السياسية/الاجتماعية التى يتمتع بها حزب العمال • وفى انتخابات مارس ١٩٧٧ نجد أن حزب العمال الذى كان يحصل عادة على حوالى ٤٠٪ من الأصوات قد حصل على ٢٥٪ فقط من الأصوات بينما حصل حزب الليكود على ٣٣ر٤٪ من الأصوات • وبذلك أصبح مناحم بيجن رئيسا للوزراء • ومن هنا تضــــاءل الأمل فى امكان التوصل الى أية تسوية سلمية للنزاع العربى/الاسرائيلى •

والهزيمة التى أحاقت باسرائيل فى عام ١٩٧٣ جعلتها تزيد من تصميمها على تحقيق تفوق عسكرى على جميع الجيوش العربية مجتمعة واســـــتخدام ذلك التفوق كأداة رئيســـــية ترتكز عليها فى دبلوماسيتها • ومن خلال المساعدات والمعونات الأمريكية الضخمة الهائلة أصبحت القوات المسلحة الاسرائيلية فى نهاية عام ١٩٧٤ أكبر حجما وأكثر تطورا مما كانت عليه فى عام ١٩٧٣ •

وعلى النقيض من ذلك نجــد أن الانتصار الذى حققته مصر بشق الأنفس وبصعوبة بالغة فى سيناء قد ترك آثارا ضارة على دبلوماسية الرئيس السادات • فسواء أكان السادات يعتقد تماما فى صدق كلامه أم لا فانه استمر فى الزعم بأن انتصاره كان رائعا

ومظفرا بـــكل المقاييس ولكن هذا التخيل قد أضـــعف دوره فى المفاوضات التى جاءت بعد ذلك • وهو من ناحية أخرى قد حقق هدفه المباشر ألا وهو تحطيم الجمود والطريق المسدود فى مشكلة الشرق الأوسط وارغام أمريكا على اعادة تقييم سياستها فى منطقة الشرق الأوسط • وكان الأساس الذى ترتكز عليه سياسة الرئيس المصرى هو وجهة نظره المعلنة بأن أمريكا تمتلك ٩٩٪ من أوراق اللعبة فى الشرق الأوســـط • وعقب انتهاء الحرب مباشرة استأنف علاقاته الدبلوماســـية مع واشنطن بعد أن ظلت مقطوعة على مدى سبع سنوات •ثم أقام علاقات عمل وثيقة مع الدكتور هنرى كسينجر [الذى كان قد أصبح وزيرا للخارجية قبل نشوب حرب أكتوبر بأسبوعين فقط] • ومن خلال الوساطة المكوكية التى قام بها كسينجر تمكن الســـادات من ابرام اتفاقيتين عسكريتين لفض الاشتباك مع اسرائيل ـ اتفاقية سيناء رقم ١ التى تم التوقيع عليها فى يناير ١٩٧٤ والتى انسحبت القوات الاسرائيلية بمقتضاها من الضـــفة الشرقية لقناة السويس وقامت قوات مصرية خفيفة باحتلال شريط من الأراضى بعرض ٦ ميل على طول شاطىء قناة السويس • ثم اتفاقية سيناء رقم ٢ التى تم التوقيع عليها فى سبتمبر ١٩٧٥ والتى تقضى بانسحاب القوات الاسرائيلية الى خلف ممرات متلة والجدى بسيناء • وقد تمكنت مصر من خلال فك الاشتباك من تطهير القناة واعادة فتحها فى يونيو ١٩٧٥ والبدء فى تعمير واعادة بناء مدن القناة واستعادة آبار البترول بسيناء •

وكان الجانب الآخر لهذه الانجازات هو أنها أدت فى نهاية الأمر الى تحطيم التحالف الذى كان قائما مع سوريا أثناء فترة الحرب • وتحول شعور الرئيس الأسد بعدم الثقة فى السادات الى الاحتقار المرير نحو السادات بعد أن اعتقد أن السادات أصبح على استعداد للخروج من الجبهة العربية الصامدة ضد اسرائيل لكى يعانق أمريكا ويتوافق فى الرأى مع رغباتها • واعتبر أن موافقة مصر

على تزويد محطـــات الانذار المبكر فى ســـيناء بطاقم من الفنيين الأمريكيين هو أكبر دليل على ذلك • ومع ذلك فقد كان الرئيس الأسد على استعداد لانهاء العلاقات الدبلوماسية السورية المقطوعة مع أمريكا منذ فترة طويلة والاستجابة لدبلوماسية هنرى كسينجر التى يقوم بها كوزير للخارجية فى رحلات مكوكية بين عواصم الشرق الأوسط • الا أن الرئيس السوري كان أكثر حذرا من السادات المتميز بالمرونة وعدم التعقيد •

ووافق الأسد أيضا على ابرام اتفاقية فض اشتباك مع اسرائيل تحت إشراف وتوجيهات كسينجر في مايو ١٩٧٤ وتنص على انسحاب الاسرائيليين من شريط صغير من الأراضى بمرتفعات الجولان بما فى ذلك القنيطرة عاصمة الجولان التى قاموا بتدميرها قبل الانسحاب منها • وكان الرئيس حافظ الأسد يأمل بل ويعتقد أن أمريكا تنوى مواصلة الجهد نحو التوصل الى تسوية عربية/اسرائيلية شاملة ترتكز على قرارات مجلس الأمن للأمم المتحدة رقم ٢٤٢ ورقم ٣٣٨ وذلك من خلال عقد مؤتمر آخر فى جنيف بشأن السلام فى الشرق الأوسط تحت رعاية الأمم المتحدة • ولكنه بدأ يدرك فيما بعد أنه ــ من خلال عدم خبرته فى شئون الدبلوماسية الدولية ــ قد سمح لنفسه أن يخدع على أيدى الدكتور كسينجر الذى لم يكن لديه النية لأن يحاول اقناع اسرائيل بالانسحاب الى حدود عام ١٩٦٧ كما لم تكن لديه الرغبة فى الموافقة على تحقيق الآمال الفلسطينية • اذ كان الهدف الرئيسى لوزير الخارجية الأمريكى ينحصر فى ابعاد الاتحاد السوفييتى عن الشرق الأوسط •

والرئيس الســـادات لم يكن لديه مانع من ابعـــاد الاتحاد السوفييتي عن الشرق الأوسط • فعندما تدهورت علاقاته مع موسكو التي أوقفت كافة الامدادات العسكرية الى مصر فى أوائل ١٩٧٣ فانه زاد من التحول نحو أمريكا والغرب • اذ كان تحويل التحالفات الى الاتجاه العكسى يتمشى مع غرائزه السياسية العميقة وينعكس على

الكثير من مظاهر سياسته الداخلية • فالانفتاح على الغرب كان يصاحبه انفتاح اقتصادى ومالى من أجل تشجيع الاستثمارات غير الشيوعية فى مصر من خلال تعطيل الضرائب وحرية اعادة الأرباح الى أوطانها وضمانات ضد التأميم • وقد نجمت بعض النتائج عن تحرير الاقتصاد • الا أن سياسة الانفتاح كثيرا ما كان يساء استخدامها : فأشار النقاد الى أنها فشلت فى تناول الاحتياجات الحقيقية للشعب • بل وأدت الى ظهور طبقة جديدة من الأثرياء راحت — بالاشتراك مع الطبقة القديمة من الأثرياء والتى استعادت ممتلكاتها — تتفاخر وتتباهى بثرواتها • ونظرا لأن البنوك والشركات الأجنبية فتحت لها فروعا فى القاهرة فان أسعار العقارات والممتلكات والخدمات ارتفعت بشكل حاد • وحصلت مصر الغارقة فى الديون على بعض الاغاثة من دول الخليج العربى التى كانت تشعر بالارتياح بسبب تحول مصر فى ميولها نحو الغرب •

لقد نجح السادات بعض الشىء من حيث الايفاء بوعوده بشأن تخفيف القمع السياسى الذى كان سائدا فى عهد عبد الناصر وبشأن استعادة الحكم وفقا للقوانين • الا أن الحكم فى عهد السادات ظل متسما بالطابع الفاشستى • فعلى الرغم من أنه سمح للأحزاب السياسية بمزاولة نشاطها مرة أخرى فان نظام الانتخاب كان يضمن سيطرة حزب الحكومة على البرلمان وتهميش المعارضة بحيث يكون لها قدر ضئيل من الأهمية • وكان يتم السماح بظهور قدر ضئيل من الانتقادات الموجهة ضد الحكومة ولكن الحكومة كانت تحرص على أن يكون هناك تأييد ساحق لها من جانب الصحافة • وعندما تفجرت اضطرابات عنيفة فى جميع المدن الكبرى المصرية فى يناير ١٩٧٧ احتجاجا على الارتفاع الشديد فى أسعار المواد الأساسية ألقى السادات اللوم على اليسار فقط واعتبره المسئول الأول والأخير عن اثارة الاضطرابات والقلاقل • وعندما هتف المتمردون باسم عبد الناصر أشار السادات الى أن عبد الناصر والمذهب الناصرى قد

انتقلا الى رحمة الله منذ عام ١٩٦٧ · ومنذ ذلك الوقت فصاعدا بدأ السادات ينتقد علنا كافة نواحي ومظاهر عهد عبد الناصر باستثناء الانجازات العاجلة للثورة والتى كان السادات قد شارك فيها بنفسه · وفى نفس الوقت أعطى السادات تأييدا هادئا ـ ولكنه تأييد فعال ـ وتشجيعا لحركة النضال الاسلامى من حيث أنها أفضل حاجز ضد المذهب الناصرى والاتجاهات اليسارية · ولكن موجة احترام المشاعر الاسلامية قد أدت الى تدهور العلاقات بين المسلمين المصريين والأقلية التى يتكون منها الاقباط المصريون على نحو ما يحدث من قبل فى عهد جمال عبد الناصر ·

وأصبحت الحاجة الى ضرورة التوصل الى تسوية سلمية مع اسرائيل ملحة للغاية لكى تتمكن مصر من تخفيف أعباء مشـــاكلها الاقتصادية التى تتعاظم على نحو يبلغ حجم الكارثة · وأدى صعود جيمى كارتر الى الرئاسة الأمريكية فى عام ١٩٧٦ الى تزايد الأمل لدى جميع الدول العربية نظرا لأن جيمى كارتر ووزير خارجيته سيروس فانس كانا على استعداد لاطلاق مبادرة جديدة هامة من خلال عقد مؤتمر للسلام فى جنيف · بل وتحدث الرئيس كارتر صراحة على أن الأمر يستلزم انسحاب اسرائيل من الأراضى العربية المحتلة · بل وأصبح كارتر هو أول رئيس أمريكى يشير الى أن الأمر يتطلب خلق « وطن فلسطينى » · وتقابل الرئيس كارتر مع جميع كبار القادة والزعماء العرب [بما فى ذلك الرئيس حافظ الأسد] وأقنعهم بصدقه واخلاصه ورغبته الشديدة فى حل المشكلة · الا أن الآمال المعقودة على عقد مؤتمر جنيف كانت تصطدم بنفس العقبة دائما : وهى رفض اسرائيل التى كانت لاتزال تحظى بكل التأييد والمساندة من جانب أمريكا بالتعامل مع منظمة التحرير الفلسطينية التى يعتبرها العرب هى الممثل الشرعى الوحيد للشعب الفلسطينى · وعندما أسفرت الانتخابات الاسرائيلية عن مجيىء حكومة الليكود برئاسة مناحم بيجين فى مارس ١٩٧٧ تضاءل الأمل فى امكان احراز

أى تقدم نحو السـلام • ولكن الرئيس كارتر استمر فى الدأب والمثابرة • ولاحت بعض الآمال فى أول أكتوبر عندما صدر بيان أمريكى/سوفييتى مشترك بشأن الشرق الأوسط يشتمل على المبادىء والأهداف الخاصة بالتسوية السلمية العربية/الاسرائيلية الشـاملة وعرض القضية على مؤتمر للسلام بجنيف • وكان هذا هو أول اتفاق فى الرأى من نوعه يتم بين أمريكا والاتحاد السوفيتى بشأن مشكلة الشرق الأوسط بل وكانت هذه هى أول مرة تشير فيها أمريكا رسميا الى « الحقوق الشرعية للشعب الفلسطينى » •

وبدأ الاتفاق الأمريكى/السوفييتى بشأن الشرق الأوسط وكأنه مرحلة تاريخية هامة • ولكنه لم يقدر له أن يصبح كذلك • اذ سحب الرئيس كارتر كلامه بسبب ردود الفعل العنيفة القاسية من جانب اسرائيل ومؤيديها الصهاينة فى داخل أمريكا • وأوضح مؤكدا على أن كل التحركات الأمريكية سوف تتم بالتنسيق مع اسرائيل – وكانت أمريكا مازالت تشعر بأنها ملتزمة بتعهد الدكتور كسينجر لاسرائيـل من حيث عـدم تعـامل أمريكا مع منظمـة التحرير الفلسـطينية •

وفى تلك الأثناء كان الرئيس السادات يضع الخطط الخاصة بمبادرته الدرامية الخاصة به بدون أن يبلغ وزير خارجيته ومعظم مستشاريه بأية معلومات عن هذه الخطط ، وبعد أن استطلع ردود الفعل لدى الحكومة الاسرائيلية من خلال وسطاء فى رومانيا ومراكش• أعلن فى ٩ نوفمبر ١٩٧٧ أمام البرلمان المصرى المذهـول أنه على استعداد للذهاب الى القدس لكى يخاطب الاسرائيليين مباشرة فى الكنيسيت الاسرائيلى • فرحب مناحم بيجين بشدة بهذا الاقتراح • وتم تحديد يوم ١٩ نوفمبر موعدا لهذه الزيارة التاريخية •

وكان السادات راضيا عن هذه الخطوة الجريئـة التى أقدم عليها بل وكان سعيدا أيضا لاتخاذه خطوات نحو السلام لا يشارك

فيها الاتحاد السوفييتى الذى يشعر نحوه بالكراهية • ولكن بينما كان معظم العالم مبهورا ومعجبا نجد أن الدول العربية كانت تشعر بالفزع والرعب بوجه عام • والبعض شعر بالصدمة ازاء التحدث مباشرة الى العدو فى داخـــل مدينة القدس بصفة خاصة ، الا أن الجميع أدرك أن مصر بدأت تتجه نحو ابرام اتفاقية ســـلام منفردة مع اسرائيل رغم الانكار الشديد من جانب السادات • وكان ذلك هو الاتهام الصادر عن الرئيس الأسد الغاضب عندما حاول السادات التهدئة من روعه واعادة الطمأنينة اليه دون جدوى •

وأثار خطاب السادات بالكنيسيت اعجاب الملايين الذين رأوا المشـــهد المثير للغاية عبر شاشـــات التلفزيون فى جميع أرجاء العالم ، اذ تحدث الســـادات فى فصاحة ووقار مستشهدا بروح التسامح الاسلامية التى تؤكد على المساواة بين اليهود والمسيحيين والمسلمين من وجهة نظر الدين الاسلامى • ولكنه أشار أيضا الى الحقوق الفلسطينية وأكد رفضه لضم اسرائيل للقدس • واتضح من خطابه أن هناك فجوة هائلة بينه وبين الزعماء الاسرائيليين ، ففى رده المتسم بالأدب والتشدد فى آن واحد أشار مناحم بيجين الى أن اليهود قد عادوا الى أرض اسرائيل الممنوحة لهم بمعرفة الله وفقا للحق والعدل وأوضح أن مسألة تقسيم اسرائيل الى دولتين هو أمر غير وارد • ولم يكن مناحم بيجين واضحا فى كلامه فيما يتعلق بالأراضى ولكنه ترك انطباعا واضحا بأن يهودا وسماريا Judaea and Samaria [أى الضفة الغربية] كانتا جزءا من اسرائيل كما أشار الى أن « عرب أرض اسرائيل » [أى الفلسطينيون] هم فى أحسن الأحوال بمثابة ضيوف يلقون التسامح •

وبدأت على الفور مفاوضات السلام بين مصر واسرائيل • ولم تكن أمريكا مهتمة بمبادرة الســـادات ولكن الرئيس كارتر فرض على أمريكا أن « تشارك مشاركة كاملة » فى عملية السلام • وبذلك

كارتر محاولات لاقناع الدول العربية الأخرى بمراجعة موقفها ولكن دون جدوى • وقامت ليبيا والجزائر وسـوريا ومنظمة التحرير الفلسطينية واليمن الجنوبية والجمهورية العربية اليمنية بتشكيل « جبهة الصمود » لكى تقف ضد السادات • [وكانت العراق لها نفس الآراء المناهضة للسادات ولكنها لم تنضم الى جبهة الصمود نظرا لوجود عداء بين نظـام الحكم فى العراق ونظـام الحـكم فى سوريا] أما المملكة العربية السعودية والأردن فكانتا تدركان تماما جوانب الموقف ولكنها فضلتا الانتظار لحين ما تسفر عنه الأحداث •

وأكد الســـادات فى تكرار أنه لاينوى التخلى عن القضية الفلســطينية على الرغم من عقوق منظمة التحرير الفلســطـينية ونكرانها للجميل ، الا أن تأكيداته كانت تنطوى على اقتناع ضعيف• وهدد بايقاف المفاوضات مع أمريكا واسرائيل • ولكن الاسرائيليين كانوا يدركون جيدا أن السادات حريص للغاية على نجاح المفاوضات لأنه ليس بمقدوره أن يتحمل الموقف الصعب فى حـــالة فشـل المفاوضات • ولأن السادات رجل متغطرس ومزهو بنفسه للغاية فانه شعر بالغيظ والغضب الشديد بسبب الانتقادات العربيـــة الموجهة ضده • فقام بقطع العلاقات مع دول « جبهة الصمود » وأغلق مكاتب منظمة التحرير الفلسطينية المتواجدة بالقاهرة • وقدم الوعود لشعبه المطحون بسبب الفقر بأنه لن تكون هناك حروب أخـــرى تشارك فيها مصر وزاد من آمالهم فى حيــاة كريمة فى المستقبل القريب • هذا بالاضافة الى قيامه بتدعيم روح القومية المصرية التى ترتكز على الشعور بأن مصر قد سبق لها أن قدمت أضخم التضحيات بالدماء والأموال نيابة عن العرب الذين راحـــوا يظهرون العقوق ونكران الجميل •

وفى سبتمبر ١٩٧٨ نجح الرئيس كارتر فى احضار السادات وبيجين سويا الى ملتجأ كامب دافيد الخاص به حيث تم هناك — عقب مفاوضات استمرت ١٢ يوما — التوقيع على اتفاقيتين : اتفاقية

« اطار للسلام فى الشرق الأوسط » والتى قصد بها التعامل مع القضية الفلسطينية · واتفاقية « اطار للسلام بين اسرائيل ومصر »·

وكانت الاتفاقية الثانية محددة وواضحة المعالم بعض الشيء ـ حيث تنص على استعادة مصر للسيادة المصرية على أراضيها [باستثناء تجريد سيناء من الطابع العسكرى] وتطبيع العلاقات بين الدولتين · أما الاتفاقية الأولى فكانت أكثر تعقيدا حيث تنص على فترة انتقالية فى الأراضى المحتلة مدتها خمس سنوات كحد أقصى يتم خلالها انشاء « سلطة للحكم الذاتى محلية من اجل تقديم » حكم ذاتى متكامل » للسكان · أما « الوضع النهائى » للأراضى المحتلة فيتم تحديده قبل نهاية الفترة الانتقالية · وكانت توجد عبارات متسمة بالغموض والالتباس · اذ لم توضح الاتفاقية من الذى سيمثل الجانب الفلسطينى فى المفاوضات · وكان من المتوقع أن تشارك الأردن فى تلك المفاوضات الا أن الأردن كان قد رفض التحدث باسم الفلسطينيين ورفض التفاوض نيابة عنهم · كما لم تشر الاتفاقية على الاطلاق الى المشكلة المحيرة المعقدة التى تتعلق بمستقبل المستوطنات اليهودية المتواجدة فى الأراضى المحتلة · وعلاوة على ذلك لم يكن هناك ما يربط بين اتفاقية السلام بين مصر واسرائيل واتفاقية حل المشكلة الفلسطينية · وبسبب هذه النقطة الحاسمه كان السادات على وشك التخلى عن المفاوضات ولكنه تراجع فى اليوم الأخير من المفاوضات · وأشار الى أنه تراجع استجابة للالحاح الشديد من جانب الرئيس كارتر ·

وبذلك أصبحت مصر متجهة بشكل حتمى نحو الدخول فى سلام منفرد مع اسرائيل وهو الأمر الذى سبق أن تنبأ به الرئيس الأسد وآخرون · ولم تتبق مشكلات خطيرة تتعلق بالسلام بين مصر واسرائيل · وكانت أكبر عقبة تتمثل فى تواجد مستوطنات يهودية فوق الأراضى المصرية وهى المستوطنات التى

أنشئت منذ عام ١٩٦٧ · الا أن اسرائيل رأت أن تحييد مصر التى تعتبر أكبر قوة عسكرية عربية يعتبر مكسبا أكبر بكثير من المستوطنات المتواجدة فى سيناء · ومما يدعو للسخرية أن بعض السياسيين المنتمين لحزب العمل الاسرائيلى الأكثر اعتدالا هم الذين أبدوا قلقهم ازاء التخلى عن تواجدهم الاستيراتيجي فوق أرض سيناء · أما المستر مناحم بيجين فكانت اهتماماته تنصب أكثر على ضرورة تشديد قبضة اسرائيل على « يهودا وسماريا » [الضفة الغربية] · فهو دائما ما كان يعلن عن اعتقاده بأن السيادة الاسرائيلية ينبغى أن تمتد الى الضفة الغربية وان كان قد أحجم عن الاعلان عن ذلك بصفة رسمية · [ولكن اسرائيل أعلنت رسميا فى ٣٠ يوليو ١٩٧٩ أن القدس الموحدة بما فى ذلك الجزء الشرقى العربى أصبحت العاصمة الأبديه لاسرائيل · ونتيجة لذلك تلاشت الفرصة الضئيلة فى احتمال مشاركة الجانب الفلسطينى فى الجزء الخاص بالفلسطينيين فى اتفاقيات كامب دافيد] ·

وتم التوقيع على اتفاقية واشنطن فى ٢٦ مارس ١٩٧٩ مما أدى الى انتهاء حالة الحرب التى استمرت لفترة ٣١ عاما بين مصر واسرائيل · وتم تبادل السفراء فى عام ١٩٨٠ ورحلت اسرائيل نهائيا عن سيناء وفقا لبرنامج محدد المواعيد فى مارس ١٩٨٢ · وفتحت الحدود · الا أن العلاقات لم تصبح طبيعية بين مصر واسرائيل · اذ ظلت التجارة والتبادل الاقتصادى واقفة عند الحد الأدنى · وعلى الرغم من تدفق السياح الاسرائيليين الى مصر لم يذهب المصريون الى اسرائيل الا فيما ندر · وهكذا نرى أن ثلاثة عقود [ثلاثين عاما] من الحروب الساخنة والباردة قد حل محلها سلام بارد · ومع ذلك ظلت المعاهدة راسخة فى ثبات وباقية لأنها فى صالح اسرائيل الى حد كبير ولأن احتمال الغائها من جانب مصر كان ضئيلا للغاية · اذ أوضحت اسرائيل أن الغاء المعاهدة من جانب

مصر يعتبر مبررا كافيا لنشوب الحرب • ونظرا لأن مصر كانت قد تحولت نحو الغرب وتخلت عن صداقتها مع الاتحاد السوفييتى فانهـا أصـبحت معتمدة اعتمادا كبيرا على أمريكا التى هى حليفة لاسرائيل •

ولم تكن مصر مقيدة فقط بالقيود الأمريكية : وانمـا كانت تعانى من العزلة التى فرضتها عليها جميع الدول العربية تقريبا • ففى مؤتمر القمة المنعقد فى بغداد فى نوفمبر ١٩٧٨ عقب اتفاقيات كامب دافيد قررت الدول العربية نقل مقر جامعة الدول العربية من القاهرة الى تونس • كما أصدرت قرارا بفـرض عقوبات على مصر اذا أدت الاتفاقيات الى معاهدة سـلام وهو الأمـر الذى كانت السـعودية والأردن والدول العربية المعتـدلة ما زالت تأمل فى عدم حدوثه • وبعد التوقيع على معاهدة واشنطن للسـلام فى مارس ١٩٧٩ أغلقت الدول العربية سفاراتها بالقاهرة وقطعت علاقاتهـا الدبلوماسية مع مصر • كما أوقفت الدول العربية البتروليـة مساعداتها المالية واستثماراتها التى كانت تعتبر أمرا بالغ الأهمية بالنسـبة لمصر • وتم انتخاب المحامى التونسى الشـاذلى كليبى Chedli Klibi أمينا عاما لجامعة الدول العربية — وهو أول أمين عام غير مصرى يشغل هذا المنصب فى خلال ٢٤ عاما من عمر هذه المنظمـة •

وعلى مدي عشر سنوات كاملة ظلت مصر واقفة خارج نطاق التيار السائد للسياسات العربية — ولم تعد مركزا للجاذبيـة فى العالم العربى • الا أن عزلتها لم تكن كاملة على الاطـلاق • فمعظم مئات الآلاف من المصريين العاملين فى الدول العربية البتروليـة ظلوا قائمين بالعمل فى وظائفهم • كما أن القاهرة ظلت أعظم مدينة عربية وأعظم مركز للحياة الثقافية العربيـة • وصحيح أن عدد الزائرين العرب لمصر تناقص ولكن التعاقدات مع القطاع الخاص استمرت فى تعاقب • الا أن القرارات السـياسية التى تتخذ فى القاهرة لم يعد لها تلك الأهمية الكبرى فى شئون الشرق الأوسط •

أما الشعب المصرى نفسه فكانت لديه مشـــاعر مختلطة ازاء اتجاهات الأحداث ، فبينما كان هناك ارتياح ازاء ما أعلنه السادات من أنه « لن تكون هناك حروب أخرى » الا أنه كانت توجـــد أيضا مشاعر الاحباط وخيبة الأمل لأن السلام لم يجلب سوى منافـــع ضئيلة بالنسبة لجماهير الشعب وبحيث لم يستفد ســـوى طبقة المنتفعين من سياسة « الانفتاح » • وعلى الرغم من أن حجم المساعدة الأمريكية لمصر أصبح متكافئا الى حد ما مع حجـــم المســـاعدات الأمريكية لاسرائيل الا أنها لم يكن لها أهمية كبيرة نظرا للتعداد السكانى الكبير للغاية فى مصر • ولكن الشكوك ذهبت الى ما هو أعمق من ذلك •

اذ كان السادات قد بدأ يعزف على نغمـــة القومية المصرية والاستياء المصرى ازاء العرب الآخرين • وقام بعض كبار المثقفين المصريين والذين كانوا ذات يوم من أنصار الثورة الناصرية ومبادىء القومية العربية الشاملة pan-Arabism بتسويغ وتبرير هذه المشاعر من خلال التحدث عن الهوية المصرية والمصير المصرى اللذين يختلفان تماما عن هوية ومصير الدول العربيـــة الأخـــرى • ومع ذلك لم يكن بمقدور المصريين أن يتخلوا بسهولة عن شعورهم بأن مصر قد خلقت من أجل الزعامة العربيـــة ومن أجـــل القيام بدور كبير فى العالم الاسلامى كله • ثم أعلن السادات بأن العرب ينبغى عليهم أولا أن يلتمسوا العفو من مصر فى حـــالة رغبتهم فى الحصول على المساعدة من مصر ولكن ذلك الكلام لم يؤخذ مأخذ الجد الا من مجموعة صغيرة من المتملقين الأذلاء • اذ كانت هناك شكوك متزايدة فى أن السادات يرغب فى أن تحل مصر محـــل اسرائيل وتصبح هى المندوب الرئيسى لأمريكا فى منطقة الشرق الأوسط •

ونظرا لأن وسائل الاعلام الغربية دأبت على تملق السادات وتعميق الغرور الذى يتسم به الســـادات فانه أصـــبح لايطيق الانتقادات التى توجه اليه فى الداخل • وتحطمت الشهرة السابقة

التي حصل عليها من حيث أنه رجل ليبرالى بسبب قيامه باصدار قوانين قمعية جديدة تهدف الى فرض القيود على الحياة السياسية وكبت حرية التعبير ، كما أن الاخوان المسلمين الذين سبق لهم الحصول على تشجيعه ليكونوا حاجزا ضد اليساريين أصبحوا يجاهرون بالوقوف ضده بسبب عقد السلام مع العدو الصهيونى وبسبب عدائه واحتقاره للثورة الاسلامية التى تفجرت فى ايران . وفى سبتمبر ١٩٨١ اعتقد السادات بأن هناك حركة تهدف الى الاطاحة به فأصدر أوامره على الفور بالقاء القبض على ١٥٠٠ من الشخصيات تشتمل على كافة التيارات السياسية المختلفة بما فى ذلك العلماء الدينيين الاسلاميين والأساقفة الأقباط . وعقب مرور شهر واحد وأثناء عرض عسكرى بالقاهرة تم اغتياله على أيدى مجموعة صغيرة من المتطرفين الاسلاميين التابعين للجيش . واستنكرت الغالبية العظمى من الشعب المصرى ذلك الاغتيال . ولم تحدث ثورة شاملة من جانب الشعب المسلم المصرى كما كان يأمل المغتالون . ولكن جماهير الشعب المصرى لم تشعر بالحزن والأسى الشديد على وفاة السادات . وظلت الجماهير فى شوارع القاهرة ملتزمة بالصمت على نحو غير عادى .

وكان حسنى مبارك آنئذ يشغل منصب نائب رئيس الجمهورية . وأصيب بجراح طفيفة أثناء اغتيال السادات . وتولى حسنى مبارك منصب رئيس الجمهورية عقب اجراءات سارت فى يسر وسهولة . وكان قد شغل من قبل منصب رئيس سلاح الطيران المصرى . وكان قد اشتهر بالأمانة والاستقامة والصراحة . وهو لا يتمتع بتلك الجاذبية الهائلة التى كان يتمتع بها عبد الناصر والسادات ولكنه برهن على أنه لديه قدر كبير للغاية من الحكمة والادراك السليم والحكم على الأشياء بصورة صائبة . وقام حسنى مبارك باطلاق سراح المسجونين السياسيين الذين سجنوا فى عهد السادات علاوة على اقامة حوار مع المعارضة . ولم تفسر

الحكومة فى الغاء نفوذها الفاشستى ولكنه نجح فى تهدئة السياسة الداخلية • وفى نفس الوقت ألغى هجوم وسائل الاعلام المصرية على الأخوة العرب وشرع فى اصلاح علاقات مصر مع العـــالم العربى • وتم اصلاح العلاقات على نحو تدريجى حيث كان الأمر يستلزم ضرورة محافظة مصر على معاهدة السلام مع اسرائيـــل وعلى اعتمادها على علاقات الصــــداقة مع أمريكا ولكن مما ساعد على الاصلاح الحقيقة الدامغــة التى لا مفــر منهــا وهى أن عزلة مصر قد خفضت النفوذ السياسى للعرب فى العالم تخفيضا شديدا • ولذلك أصبحت جميع الحكومات العربية ـ باستثناء حكومة سوريا ـ لديها الأســباب الوجيهة التى تجعلها ترغب فى عودة مصر الى الحظيرة العربية •

اسرائيل/فلسطين والضحية اللبنانية :

لقد تسبب انتصار اسرائيــل الساحق فى يونيـــو ١٩٦٧ والكارثة التى لحقت بالجيوش العربية فى ظهور المنظمات الفدائية الفلسطينية كقوة مستقلة بذاتها فى داخل العالم العربى • الا أن أهمية هذه المنظمات كانت ترجع الى اتخاذها الطابع السـياسى على نحو يفوق الطابع العســكرى • ولم تكن اسرائيـــل مهتمة كثيرا بالنشاط الفدائى المتواجد فى داخل حدودها الجديدة ـ لأن الخسائر كانت أكبر بكثير على جبهة قناة السويس أثناء حرب الاستنزاف ٦٩ ـ ١٩٧٠ • كما كان وزير الدفاع الاسرائيلى موشى ديان يمارس سيطرة كاملة على الأراضى المحتلة فى الضـــفة الغربية وقطاع غزة واتخذ سياسة تعزيز القبضة الاقتصادية والسياسية لاسرائيــــل عليهما منتظرا مجيىء الوقت المناسب الذى يصبح فيه العرب على استعداد لعقد سلام وفقا لشروط اسرائيل • وكانت اسرائيـــل ترغب فى الدخول فى مفاوضات مباشرة مع العـرب تؤدى الى عقد معاهدات سلام مع جيرانها من الدول العربيــة بدون التزام مسبق بقرار مجلس الأمن التابع للأمم المتحدة رقم ٢٤٢ والذى ينص على الانسحاب من جميع الأراضى المحتلة • بل انها فى حقيقة الأمر كانت

تتصور أن تقوم بانسحاب جزئى فقط والاستمرار فى السيطرة العسكرية على باقى الأراضى المحتلة حتى فى حالة التوصل الى سلام مع العرب • وتأكدت الرغبة فى الاستمرار فى الاحتلال من خلال البدء فى عام ١٩٦٨ فى انشاء مجموعات من المستوطنات العسكرية التى أنشئت على طول وادى الأردن • وتم تسليم معظم هذه المستوطنات الى مستوطنين مدنيين فيما بعد • ولم يكن هناك اتجاه نحو التفاوض مع الزعماء الفلسطينيين بشأن انشاء دولة فلسطينية متمتعة بالحكم الذاتى فى الضفة الغربية رغم أن هذه الفكرة كانت تراود بعض الشخصيات الاسرائيلية البارزة غير المشاركة فى الحكومة الاسرائيلية •

وكان أسلوب الجنرال ديان فى الأراضى المحتلة هو التعامل فى حزم مع المعارضة والاضطرابات مع الحرص فى نفس الوقت على جعل الاحتلال غير واضح المعالم بقدر الامكان • ولذلك تم الالتزام بسياسة « الجسور المفتوحة » والتى تسمح للعرب بالأراضى المحتلة بالسفر الى الأردن وغيرها من الدول العربية الأخرى •

وكانت المنظمات الفدائية الفلسطينية التى أعيد تنظيمها من جديد تحت اسم « منظمة التحرير الفلسطينية » لا تفكر فى هذه المرحلة فى انشاء دولة فلسطينية بجوار اسرائيل شأنها فى ذلك شأن الاسرائيليين • اذ كان الميثاق الوطنى الفلسطينى الذى تم اقراره فى عام ١٩٦٨ بمعرفة المجلس الوطنى الفلسطينى [وهو شبه برلمان فلسطينى فى المنفى] يتطلع الى التحرير العربى الكامل لفلسطين واختفاء دولة اسرائيل نهائيا • ففلسطين ينبغى أن تكون للفلسطينيين الذين تم تعريفهم [وفقا للمادة رقم ٥] بأنهم « المواطنون العرب الذى كانوا يعيشون بصفة دائمة فى فلسطين حتى عام ١٩٤٧ » و « وكل من ولد من أب فلسطينى عقب ذلك التاريخ » • أما اليهود الذين كانوا يعيشون بصفة دائمة فى

فلسطين « قبل بداية الغزو الصهيونى » فانهم يعتبروا من الفلسطينيين [المادة رقم ٦] ولكن ذلك كان يعنى ابعاد الغالبية العظمى من المواطنين الاسرائيليين ·

وعلى الرغم من فشل المنظمات الفدائية الفلسطينية فى خلق أى مشكلة عسكرية خطيرة بالنسبة لاسرائيل الا أنها كانت تتمتع بالاحترام الشديد والهيبة · ولقد ارتفعت روحها المعنوية الى الذروة مع تفجر معركة الكرامة Kerameh بوادى الأردن فى مارس ١٩٦٨ عندما تعاون الجيش الأردنى مع الفدائيين الفلسطينيين ودخلوا سويا فى معركة كبرى ضد غارة اسرائيلية انتقامية وكبدوا اسرائيل خسائر ضخمة لم تشهدها فى أية اشتباكات أخرى من قبل · الا أن تزايد الأنشطة المستقلة التى تقوم بها المنظمات الفلسطينية والتى كانت تتسبب فى قيام اسرائيل بغارات انتقامية شديدة ضد الأراضى الأردنية بدأت تهدد الاستقرار فى داخل الأردن ، وانقسمت السلطات المدنية والعسكرية بالأردن فى الرأى ما بين أولئك الذين يرغبون فى تقديم الخدمات والتسهيلات للفدائيين وأولئك الذين يرغبون فى فرض القيود والسيطرة على أنشطتهم · وكان الملك حسين وكذلك ياسر عرفات رئيس منظمة التحرير الفلسطينية يفضلان التوصل الى تسوية أو حل وسط · الا أن الملك حسين اضطر لأن يكافح ضد الفلسطينيين وذلك بسبب الاستياء المتزايد المناهض للفلسطينيين فى داخل جيشه وخاصة بين العناصر المتطرفة الموالية للملك والتى هى من أصل بدوى بينما كان ياسر عرفات غير قادر على السيطرة على بعض المجموعات الفدائية الصغيرة المتطرفة فى داخل منظمة التحرير الفلسطينية · وتحت هذه الضغوط وافق الملك حسين على تشكيل حكومة عسكرية مؤقتة ·

واندلعت شرارة الحب الأهلية فى سبتمبر ١٩٧٠ عندما قالت الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين باختطاف ثلاث طائرات

غربية وارغامها على الهبـــوط على مهبط طائرات مهجور فى الجزء الشرقى من الأردن • واستمر القتال سائدا ابتداء من ١٧ سبتمبر بين وحدات من الجيش الأردنى والفدائيين الفلسطينيين الى أن تم التوصـــل فى ٢٥ سبتمبر الى وقف اطـــلاق النيران عقب اجتماع عاجل لرؤساء الدول العربية عقد في القاهرة بناء على دعوة من الرئيس عبد الناصر [قبل وفاته بوقت قصير] • وقام الملك حسين وياسر عرفات بالتوقيع على اتفاقية هدنة تشتمل على ١٤ بندا وتنص على العودة الى الحكم المدنى • وعلى الرغم من أن الفدائيين الفلسطينيين كانوا لا يزالون يحتفظون ببعض المعاقل الحصينة في شمال الأردن وببعض الأحياء السكنية في عمان الا أنهم كانوا قد وصلوا الى درجة كبيرة من الضعف بسبب الدخول فى تلك المعـــارك ، وقام الملك بمنح منصب رئيس الوزراء لواحد من أخلص مستشـــاريه وهو وصفى التل الذى اتخذ اتجاهات معادية للفدائيين •

وعلى نحو تدريجى بدأ الجيش الأردنى يستخدم كل ثقله من أجل طرد الفلسطينيين من البلاد • وبحـلول يوليو ١٩٧١ أزيلت آخر قواعـــدهم العســـكرية بالأردن • وأبدت دول عربية أخرى استياءها وغضبها الشـــديد من الأردن ولكن لم يكن بمقدورها أن تفعل شيئا لمساعدة الفدائيين وظل الأردن راســـخا فى موقفه على الرغم من فرض العزلة عليه من جانب بعض الدول العربية • وعانى الفلسطينيون من اليأس والاحباط مما أدى الى ظهـــور منظمة « أيلول الأسود » التى تضم مجموعة غير منظمة مـن الفلسطينيين الذين عقدوا العزم على ضرورة الانتقـــام • وفى سبتمبر ١٩٧١ تم اغتيال وصفى التل فى القاهرة • كما قامت منظمة «أيلول الأسود» بتنفيذ سلسلة من العمليات الفدائية التى تم معظمها فى خـــارج اسرائيل والتى تشـــتمل على اختطاف الطائرات والقاء القنـــابل ومحاولات لاحتجاز الرهائن • وأشـــهر هذه العمليـــات هى تلك العملية التى نفـــذت أثناء المباريات الأولمبية فى ميونيخ فى سبتمبر

١٩٧٢ والتى أدت الى موت تسعة من الرياضيين الاسرائيليين الذين أخذوا كرهائن بمعرفة فدائى أيلول الأسود • وشعر العالم بالزعر ولكن الفلسطينيين الذين لم يعد لديهم شيء يفقدونه شعروا أن قضيتهم كانت تجذب على الأقل اهتمام الرأى العام العالمى •

وبعد طرد الفدائيين الفلسطينيين من الأردن بدأت منظمة التحرير الفلسطينية تركز أنشطتها فى الدولة العربية الوحيدة المتبقية التى يمكن للفلسطينيين بها التمتع بقدر من حرية الحركة والعمل ـ ألا وهى لبنان • وفى حين كان الكثيرون من اللبنانيين ـ وخاصة المسلمون ـ يشعرون بالتعاطف مع الكفاح الفلسطينى نجد أن غالبية المسيحيين كانوا يشعرون بالعداء للفلسطينيين بل وطالب زعماء المارون بطرد الفدائيين الفلسطينيين من الأراضى اللبنانية • الا أن الدولة اللبنانية القائمة على المصالحة السياسية التى تراعى أحاسيس الآخرين كانت ضعيفة وعاجزة من الدفاع عن مصالحها • وكان جميع اللبنانيين يدركون جيدا أن بلادهم عاجزة عن الدفاع فى مواجهة الأعمال الانتقامية التى تشنها اسرائيل ضد الأنشطة الفدائية الفلسطينية •

ولبعض الوقت نجد أن المصادمات بين الفدائيين الفلسطينيين والجيش اللبنانى والمليشيات المدنية المسلحة ذات الولاءات المختلفة لم تتحول الى حرب شاملة وذلك بسبب حدوث سلسلة من الاتفاقيات الترميمية الهزيلة التى يتم التوصل اليها عن طريق الوساطة العربية • الا أن مثل هذه الوساطة أصبحت صعبة على نحو متزايد عقب عام ١٩٧١ عندما نقلت منظمة التحرير الفلسطينية مقر قيادتها من الأردن الى لبنان حيث أصبحت لديها الفرصة الأخيرة لانشاء « دولة فى داخل دولة » •

والجدير بالذكر أن الحرب العربية / الاسرائيلية لعام ١٩٧٣ والآثار المترتبة عليها قد جلبت بعض الفوائد على قضية الفلسطينيين

على المستوى الدولى • فالشعور بأن اسرائيل لم تعد دولة لا تقهر والأداء الجيد للجيوش العربية والزيادة الهائلة فى ثـــراء ونفوذ الدول العربية البترولية قد أدى الى ظهـــور وعى جديد بالكفاح الفلسطينى من أجل حق تقرير المصير • وبدأت الدول الغربية تميل بشـــدة نحو العرب علاوة على قيـــام كوبا وسبع وعشرين دولة افريقية ـ من بينها عدد كبير كان قد عقد صـــداقات حميمة مع اسرائيل ـ بقطع العلاقات الدبلوماسية مع اسرائيل بحلول نهاية عام ١٩٧٣ • وفى سبتمبر ١٩٧٤ وافقت الجمعية العمومية للأمم المتحدة لأول مرة على وضع « المشكلة الفلسطينية كبند مستقل فى جدول الأعمال الخاص بهـا ثم وجهت الدعـوة لمنظمة التحـــرير الفلسطينية لكى تشـــارك فى المناقشـــات • وفى ١٣ نوفمبر نجد أن ياسر عرفات الذى عومل بنفس الاحترام الذى يتلقـــاه رئيس أى دولة قد ألقى خطابا فى الجمعية العمومية للأمم المتحـدة جاء فيه ما يلى : « لقد جئت حاملا فى يدى غصن الزيتون وبندقيه المقاتل الذى يدافع عن حريته • فلا تدعوا غصن الزيتون يسقط من يدى » • وبذلك أصبحت منظمة التحرير الفلسطينية لها وضـــع شبه رسمى فى العديد من المنظمات الدولية •

وبعد ما أقدمت عليه الأمم المتحدة شعرت الدول العربيـــة أن بمقدورها أن تتخذ اجراءات لا تقل عن الاجراءات التى اتخذتها الأمم المتحدة فى مجال الاعتراف بمنظمة التحـــرير الفلسطينية • وفى مؤتمر القمـة العـربى المنعقـد فى الرباط فى أكتوبر ١٩٧٤ قام فيصل ملك السعودية بالدور الرئيسى فى اقناع الملك حسين بالموافقة على قرار يصادق على حق الشعب الفلسطينى فى انشـاء كيان دولى تحت اشراف وتوجيهات منظمة التحرير الفلســـطينية « بوصفها الممثل الشرعى الوحيد للشعب الفلسطينى » • ثم ظهرت محاولات لانتزاع هذا اللقب من خلال اقتراح بتشكيل قيـــادة فلسطينية بديلة ولكن هذه المحاولات باءت بالفشل الذريع •

ولكن منظمة التحرير الفلسطينية كان لهـا موقف ضعيف أثناء حرب ١٩٧٣ ـ وهو أمر كان يدركه جيـدا ياسر عرفات ـ اذ لم يلعب الفلسطينيون أى دور من حيث اتخاذ قرار بشأن الدخول فى الحرب ولم يشاركوا الا فى معارك صغيرة على الحدود اللبنانية ·

أما الاعتراف العالمى بعدالة المطالب الفلسطينية فقـد اعتمد كثيرا على الدبلوماسية العربية وعلى رغبة الدول العربية الرئيسية [وخاصة مصر] فى التوصل الى سلام · وأصبح الأمل فى استعادة أرض فلسـطين كلها لصالح العرب بعيدا للغاية مثلما كان بعيدا فى أى وقت مضى ·

وظهـر الشقاق فى الرأى فى داخـل منظمة التحـرير الفلسطينية ·اذ رأى بعض الزعماء الفلسطينيين ومنهم ياسر عرفات ان الأهداف الفلسطينية ينبغى أن تخفض وتصـبح مقتصرة على انشاء دولة فلسطينية صغيرة فى الضفة الغربية وقطاع غزة وأنه ينبغى على منظمة التحرير الفلسطينية أن تسعى الى التوصـل الى تسوية بالتعاون مع مصر من خلال عقد مؤتمر تحت رعاية واشراف الأمم المتحدة يتم فيه تمثيل الفلسطينيين · الا أن هذا الرأى واجه معارضة مريرة من آخرين ـ الرافضين ـ حيث رفضـوا التخلى ولو بصفة مؤقتة أو تاكتيكية عن الهدف الرئيسى الرامى الى جعل فلسطين كلها « دولة ديموقراطية غير علمانية » ولم يعترف عرفات ورفاقه بأنهم قد تخلوا عن ذلك الهـدف الكبير والذى كان هو موضـوع الخطبة التى ألقـاها ياسر عرفات أمام الجمعية العامة للأمم المتحدة ولكن ذلك الهدف ـ كما أشار فيما بعد ـ كان بمثابة حلم و « هل الانسان يرتكب جريمة اذا استسلم للأحلام ؟ » · وحقيقة الأمر أن الدولة الفلسطينية الصغيرة قد أصبحت الآن هى الهدف · ولذلك فان الصيغة التى تمت الموافقة عليها بنجاح كانت تتمثـل فى اصدار قرار من المجلس الوطنى الفلسطينى يدعـو الى انشاء « سلطة وطنية » على أية أراضى فلسطينية يمكن تحريرها ·

ولكن اسرائيل ـ وبتأييد من أمريكا ـ تمسكت برفض منح أى اعتراف بمنظمة التحرير الفلسطينية • فبدت الفرص بعيدة للغاية فيما يتعلق باستعادة جزء صغير من الأراضى لكى تقام عليه دولة لمنظمة التحرير الفلسطينية • فركزت منظمة التحرير الفلسطينية جهودها على اقامة « حكومة فى الظل » لها فى لبنان ، وهنا بدأ الموقف فى التدهور بسرعة • وكان التواجد الفلسطينى أبعد عن أن يكون هو السبب الوحيد • اذ أن المسلمين الشيعة الذين كانوا يشكلون الأغلبية السكانية فى الجنوب اللبناني والذين كانوا من الناحية التقليدية بمثابة الطبقة الاجتماعية المنخفضة سياسيا واجتماعيا بالبلاد قد عثروا على زعيم جديد لهم وهو الامام موسى الصدر • وهو زعيم دينى من أصل ايرانى ، وكان قد انشأ جماعة « المحرومين من الميراث » التى لها جناح عسكرى خاص بها يسمى « أمل Amal » • وكان هؤلاء المحرومون الساكنون بجنوب لبنان يعانون كثيرا من الغارات الانتقامية التى تشنها اسرائيل ضد الفدائيين الفلسطينيين مما أدى الى ترك بعضهم لمنازلهم والرحيل الى الضواحى الآمنة نسبيا المتواجدة فى جنوب بيروت • وكانت الفوارق الاجتماعية والاقتصادية فى لبنان ـ والتى كانت شاسعة باستمرار وعلى نحو خطير ـ قد تزايدت بسبب الآثار الناجمة عن الزيادة الهائلة فى أسعار بترول الشرق الأوسط والتى أدت الى زيادة ازدهار وغنى طبقات رجال الأعمال الغنية فى البلاد • وفى نفس الوقت فان تزايد المليشيات العسكرية التى تمثل الطوائف والاتجاهات السياسية العديدة فى لبنان قد أدى الى ظهور تحدى سافر ومكشوف للقوات المسلحة اللبنانية الحكومية الهزيلة •

وفى عام ١٩٧٥ تطورت القلاقل وتحولت الى حرب أهلية على نطاق شامل • وفى بادىء الأمر كان الصراع يتركز أساسا بين المليشيات المسيحية اليمينية وتحالف اليساريين بقيادة الزعيم

الدرزى كمال جومبلاط • وتم تغذية ذلك الصراع من خارج لبنان من خلال الامداد بالأسلحة والأموال من جهات عديدة بما فى ذلك اسرائيل وبعض الدول العربية وأيضا من جانب المخابرات المركزية الأمريكية على الأرجح • وحاول الزعمـــاء الفلسطينيون في بادىء الأمر الوقوف على الحياد فى هذه الحــرب الاهليـــة ولكنهـــم جذبوا اليهـــا فى وحشية الى أن أصبحوا بحـلول ينـــاير ١٩٧٦ متورطين تماما لصالح اليساريين • وعقب احراز نجاحات أولية أصبح التحالف اليسارى / الفلسطينى مسيطرا على حوالى ٨٠٪ من البلاد • الا أن ســـوريا عند هذه المرحلة بدأت تتدخل عســـكريا حيث بدأت تخشى من احتمال تقســـيم لبنان الى دولة مسيحية صغيرة تتحالف مع اسرائيل ويظل الجزء الباقى فى أيدى المسلمين اللبنـــانيين والفلسطينيين خارج نطـاق السيطرة السورية • وكان الرئيس الأسد ـ مثل أى زعيم سورى ـ ينظر الى لبنان على أنه يشكل أهمية حيوية بالنسبة لسوريا • كما كان يعتقد أيضا أن القضية الفلسطينية هى مسئولية جميع العرب ـ وخاصة سوريا لأن سوريا تقع على خط المواجهة الرئيسية مع اسرائيل • ولم يكن يؤمن بأن منظمة التحرير الفلسطينية ينبغى عليها أن تعمـل على نحو مستقل بمفردها • كما كانت علاقاته الشخصية مع ياسر عرفات تتسم بعدم الثقة المتبادلة •

وأدى تدخل ســـوريا الى تحالف عجيب وغير طبيعى مـع المسيحيين اللبنانيين المنتمين للجناح الأيمن • ورغم أنه تحالف استمر لفترة قصيرة الا أنه كان كافيا لقلب الموازين ضد الائتلاف اليسارى / الفلسطينى • وعلى مضض وافقت الدول العربية على تواجد القوات السورية فى لبنان من حيث هى الكيان الرئيسى لقوة حفظ السلام العربية • وخمدت الحرب الأهلية بعد أن تسببت فى قتل حوالى ٥٠ ألف شخص وجرح أعداد أخرى تزيد على ذلك الرقم بينما طرد أكثر من مليون شخص لبنانى من مســـاكنهم • ومثلما

يحدث دائما فى مثل هذه الحروب الأهلية فان الأعمال الوحشية والمذابح والاختطاف والاغتيال قد ارتكبت بمعرفة الجانبين ٠

وبدأ اللبنانيون من خلال نشاطهم المعهود فى بناء اقتصادهم من جديد ٠ وتم احياء التجارة والأعمال المصرفيـــة وظلت العملة اللبنانية قوية وراسخة وبدا أنه من الصعب أن تفقد لبنان تفوقها التجارى السابق فى المنطقة ٠ ولكن سرعان ما اتضح أن الحرب الأهلية قد هدأت فقط ولم تتوقف نهائيا ٠ اذ ظلت المخاوف والأحقاد والكراهية التى عمقتها الحرب متواجدة ٠ كما أن القوات السورية كانت عاجزة عن نزع سلاح المليشـيات الطائفية وتهدئة البلاد كلها ٠ فالمسيحيون اللبنانيون الذين سبق لهم الترحيب بالقوات السورية فى عام ١٩٧٦ سرعان ما بدأوا يكرهون تواجـد القوات السورية ويطالبون بانسحابها ٠ ولكن السيطرة السورية كانت تلقى معارضة من البعض فى المعسكر المقابل أيضا ٠ ففى مارس ١٩٧٧ تم اغتيال الزعيم الدرزى كمال جمبلاط على أيدى المخابرات الحربية السورية فى الغالب ٠ وعلاوة على ذلك فان التواجد المستمر للكيان الفلسطينى الشبيه بالدولة فى داخل لبنان كان يعنى أن اسرائيل تجد المبررات دائما التى تدعوها للتدخل ٠ ولذلك نجد أن التحالف الذى كان قد بدأ أثناء الحرب الأهلية بين اسرائيـل وبعض الفروع التابعة للميلشيات المسيحية قد استمر فى التعمق والتطور ٠

وكان الزعماء الاسرائيليون منذ الأيام الأولى لانشاء اسرائيل يدركون المزايا التى تترتب على تشجيع الانفصـــال المسيحى فى لبنان وخلق دولة مسيحية مارونية متحالفة مع اسرائيل ٠ وفى جنوب لبنان أتيحت الفرصة للاسرائيليين للشروع فى بدايه من خلال المساعدة فى انشاء منطقة حدودية صديقـــة يسيطر عليها ضابط مسيحى لبنانى حصل على مساندتهم الكاملة ٠ ومن خلال الاتفاق المتبادل الاسرائيلى / السورى والذى تم عن طريق الأمريكيين

فان القوات السورية ظلت مبتعدة على مســـافة كبيرة عن الحدود الاسرائيلية • ويقوم اللبنانيون الجنوبيون حاليا بعبور « الحدود المفتوحة » الى داخل اسرائيــل من أجل الحصــول على مأوى آمن أو العلاج الطبى • وكانت الغالبيــة العظمى من الشيعة • بـل ان بعضهم انضم الى المليشيات المسيحية بسبب شــعورهم بالمرارة والمعـــاناة والغضب من عجرفة المقاتلين التابعين لمنظمـــة التحرير الفلسطينية •

وأصبح الموقف أكثر خطـــورة لدى صعود مناحم بيجين الى السلطة فى مايو ١٩٧٧ على رأس حكومة يمينية • ونظرا لأن اسرائيل لم تعد بحاجة لأن تهتم بمسألة الحرب مع مصر عقب قيام السادات بزيارة القدس فى نوفمبر فان ذلك كان يعنى أن اسرائيل أصبح لها مطلق الحرية فى أن تركز اهتمامها على جبهتها الشماليـــة • وفى مارس ١٩٧٨ قامت بشن أول غزو على نطاق واســع على الجنوب اللبنانى بهدف تحطيم القواعد التابعـــة للفدائيين الفلسطينيين • فاضطر الفلسطينيون الى التشتت والاتجاه نحو الشـــمال وعانى اللبنانيون من ذلك الغزو أكثر من غيرهم • وفى هذه المرة اتخذ مجلس الأمن التابع للأمم المتحدة موقفا حازما بمساندة من الرئيس كارتر مما أدى الى الانسحاب الاسرائيلى بحلول شهر يونيو ووضع قوات دولية تابعة للأمم المتحدة فى لبنان UNIFIL • الا أن اسرائيل اســتمرت فى تقـــديم العون والدعم للمنطقة الحدودية الصديقة التى لا تسيطر عليها قوات الأمم المتحدة •

وكانت الفترة من عام ١٩٧٩ حتى ١٩٨١ هى فترة الهـــدوء المشوب بالتوتر والقلق فى الصراع العربى / الاسرائيلى • وأصبح من الواضح تماما أن ابرام سلام منفرد بين مصر واسرائيل لن يؤدى الى أية تســـوية شـــاملة • بل ان الســـلام المنفرد جعل الأمور أكثر صعوبة لأن اسرائيل التى واجهت جبهة عربيـــة فى حـــالة من

التشويش والفوضى عقب ابتعاد أقوى دولة عربية وهى مصر قد أصبحت أكثر تصميما على عدم الاستجابة لمطالب القومية الفلسطينية • وفى يونيو ١٩٨٠ أصدر اتحاد الدول الأوربية ما يسمى « باعلان فنيسيا » الذى أشاروا فيه الى أن منظمة التحرير الفلسطينية ينبغى أن تشارك فى أية مفاوضات للسلام تتعلق بالشرق الأوسط • الا أن اسرائيل تجاهلت مثل هذه الاقتراحات طالما أن الأوربيين مازالوا يوافقون على وجهة نظر السادات التى تشير الى أن أمريكا لديها ٩٩٪ من أوراق قضية الشرق الأوسط •

وفى يوليو قام الاسرائيليون رسميا بضم القدس الشرقية وأعلنوا أن القدس الموحدة أصبحت عاصمة دائمة لاسرائيل • وفى أغسطس ١٩٨١ قدم السعوديون الخطة الخاصة بهم والتى تقضى بانسحاب اسرائيل من كافة الأراضى العربية التى احتلت فى عام ١٩٦٧ وانشاء دولة فلسطينية فى الضفة الغربية وقطاع غزة تكون عاصمتها القدس الشرقية ويتم ذلك بضمان من الأمم المتحدة • وأشارت الخطة الى أن جميع الدول فى منطقة الشرق الأوسط بما فى ذلك اسرائيل ينبغى أن تكون قادرة على العيش فى سلام • الا أن نفوذ المملكة العربية السعودية لم يكن قويا للغاية وعلى نحو يضمن الحصول على الموافقة العربية الكاملة على الخطة • ثم بزغ عامل جديد متمثل فى الحرب الشاملة بين العراق وايران فى عام ١٩٨٠• اذ أدى ذلك الى تحويل الانتباه فى الشرق الأوسط والعالم كله عن مشكلة الصراع العربى / الاسرائيلى بل وأدى الى تعميق الانقسامات فى داخل الدول العربية •

وخلال هذه الفترة لم تتمتع لبنان بالسلام الا فيما ندر • فالعنف بين الطوائف وفى داخل نطاق الطوائف وحالات الانتقام والأخذ بالثأر الحتمى بينها والانتقام الاسرائيلى الذى يتم على نطاق واسع من أجل الرد على هجمات الفدائيين الفلسطينيين قد أدى الى وقوع العديد من الآلاف بين قتيل وجريح • وتم التوصل الى فترة

هدوء نســـبى فى سبتمبر ١٩٨١ عنـــدما قامت منظمة التحرير الفلسطينية من خلال وساطة أمريكية بعمل ترتيبات لوقف اطلاق للنيران غير رسمى مع اسرائيل • ولكن اسرائيل لم تكن قد تخلت عن هدفها الرئيسى ألا وهو تحطيم شبه الدولة الفلسطينية فى لبنان نهائيا • ولذلك عندما حدثت محاولة لاغتيال السفير الاسرائيلى الذى كان متواجدا فى لبنان على أيدى متطرفين فلسطينيين اتخذت اسرائيل من ذلك مبررا أو ذريعة : وفى اليوم التالى الموافق ٦ يونيو ١٩٨٢ قامت اسرائيل بغزو آخر على نطاق كامل للبنان ولكنهـــا لم تتوقف فى هـــذه المرة عند نهر الليطانى الذى يقع على مســـافة عشرين ميلا تقريبا من الحدود وانما واصلت الزحف شمالا وفرضت حصارا على بيروت استمر لمدة شهرين • فمات الآلاف وتشرد عشرات الآلاف من سكان العاصمة والمدن الكبرى وقرى الجنوب •

وأصيبت الدول العربية بالذعر والهلع ولـــكنها شـــعرت بالاذلال والاحباط بسبب عدم مقدرتها على التأثير على الأحداث • وقـــام الـــكثيرون من المســـيحيين اللبنانيين بالترحيب بالغزاة الاسرائيليين كأصدقاء ومنقذين بينما أبدى بعض المسلمين اللبنانيين كراهيتهم للتواجـــد الفلسطينى فى بلادهم • وأظهـــرت القوات السورية بعض المقاومة ولكن بعد أن قامت اسرائيل بتدمير مواقع الصواريخ الخاصة بالسوريين بدون أن تفقد أية طائرات وافقت سوريا على وقف اطلاق النيران • وقام الاسرائيليون بتضييق الخناق على المقر الرئيسى لمنظمة التحرير الفلسطينية ببيروت • الا أن الفلسطينيين بمساعدة من بعض حلفائهـــم اللبنانيين تمكنوا من البرهنة على أن أول احتلال اسرائيلى لعاصمة عربية سيكون باهظ التكاليف للغاية بالنسبة لاسرائيل • وواجـــه الفلسطينيون ذلك التفوق الاسرائيلى الهائل ولكنهم أبدوا مقاومة عظيمة على الرغم من أنهم لم يكن لديهم استيراتيجية فعالة •

وكانت مكاسب العرب من وراء ذلك الغزو ـ الذى يمكن أن نسميه بالحرب العربية / الاسرائيلية السادسة ـ سلبية ولكنها تتسم بالأهمية ، فالخسائر الهائلة فى الأرواح بين اللبنانيين والفلسطينيين والدمار الهائل للمتلكات وقذف بيروت بالقنابل فى وحشية وقسوة متواصلة جعل الرأى العام العالمى يتحول ضد اسرائيل بل وأدى الى حدوث انقسام فى الرأى العام فى داخل اسرائيل ذاتها •

واستجاب الرئيس ريجان للنداءات الملحة من جانب الملك فهد وبدأ يعبر علنا عن عدم موافقته على أعمال اسرائيل ويمارس الضغوط الرامية الى كبح جماح اسرائيل • ومن خلال الوساطة الأمريكية تم التوصل الى اتفاق يقضى بابتعاد اسرائيل عن منطقة غرب بيروت المسلمة وقيام ياسر عرفات وال ١٣ ألف مقاتل فلسطينى بالجلاء عن لبنان تحت اشراف عسكرى أمريكى • وبدأ الجلاء بالفعل فى ٢٢ أغسطس وفى اليوم التالى تم انتخاب بشير الجميل الزعيم الشاب للمليشيات المسيحية المشتركة رئيسا لجمهورية لبنان تحت سيطرة المدافع الاسرائيلية • ولكن فى ١٤ سبتمبر تم اغتياله قبل أن يتولى مهام منصبه ـ على أيدى عملاء سوريين فى الغالب ـ فقامت القوات الاسرائيلية ، على الرغم من الاحتجاجات القوية الأمريكية بدخول بيروت الغربية « بهدف الحفاظ على النظام » • وبعد مرور يومين حدثت مذابح وحشية ضد المدنيين الفلسطينيين على أيدى مليشيات يمينية متطرفة لبنانية فى معسكرات صابرا وشاتيلا للاجئين الواقعة آنئذ تحت اشراف عسكرى اسرائيلى وبدون أن تتم أية محاولة اسرائيلية لايقاف المذابح • فشعر العرب بالاحباط الشديد واتهموا أمريكا بالتخلى عن وعودها بشأن توفير الحماية للمدنيين الفلسطينيين عقب انسحاب المقاتلين الفلسطينيين من لبنان •

ومع ذلك بدا لبعض الوقت أن هناك فرصة لحدوث تفهم جديد بين أمريكا والعرب • ففي أول سبتمبر ١٩٨٢ أعلن الرئيس ريجان عن مقترحات كاملة للتوصل الى تسوية في الشرق الأوسط تتسم لأول مرة باظهار الاهتمام المتساوى بالمصالح العربية والاسرائيلية • وعلى الرغم من أنه أعلن أن خلق دولة فلسطنية هو أمر غير وارد ولا مجال للبحث فيه الا أنه أشار الى أن السيطرة الاسرائيلية المستمرة على الأراضى العربية المحتلة هى أمر غير مقبول ، واقترح بدلا من ذلك انشاء كيان فلسطينى متمتع بالحكم الذاتى ومرتبط مع الأردن • فرفض مناحم بيجين فى غضب شديد خطة ريجان بينما أظهرت الدول العربية بعض الارتياح ازاء هذه الخطة • وفى اجتماع القمة العربى المنعقد فى فاس Faz وضعت الدول العربية خطة خاصة بها ـ وهى خطة متماثلة مع المقترحات التى تقدمت بها السعودية فى السنة السابقة • وعلى الرغم من أن الخطة العربية كانت مختلفة عن خطة ريجان فى نواحى هامة وخاصة فيما يتعلق بخلق دولة فلسطينية مستقلة فان المقترحات الأمريكية والعربية لم تكن متنافرة للغاية بحيث يتعذر التوفيق بينها • ومن ناحية أخرى أصبحت العلاقات الأمريكية / الاسرائيلية فاترة بشكل واضح •

الا أن هذا لم يكن سوى حالة من حالات الفجر الجديد الزائف فى علاقات أمريكا بالعرب • اذ كانت الحكومة الأمريكية مازالت فى حقيقة الأمر تساند اسرائيل فى رفضها لحق تقرير المصير الفلسطينى بل والأكثر من ذلك أن الاستراتيجية الأمريكية تجاهلت دور سوريا وبالتالى تجاهلت دور حليف سوريا : ألا وهو الاتحاد السوفييتى الذى بادر الى تزويد سوريا بالسلاح واستعاضة كافة الأسلحة السورية التى فقدت أثناء الحرب مع اسرائيل • اذ كانت نظرية كسينجر الخاصة بابعاد الاتحاد السوفييتى بقدر الامكان عن دبلوماسية الشرق الأوسط مازالت قائمة وسارية المفعول •

وفى سبتمبر ١٩٨٢ عاد مشاة البحرية الأمريكية الى لبنان لكي يصبحوا جزءا من قوة حفظ السلام الدولية مع فرق مماثلة ايطالية وفرنسية وفرق أصغر حجما من البريطانيين · وكانت السياسة المعلنة لأمريكا هى العمل على اجلاء كافة القوات الأجنبية : الاسرائيليين والسوريين والجزء المتبقى من الفلسطينيين وذلك لكي يتمكن الرئيس اللبنانى الجديد أمين الجميل من ترسيخ سلطة الدولة اللبنانية فى جميع أرجاء لبنان · وقامت أمريكا بالوساطة القوية بين المتفاوضين اللبنانيين والاسرائيليين مما أدى فى نهاية الأمر الى التوصل فى ١٧ مايو ١٩٨٣ الى عقد اتفاقية بين اسرائيل ولبنان لا تصل الى مستوى اتفاقية سلام ولكنها تهدف بكل وضوح الى انشاء علاقات طبيعية بين الدولتين فى كافة المجالات · ولكن الرئيس الأسد الذى تفجر بالغضب بسبب هذه المحاولة الرامية الى ابعاد لبنان عن النفوذ السورى وربطها مع اسرائيل كان لديه الوسائل التى تؤدى الى اجهاض هذه الاتفاقية · اذ لم تكن أمريكا أو اسرائيل قادرة على ارغامه على سحب قواته من لبنان كما أن الدولة اللبنانية كانت ضعيفة للغاية · وفى شهر نوفمبر قامت مجموعات قاذفة للقنابل بهجوم انتحارى وتمكنت من نسف وتفجير مقر قيادة مشاة الأسطول الأمريكى ومقر قيادة الفرقة الفرنسية مما أدى الى قتل أكثر من ٣٠٠ جندى · وعلى الرغم من أن أمريكا أشارت الى أن المسئولية المباشرة تقع على عاتق المليشيات الشيعية المتطرفة الا أنها كانت تعتقد أن سوريا هى التى وافقت على هذه العملية وساندتها · وأشارت أمريكا الى أن سوريا والسوفيت المساندين لها يشكلون عقبة ليس فقط بالنسبة لتسوية المشكلة اللبنانية ولكن أيضا بالنسبة لاقرار السلام فى منطقة الشرق الأوسط كلها · وأصبحت ردود الفعل الأمريكية تتركز على العمل على زيادة التنسيق مع اسرائيل ـ ونسيان الأعمال التى قامت بها اسرائيل فيما يتعلق بغزو لبنان والصفح عن اسرائيل ـ من خلال

اتخاذ استيراتيجية مشتركة نحو تسوية عربية/اسرائيلية مع تقديم المزيد من المساعدات العسكرية والاقتصادية لاسرائيل ٠

واضطرت أمريكا لأن تعترف بأن استيراتيجيتها بشأن لبنان قد فشلت ٠ ولم يكن الرأى العام الأمريكى على استعداد للموافقة على أى مزيد من التورط العميق للقوات الأمريكية فى القضية الميئوس منها الخاصة بتهدئة لبنان ونشر السلام فى ربوعه ٠ وفى فبراير ١٩٨٤ تم سحب مشاة البحرية الأمريكية من بيروت وسرعان ما انسحبت باقى الفرق الأوربية الأخرى ٠

كما اكتشفت اسرائيل أيضا أن أهدافها من وراء غزو لبنان لم تتحقق ٠ وصحيح أن كيان منظمة التحرير الفلسطينية المتواجد فى لبنان قد تحطم وتبعثر المقاتلون الفلسطينيون فى تشتت ولكن ياسر عرفات ومنظمة التحرير الفلسطينية قد تمكنا من البقاء على قيد الحياة وتم انشاء مقر رئيسى للمنظمة فى تونس فى نهاية الأمر ٠ كما أن حلم اسرائيل فى أن يصبح لها دولة صديقة مجاورة لها من جهة الشمال وتحت سيطرة المارون المسيحيين قد تلاشى على وجه السرعة ٠ وأصبحت القوات الاسرائيلية عاجزة تماما عن السيطرة على الحرب الأهلية المتعددة الفصائل والنزعات الحزبية والتى كانت تحتدم وتحول لبنان الى دولة متجزئة ذات حدود داخلية متغيرة من وقت لآخر ٠ وفى الجنوب اللبنانى نجد أن الأهالى الشيعة الذين يشكلون الغالبية العظمى من السكان والذين لم يقاوموا الغزو الاسرائيلى فى بداية الأمر بسبب معاناتهم الناجمة عن التواجد الفلسطينى قد انقلبوا ضد الاسرائيليين الذين كانوا يتصرفون كغزاة ٠ وبدأت القوات الاسرائيلية تواجه المزيد من الهجمات من جانب المقاتلين اللبنانيين الذين أصبحوا يشتملون على أعضاء من « حزب الله » ـ وهم الشيعة المتطرفون الذين يتلقون الدعم والتأييد من ايران الثورية ٠ ونظرا لتصاعد الخسائر

الاسرائيلية من الجرحى والقتلى أصبح التدخل الاسرائيلى فى شئون لبنان يلقى استياءا متزايدا من الرأى العام فى داخل اسرائيل ٠

وفى سبتمبر ١٩٨٤ أصبح زعيم حزب العمل الاسرائيلى شيمون بيريز رئيسا للوزراء فى حكومة ائتلاف ليكود/عمال عقب الحصول على أصوات متعادلة فى الانتخابات ٠

ولم يكن حزب العمل الاسرائيلى مسئولا عن غزو لبنان رغم أنه لم يعارض ذلك الغزو على نحو فعال ٠ وبحلول يونيو ١٩٨٥ تمكن بيريز من الحصول على الموافقة على سحب القوات الاسرائيلية من لبنان ٠ ولكن اسرائيل أبقت على مستشارين عسكريين فى جيش الجنوب اللبنانى الذى يتألف أساسا من مسيحيين فى منطقة عازلة على طول الحدود وبعمق عشرة أميال ٠ ومن خلال هذه المساحة كان لايزال بمقدور اسرائيل التدخل فى شئون لبنان الداخلية ولكنها كفت عن التدخل المباشر الذى يمكن أن يحدث تأثيرا على طابع الحكومة فى لبنان ٠

وبدا للكثيرين أنه على الرغم من أن ياسر عرفات وزملاءه فى منظمة التحرير الفلسطينية قد تمكنوا من البقاء على قيد الحياة عقب الافلات من الحصار الذى فرض على بيروت فان فاعلية منظمتهم قد انتهت ٠ وعلاوة على ذلك حدثت ضربة أشد سوءا فى ابريل ١٩٨٣ عندما حدثت حركة تمرد فى داخل منظمة التحرير الفلسطينية بمساندة من سوريا ووصفت قيادة عرفات بالفساد واستنكرت اعتزام عرفات على التخلى عن الكفاح المسلح لصالح الدبلوماسية بالتعاون مع الأردن ٠ وبعد أن قام الرئيس الأسد بطرد ياسر عرفات من سوريا قام عرفات بانشاء مقر قيادته فى طرابلس بشمال لبنان حيث واجه هناك هجمات على أيدى متمردين يلقون العون من جنود سوريين وليبيين ٠ وبعد مفاوضات طويلة ومضنية تم اجلاء عرفات ومعه ٤٠٠٠ من أتباعه فى بواخر يونانية تحمل أعلام الأمم المتحدة ٠

وكانت هذه هى النهاية بكل تأكيد • اذ تشستت المقاتلون الفلسطينيون وذهبوا الى أبعد الأماكن فى العالم العربى وأصبح مقر قيادتهم متواجدا فى تونس التى تبعد ٢٠٠٠ ميل عن فلسطين حيث تقع تونس عند الطرف المقابل لحوض البحر الأبيض المتوسط • ولكننا نجد أن هذه الكوارث المتلاحقة هى التى جعلت معظم الملايين الأربعة من الفلسطينين المتواجدين فى الشتات [الديسبوره] أو فى فلسطين يتشبثون أكثر من ذى قبل بالزعيم ياسر عرفات ومنظمة التحرير الفلسطينية من حيث أنهما هما الرمزان الوحيدان الفعالان للهوية الوطنية الفلسطينية • وفى العالم الخارجى كان عرفات القصير الممتلىء ذو اللحية شبه الحليقة يبدو للناس غير جذاب الا أنه فى أعين شعبه يبدو جذابا للغاية وخاصة عندما يتحدث باللغة العربية ويتخلى عن كفاحه مع اللغة الأجنبية مع المراسلين والصحفيين الأجانب الذين يعقدون لقاءات شخصية معه • ولم يكن يوجد هناك بديل عن ياسر عرفات ـ ومازال الأمر كذلــك حتى الآن ـ من حيث هو « المستر فلسطين « Mr. Palestine » • ولذلك اعترفت اسرائيل بأنها قد حاولت تدميره وتدمير مقر قيادته من خلال الغارة الجوية التى شنتها على تونس فى أكتوبر ١٩٨٥ • وهو أيضا يتسم بالبراعة السياســية • اذ أثار حنق وغيظ الغربيين الذين يتمنـون الخير للفلسطينيين بأن رفض أن يعلن فى وضوح وجهة نظره الحقيقية : وهى أنه على استعداد تام للاعتراف باسرائيل والتخلى عن الكفاح المسلح فى مقابل انشاء دولة مستقلة فلسطينية • لأنه كان يرغب فى أن يتيح الفرصة لنفسه لأن يغير كلماته وتصريحاته بحيث تتلاءم مع أهواء المستمعين اليه • وكان يدرك جيدا أنه ينبغى عليه مثل أن يعلن صراحة عن وجهـــة نظره هذه أن يبدأ فى اقناع الغالبية العظمى من الفلسطينيين لكى لا تتحطم منظمة التحرير الفلسطينية وتتفكك • وكان يرفض دائما فى اصرار منع الخلافات الداخلية من الظهور الى السطح رغم الحاح المتعاطفين معه بالخارج على تشكيل

حكومة مؤقتة بالمنفى تكون لهـــا قرارات سياســـية ملزمة لجميع أعضـــائها •

لقد تمكنت منظمة التحرير الفلســـطينية من البقاء على قيد الحياة من حيث هي تنظيم • واتبع ياسر عرفات أســـلوب الهجوم الدبلوماسي لدى قيادته برحلات مكوكية بين العديد من عواصم العالم التى كانت على استعداد لاستقباله • ولكن ظلت الحكومات الغربية ملتزمة بالحرص والحذر والتحفظ واستمرت أمريكا فى مساندة رفض اسرائيل لأن يكون لها أية تعاملات مع منظمة التحرير الفلسطينية • وظلت أمريكا واسرائيل تأملان فى أن يتم حل المشكلة الفلسطينية من خلال عقد اتفاق مع الأردن ينص على وضع الفلسطينيين المتواجدين بالأراضى المحتلة تحت نوع من الحكم المشترك الأردنى/الاسرائيلى • وفى فبراير ١٩٨٥ تم الخروج من هذا المأزق عندما اتفق كل من الملك حسين وياسر عرفات على مبادرة سلام فلسطينية/أردنية مشتركة ترتكز على مبادلة الأرض بالسلام • ولكن هذه المبادرة فشلت بعد عام واحد لأسباب أصبحت مألوفة : اذ شعر العاهل الأردنى أن عرفات قد تراجع عن تعهده باعلان رغبته فى الاعتراف باسرائيل حيث رفض عرفات أن يتخلى عن ذلك الـــكارت الأخير الخـــاص بالمفاوضات بل ورفض التفاوض بدون أن يحصل على الأقل على الاعتراف الأمريكى بالحق الفلسطينى فى تقرير المصير وبالتالى الحق فى انشاء دولة مستقلة •

وتحطم المأزق أو الطريق المسدود من خلال حدوث تطور مفاجىء لم يكن أحد من أطراف النزاع العربى/الاسرائيلى ـ بما فى ذلك منظمة التحرير الفلسطينية ـ قد تنبأ به على الاطلاق • ففى ديسمبر ١٩٨٧ بدأ الفلسطينيون بالأراضى المحتلة فى التمرد والثورة ضد المحتلين الاسرائيليين • وهذا التمرد أو هذه الانتفاضة ـ والكلمة العربية : انتفاضة قد أصبحت جزءا من القاموس الدولى شأنها فى ذلك شأن كلمة جلاسنوست Glasnost الروسية ـ كان غير متوقع

لأن المحتلين الاسرائيليين قد واجهوا مهمة سهلة نسبيا على مدى عشرين عاما على الرغم من ظهور قلاقل متفرقة من وقت لآخر تستمر لعدة أيام أو أسابيع • أما هجمات الفدائيين فلم تكن تشكل فى أى وقت من الأوقات مشكلة عسكرية خطيرة • اذ أن المقاومة الداخلية لم تكن منظمة أو مستمرة على فترات طويلة متصلة • وعندما كانت تبزغ قيادة سياسية معادية كان يتم على الفور وضع أعضائها فى السجن أو ترحيلهم الى خارج البلاد • ولكن فى ديسمبر ١٩٨٧ نجد أن حادثة صغيرة فى قطاع غزة قد فجرت حركة مقاومة مستمرة فى الاشتعال بدون أن تخبو على الاطلاق رغم أنها حركة تلقائية غير مخططة وغير منظمة فى بادىء الأمر • فنصف عدد السكان الذين لم يصل عمرهم الى سن عشرين عاما لم يعرفوا أى شيء سوى الاحتلال الأجنبى • ونظرا لأن المحتلين كانوا يستولون باستمرار على المزيد من الأراضى والمياه ويزرعون المزيد من المستوطنات اليهودية على أراضيهم فانهم أدركوا أن مستقبلهم سيصبح بكل تأكيد أكثر اظلاما وتعاسة • وكان حوالى ٢٠٠ ألف فلســطينى يذهبون يوميا الى اسرائيل للعمل هناك ولكنهم بوجه عام كانوا يقومون بالأعمال الحقيرة وغير الماهرة ـ وبذلك فان الاقتصاد الفلسطينى أصبح من النوع الاستعمارى تماما • وتزايد يأس الفلسطينيين بالأراضى المحتلة من خلال الحقيقة التى مفادها أن الدول العربية بدأت تفقد الاهتمـــام بقضيتهم على ما يبدو • اذ أن المشكلة الفلسطينية قد شطبت لأول مرة من جدول أعمال مؤتمر لرؤساء الدول العربية عقد فى عمان فى أغسطس ١٩٨٧ من أجل أن تحل محلها مشكلة أخرى من نوع مختلف ألا وهى الحرب العراقية/الايرانية •

واتخذت الانتفاضة طابع المظاهرات وحرق اطارات السيارات ورفع العلم الفلسطينى والاضراب عن العمل • ومن الملامح المميزة لها القاء الحجارة على الجنود الاسرائيليين بمعرفة الشباب المراهق أو الأطفال فى بعض الأحيان • ومن الابتكارات الجديدة أنه بزغت قيادة

وطنية موحدة للانتفاضة مجهولة الهوية • وقد أعطت هذه القيادة بعض التنظيم الفعـــال للمظاهرات والاضرابات من خـــلال نشرات وكتيبات ومحطة اذاعة سرية متواجدة فى الأراضى السورية •

ودهشت السلطات الاسرائيلية من حدة واستمرار الانتفاضة وردت عليهـا باللجوء الى القـاء القبض على النـاس بطريقة جماعية وترحيلهم الى خارج البــلاد علاوة على فرض حظر التجول وضرب الناس واستخدام الرصاصات المطاطية التى كثيرا ما كانت تؤدى الى الوفاة أو الجراح الخطيرة • وفى خلال العامين الأولين كان معدل الوفيات فى حدود شخص فلسطينى واحد فى كل يوم •

وبعد مرور عامين أصبح عدد الفلسطينيين الذين ألقى القبض عليهم حوالى ٥٠ ألف شخص علاوة على ٧٠٠٠ جريح وعدد من القتلى يزيد على ٥٠٠ قتيل • وكان نصف عدد المقبوض عليهم تحت ســـن ١٨ عاما • ونادرا ما كان يلجأ هؤلاء الثوار الى استخدام الأسلحة ـ ومن هنا سميت ثورتهم باسم : « ثورة الحجارة » ـ ولكن فى خلال السنة الثانية بدأ ثوار الانتفاضة يشعرون بالمزيد من المرارة وشرعوا فى القيام بقتل أى شخص فلسطينى يشتبه فى أنه يتعاون مع الشركة السرية الاسرائيلية كما بدأ الأصوليون الاسلاميون يعارضون أية تسوية سلمية تقفز الى السطح •

وبالنسبة لاسرائيل نجد أن الجهود الرامية الى قمع الانتفاضة كانت بالغة التكاليف ومدمرة ـ مدمرة للروح المعنـــوية للجنود الاسرائيليين نظرا لأن معظمهم غير مدربين على وسائل اخماد المقاومة المدنية علاوة على أنها مدمرة لسمعة اسرائيل الدولية • ومما لا شك فيه أن اسرائيل كانت قادرة على مقاومة الانتفاضـــة من الناحية العسكرية والاقتصادية ـ ولكن البعد السياسى هو الذى كان يشكل أهمية • فعلى الرغم من تأكيدات الزعماء السياسيين الاسرائيليين بأن الانتفاضة سوف تنتهى أصبحت توجد هناك حقيقة بديهية دولية ـ

تؤمن بها الحكومة الأمريكية وقدر كبير من الرأى العام الاسرائيلى ـ وهى أن أى حل عسكرى صرف لن يكون فعالا • ومن هنا يمكن القول أن اسرائيل وجدت نفسها تواجه امكانية خلق دولة فلسطينية كأمر واقع فى غرب نهر الأردن •

ونجاح الانتفاضة فى مجرد الاستمرارية والبقاء على قيد الحياة قد أعطى حافزا جديدا تماما لمنظمة التحرير الفلسطينية • وعلى الرغم من أن منظمة التحرير الفلسطينية لم تحدد توقيتا للانتفاضة ولم تضع تنظيما لها بالاضافة الى أن حجم الدعم والتوجية الذى يمكن أن تقدمه للانتفاضة من خارج البلاد كان ضئيلا للغاية الا أن العرب الفلسطينيين الرازخين تحت الاحتلال الاسرائيلى أوضحوا بما لا يدع مجالا للشك أنهم يعتبرون عرفات زعيمهم ويعتبرون منظمة التحرير الفلسطينية هى الممثل الشرعى لهم • ففى كل مكان كانوا يعرضون صورة ياسر عرفات من حيث هو رمز للتحدى الخاص بهم • والجدير بالذكر أن هذا التركيز على روح القومية الفلسطينية قد مكن قيادة منظمة التحرير الفلســـطينية من أن تتخذ سياسة أكثر أعتدالا تؤكد على المصالح المشتركة للفلسطينيين والاسرائيليين فى حالة انتشار الأمن والسلام • وفى نفس الوقت أدى ذلك أيضا الى اقناع حسين ملك الأردن بالتخلى نهائيا وعلى نحو حاسم عن فكرة « الاختيار الأردنى » ـ ألا وهى الفكرة التى كان لايزال يتبناها الكثيرون من الاسرائيليين وبعض الحكومات الغربية والتى تشير الى أن القومية الفلسطينية يمكن أن تظل واقعة تحت سيطرة أردنية / اسرائيلية مشتركة • ففى يوليو ١٩٨٨ أعلن العاهل الأردنى أنه قد تخلى نهائيا عن المسئوليات الأردنية ازاء الضفة الغربية • وهنا قامت منظمـــة التحرير الفلسطينية بعقـد اجتماع للهيئـة شبه البرلمانية الخاصة بها فى الجزائر فى نوفمبر • وعقب الاجتماع تم الاعلان عن انشاء دولة فلسطينية مستقلة واختيار عرفات رئيسا لها • ولكن فى نفس الوقت أعلن المجلس الوطنى الفلسطينى لأول مرة الموافقة

بالاجماع على قرار مجلس الأمن للأمم المتحدة رقم ٢٤٢ لعام ١٩٦٧ ـ وهى الخطوة التى كانت أمريكا تطالب بها منذ فترة طويلة من حيث هى دليل على أن منظمة التحرير الفلسـطينية لديها الرغبة فى الاعتراف باسرائيل • بل وأعلن المجلس الوطنى الفلسطينى أيضا انه يستنكر كافة أنواع الارهاب •

وعبر عرفات عن هذا فى مزيد من الوضوح فى بعض عواصم الدول فى العالم • وأوضح للجميع أنه يتبنى « الحل القائم على انشاء دولتين two-state solution » ـ بمعنى انشاء دولة فلسطينية صغيرة مستقلة تعيش بجوار اسرائيل • وكان هذا هو رأيه وهدفه منذ سنوات بعيدة • الا أنه لم يكن يشعر بالثقة الكافية للاعلان عن ذلك الرأى لأنه كان يخشى من احتمال حدوث انشقاق خطير بين الشعب الفلسـطينى فى حالة اعـلانه عن تخليه عن فكرة تحرير فلسطين بالكامل من براثن الصهيونية •

وشجب زعماء اسرائيل الموقف الجديد الذى أعلنته منظمة التحرير الفلسـطينية ووصفته بأنه موقف زائف ومنطوى على الخيانة والغدر • وبدأ موقف اليهود يتعرض للتهديد بشكل واضح عندما أعلنت أمريكا لأول مرة أنها على استعداد للبدء فى عقد حوار مع منظمة التحرير الفلسطينية من خلال سفيرها لدى تونس •

الا أن آمال الفلسطينيين فى الحصول على مكافآت سريعة عن التنازلات الجديدة التى أعلنوا عنها لم تتحقق • ففى مارس ١٩٩٠ قام اسحاق شامير ـ وهو رئيس الوزراء الاسرائيلى من عام ١٩٨٨ حتى عام ١٩٩٠ ـ بطرد زملائه التابعين لحزب العمل فى الائتلاف الحكومى ثم نجح فى نهاية الأمر فى تشكيل حكومة ليكود يمينية • وعلى الرغم من أن أمريكا أظهرت نفـاذ صبر متزايد ازاء الرفض العنيد من جانب شامير لأية صيغة مقبولة للحكم الذاتى الفلسطينى الا أنها كانت لاتزال غير مسـتعدة لممارسـة ضغوط مركزة على

حليفتها اسرائيل لكى تغير من موقفها واتجاهها • فواجه عرفات المتحرر من الوهم على نحو متزايد عناصر أصولية اسلامية متعاظمة فى داخل الانتفاضة أعلنت عن رفضها للحل القائم على انشاء دولتين متجاورتين ورفعت الشعارات القديمة التى تنادى بتحرير كل أرض فلسطين من الصهاينة فبدأ فى التطلع الى صدام حسين رئيس العراق الذى كان قد بزغ كنصير للفلسطينيين وراح يهدد بضرب اسرائيل بالصواريخ • وعقب شن غارة خرقاء غير متقنة على بلاج اسرائيل بمعرفة مجموعة منشقة على منظمة التحرير الفلسطينية وبتشجيع من العراق فى الغالب قامت أمريكا بقطع حوارها الفاتر مع منظمة التحرير الفلسطينية •

ونتيجة لذلك أبدى ياسر عرفات بعض التعاطف الواضح مع غزو صدام حسين للكويت فى أغسطس ١٩٩٠ رغم أنه أشار رسميا الى ضرورة الانسحاب العراقى من الكويت ، فى حين كان الشعب الفلسطينى بالأردن وبالأراضى المحتلة يهتف بحياة صدام حسين من حيث هو بطل • فتفجرت مشاعر عدائية ازاء الفلسطينيين بين عرب الخليج وأعلنت الحكومات الغربية أن منظمة التحرير الفلسطينية أبعدت نفسها ووقفت على الحياد أو اتخذت موقفا متوازيا ازاء الصراع الخليجى • وكان هذا مبتسرا وغير واقعى • فالانتفاضة كانت قد هدأت من الناحية الظاهرية فى خلال النصف الأول من عام ١٩٩٠ بسبب الشعور بالارهاق وبسبب تعاظم السياسة القمعية الاسرائيلية ولكن فى أكتوبر نجد أن تجدد العنف قد شجع المتطرفين من الجانبين وزاد من تسميم العلاقات بين العرب واليهود • وفى ظل هذه الظروف لم يكن هناك سبيل أمام أمريكا أو اسرائيل لانشاء قيادة فلسطينية بديلة لمنظمة التحرير الفلسطينية •

وبعد مرور أربعين عاما على انتصار الصهيونية فى خلق دولة يهودية تم الوصول الى مرحلة جديدة فى المشكلة الفلسطينية ناجمة عن هذه الأوضاع • وبكل تأكيد لم يكن هذا يعنى أن المشكلة قد حلت

أو أصبحت قريبة من الحل ـ فالحل المرضى لكافة الأطراف المعنية لا يمكن تخيله على أية حال • فالفكرة الأصلية بشأن تقسيم فلسطين الى دولة عربية ودولة يهودية ـ والتى وافقت عليها الأمم المتحدة فى ١٩٤٧ بدون الاهتمام كثيرا بالنتائج المترتبة على ذلك والتى رفضها عرب فلسطين بشدة فى ذلك الوقت ـ قد بدأ يوافق عليها الجيل الجديد من الشعب الفلسطينى والكثيرون فى أرجاء العالم • الا أنها لم تعد فكرة مقبولة من جانب اليهود الصهاينة باستثناء أقلية ضئيلة وان كانت هذه الأقلية آخذة فى التزايد • فبعض الصهاينة وعلى رأسهم اسحاق شامير رئيس وزراء اسرائيل يعتقدون أن الضفة الغربية [أو يهودا والسامرة] وقطاع غزة بمثابة جزء من أرض اسرائيل وبالتالى لم يكن بمقدورهم التفكير فى التخلى عنها واعطائها للعرب • والبعض الآخر من الصهاينة برئاسة شيمون بيريز زعيم حزب العمل الاسرائيلى ليس لديهم مانع عن بعض الأراضى فى مقابل اقرار السلام ولكنهم فى نفس الوقت كانوا لا يزالون غير قادرين على مواجهة قيام دولة فلسطينية عربية مستقلة مجاورة تحكمها بكل تأكيد منظمة التحرير الفلسطينية برئاسة ياسر عرفات • وهذا الرفض من جانب اسرائيل لانشاء دولة فلسطينية عربية مستقلة كان يلقى التأييد والمؤازرة من جانب أقوى دولة فى العالم [أمريكا] وقد أظهرت لنا التجارب فى مناسبات عديدة أن الحكومة الأمريكية رغم عدم موافقتها على الأعمال والاتجاهات الاسرائيلية لا تمارس ضغوطا على اسرائيل الا فيما ندر ولفترة ضئيلة للغاية • بل ان أمريكا كانت تحرص دائما على المبدأ الأساسى الخاص بالتحالف الأمريكى/الاسرائيلى والذى ينص على قيام أمريكا بمساندة آلة الحرب الاسرائيلية والاقتصاد الاسرائيلى بهدف أن تظل اسرائيل هى أقوى دولة فى الشرق الأوسط عسكريا واقتصاديا •

والدور الحاسم الذى قامت به سوريا فى مجال اعادة الأمن والسلام والوحدة الى الدولة اللبنانية قد اعترف به معظم العالم فى

حقد وحسد عقب انســحاب القوات الغربية والاسرائيلية فى عام ١٩٨٤ وعام ١٩٨٥ • ولكن اذا كانت سوريا مسيطرة فى لبنان فانها أبعد عن أن تكون متمتعة بالقوة الكاملة • فحتى القدرات المتفوقة للرئيس الأسد كرجل تاكتيكات سياسية لم تستطع حل الصراعات المتعددة الأنواع فى لبنان • اذ اتضح أنه من المتعذر التوصل الى الحد الأدنى الضرورى من الاتفاق بين الفصــائل اللازم لاعادة توحيد البلاد • وفى حين أن سوريا كان لها بعض الأصدقاء بين المارونيين الا أنهم كانوا أقل عددا من أعدائهم الذى يسيطرون على المليشيات الأقوى المتمثلة فى القوات اللبنانية • وحتى حلفاء سوريا المتواجدون فى لبنان : الدروز ومليشيات أمل الشــيعية وأنصار حزب الله المتطرفين — كانوا أبعد ما يكونوا عن الالتزام بالطاعة بل وكانوا يدخلون فى معارك ضد بعضهم البعض فى بعض الأحيان • كما كان هناك عامل اضافى آخر وهو أن بعض المقاتلين الفلسطينيين والذين أصبحوا مناهضين للغاية للسوريين قد عادوا الى بيروت والجنوب اللبنانى وأصبحوا يدخلون فى المعارك مع مليشيات أمل التى كانت تحاصر معسكرات اللاجئين الفلسطينيين • ومع قيام سوريا بارسال قوات سورية الى بيروت الغربية المسلمة • أصبح السوريون قادرين على تخفيض حجم القتــال بين المليشــيات الا أن بيروت الشرقية المسيحية والضواحى الجنوبية الشيعية ظلت خارج نطاق السيطرة الســورية •

وعندما انتهت فترة حكم الرئيس أمين الجميل — وهى فترة مدتها ست سنوات — فى سبتمبر ١٩٨٨ قام المارون المناهضــون للسوريين بمنع الأعضاء البرلمانيين من انتخاب رئيس جديد يلقى القبول والرضى من جانب سوريا • وبعد فشل كل بديل فان آخر اجراء قام به أمين الجميل كرئيس للبلاد هو قيامه بتعيين الجنرال ميشيل عون القائد المارونى للقوات المسلحة فى منصب رئيس مجلس الوزراء • ونظرا لأن المسلمين رفضوا الخدمة فى حكومته بالاضافة

الى أن رئيس الوزراء السنى السابق أعلن أنه مازال مستمرا فى منصبه فانه أصبح يوجد فى داخل لبنان حكومتان فى آن واحد مع عدم تواجد رئيس للجمهورية • وبدا الأمر وكأن جمهورية لبنان الصغيرة قد قدر لها الدمار النهائى بعد مرور أقل من سبعين عاما على تواجدها • والاقتصاد اللبناني الذى كان قادرا على الصمود على نحو مذهل أثنـــاء الحرب الأهلية الأولى التى استمرت عشر سنوات قد أصبح على وشك الانهيار التام •

الا أن الظروف الخاصة بلبنان مع تغير ميزان القوى الداخلية والضغوط الخارجية لا تفضـــل الحلول أو التصفيات النهائية • اذ بذلت الدول العربية جهودا كبيرة من أجل المحافظة على وحدة لبنان وتماســـكه وساندتها فى ذلك كافة القوى الخارجية المعنية بشئون المنطقة • وكان هذا يقتضى تسوية الخلافات بين سوريا وخصومها من المسيحيين اللبنانيين وهو أمر من الصعب تحقيقه • وكان الجنرال عون الذى يعانى من بعض أوهام نابليونية صغيرة يميل الى التحدى وعدم التصالح • وكان يشجعه على هذا اعتقاد غامض لا مبرر له بأن الدول الغربية ستجيىء من أجل مســـاعدة اللبنانيين المسيحيين رغم أنه كان يتلقى أيضا مساعدات كبيرة من الأموال والأسلحة من العراق التى هى عدوة لدودة لسوريا وكان عاجزا عن طرد السوريين من لبنان ولكن السوريين وحلفاءهم أيضا لم يكن لديهم القوة والعزيمة اللازمتين لاجتياح منطقة القلعة المسيحية فى داخل لبنان • وفى صيف عام ١٩٨٩ قام الجانبان بصب وابل من القنابل على بعضهما البعض مما أدى الى وقوع خسائر كبيرة بين المدنيين •

وعلى عكس معظم التوقعات تمكن الوسطاء العرب من التوصل الى ايقاف اطلاق النيران فى سبتمبر ١٩٨٩ واقناع النواب البرلمانيين اللبنانيين المتبقين على قيد الحياة والطاعنين فى السن بالاجتماع فى الطائف العاصمة الصيفية للمملكة العربية السعودية حيث توصلوا

هناك الى اتفاقية ترتكز على بنية سياسية جديدة للبنان تقضى بأن يتخلى المارونيون الذين كانوا مسيطرين سياسيا منذ خلق الفرنسيين للبنان الكبرى عن بعض سلطاتهم • ونظرا لأن هذا كان بمثابة حل وسط فان الكثيرين شعروا بعدم الرضى والاستياء • فالمسيحيون لم يحصلوا على موافقة بجلاء السوريين الفورى كما أن الشيعة الذين أصبح عددهم يزيد على عدد السـنيين اللبنانيين شعروا أنه كان ينبغى أن يكون لهم المزيد من النفوذ والسلطة • ولكن اتفاقية الطائف حفزت النواب البرلمانيين على الاجتماع مرة أخرى فى الشمال اللبنانى الواقع تحت السيطرة السورية لكى ينتخبوا فى ٥ نوفمبر ١٩٨٩ رئيسا جديدا • وتم بالفعل انتخاب رينيه معوض • وفى تحدى أعلن الجنرال عون أن الانتخاب غير قانونى وأشار الى أنه مازال هو الزعيم الدستورى للبنان •

وبعد أسبوعين تم اغتيال رينيه معوض من خلال سيارة ملغومة فى بيروت الغربية • وبعدئذ قام النواب البرلمانيون – تحت الحماية السورية – باختيار رئيس مسيحى آخر وهو الياس هراوى • ولكن الجنرال الثائر لم يوافق عليه أيضا • وعلى الرغم من أن هراوى قد اعترفت به الدول العربية والعالم كله فان عون ظل رافضا فى تحدى للجميع • الا أن سيطرته على لبنان المسيحى قد تعرضت للتحدى على أيدى مجموعة المليشيات المسيحية فى داخل القوات اللبنانية • وتفجر صراع دموى مسببا معاناة هائلة للشعب فى شرق بيروت كما أدى الصراع الى جعل الجنرال عون لا يتمكن من السيطرة الا على ثلث المنطقة المسيحية فقط • وهذا التقسيم المرتكز على الأمر الواقع لم يكن بالمستطاع جعله تقسيما دائما • وبذلك تأجلت مسألة اصدار شهادة وفاة للجمهورية اللبنانية •

ولم يتمكن الجنرال عون من الحفاظ على وضعه لفترة طويلة • ففى أكتوبر ١٩٩٠ وبينما كان انتباه العالم كله موجها نحو الخليج

وكبح جماح العراق [وكانت العراق قد قدمت العـــون والتأييد للجنرال عون في عدائه نحو دمشق] تمكن السوريون من اجتياح منطقة الجنرال الحصينة وذلك بالتحالف مع القوات اللبنانية الموالية للرئيس الهراوي وارغام الجنرال عون على الاستسلام • وأصبح السوريون بذلك مسيطرون على كل أواسط لبنان • الا أن هدفهم الرئيسي كان يتركز على مد سلطة الحكومة اللبنانية بحيث تشمل جميع أرجاء المائة ميل مربع الخاصة ببيروت الكبرى وضمان انسحاب المليشيات المنافســـة واعادة فتح الطرق والمواصلات • لأنه اذا تم تأمين المنـاطق الرئيسـية في لبنـان حتى ولو تم ذلك تحت سيطرة سورية أصبحت هناك فرصة أمام الجمهورية اللبنانية لكى تظل باقية على قيد الحياة •

اعادة توكيد الاسلام / الثورة والحرب :

مع اضـمحلال وهزيمة وتفـكيك الامبراطورية العثمانية في ١٩١٨ ـ وهي آخر قوة اسلامية عظمى على المستوى العالمي ـ اتخذ العالم الاسلامي موقفا دفاعيـا • ففي القرن التاسع وأوائل القرن العشرين أصبح العرب رازخين تحت نوع من الهيمنة الاستعمارية الغربية • فالمسلمون بأواســط آسيا تم امتصـاصهم في داخـل الامبراطورية الروسية كما أصبح الحكام المسلمون السابقون في الهند جزءا من الحكم البريطاني كما أصبحت الامبراطورية الفارسية/ الايرانية تعاني من السيطرة الروسية / البريطـانية • وبذلك نجد أن تركيا فقط ـ وهي الأراضي الرئيسية الســابقة للامبراطورية العثمانية ـ هي التي كانت توجد بها دولة / أمة قوية على نحو يكفي لبقائها مستقلة عن الدول الاستعمارية الأوربية بعد أن تشكلت على أيدي كمال أتاتورك العبقري السياسي / الحربي • الا أن أتاتورك كان يناضل من أجـل قضية القومية التركية العلمانية وليس من أجل قضية الاسلام •

وكان رد الفعل العربى والايرانى الناجم عن السيطرة الأوربية يختلف عن رد الفعل لدى تركيا من حيث أنه لم يكن متخذا الطابع القومى العلمانى البحت ولا طابع الهجوم المضاد الاسلامى وانما كان مزيجا منهما فى آن واحد . وكان العنصر الثقافى الاسلامى متفوقا على العنصر القومى العلمانى من حيث الأهمية . ولقد أشار فانتز فانون Frantz Fanon وهو الرجل المثقف الفرنسى الذى انضم الى الثورة الجزائرية ووقف ضد فرنسا - فى كتابه الشهير الممتاز الصادر تحت عنوان « البؤساء فى العالم » الى ما يلى : فى حين كان المستعمرون الأوربيون ينظرون الى السود الأفارقة بمعايير عنصرية بالدرجة الأولى فان اتجاهاتهم نحو العالم العربى كانت مختلفة . ففى العالم العربى وجدوا أنفسهم يواجهون ثقافة متميزة وموحدة - ان لم تكن متجانسة - مستقاة من تراثه العربى/الاسلامى . ومما لا شك فيه أن رسوخ هذه الثقافة وعدم قابليتها للاندحار والتلاشى هو الذى منع فرنسا من تحويل الجزائر الى دولة خاضعة للتبعية الأوربية بصفة دائمة وعلى النحو الذى كان يتوقعه البعض ذات يوم .

الا أن القول بأن مقاومة العرب للسيطرة الأوربية استقت الالهام من الاسلام والتراث الاسلامى لا يعنى أن المقاومة كانت شديدة وعنيدة ومتصلبة تماما . فالمصلحون الكبار الاسلاميون فى القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين من أمثال : جمال الدين الأفغانى والشيخ محمد عبده ورشيد رضا قد توصلوا الى الرأى القائل بأن عالم الاسلام بدأ فى التدهور عندما انتزع الأتراك القيادة من العرب . وأصبحت آراؤهم هذه بمثابة الأساس الفكرى الذى ارتكزت عليه القومية العربية رغم أنهم لم يكونوا يهدفون الى ذلك . ولقد شكل عرب الشرق الأوسط تحالفا مع المستعمرين الأوروبيين يهدف الى الاطاحة بالحكم التركى العثمانى ولكنهم بعد أن نجحوا فى

تحقيق ذلك وجدوا أنفسهم مندرجين فى مجموعة من الدول / الامة nation-states العربية الخاضـــعة تحت الســـيطرة الأوربية ٠ فظهرت حركة القومية العربية الشـــاملة pan-Arab فى العشرينات من عام ١٩٢٠ والثلاثينات من عام ١٩٣٠ وحصلت على قوة دافعة جديدة بسبب ضياع فلسطين العربية فى الأربعينات من عام ١٩٤٠ ثم وصلت الى الذروة فى الخمسينات من عام ١٩٥٠ فى عهد جمال عبد الناصر رئيس جمهورية مصر الذى كان يهدف الى التغلب على هذا الضعف والاطاحة بالسيطرة الأوربية ٠ ولكن على الرغم من أن القومية العربية لم تكن علمانية الطابع تماما فانها أيضا لم تكن متخذة الطابع الاسلامى الكامل ٠ فهى على العكس من قومية أتاتورك لم يكن بمقدورها أن تصبح علمانية تماما لسبب بسيط وواضح وهو أن أى شخص عربى - حتى ولو كان غير مسلم - اذا قام بعزل نفسه عن تراثه الحضارى الاسلامى فان ذلك يعنى أنه يتنكر للهوية الخاصة به ٠ ولكن فى نفس الوقت لم يكن بمقدور حركة القومية العربية الشاملة أن تصبح مرتكزة تماما على الأيديولوجية الاسلامية بمعنى اعتبار الاســـلام هو الطريق الوحيد الذى يؤدى الى تقرير المصير الحقيقى للشعوب العربية ٠ ويرجع السبب فى ذلك الى أن بعض زعماء القومية العربية من أمثـــال ميشيل عفلق الأيديولوجى لحزب البعث كانوا من المسيحيين بالاضافة الى أن الزعماء المسلمين للقومية العربية كانوا واقعين تحت التأثير الشديد لمفاهيم القومية العلمانية الأوربية والأمريكية ٠ اذ تلقى الكثيرون منهم تعليمهم فى مؤسسات غربية أو تدربوا على أيدى أساتذة أوربيين ٠ الا أنهم قد تقبلوا على مضض الى حد ما وجهة نظر أتاتورك التى تشير الى أن الاســـلام الرجعى (١) هو الذى سمح للغرب [وللصهاينة] أن

(١) الاسلام متجدد دائما وغير متسم بالرجعية ولكن هناك مسلمون رجعيون لا يفهمون جوهر الدين الاسلامى - (المترجم) ٠

يهزموا ويسيطروا على شعوب الشرق الأوسط التى تتألف من الأتراك والفرس والعرب ٠

ومن بين العرب الذين قاوموا فى وحشية السيطرة الغربية كان يوجد بعض منهم يؤمنون تماما بأنه لا يوجد هناك أى شىء له قيمة خارج نطاق المبادىء الاسلامية ٠ وهؤلاء كانوا وطنيين اسلاميين وليسوا قوميين عرب ٠ وهم حاليا يعرفون باسم : الأصوليين الاسلاميين ٠ وكان لديهم ومازالوا وجهة نظر يوتوبية خيالية تشير الى أن المسلمين اذا أنشأوا حكما اسلاميا يعتمد فقط على الشريعة الاسلامية فان كافة المشاكل المتعلقة بالحكم والمجتمع وكذلك المشكلات المتعلقة بالسيطرة والنفوذ غير الاسلامى سيتم حلها بكل سهولة ٠ وعلى الرغم من أن اخلاصهم وتفانيهم واستعدادهم للاستشهاد والموت فى سبيل الله قد جعل منهم قوة هائلة مرعبة الا أنهم ظلوا يشكلون أقلية فى الكفاح العربى من أجل الحصول على الاستقلال التام عن الغرب ٠ اذ أن رفضهم للتسوية والحل الوسط ورغبتهم فى استخدام العنف ضد كل من لا يشاركهم فى آرائهم قد أدى الى عدم انضمام حلفاء جدد اليهم ٠ وكلما لاحت لهم الفرصة فى احتمال الفوز بالسلطة كانت الغالبية السكانية تشعر بالذعر الشديد ٠ وعندما اعتقدت أول حركة منظمة لهم فى العالم العربى الحديث ــ وهى جماعة الاخوان المسلمين التى ظهرت فى مصر ــ أنها على وشك الاطاحة بالحكم الملكى الفاسد نجد أن الثورة الناصرية هى التى أطاحت بذلك الحكم كما سبق أن أوضحنا ٠

ولكن حدث استثناء لهذه القاعدة ٠ حيث تمكن أصوليون اسلاميون حربيون من فرض السيطرة على دولة عربية فى شبه الجزيرة العربية فى القرن العشرين ٠ وهنا نجد أن المصلحين الوهابيين المتحالفين مع بيت سعود كانوا يشكلون فى خلال القرن الثامن عشر أول حركة عربية تتحدى سلطة الخليفة السلطان

العثماني وتشجيب الارتداد الديني الذى أقدم عليه اخوانهم المسلمون • وبعد أن هزموا فى أوائل القرن التاسع عشر على أيدى السلطة العلمانية لمحمد على الوالى العثمانى على مصر نجد أنهم تمكنوا أخيرا من تحقيق الانتصار فى العشرينات من القرن العشرين من خلال العبقرية السياسية والحربية لابن سعود • وبذلك أصبحت القوى الاسلامية المتشددة متقلدة للسلطة فى تلك المنطقة • ولكن الملك ابن سعود كان يدرك نواحى القصور والعجز المتواجدة لديه • فعلى الرغم من أنه كان يتمتع بالنفوذ من حيث هو راعى الأماكن المقدسة الاسلامية الا أن مملكته كانت نائية وفقيرة وضعيفة من الناحية العسكرية • وبالتالى لم تكن فى وضع يسمح لها بنشر حركتها الثورية الداعية الى التمسك الصارم بأهداف الدين الاسلامى نحو الشمال فى المراكز الكبرى للسكان العرب : القاهرة ودمشق وبغداد • وعلاوة على ذلك ــ وهو أهم الأسباب على الاطلاق ــ فان الفقر الشديد للشعب بالمملكة العربية السعودية قد أرغم ابن سعود وأبناءه الذين جاءوا الى الحكم بعده على التحالف مع الغرب وخاصة أمريكا الموغلة فى العلمانية بهدف انقاذ البلاد من التخلف الاقتصادى • ومن العجيب أن السعوديين المتزمتين والذين اتضح فيما بعد أنهم يمتلكون ثروة طبيعية لا يتخيلها العقل البشرى والذين اكتسبوا هيمنة ونفوذا فى الهيئات والمجالس العالمية بدأوا يحتاجون للمزيد من الناس غير المسلمين من أجل تنمية وتطوير وحماية مواردهم الطبيعية الهائلة المكتشفة حديثا • وتعمق التحالف السعودى مع الغرب بسبب ظهور عوامل جديدة تتمثل فى خوف السعوديين من الشيوعية وكراهيتهم الشديدة لها •

ولذلك فانه على الرغم من أن السعوديين قد حققوا نجاحا مذهلا فى الحفاظ على هويتهم من خلال الاحتفاظ بعاداتهم وتقاليدهم وأعرافهم الاجتماعية المحافظة والحفاظ على نظامهم فى الحكم وقوانينهم نجد أن علاقاتهم الدولية مع الغرب واعتمادهم على الغرب كان أمرا

لا يمكن انكاره أو تجاهله . ولقد قامت المملكة العربية السعودية بدور قيادى من حيث انشاء المنظمات والهيئات الدولية التى تهدف الى زيادة الروابط بين الدول الاسـلامية بل وقامت بمنح أموال هائلة فى سخاء للبعثات الاسلامية والمسـاجد والجوامع فى جميع أرجاء العالم ـ وهى كلها قد ساهمت كثيرا فى توطيد الاسلام فى الأزمنة الحديثة ـ الا أن الأصوليين الاسلاميين العسكريين لم يقنعوا بكل ذلك . اذ كانـو يرغبون فى ابعـاد الغرب تمامـا عن العـالم الأسـلامى . ففى عام ١٩٧٩ جعلوا بيت سعود يشـعر بتواجدهم الشديد فى داخل المملكة العربية السعودية ذاتها بأن قامت مجموعة من الشباب المتعصب الذين يستذكرون الفساد المستشرى بين حكامهم بالاستيلاء لبعض الوقت على المسجد الكبير بمكة الذى يعتبر أكثر الأماكن تقديسا فى الاسلام .

وعقب الكارثة العربية لعام ١٩٦٧ تخيل الرأى العام العالمى احتمال تفجر ثورة أصولية اسلامية تجتاح جميع الدول العربية . وفى ذروة حركة القومية العربية الشـاملة التى اجتاحت الشرق الأوسط فى الخمسينات من عام ١٩٥٠ والستينات من عام ١٩٦٠ نجد أن غالبية الصحفيين والأكاديميين الغربيين كانوا ينظرون فى استخفاف لمدى أهمية الاسلام من حيث هو قوة سياسية بل وكان يشاركهم فى ذلك الاتجاه الكثيرون من أعضاء الطبقة المثقفة العربية . اذ كانت وجهة النظر السـائدة تشير الى أن العرب مصممون على اللحاق بقطار التقدم التكنولوجى والمادى الغربى وبالتالى فلم يكن لدى الاسلام شىء يشارك به فى هذا المجال . ولكن بعد عام ١٩٦٧ حدث تحول فجائى مضاد ومعكوس لهذا الرأى . اذ برهنت القومية العربية العلمانية على أنها فاشلة ومنتقلة الى رحمة الله . وبدأت جماهير الشعب العربى ترفض التقدم الغربى وتتحول نحو الأصولية الاسلامية من حيث هى الأمل الوحيد فى انقاذهم .

وكان كلا الرأيين على خطأ · فالاسلام لم يتوقف فى أى وقت من الأوقات عن كونه قوة أساسية كامنة هائلة شديدة التعاظم · وكل ما هنالك أنه كان يعيد تأكيد ذاته فى مزيد من الصراحة والوضوح فى أعقابه هزيمة العرب فى ١٩٦٧ · ومن جهة أخرى فان القومية العربية كانت أبعد ما تكون عن الموت والوفاة حتى فى حالة اضطرارها الى التغيير من شكلها · فجميع أنظمة الحكم بالدول العربية ـ وحتى فى المملكة العربية السعودية ـ مازالت تشترك فى الفكرة القائلة بأن العرب يشكلون أمة واحدة ينبغى أن تكون أكثر اتحادا · ولم يظهر أى اتجاه نحو الغاء جامعة الدول الدولية · وفى نفس الوقت اتضح أنه يوجد تدعيم للوطنية الاقليمية ـ وهى التقسيمات المحلية الداخلية التى ترعرت حول العلم والعاصمة للدول العربية من حيث هى كيانات منفردة ومستقلة بذاتها [مهما كان خلقها بمعرفة الغرب مشسما بالطابع الاصطناعى الزائف] وأن ذلك التدعيم يسانده ويعزز مصالحها الخاصة · ولذلك لم يكن هناك احتمال أن تتمكن ثورة اسلامية من اكتساح كل تلك الأوضاع ·

والثورة الاسلامية التى تفجرت بالفعل لم تحدث فى الدول التى ينتشر فيها الاسلام السنى وانما حدثت فى ايران الشيعية · وقد دهش من ذلك جميع المراقبين للأحداث عن كثير باستثناء عدد قليل للغاية منهم ·

فمنذ الاطاحة بالدكتور مصدق فى عام ١٩٥٣ أصبحت ايران ينظر اليها على أنها نموذج للتقدم والتطور اللذين يعتبرهما الغرب متلائمين ومترادفين مع اصطلاح : اضفاء الطابع الغربى Westernization وفى الخمسينات من عام ١٩٥٠ تم السيطرة على الانتخابات المجلس [البرلمان] من أجل ضمان انتخاب المرشحين الذين يراد لهم النجاح · كما أن « الجبهة الوطنية » توقفت عن أداء عملها من حيث هى قوة سياسية منظمة · كما أن حزب توده الشيوعى استبعد وحرم من حماية القانون · وأصبحت السلطة

متركزة بشكل متزايد فى أيدى الشاه · الا أن مهمة الحكومات الموالية للشاه لم تكن سهلة · وكانت تلك الحكومات تأمل فى أن تؤدى التنمية الاقتصادية الى اخماد أولئك الذين يعارضون سيطرة الشاه على الحياة السياسية · ولكن على الرغم من تزايد العائدات البترولية فان المشروعات الضخمة المتعلقة بتطوير البنية الأساسية كانت تتطلب بعض الوقت لكى تستكمل علاوة على تواجد فساد وعدم كفاءة على نطاق واسع · كما أن المشاعر الوطنية المناهضة للغرب والتى سبق لها أن تأججت أثناء أزمة الدكتور مصدق لم يتم اخمادها بأى حال من الأحوال · اذ تعاظمت هذه المشاعر بسبب علاقات الحكومة الوطيدة مع المعسكر الغربى والتى تمثلت فى انضمام ايران الى حلف بغداد المناهض للسوفييت فى عام ١٩٥٥ ·

وفى عام ١٩٦١ تفجرت القلاقل مما أرغم الشاه على تعيين على أمينى رئيسا للوزراء وهو أرستقراطى واسع الثراء ومتمتع بالشهرة من حيث هو مصلح ليبرالى · فقام بعلاج التبذير والفساد المتواجدين فى الحكومة وتخفيف القيود على « الجبهة الوطنية » ومعارضة الجناح الأيسر · كما قام بتعيين حسن رافسنجانى وزيرا للزراعة وهو سياسى راديكالى مهتم بالاصلاح الزراعى وتفتيت الضياع الضخمة التى تضم عشرات القرى · كما قام على أمينى باقناع الشاه بالسماح له بحل المجلس [البرلمان] وممارسة الحكم من خلال اصدار قراراته وذلك لكى يتمكن من تنفيذ كافة الاصلاحات حتى النهاية · الا أن تجربته الاصلاحية كانت قصيرة العمر · اذ تسبب فى اثارة المعارضة التى تفجرت من جميع الجوانب : من جانب كبار ملاك الأراضى والجيش ورجال السياسة الذين طالبوا باعادة البرلمان · وفى خلال سنة وحدة أرغم على تقديم استقالته · وبذلك عاد الشاه الى تدعيم نفوذه وسلطانه مرة أخرى ·

ومع ذلك نجد أن الشاه قام باتباع بل وتعميق بعض الاجراءات الاصلاحية ـ وخاصة فى مجال الاصلاح الزراعى الذى تم التوسع

فيه لكى يشمل ممتلكات وأراضى « الوقف » الاسلامية [والذى كان يستخدم العائد من ورائها فى صيانة وترميم المساجد أو فى الأعمال الخيرية والتصدق على الفقراء] بالاضافة الى تحديد ملكية كبار ملاك الأراضى بحيث لا تزيد عن امتلاك قرية واحدة . كما تم الاهتمام بزى المرأة والتوسع فى حقوق المرأة . بل وتم انشاء فيلق لتعليم الأميين القراءة والكتابة وتمكين طلبة المدارس الثانوية من تعليم الأميين فى مدارس القرى كبديل عن تأديتهم للخدمة العسكرية بالجيش . وبهذه الطريقة نجد أن حكومة الشاه قد احتفظت بحق المبادرة أى حق التقدم على الآخرين فى أداء هذا العمل . وأعلنت « الجبهة الوطنية » أنها ترحب بهذه الاصلاحات ولكنها أشارت الى أنها اصلاحات غير دستورية » بينما قام الملا [رجال الدين] بزعامة آية الله الخومينى المقيم فى مدينة قم qum المقدسة باستنكار هذه الاصلاحات ووصفوها بأنها « غير اسلامية » علاوة على أنها « غير دستورية » . وفى عام ١٩٦٣ قامت الحكومة بحل «الجبهة الوطنية» ثم قامت بتفكيكها وتحطيمها . وتم القاء القبض على الخومينى وغيره من الزعماء الدينيين . وبعد مرور عام تم ارسال الخومينى الى المنفى فاستقر به المقام فى الاقليم الشيعى المتواجد بجنوب العراق . فتزايد لجوء المقاومة الدينية الى النشاط السرى والعنف . الا أن هذا لم يكن فعالا . وتمكنت الحكومة من شجب كل من الوطنيين ورجال الدين ووصفتهم بأنهم مناهضون للاصلاح ورجعيون .

وعلى مدى أكثر من عشر سنوات تمكن الشاه من ممارسة الحكم بدون تواجد ضغوط خطيرة من جانب المعارضة . ووجه الدعوة الى عقد اجتماع للمجلس [البرلمان] مرة أخرى وسمح له بالعمل من خلال أحزاب سياسية تلقى رعاية حكومية ومن خلال معارضة كانت تعطى أصواتها باستمرار لصالح « مشروع القانون » الحكومى . وفى خارج نطاق البرلمان كانت الشرطة السرية أو السافاك SAVAK الكلية الوجود تقوم بقمع المنشقين فى وحشية .

وأبدى الشاه المزيد من الثقة بالنفس والطموح الشديد نحو جعل ايران الدولة المهيمنة فى المنطقة بدون منازع • وكان الغرب على استعداد دائما لتزويده بأحدث الأسلحة المتطورة • وعلى الرغم من احتفاظ الشاه بولائه للمعسكر الغربى فانه قام بتحسين علاقاته مع دول الكتلة السوفيتية حيث وقع معها على مجموعة متتالية من الاتفاقيات الصناعية التى هى على نطاق واسع • بل وتمكن من الحصول على شروط مفيدة للغاية من شركات البترول مما جعل الشركة الوطنية الايرانية للبترول تتطلع بكافة العمليات أو تشرف عليها • وفى عام ١٩٦٧ قام الشاه بتعديل الدستور بحيث يمكن للملكة أن تتولى الحكم تلقائيا فى حالة وفاته قبل أن يبلغ ولى العهد سن الرشد • وفى الذكرى السادسة والعشرين لصعوده الى العرش تم تتويجه هو والملكة فى احتفال ضخم غير متسم بالطابع الاسلامى • وفى عام ١٩٧١ احتفل بذكرى مرور ٢٥٠٠ عام على النظام الملكى الفارسى فى تبذير شديد بالعاصمة القديمة التى تسمى بيرسبوليس •

ولقد حدثت زيادة هائلة فى العائد من وراء البترول الايرانى فى عام ١٩٧٣/١٩٧٤ مما جعل طموحات الشاه تصل الى حافة جنون العظمة • اذ بدأ يعلن أن بلاده ستصبح واحدة من بين أعظم ست دول صناعية متقدمة فى العالم كله بحلول نهاية القرن العشرين • وحقيقة الأمر أنه على الرغم من التقدم الصناعى الحقيقى والتوسع فى التعليم ومحو الأمية ونمو طبقة المهنيين ورجال الأعمال فاننا نجد أن الكثير من مستويات المجتمع الايرانى قد ظلت مكتسبة طابع مستويات العالم الثالث • ومع الادراك المؤخر (١) فانه يمكن أن نتبين أن الزيادة الهائلة فى الدخل الحكومى والتى جاءت بشكل فجائى كانت بمثابة اللعنة التى أحدقت بنظام الحكم فى ايران • فالتزايد الضخم فى الانفاق الذى جاء بعد ذلك قد شكل ضغوطا

(١) الادراك المؤخر : ادراك طبيعة الأحداث بعد وقوعها ـ (المترجم) •

لا تطاق على البناء الاجتماعى والاقتصادى فى البلاد • فالتزايد فى الانفاق قد أعقبه تخفيض فى النفقات وانحسار مصحوب بتضخم مالى مستمر فأدى ذلك الى ظهور السخط والاستياء حتى بين أعضـــاء الطبقة المتوسطة الجديدة التى استفادت أكثر من غيرها من سياسات الشاه بينما جماهير الشعب بدأت تعتقد أن اضفاء الطابع الغربى على البلاد ونشر الطابع الحديث غير الاسلامى بها هو السبب فى كافة الشرور والمتاعب •

وكان الشاه ومعه معظم المراقبين الغربيين [بما فى ذلك السفراء] لايزال يستخف بالمعارضة • وكان لا يشاهد سوى تحالف انتهازى بين اليسار المتطرف ورجال الدين وكان يشير اليهم فى احتقار على أنهم « الماركسيون الاسلاميون » • وحقيقة الأمر أن الملا [رجال الدين] كانوا قادرين على نحو أفضل من الماركسيين على التعبير بوضوح عن الأمور التى يشـــعر بها غالبية جماهير الناس المســـتائين •

ولدى تعاظم موجة القلاقل والاضرابات أصبح من الواضح أن المعارضة الشعبية كبيرة الحجم ومتأصلة الجذور • ووجد الائتلاف الضخم من الساخطين منفذا للتعبير عن السخط من خلال صوت آية الله الخومينى • فبعد أن تم طرد الخومينى من منفاه بالعراق بسبب الحرج الذى وقعت فيه الحكومة العراقية [التى كانت ترغب فى أن تكون لها علاقات مستقرة مع ايران] لجأ الى باريس وراح يطالب من هناك بضرورة تنازل الشاه عن العرش • ومع انتشار الاضرابات والمظاهرات فى أرجاء ايران اتخذ الشاه سلسلة من الاجراءات مع اللجوء الى الحزم وتقديم التنازلات فى آن واحد فى محاولة لحماية سلطته من الأخطار • ولكن هذه الاجراءات كانت غير فعالة • وظلت القوات المسلحة مخلصة من الناحية الظاهرية للشاه ولكن الشاه فقد فى نهاية الأمر التصميم والعزم على البقاء فى السلطة من خلال القمع الجماعى الذى كان ضروريا لتحقيق ذلك ـ اذ أن سلوكه

المتسم بالغطرسة والكبرياء كان يخفي دائما وراءه عجزا فى اتخاذ القرار الحاسم • كما كان يعانى أيضا من مرض السرطان الذى تسبب فى قتله بعد عامين • وبدون أن تكون له العزيمة القوية على الاحتفاظ بعرشه أصبح من المتعذر على أنصاره المخلصين وحلفائه الأمريكيين تقديم المساعدة له • وفى ١٦ يناير ١٩٧٩ غادر الشاه ايران مع الملكة متظاهرا بأنه سيمضى أجازة فى خارج البلاد ولكنه لم يتمكن من العودة الى ايران على الاطلاق • ولدى رحيله من طهران عبر مايونان من أنصار الخومينى عن فرحهم الشديد • وبذلك انتهى النظام الملكى الفارسى الذى استمر على مدى خمسة وعشرين قرنا من الزمان •

وبعد مرور أسبوعين برهن آية الله الخومينى الضعيف العجوز البالغ من العمر ٧٦ عاما على أنه بمقدوره اشعال الحماس الجنونى للملايين من شعبه عندما عاد منتصرا ومعلنا أن ثورته الاسلامية قررت انشاء جمهورية اسلامية بالمعنى الحقيقى •

وسرعان ما تم مقارنة هذا الحدث البالغ الأهمية والخطورة بالثورة الفرنسية لعام ١٧٨٩ والثورة البلشفية لعام ١٩١٧ • ولكى يتم تعزيز هذه المقارنة أصبح من الضرورى أن ينتشر نفوذ الثورة الايرانية الى ما وراء حدود ايران وخاصة الى الشعوب الاسلامية فى منطقة الشرق الأوسط • وأشار الخومينى وزملاؤه من الزعماء الدينيين على نحو لا يدع مجالا للشك الى أن ذلك هو هدفهم • اذ أعلنوا أن كافة أنظمة الحكم فى الدول الاسلامية بمنطقة الشرق الأوسط تعتبر فاسدة ومنحرفة وغير جديرة بالثقة وغير اسلامية الطابع وبالتالى ينبغى الاطاحة بها • بل وأعلنوا أيضا استنكارهم لارتباط هذه الحكومات بالغرب • وأوضح الخومينى أن الدولة الاسلامية الحقة الصادقة ينبغى عليها ألا تتعامل مع الشرق أو الغرب ولكنه ركز هجومه بصفة خاصة على الولايات المتحدة الأمريكية الحليفة السابقة للشاه ووصفها بأنها « الشيطان الأعظم » • واجتاحت

ايران موجة عارمة من الغضب والمشاعر العدائية للأمريكان عندما سمح الرئيس كارتر للشاه بالسفر من الملتجأ الذى يقيم به فى جزر الباهاما الى أمريكا من أجل العلاج الطبى • وأدى ذلك الى قيام جمهور من العسكريين الايرانيين باقتحام السفارة الأمريكية بطهران واحتجاز حوالى خمسين من الرهائن الأمريكيين علاوة على الاستيلاء على وثائق السفارة • وهذا الانتهاك للقواعد الدبلوماسية والذى تتقبله عادة الحكومات الراديكالية والثورية قد حث الولايات المتحدة الأمريكية على أن تعلن ــ بتأييد من حلفائها ــ أن ايران أصبحت خارجة على القانون الدولى • ولم يشعر الخومينى بالاستياء من ذلك • لأن تحديه للغرب قد فجر الاعجاب الشــــديد به من جانب كافة جماهير الشعوب الاسلامية التى كان الخومينى يرغب فى الحصول على اعجابها ومساندتها • ومما زاد من شعبية الخومينى أنه أعلن تبنيه لقضية فلسطين • وألغى تحالف الأمر الواقع الذى كان الشاه قد عقده مع اسرائيل ثم قام بتوجيه الدعوة لياسر عرفات لزيارة طهران حيث استقبل هناك استقبال الأبطال •

وفى الداخل شرع آية الله الخومينى فى تدعيم الحكم الدينى تحت قيادته • وقد تسبب الطابع الفاشستى الخاص به فى اثارة المعارضة من جانب العناصر الوطنية العلمانية وعناصر الجناح الأيسر التى سبق لها أن ساندت ثورته • الا أن هذه العناصر لم تكن متكافئة مع القبضة القوية التى فرضها الخومينى على الشــــعب الايرانى • الا أن أخطر العناصر المعارضة للخومينى قد نبعت من بعض كبار شخصيات رجال الدين المتفقهين الذين تحدوا سلطاته الدينية • ولكن الخومينى تمكن من استقطاب المعارضة من جانب رجال الدين حيث كان يتمتع بعبقرية سياسية غير متوفرة لديهم • وقام الخومينى بتأسيس حكمه على نظرية « ولاية الفقيه » بمعنى حكومة القاضى الاســــلامى وهى النظرية التى كان يقوم بشرحها وتوضيح جوانبها أثناء الفترة التى قضاها فى المنفى • وتشير هذه

النظرية الى أن الدولة الاسلامية الحقة ينبغي أن ترتكز على القرآن الكريم وتصاغ وفقا للمجتمع الاسلامى الذى كان سائدا فى عهد النبى محمد صلى الله عليه وسلم فى خلال القرن السابع الميلادى . كما ينبغى أن يتولى شئون الحكم كبار رجال الدين من حيث أنهم ورثة النبى محمد صلى الله عليه وسلم . ومثل القاضى الاسلامى الذى يعين نفسه حاكما كان الخومينى قادرا على ممارسة سلطة عليا تهيمن على سلطة رئيس الجمهورية ورئيس الوزراء والبرلمان المنتخب والتى نص عليها فى الدستور الاسلامى الجديد . وتحت اشرافه تم عقد محاكمات جماعية للأعوان السابقين للشاه مما أدى الى تنفيذ حالات عديدة من الاعدام . كما تم تطهير النظـــام التعليمى من التأثيرات غير الاسلامية . وقامت فرق من الشباب المسلم الحربى بفرض مجموعة من قوانين السلوك الاسلامى بالقوة . كذلك نجد أن النساء المتعلمات الايرانيات اللائى كن قد وصلن الى مرحلة كبيرة من التحرر قبل الثورة قد تم تخفيض دورهن فى الحياة العامة على نحو حاسم بل وأصبح لزاما عليهن ارتداء الزى الاسلامى الذى يغطى الرأس والجسد لدى الخروج الى الشارع .

وأثار نجاح ثورة الخومينى واعلانها عن الرغبة فى تصدير مبادئها الى خارج ايران الذعر الشديد بين جيران ايران من العرب . ولكن الذعر بلغ ذروته فى العراق بصفة خاصة . فالعراق كانت معرضة أكثر من الدول العربية الأخرى لوقوع هجوم ايرانى عليها بسبب عدة عوامل منها : أيديولوجيتها العلمانية التى ترتكز على فكرة الجامعة العربية الشاملة Pan-Arabism عـلاوة على تواجد عدد كبير من السكان الشيعة بالعراق الذين لهم نصيب ضئيل فى السلطة السياسية . كما قامت اذاعات طهران الموجهة باللغة العربية بصب وابل من الكراهية والاحتقار على نظام الحكم العراقى مع حث الشعب العراقى على الاطاحة بحكومته .

فقرر صدام حسين الرئيس العراقى البدء فى توجيه الضربة الأولى وعلى الرغم من الموارد الضخمة المتواجدة فى ايران علاوة على أن عدد السكان فى ايران يبلغ ثلاثة أضعاف السكان فى العراق فان صدام حسين اعتقد أنه يمكن له الاطاحة بثورة الخومينى من خلال توجيه ضربة سريعة مفاجئة • ومما شجعه على ذلك بأن القوات المسلحة النظامية الايرانية كانت مسرحة كما أن الاقليات الكبيرة نسبيا فى ايران ـ وهم الأكراد فى الشمال الغربى والتركمان فى سهول قزوين وعرب خوزيستان فى الجنوب الغربى ـ قد أدركوا أن هويتهم الدينية والثقافية تتعرض للأخطار من خلال السياسات الأصولية الشيعية للثورة الخومينية بل وأصبحوا يطالبون بالحصول على الحكم الذاتى ويهددون باللجوء الى التمرد • كما كان الاقتصاد الذى يواجه مقاطعا من جانب الغرب فى حالة سيئة تصل الى درجة الكارثة • وأغلب الظن أن الضـــباط الايرانيين الملكيين المنفيين قد قاموا بدور فى اقناع الرئيس العراقى صدام حسين بأن الوقت أصبح ملائما له لكى يشن هجومه • ففى ١٧ سبتمبر ١٩٨٠ زعمت العراق أن ايران تشن اعتداءات عديدة متفرقة على نطاق محدود واتخذت من ذلك مبررا لاصدار قرار رسمى بالغاء اتفاقية عام ١٩٧٥ السابق ابرامها مع الشاه • ثم بدأت العراق فى غزو ايران •

واستمرت الحرب على مدى ثمانى سنوات على نطاق ملحمى أسطورى • مما أسفر عن خسائر هائلة فى الأرواح ودمار للمنشآت على نطاق واسع مع هجمات صاروخية متبادلة على بغداد وطهران فيما عرف باسم « حرب المدن » • وفى بداية الحرب تمكنت العراق من التوغل فى عمق الأراضى الايرانية • الا أن ذلك الغزو سرعان ما برهن على أن مهاجمة أى ثورة يعتبر عمـــلا محفوفا بالمخاطر الهائلة • اذ كانت الروح المعنوية الايرانية عالية للغاية على نحو غــير متوقع كمـــا أن العرب الايرانيين المقيمين فى المنطقـــة الجنوبية الغربية من ايران لم يعلنوا تمردهـــم من أجل مســـاندة الغزاة

العراقيين • وفى خلال سنة واحدة تم ارغام القوات العراقية على التراجع • وبحلول مايو ١٩٨٢ تمكنت ايران من استعادة جميع أراضيها المحتلة تقريبا • بل وتم عزل جميع منافذ العراق المؤدية الى البحر • ونجم عن ذلك مأزق حرج مستمر مليىء بحالات من الهجوم على نطاق واسع مما أدى – مثلما حدث فى الحرب العالمية الأولى – الى قتل أعداد هائلة ولكن بدون أن يحدث أى تغير فى خطوط المعارك الا بقدر ضئيل للغاية • ولأن العراق كان بمقدوره الحصول على الأسلحة من الغرب والشرق فى آن واحد فانه كان متفوقا على ايران من حيث الأسلحة وخاصة فى الدبابات والمدفعية • أما ايران فكانت تعانى من العجز فى الامدادات الجديدة وقطع الغيار اللازمة للأسلحة الأمريكية المتواجدة لديها منذ عهد الشاه • ولذلك فانها قد اضطرت الى اللجوء الى مصادر أخرى للسلاح مثل كوريا الشمالية أو السوق السوداء الدولية فى مجال الأسلحة • واستخدمت ايران تفوقها العددى فى شن هجمات من الموجات البشرية الهائلة التى تضم عادة الآلاف من الشباب تحت سن العشرين سنة الذين يرحبون بالاستشهاد والموت فى سبيل الحق وفقا للعقيدة الشيعية •

ولبعض الوقت لم يتورط فى الحرب على نحو مباشر سوى العراق وايران فقط • وانتشر الذعر فى باديء الأمر فى جميع أرجاء العالم مما أدى الى ارتفاع شديد فى أسعار البترول • الا أن ردود الفعل العالمية خارج نطاق الشرق الأوسط أمكن تلخيصها فى التعليق المشكوك فى صحته والذى نسب الى هنرى كسينجر : ان أفضل نتيجة هى أن يخسر الجانبان الحرب • ولقد امتدت هذه الحرب لفترة طويلة للغاية لأنه فى حين كان العراق على استعداد للتوصل الى تسوية ترتكز على العودة الى الحدود القديمة التى كانت سائدة قبل نشوب الحرب فان ايران أعلنت أنها لا تريد سوى الاطاحة بصدام حسين •

وكانت الدول الخليجية العربية الست : السعودية والكويت وقطر والبحرين والامارات العربية المتحدة وعمان تسـاند العراق بدرجات متفاوتة من الحماس والصراحة . ولدى تفـاقم الحرب وتعاظمها قامت بتقديم الأموال والامدادات للعراق . اذ كانت تخشى للغاية من احتمال حدوث انتصار ايرانى ساحق وتام . فهذا الموقف المنذر بالأخطار والذى تزايد من خلال الغزو السوفيتى لأفغانستان فى عام ١٩٧٩ قد دفع هذه الدول الست الى الاتحاد سويا من أجل الدفاع عن النفس من خلال انشاء « مجلس التعاون الخليجى » فى مايو ١٩٨١ . وكان هذا المجلس يتطلع الى تحقيق مرحلة من التكتل السياسى والاقتصادى على غرار السوق الأوربية المشتركة .

وبين الدول العربية الأخرى نجـد أن الأردن ومصر أعلنتا تأييدهما للعراق فى الحرب فى مزيد من الصراحة . بل وأصبح ميناء العقبة الأردنى هو الطريق الرئيسى للواردات العراقية من الامدادات والمواد العسكرية . كما قامت مصر بتقديم الأسلحة والذخيرة للعراق . الا أن الأسد رئيس سوريا وأعلن أنه حليف لايران فى هذه الحرب . ثم قام بغلق خطوط أنابيب البترول العراقى التى تمر فى الأراضى السورية . وعلى الرغم من أن هذه الصداقة الغريبة الشاذة بين زعيم مؤمن بالقومية العربية وزعيم أصولى شيعى ايرانى ربما كانت لها علاقة بالحقيقة التى مفادها أن حافظ الأسد ينتمى للاقلية العلوية الشيعية المتواجدة بسوريا الا أن حافظ الأسد أوضح أن هذه الصداقة بمثابة تحالف استيراتيجى بالدرجة الأولى ضـد الحكم البعثى المنافس الكريه المتواجد فى العراق . واستفادت سوريا من وراء تلك الصداقة حيث كانت تحصل على حصة منتظمة من البترول الايرانى مجانا . علاوة على الاستفادة من وراء التعاطف الموالى لايران بين الأهالى الشيعة فى لبنان . ورفض الأسد كافة المحاولات المتكررة التى أقدمت عليها دول عربية أخرى بهدف اقناعه بتغيير اتجاهه بحيث يساند العراق . وتأكدت طبيعة الشـكوك

الأيديولوجية التى يتسم بها التحالف السورى/الايرانى عندما قام الجيش السورى فى فبراير ١٩٨٢ بقمع تمرد فى مدينة حماه قام به الاخوان المسلمون الذين كانت أهدافهم متشابهة للغاية مع أهداف الثورة الاسلامية الايرانية حيث تم القمع بأسلوب متسم بالوحشية والقسوة البالغة ·

وكانت معظم أنظمة الحكم فى الدول العربية خائفة للغاية من الثورة الايرانية فى بادىء الأمر على أساس أنها قد تمتد الى خارج ايران مما يؤدى الى الاطاحة بالحكومات العربية · الا أن ذلك الخوف تراجع لدى امتداد فترة الحرب ـ بل وحتى عندما بدت ايران متفوقة بعض الشيء · وكان الخومينى يرغب فى جذب التعاطف من جانب جميع المسلمين وليس فقط من جانب الأقلية الشيعية وكان يحتقر أية نزعات قومية متواجدة فى داخل الأمة الاسلامية · الا أنه لم يستطع منع الحرب من توسيع وتعميق المنافسة الفارسية/العربية القديمة أو الانقسام السنى/الشيعى القديم · ففى الدول الخليجية العربية نجد أن التعاطف والحماس الشعبى المبدئى نحو الثورة الاسلامية الايرانية سرعان ما أصبح مقصورا على الأقليات الشيعية · وقد سبب هذا لحكامهم السنيين قلقا بالغا ولكنه زاد من تصميمهم على اتخاذ اجراءات حازمة · كما أن القمع الدموى لكافة أنواع المعارضة بايران قد ساعد أيضا على اثارة كراهية رعايا ايران من السنيين · وفى العراق التى يوجد بها غالبية من الشيعة نجد أن القومية الاقليمية قد برهنت على أنها القوة الأكثر نفوذا · ومثلما أن الايرانيين المتكلمين باللغة العربية قد رفضوا الوقوف الى جانب العراق فان الغالبية العظمى من العرب الشيعة العراقيين قد ظلوا مخلصين للعراق ولم يظهروا أية رغبة فى أن يتم احتلالهم وخضوعهم للجمهورية الايرانية الاسلامية · أما الأكراد السنيون العراقيون فهم الذين سببوا متاعب كبيرة للحكومة العراقية ·

وفى الدول البعيدة نسبيا عن حرب الخليج ـ أى فى مصر والسودان ودول المغرب العربى ـ نجد أن تحدى الثورة الخومينية

للغرب والشرق فى آن واحد قد منحها بعض الهيبة والاحترام بين المليشيات الاسلامية التى لا تشـــعر بحب نحو نظام الحكم فى العراق • الا أن نفوذ آية الله الخومينى كان نفوذا رمزيا • اذ لم يكن هناك اتجاهات نحو تقبل قيادته السياسية ـ لأن جماعة الاخوان المسلمين فى مصر والسودان كانت قد بدأت فى الكفاح الخاص بها قبل تفجر الثورة الايرانية بوقت طويل •

واستمر المأزق المهلك أو الطريق المسدود فى حرب الخليج من عام ١٩٨٢ حتى عام ١٩٨٧ • كما كان يتم اللجوء الى « حرب المدن » باستخدام الصواريخ من وقت لآخر مما أدى الى خسائر جسيمة فى المنشآت والمدنيين • وكان الايرانيون من وفت لآخر يستبدلون هجمات الموجات البشرية بهجمات صغيرة على نقاط عند الحدود بهدف تدمير الروح المعنوية العراقية ولكن الروح المعنوية للعراقيين ارتفعت بعد أن أصبحت القوات العراقية تدافع عن أراضى العراق • وفى عام ١٩٨٦ تمكن الايرانيون من الاستيلاء على شبه جزيرة الفاو Faw التى تقع على الســاحل الخليجى ولكنهم فشلوا فى محاولاتهم الرامية الى الاستيلاء على البصرة وتكبدوا خسائر فادحة • وانتقل التركيز فى الحرب الى مياه الخليج حيث تمكنت العراق من استخدام تفوقها الجوى ضد السلع البترولية الحيوية التى تصدرها ايران الا أن تفوق ايران فى السلاح البحرى قد مكنها من فرض حصار على الامدادات التى ترسل للعراق • وهنا بدأت الدول الكبرى تخشى من انتشار وتعميق حرب ناقلات البترول • ولذلك عرضت أمريكـــا فى عام ١٩٨٧ بتزويد ناقـــلات البترول الكويتية بالعلم الأمريكى لكى توفر لها الحماية [عقب عرض مماثل من جانب الاتحاد السوفييتى] وبحلول منتصف عام ١٩٨٧ دخلت أمريكا فى مواجهة بحرية كاملة مع ايران • وفى ٢٠ يوليو أصدر مجلس الأمن للأمم المتحدة بالاجماع القرار رقم ٥٩٨ الذى يدعو الى ايقاف جميع الاشتباكات العســكرية • فوافقت العراق على ذلك

القرار ولكن ايران رفضته على أساس أنه ينبغى أولا اصدار قرار يشير على الأقل الى أن صدام حسين هو المسئول عن تفجير الحرب ٠

وفى عام ١٩٨٨ اتخذت الحرب منعطفا جديدا ونهائيا ٠ ففى خلال الفترة من مايو الى يونيو تمكن العراقيون من استرداد شبه جزيرة الفاو ٠ وطرد الايرانيين الى خارج المناطق الأخرى الرئيسية الواقعة على الحدود ٠ ونظرا لتناقص أعداد الايرانيين الراغبين فى الاستشهاد وانهيار الاقتصاد الايرانى قام المستشارون المقربون للخومينى المتهالك بسبب الشيخوخة باقناعه بأنه لا بديل عن قبول قرار الأمم المتحدة بشأن وقف اطلاق النيران ٠ وكان الخومينى آنئذ قد وصل الى العقد التاسع من عمره ٠ فأعلن الخومينى على شعبه أن اتخاذ هذا القرار « كان مميتا أكثر من تناول السم » ٠

وتم وقف اطلاق النيران بالفعل بمساعدة من مراقبى الأمم المتحدة ولكنه كان فقط بمثابة هدنة مسلحة ٠ وفشلت محادثات السلام التى تمت تحت رعاية الأمم المتحدة فى التوصل الى تسوية سلمية ووضع حلول للمنازعات على الحدود بل وفشلت فى مجال تبادل أسرى الحرب ٠ وظلت الحكومتان فى حالة من العداء الشديد رغم أنهما اضطرتا الى الموافقة على أن تجدد الحرب هو أمر مستحيل على مدى سنوات قادمة ٠ وشرعتا فى التسلح مرة أخرى مع القيام فى نفس الوقت باعادة بناء اقتصاديهما المنهارين ٠

وأعلن صدام حسين فى انتصار أن العراق قد كسب الحرب ٠ ويمكن القول أن العراق كسب الحرب الى حد ما رغم أن صدام حسين لم يحقق أهدافه الأساسية من الحرب وهى الاطاحة بالجمهورية الاسلامية الايرانية ٠ فهو قد كسب من خلال عدم الانهزام تماما مثلما أن الخومينى قد خسر من خلال عدم احراز النصر ٠

وفى ٤ يونيو ١٩٨٩ جاء أخيرا موت الخومينى الذى كان متوقعا منذ فترة طويلة ٠ وتمت اجراءات الخلافة على السلطة فى سهولة

رغم الصراع الخفى على السلطة بين أولئك الذين يرغبون فى اتباع الخط الخومينى المتشدد المعادى للغرب [وكان من بينهم أحمد نجل الخومينى] وأولئك الذين يسعون الى تطبيع علاقات ايران مع الغرب كوسيلة ضرورية وأساسية لاعادة بناء الاقتصاد الايرانى مع المحافظة فى نفس الوقت على تراث الخومينى ·

وكان البراجماتيـــون العمليون هم الذين كســـبوا فى هذا الصراع · اذ سرعان ما قامت هيئة الخبراء Assembly of Experts بتعيين الرئيس السابق خامنئى فى منصب الزعيم الروحى الجديد · وبعد شهرين نجد أن المتحدث باسم المجلس [البرلمان] على أكبر رافسانجانى وهو رجل له مهارات سياسية عالية قد نجح فى حث الناس على انتخابه رئيسا واعطائه المزيد من السلطات الكبيرة · فقام على الفور بطرد زعماء الفصائل المتشددة من الحكومة ·

ومن وجهة نظر ملايين الايرانيين الذين حزنوا على وفاة الخومينى فانه لا يمكن لأى رجل أن يحل محل الخومينى الذى اعتبره البعض بمثابة تجسيد لله على وجه الكرة الأرضية · وفى خلال العشر سنوات التى أعقبت قيام الثورة الايرانية مات مئات الآلاف وتدمر الاقتصاد الايرانى بسبب نشوب الحرب التى انتهت بالفشـــل الذريع · وتم قمع الانشقاق فى وحشية بالغة مما أدى الى هرب نسبة كبيرة من الناس المتعلمين والمتمتعين بمهارات عالية الى خارج البلاد · ومع ذلك نجد أن الشكل العبوسى المتجهم للخومينى والذى يعتبر غير جذاب على الاطلاق من وجهة نظر معظم العالم الخارجى كان لا يزال يمثل لشعبه الفخور للغاية روح التحدى والتشـــدد والعناد عقب مرور قرون من الاذلال على أيدى الدول العظمى ·

والسؤال الذى طرح نفسه هو : الى أى مدى سيستمر تراث الخومينى باقيا على قيد الحياة ؟ ففى حين أن الحكم الدينى قد ترسخ وبدا وكأنه سوف يستمر لبعض الوقت فاننا نجد أن رافسانجانى

بامكانياته الدينية المتواضعة كان أساسا شخصية علمانية · ولكنه لم يكن يتمتع بالنفوذ الكامل ـ لأن خصومه المتشددين الذى نجح فى ازاحتهم لم يتم اخضاعهم وكبتهم تماما · وكان عليه أن يشق طريقه فى حذر نحو تهدئة وتلطيف سياسات الجمهورية الاسلامية ازاء بقية العالم وذلك بهدف اعادة بناء الاقتصـــاد وتشـجيع الناس المبعدين الذى هو فى أشد الحاجة اليهم على العودة الى ايران ·

وهناك شيء واحد بدا مؤكدا : وهو أن الثورة الاســلامية الايرانية لن تغير على نحو دائم وجه الحياة فى الشرق الأوسط · اتضح أن هذا أمر يتعذر تحقيقه من خلال الهيمنة الخومينية ويتعذر تحقيقه بكل تأكيد من خلال خلفائه على السلطة فى ايران · فايران من حيث أنها تمثل الاسلام الشيعى العسكرى يمكن لها أن تعتمد على الولاء والاخلاص العلنى من جانب الكثيرين من الشيعة اللبنانيين وعلى التعاطف السرى من جانب الأقليات الشيعية المتواجدة فى الدول الخليجية العربية ولكن لا شيء أكثر من ذلك · وايران بعدد سكانها البالغ ٥٥ مليون نسمة وباحتلالها لموقع استيراتيجى فانها بمثابة قوة كبرى بالمعايير الشرق أوسطية ولذلك فان كافة الدول التى لها مصالح فى منطقة الشرق الأوسط كانت حريصة دائما على أن تكون لها تعاملات مع طهران · الا أن قدرة ايران على التأثير على الأحداث خارج نطاق حدودها ليست أكبر مما كانت عليه فى عهد الشاه ·

التحدى العالمى للعراق :

ان طموحات صدام حسين رئيس العراق والذى ظل هو الحاكم الفعلى الحقيقى فى بلاده منذ عام ١٩٦٨ لم يستنزف من خلال حربه التى دامت ثمانى سنوات مع جارته ايران الأكبر حجما من العراق · فعلى الرغم من الديون الهائلة والاقتصاد الذى هو فى أشد الحاجة للاصلاح كان لا يزال يحتفظ بآلية حربية ضخمة علاوة على حوالى مليون مقاتل تحت السلاح بالاضافة الى قيامه بانفاق الأموال الهائلة

على تطوير الأسلحة المتقدمة · وفى خلال صيف عام ١٩٩٠ وجه تهديدات للكويت بسبب احجامها عن السماح للعراق بالحصول على منفذ آمن على الخليج عبر أراضيها وتسببها فى انخفاض أسعار البترول من خلال قيامها بانتاج كميات كبيرة تزيد عن حصتها فى الأوبيك OPEC ـ وزعم أن الانخفاض فى الأسعار قد جعل العراق يخسر بليون دولار شهريا · وفى أواخر يوليو قام بحشد قواته على حدود الكويت · ولكن على الرغم من ذلك الاجراء وعلى الرغم من فشل الجهود التى بذلتها السعودية للوساطة فانه كان هناك عدد قليل ـ باستثناء الايرانيين ـ ممن توقعوا خطوته التالية وقيامه فى ٢ أغسطس بغزو واحتلال الكويت كلها على أساس ادعاء كاذب بظهور تمرد موالى للعراق ومناهض لأمير الكويت · وهرب الأمير ووزراؤه الى المملكة العربية السعودية حيث أقاموا هناك حكومة فى المنفى · وبعد أسبوع أعلن صدام حسين ضم الكويت الى العراق لكى تصبح المحافظة رقم ١٩ فى العراق · وأشار الى أن الطفل قد عاد الى أمه على الرغم من الحقيقة التى مفادها أن امارة الكويت كانت قد ولدت قبل مولد الدولة العراقية بحوالى ٢٠٠ سنة ·

واذا كان صدام حسين قد نجح فى مباغتة العالم فانه قد أخطأ أيضا فى تقدير حجم المعارضة العالمية · اذ قام مجلس الأمن التابع للأمم المتحدة باصدار قرار بالاجماع ينص على فرض عقوبات اجبارية على العراق · وأصبحت هذه العقوبات ـ عقب اصدار سلسلة من القرارات الأخرى ـ فعالة تماما من حيث فرض الحصار على التجارة الخارجية للعراق وتجميد أمواله وممتلكاته المتواجدة بالدول الأجنبية · وكانت هذه هى أكبر أزمة تحدث فى فترة ما بعد انتهاء الحرب الباردة العالمية حيث قامت دولة يبلغ تعدادها ١٨ مليون فقط بتحدى أكبر دولتين فى العالم ومعظم دول العالم · ولدى تقدم القوات العراقية نحو حدود المملكة العربية السعودية بدأ العالم يخشى من احتمال قيام صدام حسين بالاستيلاء على حقول البترول السعودية التى اذا

أضيفت الى حقول البترول الكويتية والعراقية ستجعل صدام حسين مسيطرا على أكثر من نصف احتياطيات البترول فى العالم كله ٠ والآن نجد أن أمريكا التى كانت قد اعتبرت الانتصار العراقى فى حرب الخليج أفضل من انتصار الخومينى ـ بدأت تشجب صدام حسين وتعلن أنه مجرم وخارج على القانون الدولى ٠ وعلى الفور استجاب الرئيس بوش لرغبة فهد ملك السعودية فى ارسال قوات للدفاع عن المملكة ٠ وحتى بعد انحسار الأخطار عقب وصول القوات المحمولة جوا كان هناك تعزيز مستمر من القوات البحرية والبرية والجوية الى أن وصل الرقم الى ٦٠٠ ألف جندى يحملون أحدث الأسلحة المتطورة ٠ وكانت الغالبية العظمى من الأمريكان ولكن بريطانيا وفرنسا قامت بارسال فرق كبيرة أساسية كما ساهمت ما لا يقل عن ٥٤ دولة سواء بارسال قوات عسكرية أو دعم مالى ٠ وكان اضافة قوات عسكرية عربية من مصر وسوريا ومراكش وقوات أخرى من الباكستان وبنجلاديش بخلاف قوات السعودية ودول خليجية أخرى له أهمية سياسية كبيرة من وجهة نظر أمريكا ٠ اذ كان من الضرورى للغاية أن تظهر أمريكا أن هذه ليست حرب صليبية غربية أخرى موجهة ضد العرب والدين الاسلامى ٠

وحقيقة الأمر أن الرأى العربى كان منقسما ومشوشا ازاء هذه المسألة ٠ ففى حين أن حكومات جامعة الدول العربية أعلنت بدرجات متفاوتة من الاصرار أن العراق ينبغى عليه الانسحاب من الكويت فانه كانت هناك تلك الدول مثل الأردن والسودان وليبيا والجزائر علاوة على منظمة التحرير الفلسطينية التى أظهرت بعض التعاطف مع الموقف العراقى ٠ وأعطت هذه الحكومات أولوية للتنبية الى الأخطار التى سيتعرض لها العرب والدين الاسلامى بسبب التدفق الهائل من القوات الغربية الكافرة ٠ وحاول حسين ملك الأردن وياسر عرفات التوصل الى ايجاد « حل عربى » للأزمة ٠

وكان على جميع القادة والزعماء العرب أن يهتموا بعض الشىء

بالرأى العام العربى الذى كان يميل فى الغالب الى الاعتقاد بأن صدام حسين هو صلاح الدين القرن العشرين الذى يعمل على تحدى الغرب وتوحيد العرب • وكانت الغالبية العظمى من العرب الفقراء يشعرون بقدر ضئيل من التعاطف مع عرب الخليج الذين يمتلكون ثروات هائلة • وتفجرت المظاهرات فى الأردن وفى الأراضى العربية التى تحتلها اسرائيل وراحت الجماهير تهتف بحياة صدام حسين من حيث هو بطل • بل ان بعض المليشيات الاسلامية التى تدرك جيدا أن صدام حسين دكتاتور علمانى متميز بالقسوة الشديدة بدأت تشعر بالاستجابة لندائه بالدخول فى الجهاد أو الحرب الاسلامية المقدسة ضد الغزاة الغربيين •

وكان صدام حسين يتصرف فى شيء من المكر والخداع • ولكنه أخطأ أيضا فى تقديراته الى درجة كبيرة • ويرجع ذلك الى جهله بالشئون العالمية وابتعاده عن نصائح وانتقادات زملائه الذين كانوا يخافون منه للغاية • وفى دهاء شديد قام صدام حسين بالربط بين أزمة الخليج والقضية الفلسطينية مظهرا التناقض الشديد بين ردود الفعل الفورية من جانب الغرب ازاء استيلائه على الكويت وفشل الغرب على مدى سنوات طويلة فى انهاء الاحتلال الاسرائيلى للأراضى العربية • بل وأحرز بعض التقدم من خلال احتكامه الى مشاعر جماهير الشعوب العربية والاسلامية رغم أنه لم يتغلب على الاطلاق على شكوك وكراهية أولئك الذين عاشوا تجربة مباشرة مع اجراءاته الوحشية من أمثال مئات الآلاف من الفلاحين المصريين الذين أرغموا على ترك أرزاقهم وسبل معيشتهم فى العراق • وبعد مرور أسبوعين على غزوه للكويت دخل فى مجازفة وهى عرض السلام على ايران وتخلى رسميا عن كافة الأهداف التى دخل من أجلها فى حرب ضد ايران وذلك لكى يضمن وقوف ايران على الحياد • وقد مكنه هذا الاجراء من سحب قوات حيوية من منطقة الحدود مع ايران وتعزيز دفاعاته فى الكويت • ويبدو أن الشعب العراقى قد وافق على ذلك الاجراء المتطرف على أساس أن الموقف يتطلب ذلك •

ولم تنجح محاولات صدام حسين الرامية الى كسب الرأى العام العالمى خارج نطاق الشرق الأوسط • اذ تفجر الغضب بسبب احتجازه لمئات من الأجانب كرهائن ــ ومعظمهم غربيون ألقى القبض عليهم فى الكويت أو العراق ــ واستخدام بعضهم كدروع بشرية من خلال احتجازهم فى أماكن قريبة من الأهداف العسكرية • ولكن مشاعر الغضب لم تهدأ عقب اطلاق سراح مجموعات منتقاة من النساء والأطفال والمرضى والطاعنين فى السن فى تمثيلية تحزيرية لها اتجاهات انسانية • ولدى تسرب أنباء عن قيام القوات العراقية بأعمال السلب والنهب والاعتداءات الوحشية على الثلث المتبقى من عدد سكان الكويت الذين لم يلجأوا الى الهرب ظهرت نداءات فى الغرب تطالب بمحاكمة صدام حسين كمجرم حرب علاوة على ضرورة أن تدفع العراق تعويضات عن الحرب •

وعلى الرغم من ضخامة القوات الساحقة التى نشرت ضد العراق واجهت أمريكا وحلفاؤها ورطة حادة • اذ كان هدفهم الرئيسى واضحا : ألا وهو ارغام العراق على الانسحاب من الكويت لكى تتمكن الحكومة الشرعية من العودة الى البلاد • ولكن من البداية أصبح الأمر يتطلب اتخاذ قرارات أخرى • اذ تصاعد تساؤل : هل من الحكمة ــ حتى فى حالة الانسحاب العراقى من الكويت ــ أن يتم ترك صدام حسين مع آلته الحربية الهائلة فى حالة سليمة [بما فى ذلك أسلحته الكيماوية] وبحيث يستمر فى تشكيل تهديد على الشرق الأوسط من خلال قوته ؟ كما كان الأمر يتطلب أيضا دراسة ما اذا كان تدمير القوات العراقية سيؤدى الى احداث خلل فى توازن القوى على نحو حاسم فى المنطقة • كما تطلب الأمر أيضا اتخاذ قرار بشأن الفترة الزمنية التى يمكن انتظارها من أجل معرفة ما اذا كانت العقوبات التى فرضتها الأمم المتحدة ستؤدى بالفعل الى ضعف العراق وارغامه على الانسحاب قبل استخدام القوة المسلحة • كما كانت هناك أخطار بشأن تفكك الائتلاف المتنافر المتعدد العناصر ــ لدى

امتداد الأسابيع ووصولها الى شهور ـ وخاصة اذا ما قدر للعراق أن تعرض تسوية مثل انسحاب جزئى من الكويت أو تقترح ضرورة حل المشكلة الفلسطينية ومشكلة الكويت فى آن واحد • ولكن وحدة وتماسك القوات الدولية كانت ستتعرض للتفكك أكثر لو أن الضربة الجوية الخاطفة من أجل تحطيم سلاح الطيران العراقى وعزل قواته التى كانت مستعدة للدفاع فى الخنادق المتواجدة خلف الدفاعات المنيعة فشلت فى تحقيق أهدافها وأدت الى حرب مطولة باهظة التكاليف •

ولكن لم يتحقق شىء من هذه المخاوف • اذ أخطأ صدام حسين فى تقديراته وحساباته بالنسبة لمدى تصميم خصومه ومدى القوة العسكرية الخاصة به ومقدرتها على انزال خسائر جسيمة بين خصومه • وعندما حصلت أمريكا على تفويض من مجلس الأمن التابع للأمم المتحدة على استخدام القوة اذا لم يبادر صدام حسين بالجلاء عن الكويت فى موعد أقصاه ١٥ يناير استمر صدام حسين فى المراوغة • ثم قام فجأة باطلاق سراح جميع « الضيوف » الأجانب [أى الرهائن] ولكن لم تصدر عنه أية تلميحات تشير الى أنه يرغب فى الجلاء عن الكويت • وعقب انتهاء الموعد المحدد بوقت قصير شن الائتلاف هجوما جويا ساحقا على العراق وقواته المتواجدة فى الكويت • ونظرا لأن معظم الطائرات العراقية كانت مختبئة فى أماكن محصنة أو لجأت الى ايران أصبح العراق غير قادر على الرد على الغارات الجوية واكتفى باطلاق صواريخ « سكود » على أهداف سعودية واسرائيلية • وتسببت صواريخ سكود فى حدوث بعض الدمار ولكنها فشلت فى تحقيق الهدف الرئيسى من ورائها وهو جر اسرائيل الى الحرب بهدف عزل الغرب عن حلفائه العرب •

وتم البدء فى الهجوم البرى عقب مرور خمسة أسابيع من القصف بالقنابل مما أدى الى تطويق أل ٤٢ فرقة العسكرية العراقية المتواجدة فى الكويت وتدميرها أو شل حركتها • وقبل أن يلجأ

العراقيون الى الهرب قاموا بتخريب ٩٠٪ من آبار البترول بالكويت كحركة انتقامية مما أدى الى تلويث بيئة الخليج • وبدا وكأن صدام حسين محكوم عليه ومقدر له أن يلقى هزيمة نكراء فى حجم الكارثة • اذ قام الأكراد بالشمال والشيعة بالجنوب بالتمرد والاستيلاء على العديد من المدن • ولكن كانت تنقصهم الاستراتيجية والأسلحة الثقيلة • فاستخدم صدام حسين النصف المتبقى من قواته المسلحة فى قمع التمرد فى وحشية بالغة • فهرب مئات الآلاف من الأكراد والشيعة الى الحدود الجبلية التركية والايرانية •

واضطرت العراق لأن توافق على شروط السلام الثقيلة الوطأة الصارمة التى اشتملت على القضاء على كافة أسلحة الدمار الشامل العراقية علاوة على سداد تعويضات حرب كبيرة للغاية • وأصرت أمريكا وبريطانيا على ضرورة رحيل صدام حسين قبل ازالة عقوبات الأمم المتحدة واستئناف العراق لعلاقاته الطبيعية مع العالم • ولكن المعارضة العراقية المتنافرة المتعددة العناصر فشلت فى الاطاحة بصدام حسين ولم ينجح أى انقلاب داخلى • ولم تكن الدول الغربية على استعداد لأن تحتل بغداد • وبعد أن وعد صدام حسين ــ الذى أصبح ضعيفا وان كان لم يتم تأديبه بالقدر الكافى ــ شعبه بأنه سيضفى الطابع الليبرالى على الحكم فانه أصبح قادرا على البقاء على قيد الحياة لبعض الوقت رغم النتائج التى ترتبت على أخطائه الفادحة •

الفصل الثالث عشر

توقعات القرن الواحـد والعشرين

Prospects for the twenty-first Century.

ومع اقتراب نهاية الألف عام الثانية للعهد المسيحي لا يمكن أن يكون هناك شك في أن الشرق الأوسـط سيظل أحد مراكز الأعصاب في العالم · وربما لم يعد الشرق الأوسط بمثابة مصدر لحضارات جديدة عظمى ـ وان كنا لا نستطيع أن نجزم بذلك ـ أو في طليعة التقدم الثقافي والمادي على النحو الذي كان عليه في كثير من أوقات تاريخه البالغ خمسة آلاف عام ولكنه لن يصبح بمثابة المكان الخلفي المنعزل الراكد الذي كان عليه عندما تعلمت أوربا تجنب المرور بالشرق الأوسط والابحار حول افريقيا في طريقها الى كنوز الهند والشرق الأقصى · لأن شعوب الشرق الأوسط ـ ومعظمها من العرب الذين رزحوا تحت حكام أتراك أو فرس رغم أنهم ورثة حضارات فخورة ومجيدة ـ اكتشفت أنها أصبحت مواطنين من الدرجة الثانية في العالم · ثم ازداد الأمر سـوءا عندما تعرض الشرق الأوسـط مرة أخرى للغزو ـ في هذه المرة على أيدي صليبيين علمانيين من الغرب حيث كان نابليون بونابرت هو الرائد الذي

ابتدأ هذه الغزوات . فأصبحت مساحة كبيرة من الشرق الأوسط ممتلكات شبه مستعمرة في أيدي أوربا .

ومن ذلك فان الشرق الأوسط لم يعد بكل تأكيد المكان المنعزل الخلفي الراكد . وكانت الأسباب في بادىء الأمر استيراتيجية وتجارية : اذ كانت مصر والمشرق العربي - وهذا هو ما أدركه بونابرت جيدا - بمثابة المفاتيح التي تؤدي الى افريقيا وآسيا وتزايدت أهمية ذلك عندما أصبح الشرق الأوسط مرة أخرى هو الطريق الرئيسي من أوربا الى الهند والصين علاوة على تدافع الدول الأوربية من أجل الحصول على مستعمرات في افريقيا . وأضيف بعد جديد الى أهمية الشرق الأوسط من خلال اكتشاف البترول في ايران في نهاية القرن التاسع عشر ثم تزايدت هذه الأهمية على نحو مضطرد لدى الاكتشاف التدريجي بأن المنطقة المحيطة بالخليج الفارسي/العربي هي أغنى مصدر للبترول في العالم . فأصبحت السيطرة على الشرق الأوسط لها أهمية حاسمة بالنسبة للدول التي شاركت في الحرب العالمية الأولى والثانية وبالنسبة لأمريكا والاتحاد السوفيتي أثناء الحرب الباردة التي ظهرت بعد الحرب العالمية الثانية .

ومع احياء الاهتمام الأوربي بالشرق الأوسط الذي كان قد بدأ منذ قرنين من الزمان فان الحقيقة التي مفادها أن هذه المنطقة هي مهد لأكبر ثلاث ديانات توحيدية في العالم لم تعد تشكل عاملا كبيرا - مثلما كانت عليه بالطبع أثناء الحروب الصليبية التي حدثت في العصور الوسطى . وكان ذلك مصدر اهتمام رومانتيكي تاريخي يحث على نمو وتزايد أعداد المستشرقين الأوربيين ولكن لم يكن هناك نزوع على الاطلاق نحو طرد الاسلام من الأرض التي تعتبر مقدسة بالنسبة للأديان التوحيدية الثلاثة . بل ان المسلمين الذين لم يعودوا يشكلون تحديا من حيث القوة المادية كانوا يلقون المناصرة والتأييد من جانب الغرب في حين كان اليهود الذين يشكلون أقلية ضئيلة

للغاية فى الشرق الأوسط يلقون التجاهل بالفعل ٠ الا أن كل هذه الأوضاع تغيرت بسبـــب ظهور الصهيونية السياســـية فى القرن العشرين والتى بلغت ذروتها لدى انشاء دولة يهودية فى فلسطين عقب مرور حوالى ٢٠٠٠ عام وأيضا بسبب ظهور الادراك المتزايد بأن الاسلام قوة سياسية متجددة على نحو حاسم وأنه أسرع الأديان من حيث كسب مؤمنين جدد به ٠ وكل هذه العوامل التى جعلت انتباه العالم ينصب على الشرق سوف تظل قائمة على الرغم من أن نتائجها ستكون مختلفة ٠ فاقليم الشرق الأوسط قد شهد ومازال يشهد تغيرا وتطورا غير عادى خلال هذا القرن العشرين ومن الأرجح أن يستمر ذلك التطور ٠ ومن المتوقع أن تحدث حروب واضطرابات أخرى فى منطقة الشرق الأوسط ولكن ربما لن تكون لها نفس أهمية الثـــورة الايرانية لعـــام ١٩٧٩ أو الحرب العراقية / الايرانية ١٩٨٠ ـ ١٩٨٨ ٠

واذا لم تحدث اكتشافات بترولية ضخمة جديدة فى أراضى تقع خارج نطاق الشرق الأوســـط ـ وهو أمر يمكن أن يحدث ـ فسوف تظل منطقة الشرق الأوسط أهم مورد للطاقة فى العالم خلال القرن الواحد والعشرين ٠ وهناك اختلاف فى الرأى بين الخبراء فى الاقتصاد البترولى بشأن الوقت أو التاريخ الذى ستتمكن خلاله الدول المنتجة للبترول بالشرق الأوسط من استعادة سيطرتها على أسواق البترول العالمى وأسعار البترول والخروج من فترة كساد الثمانينات من عام ١٩٨٠ ٠ اذ يعتقد بعض هؤلاء الخبراء فى أن ذلك سوف يحدث بحلول عام ١٩٩٥ بينما يرى آخرون أن ذلك لن يحدث الا بعد عام ٢٠٠٠ ٠ ولكن عددا قليلا يعتقد أن ذلك لن يحدث على الاطلاق ٠ ولسوف يتوقف الجدول الزمنى على مدى فاعلية الأوبيك التى تشـــكل فيه دول الشرق الأوســـط المنتجة للبترول القوة المســـيطرة ٠

وقبل نشوب حرب الشرق الأوسط لعام ١٩٧٣ كان الاستهلاك العالمي من البترول آخذا في التزايد المضطرد بنسبة تتراوح من ٧٪ الى ٨٪ سنويا · وبعد حدوث زيادة في أسعار البترول الى أربعة أضعاف في عام ١٩٧٣/١٩٧٤ بدأت الزيادة في الاستهلاك تنخفض بشدة · وبعد أن تسببت الحرب العراقية/الايرانية في رفع أسعار البترول مرة أخرى [من ١٣ دولار للبرميل الى ٣٦ دولار للبرميل] هبط الاستهلاك العالمي بنسبة تزيد على ١٠٪ في الفترة من عام ١٩٧٩ حتى عام ١٩٨٣ · اذ كانت الدول الصناعية المتقدمة تمر بفترة ركود مؤقتة في النشاط الاقتصادي بالاضافة الى أنها كانت تعثر على وسائل للحفاظ على البترول والتحول الى مصادر أخرى للطاقة · الا أن هذا لم يكن منطبقا على الدول الشيوعية أو الدول النامية في آسـيا وأمريكـا اللاتينية وافريقيا التي كانت تزيد بالفعل من استهلاكها من البترول بل وبعد حدوث ارتفاع في أسعار البترول · وكان معدل الاستهلاك العالمي من البترول يتعرض للتغير باستمرار لدرجة أنه أصبح من المتعذر تحديد توقعات له · ومع عدم وجود هبوط في الاقتصاد العالمي في بداية التسعينات من عام ١٩٩٠ فان الأمور بدأت تتجه نحو حدوث زيادة مضطردة في الطلب العالمي على البترول مرة أخرى ولكنها في هذه المرة بقيادة الدول التي دخلت في مجال التصنيع مؤخرا · ومن الواضح أن احتياجات الصين والهند من البترول ضخمة للغاية ·

ولسوف يتوقف نجاح دول الأوبيك في التأثير على الأحداث على مدى مقدرتها على التعاون مع بعضها البعض والاستفادة من دروس الماضي · فالزيادة الهائلة في أسعار البترول في التسعينات يمكن أن تحدث تأثيرا على الدول النامية مشابها لما حدث بالنسبة للدول الصناعية المتقدمة في خلال الثمانينات من عام ١٩٨٠ · وفي داخل الأوبيك يوجد اختلاف واضح في الاهتمامات : فالدول التي لها · احتياطيات بترولية ضئيلة مثل الجزائر تريد أن تجعل الأسعار

مرتفعة للغاية بقدر الامكان بهدف رفع دخلها من البترول الى الحد الأقصى بينما تلك الدول ذات الاحتياطي البترولي الضخم مثل الكويت أو السعودية تهتم أساسا بالحفاظ على حصتها في سوق الطاقة العالمي · الا أن الحقيقة الأساسية تظل راسخة : وهي أن الدول التي لديها احتياطيات بترولية هائلة هي التي سيكون لديها القدرة على التأثير على الأحداث على المدى البعيد وهذه الدول متواجدة في الشرق الأوسط · واذا قامت هذه الدول بانتاج وتصدير بترولها وفق أي معدل يمكن تخيله فان الاحتياطي البترولي بها سوف يستمر على مدى مائة عام ·

وعلى الرغم من الانخفاض النسبي ـ وهو انخفاض مؤقت بكل تأكيد ـ في الاهتمام بالبترول من حيث هو مصدر للطاقة من جانب الدول الصناعية المتقدمة في السبعينات من عام ١٩٧٠ والثمانينات من عام ١٩٨٠ نجد أن الشرق الأوسط ظل يشكل أهمية حيوية بالنسبة لاقتصاد هذه الدول · اذ حصلت أوربا الغربية على ٧٠٪ من احتياجاتها البترولية من الشرق الأوسط وحصلت اليابان على أكثر من ٦٠٪ وبالنسبة لأمريكا وصلت النسبة الى ٥٠٪ ثم أخذت في الارتفاع · وأي تهـــديد لهذه الامدادات كان يثير قلق الدول الديموقراطية الصناعية بزعامة أمريكا · وقد اتضح ذلك تماما أثناء المراحل الأخيرة من الحرب العراقية/الايرانية · الا أن احتواء وانهاء هذه الحرب والذي ساعد عليه تواجد قدر من التفاهم الأمريكي / السوفيتي قد أظهر لنا أيضا شيئا ما آخر : وهو أن الحرب الباردة بين الدول الكبرى كانت آخـــذة في التـــلاشي في منطقة الشرق الأوسط · وكان هذا الصراع من أجل السيطرة على منطقة الشرق الأوسط قد استمر حوالي أربعين عاما ـ أو استمر لمدة مماثلة للفترة الأنجلو/فرنسية التي سبقت ذلك الصراع ·

ان دلائل المستقبل في العهد الجديد ينبغي أن تظل موضوعا للدراسة والتأمل · ومن الخطأ أيضا أن نبالغ في امكان حـــدوث

تغييرات فجائية • فلقد كانت هناك فترات من الانفراج فى العلاقات المتوترة الأمريكية/السوفييتية فى الشرق الأوسط من قبل ـ مثل الفترة التى شهدها عهد نكسون/بريجينيف والتى كانت سائدة قبل نشوب الحرب العربية/الاسرائيلية لعام ١٩٧٣ • وتبقى الحقيقة التى لا مفر منها وهى أن الاتحاد السوفييتى يرغب فى القيام بدور فعال فى الشرق الأوسط [وهو مازال يشعر بالاستياء من الجهود التى لا مفر منها وهى أن الاتحاد السوفيتى يرغب فى القيام بدور ولكنه فى عهد جورباتشوف يسعى لتحقيق ذلك من خلال عمل مشترك مع الولايات المتحدة الأمريكية ودول أخرى وليس من خلال التحدى والمواجهة • وفى حين أن الاتحاد السوفيتى كان يوافق دائما ومايزال ـ منذ أيام ستالين ـ على تواجد اسرائيل ويعارض أية محاولة من جانب العرب أو اسرائيل لحل النزاع من خلال اللجوء للقوة المسلحة فاننا نجد أن الرئيس جورباتشوف قد أعطى المزيد من القوة والوضوح لهذه السياسات • بل وتحرك أكثر نحو تطبيع العلاقات السوفيتية مع اسرائيل والتى كانت قد قطعت أثناء حرب ١٩٦٧ • كما تخلى عن مساندة التيار السائد فى منظمة التحرير الفلسطينية بقيادة عرفات والذى يسعى الى اقامة دولة فلسطينية مستقلة فى مقابل الاعتراف الفلسطينى بدولة اسرائيل • وفى نفس الوقت بينما كان الاتحاد السوفييتى يقوم باستمرار بمساندة سوريا واعادة تسليحها فانه حرص على أن يوضح أن العلاقات مع سوريا تتعرض للتغير فى العهد الجديد للدبلوماسية الاقليمية السوفييتية ـ والتى ترى أن المفاوضات هى السبيل الوحيد لتحقيق السلام والأمن ـ وأشار الى أن الهدف الذى أعلنته سوريا والخاص بضمان الحصول على تكافؤ استراتيجى مع اسرائيل يعتبر عقيما وغير ذى جدوى •

وعلى الرغم من أن الاتحاد السوفييتى فى عهد جورباتشوف ـ كما سبق أن أشرنا ـ حريص على المساهمة فى البحث عن سلام

دائم بين العرب واليهود فان الشرق الأوسط لم يعد من بين الاهتمامات السياسية الرئيسية لدى الحكومة السوفييتية ـ بعكس ما كان عليه الحال فى الخمسينات من عام ١٩٥٠ والستينات من عام ١٩٦٠ ـ لأن تفكيك الامبراطورية السوفييتية سوف يستحوذ على اهتمامات أية قيادة سوفييتية ٠ ولكن فى حين أن هذا الاتجاه السوفييتى نحو الاسترخاء يلقى ترحيبا بوجه عام من كافة دول الشرق الأوسط التى كانت تخشى الطموحات السوفييتية فى الماضى فاننا نجد أن ردود الفعل لدى اسرائيل تتسم بالغموض بصفة خاصة ٠ والسبب فى ذلك أن اسرائيل تخشى من حدوث فقدان مماثل للاهتمام بالشرق الأوسط من جانب الولايات المتحدة الأمريكية ٠

وكان لاسرائيل أسباب تدعوها للترحيب بالدفء فى علاقاتها مع الاتحاد السوفييتى ـ خاصة وأن ذلك يعنى حدوث استرخاء ازاء القيود المفروضة على هجرة اليهود السوفييت الى اسرائيل ٠ ومما يدعو للسخرية أنه قد تم تشجيع اليهود على مغادرة الاتحاد السوفييتى بسبب تجدد المشاعر السوفييتية المناهضة للسامية صراحة فى فترة « الجلاسنوست « Glasnosl » (١) » بل ومما يدعو للسخرية أكثر أن اليهود السوفييت بدأوا فى الهجرة الى اسرائيل وليس الى الولايات المتحدة الأمريكية التى كانوا يفضلون الذهاب اليها وذلك لأن أمريكا بدأت فى عام ١٩٨٩ فى فرض قيود على دخولهم نظرا لأنها لم تعد تعتبرهم من اللاجئين ٠ وبالطبع اسرائيل تفضل حدوث أى زيادة فى عدد سكانها اليهود لأنها تخشى من احتمال ميل التوازن الديموجرافى فى داخل اسرائيل والأراضى المحتلة [أى أرض اسرائيل من وجهة نظر شامير وحزب الليكود الخاص به] لصالح العرب ٠ الا أن هذه المنفعة بالنسبة لاسرائيل لها جوانبها السلبية والايجابية أو هى منفعة متسمة بالتذبذب والسبب فى ذلك أن اسرائيل تخشى

---

(١) الجلاسنوست : المبدأ الذى أعلنه جورباتشوف والخاص بضرورة المكاشفة والمصارحة بالنسبة لكافة الأمور ـ (المترجم) ٠

من احتمال قيام أمريكا بتخفيض دعمها لاسرائيل واتخاذ سياسات نحو فرض تسوية سلمية فى الشرق الأوسط بالتعاون مع الاتحاد السوفييتى وغيره من الأعضاء الدائمين فى مجلس الأمن وذلك يعنى مساندة أمريكا لانشاء دولة فلسطينية مستقلة فى الأراضى العربية المحتـــلة ٠

ويرتكز تحالف أمريكا مع اسرائيل على عنصرين مشتركين فى بعض الخصائص جزئيا ولكنهما لا يتطابقان تماما ٠ العنصر الأول هو أن أمريكا تنظر الى اسرائيل على أنها هى الدولة الوحيدة فى الشرق الأوسط التى يوجد بها مؤسسات ديموقرطية على النمط الغربى ولكنها فى نفس الوقت لديها قوة عسكرية ضخمة تجعلها قادرة على الدفاع عن المصــالح الأمريكية والغربية فى المنطقة ٠ والعنصر الثانى هو العنصر الصهيونى : النفوذ القوى للغاية المتسم بالفساد الشديد لليهود الصهاينة الأمريكان والذى يســيطر على النظام السياسى الأمريكى ٠ ومن المحتم أن يحدث تدهور فى العنصر الأول نظرا لخمود الحرب الباردة مما يجعل أمريكا تتوقف عن النظر الى الاتحاد السوفييتى على أنه يشكل تهديدا خطيرا فى منطقة الشرق الأوسط ٠ ولكن هناك أسباب أخرى تؤدى الى حدوث تدهور ٠ فالجهــود ذات الطــابع الاستعمارى التى تبذلها اسرائيــل لقمع « الانتفاضة » الفلسطينية والتى تحدثت عنها كثيرا وسائل الاعلام الكبرى الأمريكية قد دمرت صورة اسرائيل من حيث هى دولة ديموقراطية ٠ وفى عام ١٩٨٩ حدث مزيد من التدمير لصورة اسرائيل من خلال الكشف عن مدى علاقات اسرائيل بجنوب افريقيا وخاصة فى مجال تطوير الأسلحة بما فى ذلك الأسلحة النووية ٠ وجنوب افريقيا لها سمعة سيئة بين الكثيرين من رجال السياسة الأمريكيين وقطاعات كبيرة من الرأى العام الأمريكى ٠ وأخيرا نجد أن سمعة اسرائيل قد تلطخت بسبب ظهور تقارير تشير الى تواجد علاقات اسرائيلية وثيقة ــ ليست بالضرورة على أعلى المستويات ــ مع

عناصر فى أمريكا اللاتينية تنال كل الاستهجان والاستياء الأمريكى مثل بارونات المخدرات الكولومبيين ومثل نورييجا الرئيس السابق لدولة بنما ٠

وكل هذه الشكوك التى تدور حول مزايا وضرورة التحالف العسكرى والسياسى الأمريكى/الاسرائيلى قد أحدثت تأثيرا على الدعامة الأخرى التى تساند التحالف : ألا وهى الولاء الكامل للدولة الاسرائيلية من جانب المجتمع الأمريكى ٠ ففى حين أن غالبية ممثلى المنظمات اليهودية الأمريكية يصرحون بأن ولاءهم مازال باقيا ولم يتعرض للتخفيض الا أنهم يعبرون صراحة عن شكوكهم ازاء حكمة سياسات الحكومة الاسرائيلية ورفض اسحاق شامير رئيس الوزراء الاسرائيلى تبادل الأرض بالسلام ٠ بل ويمكن القول أن اليهود الأمريكان أصبحوا يعتقدون أن القوة الأمريكية لن تساند اسرائيل الى أقصى درجة لكى تظل دولة حصنية مسيطرة على كافة أراضى فلسطين السابقة ٠

ففى بداية التسعينات من عام ١٩٩٠ نجد أن الرئيس الأمريكى بوش ووزير خارجيته جيمس بيكر كانا ينظران الى العلاقات الأمريكية/الاسرائيلية فى عاطفة تقل كثيرا عن عاطفة المسئولين الأمريكيين السابقين عليهما مما جعلهما يبدوان وكأنهما يغيران من طبيعة هذه العلاقات ٠ وفى داخل اسرائيل كانت توجد وجهتا نظر متميزتان وواضحتان بشأن هذا الموضوع ٠ وجهة نظر تشير الى أن التغير سطحى وظاهرى وأن السحب سوف تنقشع وسوف يظل الدعم الأمريكى لاسرائيل مستمرا دون أن يطرأ عليه أى تخفيض ٠ وكان الكثيرون من العرب يؤمنون بوجهة النظر هذه على أساس التجربة التاريخية الأخيرة التى أوضحت أن الشقاق بين أمريكا واسرائيل كان يتسم دائما بأنه عديم الأهمية ومستمر لفترة قصيرة ٠ ومن بين هؤلاء العرب نسبة كبيرة من الزعماء السياسيين الفلسطينيين الذين كان بعضهم يتشكك دائما بشأن « الحوار الأمريكى الفلسطينى » بينما

وافق البعض الآخر على وجهة النظر القائلة بأن الهدف من وراء ذلك ليس سوى اضعافهم وزرع الشقاق والفرقة بينهم ٠

ولكن كانت هناك وجهة نظر مختلفة فى داخل اسرائيل يؤمن بها أساسا حزب العمال الاسرائيلى وكافة مجموعات الجناح الأيسر فى داخل هذا الحزب ٠ ويشير هذا الرأى الى أنه ينبغى أن تتغير سياسات اسرائيل تغيرا جوهريا اذا كانت اسرائيل ترغب فى الحفاظ على علاقاتها القوية مع أمريكا ٠ كما أوضح ذلك الرأى أن الثورة الفلسطينية لا يمكن القضاء عليها من خلال القمع وحده اللهم الا اذا تم القمع بتكلفة عالية للغاية وبالتالى فانه ينبغى أن تعطى تنازلات لصالح القومية الفلسطينية ٠

وهناك نقطة واحدة يتفق عليها الجميع فى اسرائيل باستثناء أقلية ضئيلة من المتعصبين الصوفيين : وهى أن دولة اسرائيل الصهيونية اليهودية التى تتواجد على قيد الحياة حاليا لا يمكن لها أن تستمر فى الحياة فى قلب الشرق الأوسط بشكلها الحالى بدون أن تتلقى الدعم والعون من الولايات المتحدة الأمريكية ٠ وليس هذا بسبب أن كافة الدول الأخرى الواقعة خارج نطاق الشرق الأوسط — مثل الاتحاد السوفييتى والدول الأوربية واليابان — معادية لاسرائيل أو ترغب فى زوال اسرائيل من الوجود ٠ وانما السبب فى ذلك أن اسرائيل بدأت تدرك أن بقاءها على قيد الحياة يعتمد على آلتها العسكرية البالغة القوة ٠ ولكنها باهظة التكاليف للغاية فى نفس الوقت ٠ ونظرا لأن الاقتصاد الاسرائيلى يعانى من عجز هائل فى الميزانية على الرغم من تطوره بشكل كبير فان الآلة العسكرية هذه لا يمكن الابقاء عليها الا من خلال المساعدات الخارجية ٠ وفى خلال السنوات الأولى من حياة اسرائيل كانت هذه المساعدات تجيىء من مصادر عديدة ولكن فى التسعينات نجد أن هذه المساعدات لا تجيىء الا من أمريكا فقط ٠ وكل دلائل التاريخ تشير الى أنه

لا يمكن لأى دولة صغيرة ـ مهما كانت قوية ـ أن تعتمد على مساعدات خارجية كهذه مقدمة من دولة عظمى ٠

ولذلك فاننا نجد أن اسرائيل مع اقتراب القرن الحادى والعشرين تواجه ورطة ضخمة وقاسية ٠ وهى الورطة التى سبق أن أشار اليها ياهوشافات حركابى Yehoshafat Harkabi رئيس المخابرات العسكرية الاسرائيلية السابق الذى اعترف بأنه قد تحول عن مجموعة « الصقور » الى مجموعة « الحمائم المتسم بالطابع البراجماتيقى العملى » ٠ فهو فى كتابه الصادر تحت عنوان « القرارات الحاسمة لاسرائيل » [لندن ١٩٨٨] يعتقد أن بلاده تقف عند مفترق الطرق مع تواجد طريق واحد يؤدى الى الانتحار القومى ٠ وهو يقصد بهذا المحاولة الرامية الى تدمير القومية الفلسطينية من خلال استخدام القوة وضم الأراضى المحتلة ٠ لأن ذلك من شأنه أن يدمر ديموقراطية اسرائيل ويقضى على التعاطف الدولى الذى اعتمدت عليه الدولة الصهيونية ـ وما زالت تعتمد عليه ـ منذ انشائها ٠ وهناك فوارق واضحة بين اسرائيل ونظام الحكومة البيضاء بجنوب أفريقيا علاوة على تواجد حالات من التشابه ٠ ولكن بالنسبة لمسألة البقاء على قيد الحياة فى مواجهة العداء العالمى المتزايد يكون التشابه الجزئى واضحا ٠ اذ يمكن لاسرائيل أن تذبل وتتلاشى مثل أى دولة من الدول الصليبية ـ وهى مقارنة تثير اعجاب العرب ٠

ويقول حركابى : « ان الاختيار الذى تواجهه اسرائيل ليس اختيارا بين الحسن والردىء وانما هو اختيار بين السيىء والأسوأ » ٠ والبديل السيىء عن الانتحار القومى هو قبول الحل الذى ينادى باقامة دولتين : دولة صغيرة فلسطينية مجاورة لدولة اسرائيل ٠ وهذا فى حد ذاته يؤكد الحجم الكبير للورطة ٠ فرجال السياسة الاسرائيليون الذين يعارضون فكرة انشاء دولة فلسطينية ـ والذين

مازالوا يشكلون أغلبية كبيرة رغم أنها أغلبية آخذة فى التناقص على ما يبدو ـ يشيرون الى أنه اذا تم السماح باقامة دولة فلسطينية على جزء صغير من فلسطين فانه لا يوجد مبرر أخلاقى أو قانونى يدعو الى التخلى عن الحق فى الحصول على الجزء المتبقى من فلسطين. فاذا تمكن الفلسطينيون من السيطرة على نابلس والخليل Hebron وقطاع غزة فلماذا ينبغى عليهم التخلى الى الأبد عن المطالبة بالحصول على الناصرة Nazareth وحيفا ـ أو القدس ؟ • ومع ذلك فـانه ينبغى ـ وفقا لما أوضحة حركابى ـ أن تقدم اسرائيل على المخاطرة وتوافق على انشاء دولة فلسطينية والا فان دولة اسرائيل سوف تدمر نفسها بنفسها •

ويرى تيـودور هرتزل مؤسس الصهيونية السـياسية أن الدولة اليهودية ستكون بمثابة رأس جسر للغرب المستنير المتقدم فى داخل الشرق المتخلف الغارق فى الظلام • وبالتالى فان اسرائيل ستجلب عناصر التقدم للشـعوب فى المنطقة المحيطة بها • الا أن رواد الصـهاينة الأولـين كانوا يركزون اهتمامهم على « اصـلاح الأراضى » بمعرفتهم وبدون مساعدة من أحد ومن خلال استخدام عمالـة يهودية ورأسمال يهودى • اذ كانوا يرغبون فى أن يظلوا منعزلين ومختلفين عن غيرهم من الشعوب الأخرى ـ وبحيث يتكلمون باللغة العبرية الكلاسيكية • وعلى الرغم من أن الناس الذين حققوا احياء الحلم الصهيونى ـ من أمثال حاييم وايزمان ـ قد أشـــاروا مثل هرتزل الى أن تواجد دولة يهودية فى فلسطين سيجلب منافع وفوائد عظيمة على المنطقة فان اهتمامهم الرئيسى كان يتركز على تنمية دولة اسرائيل فى حد ذاتها • وأوضحوا أن اسرائيل ينبغى أن تكون بها مستويات معيشية وثقافية عالية بهدف اجتذاب جميع اليهود فى العالم الى وطنهم الجديد • وكان دافيد بن جوريون وهو أول رئيس وزراء لدولة اسرائيل يعتقد أنه ينبغى أن تكون اسرائيل دولة قوية ذات نفوذ فى المنطقة ولكن لا ينبغى عليها فى نفس الوقت

أن تتبع طرائق وأساليب الشرق الأوسط أو تصبح جزءا من الشرق الأوسط • وبالتالى لا ينبغى على اسرائيل أبدا أن تصبح مجرد دولة أخرى من دول المشرق العربى • وحتى اليوم وعلى الرغم من أن الغالبية العظمى من اليهود الاسرائيليين قد ولدوا فى الشرق الأوسط أو جاءوا من دول عربية نجد أن اسرائيل تعتبر نفسها أو ترغب فى أن ينظر اليها على أنها بمثابة مخفر أمامى أو قاعدة عسكرية أمامية للغرب فى منطقة بالغة التخلف للشرق • وهذه وجهة نظر مازال الغرب يتقبلها بوجه عام •

وفى ادراك حقيقى يتقبل العرب أيضا هذه الفكرة • فمنذ أن نشأت اسرائيل والعرب ينظرون اليها على أنها نمو سرطانى قد زرع فى جسدهم على أيدى الغرب • ولم تتغير وجهة النظر هذه حتى الآن لدى العرب ـ حتى ولو كانوا يوافقون حاليا على العيش والتوافق مع ذلك السرطان بشرط منع انتشار النمو السرطانى من خلال استخدام وسائل العلاج الحديثة • ولكن الحقيقة التى مفادها أن هناك دولة يهودية قوية عسكريا واقتصاديا تضم حوالى أربعة ملايين يهودى وتفرض تواجدها بالقوة فى قلب العالم الاسلامى الذى يضم حوالى ١٢٠ مليون عربى هى مصدر لاذلال عميق للأمة العربية • ومهما كان الكلام الذى يقوله العرب فانهم يعرفون أن الدعم الذى تتلقاه اسرائيل دائما من الغرب ليس سوى جزء فقط من تعليل بقائها على قيد الحياة •

والعرب فى تقييمهم لكافة الدول النامية بالعالم الثالث يدركون هذه الحقيقة : فى حين أنهم قد حققوا تقدما أكبر بكثير مما حققته الكثير من الدول فى أفريقيا وأمريكا اللاتينية منذ حصولهم على الاستقلال عن الدول الاستعمارية الغربية فانهم مازالوا متخلفين كثيرا عن الدول الأكثر تقدما فى آسيا وخاصة تلك الدول التى تقع على حافة الباسفيك • فاليابان ـ وهى أول دولة شرقية

تلحق الهزيمة بدولة أوربية مسيحية فى العصر الحديث خلال حربها ضد روسيا فى عام ١٩٠٤ ـ ١٩٠٥ كانت ولا يزال مصدر الهام للعرب • بل ولقد قام الزعيم الوطنى المصرى مصطفى كامل بطبع ونشر كتاب عن اليابان تحت عنوان « الشمس المشرقة » فى عام ١٩٠٤ • كما نجد فى الآونة الأخيرة أن العرب بالدول المنتجة للبترول قد نظروا الى اليابان على أنها نموذج لشعب زحف فى انتصار بل وتفوق على الأداء الاقتصادى للدول الغربية الصناعية بدون أن يفقد الملامح المميزة للهوية الخاصة به • الا أن انجازات اليابان مازالت هدفا بعيد المنال بالنسبة للعرب • لأن محو الأمية وتكوين عمالة ماهرة متعلمة وزيادة انتاج الطعام من أجل مواجهة الانفجار السكانى وتدعيم الصناعات المتنوعة وكل هذه الأمور التى تتعلق باحراز التقدم بوجه عام فى العالم العربى كانت ومازالت متسمة بأسلوب الترقيع المثير للاحباط • وينبغى أن نعترف أنه قد حدث تقدم رائع فى بعض المجالات • الا أن ذلك قد نجم أساسا عن اكتشاف ثروات طبيعية هائلة فى تلك الأجزاء من العالم العربى التى كانت قليلة السكان للغاية ومتخلفة اقتصاديا • والشعوب العربية بوجه عام تشكل كتلة لها أهمية عالمية تقل كثيرا عما كان ينبغى أن تكون عليه فى ضوء ما تتمتع به من موقع استيراتيجيى وموارد طبيعية عظيمة •

وهناك نوعان من ردود الفعل الناجمين عن العار والاذلال الذى يجده العرب فى هذه الوضع • النوع الأول يتسم بالبساطة واليوتوبية ويشارك فيه الأصولون الاسلاميون ودعاة القومية العربية الشاملة pan-Arab • اذ يعتقد الأصوليون الاسلاميون أن تطبيق الشريعة الاسلامية فى الدول العربية سوف يؤدى حتما الى حل كافة مشاكلها الاجتماعية والاقتصادية والسياسية • وهم لا يهتمون بتقليد الغرب الذى يعتبر من وجهة نظرهم متفسخا ومنحطا رغم أنهم يؤمنون بأن العرب من حيث هم جزء من الأمة

الاسلامية الشاملة ينبغي أن يصبحوا أقوياء على نحو يكفي لمنع الهيمنة الغربية على النواحي الاقتصادية والعسكرية • ولكنهم يعتقدون أنه ينبغي تحقيق ذلك من خلال القوانين الاسلامية •

وردود الفعل لدى المؤمنين بالقومية العربية الشاملة تتسم بالبساطة أيضا من حيث الاعتقاد بأن الضعف الذليل للعرب يرجع الى التقسيم الاصطناعي للأمة العربية – على أيدى الدول الاستعمارية في بادىء الأمر ثم على أيدى اسرائيل [وهذا الرأى لا يتعارض مع وجهة نظر الغرب القائلة بأن كراهية اسرائيل هى الشيء الوحيد الذى يوحد العرب – فالشعور المشترك بالعداء لا يعتبر عنصرا كافيا للتوحيد والتماسك] • ولكن عقيدة القومية العربية الشاملة فى شكلها اليوتوبى البسيط تعتبر معطلة حاليا وعديمة الفاعلية • وحتى العقيد القذافى رئيس ليبيا والذى يعتبر آخر المؤمنين بالقومية العربية بين الزعماء العرب بدأ فى الاعتقاد فى أن التجميعات الاقليمية الأصغر حجما – مثل اتحاد دول المغرب الذى أنشىء فى عام ١٩٨٩ – تعتبر أفضل وسيلة لاحراز التقدم • وهذا يعنى تفضيل احراز تقدم تدريجى براجماتيكى • وفى حين أنه من الواضح أن الكتلة العربية ستصبح أكثر قوة لو لم تتواجد منافسات مريرة بين أعضائها مثل تلك المنافسة المتواجدة بين العراق وسوريا فانه لا يوجد شخص عربى واحد يتوقع حاليا للكتلة العربية أن تندمج وتصبح « دول عربية متحدة » لها حكومة واحدة • حتى مع تواجد دستور فيدرالى • وأقصى ما يمكن توقعه هو ما يعرف فى بيروقراطية جامعة الدول العربية بـ « العمل العربى المشترك » من أجل مواجهة مشكلات محددة • والطريقة التى يمكن أن يتم بها ذلك على نحو فعال قد ظهرت من خلال الأسلوب الذى تم به التوفيق بين الفصائل اللبنانية من خلال الجامعة العربية لدى التوقيع على اتفاقيات الطائف فى سبتمبر ١٩٨٩ •

والنوع الثانى من ردود الفعل ازاء عدم نضج وعدم ملاءمة الحياة السياسية العربية يعتبر غير متسم بالبساطة أو اليوتوبية • ففى حين أنها توافق على أنه لا يوجد هناك حل سهل أو متسق فانها تؤمن بأن المشكلة فى حد ذاتها يمكن أن توضح فى عبارات بسيطة : وهى أن العرب فى التسعينات من عام ١٩٩٠ مازالوا فى انتظار كل من : الجلاسنوست والبريسترويكا • فبين المفكرين العرب الذين لا ينتمون لمذهب اليوتوبى ظهر بوضوح اجماع فى الرأى يشير الى أن العالم العربى فى أشد الحاجة الى المزيد من الديموقراطية والمزيد من المساهمة فى السياسة على نطاق واسع والمزيد من الاحترام للحقوق الانسانية • وفى حين أن الموقف ليس غير مرضى على حد سواء فى كافة الدول العربية فان الحقيقة تظل باقية : وهى أن الطبقات المتوسطة المتعلمة الكبيرة العدد والآخذة فى التزايد لا يكاد يكون لها أى تأثير على القرارات السياسية الكبرى التى تتخذها حكوماتهم أو الطريقة التى يتم بها اتخاذ تلك القرارات • وقد نتج عن ذلك نتائج ملفتة للنظر • من بينها أن نسبة كبيرة من الطبقة المتعلمة العربية قد فضلت العمل فى الخارج لكى تعيش فى جو متسم بالمزيد من الليبرالية • ومن بينها ظهور نمو ملحوظ فى الثمانينات من عام ١٩٨٠ لصحافة عربية متحررة نسبيا فى لندن وباريس ومختلفة تماما عن وسائل الاعلام المثيرة للملل والضجر الواقعة تحت سيطرة الحكومات والتى تشبه وسائل الاعلام التى كانت سائدة فى أوربا الشرقية فى فترة ما قبل الجلاسنوست • ومن الواضح أن هذا الوضع يعتبر أسوأ مما كان عليه فى فترة الانتداب شبه الاستعمارية •

فالعالم العربى مازال ينقصه تواجد مجتمع مدنى بوجه عام• ولقد أشار أحد كبار المفكرين العرب وهو المراكشى عبد الله لاراوى Abdalhal Larawy الى أن الدول العربية من وجهة نظر شعوبها لديها الالتزامات المفروضة بموجب القانون وليس لديها الشرعية •

فأنظمة الحكم فى الدول / الأمة — nation-states التى انبثقت عن الامبراطورية العثمانية تظل باقية فى السلطة من خلال أدوات القمع المتواجدة فى أيديها والتى من بينها السيطرة على وسائل الاعلام الكبرى • وقد أعطى هذا الاستقرار لأنظمة الحكم هذه — ومعظم أنظمة الحكم هذه قد ظلت صامدة مستقرة على مدى العشرين عام الماضية — الا أنه استقرار من النوع الذى يمكن وصفه بأنه ركود • اذ لا يوجد تراث ديموقراطى بحيث يمكن للمرء اللجوء اليه والاستفادة منه • فأولئك الذين يشاركون على نحو طبيعى فى الحياة السياسية ينبغى عليهم أن يختاروا ما بين النفى أو العمل فى داخل نطاق نظام الحكم السائد • بل ويضطر المحاميون الى العمل فى جو لا تتوفر فيه سيادة القانون كما يضطر الصحفيون الى العمل بدون تواجد حرية للصحافة كما يضطر رجال الأعمال للعمل فى جو اقتصادى لا يمكن يسمى بأنه اقتصاد « اشتراكى » أو اقتصاد « رأسمالى » ولكنه اقتصاد خاضع لسيطرة الدولة •

ولكن الصورة ليست قاتمة وسوداء للغاية مع الاقتراب من نهاية القرن العشرين • اذ نجد أن مصر قد أنشأت عناصر لمجتمع مدنى وحافظت على تلك العناصر علاوة على الفصل بين السلطات فى داخل نطاق الدولة على الرغم من تاريخها الطويل المتسم بالفاشستية (١) — ابتداء من الفراعنة ومرورا بمحمد على وكرومر وعبد الناصر والسادات • أما دول المغرب العربى — وهى تعتبر معزولة الى حد كبير عن التأثيرات النادرة الناجمة عن الصراع العربى / الاسرائيلى — فانها تظهر اتجاها واضحا نحو المزيد من الأنظمة السياسية التعددية • وفى دول الخليج العربى حيث الثروات الفجائية قد وضعت مزيدا من النفوذ الهائل فى أيدى أسراتها الملكية الحاكمة وبالتالى فى أيدى الدولة نجد أن قطاعا خاصا مزدهرا وآخذا

---

(١٠) الفاشستية : اخضاع الفرد وحقوقه اخضاعا كاملا لمصلحة الدولة —

فى التزايد فى المجالات التجارية والمالية والصناعية ـ وبتشجيع متعمد من نفس الحكام ـ يسحب السلطة تدريجيا وعلى نحو حتمى من الحكومة المركزية • وقد أنشأت الكويت حكومة نيابية مرتين من خلال برلمان منتخب ثم أقالت هاتين الحكومتين عندما أصبحتا جامحتين أكثر من اللازم • الا أن أسرة الصباح الحاكمة أبدت تصميمها على الابقاء على التجربة فى شكل ما من الأشكال ووعدت أثناء تواجدها فى المنفى منح المزيد من الديموقراطية لدى العودة الى الكويت • وفى جو مختلف نجد أنه حسين ملك الأردن الذى تأثر بعض الشىء بالأحداث التى وقعت فى أوربا الشرقية قام بتخفيف الشكل شبه العسكرى لحكومته من خلال اجراء انتخابات برلمانية حرة فى أكتوبر ١٩٨٩ فى محاولة واضحة لاضفاء الطابع الشرعى على حكمه فى مواجهة الانتقادات المتزايدة • ولكن على العكس من ذلك لا يوجد سوى قدر ضئيل للغاية من الجلاسنوست العربية فى سوريا والعراق حيث تظل السلطة فيهما مركزة فى أيدى رئيس الدولة ورئيس حزب البعث الحاكم على الرغم من تواجد الحركات التجميلية الرامية الى اعطاء طابع ليبرالى على الأنظمة السياسية والاقتصادية • وفى العراق عقب اذلال ايران فى حرب الخليج نجد أن عبادة الناس لشخصية صدام حسين المنتصر قد وصلت الى نسبة عالية للغاية •

واذا حدث تطور فى أى دولة من هذه الدول نحو انشاء مجتمع أكثر ليبرالية وديمقراطية وتعددية حزبية فانه قد يتعرض للاكتساح من خلال موجة الأصولية الاسلامية العسكرية • ولا ينبغى التقليل من خطورة هذا التهديد • وسواء أكان بمقدور الاسلاميين العمل على المكشوف كما هو الحال فى مصر والأردن ولبنان أو اضطرارهم الى العمل فى السر كما هو الحال فى سوريا والعراق فانهم يظهرون أنهم يتمتعون بالتأييد الفعال من جانب أقلية كبيرة العدد نسبيا من السكان والتعاطف السلبى من جانب أعداد كبيرة

للغاية • وهم عندما يلقون التسامح فى داخل أى مجتمع فانهم يميلون الى العمل فى داخل نطاق النظام السياسى وليس ضد ذلك النظام ـ وعادة ما يبدون اهتماما كبيرا بالاحتياجات الفورية الملحة لجماهير الشعب وعلى نحو يفوق ما تفعله البيروقراطية الرسمية • الا أن الطبيعة الاستبدادية للأيديولوجية الخاصة بهم ورفضهم العكوف على دراسة المشكلات الحقيقية للحكم فى الدولة الحديثة يجعل من المتعذر عليهم أن يتمكنوا من الحصول على السلطات غير المحدودة التى يسعون للحصول عليها من خلال الثورة المسلحة والعنف • وفى هذا الصدد نجد أن القوى التى تعارضهم فى الرأى مازالت قوية • فمعظم العرب يودون العيش فى مجتمع مفتوح متسم بالمزيد من التسامح • ويودون أن يحصل أطفالهم على تعليم أفضل فى داخل نظام لا يسيطر عليه متعصبون دينيون • وهم يفضلون العيش تحت ظل حكومات حديثة متسمة بالكفاءة وقادرة على تلبية الاحتياجات المعاصرة التى تكتسب طبيعة عالمية على نحو متزايد •

وقد تبدو الشعبية التى تتمتع بها الثورة الاسلامية الايرانية متناقضة مع هذه التأكيدات • ولكن ينبغى ألا ننسى أن هذه الثورة هى ثورة شيعية ايرانية وليست ثورة سنية عربية • ولا شىء قد دمر المفهوم الذهنى عن الثورة الاسلامية فى أذهان العرب أكثر من عدم التسامح والتعطش للدماء الذى اتسمت به الثورة الايرانية وأتباعها من أمثال أعضاء « حزب الله » الذين يسعون الى انشاء جمهورية اسلامية لبنانية • ويجب ألا ننسى أيضا أن حكام الثورة الايرانية منذ وفاة آية الله الخومينى قد أظهروا فى هدوء واقتناع ادراكهم بأنه ينبغى تعديل معظم جوانب الأيديولوجية المتشددة اذا ما أريد لايران أن تزدهر فى العالم الحديث •

وكان استيلاء العراق على الكويت فى أغسطس ١٩٩٠ وما تلى ذلك من أزمة عالمية حدثا شبيها بزلزال عالمى • وكان من المؤكد أن

تنجم عنه نتائج على نطاق واسع الا أنه كان من الصعب التنبؤ بحجم هذه النتائج وطبيعتها • فأولئك الذين سبق لهم اكتشاف اتجاهات واضحة فى مجتمع الشرق الأوسط مثل الاتجاهات نحو الأصولية الاسلامية أو كره الأجانب والخوف منهم أو الديموقراطية الليبرالية قد اضطروا لاعادة تفحص افتراضاتهم • كما أن عرب الشرق الأوسط قد وجدوا أنفسهم غارقين فى حالة من الفوضى والتشويش الأخلاقى والعاطفى مثل تلك الحالة التى كانوا عليها فى عام ١٩١٥ ـ ١٩٦١ عندما اضطروا لأن يختاروا ما بين الولاء للامبراطورية العثمانية التى تعتبر القوة الاسلامية الوحيدة فى العالم وانتهاز الفرصة التى تتيح خلق أمة عربيـــة مستقلة من خـلال عقـد تحالف مع الامبرياليين البريطانيين والفرنسيين •

واستغاث صدام حسين بالمشاعر الكامنة لدى العرب المليئة بالغضب والاستنكار بسبب اذلالهم الطويل على أيدى الغرب • وقام بخلط الأيديولوجية العلمانية للقومية العربية مع الاسلام • ودعا فى تبجح الى شن الجهاد أو الحرب المقدسة ضد السعوديين الذين تحالفوا مع الغرب من أجل الوقوف ضده • وهو فى هذا الصدد نجح فى البرهنة على أن القومية العربية والاسلام لا يمكن أن يستغنى أحدهما عن الآخر وبما يتمشى مع الآراء التى سبق أن موهت الى ذلك فى بعض الأحيان • وحققت استغاثته بعض النجاح • اذ نجد أن الكثيرين من المثقفين العرب الذين سبق لهم الاهتمام بمسائل حقوق الانسان والحاجة الى مجتمع عربى أكثر ليبرالية شعروا أن صدام حسين ــ مهما كان حكمه متسما بعدم الجاذبية قد قدم من خلال تحديه للغرب الأمل فى امكان انشاء نظام جديد فى الشرق الأوسط يتم من خلاله تعديل الحدود « الاصطناعية » المفروضة على شبه الجزيرة العربية بما يسمح توزيع الموارد الطبيعية الخاصة بها فى مزيد من العدل والانصاف • وتجاهل مثـل هؤلاء المثقفين الحقيقة التى مفادها أن أوربا الشرقية واليابان ومعظم دول العالم

الثالث بالاضافة الى الغرب قد اعتبروا صدام حسين بمثابة خطر مميت محدق بالنظام الجديد العالمى فى فترة ما بعد الحرب الباردة وليس كزعيم له آمال وطنية شرعية موغلة فى التحمس ·

وكانت النتيجة المباشرة لهذه الأزمة هى تمزق الاتجاه الذى كان يسير تدريجيا نحو الوحدة العربية · بل وأدت هذه الأزمة الى تحطم جامعة الدول العربية وتوقفها عن العمل · اذ قدم أمين عام الجامعة التونسى استقالته على الرغم من أن غالبية الأعضاء قد ارتأوا اعادة المقر الرئيسى من تونس الى القاهرة فى نوفمبر ١٩٩٠ · بل وأصبحت دول الأمة العربية أكثر انقساما مما كانوا عليه فى أى وقت مضى خلال تاريخهم البالغ من العمر سبعين عاما ·

ولم يكن بالمستطاع استقراء هذه الأحداث والتنبؤ بحدوثها فى المستقبل · ولم يكن يوجد دلائل تشير الى أن صدام حسين سيظل بمثابة شخصية ملهمة فى التاريخ العربى · فهو لم يكن عبد الناصر عراقى أو بسمارك عربى ولم يكن بكل تأكيد صلاح الدين القرن العشرين على النحو الذى كان يأمل فيه بعض العرب دون جدوى · [ولكن صدام حسين كان أقرب ما يكون الى موسولينى] · الا أنه بدون شك قد تسبب فى زعزعة وهز الأنظمة القائمة فى المشرق العربى - وخاصة فى شبه الجزيرة العربية · فالتهديد الذى قدمه صدام حسين قد دفع كافة الحكومات العربية الى محاولة الحصول على المزيد من التأييد الشعبى والموافقة على أسلوبها فى الحكم كما ظهر الاحتمال فى أن ينجم عن طموحاته العدوانية حركة تتجه نحو تحقيق المزيد من الحرية فى الحياة السياسية العربية · الا أن الاعتماد بأن صدام حسين سيقود العرب نحو عهد جديد ثورى يتخطى كل اذلالات الماضى كان اعتقادا عقيما شأنه شأن أى يوتوبيا أخرى ·

والمجموعة الرئيسية الثالثة من الناس الذين يسكنون فى الشرق الأوسط وهم الأتراك قد قدموا نموذجا مختلفا فى القرن

التشرين . فهم على العكس من العرب يتميزونه بأن وطنهم يشغل مساحة واحدة من الأراضي المتماسكة . ولذلك فهم ليس لديهم شعور بأنهم قد تعرضوا للتقسيم الاصطناعي .

وكان الانتقال السلمي من السلطة الأتاتوركية شبه الديكتاتورية الى الحزب الديموقراطي المعارض في عام ١٩٥٠ بمثابة انجاز كبير . الا أن الديموقراطية البرلمانية في تركيا كانت لا تزال هشة وضعيفة . وأحرز رئيس الوزراء الجديد عدنان مندريس نجاحات أولية من حيث اعادة الصناعات المؤممة الى الملكية الخاصة مرة أخرى ومن حيث تحرير الاقتصاد . كما كسب تأييد سكان المناطق الريفية من خلال قيامه بزيادة أسعار الطعام وتقديم تنازلات لصالح المشاعر الدينية . الا أن الزيادة في الانفاق الحكومي وظهور التضخم المالي قد أدى الى تزايد المعارضة من جانب الطبقة المتوسطة الحضرية والبيروقراطية وضباط الجيش الذين رأوا أن مندريس يجامل طبقة الفلاحين على حساب العناصر السكانية المصطبغة بالطابع الغربي . ولم يتسامح مندريس ازاء أية انتقادات وسارع الى شن القوانين التشريعية الخاصة به والتي تتسم بالمغالاة في الطابع الفاشستي . وفي مايو ١٩٦٠ قام الجيش بالاطاحة به والاستيلاء على السلطة [وتم محاكمته على وجه السرعة وشنقه] .

ولم تتعرض الديموقراطية التركية للزوال والاختفاء . ففي عام ١٩٦١ أوفى الجيش بتعهده وسلم السلطة لبرلمان منتخب تحت دستور معدل . وتم السماح للحزب الديموقراطي والذى اتخذ اسما جديدا : « حزب العدالة » باستئناف نشاطه . الا أن العديد من التهديدات للنظام البرلماني ظل قائما نظرا لأن حزب العدالة وحزب الشعب الجمهوري بعد أن فشلا في الحصول على الأغلبيات الكافية في الانتخابات شرعا في السعي نحو ممارسة الحكم من خلال ائتلافات مزعزعة من أحزاب صغيرة . ولقد فشل ادخال قانون

الأحكام العرفية فى معظم محافظات تركيا فى قمع العنف المتزايد من جانب أعضاء النقابات العمالية علاوة على العنف المتفجر بين طلبة الجناح الأيمن وطلبة الجناح الأيسر بالاضافة الى العنف الناجم عن النزع الطائفى مع الأقلية الشيعية ومع الأقلية الكردية فى الأماكن الشرقية من تركيا ٠ ومرة أخرى قام لجيش بانقلاب غير دموى فى سبتمبر ١٩٨٠ حيث قامت القوات المسلحة بالتدخل وحل الأحزاب السياسية ٠ ولكن الجيش فى هذه المرة أيضـا رفض اللجوء الى تطبيق أسلوب الديكتاتورية العسكرية ٠ وقامت جمعية تأسيسية بعمل مراجعة على الدستور ٠ وفى عام ١٩٨٣ أعطيت السلطة مرة أخرى لبرلمان منتخب وتم تخفيف القيود المفروضة على الحريـات المدنية تدريجيا رغم أن الكثير من سجلات حقوق الانسان فى تركيا ظلت تثير الانتقادات الكبيرة بين الدول الديموقراطية الغربية التى يشعر الحكام الأتراك أن بلادهم تنتمى اليها ٠

ولم يتقبل السكان الريفيون الأتراك فى أى وقت من الأوقات العلمانية الأتـاتوركية لأنهم تقـليديون ومهتمون بالتراث الدينى ٠ وبذلك فان تركيا لم تكن محصنة ضد النضال العسكرى الاسلامى فى خلال الثمانينات من عام ١٩٨٠ ٠ ومع ذلك يمكن القول أن فرص الاطاحة بالديموقراطية البرلمانية ستظل دائما فرصا ضئيلة ٠ لأن القوات المسـلحة التركية قد تدخلت مرتين من أجـل الحفاظ على الديموقراطية وليس من أجل تدميرها ٠

وهناك سببان ساهما فى تحول تركيا نحو الغرب : السبب الأول هو الشعور بأن اخوانهم فى الدين من العرب قد تخلوا عن تركيا عندما تحالفوا مع أعدائها فى الحرب العالمية الأولى ٠ والسبب الثانى هو أن الاصلاحات التى أدخلها مصطفى كمال أتاتورك والتى تدعمت من خلال ارتكازها على السبب الأول ٠

وفى عام ١٩٥٢ أظهرت تركيا مناصرتها للمعسكر الغربى أثناء الحرب الباردة عندما أصبحت عضوا كاملا فى حلف شمال الأطلنطى

وان كان الخوف من التوسع السوفييتى قد لعب دورا فى NATO ذلك • ولم تتأثر المصالح التركية ذات الاتجاه الغربى ــ من خلال انضمام تركيا لحلف بغداد الذى دام لفترة قصيرة فى خلال الخمسينات ــ الا بقدر ضئيل • ففى عام ١٩٦٣ قامت تركيا بالتوقيع على معاهدة الانضمام الى « المجتمع الاقتصادى الأوربى » مما جعل رئيس اللجنة الأوربية يشير الى أن « تركيا هى جزء من أوربا » كما قامت تركيا فى عام ١٩٨٠ بالتقدم بأول طلب لها لكى تحصل على العضوية الكاملة فى المجتمع الاقتصادى الأوربى • وظلت المشكلات مع اليونان بشأن قبرص وغيرها من المسائل الأخرى بمثابة عقبات أمام المصير الأوربى لتركيا ولكنها أيضا أكدت على الحقيقة التى مفادها أن اهتمامات ومصالح السياسة الخارجية لتركيا تتواجد فى أوربا وليس فى الشرق الأوسط •

الا أن تقدم تركيا بطلب رسمى من أجل أن تصبح العضو الثالث عشر فى السوق الأوربية المشتركة وهو الأمر الذى تأجل اصدار قرار بشأنه عدة مرات يعتبر أحد العوامل التى تتسبب فى احداث أزمة خطيرة فى الهوية التركية • اذ أن ذلك يثير مسألة ما اذا كان بمقدور دولة اسلامية ــ مهما كانت حياتها العامة متخذة الطابع العلمانى ــ أن تصبح على نحو حاسم جزءا من أوربا وتشكل فى داخل أوربا أقلية منعزلة • ومن المؤكد أن الشكوك ستظل قائمة بشأن ما اذا كان بالمستطاع الغاء تراث قرون من الكفاح من أجل النفوذ والسيطرة والذى تفجر بين الاسلام وأوربا المسيحية بهذه الطريقة •

ولسوف تحدث التغييرات الكاسحة التى حدثت فى أوربا الشرقية والاضطراب الهائل الذى تفجر فى داخل نطاق الاتحاد السوفييتى تأثيرات على الشرق الأوسط وان كان يتعذر معرفة النتائج المترتبة عليها على وجه الدقة • وفى حالة تفكك الاتحاد السوفييتى

فان العلاقــات بين الجمهوريات الاســلامية بأواسط آسيا سوف تتدعم بشكل واضح • ولقد أشار مؤرخ أرمينى الى أنهاذا انفصلت كل من جورجيا وأرمينيا عن حكومة موسكو فانه من الأرجح أن تتحالفا مع ايران •

واذا تلاشت الحرب الباردة تماما وأصبحت جزءا من الماضى واذا انسحبت أمريكا من أوربا فانه ســيكون من الصــعب عليها الاحتفاظ بدورها القيــادى المتعاظــم فى الشرق الأوسط وعندئذ سيصبح لأوربا دور أكثر أهمية فى الشرق الأوسط • الا أن ذلك الدور لن يتخذ الشكل شبه الاستعمارى السابق حيث ســيفضل العرب بكل تأكيد أن يكون هناك حوار الند للند بين كافة الدول التى تحدق بحوض البحر الأبيض المتوسط • ولكن لن يتم تجاهل الشرق الأوسط مهما كانت نوعية الأحداث التى ستتكشف فى داخل الشرق الأوسط وخارج نطاق حدوده •

عبد الحميد فهمى الجمال

ملاحظات بشأن المزيد من القراءة

Notes on Further Reading

لقد ركزت في هذا الكتاب على القرنين الماضيين منذ أن بدأ نابليون بونابرت الغزو الثانى للعالم الاسلامى على أيدى الغرب ـ الغزو الصليبى العلمانى ـ أما الخلفية التاريخية عن الأحد عشر قرنا السابقة منذ مجيئ الاسلام الذى أضفى الطابع العربى / الاسلامى على معظم أرجاء الشرق الأوسط فقد تم تغطيتها فى كتاب « تاريخ كمبردج للاسلام » [عدد ٢ جزء / كمبردج / ١٩٧١] ولكننا نوصى أيضا بقراءة الكتاب الجديد الصادر عن هذا الموضوع تحت عنوان « تاريخ المجتمعات الاسلامية » بقلم أ· م· لبيدوس [كمبردج / ١٩٨٨] · كما أن مجموعة المقالات التى أصدرها كل من : ج· شاخت + س· أ· بوسورث تحت عنوان « تراث الاسلام » [أكسفورد/١٩٧٤] تغطى كافة مظاهر المجتمع والحضارة الاسلامية· ومن أجل معرفة جوانب الاسلام الشيعى الذى يلعب دورا هاما فى التاريخ الحديث للشرق الأوسط فان كتاب « مدخل الى الاسلام الشيعى » بقلم م· موجان يقدم وصفا شاملا · وما زال الكتاب الذى ألفه أ· هـ· الحورانى تحت عنوان « الأقليات فى العالم العربى »

[لندن / ١٩٧٩] بمثابة الدراسة الوحيدة عن الأقليات الدينية والقومية المتبقية فى الدول العربية • وقد تم دراسة المسيحيين بصفة خاصة فى الكتاب الصادر تحت عنوان « المسيحيون فى المشرق العربى » بقلم ر• ب• بيت [لندن / ١٩٧٩] •

ويتسم كتاب « العرب فى التاريخ » بقلم ب• لويس [الطبعة الرابعة/لندن ١٩٦٨] بأنه مختصر ولكنه لا نظير له من حيث وصفه للعرب عندما كانوا فى ذروة نفوذهم ومجدهم • ويظهر المزيد من التاريخ التفصيلى عن التوسع العربى والامبراطورية العربية فى الكتب التى ألفها ج•ب جلوب وهى : « الغزوات العربية الكبرى » الأنظمة السياسية التعددية • وفى دول الخليج العربى حيث الثروة [لندن / ١٩٦٣] + « امبراطورية العرب » [لندن / ١٩٦٣] + « القرون الأخيرة ابتداء من الامبراطوريات الاسلامية الى عصر النهضة الأوربية ١٤٤٥ ـ ١٤٥٣ » [لندن /١٩٦٧] •

وعن الغزو الغربى الأول للشرق الأوسط يمكن للقارىء الرجوع الى المرجع الضخم الهام الصادر تحت عنوان « تاريخ الحروب الصليبية » [عدد ٣ مجلد / هارموندز ويرث / ١٩٧٨] بقلم ستيفين رونسمان رغم أن ذلك الكتاب قد تفوقت عليه فى بعض النواحى دراسة حديثة صدرت مؤخرا • فأنا شخصيا أفضل كتاب « الغزوات الصليبية من وجهة نظر العرب » بقلم أ• معلوف [لندن/ ١٩٨٤ [•

والكتاب الذى قمت بتأليفه تحت عنوان « العرب » [الطبعة الثانية / هارموندز ويرث / ١٩٨٥] كان بمثابة محاولة من جانبى لعرض قصة الشعوب العربية بحيث تشتمل على الفترات الحديثة • الا أن كتاب « تاريخ الشعوب العربية » بقلم أ• هـ• الحورانى [لندن / ١٩٩١] أصبح من المراجع التى لا يمكن الاستغناء عنها • كما أن كتاب « العرب : تاريخهم ومستقبلهم » بقلم ج• بيرك

[لندن / ١٩٦٤] يقدم وجهة نظر مؤرخ فرنسي بارز عن العرب والاسلام .

والكتاب الذى ألفه أكاديمى فرنسى آخر هو : م. رود ينصون تحت عنوان « الاسلام والرأسمالية » [لندن ١٩٦٦] يساعد على القاء الضوء على الفصل الثانى من كتابى « تاريخ الشرق الأوسط » . كما أن كتاب اللورد كيزوس الصادر تحت عنوان : « القرون العثمانية : صعود وسقوط الامبراطورية التركية » [لندن / ١٩٧٧] يمكن الاعتماد عليه من حيث هو وصف لآخر دولة عالمية اسلامية . كما أن كتاب « بزوغ تركيا الحديثة » بقلم ب. لويس [الطبعة الثانية / لندن / ١٩٦٨] يظل هو أفضل تاريخ تناول تحول أراضيها الرئيسية الى الجمهورية التركية . وكذلك نجد أن كتاب « مصر فى عهد محمد على » بقلم أ. لطفى السيد مرصوت [كمبردج / ١٩٨٤] يعتبر دراسة هامة بقلم مؤرخ مصرى عن النفوذ الاسلامى الذى كاد أن يحل محل الامبراطورية العثمانية .

ومازال كتاب « مصر الحديثة بقلم اللورد كرومر [عدد ٢ مجلد / لندن / ١٩٠٨] ضروريا ليس فقط بالنسبة لوصفه للاحتلال البريطانى ولكن أيضا من حيث هو عرض كلاسيكى لوجهة النظر الامبريالية البريطانية عن الشرق الأوسط . ويمكن مقارنته بوجهة النظر الفرنسية الواردة فى الكتاب الصادر تحت عنوان « مصر : النظام الامبريالى والثورة » بقلم ج. بيرك [لندن /١٩٧٢] وبوجهة النظر المصرية الواردة فى كتاب « مصر وكرومر : دراسة فى العلاقات الأنجلو / مصرية » بقلم أ. لطفى السيد مرصوت الأكاديمى المصرى وربما يمكن مقارنته أيضا بكتاب « البريطانيون فى مصر » بقلم بيتر مانسفيلد [لندن / ١٩٧١] .

وبالنسبة لتطور القومية العربية والعلاقات بين العرب والأتراك فاننا نرى أن كتاب « القومية العربية : مقتطفات مختارة »

الذى أصدره س· حاييم يظل بالغ الأهمية · وهنـاك كتاب هام أيضا تناول نفس هذا الموضوع وصدر تحت عنوان « من العثمانية الى القومية العربية : مقالات عن نشوء القومية العربية » بقلم أ· داون [شيكاغو / ١٩٧٣] · وما يزال كتاب « اليقظة العربية : قصة الحركة الوطنية العربية » [بيروت ١٩٦٢] بقلم الفلسطينى جورج أنطونيوس فريدا من نوعه من حيث الطريقة التى شكل بها تفكير جيل من الناس ولكن ينبغي أن تتم مقارنة بينه وبين وجهة النظر المختلفة للباحث ز· زين الواردة في كتابه « العلاقـات العربية / التركية وبزوغ القومية العربية » [بيروت ١٩٥٨] ·

وعن موضوع التحديث وتأثير الغرب على الشرق الأوسـط نجد أن الكتاب الذى ألفه أ· هـ· الحارونى تحت عنوان « الفكر العربى فى العصر الليبرالى ١٧٩٨ — ١٩٣٩ » [الطبعة الثانية / لندن /١٩٨٣] وكذلك مجموعتى مقالاته : «أوربا والشرق الأوسط» [لندن / ١٩٨٠] + « بزوغ الشرق الأوسط الحديث » [لندن/ ١٩٨١] تعتبر مفيدة للغاية · وكذلك نجد أن كتاب « بدايات التحديث فى الشرق الأوسط : القرن التاسع عشر » بقلم كل من : و· ر· بولك + ر· أ· شامبرز [شـيكاغو / ١٩٦٨] مليئا بالمعلومات المفيدة للغاية · كما توجد دراسة واضحة وشاملة عن هذا الموضوع فى كتاب « الشرق الأوسط فى الاقتصاد العالمى : ١٨٠٠ ـ ١٩١٤ » بقلم ر· أوين · وهناك مرجع هام فريد من نوعه من تأليف ج· س هيور ويتز صادر تحت عنوان « الشرق الأوسط وشمال أفريقيا فى سياسات العالم / سجل وثائقى : الجزء الأول التوسع الأوربى من عام ١٥٣٥ حتى ١٩١٤ » [الطبعة الثانية / نيوهافن / ١٩٧٥] والجزء الثانى السياسة الأنجلو / فرنسية ١٩١٤ ـ ١٩٤٥ [الطبعة الثانية نيوهافن ١٩٧٩] ·

كما أن كتاب السير ب· م· سايكس الصادر تحت عنوان « تاريخ بلاد الفرس » [الطبعة الثالثة / جزءين / لندن / ١٩٣٠]

ما زال يحتفظ بأهميته البالغة بالنسبة للفترة السابقة على عهد رضا شاه • كما أن كتاب « فترة تفوق بريطانيا فى الشرق الأوسط ١٩١٤ ـ ١٩٧١ » بقلم أ• مونرو [طبعة جديدة ومنقحة / لندن / ١٩٨١] له أهمية كبيرة فى وصفه لموضوعه • كما يعتبر كتاب ب• س• خورى الصادر عنوان « سوريا والانتداب الفرنسى : سياسات القومية العربية ١٩٢٠ ـ ١٩٤٥ » دراسة متعمقة عن الدور الفرنسى خلال فترة النفوذ الأنجلو / فرنسى فى المشرق العربى • كما أن كتاب ج ولسون الصادر تحت عنوان « البيوجرافيا المجازة ل ب• أ• لورانس » [١٩٨٧] يعتبر مرجعا شاملا حيث يغطى معظم جوانب هذه الفترة من التاريخ العربى الحديث •

وبالنسبة لتركيا منذ زوال الامبراطورية العثمانية يوجد كتاب من تأليف اللورد كيزوس تحت عنوان « أتاتورك : بعث أمة » [الطبعة الخامسة / لندن / ١٩٧١] • وبالنسبة لفترة ما بعد أتاتورك والتى تميزت بالديموقراطية التركية المضطربة يوجد كتاب من تأليف ج• لويس تحت عنوان « تركيا الحديثة » [الطبعة الرابعة / لندن / ١٩٨١] • ويتم تغطية ايران فى الفترة الحديثة قبل الثورة لاسلامية فى كتاب من تأليف ب• أفيرى صادر تحت عنوان « ايران الحديثة » [لندن ١٩٦٥] وفى كتاب آخر من تأليف ن• كيدى صادر تحت عنوان «ايران : الديانة والسياسات والمجتمع» [لندن / ١٩٨٠] • كما يوجد وصف مفيد لهذه السلسلة من الأحداث الحاسمة فى التاريخ الحديث للشرق الأوسط من تأليف كل من : ج• أ• بيل + ن• ر• لويس تحت عنوان « مصدق والقومية الايرانية والبترول » [لندن / ١٩٨٨] •

وهناك مؤلفات عديدة عن الدول العربية منذ انتهاء الامبراطورية العثمانية وتمكنها فى نهاية الأمر من الحصول على الاستقلال التام عن الدول الأوربية :

١ ـ مصر :

ونوصى بقراءة كتاب « التاريخ الحديث لمصر » بقلم ب • ج• فاتيكيوتيس [لندن / ١٩٦٩] وكتاب « مصر الحديثة » بقلم ت• ليتل [لندن/١٩٦٧] • وما زال الكتاب الذى ألفه جمال عبد الناصر تحت عنوان « تحرير مصر : فلسفة الثورة » [بافالو / ١٩٥٩] يعتبر بمثابة بيان رسمى مشتمل على بذور التطور فى المستقبل • كما أن الكتاب الذى ألفه أنتونى ناتينج تحت عنوان « عبد الناصر » يعتبر بيوجرافيا بارزة • كما أن الكتاب الذى ألفه بيتر مانسفيلد تحت عنوان « مصر فى عهد عبد الناصر » يعتبر محاولة لتحديد انجازات عبد الناصر خلال فترة حياته • ويكشف لنا الكتاب الذى ألفه أنور السادات تحت عنوان « البحث عن الذات : سيرة ذاتية » [لندن / ١٩٧٨] الاختلاف الكبير فى وجهة النظر لدى خليفة عبد الناصر • كما أن الكتاب الصادر تحت عنوان « السويس١٩٥٦ : الأزمة ونتائجها » [أكسفورد / ١٩٨٩] بقلم كل من : و• ر• لويس + ر• أوين يقدم لنا تقييما جوهريا لهذا الخط الفاصل فى التاريخ الحديث للشرق الأوسط •

والجدير بالذكر أن جميع المؤلفات التى كتبها محمد حسنين هيكل الصحفى الأول فى مصر والصديق الحميم لجمال عبد الناصر تقدم لنا تبصرا هاما للغاية وخاصة كتابه الصادر تحت عنوان « الطريق الى رمضان » [لندن / ١٩٧٥] بشأن الاستعدادات العربية لخوض معركة١٩٧٣! وكتابه تحت عنوان « خريف الغضب » [لندن / ١٩٨٣] الذى يتناول فيه الأحداث التى أدت الى اغتيال أنور السادات • كما نوحى بقراءة الكتاب الذى ألفه د• هوبورد تحت عنوان « مصر : السياسات والمجتمع ١٩٤٥ ـ ١٩٨١ » وكذلك الكتاب الذى أعده أ• ماك ديرموت تحت عنوان « مصر من عهد عبد الناصر الى عهد مبارك : ثورة متصدعة » [لندن ١٩٨٨] حيث يحتوياته على تقييم مفيد لفترة ما بعد الثورة المصرية •

٢ ـ سوريا :

يغطي كتاب «سوريا ولبنان» من تأليف ن٠ أ٠ زيادة [تروى/ ١٩٦٨] فترة الانتداب الفرنسي والسنوات الأولى عقب الحصول على الاستقلال ٠ كما يوجد كتابان من تأليف باتريك سيل لهما أهمية كبيرة ليس فقط بالنسبة للشئون السورية ولكن أيضا بالنسبة لتاريخ العالم العربي في فترة ما بعد الحرب : كتاب « الكفاح من أجل سوريا : دراسة السياسات العربية في فترة ما بعد الحرب ١٩٤٥ ـ ١٩٥٨ » [الطبعة الثانية / لندن/١٩٧٢] وكتاب « الأسد : الكفاح من أجل الشرق الأوسط » [لندن / ١٩٨٨] ٠ ومازال الكتاب الذى ألفه ت٠ بيتران تحت عنوان « سوريا » [لندن / ١٩٧٢] له أهمية كبيرة ٠ وكذلك نجد أن الكتاب الذى ألفه د٠ هوبوود تحت عنوان « سوريا : السياسات والمجتمع ١٩٤٨ ـ ١٩٦٥ » يعتبر دراسة مختصرة وممتازة عن الموضوع الذى يتناوله ٠ أما الكتاب الذى ألفه م٠ ماعوز تحت عنوان « الأسد : أبو الهول الخاص بدمشق » [لندن / ١٩٨٨] فيقدم وجهة نظر اسرائيلية مفيدة ٠

٣ ـ لبنان :

أولا وقبل كل شيء توجد مؤلفات المؤرخ اللبنانى كمال صنيبى وخاصة الكتب الآتية :

- التاريخ الحديث للبنان [لندن / ١٩٧٧] ٠
- مفترق الطرق نحو حرب أهلية : لبنان ١٩٥٨ ـ ١٩٧٦ [دالمار / ١٩٧٦] ٠
- مقر أخوية دينية يضم بيوتا عديدة : اعادة النظر الى تاريخ لبنان [لندن / ١٩٨٨] ٠

كما توجد هناك كتب عديدة من تأليف مراقبين غربيين عن مأساة لبنان الحديثة من بينها كتاب من تأليف هـ· كوبان تحت عنوان « خلق لبنان الحديثة » [لندن ١٩٨٥] وكتاب من تأليف ج· س· راندال تحت عنوان : « التمادى آلهة الحرب المسيحيين والمغامرات الاسرائيلية والحرب فى لبنان » [نيويورك ١٩٧٣] وهما يعتبران أحسن هذه الكتب · وكذلك نجد أن كتاب « الحرب الاسرائيلية فى لبنان » من تأليف كل من : ز· شيف + أ· يعارى [نيويورك / ١٩٨٤] يضيف البعد الاسرائيلى · ولكن من الواضح تعذر اعداد كتابات معاصرة عن لبنان الحديثة ·

٤ ـ الأردن :

يتناول كتاب « الملك عبد الله وبريطانيا وخلق الأردن » من تأليف م· ولسون [كمبردج ١٩٨٧] فترة الانتداب والسنوات الأولى من الاستقلال مثلما هو وارد فى كتاب « الأردن » بقلم أ· ديردين [لندن / ١٩٥٨] · كما أن السيرة الذاتية التى كتبها حسين ملك الأردن الصادرة فى لندن عام ١٩٦٢ يمكن أن تقرأ فى ضوء الربط بينها وبين المعلومات الواردة فى كتاب « حسين ملك الأردن » [لندن ١٩٨٩] والذى يتناول تقييما للملك حسين عقب قضائه ٣٥ عاما ملكا على الأردن · كما أن الكتاب الذى ألفه ب· جوبسار تحت عنوان « الأردن : مفترق الطرق فى الأحداث الشرق أوسطية » [لندن / ١٩٧٩] يضع المملكة الأردنية فى بيئتها الحديثة رغم أن الأحداث الأخيرة تشيرا الى أن الدور الأردنى يتعرض لتغييرات مستمرة ·

٥ ـ العراق :

يظل كتاب « العراق من عام ١٩٠٠ الى عام ١٩٥٠ » بقلم س· لونجريج [لندن / ١٩٥٣] أفضل الكتب التى تناولت الفترة الأولى المعاصر ةفى العراق · أما بالنسبة للفترات القريبة للغاية فقد صدر

كتاب « التاريخ الحديث للعراق » [بولدر + لندن / ١٩٨٥] بقلم ب· مار وكتاب « العراق منذ عام ١٩٥٨ : من الثورة الى الديكتاتورية » [لندن / ١٩٨٧] بقلم كل من : ب· سلوجليت + م· فاروق ــ سلوجليت · أما الكتاب الصادر تحت عنوان « الطبقات الاجتماعية القديمة والحركات الثورية فى العراق : دراسة عن الطبقات التجارية وكبار ملاك الأراضى القدامى بالعراق والشيوعيين العراقيين والبعثيين والضباط الأحرار » بقلم هـ· باتو [برنستون / ١٩٧٨] فيعتبر دراسة رائعة وفريدة من نوعها عن المجتمع العراقى المعاصر ·

٦ ــ شبه الجزيرة العربيه والخليج :

يشتمل كتاب « المملكة العربية السعودية » بقلم ب فيلبى [لندن / ١٩٦٨] على وصف تفصيلى للمملكة العربية السعودية قبل أن تصبح دولة غنية · وتقدم لنا الدراستان الحديثتان اللتان ظهرتا عن المملكة العربية السعودية فى آن واحد وهما : « المملكة » بقلم ر· لاسى [لنــدن / ١٩٨٢] و « بيت ســعود » بقلم كل من : د· هولدين + ر· جونز تاريخا حديثا شاملا للغاية · كما أن كتاب « المملكة العربية السعودية : دراسة فى التنمية » بقلم ف· الفارسى [طبعة ثانية منقحة / لندن / ١٩٨٣] يشتمل على وصف واقعى بمعرفة أحد كبار الموظفين المسئولين السعوديين · كما نوصى أيضا بقراءة الدراستين الحديثتين الأمريكيتين : كتاب « المملكة العربية السعودية فى الثمانينات من عام ١٩٨٠ : السياسة الخارجية والأمن والبترول » [وشنجتن / ١٩٨١] بقــلم و· كوانديت وكتــاب « البترول والعمالة فى الشرق الأوسط : المملكة العربية السعودية والازدهار البترولى » بقلم ب· ن· وود وارد [نيويورك ١٩٨٨] كما نوصى بقراءة كتاب « التاريخ الحديث للكويت ١٧٥٠ ــ ١٩٦٥ » بقلم أ· م· أبو حكيمة [لندن / ١٩٨٣] أما بالنسبة للفترة الأكثر

حداثة فنوصي بقراءة كتاب « الكويت : دلائل المستقبل والحقائق الواقعة » بقلم كل من : هـ ٠ ف٠ أ٠ ونستون + ز٠ فريث [لندن/ ١٩٧٩] ٠ كما موصى بقراءة كتاب « الامارات العربية المتحدة فى التسعينات من عام ١٩٩٠ » بقلم ن٠ صقر [لندن / ١٩٨٦] وكذلك كتاب « انشاء دول الخليج الحديثة » بقلم ر٠ س٠ زحلان [لندن / ١٩٨٩] ٠ كما يقدم لنا ر٠ بيدويل دراسة أكاديمية ممتعة عن جنوب شبه الجزيرة العربية فى كتابه الصادر تحت عنوان « دولتا اليمن » [لندن / ١٩٨٣] كما توجد وجهة نظر راديكالية مفيدة عن شبه الجزيرة العربية فى كتابه الصادر تحت عنوان « المملكة العربية السعودية بدون سلاطين » [هارموندز ويرث ١٩٧٤] ٠

٧ - اسرائيل / فلسطين :

ان مجموع ما كتب عن اسرائيل وفلسطين سواء أكانت المعالجة تضم الموضوعين فى آن واحد أو منفردة كثير للغاية ومتزايد بسرعة حتى أن الكتابات المعاصرة سرعان ما تصبح قديمة بسبب عدم ملاحقتها الأحداث والتطورات ٠ ونود أن نشير هنا الى أن كتاب « تاريخ الصهيونية » بقلم و٠ ز٠ لاكوير [لندن / ١٩٧٢] يقدم لنا خلفية هامة عن اسرائيل كما أن كتاب « مفترق الطرق الى اسرائيل » بقلم س٠ سايكس [لندن / ١٩٦٥] يظل هو أفضل كتاب يتناول وصف الحركات والأدوار التى أدت الى خلق دولة اسرائيل وان كان المؤرخ الاسرائيلى آفى شاليم يقدم لنا معلومات جديدة مذهلة فى كتابه الصادر تحت عنوان « عبر الأردن : الملك عبد الله والحركة الصهيونية وتقسيم فلسطين » [اكسفورد١٩٨٨] ٠ كما أن كتاب « النبى المسلح : بيوجرافيا عن بن جوريون » بقلم م٠ بار - زوهار [لندن / ١٩٦٧] يلقى الضوء على خلق دولة اسرائيل والسنوات الأولى من حياتها ٠ كما أن كتاب « التاريخ

الحديث لاسرائيل » بقلم ن· لوكاس [نيويورك / ١٩٧٧] يعتبر بمثابة تاريخ ممتاز للثلاثين سنة الأولى من حياة اسرائيل · ومن الكتب الهامة الوثيقة الصلة بهذا الموضوع : كتاب « ضباط الجيش والسياسات فى اسرائيل : بناء الأمة وتوسيع الدور » بقلم أ· بيرلموتار [لندن / ١٩٦٩] وكتاب « ما بين المعارك وأوراق الاقتراع فى الانتخابات : العسكرية الاسرائيلية فى السياسات » بقلم ى· بيرى [كمبردج / ١٩٨٣] · كما أن كتاب « حياتى » بقلم جولدا مائير [لنـدن / ١٩٧٥] يعبر عن السياسـات الصهيونية ذات الطراز القديم بينما كتاب «المحارب» بقلم أريل شارون] نيويورك + لندن / ١٩٨٩ [يعبر عن السياسات المستقبلية · كما توجد العديد من المقـالات النقدية الهامة التى تتنـاول السياسـات الرسمية الاسرائيلية من بينها : مقال « اسرائيل : الأساطير والحقائق » بقلم س· فلابان [لندن/١٩٨٧] ومقال « القرارات المميتة الاسرائيلية » بقلم ى· حاركابى · ومن الدراسات البارزة المتعاطفة مع العرب الفلسطينيين كتاب « المدفـع وغصن الزيتون : جذور العنف فى الشرق الأوسـط » بقلم د· هيرست [لنـدن ١٩٧٧] وكتـاب « عرفات : هل هو ارهابى أو صانـع للسلام ؟ » بقلم أ· هـارت [لندن / ١٩٨٤] · ويعتبر كتاب « وراء الأسطورة : ياسر عرفات والثورة الفلسطينية » بقلم كل من : أندرو جووار + تونى ووكار [لندن / ١٩٩٠] بمثابة مساهمة جديدة كبرى · وهناك عدد متزايد من المؤلفات والكتب بقلم كتاب فلسطينيين من أمثال : هـ· القطـان الذى ألف كتاب « فلسطين والقـانون الدولى والنواحى القانونية للصراع العربى / الاسرائيلى » [الطبقة الثانية / لندن / ١٩٧٦] وكذلك أ· و· سعيد الذى ألف كتاب « قضية فلسطين » [لندن / ١٩٨٠] وكذلك م· طربوش الذى ألف كتاب « تأملات شخص فلسطينى » [واشنطن العاصمة /١٩٨٦] ·

وعن العلاقات بين الشرق الأوسط والدول العظمى يعتبر كتاب « أبو الهول والكوميسار » بقلم م· هيكل [لندن ١٩٧٨] بمثابة مساهمة كبرى فى هذا المجال · كما أن كتاب « الاتحاد السوفييتى وسوريا وسنوات الأسد » بقلم أ· الكرش [لندن ١٩٨٨] يعتبر كتابا موضوعيا مفيدا من تأليف شخص اسرائيلى· أما التاريخ العام للعلاقات الأمريكية مع الشرق الأوسط فما زال بحاجة الى تواجد مؤلف اخبارى للأحداث وفق تسلسلها الزمنى والى أن يظهر ذلك المؤرخ يوجد حاليا كتاب «أمريكا والعالم العربى» بقلم و· ر· فولك [كمبردج / ماسك / ١٩٦٥] بالاضافة الى تواجد المذكرات الشخصية مثل مذكرات جيمى كارتر الصادرة تحت عنوان « دماء ابراهام فى داخل نطاق الشرق الأوسط » [ونستون + لندن / ١٩٨٥] وبعض فقرات واردة فى كتاب من تأليف هنرى كسينجر وصادر تحت عنوانه « سنوات البيت الأبيض » [نيويورك + لندن/ ١٩٧٩] وفى كتاب آخر لهنرى كسينجر صادر تحت عنوان « سنوات الاضرابات العظمى » [نيويورك + لندن / ١٩٢٨] · أما كتاب « الكل يسقط : المواجهة المصيرية لأمريكا مع ايران » بقلم ج· سيك [لندن ١٩٨٥] فانه يلقى الضوء على الأسباب التى أدت الى هزيمة أمريكا فى جزء من الشرق الأوسط ·

أما عن الدور الذى يلعبه البترول فى تاريخ الشرق الأوسط فاننا نجد كتاب « البترول فى الشرق الأوسط » بقلم س· هـ· لونجريج [الطبعة الثالثة / لندن / ١٩٨٨] وكتاب « بترول الشرق الأوسط » بقلم ج· و· ستوكينج [لندن ١٩٧١] وهما كتابان ممتازان عن الفترة التى أصبحت فيها شركات البترول مسيطرة· أما كتاب « الأخوات السبعة » بقلم أ· سامبسون [لندن/ ١٩٧٥] فانه يتناول الانهيار الذى أصاب الشركات البترولية وتكوين منظمة الأوبيك · وليس من المدهش عدم تواجد دراسة عامة عن بترول الشرق الأوسط منذ ذلك الحين نظرا لصعوبة

وتعقيدات هذا الموضوع • كما أن أقدار وثروات ودلائل المستقبل الخاصة بالأوبيك تتعرض للتغيير السريع مما يجعل أى تاريخ يتحول بسرعة الى تاريخ غير معاصر • ومع ذلك فيوجد هناك كتاب « الأوبيك : ٢٥ عاما من الأسعار والسياسات » بقلم أ• سكيت [كمبردج ١٩٨٨] وكذلك كتاب « الأوبيك : العملاق المتضائل » بقلم م• أرارى [كنتاكى ١٩٨٨] الذى يعتبر تقييما حديثا متسما بالتشاؤم • ويعتبر كتاب « البترول والتنمية فى دول الخليج العربى » بقلم و• أ• الشريف ببلوجوغرافيا لها قيمتها ومليئة بالحواشي والتذييلات •

كما نجد أن اعادة التوكيد الاسلامي والثورة الاسلامية الايرانية قد تناولتها العديد من الكتب المختلفة من حيث الجودة • ومن بين هذه الكتب كتابان صمدا أمام اختبارات الزمن وهما : كتاب « العقيدة والنفوذ : سياسات الاسلام » بقلم أ• مورتيمار [لندن / ١٩٨٢] وكتاب « الاسلام فى العالم » بقلم م• روثفين [هارموندز ويرث / ١٩٨٤] • ومن أهم المؤلفات التى صدرت عن الثورة الخومينية كتاب « حكم آيات الله : ايران والثورة الاسلامية » بقلم س• باخاش وكذلك كتاب « عباءة النبى : الدين والسياسات فى ايران » بقلم ر• مطهيدة [لندن / ١٩٨٦] الذى يتضمن تحليلا رائعا لأسلاف وأجداد الثورة • وأفضل دراسة تمت عن حرب الخليج حتى الآن هى كتاب « ايران والعراق فى مواجهة حربية » بقلم كل من : س• شوبين + س• سريب [لندن/١٩٨٨] •

أما المستقبل السياسى فى الشرق الأوسط فانه قد ترك على ما يبدو للمنجمين ولكن هناك بعض المحاولات الجديرة بالاهتمام الرامية الى تحليل الأوضاع الراهنة مع ربطها بالمستقبل الى حد ما • ومن بينها كتابان من اعداد مؤلفين لبنانيين : كتاب « الورطة العربية : الفكر السياسى والممارسة السياسية العربية منذ عام ١٩٦٧ » بقلم ف• عجمى [كمبردج ١٩٨١] وكتاب « تمزيق الشرق الأوسط

الى شطايا » بقلم ج كورم [لندن/١٩٨٨] . كما توجد أيضا مجموعتان ممتازتان من المقالات : المجموعة الأولى تحت عنوان : « العشر سنوات العربية القادمة والاختيارات المستقبلية » بقلم هـ. شرابى [بولدار + لندن / ١٩٨٨] والمجموعة الثانية صدرت فى أربعة أجزاء ونشرت بمعرفة جياكوموا رئيس معهد الشئون الدولية فى روما تحت عنوان « الدولة والتكامل فى العالم العربى » [لندن + نيويورك / ١٩٨٨] . كما أن كتاب « الاقتصاد العربى ١٩٣٠ ـ ١٩٨٠ : أداء الماضي ودلائل المستقبل » بقلم ى. الصايغ [اكسفورد ١٩٨٢] قد كتبه أحد كبار رجال الاقتصاد فى العالم العربى كله .

وبالنسبة للمراجع العامة فان مطبوعات أوربا التى تصدر تحت عنوان « الشرق الأوسط وشمال أفريقيا » [لندن ١٩٤٨] تطبع سنويا . وهناك مرجعان آخران لهما أهمية كبرى أحدهما : أنسكلوبيديا كمبردج لشئون الشروط الأوسط وشمال أفريقيا [كمبردج ١٩٨٨] ورئيس التحرير التنفيذى بها هو : تريفور موستين . ورئيس التحرير الاستشارى مها هو ألبرت حورانى أما المرجع الآخر فهو : الطبعة الثانية المنقحة لكتاب « الشرق الأوسط » الذى صدر فى سلسلة « كتيبات العالم الحديث » [نيويورك + آكسفورد / ١٩٨٧] والتى يشرف على تحريرها مايكل آدمز .

عبد الحميد فهمى الجمال

الفهـــــرس

مكتبة الأسرة



عدد ممتاز
بسعر رمزى جنيهان
بمناسبة

مهرجان القراءة للجميع ١٩٩٦

مطابع
الهيئة المصرية العامة للكتاب